السيرة الحلبية

في

سيرة الأمين المأمون

إنسان العيون

تأليف

علي بن برهان الدين الحلبي

(٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ)

المجلد الثاني

دار المعرفة

بيروت - لبنان

السيرة الحلبية

في

سيرة الأمين المأمون

إنسان العيون

تأليف

علي بن برهان الدين الحلبي

(٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ)

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة
وسبب رجوع من هاجر إليها من المسلمين إلى مكة
وإسلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مانزل بالمسلمين من توالى الأذى عليهم من كفار قريش مع عدم قدرته على إنقاذهم مما هم فيه ، قال لهم: تفرقوا فى الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم ؛ قالوا: إلى أين نذهب ؟ قال : هاهنا وأشار بيده إلى جهة أرض الحبشة ؛ قال : وفى رواية « قال لهم اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ؛ أى وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » انتهى . أى ويجوز أن يكون قال ذلك عند استفساره صلى الله عليه وسلم عن محل إشارته . فقد جاء فى الحديث « من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم » فهاجر إليها ناس ذو عدد مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله تعالى بدينهم. ومنهم من هاجر بأهله . ومنهم من هاجر بنفسه ؛ فمن هاجر بأهله عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، هاجر ومعه زوجته رقية بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أول خارج . وقيل أول من هاجر إلى الحبشة حاطب بن أبى عمرو . وقيل سليط بن عمرو ، ولا ينافيهما قوله صلى الله عليه وسلم « إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » [] أى حيث (قال إنى مهاجر إلى ربى) فهاجر إلى عمه إبراهيم الخليل ، ثم هاجرا عليهما الصلاة والسلام حتى أتيا حران ، ثم هاجرا إلى أن نزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلسطين ، ونزل لوط عليه الصلاة والسلام المؤتفكة .

ووجه عدم المنافى أن كلا من حاطب وسليط يجوز أن يكون هاجر بغير أهله وكان مع رقية أم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم ، وكانت رقية رضى الله تعالى عنها ذات جمال بارع وكذا عثمان رضى الله تعالى عنه ، ومن ثم كان النساء يغنينهما بقولهن :

أحسن شيء قد يرى إنسان رقية وبعدها عثمان

ومن ثم ذكر « أنه صلى الله عليه وسلم بعث رجلا إلى عثمان ورقية رضى الله تعالى عنهما فاحتبس عليه الرسول ، فلما جاء إليه قال له صلى الله عليه وسلم : إن شئت أخبرتك ماحبسك؟ قال نعم ، قال : وقفت تنظر إلى عثمان ورقية تعجب من حسنهما » أى ومعلوم أن ذلك كان قبل آية الحجاب .

ويذكر أن نفرا من الحبشة كانوا ينظرون إليها فتأذت من ذلك فدعت عليهم فقتلوا جميعا . وقد جاء فى وصف حسن عثمان رضى الله تعالى عنه قوله صلى الله عليه وسلم « قال لى جبريل : إن أردت أن تنظر من أهل الأرض شبيه يوسف الصديق فانظر إلى عثمان بن عفان » وسيأتى ذلك مع زيادة .

وأبو سلمة هاجر ومعه زوجته أم سلمة : أى وقيل هو أول من هاجر بأهله ، وهو مخالف للرواية السابقة أن عثمان أول من هاجر بأهله . ويمكن أن تكون الأولية فيه إضافية فلا ينافى ما سبق عن عثمان .

وعامر بن ربيعة هاجر ومعه امرأته ليلى : أى وعنها رضى الله تعالى عنها كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من أشد الناس علينا فى إسلامنا ، فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا بعمر بن الخطاب ، فقال لى : إلى أين يا أم عبد الله ؟ فقلت : قد آذيتمونا فى ديننا ، نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى ، فقال صحبكم الله ، ثم ذهب فجاء زوجى عامر فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ، فقال : ترجين أن يسلم عمر ، والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب : أى استبعادا لما كان يرى من قسوته وشدته على أهل الإسلام ، وهذا دليل على أن إسلام عمر كان بعد الهجرة الأولى للحبشة ، وهو كذلك : أى خلافا لمن قال إنه كان تمام الأربعين من المسلمين : أى ممن أسلم .

وفيه أن المجاهرين إلى أرض الحبشة كانوا فوق ثمانين كما قاله بعضهم ، اللهم إلا أن يقال إنه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين إلى أرض الحبشة ، وربما يدل لذلك قول عائشة رضى الله تعالى عنها فى قصة الصديق وفى ضرب قريش له رضى الله تعالى عنه

لما قام خطيبا فى المسجد الحرام ، وقد تقدمت حيث قالت : وكان المسلمون تسعة وثلاثين رجلا ، لكن فى الرواية أنهم قاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون رجلا ، وقد كان حمزة بن عبد المطلب أسلم يوم ضرب أبو بكر فليتأمل .

وفى لفظ عن أم عبد الله زوج عامر قالت : إنا لنرحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر ، تعنى زوجها ، إلى بعض حاجته ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علىّ وكنا نتقى منه الأذى والبلاء والشدة علينا ، فقال : إنه لخروج يا أم عبد الله ، فقلت : والله لنخرجن إلى أرض فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا وفرجا ، فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وتفرست فيه حزنا لخروجنا ، وقلت لعامر : يا أبا عبد الله لو رأيت ما وقع من عمر وذكرت ما تقدم .

وممن هاجر أبو سبرة ، وهو أخو أبى سلمة رضى الله تعالى عنهما لأمه ، أمهما برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاجر ومعه امرأته أم كلثوم .

وممن هاجر بنفسه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنهما : أى وكان أميرا عليهم كما قيل ، وجزم به ابن المحدث فى سيرته . وقال الزهرى : لم يكن لهم أمير . وسهيل بن البيضاء : أى والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنهم . وقيل إنما كان عبد الله بن مسعود فى الهجرة الثانية فخرجوا سرا : أى متسللين ، منهم الراكب ، ومنهم الماشى حتى انتهوا إلى البحر ، فوفق الله تعالى لهم سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار : أى وفى المواهب : وخرجوا مشاة إلى البحر ، فاستأجروا سفينة بنصف دينار ، هذا كلامه فليتأمل .

وكان مخرجهم فى رجب من السنة الخامسة من النبوة ، فخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا إلى البحر ، فلم يجدوا أحدا منهم ، ولعل خروجهم سرا لا ينافيه ما تقدم عن ليلى امرأة عامر بن ربيعة من سؤال عمر لها وإخبارها له بأنها تريد أرض الحبشة ، فلما وصلوا إلى أرض الحبشة نزلوا بخير دار عند خير جار ، فمكثوا فى أرض الحبشة بقية رجب وشعبان إلى رمضان ، فلما كان شهر رمضان قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين سورة (والنجم إذا هوى) أى وقد أنزلت عليه فى ذلك الوقت . ففى كلام بعضهم « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما مع المشركين ، وأنزل الله تعالى عليه سورة (والنجم إذا هوى) فقرأها عليهم حتى إذا بلغ (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)

وسوس إليه الشيطان بكلمتين ، فتكلم بهما ظانا أنهما من جملة ما أوحى إليه ، وهما : تلك الغرانيق العلى : أى الأصنام ، وإن شفاعتهن لترتجى » وفى لفظ : « لهى التى ترتجى » شبهت الأصنام بالغرانيق التى هى طير الماء ، جمع غرنوق بكسر الغين المعجمة وإسكان الراء ثم نون مفتوحة ، أو غرنوق بضم الغين والنون أيضا ، أو غرنوق بضم الغين وفتح النون : وهو طير طويل العنق وهو الكركى أو يشبهه . ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أن تلك الطيور تعلو وترتفع فى السماء ، فالأصنام شبهت بها فى علو القدر وارتفاعه ثم مضى يقرأ السورة حتى بلغ السجدة فسجد وسجد القوم جميعا : أى المسلمون والمشركون.

أقول : قال بعضهم : ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان ، وإنما سمع ذلك المشركون فسجدوا لتعظيم آلهتهم ، ومن ثم عجب المسلمون من سجود المشركين معهم من غير إيمان.

قال بعضهم : والنجم هى أول سورة نزل فيها سجدة : أى أول سورة نزلت جملة كاملة فيها سجدة فلا ينافى أن (اقرأ باسم ربك) سورة نزلت فيها سجدة ، لأن النازل منها أوائلها كما علمت.

وقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم قرأ يوما (اقرأ باسم ربك) فسجد فى آخرها وسجد معه المؤمنون فقام المشركون على رءوسهم يصفقون » .

وقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه « أنه صلى الله عليه وسلم سجد فى النجم : أى غير سجدته المتقدمة التى سجد معه المشركون » ومجموع ذلك يرد حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم لم يسجد فى شىء من المفصل قبل أن يتحول إلى المدينة » لأن سورة النجم من المفصل ، لأن عند أئمتنا أن أول المفصل الحجرات على الراجح من أقوال عشرة .

لا يقال : لعل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ممن يرى أن النجم ليس من المفصل. لأنا نقول (اقرأ باسم ربك) من المفصل اتفاقا . وعلى ما قال أئمتنا يكون فى المفصل ثلاث سجدات : فى النجم والانشقاق (واقرأ باسم ربك) وهى أى النجم أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة .

وذكر الحافظ الدمياطى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأى من قومه كفا عنه : أى تركا وعدم تعرض له ، فجلس خاليا فتمنى ، فقال : ليته لم ينزل علىّ شىء ينفرهم عنى » وفى رواية : « تمنى أن ينزل عليه ما يقارب بينه وبينهم حرصا على إسلامهم ، وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة ، فقرأ عليهم (والنجم إذا هوى) » إلى آخر ما تقدم والله أعلم.

ومن جملة من كان مع المشركين حينئذ الوليد بن المغيرة-لكنه رفع ترابا إلى جبهته فسجد عليه ، لأنه كان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود .

وقيل الذى فعل ذلك ، سعيد بن العاص ، ويقال كلاهما فعل ذلك ، وقيل الفاعل لذلك أمية بن خلف وصحح ، وقيل عتبة بن ربيعة ، وقيل أبو لهب ، وقيل المطلب :

وقد يقال : لا مانع أن يكونوا فعلوا ذلك جميعا ، بعضهم فعل ذلك تكبرا ، وبعضهم فعل ذلك عجزا ، وممن فعل ذلك تكبرا أبو لهب ، فقد جاء « وفيها سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس ، غير أبى لهب فانه رفع حفنة من تراب إلى جبهته ، وقال يكفى هذا » .

ولا يخالف ذلك مانقل عن ابن مسعود « ولقد رأيت الرجل أى الفاعل لذلك قتل كافرا » لأنه يجوز أن يكون المراد بقتل مات « فعند ذلك قال المشركون له صلى الله عليه وسلم : قد عرفنا أن الله تعالى يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فأما إذا جعلت لنا نصيبا فنحن معك ، فكبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس فى البيت » .

وفيه أنه كيف يكبر عليه صلى الله عليه وسلم ذلك مع أنه موافق لما تمناه من أن الله ينزل عليه ما يقارب بينه وبين المشركين حرصا على إسلامهم المتقدم ذلك عن سيرة الدمياطى ، إلا أن يقال هذا كان بعد ما عرض السورة على جبريل ، وقال له : ما جئتك بهاتين الكلمتين المذكور ذلك فى قولنا : «فلما أمسى صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل : فعرض عليه السورة وذكر الكلمتين فيها ، فقال له جبريل : ماجئتك بهاتين الكلمتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلت على الله مالم يقل أى فكبر عليه ذلك — فأوحى الله تعالى إليه مافى سورة الإسراء (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره) بموافقتك لهم على مدح آلهتهم بما لم نرسل به إليك (وإذا) لو فعلت أى دمت عليه (لا تخذوك خليلا) إلى قوله (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) أى مانعا يمنع العذاب عنك ، وهذا يدل لما تقدم أنه تكلم بذلك ظانا أنه من جملة ما أوحى إليه .

وقيل نزل ذلك لما قال له اليهود حسدا له صلى الله عليه وسلم على إقامته بالمدينة : لئن كنت نبيا فالحق بالشام لأنها أرض الأنبياء حتى نؤمن بك ، فوقع ذلك فى قلبه فخرج يرحله فنزلت ، فرجع أى بدليل ما بعدها . وقيل إن التى بعدها نزلت فى أهل مكة .

وقيل إن آية (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) نزلت فى ثقيف، قالوا: لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خلالا نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نحشر، ولا ننحنى فى صلاتنا، وكل ربًا لنا فهو لنا، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب لم فعلت ذلك؟ فقل إن الله أمرنى.

وقيل نزلت فى قريش قالوا: لا نمكنك من استـلام الحجر حتى تلمّ بآلهتنا وتمسها بيدك.

وقد يدعى أن هذا مما تعدد أسباب نزوله، والقاضى البيضاوى اقتصر على ما عدا الأول، والله أعلم.

قال: وقيل إن هاتين الكلمتين لم يتكلم بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ارتصد الشيطان سكتة عند قوله الأخرى، فقالهما محاكيا نغمته صلى الله عليه وسلم، فظنهما النبى صلى الله عليه وسلم كما فى [شرح المواقف] ومن سمعه أنهما من قوله صلى الله عليه وسلم: أى حتى قال: قلت على الله مالم يقل، وتباشر بذلك المشركون، وقالوا إن محمدا قد رجع إلى ديننا: أى دين قومه حتى ذكر أن آلهتنا لتشفع لنا، وعند ذلك أنزل الله تعالى قوله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) أى قراءته ما ليس من القرآن: أى مما يرضاه المرسل إليهم. وفى البخارى «إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) يبطله (ثم يحكم الله آياته) أى يثبتها (والله عليم) بالقاء الشيطان ما ذكر (حكيم) فى تمكينه من ذلك، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه» ولم أقف على بيان أحد من الأنبياء والمرسلين وقع له مثل ذلك.

وفيه كيف يجترئ الشيطان على التكلم بشىء من الوحى. ومن ثم قيل: هذه القصة طعن فى صحتها جمع وقالوا إنها باطلة وضعها الزنادقة: أى ومن ثم أسقطها القاضى البيضاوى. ومن جملة المنكرين لها القاضى عياض، فقد قال: هذا الحديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به المفسرون المؤرخون، المولعون بكل غريب.

أى وقال البيهقى: رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم. وقال الإمام النووى نقلا عنه

وأما مايرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صــلى الله عليه وسلم ماجرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لايصح منه شيء ، لامن جهة النقل ، ولا من جهة العقل ، لأن مدح إله غير الله كفر ، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يقوله الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك : أى وألا يلزم عدم الوثوق بالوحى .

وقال الفخر الرازى : هذه القصة باطلة موضوعة ، لايجوز القول بها . قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) أى الشيطان لايجترئ أن ينطق بشئ من الوحى . وقال بصحتها جمع منهم خاتمة الحفاظ الشهاب ابن حجر ، وقال : رد عياض لافائدة فيه ، ولا يعول غليه ، هــذا كلامه ، وفشا أمر تلك السجدة فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة أن أهل مكة : أى عظماءهم قد سجدوا وأسلموا حتى الوليد بن المغيرة ، وسعيد بن العاص .

وفى كلام بعضهم : والناقل لإسلامه أنه لما رأى المشركين قد سجدوا متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقد أنهم أسلموا واصطلحوا معه ، ولم يبق نزاع معهم ، فطار الخبر بذلك ، وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة ، فظنوا صحة ذلك ، فقال المهاجرون بها : من بقى بمكة : إذا أسلم هؤلاء عشائرنا أحب إلينا فخرجوا : أى خرج جماعة منهم من أرض الحبشة راجعين إلى مكة : أى وكانوا ثلاثة وثلاثين رجلا ، منهم عثمان بن عفان ، والزبير ابن العوام وعثمان بن مظعون ، وذلك فى شوال ، حتى إذا كانوا دون مكة ساعة من نهار لقوا ركبا فسألوهم عن قريش ، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم عاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر ، وتركناهم على ذلك ، فائتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة ، ثم قالوا : قد بلغنا مكة فندخل ننظر مافيه قريش ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع فدخلوا مكة ؛ أى بعضهم بجوار وبعضهم مستخفيا .

قال فى الإمتاع : ويقال إن رجوع من كان مهاجرا بالحبشة إلى مكة كان بعد الخروج من الشعب ، هــذا كلامه . وفيه نظر ظاهر ، ويرشد إليه التبرى لأنهم مكثوا فى الشعب ثلاث سنين أو سنتين ، ومكث هؤلاء عنـد النجاشى حينئذ كان دون ثلاثة أشهر كما علمت . وأيضا الهجرة الثانية للحبشة إنما كانت بعد دخول الشعب كما سيأتى .

قال فى الأصل : ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار إلا ابن مسعود ؛ فإنه مكث يسيرا ثم رجع إلى أرض الحبشة .

أى وهذا من صاحب الأصل تصريح بأن ابن مسعود كان فى الهجرة الأولى ، وهو موافق فى ذلك لشيخه الحافظ الدمياطى ، لكن الحافظ الدمياطى جزم بأن ابن مسعود كان فى الهجرة الأولى ولم يحك خلافا ، وصاحب الأصل حكى خلافا أنه لم يكن فيها ، وبه جزم ابن إسحاق حيث قال : إن ابن مسعود إنما كان فى الهجرة الثانية ، فكان ينبغى للأصل أن يقول على ماتقدم .

هذا ، وفى كلام بعضهم : فلم يدخل أحد منهم مكة إلا مستخفيا ، وكلهم دخلوا مكة إلا عبد الله بن مسعود فإنه رجع إلى أرض الحبشة .

وقد يقال : لما لم يطل مكث ابن مسعود بمكة ظن به أنه لم يدخلها ، فلا ينافى ماسبق . ويجوز أن يكون أكثرهم دخل مكة بلا جوار فأطلقوا على الكل أنهم دخلوا مستخفين ، فلا يخالف ما سبق أيضا ، ولما رجعوا لقوا من المشركين أشد ما عهدوا .

قال : وممن دخل بجوار : عثمان بن مظعون ، دخل فى جوار الوليد بن المغيرة ، ولما رأى ما يفعل بالمسلمين من الأذى قال : والله إن غدوّى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى فى الله مالايصيبنى لنقص كبير ، فمشى إلى الوليد فقال : ياأبا عبد شمس وفت ذمتك وقد رددت إليك جوارك ، قال له : يا ابن أخى لعله آذاك أحد من قومى وأنت فى ذمتى فأكفيك ذلك؟ قال : لا والله ما اعترض لى أحد ولا آذانى ، ولكن أرضى بجوار الله عز وجل وأريد أن لا أستجير بغيره ، قال : انطلق إلى المسجد فاردد إلىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية ، فانطلقا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى ، فقال عثمان صدق ، وقد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى لا أستجير بغير الله عز وجل ، قد رددت عليه جواره ، فقال الوليد أشهدكم أنى برىء من جواره إلا أن يشاء ، ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة بن مالك فى مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه ، فجلس عثمان معهم ، فقال لبيد * ألا كل شىء ما خلا الله باطل * فقال عثمان : صدقت ، فقال لبيد * وكل نعيم لا محالة زائل * فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش ماكان يؤذى جليسكم فتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه . فمن سفاهته فارق ديننا فلا

تجدنّ فى نفسك من قوله ، فردّ عليه عثمان ، فقام ذلك الرجل فلطم عينه والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال: أما والله يا ابن أخى كانت عينك عما أصابها لغنية ، ولقد كنت فى ذمة منيعة فخرجت منها ، وكنت عن الذى لقيت غنيا ، فقال عثمان رضى الله تعالى عنه : بل كنت إلى الذى لقيت فقيرا ، والله إن عينى الصحيحة التى لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله عز وجل ، ولى فيمن هو أحب إلىّ منكم أسوة ، وإنى لفى جوار من هو أعزّ منك انتهى ، فعثمان فهم أن لبيدا أراد بالنعيم ما هو شامل لنعيم الآخرة ومن ثم قال له نعيم الجنة لا يزول . لا يقال : لولا أن لبيدا يريد مطلق النعيم الشامل لنعيم الآخرة لما تشوش من الردّ عليه . لأنا نقول : يجوز أن يكون تشوشه من مشافهة عثمان له بقوله كذبت .

على أن هذا السياق دالّ على أن لبيدا قال هذا الشعر قبل إسلامه ، ويؤيده ما قيل : أكثر أهل الأخبار على أن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم ، وبه يردّ ما فى الاستيعاب أن هذا: أى قوله: ألا كل شىء إلى آخره شعر حسن ، فيه ما يدل على أنه قاله فى الإسلام ، وكذلك قوله :

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل

وقد يقال : لا يلزم من قوله المذكور الذى لا يصدر غالبا إلا عن مسلم أن يكون قاله فى حال إسلامه ، كما وقع لأمية بن أبى الصلت حيث قال فى شعره ما لا يقوله إلا مسلم مع كفره ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم فيه «آمن شعره وكفر قلبه» وفى رواية «كاد يسلم» .

وذكر محيي الدين بن العربى فى قوله صلى الله عليه وسلم «أصدق بيت قالته العرب» وفى رواية «أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شىء ما خلا الله باطل» .

اعلم أن الموجودات كلها وإن وصفت بالباطل فهى حق من حيث الوجود ، ولكن سلطان المقام إذا غلب على صاحبه يرى ما سوى الله تعالى باطلا من حيث إنه ليس له وجود من ذاته ، فحكمه حكم العدم ، وهذا معنى قول بعضهم قوله باطل : أى كالباطل ، لأن العالم قائم بالله تعالى لا بنفسه ، فهو من هذا الوجه باطل ، والعارف إذا وصل إلى مقامات القرب فى بداية عرفانه ربما تلاشت هذه الكائنات وحجب عن شهودها بشهود الحق ، لا أنها زالت من الوجود بالكلية ، ثم إذا كمل عرفانه يشهد الحق تعالى

والخلق معا فى آن واحد ، وما كل أحد يصل إلى هـذا المقام ، فإن غالب الناس إن شهد الحق لم يشهد الخلق، وإن شهد الخلق لم يشهد الحق كما تقدم عند الكلام على الوحدة أنه لا يدركها إلا من أدرك اجتماع الضدين ، ولعل من المشهد الأول قول الأستاذ الشيخ أبى الحسن البكرى رضى الله تعالى عنه : أستغفر الله مما سوى الله ، لأن الباطل يستغفر من إثبات وجوده لذاته .

ويوافق قول أكثر أهل الأخبار : قول السهيلى : وأسلم لبيد وحسن إسلامه ، وعاش فى الاسلام ستين سنة لم يقل فيها بيت شعر ، فسأله عمر رضى الله تعالى عنه : أى فى خلافته عن تركه للشعر ، فقال : ماكنت لأقول شعرا بعد أن علمنى الله تعالى البقرة وآل عمران ، فزاده عمر فى عطائه خمسمائة من أجل هذا القول ، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة . وقيل إنه قال بيتا واحدا فى الإسلام هو :

الحمد لله الذى لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قال : وممن دخل بجوار : أبو سلمة بن عبد الأسد ابن عمته صلى الله عليه وسلم ، فإنه دخل فى جوار خاله أبى طالب . ولما أجاره مشى إليه رجال من بنى مخزوم . فقالوا : يا أبا طالب منعت منا ابن أختك فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ فقال : إنه استجار بى وهو ابن أختى ، وأنا إن لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى . فقام أبو لهب على أولئك الرجال ، وقال لهم : يامعشر قريش لا تزالون تعارضون هذا الشيخ فى جواره من قومه ، والله لتنتهن أو لأقومن معه فى كل مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد ، قالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة : أى لأنه كان لهم وليا وناصرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى : أى وطمع أبو طالب فى أبى لهب حيث سمعه يقول ما ذكر ، ورجا أن يقوم معه فى شأنه صلى الله عليه وسلم ، وأنشد أبياتا يحرضه فيها على نصرته صلى الله عليه وسلم .

وممن أوذى فى الله بعد إسلامه ووقع له نظير ما وقع لعثمان بن مظعون رضى الله عنه عمر بن الخطاب .

وسبب إسلامه على ما حدث به بعضهم قال : قال لنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى أى ابتداؤه والسبب فيه؟ قلنا: نعم قال: كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة ، إذ لقينى رجل من قريش : أى وهو نعيم بن عبد الله

النحام بالحاء المهملة . قيل له ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال فيه : لقد سمعت نحمته في الجنة ، أي صوته وحسه ، كان يخفي إسلامه خوفاً من قومه ، وأخبرني أن أختي يعني أم جميل ، واسمها فاطمة كما تقدم ، وقيل زينب ، وقيل آمنة قد صبئت : أي أسلمت وكذا زوجها وهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وهو ابن عم عمر ، وكانت أخت سعيد عاتكة تحت عمر ، فرجعت مغضبا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة يكونان معه يصيبان من طعامه وقد ضم إلى زوج أختي رجلين ممن أسلم : أي أحدهما خباب بن الأرت بالمثناة فوق ، والآخر لم أقف على اسمه .

وفي السيرة الهشامية الاقتصار على خباب ، وأنه كان يختلف إليهما ليعلمهما القرآن ، فجئت حتى قرعت الباب ، فقيل لي : من بالباب ؟ قلت : ابن الخطاب ، وكان القوم جلوسا يقرءون صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تبادروا : أي واستخفوا ونسوا الصحيفة ، فقامت المرأة يعني أخته ففتحت لي فقلت لها يا عدوة نفسها قد بلغني أنك قد صبوت وضربتها بشيء كان في يدي فسال الدم ، فلما رأت الدم بكت وقالت : يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت ، فدخلت وجلست على السرير ، فنظرت فإذا بالصحيفة في ناحية من البيت ، فقلت : ما هذا الكتاب ؟ أعطينيه : أي فإن عمر كان كاتبا ، فقالت : لا أعطيكه لست من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر ، وهذا لا يمسه إلا المطهرون ، فلم أزل حتى أعطتنيه : أي بعد أن اغتسل كما في بعض الروايات ، وفي بعض الروايات قالت له : يا أخي إنك نجس على شركك فإنه لا يمسه إلا المطهرون ، وقولها لا تغتسل من الجنابة ، ربما يخالف قول بعضهم إن أهل الجاهلية كانوا يغتسلون من الجنابة ، وكون عمر كان يخالفهم في ذلك من البعيد ، وكون هذا منها يحمل على أنه لم يغتسل غسلا يعتد به يخالفه ما تقدم عن بعض الروايات أنه لما اغتسل دفعت له تلك الرقعة وفي لفظ قالت له : إنا نخشاك عليها ، قال لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها ، فدفعتها له ، أي وطمعت في إسلامه ، فإذا فيها (بسم الله الرحمن الرحيم) ، قال : فلما مررت على (بسم الله الرحمن الرحيم) ذعرت أي فزعت ورميت الصحيفة من يدي : ثم رجعت إلى نفسي فأخذتها ، فإذا فيها (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فكلما مررت باسم من أسمائه عزوجل ذعرت : أي فألقيها ثم ترجع إلي نفسي

فأخذها حتى بلغت (آمنوا بالله ورسوله) إلى قوله تعالى (إن كنتم مؤمنين) فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشارا بما سمعوا مني، وحمدوا الله عزوجل، ثم قالوا: يا ابن الخطاب أبشر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا، فقال «اللهم أعزّ الإسلام» وفي لفظ «أيد الإسلام بأحد الرجلين، إما بأبي جهل بن هشام، وإما بعمر بن الخطاب» أي وفي لفظ «بأحب هذين الرجلين إليك أبي الحكم عمرو بن هشام يعني أبا جهل وعمر بن الخطاب» أي وفي غير ما رواية بعمر ابن الخطاب، من غير ذكر أبي جهل.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إنما قال صلى الله عليه وسلم «اللهم أعزّ عمر بالإسلام» لأن الإسلام يعزّ ولا يعزّ، ولعل قول عائشة ماذكر نشأ عن اجتهاد منها، بدليل تعليلها واستبعادها أن يعزّ الإسلام بعمر فليتأمل. وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم بذلك يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس. قال عمر رضي الله تعالى عنه: فلما عرفوا مني الصدق، قلت لهم أخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: هو في بيت بأسفل الصفا ووصفوه: أي وهي دار الأرقم فخرجت» وفي رواية «أن عمر قال: ياخباب انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام خباب وابن عمه سعيد معه قال عمر: فلما قرعت الباب قيل من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، فما اجترأ أحد أن يفتح لي الباب لما عرفوه من شدّتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعلموا إسلامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يهده». وفي لفظ يهديه بإثبات الياء، وهي لغة« ففتحوا لي: أي والذي أذن في دخوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، فإن إسلام عمر كان بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام، وقيل بثلاثة أشهر. وكان إسلام عمر وهو ابن ست وعشرين سنة. قال: وأخذ رجلان بعضديّ حتى دنوت من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أرسلوه، فأرسلوني، فجلست بين يديه صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع قميصي فجذبني إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرف مكة».

أي وفي الأوسط للطبراني، ورواه الحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: اللهم

أخرج ما فى صدر عمر من غلّ وأبدله إيمانا » أى ولعل خبابا وسعيداً لم يدخلا معه وإلا لبشرا بإسلام عمر .

وفى رواية « لما ضرب الباب وسمعوا صوته قام رجل فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا سيفه : أى ولم ير معه خبابا ولا سعيداً ، فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا سيفه ، نعوذ بالله من شره ، فقال حمزه بن عبد المطلب : فائذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلنا له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه » .

وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن جاء بخير قبلناه ، وإن جاء بشر قتلناه » وفى لفظ «إن يرد بعمر خير يسلم ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له ، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى صحن الدار ، فأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أدرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة » .

وفى لفظ « أخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : ما أنت منته ياعمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل الله بالوليد بن المغيرة» أى أحد المستهزئين به صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فقال «يارسول الله جئت لأومن بالله ورسوله أشهد أنك رسول الله » وفى رواية «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرفت » وفى رواية « سمعها أهل المسجد » .

وفى رواية « لما جاء دفع الباب فوجد بلالا وراء الباب ، فقال بلال : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقال : حتى أستأذن لك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بلال : يارسول الله عمر بالباب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يرد الله به خيراً أدخله فى الدين ، فقال لبلال : افتح له ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بضبعه فهزه » .

وفى رواية : «أخذ ساعده وانتهره ، فارتعد عمر هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس » وفى لفظ «أخذ بمجامع ثيابه ثم نتره نترة فما تمالك عمر أن وقع على ركبتيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، ما الذى تريد وما الذى جئت له ؟ فقال عمر : اعرض علىّ الذى تدعو إليه ،

فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله فأسلم عمر مكانه».

أقول: ولا ينافى هذا ماتقدم من إسلامه وإتيانه بالشهادتين فى بيت أخته قبل خروجه إليه صلى الله عليه وسلم ، وقوله ولم يعلموا إسلامى ، لأنه يجوز أن يكون مراده بقوله جئت لأومن جئت لأظهر إيمانى عندك وعند أصحابك ، وعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسلم يا ابن الخطاب» إلى آخره، وقوله للنبى صلى الله عليه وسلم: اعرض علىّ الذى تدعو إليه يجوز أن يكون عمر جوّز أن الذى يدعو إليه ويصير به المسلم مسلماً أخص مما نطق به من الشهادتين ، والله أعلم . قال عمر : وأحببت أن يظهر إسلامى وأن يصيبنى ما يصيب من أسلم من الضرر والإهانة ، فذهبت إلى خالى وكان شريفا فى قريش وأعلمته أنى صبوت : أى وهو أبو جهل .

وقد جاء فى بعض الروايات ، قال عمر : لما أسلمت تذكرت أىّ أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ، فذكرت أباجهل فجئت له فدققت عليه الباب ، فقال : من بالباب ؟ قلت عمر بن الخطاب ، فخرج إلىّ فقال : مرحباً وأهلا يا ابن أختى ، ما جاء بك ؟ قلت جئت لأخبرك . وفى لفظ لأبشرك ببشارة ، فقال أبو جهل : وما هى يا ابن أختى ؟ فقلت : إنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدّقت ما جاء به ، فضرب الباب فى وجهى : أى أغلقه ، وهو بمعنى أجاف الباب كما فى بعض الروايات وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به : أى وإنما كان أبو جهل خال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، قيل لأن أم عمر أخت أبى جهل ، وقيل لأن أم عمر بنت هشام بن المغيرة والد أبى جهل ، فأبو جهل خال أم عمر وقيل إن أم عمر بنت عم أبى جهل وصححه ابن عبد البر ، وعصبة الأم أخوال الابن . قال عمر : وجئت رجلا آخر من عظماء قريش وأعلمته أنى صبوت فلم يصبنى منها شىء ، فقال لى رجل : تحب أن يعلم إسلامك ؟ قلت نعم ، قال : إذا جلس الناس يعنى قريشا فى الحجر واجتمعوا فائت فلانا لشخص كان لا يكتم السر وهو جميل بن معمر رضى الله عنه . أسلم يوم الفتح ، وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم حنيناً ، وكان يسمى ذا القلبين ، وفيه نزلت (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ومات فى خلافة عمر رضى الله تعالى عنه ، وحزن عليه عمر حزنا شديداً ، فقل له فيما بينك وبينه إنى قد صبوت ، قال فلما اجتمعت الناس فى الحجر جئت الرجل فدنوت منه وأخبرته ، فرفع صوته بأعلاه ، فقال :

ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، فما زال الناس يضربونى وأضربهم، فقام خالى — يعنى أبا جهل على الحجر فأشار بكمه وقال: ألا إنى أجرت ابن أختى، فانكشف الناس عنى، فصرت» أى بعد ذلك «أرى الواحد من المسلمين يضرب وأنا لا أضرب، فقلت: ما هذا بشىء حتى يصيبنى ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى جلس الناس فى الحجر وصلت إلى خالى وقلت له: جوارك عليك ردّ، فقال: لا تفعل يا ابن أختى، فقلت: بل هو ذاك، فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام».

أى وفى السيرة الهشامية: بينما القوم يقاتلونه ويقاتلهم، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم: أى وهو العاص بن وائل فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا صبأ عمر، قال: فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى بن كعب مسلمين لكم صاحبهم هكذا، خلوا عن الرجل، فانفرجوا عنه كأنهم ثوب كشط عنه.

أى وفى البخارى «لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا صبأ عمر، فبينا عمر فى داره خائفا إذ جاءه العاص بن وائل، فقال له: مالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت: أى إذ أسلمت، قال: أمنت لا سبيل إليك، فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد هذا عمر بن الخطاب الذى صبأ، قال: لا سبيل إليه فأنا له جار، فكسر الناس، وتصدعوا عنه» أى ويذكر «أنه عتبة بن ربيعة وثب عليه فألقاه عمر إلى الأرض وبرك عليه وجعل يضربه وأدخل أصبعيه فى عينيه، فجعل عتبة يصيح، وصار لا يدنو منه أحد إلا أخذ بشرا سيفه وهى أطراف أضلاعه».

وعن عمر رضى الله تعالى عنه فى سبب إسلامه، قال «خرجت أتعرّض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقنى إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح بسورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون) قال: قلت كاهن علم ما فى نفسى، فقرأ (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) إلى آخر السورة، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع».

أى ومن ذلك ما فى السيرة الهشامية عن عمر رضى الله تعالى عنه «قال: جئت المسجد

أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، وكان إذا صلى استقبل الشام » أي صخرة بيت المقدس « وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فكان مصلاه بين الركن الأسود والركن اليماني » أي لأنه لا يكون مستقبلا لبيت المقدس إلا حينئذ كما تقدم « قال : فقلت حين رأيته صلى الله عليه وسلم لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، قال : فقلت لئن دنوت منه أستمع لأروعنه ، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها يعني الكعبة ، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي . فقرأ صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى قمت في قبلته مستقبله مابيني وبينه إلا ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام ، فلم أزل قائما في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف فتبعته ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسي عرفني وظن أنما تبعته لأوذيه فنهمني أي زجرني ، ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله » وفي رواية « ضرب أختي المخاض ليلا ، فخرجت من البيت فدخلت في أستار الكعبة ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل الحجر فصلى فيه ماشاء الله ثم انصرف ، فسمعت شيئا لم أسمع مثله ، فخرج فاتبعته ، فقال : من هذا ؟ قلت عمر ، قال : ياعمر ماتدعني لا ليلا ولا نهارا ، فخشيت أن يدعو علي ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : ياعمر أتسره . قلت : لا والذي بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك ، فحمد الله تعالى ، ثم قال : هداك الله ياعمر ، ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بيته » .

أي ويحتاج للجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها ، ثم رأيت العلامة ابن حجر الهيتمي ، قال : ويمكن الجمع بتعداد الواقعة قبل إسلامه ، هذا كلامه فليتأمل مافيه .

قال : ومن ذلك أي مما كان سبباً لإسلام عمر « أن أبا جهل بن هشام ، قال : يامعشر قريش إن محمدا قد شتم آلهتكم وسفه أحلامكم ، وزعم أن من مضى من أسلافكم يتهافتون في النار ، ألا ومن قتل محمدا فله علي مائة ناقة حمراء وسوداء ، وألف أوقية من فضة : أي وفي لفظ : جعلوا لمن يقتله كذا وكذا أوقية من الذهب ، وكذا كذا أوقية من الفضة ، وكذا كذا نافجة من المسك ، وكذا كذا ثوبا وغير ذلك ، فقال عمر : أنا لها ، فقالوا له : أنت لها ياعمر وتعاهد معهم على ذلك ، قال عمر : فخرجت متقلدا سيفي متنكبا كنانتي :

أى جعلتها فى منكبى أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمررت على عجل يذبح ، فسمعت من جوفه صوتا يقول : يا آل ذريح ، صائح يصيح ، بلسان فصيح ، يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقلت فى نفسى : إن هذا الأمر لا يراد به إلا أنت ، وذريح اسم للعجل المذبوح ، وقيل له ذلك من أجل الدم ، لأن الذريح شديد الحمرة ، يقال أحمر ذريحى : أى شديد الحمرة ، ثم مر برجل أسلم وكان يكتم إسلامه خوفا من قومه ، يقال له نعيم : أى ابن عبد الله النحام كما تقدم ، فقال له : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ فقال : أريد هذا الصابى الذى فرّق أمر قريش وسفه أحلامها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك : أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمدا ؟ فلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك أى زوج أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأختك قد أسلما فعليك ، وإنما فعل ذلك نعيم ليصرفه عن أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل الذى لقيه سعد بن أبى وقاص ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمدا ، قال له : أنت أصغر وأحقر من ذلك ، تريد أن تقتل محمدا وتدعك بنو عبد مناف أن تمشى على الأرض ، فقال له عمر : ما أراك إلا وقد صبأت فأبدأ بك فأقتلك ، فقال سعد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فسلّ عمر سيفه وسلّ سعد سيفه وشد كل منهما على الآخر حتى كاد أن يختلطا ، ثم قال سعد لعمر : مالك يا عمر لا تصنع هذا بختنك وأختك ، فقال صبأ ؟ قال نعم ، فتركه عمر وسار إلى منزل أخته ، أى ولا مانع أن يكون لقى كلا من نعيم وسعد بن أبى وقاص وقال له كل منهما ما ذكر .

وفى هذه الرواية «وجد عندهم خباب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة طه يقرؤها عليهم ، وإنه دق عليهم الباب ، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب : أى وترك الصحيفة ، فلما دخل قال لأخته : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ قالت له : ما سمعت شيئا غير حديث تحدثنا به بيننا ، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما — يخاطب أخته وزوجها — بايعتما محمدا على دينه ، وبطش بزوج أخته فألقاه إلى الأرض وجلس على صدره وأخذ بلحيته ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها : أى فلما رأت الدم قالت له : يا عدو الله أتضربنى على أن أوحد الله تعالى ؟ لقد أسلمت على رغم أنفك فاصنع ما أنت صانع ، فلما رأى ما بأخته وما صنع بزوجها ندم وقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة أنظر ما هذا الذى جاء

به محمد ؟ وكان عمر كاتبا ، قالت : أخشاك عليها ، فحلف ليردنها إذا قرأها إليها ، فقالت له : ياأخي أنت نجس ولا يمسه إلا الطاهر ، فقام واغتسل : أى وفى لفظ فذهب يغتسل ، فخرج إليها خباب وقال : أتدفعين كتاب الله تعالى إلى عمر وهو كافر ؟ قالت نعم ، إنى أرجو أن يهدى الله أخى ، ورجع خباب إلى محله ودخل عمر ، فأعطته تلك الصحيفة ؛ فلما قرأها عمر وبلغ (فلا يصدّنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى) قال : أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله» اه أى وفى رواية «أنه لما قرأ الصحيفة قال : ماأحسن هذا الكلام وأكرمه : أى وقيل إنه لما انتهى إلى قوله تعالى (إننى أنا الله لاإله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) قال : ينبغى لمن يقول هذا أن لايعبد معه غيره ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال : ياعمر إنى لأرجو أن يكون الله تعالى قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنى سمعته أمس وهو يقول: « اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم ابن هشام أوبعمر بن الخطاب، فالله الله ياعمر ، فقال له عند ذلك: دلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم : أى عنده وعند أصحابه ، فلا ينافى مافى الرواية الأولى أنه أسلم ، فقال له خباب هو فى بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه ؛ فعمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث .

أقول : ويمكن الجمع بين هاتين الروايتين حيث كانت القصة واحدة ولم تتعدد ؛ بأنه يجوز أن يكون زوج أخته استخفى أولا مع خباب ورفيقه ثم ظهر فأوقع به وبأخته ماذكر ، وأنه فى الرواية الأولى اقتصر على ذكر أخته والصحيفة تعددت، واحدة فيها (سبح لله مافى السموات والأرض) والثانية فيهاطه ، اقتصر فى الرواية الأولى على إحداهما وهى التى فيها (سبح لله) وفى الرواية الثانية على الأخرى التى فيها (طه) وإنه فى الرواية الأولى أسلم ، وفى الرواية الثانية سكت عن ذلك ، والله أعلم .

وعن ابن عباس أيضا رضى الله تعالى عنهما : لما أسلم عمر رضى الله تعالى عنه قال المشركون : لقد انتصف القوم منا .

وعن ابن عباس أيضاً رضى الله تعالى عنهما « لما أسلم عمر رضى الله تعالى عنه نزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » .

قال : وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه « مازلنا أعزة منذ أسلم

عمر» اه وزاد بعضهم عن ابن مسعود: والله لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالكعبة أى عندها ظاهرين آمنين حتى أسلم عمر ، فقاتلهم حتى تركونا، فصلينا : أى وجهروا بالقراءة وكانوا قبل ذلك لايقرءون إلا سرا كما تقدم . وعن صهيب : لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقا .

وفى كلام ابن الأثير : مكث صلى الله عليه وسلم مستخفيا فى دار الأرقم ومن معه من المسلمين إلى أن كملوا أربعين بعمر بن الخطاب ، وعند ذلك خرجوا ، وتقدم مافى ذلك .

ومما يؤثر عن عمر رضى الله تعالى عنه :«من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه . السيد هو الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل . أشقى الولاة من شقيت به رعيته . أعدل الناس أعذرهم للناس .

وفى مختصر تاريخ الخلفاء لابن حجر الهيتمى أن عمر أول من قال : أطال الله تعالى بقاءك ، وأيدك الله ، قال ذلك لعلى رضى الله تعالى عنه . وهو أول من استقضى القضاة فى الأمصار .

ويروى أن الأرقم هذا لما كان بالمدينة بعد الهجرة تجهز ليذهب فيصلى فى بيت المقدس فلما فرغ من جهازه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يودعه فقال له : مايخرجك ؟ أى من المدينة حاجة أم تجارة ؛ قال : لايارسول الله بأبى أنت وأمى ، ولكن أريد الصلاة فى بيت المقدس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » فجلس الأرقم ولم يذهب لبيت المقدس .

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يصلى عليه سعد بن أبى وقاص ، فلما مات كان سعد بالعقيق ، فقال مروان: يحبس صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل غائب وأراد الصلاة عليه فأبى ولده ذلك على مروان ، ووقع بينهم كلام ؛ ثم جاء سعد وصلى على الأرقم .

أى وقيل لعمر رضى الله عنه : ماسبب تسمية النبى صلى الله عليه وسلم لك بالفاروق؟ قال : لما أسلمت والنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مختفون قلت يارسول الله ألسنا على

الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال بلى ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم ، فقلت : ففيم الاختفاء ، والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف ، والذى بعثك بالحق لنخرجن ، فخرجنا فى صفين حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر ، له : أى لذلك الجمع كديد ككديد الطحين أى لذلك الجمع غبار ثائر من الأرض لشدة وطء الأقدام ، لأن الكديد التراب الناعم إذا وطىء ثار غباره قال : حتى دخلنا المسجد ، فنظرت قريش إلىّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها : أى فطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت وصلى الظهر معلنا ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق ، فرق الله بى بين الحق والباطل .

أى وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى صفين : حمزة فى أحدهما . وعمر فى الآخر ، لهم كديد ككديد الطحين » .

وفى رواية : « أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له يا رسول الله لاينبغى أن تكتم هذا الدين ، أظهر دينك ، وفى رواية « والله لايعبد الله سرا بعد اليوم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون وعمر أمامهم ، معه سيفه ينادى : لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى دخل المسجد ، ثم صاح مسمعا لقريش : كل من تحرك منكم لأمكنن سيفى منه ، ثم تقدم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف والمسلمون ، ثم صلوا حول الكعبة ، وقرءوا القرآن جهرا ، وكانوا كما تقدم لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة ولا يجهرون بالقرآن » .

وفى المنتقى على مانقله بعضهم « فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر أمامه ، وحمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنهما ، حتى طاف بالبيت وصلى الظهر معلنا ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار الأرقم » .

وفيه أن صلاة الظهر لم تكن فرضت حينئذ ، إلا أن يقال المراد بصلاة الظهر الصلاة التى وقعت فى ذلك الوقت : أى ولعل المراد بها صلاة الركعتين اللتين كان يصليهما بالغداة صلاهما فى وقت الظهر .

وعن عمر رضى الله عنه « وافقت ربى فى ثلاث : قلت . يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت : يا رسول الله :

إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه فى الغيرة ، فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، فنزلت ، أى وقد قال له بعض نسائه صلى الله عليه وسلم : يا عمر أما فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟» ومنع رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى على عبد الله بن أبى ّ بن سلول.

وفى البخارى « لما توفى عبد الله بن أبى ّ جاء ولده عبد الله رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه » وهذا لا يخالف مافى تفسير القاضى البيضاوى ، من أن ابن أبى ّ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، فلما دخل عليه ، فسأله أن يستغفر له ويكفنه فى شعاره الذى يلى جسده الشريف ويصلى عليه ، فلما مات أرسل له صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه ، لأنه يجوز أن يكون إرساله للقميص بسؤال ولده له صلى الله عليه وسلم بعد موت أبيه .

قال فى الكشاف : فإن قلت : كيف جازت له صلى الله عليه وسلم تكرمة المنافق وتكفينه فى قميصه .

قلت : كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له ؛ وذلك أن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيرا ببدر لم يجدوا له قميصا ، وكان رجلا طوالا ، فكساه عبد الله قميصه : أى ولأن الضنة بإرساله القميص سيما وقد سئل فيه مخل ّ بالكرم ، وقال له المشركون يوم الحديبية : إنا لانأذن لمحمد ولكن نأذن لك ، فقال : لا ، إن لى فى رسول الله أسوة حسنة ، فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك وإكراما لابنه .

وفى هذا تصريح بأن ابن أبى ّ كان مع المسلمين فى بدر وفى الحديبية . ثم إن ابنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى عليه ، فقال له : أسألك أن تقوم على قبره لا تشمت به الأعداء : أى وذلك بعد سؤال ولده له صلى الله عليه وسلم فى ذلك كما تقدم عن القاضى البيضاوى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه ، فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيرت ، فقال (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيده على السبعين ، وفى رواية : أتصلى على ابن أبى ّ وقد قال يوم كذا كذا وكذا ؟ أعد ّ عليه

قوله ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أخر عنى ياعمر ، فلما أكثرت عليه قال : إنى خيرت ، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) إلى قوله (وهم فاسقون) ولينظر مامعنى التخيير فى الآية ، وما الجمع بين قوله « أزيد على السبعين » وقوله « ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها » ؟

ثم رأيت القاضى البيضاوى قال فى وجه التخيير : وقوله سأزيد على السبعين إنه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل ، فجوّز أن يكون ذلك حدا يخالفه حكم ما وراءه ، فبين له : أى الحق سبحانه أن المراد به التكثير بقوله فى الآية الأخرى (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) هذا كلامه وحينئذ يشكل قوله « لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها » فإن هذا مقتض لعدم الصلاة عليه ، لا للصلاة عليه فليتأمل ، وقد قال على رضى الله تعالى عنه : إن فى القرآن لقرآنا من رأى عمر ، وما قال الناس فى شىء وقال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر .

وقد أوصل بعضهم موافقاته : أى الذى نزل القرآن على وفق ما قال وما أراد إلى أكثر من عشرين : أى وقد أفردها بعضهم بالتأليف ، وقد سئل عنها الجلال السيوطى فأجاب عنها نظما .

قال عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما : مانزل بالناس أمر ، فقال الناس وقال عمر إلا نزل القرآن على نحو ماقال عمر .

وعن مجاهد : كان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ومن موافقاته ما سيأتى فى أسارى بدر .

ومنها أنه لما سمع قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية ، قال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فنزلت كذلك .

ومنها أن بعض اليهود قال له إن جبريل الذى يذكره صاحبكم عدوّ لنا ، فقال (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) فنزلت كذلك واستأذن رضى الله تعالى عنه النبى صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له وقال : يا أخى

لا تنسنا من دعائك» أى وفى رواية « يا أخى أشركنا فى صالح دعائك ولاتنسنا ، قال عمر ما أحب أن لى بقوله : يا أخى ما طلعت عليه الشمس » وجاء « أول من يصافحه الحق عمر بن الخطاب ، وأول من يسلم عليه » وجاء « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » وجاء « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » وممن نزل القرآن على وفق ما قال مصعب بن عمير أيضا رضى الله تعالى عنه ، كان اللواء بيده يوم أحد وسمع الصوت أن محمدا قد قتل ، فصار يقول (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) فنزلت .

باب اجتماع المشركين على منابذة بنى هاشم

وبنى المطلب ابنى عبد مناف وكتابة الصحيفة

قد اجتمع كفار قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا ، وقالوا لقومه : خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم ، فأبى قومه ، فعند ذلك اجتمع رأيهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ، وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب .

فيه تصريح بأن شعب أبى طالب كان خارجا عن مكة ، والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق ، وأن لا يناكحوهم ، وأن لا يقبلوا لهم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل : أى وفى لفظ : لا تنكحوهم ، ولا تنكحوا إليهم ، ولاتبيعوهم شيئا ، ولاتبتاعوامنهم شيئا ، ولا تقبلوا منهم صلحا الحديث ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى الكعبة : أى توكيدا على أنفسهم . وقيل كانت عند خالة أبى جهل .

وقد يجمع بأنه يجوز أن تكون كانت عندها قبل أن تعلق فى الكعبة على أنه سيأتى أنه يجوز أن الصحيفة تعددت ، وكان اجتماعهم وتحالفهم فى خيف بنى كنانة بالأبطح ويسمى محصبا ، وهو بأعلى مكة عند المقابر ، فدخل بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم الشعب إلا أبا لهب فإنه ظاهر عليهم قريشا ، وكان سنه صلى الله عليه وسلم حين دخل الشعب ستة وأربعين سنة . وفى الصحيح « أنهم فى الشعب جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر » .

وفى كلام السهيلى : كانوا إذا قدمت العير مكة يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من

الطعام يقتاته ، فيقوم أبو لهب فيقول : يامعشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لايدركوا شيئا معكم، فقد علمتم الى ووفاء ذمتى ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يده شىء يعللهم به ، فيغدو التجار على أبى لهب فيربحهم ، هذا كلامه .

ولا منافاة بين خروج أحدهم السوق إذا جاءت العير بالميرة إلى مكة ، وكونهم منعوا من الأسواق والمبايعة لهم كما لا يخفى .

وكان دخولهم الشعب هلال المحرم سنة سبع من النبوة ، وحينئذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان بمكة من المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة .

أقول : وفى رواية « أن خروج بنى هاشم وبنى المطلب إلى الشعب لم يكن إخراج قريش لهم ، وإنما خرجوا إليه لأن قريشا لما قدم عليهم عمرو بن العاص من عند النجاشى خائبا ، وردت معه هديتهم ، وفقد صاحبه الذى هو عمارة بن الوليد ، وبلغهم إكرام النجاشى لجعفر ومن معه من المسلمين : أى كما سيأتى ، وظهور الإسلام فى القبائل ، كبر ذلك عليهم ، واشتد أذاهم على المسلمين ، واجتمع رأيهم على أن يقتلوا النبى صلى الله عليه وسلم علانية ، فلما رأى أبو طالب ذلك جمع بنى هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم ، وأمرهم أن يدخلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام الشعب ويمنعوه ففعلوا ، فبنو هاشم وبنو المطلب كانوا شيئا واحدا ، لم يفترقوا حتى دخلوا معهم فى الشعب ، وانخزل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ، ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير آجل

وقال فى قصيدة أخرى :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيما ومخزوما عقوقا ومأثما

فلما علمت قريش ذلك ، أجمع رأيهم على أن يكتبوا عهودا ومواثيق ، على أن لا يجالسوهم » الحديث .

وفيه أنه سيأتى أن خروج عمرو بن العاص إلى الحبشة إنما كان بعد الهجرة الثانية ، وهى بعد دخول بنى هاشم والمطلب إلى الشعب ، والله أعلم .

باب الهجرة الثانية إلى الحبشة

لايخفى أنه لما وقع ماذكر انطلق إلى الحبشة عامة من آمن بالله ورسوله : أى غالبهم ، فكانوا عندالنجاشي ثلاثة وثمانين رجلا وثمانى عشرة امرأة،وهذا بناء على أن عمار بن ياسر كان منهم . وقد اختلف فى ذلك ، وكلام الأصل يميل إلى ذلك ، وكان من الرجال جعفر ابن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود وعبيد الله بالتصغير بن جحش ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ،فتنصر هناك ثم مات على النصرانية : أى وبقيت أم حبيبة رضى الله تعالى عنها على إسلامها ، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتى .

وعن أم حبيبة رضى الله تعالى عنها قالت « رأيت فى المنام كأن عبيد الله بن جحش زوجى بأسوإ حال وتغيرت صورته ، فإذا هو يقول حين أصبح : يا أم حبيبة إنى نظرت فى هذا الدين فلم أر دينا خيرا من دين النصرانية ، وقد كنت دنت بها ثم دخلت فى دين محمد ثم خرجت إلى دين النصرانية ، قالت : فقلت والله ماخير لك ، وأخبرته بما رأيته له فلم يحفل بذلك وأكب على الخمر يشربه حتى مات ، فرأيت فى المنام كأن آتيا يقول لى : يا أم المؤمنين ففزعت وأولتها بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوجنى ، فكان كذلك .

أى وذكر ابن إسحاق أن أبا موسى الأشعرى هاجر إلى الحبشة ، ومراده أنه هاجر إليها من اليمن لامن مكة كما فهم الواقدى ، فاعترض عليه فى ذلك . فعن أبى موسى « أنه بلغه مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باليمن ، فخرج هو ونحو خمسين رجلا فى سفينة مهاجرين إليه صلى الله عليه وسلم ، فألقتهم السفينة إلى النجاشي بالحبشة ، فوجدوا جعفرا وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالإقامة ، واستمروا كذلك حتى قدموا عليه صلى الله عليه وسلم هم وجعفر عند فتح خيبر كما سيأتى .

وبهذا يندفع قول بعضهم : ما ذكره ابن إسحق من أن أبا موسى الأشعرى هاجر من مكة إلى الحبشة من الغريب جدا ، ولعله مدرج من بعض الرواة ، فأقاموا بخير دار عند خير جار ، فبعثت قريش خلفهم عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد بن المغيرة التى أرادت قريش دفعه لأبى طالب ليكون بدلا عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قتلوه بهدية

إلى النجاشي والهدية فرس وجبة ديباج : أى وأهدوا لعظماء الحبشة هدايا ليرد من جاء إليه من المسلمين ، فلما دخلا عليه سجدا له وقعد واحد عن يمينه والآخر عن شماله .

وفى كلام بعضهم : فأجلس عمرو بن العاص على سريره وقبل هديتهما ، فقالا : إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك فرغبوا عنا وعن آلهتنا : أى ولم يدخلوا فى دينكم ، بل جاءوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولاأنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم إليهم [ ] قال : وأين هم ؟ قالوا بأرضك ، فأرسل فى طلبهم : أى وقال له عظماء الحبشة ادفعهم إليهما فهما أعرف بحالهم ، فقال: لا والله حتى أعلم على أى شيء هم؟ فقال عمرو: هم لايسجدون للملك : أى وفى لفظ لا يخرون لك ولا يحيونك بما يحييك الناس إذا دخلوا عليك رغبة عن سنتكم ودينكم، فلما جاءوا قال لهم جعفر رضى الله تعالى عنه : أنا خطيبكم اليوم : أى فإنه لمـا جاءهم رسول النجاشي يطلبهم اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه . قال جعفر ماذكر ، وقال : إنما نقول ماعلمنا وما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودع يكون مايكون ، وقد كان النجاشي دعا أساقفته وأمرهم بنشر مصاحفهم حوله ، فلما جاء جعفر وأصحابه صاح جعفر ، وقال : جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله ، فقال النجاشي : نعم يدخل بأمان الله وذمته ، فدخل عليه ودخلوا خلفه فسلم ، فقال له الملك : مالك لاتسجد ؟

وفى لفظ : إن عمرا قال لعمارة : ألا ترى كيف يكتنون بحزب الله وما أجابهم به ، وإن عمرا قال للنجاشي : ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك ، فقال النجاشي : مامنعكم أن لاتسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أحيى بها ، فقال جعفر: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى أرسل فينا رسولا ، وأمرنا أن لا نسجد إلا لله عز وجل ، وأخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام فحييناك بالذى يحيى به بعضنا بعضا : أى وعرف النجاشي ذلك ، لأنه كذلك فى الإنجيل كما قيل : أى وأمرنا بالصلاة أى غير الخمس ، لأنها لم تكن فرضت ، بل التى هى ركعتان بالغداة وركعتان بالعشى : أى ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها على ماتقدم . والزكاة : أى مطلق الصدقة ، لازكاة المال لأنها إنما فرضت بالمدينة [ ] أى فى السنة الثانية ، ومراده بالزكاة الطهارة ، قال عمرو بن العاص للنجاشى : فإنهم يخالفونك فى ابن مريم ، ولا يقولون إنه ابن الله عز وجل وعلا. قال : فما تقولون فى ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله عز وجل:

روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء : أى البكر البتول : أى المنقطعة عن الأزواج ، التى لم يمسها بشر ، ولم يفرضها أى يشقها . ويخرج منها ولد : أى غير عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، فقال النجاشى : يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان مايزيدون على ماتقولون ؛ أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل : أى ومعنى كونه روح الله أنه حاصل عن نفخة روح القدس الذى هو جبريل ، ومعنى كونه كلمة الله تعالى أنه قال له كن فكان : أى حصل فى حال القول .

وفى لفظ أن النجاشى قال لمن عنده من القسيسين والرهبان : أنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيا مرسلا ؟ أى صفته ما ذكر هؤلاء ؛ فقالوا : اللهم نعم ، قد بشرنا به عيسى ، فقال : من آمن به فقد آمن بى ، ومن كفر به فقد كفر بى ؛ فعند ذلك قال النجاشى : والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته فأكون أنا الذى أحمل نعله وأوضئه : أى أغسل يديه ، وقال للمسلمين : انزلوا حيث شئتم سيوم بأرضى : أى آمنون بها، وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق ، وقال : من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد عصانى .

وفى لفظ ، ثم قال : اذهبوا فأنتم آمنون ، من سبكم غرم ، قالها ثلاثا : أى أربع دراهم وضعفها كما جاء فى بعض الروايات ، وأمر بهدية عمرو ورفيقه فردت عليهما .

وفى لفظ ، أن النجاشى قال : ما أحب أن يكون لى ديرا من ذهب : أى جبلا وأن أوذى رجلا منكم ، ردوا عليهم هداياهم فلا حاجة لى بها ، فو الله ما أخذ الله تعالى منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه .

وكان النجاشى أعلم النصارى بما أنزل على عيسى ، وكان قيصر يرسل إليه علماء النصارى لتأخذ عنه العلم .

أى وقد بينت عائشة رضى الله تعالى عنها السبب فى قول النجاشى : ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى . وهو أن والد النجاشى كان ملكا للحبشة فقتلوه وولوا أخاه الذى هو عم النجاشى ، فنشأ النجاشى فى حجر عمه لبيبا حازما ، وكان لعمه اثنا عشر ولدا لا يصلح واحد منهم للملك ، فلما رأت الحبشة نجابة النجاشى خافوا أن يتولى عليهم فيقتلهم بقتلهم لأبيه ، فمشوا لعمه فى قتله ، فأبى وأخرجه وباعه ، ثم لما كان عشاء تلك الليلة مرت على عمه صاعقة فمات ، فلما رأت الحبشة أن لايصلح أمرها إلا النجاشى ذهبوا

وجاءوا به من عند الذى اشتراه ، وعقدوا له التاج ، وملكوه عليهم ، فسار فيهم سيرة حسنة .

وفى رواية : ما يقتضى أن الذى اشتراه رجل من العرب ، وأنه ذهب به إلى بلاده ومكث عنده مدة ، ثم لما مرج أمر الحبشة وضاق عليهم ماهم فيه خرجوا فى طلبه وأتوا به من عند سيده ، ويدل لذلك ما سيأتى عنه أنه عند وقعة بدر أرسل خلف من عنده من المسلمين فدخلوا عليه ، فإذا هو قد لبس مسحا وقعد على التراب والرماد ، فقالوا له : ما هذا أيها الملك ؟ فقال : إنا نجد فى الإنجيل أن الله سبحانه وتعالى إذا أحدث بعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعا ، وإن الله تعالى قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة ، وهى أن محمدا صلى الله عليه وسلم التقى هو وأعداؤه بواد يقال له بدر كثير الأراك ، كنت أرعى فيه الغنم لسيدى ، وهو من بنى ضمرة ، وإن الله تعالى قد هزم أعداءه فيه ، ونصر دينه .

وذكر السهيلى أن بكاءه عند ما تليت عليه (سورة مريم) أى كما سيأتى حتى أخضل لحيته ، يدل على طول مكثه ببلاد العرب حتى تعلم من لسان العرب مافهم به تلك السورة .

قال : وعن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا خير جار وأمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لانؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا رجلين جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستظرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية : أى هيئوا له هدية ؛ ولا يخالف ما تقدم من أن الهدية كانت فرسا وجبة ديباج ، لأنه يجوز أن يكون بعض الأدم ضم إلى تلك الفرس والجبة للملك ، وبقية الأدم فرق على أتباعه ليعاونوهما على ما جاء بصدده ، والاقتصار على الفرس والجبة فى الرواية السابقة لأن ذلك خاص بالملك . ثم بعثوا عمارة بن الوليد وعمرو ابن العاص يطلبان من النجاشى أن يسلمنا لهم : أى قبل أن يكلمنا ، وحسن له بطارقته ذلك ، لأنهما لما أوصلا هداياهم إليهم قالوا لهم : إذا نحن كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم لنا قبل أن يكلمهم : أى موافقة لما وصت عليه قريش .

فقد ذكر أنهم قالوا لهما : ادفعوا لكل بطريق هدية قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما للنجاشى هداياه ، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم ، فلما جاءا إلى الملك

قالا له : أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء ؛ فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنت : أى جاءهم به رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتبعه منا إلا السفهاء ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردوهم إليهم ؛ فهم أعلم بما عابوا عليهم ، فقال بطارقته : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلم بهم فأسلمهم لهما ليرداهم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشي وقال : لاها الله ، أى لا والله لا أسلمهم ، ولا يكاد قوم يجاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان من أمرهم ، فإن كان كما يقولان سلمتهم إليهما ، وإلا منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني ، ثم أرسل لنا ودعانا ، فلما دخلنا سلمنا ، فقال من حضره : مالكم لاتسجدون للملك ؟ قلنا ، لانسجد إلا لله عز وجل ، فقال النجاشي : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى ديني ولا فى دين أحد من الملل ، فقلنا : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل إلى من قبلنا ، وذلك الرسول منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ، ونخلع : أى نترك ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا أن نعبد الله تعالى وحده ، وأمرنا بالصلاة ، أى ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى ، والزكاة ، أى مطلق الصدقة ، والصيام أى ثلاثة أيام من كل شهر : أى وهى البيض أو أى ثلاثة على الخلاف فى ذلك . وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ؛ أى ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به ، فعدا علينا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام واستحلال الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورجوناك أن لانظلم عندك يا أيها الملك ، فقال النجاشي لجعفر : هل عندك مما جاء به شيء ؟ قلت نعم . قال : فاقرأه على ، فقرأت عليه صدرا من كهيعص ، فبكى والله النجاشي حتى أخضل ، أى بل لحيته وبكت أساقفته ، وفى لفظ : هل عندك مما جاء به عن الله تعالى شيء ؟ فقال جعفر نعم ، قال : فاقرأه على ، قال البغوى : فقرأ عليه (سورة

العنكبوت والروم) ففاضت عيناه وأعين أصحابه بالدمع ، وقالوا : زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب ، فقرأ عليهم (سورة الكهف) فقال النجاشي : هذا والله الذى جاء به موسى : أى وفى رواية: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، أى وهذا كما قيل يدل على أن عيسى كان مقررا لما جاء به موسى ، وفى رواية بدل موسى عيسى ، ويؤيده مافى لفظ أنه قال : مازاد هذا على مافى الإنجيل إلا هذا العود لعود كان فى يده أخذه من الأرض .

وفى لفظ أن جعفرا قال للنجاشي : سلهما أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم ، فقال عمرو : بل أحرار ، فقال جعفر : سلهما هل أهرقنا دماء بغير حق فيقتص منا؟ هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤه ؟ فقال عمرو : لا ، فقال النجاشي لعمرو وعمارة : هل لكما عليهما دين ؟ قالا : لا ، قال : انطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ، زاد فى رواية : ولو أعطيتمونى دبرا من ذهب أى جبلا من ذهب ، ثم غدا عمرو إلى النجاشي : أى أتى إليه فى غد ذلك اليوم وقال له: إنهم يقولون فى عيسى قولا عظيما : أى يقولون إنه عبد الله أى وإنه ليس ابن الله .

أى وفى لفظ أن عمرا قال للنجاشي : أيها الملك إنهم يشتمون عيسى وأمه فى كتابهم فاسألهم ، فذكر له جعفر ماتقدم فى الرواية الأولى .

هذا ، وعن عروة بن الزبير : إنما كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان ، وهو حصر عجيب فليتأمل .

وروى الطبرانى عن أبى موسى الأشعرى بسند فيه رجال الصحيح « أن عمرو ابن العاص مكر بعمارة بن الوليد : أى للعداوة التى وقعت بينه وبينه فى سفرهما : أى من أن عمرو بن العاص كان معه زوجته وكان قصيرا دميما ، وكان عمارة رجلا جميلا فتن امرأة عمرو وهوته ، فنزل هو وإياه فى السفينة ، فقال له عمارة : مر امرأتك فلتقبلنى ، فقال له عمرو : ألا تستحى ، فأخذ عمارة عمرا ورمى به فى البحر ، فجعل عمرو يصيح وينادى أصحاب السفينة ، ويناشد عمارة حتى أدخله السفينة وأضمرها عمرو فى نفسه ولم يبدها لعمارة ، بل قال لامرأته : قبلى ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه ، فلما أتيا أرض الحبشة مكر به عمرو ، فقال : أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال ، فتعرض لزوجة النجاشي لعلها أن تشفع لنا عنده ، ففعل عمارة ذلك وتكرر تردده عليها حتى أهدت إليه

من عطرها : أى ودخل عندها ، فلما رأى عمرو ذلك أتى النجاشي وأخبره بذلك : أى فقال له: إن صاحبي هذا صاحب نساء ، وإنه يريد أهلك وهو عندها الآن ، فاعلم علم ذلك ، فبعث النجاشي ، فإذا عمارة عند امرأته ، فقال : لولا أنه جارى لقتلته ؛ ولكن سأفعل به ماهو شر من القتل ، فدعا بساحر فنفخ فى إحليله نفخة ، طار منها هائماً على وجهه مسلوب العقل حتى لحق بالوحوش فى الجبال إلى أن مات على تلك الحال اه .

أى ومن شعر عمرو بن العاص يخاطب به عمارة بن الوليد :

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه ولم ينـــه قلبا غاويا حيث يمما
قضى وطرا منه وغادر سبة إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

ولا زال عمارة مع الوحوش إلى أن كان موته فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ،وإن بعض الصحابة وهو ابن عمه عبد الله بن أبى ربيعة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قد استأذنه فى المسير إليه لعله يجده ، فأذن له عمر رضى الله تعالى عنه فسار عبد الله إلى أرض الحبشة ، وأكثر النشدة عنه والفحص عن أمره ، حتى أخبر أنه فى جبل ، يرد مع الوحوش إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت ، فجاء إليه ومسكه ، فجعل يقول له : أرسلنى وإلا أموت الساعة ، فلم يرسله فمات من ساعته ، وسيأتى بعد غزوة بدر أنهم أرسلوا للنجاشي عمرو بن العاص أيضا وعبد الله بن أبى ربيعة .

هذا وكان اسمه قبل أن يسلم بحيرا ، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وأبوه ربيعة الذى هو أبو عبد الله ، كان يقال له ذو الرمحين ،وأم عبد الله هى أم أبى جهل بن هشام ،فهو أخو أبى جهل لأمه أرسلوهما إليه ليدفع لهما من عنده من المسلمين ليقتلوهم فيمن قتل ببدر .

ومن العجب أن صاحب المواهب ذكر أن إرسال قريش لعمرو بن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة ومعهما عمارة بن الوليد فى الهجرة الأولى للحبشة ، وإنما كان عمرو وعمارة فى الهجرة الثانية ، وابن أبى ربيعة إنما كان مع عمرو بعد بدر كما علمت ، وإن كان يمكن أن يكون عبد الله بن أبى ربيعة أرسلته قريش مرتين إلا أنه بعيد .

ويرده قول بعضهم : إن قريشا أرسلت فى أمر من هاجر إلى الحبشة مرتين : الأولى أرسلت عمرو بن العاص وعمارة . والثانية أرسلت عمرو بن العاص وعبـــد الله بن أبى ربيعة فليتأمل .

ومكث بنوهاشم فى الشعب ثلاث سنين . وقيل سنتين فى أشد مايكون من البلاء وضيق العيش ، وولد عبد الله بن عباس فى الشعب ، فمن قريش من سره ذلك ، ومنهم من ساءه وقالوا : انظروا ماأصاب كاتب الصحيفة : أى من شلل يده كما تقدم ، وصار لايقدر أحد أن يوصل إليهم طعاما ولا أدما حتى أن أبا جهل لقى حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهى معه فى الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ،والله لاتذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فقال له أبو البخترى بن هشام : مالك وماله ؟ فقال أبو جهل : إنما يحمل الطعام لبنى هاشم ، فقال أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها ؟ خل سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البخترى لحى بعير : أى العظم الذى تنبت عليه الأسنان فضربه فشجه ووطئه وطئا شديدا . وأبوالبخترى — بالخاء المهملة — وفى مختصر أسد الغابة — بالخاء المعجمة — ممن قتل ببدر كافرا ؛ وحتى إن هاشم ابن عمرو بن الحارث العامرى رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك — أدخل عليهم فى ليلة ثلاثة أجمال طعاماً ، فعلمت بذلك قريش ، فمشوا إليه حين أصبح وكلموه فى ذلك ، فقال : إنى غير عائد لشىء خالفكم ؛ ثم أدخل عليهم ثانيا جملا وقيل جملين ، فغامت به قريش فغالظته : أى أغلظت له القول وهمت به ، فقال أبو سفيان بن حرب : دعوه وصل رحمه ، أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل مافعل كان أحسن بنا ، وكان أبو طالب فى كل ليلة يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى فراشه ويضطجع به ، فإذا نام الناس أقامه وأمر أحد بنيه أو غيرهم أى من إخوته أو بنى عمه أن يضطجع مكانه خوفا عليه أن يغتاله أحد ممن يريد به السوء : أى وفى الشعب ولد عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ثم أطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على أن الأرضة : أى وهى سوسة تأكل الخشب إذا مضى عليها سنة نبت لها جناحان تطير بهما ، وهى التى دلت الجن على موت سليمان ؛ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام أكلت مافى الصحيفة من ميثاق وعهد : أى الألفاظ المتضمنة للظلم وقطيعة الرحم ؛ ولم تدع فيها اسما لله تعالى إلا أثبتته فيها . وفى رواية ولم تترك الأرضة فى الصحيفة اسما لله عز وجل إلا لحسته ، وبقى ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم ، أى والرواية الأولى أثبت من الثانية .

قال : ويجمع بين الروايتين بأنهم كتبوا نسخا فأكلت الأرضة من بعض النسخ اسم

الله تعالى ، وأكلت من بعض النسخ ما عدا اسم الله تعالى ، لئلا يجتمع اسم الله تعالى مع ظلمهم انتهى ، أى والتى علقت فى الكعبة هى التى لحست تلك الدابة ما فيها من اسم الله تعالى ، كما يدل عليه ما يأتى ، فذكر ذلك لعمه أبى طالب ، فقال له عمه : والثواقب أى النجوم ، لأنها تثقب الشياطين ، وقيل التى تضىء لأنها تثقب الظلام بضوئها ، وقيل الثريا خاصة لأنها أشد النجوم ضوءا — ما كذبتنى قط : أى ما حدثتنى كذبا . وفى رواية أنه قال له : أربك أخبرك بهذا الخبر ؟ قال نعم ، فانطلق فى عصابة : أى جماعة من قومه أى من بنى هاشم وبنى المطلب [ ] .

أى وفى رواية أن أبا طالب لما ذكر لأهله قالوا له : فما ترى ؟ قال : أرى أن تلبثوا أحسن ثيابكم ، وتخرجوا إلى قريش ، فتذكروا ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر ، فخرجوا حتى أتوا المسجد على خوف من قريش ، فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، فتكلم معهم أبوطالب ، وقال: جرت أمور بيننا وبينكم ، فأتوا بصحيفتكم التى فيها مواثيقكم ، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح : أى مخرج يكون سببا للصلح ، وإنما قال أبو طالب ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها : أى فلا يأتون بها ، فأتوا بصحيفتهم لايشكون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع إليهم : أى لأنه الذى وقعت عليه العهود والمواثيق ، فوضعوها بينهم وقالوا لأبى طالب : أى توبيخا له ولمن معه : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم ، فقال أبو طالب : إنما أتيتكم فى أمر نصف بيننا وبينكم : أى أمر وسط لاحيف فيه علينا ولا عليكم ، إن ابن أخى أخبرنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة لم تترك فيها اسما من أسماء الله تعالى إلا لحسته وتركت فيها غدركم وتظاهركم علينا بالظلم .

أقول : هذه على الرواية الثانية ، وأما على الرواية الأولى التى هى أثبت فيكون قوله لم تترك اسما إلا أثبتته ولحست مواثيقكم وعهدكم .

ثم رأيت ابن الجوزى ذكر ذلك ، فقال : إن أبا طالب قال : إن ابن أخى قد أخبرنى ولم يكذبنى قط أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التى كتبتم الأرضة ، فلحست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله تعالى .

وفى الينبوع أن أبا طالب قال لما حضرت الصحيفة : إن صحيفتكم هذه صحيفة إثم وقطيعة

رحم ، وإن ابن أخى أخبرنى أن الله تعالى سلط عليها الأرضة، فلم تدع ما كتبتم إلا باسمك اللهم ، والله أعلم . قال أبو طالب : فان كان الحديث كما يقول ، فأفيقوا: أى وفى رواية نزعتم : أى رجعتم عن سوء رأيكم : أى وإن لم ترجعوا فوالله لانسلمه حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم ، فقالوا : قد رضينا بالذى تقول : أى وفى رواية أنصفتنا ، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ،فلما رأت قريش صدق ماجاء بهأبو طالب قالوا : أى قال أكثرهم : هذا سحر ابن أخيك ، وزادهم ذلك بغيا وعدوانا، وبعضهم ندم وقال : هذا بغى منا على إخواننا وظلم لهم .

أى وقد جاء أن أبا طالب قال لهم أى بعد أن وجدوا الأمر كما أخبر به صلى الله عليه وسلم : يامعشر قريش علام نحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبين أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة ؟ ودخلوا بين أستار الكعبة وقالوا: اللهم انصرنا على من ظلمنا، وقطع أرحامنا واستحل مايحرم عليه منا ، ثم انصرفوا إلى الشعب ، وعند ذلك مشى طائفة منهم وهم خمسة فى نقض الصحيفة : أى ماتضمنته ، وهم : هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أمية ابن عمته صلى الله عليه وسلم عاتكة بنت عبد المطلب ، وقد أسلم بعد ذلك كالذى قبله كما تقدم، والمطعم بن عدى مات كافرا كما تقدم. وأبو البخترى بن هشام قتل ببدر كافرا. كما تقدم وزمعة بن الأسود قتل ببدر كافرا .

واختلف فى كاتب الصحيفة ؛ فعند ابن سعد أنه بغيض بن عامر فشلت يده ، ولم يعرف له إسلام : وعند ابن إسحاق أن الكاتب لها هشام بن عمرو المتقدم ذكره .

قال : وقيل إن الكاتب لها منصور بن عكرمة : أى فشلت يده فيما يزعمون ، كذا فى النور نقلا عن سيرة ابن هشام . وقيل النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت بعض أصابعه، وهو ممن قتل على كفره عند منصرفه صلى الله عليه وسلم من بدر. وقيل الكاتب لها طلحة بن أبى طلحة العبدرى. قال ابن كثير رحمه الله: والمشهور أنه منصور.

ويجمع بين هذه الأقوال باحتمال أن يكون كتب بها نسخ : أى فكل كتب نسخة انتهى : أى وينبغى أن يكون الذى شلت يده هو كاتب الصحيفة التى علقت فى الكعبة ، ولعلها هى التى كتبت أولا ، وإلى أكل الأرضة الصحيفة ، وإلى عد الخمسة الذين سعوا فى نقض الصحيفة أشار صاحب الهمزية بقوله :

فديت خمسة الصحيفة بالخمـــسة إذ كان للكرام فداء
فتية بيتوا على فعل خير حمد الصبح أمره والمساء
يالأمر أتاه بعد هشام زمعة إنه الفتى الأتاء
وزهير والمطعم بن عدى وأبو البخترى من حيث شاءوا
نقضوا مبرم الصحيفة إذ شد دت عليه من العدا الأنداء
أذكرتنا بأكلها أكل منسا ة سليمان الأرضة الخرساء
وبها أخبر النبي وكم أخـــرج خبا له الغيوب خباء

أى فديت خمسة الصحيفة : أى الناقضين لها بالخمسة المستهزئين السابق ذكرهم ، فتية ثبتوا وتراودوا واشتوروا بالحجون ليلا على فعل خير وهو نقض الصحيفة ، حمد الصباح والمساء منهم ذلك الفعل ، بالأمر عظيم وهو نقض الصحيفة أتاه بعد هشام زمعة بن الأسود وإنه الكريم فى قومه ، الأتاء : أى المبالغ فى إيتاء الخير ، وأتاه زهير ، وأتاه المطعم بن عدى ، وأتاه أبو البخترى من المكان الذى قصدوه فنقضوا مبرم الصحيفة : أى الأمر الذى أبرمته أذكرتنا الأرضة الخرساء بأكلها تلك الصحيفة. منساة : أى عصى سليمان ، وبأكلها للصحيفة أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ومرات كثيرة أخرج صلى الله عليه وسلم شيئا مخبأ الغيوب له ساترة ، والمراد أن كل واحد من هؤلاء الخمسة الذين نقضوا الصحيفة فدى بأولئك الخمسة المستهزئين من الأذى الذى أصابهم المتقدم ذكره ؛ فلا ينافى أن بعض هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة مات كافرا .

قال : جاء أن هشام بن عمرو بن الحارث رضى الله تعالى عنه — فإنه أسلم بعد ذلك كما تقدم — مشى إلى زهير بن أمية بن عاتكة بنت عبد المطلب رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك أيضا كما تقدم ، فقال له : يازهير أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب وأخوالك قد علمت لايبايعون ولا يبتاعون ؟ فقال : ويلك ياهشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت لأنقضها يعنى الصحيفة قال : وجدت رجلا ، قال من هو ؟ قال : أنا ، فقال زهير : ابغنا رجلا ثالثا ، فذهب إلى المطعم بن عدى ، فقال له : يامطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، يعنى بنى هشام وبنى المطلب وأنت شاهد على ذلك ؟ فقال له : ويحك ماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : وجدت ثانيا ، قال : من هو ؟ قلت : أنا ، قال ابغنا رجلا ثالثا ، قال : قد فعلت ، قال :

من هو ؟ قلت : زهير بن أمية ، قال : ابغنا رابعا ، فذهبت إلى أبي البختري بن هشام ، فقلت له نحوا مما قلت للمطعم ، فقال : وهل معين على هذا الأمر ؟ قلت نعم ، قال : من هو؟ قلت: زهير بن أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك ، قال ابغنا خامسا ، فذهبت إلى زمعة بن الأسود فكلمته ، فقال وهل من أحد يعين على ذلك فسميت له القوم .

ثم إن هؤلاء اجتمعوا ليلا عند الحجون ، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ؛ وغدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم ، أى والمطلب هلكى؟ لايباعون ولا يبتاع منهم ، والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، فقال أبو جهل كذبت والله لاتشق ، قال زمعة بن الأسود أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حين كتبت ، قال أبو البخترى صدق زمعة ، قال المطعم صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله تعالى منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بالليل ، فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فشقها انتهى .

أى وهذا يدل للرواية الدالة على أن الأرضة لحست اسم الله تعالى ، وأبقت ما فيها من العهود والمواثيق ، وإلا فبعد امحاء ذلك منها لا معنى لشقها .

وفى كلام بعضهم يحتمل أن أبا طالب إنما أخبرهم بعد سعيهم فى نقضها . قال ابن حجر الهيتمي : ويبعده أن الإخبار بذلك حينئذ ليس له كبير جدوى ، وقام هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا .

باب ذكر خبر وفد نجران

ثم قدم عليه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وفد نجران ، وهم قوم من النصارى ، ونجران : بلدة بين مكة واليمن ، على نحو من سبع مراحل من مكة ، كانت منزلا للنصارى ، وكانوا نحوا من عشرين رجلا حين بلغهم خبره ممن هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فوجدوه صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فجلسوا إليه سألوه وكلموه ورجال من قريش فى أنديتهم

حول الكعبة ينظرون إليهم، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به ، وعرفوا منه ماهو موصوف به فى كتابهم ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب، يعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون أى تنظرون الأخبار لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم فصدقتموه بما قال ، لانعلم ركبا أحمق: أى أقل عقلا منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا مانحن عليه ولكم ماأنتم عليه ، ويقال نزل فيهم قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) إلى قوله (لا نبتغى الجاهلين) ونزل قوله تعالى (وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

وذكر فى الوفاء وفود ضماد الأزدى عليه صلى الله عليه وسلم ، فقال : عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن ضمادا قدم مكة وكان من أزد شنوءة ، وكان يرقى من الريح : أى ولعل المراد به اللمة من الجن، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى ، قال: فأتيته فقلت : يامحمد إنى أرقى من الريح ، فان الله يشفى على يدى من شاء ، فهل لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له،وأن محمدا عبده ورسوله ، فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء،فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى قومك ؟ قال : وعلى قومى .

باب ذكر وفاة عمه أبي طالب، وزوجته صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله تعالى عنها

لتعلم أنهما ماتا فى عام واحد : أى بعد خروج بنى هاشم والمطلب من الشعب بثمانية وعشرين يوما ، وإلى موتهما فى عام واحد أشار صاحب الهمزية بقوله :

وقضى عمه أبو طالب والد   دهر فيه السراء والضراء
ثم ماتت خديجة ذلك العا   م ونالت من أحمد المناء

وذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين ، وبعد مضى عشر سنين من بعثته صلى الله عليه وسلم : أى من مجىء جبريل عليه السلام بالوحى. وهو يرد قول ابن إسحاق ومن تبعه أن خديجة رضى الله تعالى عنها ماتت بعد الإسراء .

وأفاد كلام صاحب الهمزية أن موت خديجة كان بعد موت أبى طالب . وقيل كانت وفاة خديجة رضى الله تعالى عنها قبل أبى طالب بخمس وثلاثين ليلة . وقيل بعده بثلاثة أيام . ويؤيد مافى الهمزية قول الحافظ عماد الدين بن كثير المشهور أنه مات قبل خديجة رضى الله تعالى عنها : أى بثلاثة أيام . ودفنت بالحجون ، ونزل صلى الله عليه وسلم فى حفرتها ولها من العمر خمس وستون سنة ولم تكن الصلاة على الجنازة شرعت [ ] .

وذكر الفاكهانى المالكى فى شرح الرسالة أن صلاة الجنازة من خصائص هذه الأمة ، لكن ذكر مايخالفه فى الشرح المذكور حيث قال : وروى « أن آدم عليه السلام لما توفى أتى بحنوط ، وكفن من الجنة ، ونزلت الملائكة فغسلته وكفنته فى وتر من الثياب وحنطوه وتقدم ملك منهم فصلى عليه وصلت الملائكة خلفه، ثم أقبروه وألحدوه ونصبوا اللبن عليه وابنه شيث عليه الصلاة والسلام الذى هو وصيه معهم ، فلما فرغوا قالوا له : هكذا فاصنع بولدك وإخوتك ، فإنها سنتكم »هذا كلامه : أى ويبعد أنه لم يفعل ذلك بعد القول المذكور له . ويحتمل أن المراد بالصلاة مجرد الدعاء لا هذه الصلاة المعروفة المشتملة على التكبير ، لكن يبعده مافى العرائس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن آدم لما مات قال ولده شيث لجبريل صل عليه ، فقال له جبريل : بل أنت تقدم فصل على أبيك ، فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة » وقد أخرج الحاكم نحوه مرفوعا وقال صحيح الإسناد ،

ومنه تعلم أن الغسل والتكفين والصلاة والدفن واللحد من الشرائع القديمة ، بناء على أن المراد بالصلاة الصلاة المشتملة على التكبير لا مجرد الدعاء .

وحينئذ لا يحسن القول بأن صلاة الجنازة من خصائص هذه الأمة ، إلا أن يقال لايلزم من كونها من الشرائع القديمة أن تكون معروفة لقريش ، إذ لو كانت كذلك لفعلوا ذلك ، وسيأتى عنهم أنهم لم يفعلوا ذلك .

وأيضا لوكانت معروفة لهم لصلى صلى الله عليه وسلم على خديجة ومن مات قبلها من المسلمين كالسكران ابن عم سودة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنهما الذى هو زوجها ، وسيأتى أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد البراء بن معرور قد مات فذهب هو وأصحابه فصلى على قبره ، وأنها أول صلاة صليت على الميت فى الإسلام ، ومعرور معناه فى الأصل مقصود.

لايقال : يجوز أن يكون المراد بتلك الصلاة مجرد الدعاء . لأنا نقول قد جاء أنه كبر فى صلاته أربعا . وقد روى هذه الصلاة تسعة من الصحابة ذكرهم السهيلى ، وسيأتى عن الإمتاع : لم أجد فى شىء من السير متى فرضت صلاة الجنازة ، ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم صلى على أسعد بن زرارة وقد مات فى السنة الأولى : ولا على عثمان بن مظعون وقد مات فى السنة الثانية .

وفى كلام بعضهم : صلاة الجنازة فرضت فى السنة الأولى من الهجرة ، وأول من صلى عليه صلى الله عليه وسلم أسعد بن زرارة فليتأمل .

وفى كلام بعضهم : كانوا فى الجاهلية يغسلون موتاهم ، وكانوا يكفنونهم ويصلون عليهم . وهو أن يقوم ولى الميت بعد أن يوضع على سريره ويذكر محاسنه كلها ويثنى عليه ثم يقول : عليك رحمة الله ثم يدفن ، أى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى ذلك العام عام الحزن ، ولزم بيته وأقل الخروج ، وكانت مدة إقامتها معه صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة على الصحيح .

ويذكر « أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة رضى الله تعالى عنها وهى مريضة فقال لها : ياخديجة أتكرهين ما أرى منك ، وقد يجعل الله فى الكره خيرا ؟ أشعرت أن الله قد أعلمنى أنه سيزوجنى » وفى رواية « أما علمت أن الله قد زوجنى معك فى الجنة مريم ابنة عمران ، وكلثم أخت موسى وهى التى علمت ابن عمها قارون الكيمياء ، وآسية امرأة فرعون ، فقالت : آلله أعلمك بهذا يارسول الله؟ » وفى رواية « آلله فعل ذلك

يا رسول الله ؟ قال نعم، قالت : بالرفاء والبنين » زاد فى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم أطعم خديجة من عنب الجنة » وقولها بالرفاء والبنين هو دعاء كان يدعى به فى الجاهلية عند التزويج ، والمراد منه الموافقة والملايمة ، مأخوذ من قولهم رفأت الثوب : ضممت بعضه إلى بعض ، ولعل هذا كان قبل ورود النهى عن ذلك .

هذا، وفى الإمتاع أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما تزوج أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب رضى الله عنه جاء إلى مجلس المهاجرين الأولين فى الروضة فقال رفئونى ، فقالوا ماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزوجت أم كلثوم بنت علىّ هذا كلامه ، ولعل النهى لم يبلغ هؤلاء الصحابة حيث لم ينكروا قوله ، كما لم يبلغ سيدنا عمر رضى الله تعالى عنهم .

وفى الشهر الذى ماتت فيه خديجة رضى الله تعالى عنها وهو شهر رمضان بعد موتها بأيام تزوج سودة بنت زمعة ، وكانت قبله عند السكران ابن عمها ، وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها ، فلما انقضت عدتها تزوّجها صلى الله عليه وسلم ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وقد كانت رأت فى نومها أن النبى صلى الله عليه وسلم وطئ عنقها فأخبرت زوجها، فقال : إن صدقت رؤياك أموت أنا ويتزوّجك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رأت فى ليلة أخرى أن قمرا انقضّ عليها من السماء وهى مضطجعة ، فأخبرت زوجها فقال : لا ألبث حتى أموت فمات من يومه ذلك [ ] .

وعقد صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله تعالى عنها وهى بنت ست أو سبع سنين فى شوّال. فعن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن معظون قالت «قلت لما ماتت خديجة: يارسول الله ألا تتزوج ؟ قال : من ؟ قلت : إن شئت بكرا ، وإنْ شئت ثيبا ، قال : فمن البكر ؟ قلت : أحق خلق الله بك ، بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما ، قال : ومن الثيب ؟ قلت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال : فاذهبى فاذكريهما علىّ ، قالت : فدخلت على سودة بنت زمعة فقلت لها : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطبك عليه ، قالت : وددت ، ادخلى على أبى فاذكرى ذلك له وكان شيخا كبيرا ، فدخلت عليه وحيته بتحية الجاهلية فقال : من هذه ؟ قلت : خولة بنت حكيم ، قال : فما شأنك ؟ قلت : أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة ، قال : كفء كريم

قال : ماتقول صاحبتك ؟ قالت تحب ذلك ، قال ادعيها إلى ، فدعوتها قال : أى بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفء كريم ، أتحبين أن أزوجك منه ؟ قالت نعم ، قال : ادعيه لى ، فجاءرسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه إياها ، ولما قدم أخوها عبد بن زمعة وقد بلغه ذلك صار يحثى على رأسه التراب ، ولما أسلم قال : لقد كذنى السفه يوم أحثى على رأسى التراب إذ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة يعنى أخته » وذهبت خولة إلى أم رومان أم عائشة فقالت لها « ماذا أدخل الله عليكم من البركة والخير ؟ قد أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة ، قالت : انتظرى أبا بكر حتى يأتى ، فجاء أبو بكر فقلت له : يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت: قد أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة ، قال : وهل تصلح أى تحل له ؟ إنما هى بنت أخيه ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : ارجعى إليه ، فقولى له : أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام ، وابنتك تصلح لى — أى تحل ، فرجعت فذكرت ذلك له ، قالت أم رومان رضى الله تعالى عنها : إن مطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه جبير ووعده ، والله ما وعد وعدا قط فأخلفه — تعنى أبا بكر — فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته أم ابنه المذكور ، فكلمت أبا بكر بما أوجب ذهاب ماكان فى نفسه من عدته لمطعم ، فإن المطعم لما قال له أبو بكر : ما تقول فى أمر هذه الجارية أقبل المطعم على امرأته وقال لها : ما تقولين يا هذه ؟ فأقبلت على أبى بكر وقالت له : لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم تصبيه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ، فأقبل أبوبكر على المطعم وقال له : ماذا تقول أنت ؟ فقال : إنها لتقول ماتسمع ، فقام أبوبكر وليس فى نفسه من الوعد شىء ، فرجع فقال لخولة : ادعى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعته فزوجه إياها وعائشة حينئذ بنت ست سنين ، وقيل سبع سنين وهو الأقرب » .

فعلم أن العقد على سودة تقدم على العقد على عائشة ، لأن العقد على سودة كان فى رمضان الشهر الذى ماتت فيه خديجة رضى الله تعالى عنها وعلى عائشة كان فى شوال ، ومعلوم أن الدخول بسودة كان بمكة وعلى عائشة كان بالمدينة .

ثم رأيت بعضهم ذكر أن خولة ذهبت إلى طلب عائشة وأن النبى صلى الله عليه وسلم

عقد عليها قبل ذهابها لسودة وعقده عليها ، ولاتخفى المخالفة ، إلا أن يراد بالعقد على سودة الدخول بها . وفيه أنه لايحسن ذلك مع قوله قبل ذهابها لسودة .

ولما اشتكى أبوطالب: أى مرض وبلغ قريشا ثقله : أى اشتداد المرض به قال بعضهم لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا أى يسلبونه ، ومنه قولهم : من عزّ بزّ : أى من غلب أخذ السلب : وهو الثياب التى هى البز . وفى لفظ : إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء : أى قتل محمد كما فى بعض الروايات ، فتعيرنا العرب ويقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه ، فمشى إليه أشرافهم منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعه وأبو جهل وأمية بن خلف وأبو سفيان رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم ليلة الفتح كما سيأتى ، وأرسلوا رجلا يدعى المطلب ؛ فاستأذن لهم على أبى طالب فقال : هؤلاء شيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك ، قال أدخلهم ؛ فدخلوا عليه فقالوا : يا أبا طالب أنت منا حيث قد علمت . وفى لفظ قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ؛ وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه لينكف عنا وننكف عنه ، وليدعنا وديننا -وندعه ودينه ، فبعث إليه صلى الله عليه وسلم أبو طالب فجاءه ، ولما دخل صلى الله عليه وسلم على أبى طالب وكان بين أبى طالب وبين القوم فرجة تسع الجالس ، فخشى أبو جهل أن يجلس النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الفرجة فيكون أرق منه ؛ فوثب أبو جهل فجلس فيها ، فلم يجد النبى صلى الله عليه وسلم مجلسا قرب أبى طالب ، فجلس عند الباب انتهى .

وفى الوفاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : خلوا بينى وبين عمى ، فقالوا : ما نحن بفاعلين ؛ وما أنت بأحق به منا ، إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك ، فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك ، وفى لفظ : هؤلاء شيخة قومك وسرواتهم ، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك . وفى لفظ : سألوك النصف ، وفى لفظ : أعط سادات قومك ما سألوك ، فقد أنصفوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتكم

إن أعطيتكم ما سألتم هل تعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ أى تطيع وتخضع ، فقال أبو جهل : نعم وآتيك عشر كلمات . وفى لفظ لنعطيكهاوعشرا معها ، فما هى ؟ قال : تقولون لا إله إلا الله وتقلعون عما تعبدون من دونه ، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن أمرك لعجب ، فأنزل الله تعالى (ص والقرآن ذى الذكر) إلى آخر الآيات ، وفى لفظ قالوا: أيسع لحاجاتنا جميعا إله واحد ، وفى لفظ قالوا : سلنا غير هذه الكلمة . وفى لفظ أن أبا طالب قال : يا ابن أخى هل من كلمة غيرها ، فإن قومك قد كرهوها ، قال : ياعم ما أنا بالذى يقول غيرها ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ماسألتكم غيرها ، ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا . وفى لفظ قالوا عند قيامهم : والله لنشتمك ولإلهك الذى يأمرك بهذا ، أى وفى لفظ لتكفن عن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى أمرك بهذا .

قال فى الينبوع : وهذه العبارة أحسن من الأولى ، لأنهم كانوا يعرفون أنه يعبد الله ، وما كانوا ليسبوا الله عالمين ، لكنهم ما كانوا يعرفون أن الله أمره بذلك ، وذكر أن ذلك سبب نزول قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) .

هذا ، وفى النهر أن سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا لأبى طالب : إما أن تنهى محمدا عن سب آلهتنا والتقص منها ، وإما أن نسب إلهه ونهجوه ، قال فيه : وحكم هذه الآية باق فى هذه الأمة ، فإذا كان الكافر فى منعة وخيف أن يسب الإسلام أو الرسول فلا يحل للمسلم ذم دين الكافر ، ولا يتعرض لما يؤدى إلى ذلك ، لأن الطاعة إذا كانت تؤدى إلى مفسدة خرجت عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها كما ينهى عن المعصية هذا كلامه .

وعند ذلك قال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شحطا أى بالحاء والطاء المهملتين أمرا بعيدا ، فلما قال ذلك طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، فجعل يقول : أى عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة : أى لو ارتكبت ذنبا بعد قولها ، وإلا فالاسلام يجب ماقبله ، فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : والله يا ابن أخى لولا مخافة السبة : أى العار عليك

وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا : أى بالجيم والزاى خوفا من الموت، وهذا هو المشهور. وقيل بالخاء المعجمة والراء ، أى ضعفا لقلتها، وفى رواية: لأقررت بها عينك لما أرى من شدة وجدك ،لكنى أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف ، فأنزل الله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت) الآية .

أى وعن مقاتل « أن أبا طالب قال عند موته : يامعشر بنى هاشم أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ياعم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال . فما تريد يا ابن أخى؟ قال: أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله تعالى ، فقال : يا ابن أخى قد علمت أنك صادق لكنى أكره أن يقال » الحديث ، قال فى الهدى : وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه لما فى ذلك من المصالح التى تبدو لمن تأملها : أى وكذا أقرباؤه وبنو عمه تأخر إسلام من أسلم منهم ، ولو أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به لقيل قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له ، فلما بادر إليه الأباعد وقاتلوا على حبه من كان منهم حتى إن الشخص منهم يقتل أباه وأخاه،علم أن ذلك إنماهو عن بصيرة صادقة ويقين ثابت.

وذكر « أنه لما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنه ، فقال : يابن أخى ، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته بقولها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمع » . وفيه أنه لم يثبت أن العباس ذكر ذلك بعد الإسلام . وأيضا نزول الآية حيث ثبت أن نزولها فى حق أبى طالب يرد ذلك .

ويرده أيضا مافى الصحيحين عن العباس رضى الله تعالى عنه أنه قال « قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحيطك وينصرك فهل ينفعه ذلك ؟ قال نعم ، وجدته - أى كشف لى عن حاله ومايصير إليه يوم القيامة - فوجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح» أى وفى لفظ آخر « قال نعم ، هو - أى يوم القيامة - فى ضحضاح من النار ، لولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » ولو كانت الشهادة المذكورة عند العباس ما سأل هذا السؤال ولأداها بعد الإسلام ، إذ لو أداها لقبلت .

وقد يقال : إنما سأل هذا السؤال ولم يعد الشهادة بعد الإسلام ، لأنه لما قال له صلى الله عليه وسلم أولا لم أسمع ، فهم أنه حيث لم يسمعها صلى الله عليه وسلم لم يعتد بها سأل هذا السؤال وفهم أن إعادة الشهادة بعد إسلامه لا تفيد شيئا .

ويرده أيضا ما جاء فى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم لما كرر على أبى طالب أن يقول كلمة الشهادة وهو يأبى إلى أن قال هو على دين عبد المطلب قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لأستغفرنّ لك مالم أنه عن ذلك . أى عن الاستغفار لكّ فأنزل الله عز وجل (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم)»أى وتقدم أن سبب نزول هذه الآية طلب استغفاره لأمه عند زيارة قبرها ، أن يقال لا مانع من تكرر سبب نزولها ، لجواز أنه صلى الله عليه وسلم جوّز الفرق بين أمه وعمه ، لأن أمه لم تدع للإسلام بخلاف عمه ، وفى منع استغفاره لأمه ماتقدم . ولا يشكل على ذلك قوله يوم أحد « اللهم اغفر لقومى » لأن ذلك أى غفران الذنوب مشروط بالتوبة : أى الإسلام ، فكأنه صلى الله عليه وسلم دعا لهم بالتوبة التى هى الإسلام ، ويؤيده رواية « اللهم اهد قومى » أى للإسلام. قال : وأيضا جاء فى صحيح ابن حبان عن على رضى الله تعالى عنه قال « لما مات أبوطالب أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات ، قال : اذهب فواره ، قال على رضى الله تعالى عنه : فلما واريته جئت إليه ، فقال لى اغتسل » .

أقول: لأنه غسله ، وبه وبقوله صلى الله عليه وسلم « من غسل ميتا فليغتسل » استدل أئمتنا على أن من غسل ميتا مسلما أو كافرا استحب له أن يغتسل .

وروى البيهقى خبر « أن عليا رضى الله تعالى عنه غسله بأمر النبى صلى الله عليه وسلم له بذلك » لكن ضعفه وفى رواية عن على رضى الله تعالى عنه « لما أخبرت النبى صلى الله عليه وسلم بموت أبى طالب بكى وقال : اذهب فاغسله وكفنه وواره ، غفر الله له ورحمه» .

وأما ماروى عنه أنه صلى الله عليه وسلم عارض جنازة عمه أبى طالب فقال : وصلتك رحم ، وجزيت خيرا ياعم » فقال الذهبى إنه خبر منكر ، والله أعلم .

وجاء أيضا « أنه ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : إنه ستنفعه شفاعتى » وفى رواية « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار » أى مقدار مايغطى بطن قدميه. وفى رواية « فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منها دماغه» وفى لفظ عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة شفعت لأبى وأمى وعمى أبى طالب ،وأخ لى كان فى الجاهلية »يعنى أخاه من الرضاعة من حليمة كما فى رواية تأتى .

أقول : يجوز أن يكون ذكر شفاعته لأبويه كان قبل إحيائهما وإيمانهما به كما قدمناه جوابا عن نهيه عن الاستغفار لهما ، والله أعلم .

وفى لفظ آخر «شفعت فى أبى وعمى أبى طالب وأخى من الرضاعة -يعنى من حليمة- ليكونوا من بعد البعث هباء » .

ومما يستأنس به لإيمان أبيه ماجاء « أنه صلى الله عليه وسلم قال لابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها وقد عزّت قوما من الأنصار فى ميتهم : لعلك بلغت معهم الكدى — بالدال المهملة أو الكرا بالراء، يعنى القبور — فقالت: لا ، فقال : لو كنت بلغت معهم الكدى مارأيت الجنة حتى يراها جد أبيك يعنى عبد المطلب » ولم يقل جدك يعنى أباه الذى هو عبد الله ، وتقدم القول بأن حليمة وأولادها أسلموا .

وعليه فيجوز أن يكون هذا منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم أخوه من الرضاعة كما تقدم مثل ذلك فى أبيه وأمه . وفى رواة الحديث الأول من هو منكر الحديث، وفى الثانى من هو ضعيف . وقال فيه ابن الجوزى : إنه موضوع بلا شك : أى وهذا أى قبول شفاعته صلى الله عليه وسلم فى عمه أبى طالب عد من خصائصه صلى الله عليه وسلم ،فلايشكل بقوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أو لاتنفعهم شفاعة الشافعين فى الإخراج من النار بالكلية : أى وفى هذا الثانى أنه لايناسب أن شفاعته لهم أن يكونوا من بعد البعث هباء : أى فى صيرورتهم هباء ، إلا أن يقال إنه لم يستجب له فى ذلك .

قال : وجاء أيضا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أهون أهل النار — أى وهم الكفار — عذابا أبو طالب، وهو ينتعل بنعلين يغلى منهما دماغه » أى وفى رواية « كما يغلى المرجل » أى القدر من النحاس « حتى يسيل دماغه على قدميه » وفى رواية « كما يغلى المرجل بالقمقم » قيل والقمقم بكسر القافين : البسر الأخضر يطبخ فى المرجل استعجالا لنضجه يفعل ذلك أهل الحاجة .

وذكر السهيلى الحكمة فى اختصاص قدميه بالعذاب وزعم بعض غلاة الرافضة أن أبا طالب أسلم ، واستدل له بأخبار واهية ردها الحافظ ابن حجر فى الإصابة .

أي وقد قال: وقفت على جزء جمعه بعض أهل الرفض أكثر فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبى طالب ، ولم يثبت من ذلك شيء .

وروى أبو طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « حدثنى محمد أن الله أمره بصلة

الأرحام » وأن يعبد الله وحده ولا يعبد معه غيره » وقال « سمعت ابن أخي الأمين يقول اشكر ترزق ، ولا تكفر تعذب » انتهى .

وفى المواهب عن شرح التنقيح للقرافى أن أبا طالب ممن آمن بظاهره وباطنه وكفر بعدم الإذعان للفروع ، لأنه كان يقول : إنى لا أعلم أن ما يقوله ابن أخى لحق ، ولولا أنى أخاف أن يعيرنى نساء قريش لاتبعته ، فهذا تصريح باللسان واعتقاد بالجنان ، غير أنه لم يذعن للأحكام ، هذا كلامه . وفيه أن الإيمان باللسان الإتيان بلا إله إلا الله ، ولم يوجد ذلك منه كما علمت ، وتقدم أن الإيمان النافع عند الله للذى يصير به الشخص مستحقا لدخول الجنة ناجيا من الخلود فى النار ، التصديق بالقلب بماعلم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يقر بالشهادتين مع التمكين من ذلك حيث لم يطلب منه ذلك ويمتنع ، وأبو طالب طلب منه ذلك وامتنع .

وقد روى الطبرانى عن أم سلمة «أن الحارث بن هشام — أى أخا أبى جهل بن هشام — أتى النبى صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع ، فقال : إنك تحث على صلة الرحم ، والإحسان إلى الجار ، وإيواء اليتيم ، وإطعام الضيف ، وإطعام المسكين ، وكل هذا مما يفعله هشام ، يعنى والده ، فما ظنك به يارسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل قبر لا يشهد صاحبه أن لا إله إلا الله فهو جذوة من النار ، وقد وجدت عمى أبا طالب فى طمطام من النار ، فأخرجه الله لمكانه منى وإحسانه إلىّ ، نجعله فى ضحضاح من النار »

وذكر أن أباطالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجهاء قريش فأوصاهم ، وكان من وصيته أن قال : يامعشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة . أوصيكم بتعظيم هذه البنية : أى الكعبة ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش . صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأ — أى فسحة — فى الأجل ، وزيادة فى العدد . واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم . أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات . وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام . وإنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش — أى وهو الصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ،

وأنكره اللسان مخانة الشنآن — أى البغض — وهو لغة فى الشنآن — وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم يا معشر قريش ، كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد .

وفى لفظ آخر أنه لما حضرته الوفاة دعا بنى عبد المطلب فقال : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره ، فأطيعوه ترشدوا .

ولما مات أبو طالب نالت قريش من النبى صلى الله عليه وسلم من الأذى مالم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب ، حتى إن بعض سفهاء قريش نثر على رأس النبى صلى الله عليه وسلم التراب ، فدخل صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها لا تبكى لا تبكى يابنية ، فإن الله تعالى مانع أباك ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول « مانالت قريش منى شيئا أكرهه — أى أشد الكراهة — حتى مات أبو طالب » وتقدم ، وسيأتى بعض ما أوذوى به .

قال : ولما رأى قريشا تهجموا قال ياعم ما أسرع ماوجدت فقدك . ولما بلغ أبا لهب ذلك قام أبو لهب بنصرته أياما وقال له : يامحمد امض لما أردت ، وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه ، لا واللات والعزى لا يوصل إليك حتى أموت .

واتفق أن ابن العطيلة — أى وهو أحد المستهزئين المتقدم ذكرهم سب النبى صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليه أبو لهب ونال منه ، فولى وهو يصيح : يامعشر قريش صبا أبوعتبة — يعنى أبا لهب — فأقبلت قريش على أبى لهب وقالو له : أفارقت دين عبدالمطلب؟ فقال : ما فارقت » وفى لفظ « قالوا له : أصبوت ؟ قال : ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكنى أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى لما يريد ، قالوا : قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياما لايتعرض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب إلى أن جاء أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى أبى لهب فقالا له : أخبرك

ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ أى المحل الذى يكون فيه ، يزعم أنه فى النار ، فقال له أبو لهب : يامحمد أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار ، فقال أبو لهب : لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار ، فاشتد عليه هو وسائر قريش انتهى .

وفى لفظ « قال له : يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : مع قومه ، فخرج أبو لهب إلى أبى جهل وعقبة ، فقال : قد سألته ، فقال : مع قومه ، فقالا : يزعم أنه فى النار ، فقال : يا محمد أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم » الحديث ، ولا يخفى أن عبد المطلب من أهـل الفترة ، وتقدم الكلام عليهم والله أعلم .

باب ذكر خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

سميت بذلك ، لأن رجلا من حضرموت نزلها فقال لأهلها : ألا أبنى لكم حائطا يطيف ببلدكم فبناه ، فسمى الطائف ، وقيل غير ذلك .

لما مات أبو طالب ونالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم مالم تكن نالته منه فى حياته كما تقدم خرج إلى الطائف : أى وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقى من قريش وقرابته وعترته خصوصا من أبى لهبّ وزوجته أم جميل حمالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب .

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه أنه قال بعد موت أبى طالب « لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له صلى الله عليه وسلم أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا ؟ قال : فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ » .

وخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف كان فى شوال سنة عشر من النبوة وحده ، وقيل معه مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا ، وأن يناصروه

على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه . قال فى الإمتاع : لأنهم كانوا أخواله. قال بعضهم : ومن ثم أى من أجل أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره جعل الله الطائف مستأنسا على من ضاق صدره من أهل مكة ، كذا قال .

وفى كلام غيره : ولا جرم جعل الله الطائف مستأنسا لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيامة ، فهى راحة الأمة ، ومتنفس كل ذى ضيق وغمة (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) فليتأمل .

فلما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى سادات ثقيف وأشرافهم وكانوا إخوة ثلاثة : أحدهم عبد ياليل ، أى واسمه كنانة [ ] لم يعرف له إسلام ، وأخوه مسعود أى وهو عبد كلال بضم الكاف وتخفيف اللام [ ] لم يعرف له إسلام أيضا ، وحبيب . قال الذهبى : فى صحبته نظر ، أى وهم أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفى ، وجلس صلى الله عليه وسلم إليهم وكلمهم فيما جاءهم به أى من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة أى ينتفها ويقطعها ، أى وقيل يسرقها إن كان الله أرسلك . وقال له آخر :ماوجد الله أحدا يرسله غيرك . وقال له الثالث والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم خطرا : أى قدرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى لى أن أكلمك ، فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد أيس من خير ثقيف ، وقال لهم : اكتموا علىّ ، وكره صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه وقالوا له اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض ، وأغروا به — أى سلطوا عليه — سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مر صلى الله عليه وسلم بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا أرضخوهما أى دقوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه صلى الله عليه وسلم .

وفى لفظ: حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أزلقته الحجارة — أى وجد ألمها — قعد إلى الأرض ، فيأخذون بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ، كل ذلك وزيد بن حارثة — أى بناء على أنه كان معه صلى الله عليه وسلم — يقيه بنفسه حتى لقد شج رأسه شجاجا ، فلما خلص منهم رجلاه يسيلان دما

عمد إلى حائط من حوائطهم : أى بستان من بساتينهم ، فاستظل فى حبلة ـ أى بفتح الباء الموحدة وتسكينها غير معروف ـ شجرة كرم ، وقيل لها حبلة لأنها تحمل بالعنب . وقد فسر نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع حبل الحبلة ببيع العنب قبل أن يطيب . قال السهيلى : وهو غريب لم يذهب إليه أحد فى تأويل الحديث ، فجاء إلى ذلك المحل وهو مكروب موجع » أى وقد جاء النهى عن أن يقال لشجر العنب الكرم فى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم الكرم ، فإن الكرم قلب المؤمن ، ولكن قولوا حدائق العنب » قال وسبب النهى عن تسميتها كرما ، لأن الخمر تتخذ من ثمرتها وهو يحمل على الكرم فاشتقوا لها اسما من الكرم .

وفى لفظ : ثم إن هؤلاء الثلاثة أى عبد ياليل وإخوته أغروا عليه سفهاءهم وعبيدهم فصاروا يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فلما دخل الحائط رجعوا عنه .

قال « وذكر أنه صلى الله عليه وسلم دعا بدعاء منه : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » اه وإذا فى الحائط أى البستان عتبة وشيبة ابنا ربيعة : أى وقد رأيا ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله ، فلما رأياه وما لقى تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس معدود فى الصحابة ، مات قبل الخروج إلى بدر ، فقالا خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، أى وهذا لا ينافى كون زيد بن حارثة كان معه كما لا يخفى ، ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده الشريفة قال بسم الله ثم أكل : أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع يده فى الطعام قال بسم الله ، ويأمر الآكل بالتسمية ، وأمر من نسى التسمية أوله أن يقول بسم الله أوله وآخره ، فنظر عداس فى وجهه وقال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أىّ البلاد أنت ، ومادينك ياعداس ؟ قال نصرانى ، وأنا من أهل نينوى بكسر النون الأولى وفتح الثانية ، وقيل بضمها : قرية على شاطئ دجلة فى أرض الموصل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم

من أهل قرية، أى وفى رواية « من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى » اسم أبيه ، أى كما فى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

وفى تاريخ حماة أنه اسم أمه . قال : ولم يشتهر باسم أمه غير عيسى ويونس عليهما الصلاة والسلام .

أى وفى مزيل الخفاء: فان قيل قد ورد فى الصحيح « لا تفضلونى على يونس بن متى » ونسبه إلى أبيه وهو يقتضى أن متى أبوه لا أمه .

أجيب بأن متى مدرج فى الحديث من كلام الصحابى لبيان يونس بما اشتهر به ، لا من كلام النبى صلى الله عليه وسلم .

ولما كان ذلك موهما أن الصحابى سمع هذه النسبة من النبى صلى الله عليه وسلم دفع الصحابى ذلك بقوله : ونسبه إلى أبيه لا إلى أمه ، هذا كلامه .

« وعند ذلك قال عداس له صلى الله عليه وسلم : وما يدريك مايونس بن متى ؟ فإنى والله لقد خرجت منها — يعنى نينوى — وما فيها عشرة يعرفون مامتى ، فن أين عرفت ابن متى وأنت أمى ّ وفى أمة أمية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى أمى ّ » وفى رواية « أنا رسول الله ، والله أخبرنى خبره ، وما وقع له مع قومه » أى حيث وعدهم العذاب بعد أربعين ليلة لما دعاهم فأبوا أن يجيبوه وخرج عنهم ، وكانت عادة الأنبياء إذا واعدت قومها العذاب خرجت عنهم ، فلما فقدوه قذف الله تعالى فى قلوبهم التوبة : أى الإيمان بما دعاهم إليه يونس .

وقيل كما فى الكشاف إنه قال لهم يونس أنا أؤجلكم أربعين ليلة ، فقالوا إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة أطبقت السماء غيما أسود يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ، فعند ذلك لبسوا المسوح ، وأخرجوا المواشى ، وفرقوا بين النساء وأولادها ، وبين كل بهيمة وولدها ، فلما أقبل عليهم العذاب جأروا إلى الله تعالى ، وبكى الناس والولدان ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وعجاجيلها ، وثغت الغنم وسخالها ، وقالوا : ياحى ّ حيث لا حى ، وياحى يحيى الموتى ، وياحى لا إله إلا أنت .

وعن الفضيل أنهم قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ّ ، فافعل بنا ماأنت أهله ولا تفعل بنا مانحن أهله .

وفى الكشاف أنهم عجوا أربعين ليلة ، وعلم الله تعالى منهم الصدق فتاب عليهم ، وصرف عنهم العذاب بعد أن صار بينه وبينهم قدر ميل ، فمر رجل على يونس فقال له : مافعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا ، فقال : لاأرجع إلى قوم قد كذبتهم . قيل وكان فى شرعهم أن من كذب قتل، فانطلق مغاضبا لقومه، وظن أن لن تقضى عليه بما قضى به عليه أى من الغم وضيق الصدر ، قال تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نضيق عليه ، وكانت التوبة عليهم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة .

أى وفى كلام بعضهم كشف العذاب عن قوم يونس يوم عاشوراء، وأخرج فيه يونس من بطن الحوت ، وهو يؤيد القول بأنه نبذ من يومه وهو قول الشعبى ، التقمه ضحوة ونبذه عشية أى بعد العصر ، وقاربت الشمس الغروب . وذكر أن الحوت لم يأكل ولم يشرب مدة بقاء يونس فى بطنه لئلا يضيق عليه .

وقال السدى : مكث أربعين يوما . وقال جعفر الصادق : سبعة أيام . وقال قتادة : ثلاثة أيام ؛ وذلك بعد أن نزل السفينة فلم تسر ؛ فقال لهم : إن معكم عبدا آبقاً من ربه وإنها لا تسير حتى تلقوه فى البحر وأشار إلى نفسه ؛ فقالوا: لا نلقيك يانبى الله أبداً ؛ قال : فاقترعوا فخرجت القرعة عليه ثلاث مرات ؛ فألقوه فالتقمه الحوت . وقيل قائل ذلك بعض الملاحين ؛ وحين خرجت القرعة عليه ثلاثاً ألقى نفسه فى البحر؛ وهذا السياق يدل على أن رسالته كانت قبل أن يلتقمه الحوت : وقيل إنما أرسل بعد نبذ الحوت له ؛ وفيه كيف يدعوهم ويعدهم العذاب وهو غير مرسل لهم .

وعن وهب بن منبه ، وقد سئل عن يونس فقال : كان عبدا صالحا ، وكان فى خلقه ضيق ، فلما حملت عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها فألقاها عنه وخرج هاربا ، أى فقد تقدم أن للنبوة أثقالا لايستطيع حملها إلا أولو العزم من الرسل ، وهم نوح ، وهود ، وإبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم .

أما نوح فلقوله (ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله) الآية . وأما هود فلقوله (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) الآية .وأما إبراهيم فلقوله هو والذين آمنوا معه (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله) الآية . وأما محمد صلى الله عليه وسلم فلقول الله تعالى له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فصبر صلى الله عليه وسلم .

فعند ذلك أكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه، أى فقال أحدهما : أى عتبة وشيبة للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قال له أحدهما : ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال: ياسيدى مافى الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لايعلمه إلا نبى ، قال: ويحك ياعداس لايصرفنك عن دينك .

أقول : وفى رواية « قال له وما شأنك ؟ سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلته بأحدنا ؟ قال : هذا رجل صالح أخبرنى بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى ، فضحكا به وقالا : لايفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع ودينك خير من دينه » وقد تقدم فى بعض الروايات : أن خديجة رضى الله تعالى عنها قبل أن تذهب بالنبى صلى الله عليه وسلم لورقة بن نوفل ذهبت به إلى عداس وكان نصرانيا من أهل نينوى : قرية سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام ، وتقدم أنه غير هذا خلافا لمن اشتبه عليه به .

وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى : قد اجتمعت بجماعة من قوم يونس سنة خمس وثمانين وخمسمائة بالأندلس حيث كنت فيه ، وقست أثر رجل واحد منهم فى الأرض فرأيت طول قدمه ثلاثة أشبار وثلثى شبر ، والله أعلم .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله تعالى عنها « إنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال » أى والمناسب لما سبق إسقاط لفظ ابن الأولى والإتيان بواو العطف موضع ابن الثانية ، أى فيقال عبد ياليل وكلال ، أى وعبد كلال ، ويكون خصهما بالذكر دون أخيهما حبيب لأنهما كانا أشرف وأعظم منه ، أو لأنهما كانا المجيبين له صلى الله عليه وسلم بالقبيح دون حبيب ، إلا إن ثبت أن آباء هؤلاء الثلاثة شخصا يقال له عبد ياليل وعبد كلال ، وحينئذ يكون المراد هؤلاء الثلاثة ، لأن ابن مفرد مضاف ، ثم رأيته فى النور ذكر ما يفيد أن لفظ ابن ثابت فى الصحيح .

والذى فى كلام ابن إسحاق وأبى عبيد وغيرهما إسقاطه . ثم رأيت الشمس الشامى

قال : الذى ذكره أهل المغازى أن الذى كلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد ياليل نفسه لا ابنه .

وعند أهل السير أن عبد كلال أخوه لا أبوه : أى أبو أبيه كما لا يخفى « فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب » : أى ويقال له قرن المنازل ، وهو ميقات أهل نجد الحجاز أو اليمن ، بينه وبين مكة يوم وليلة . وفى لفظ «وهو موضع على ليلة من مكة وراء قرن» بسكون الراء. ووهم الجوهرى فى تحريكها ، وفى قوله إن أويسا القرنى منسوب إليه، وإنما هو منسوب إلى قرن قبيلة من مراد كما ثبت فى مسلم « فرفعت رأسى ، فإذا أنا بالسحابة قد أظلتنى ؛ فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادى فقال : قد سمع قول قومك لك — أى أهل ثقيف كما هو المتبادر — وماردوا عليك به ، وقد بعث إليك بملك الجبال فتأمره بما شئت فيهم ، فناداه صلى الله عليه وسلم ملك الجبال وسلم عليه ، وقال له: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت » أى وهما جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى منى . فمن الأول قوله : وهما قبيس وقعيقعان . وقيل الجبل الأحمر الذى يقابل أبا قبيس المشرف على قعيقعان، ومن الثانية الجبلان اللذان تحت العقبة بمنى فوق المسجد .

وفيه أن ثقيفا ليسوا بينهما ، بل الجبلان خارجان عنهم فكيف يطبقهما عليهم ؟ وفى لفظ « إن شئت خسفت بهم الأرض أو دمدمت عليهم الجبال » أى التى بتلك الناحية .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر ، قال : المراد بقوم عائشة فى قوله: لقد لقيت من قومك قريش : أى لا أهل الطائف الذين هم ثقيف ؛ لأنهم كانوا هم السبب الحامل على ذهابه صلى الله عليه وسلم لثقيف ؛ ولأن ثقيفا ليسوا قوم عائشة رضى الله تعالى عنها ؛ وعليه فلا إشكال . ويوافقه قول الهدى : فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه صلى الله عليه وسلم ملك الجبال يستأمره أن يطبق على أهل مكة الأخشبين : وهما جبلاها التى هى بينهما .

وعبارة الهدى فى محل آخر : وفى طريقه صلى الله عليه وسلم أرسل الله تعالى إليه ملك الجبال ، فأمره بطاعته صلى الله عليه وسلم ؛ وأن يطبق على قومه أخشبى مكة ؛ وهما جبلاها إن أراد ، هذا كلامه .

ولا يخفى أن هذا خلاف السياق، إذ قوله «وكان أشدما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى» إلى آخره ، وقول جبريل «قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك به» ظاهر فى أنه

المراد بهم ثقيف لا قريش . ويوافق هذا الظاهر قول ابن الشحنة فى شرح منظومة جده بعد أن ساق دعاءه صلى الله عليه وسلم المتقدم بعضه « فأرسل الله عزوجل جبريل ومعه ملك الجبال ؛ فقال إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» وحينئذ يكون المراد إطباقهما عليهم بعد نقلهما من محلها إلى محل ثقيف الذى هو الطائف لأن القدرة صالحة . وعند قول ملك الجبال له ماذكر قال النبي صلى الله عليه وسلم « بل أرجو أن يخرج الله تعالى » وفى رواية «أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئا ، وعند ذلك قال له ملك الجبال : أنت كما سماك ربك رءوف رحيم ؛ قال الحافظ ابن حجر : ولم أقف على اسم ملك الجبال ؛ وإلى حلمه وإغضائه صلى الله علية وسلم أشار صاحب الهمزية بقوله :

جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علما وحلماً فهو بحر لم تعيه الأعباء

أى جهلت قومه صلى الله عليه وسلم عليه فآذوه أذية لاتطاق؛ فأغضى عنهم حلما؛ وأخو الحلم : أى وصاحب عدم الانتقام شأنه التغافل ؛ فإن علمه وسع علوم العالمين ؛ ووسع حلمه حلمهم ؛ فهو واسع العلم والحلم ؛ لم تعيه الأعباء : أى لم تتعبه الأثقال ؛ لكن تقييده بقومه السياق يدل على أن المراد به ثقيف ؛ وقد علمت ما فيه فليتأمل.

وعند منصرفه صلى الله عليه وسلم المذكور من الطائف نزل نخلة وهى محلة بين مكة والطائف ، فمر به نفر سبعة ؛ وقيل تسعة من جن نصيبين : أي وهى مدينة بالشام ؛ وقيل باليمن أثنى عليها صلى الله عليه وسلم بقوله « رفعت إلى نصيبين : حتى رأيتها فدعوت الله تعالى أن يعذب نهرها وينضر شجرها ويكثر مطرها» وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل أى وسطه يصلى . وفى رواية « يصلى صلاة الفجر » وفى رواية « هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة » فلعله كان يقرأ فى الصلاة ، والمراد بصلاة الفجر الركعتان اللتان كان يصليهما قبل طلوع الشمس ، ولعله صلاهما عقب الفجر وذلك ملحق بالليل . وفى قوله جوف الليل تجوز من الراوى ، أو صلى صلاتين صلاة فى جوف الليل وصلاة بعد الفجر وقرأ فيهما ، أو جمع بين القراءة والصلاة ، وأن الجن استمعوا للقراءتين ، وإطلاق صلاة الفجر على الركعتين المذكورتين سائغ ، وبهذا

يندفع قول بعضهم : صلاة الفجر لم تكن وجبت ، وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الجن . وفيه : أى فى الصحيحين « أن سورة الجن إنما نزلت بعد استماعهم » .

وقد يقال: سيأتى ما يعلم منه أنه ليس المراد بالاستماع الاستماع المذكور هنا، بل استماع سابق على ذلك ، وهو المذكور فى رواية ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الآتية ، ورواية صلاة الفجر هنا ذكرها الكشاف كالفخر ، وإلا فالروايات التى وقفت عليها فيها الاقتصار على صلاة الليل ، وصلاة الفجر كانت فى ابتداء البعث فى بطن نخلة عند ذهابه وأصحابه إلى سوق عكاظ كما سيأتى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فآمنوا به وكانوا يهودا لقولهم — إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى — ولم يقولوا من بعد عيسى إلا أن يكون ذلك بناء على أن شريعة عيسى مقررة لشريعة موسى لاناسخة لها . ولايخفى أنهم غلبوا مانزل من الكتاب على مالم ينزل ، لأنهم لم يسمعوا جميع الكتاب ، ولا كان كله منزلا . قال : وأنكر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اجتماع النبى صلى الله عليه وسلم بالجن أى بأحد منهم .

ففى الصحيحين عنه قال « ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ — أى وكان بين الطائف ونخلة ، كان لثقيف وقيس عيلان » كما تقدم « وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، ففزعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم؟ قالوا : قد حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا: وما ذاك إلا من شىء قد حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فمن النفر جماعة أخذوا نحو تهامة ، فإذا هم بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا — ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد — فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم (قل أوحى إلىّ) أى قل أخبرت بالوحى من الله تعالى أنه استمع لقراءتى (نفر من الجن) أى جن نصيبين » .

أقول : تقدم أن إطلاق الفجر على الركعتين اللتين كان يصليهما قبل طلوع الشمس سائغ ، فإن ذلك باعتبار الزمان لا لكونهما إحدى الخمس المفترضة ليلة الإسراء ، وقوله بأصحابه يجوز أن تكون الباء بمعنى مع ، ويجوز أن يكون صلى بهم إماما ، لأن الجماعة فى ذلك جائزة .

ولا يخفى أن هذه القصة التى تضمنتها رواية ابن عباس غير قصة انصرافه صلى الله عليه وسلم من الطائف، يدل لذلك قوله « انطلق فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ» لأنه فى تلك القصة التى هى قصة الطائف كان وحده أو معه مولاه زيد بن حارثة على ماتقدم، وكان مجيئه صلى الله عليه وسلم من الطائف قاصدا مكة. وفى هذه كان ذهابه من مكة قاصدا سوق عكاظ ، وأنه قرأ فى تلك أى مجيئه من الطائف سورة الجن ، وفى هذه قرأ غيرها ثم نزلت تلك السورة ، وأن هذه القصة تضمنتها رواية ابن عباس سابقة على تلك ، لأن قصة ابن عباس كانت فى ابتداء الوحى ، لأن الحيلولة بين الجن وبين خبر السماء بالشهب كانت فى ذلك الوقت ، وتلك كانت بعد ذلك بسنين عديدة .

وسياق كل من القصتين يدل على أنه لم يجتمع الجن به صلى الله عليه وسلم ولا قرأ عليهم ، وإنما استمعوا قراءته من غير أن يشعر بهم . وقد صرح به ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى هذه ، وصرح به الحافظ الدمياطى فى تلك حيث قال فى سيرته « فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعا إلى مكة ونزل نخلة قام يصلى من الليل فصرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين ، فاستمعوا له صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الجن ، ولم يشعر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) هذا كلامه ، ونزول ما ذكر كان بعد انصرافهم .

فقد قال ابن إسحاق « فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا به وأجابوا إلى ماسمعوا ، فقص الله تعالى خبرهم على النبى صلى الله عليه وسلم » وبهذا يعلم مافى سفر السعادة .

ولما وصل صلى الله عليه وسلم فى رجوعه إلى نخلة جاءه الجن وعرضوا إسلامهم عليه ، وكذا يعلم مافى المواهب من قوله « ولما انصرف صلى الله عليه وسلم عن أهل الطائف ونزل نخلة صرف إليه سبعة من جن نصيبين » إلى أن قال : وفى الصحيح أن الذى آذنه صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة الجن شجرة، وأنهم سألوه الزاد، فقال: كل عظم إلى آخره؛ لأن سؤالهم له صلى الله عليه وسلم الزاد فرع اجتماعهم ، وقد ذكر هو أنهم لم يؤذنه صلى الله عليه وسلم بهم إلا شجرة هناك . وعلى جواز أن الشجرة آذنته بهم قبل انصرافهم أى أعلمته بوجودهم ، وأن ذلك كان سببا لاجتماعهم به صلى الله عليه وسلم ، وأن دعوى

ذلك لاينافى أنه صلى الله عليه وسلم لم يشعر باجتماعهم للقرآن إلا مما نزل عليه من القرآن ، فسؤالهم له صلى الله عليه وسلم الزاد كان فى قصة أخرى غير هاتين القصتين كانت بمكة سيأتى الكلام عليها .

ثم رأيت عن ابن جرير أنه تبين من الأحاديث أن الجن سمعوا قراءة النبى صلى الله عليه وسلم بنخلة وأسلموا ، فأرسلهم صلى الله عليه وسلم إلى قومهم منذرين ، إذ لا جائز أن يكون ذلك فى أول البعث، لمخالفته لما تقدم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما. وحينئذ يؤيد الاحتمال الثانى الذى ذكرناه من أنه يجوز أنهم اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم بعد أن آذنته بهم الشجرة ، وقوله فأرسلهم إلى قومهم منذرين لم أقف فى شىء من الروايات على ما هو صريح فى ذلك : أى أن إرساله لهم كان من نخلة عند رجوعه من الطائف ، ولعل قائله فهم ذلك من قوله تعالى (ولوا إلى قومهم منذرين) .

وغاية ما رأيت أن ابن جرير والطبرانى رويا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن الجن الذين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا إلى قومهم » وهذا ليس صريحا فى أنه صلى الله عليه وسلم كان عند رجوعه من الطائف .

لا يقال : يعنى ذلك إنكار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اجتماعه صلى الله عليه وسلم بالجن المرة الأولى التى كانت عند البعث ، لاحتمال أنه صلى الله عليه وسلم كان فى فى بطن نخلة فى مرة أخرى ثالثة .

ثم رأيت فى النور ما يخالف ماتقدم عن ابن عباس من قوله « إنه لم يجتمع صلى الله عليه وسلم بهم بالجن حين خروجه إلى سوق عكاظ » حيث قال : الذى فى الصحيح وغيره أنه اجتمع بهم ، وهو خارج من مكة إلى سوق عكاظ ومعه أصحابه فليتأمل .

قال : وذكر « أنه صلى الله عليه وسلم أقام بنخلة أياما بعد أن أقام بالطائف عشرة أيام وشهرا لا يدع أحدا من أشرافهم » أى زيادة على عبد ياليل وأخويه « إلا جاء إليه وكلمه فلم يجبه أحد . فلما أراد الدخول إلى مكة قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم ؟ يعنى قريشا وهم قد أخرجوك : أى كانوا سببا لخروجك وخرجت تستنصر فلم تنصر ، فقال : يازيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه، فسار صلى الله عليه وسلم إلى حراء ، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق أى رضى الله تعالى

عنه فإنه أسلم بعد ذلك [] ليجيره : أى ليدخل صلى الله عليه وسلم مكة فى جواره ، فقال : أنا حليف والحليف لا يجير — أى فى قاعدة العرب وطريقتهم واصطلاحهم — فبعث صلى الله عليه وسلم إلى سهيل بن عمرو رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك أيضا [ ]. فقال : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب » وفيه أنه لو كان كذلك لما سألهما صلى الله عليه وسلم ، وكونه صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف هذا الاصطلاح بعيد ، إلا أن يقال جوّز صلى الله عليه وسلم مخالفة هـذه الطريقة « فبعث صلى الله عليه وسلم إلى المطعم بن عدىّ — أى وقد مات كافرا قبل بدر بنحو سبعة أشهر — يقول له : إنى داخل مكة فى جوارك ، فأجابه إلى ذلك ، وقال له : قل له فليأت ، فرجع إليه صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ثم تسلح المطعم بن عدىّ وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى : يامعشر قريش إنى قد أجرت محمدا فلا يؤذه أحد منكم ، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ادخل ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده ، ثم انصرف إلى منزله . أى والمطعم بن عدى وولده مطيفون به صلى الله عليه وسلم » قال « وذكر أنه صلى الله عليه وسلم بات عنده تلك الليلة ، فلما أصبح خرج مطعم وقد لبس سلاحه هو وبنوه ، وكانوا ستة أو سبعة ، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : طف ، واحتبوا بحمائل سيوفهم فى المطاف مدة طوافه صلى الله عليه وسلم ، وأقبل أبو سفيان على المطعم ، فقال : أمجير أم تابع ؟ فقال : بل مجير ، فقال : إذن لا تخفر — أى لاتزال خفارتك — أى جوارك ، قد أجرنا من أجرت ، فجلس معه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه » اهـ .

أى ولا بدع فى دخوله صلى الله عليه وسلم فى أمان كافر ، لأن حكمة الحكيم القادر قد تخفى ، وهذا السياق يدل على أن قريشا كانوا أزمعوا على عدم دخوله صلى الله عليه وسلم مـكة بسبب ذهابه إلى الطائف ودعائه لأهله . أى ولهذا المعروف الذى فعله المطعم قال صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر « لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له » .

ورأيت فى أسد الغابة « أن جبيرا ولد المطعم رضى الله تعالى عنه — فإنه أسلم بين الحديبية والفتح ، وقيل يوم الفتح — جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو كافر فسأله

فى أسارى بدر ، فقال : لو كان الشيخ أبوك حيا فأتانا فيهم لشفعناه فيهم » كما سيأتى ، أى لأنه فعل معه صلى الله عليه وسلم هذا الجميل وكان من جملة من سعى فى نقض الصحيفة كما تقدم .

قال : وعن كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه « لما انصرف النفر السبعة من أهل نصيبين من بطن نخلة جاءوا قومهم منذرين ، ثم جاءوا مع قومهم وافدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وهم ثلثمائة فانتهوا إلى الحجون ، فجاء واحد من أولئك النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن قومنا قد حضروا بالحجون يلقونك ، فوعده رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من الليل بالحجون » اه .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ، قال « أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنى أمرت أن أقرأ على إخوانكم من الجن ، فليقم معى رجل منكم ولا يقم رجل فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، فقمت معه : أى بعد أن كرر ذلك ثلاثا ولم يجبه أحد منهم » ولعلهم فهموا أن من الكبر ماليس منه وهو محبة الترفع فى نحو الملبس الذى لايكاد يخلو منه أحد .

وقد بين صلى الله عليه وسلم الكبر فى الحديث ببطر الحق وغمص الناس : أى استصغارهم وعدم رؤيتهم شيئا بعد أن قالوا له « يارسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر من بطر الحق وغمط الناس » بالطاء المهملة كما فى رواية أبى داود ، وجاء « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر ، ولا يدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » قال الخطابى : المراد بالكبر هنا : أى فى هذه الرواية كبر الكفر لأنه قابله بالإيمان . قال ابن مسعود « وذهب صلى الله عليه وسلم فى بعض نواحى مكة — أى بأعلاها بالحجون — فلما برز خط لى خطا : أى برجله وقال : لا تخرج ، فإنك إن خرجت لم ترنى ولم أرك إلى يوم القيامة » وفى رواية «لاتحدثن شيئا حتى آتيك ،لايروعنك: أى لايخوفنك ويفزعنك — ولا يهولنك : أى لايعظم عليك شىء تراه ، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط ، وهم طائفة من السودان الواحد منهم زطى ، وكانوا كما قال الله تعالى (كادوا يكونون عليه) أى لازدحامهم (لبدا) أى كاللبد فى ركوب بعضهم بعضا حرصا على سماع القرآن منه صلى الله عليه وسلم ، فأردت أن أقوم فأذبّ

عنه ، فذكرت عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشت ، ثم إنهم تفرقوا عنه صلى الله عليه وسلم فسمعتهم يقولون : يارسول الله إن شفتنا أى أرضنا التى نذهب إليها بعيدة ونحن منطلقون ، فزوّدنا : أى لأنفسنا ودوابنا » ولعله كان نفد زادهم وزاد دوابهم، فقال كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى يد أحدكم أوفر ما كان لحما » رواه مسلم .

وفى رواية « إلا وجد عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، وكل بعر علف دوابكم »

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه « أنهم لما سألوه صلى الله عليه وسلم الزاد ، قال لهم : لكم كل عظم عراق ، ولكم كل روثة خضرة » والعراق بضم العين وفتح الراء جمع عرق بفتح العين وسكون الراء : العظم الذى أخذ عنه اللحم . وقيل الذى أخذ عنه معظم اللحم « قلت : يارسول الله وما يغنى ذلك عنهم أى عن أنفسهم وعن دوابهم » بدليل قوله « فقال إنهم لايجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ، ولا روثةإلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت » وفى رواية «وجدوه ـأى الروث والبعرـشعيرا» فهذه الرواية تدل على أن الروثة مطعوم دوابهم ، ويوافقه ماجاء « أن الشعير يعود خضرا لدوابهم » ويحتاج للجمع بين كون الروث كالبعر يعود حبا يوم أكل ، وبين كونه يعود شعيرا ، وبين كونه يعود خضرا .

هذا ، وفى رواية لأبى نعيم « أن الروث يعود لهم تمرا » وهى تدل على أن الروث من مطعومهم ، ويحتاج إلى الجمع . وجمع ابن حجر الهيتمى بأن الروث يكون تارة علفا لدوابهم وتارة يكون طعاما لهم أنفسهم ، أى وفى لفظ « سألونى المتاع فمتعتهم كل عظم حائل وكل روثة وبعرة » والحائل : البالى بمرور الزمن ، لأنه لم يخرج بذلك عن كونه مطعوما لهم ، كما لم يخرج بذلك عن كونه مطعوما لهم لو حرق وصار فحما ، ولعل الغرض من ذكر الحائل الإشارة إلى أن زادهم العظم ولو كان حائلا، لا أنه لم يمنعهم إلا الحائل؛ وقوله إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل يدل على أن المراد عظم المذكاة ، وبدليل ذكر اسم الله تعالى عليه ، فلا يأكلون مالم يذكر اسم الله تعالى عليه من عظم : أى وكذا من طعام الإنس سرقة كما جاء فى بعض الأخبار. هذا ، ولكن فى رواية أبى داود « كل عظم لم يذكر اسم الله تعالى عليه» قال السهيلى: وأكثر الأحاديث تدل على معنى رواية أبى داود .

وقال بعض العلماء : رواية « ذكر اسم الله عليه » فى الجن المؤمنين . ورواية « لم يذكر اسم الله تعالى عليه » فى حق الشياطين منهم ، وهذا قول صحيح يعضده الأحاديث . هذا

كلامه ، أى التى من تلك الأحاديث « أن إبليس قال : يارب ليس أحد من خلقك إلا وقد جعلت له رزقا ومعيشة فما رزقى ؟ قال : كل مالم يذكر عليه اسمى » ومعلوم أن إبليس أبو الجن وأن ما لم يذكر اسم الله عليه يشمل عظم الميتة .

ومقابلة الشياطين بالمؤمنين تدل على أن المراد بهم فسقتهم لا الكفار منهم ؛ لأن فى كون الكفار من الجن اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ، وأن كلا من الفريقين سأله الزاد ، وأنه خاطب كلا بما يليق به فيه بعد لاسيما مع ما تقدم عن ابن مسعود ومايأتى من قوله إخوانكم من الجن ، ومن ثم قال بعضهم : إن السائلين له صلى الله عليه وسلم الزاد كانوا مسلمين فليتأمل .

ولما ذكر صلى الله عليه وسلم لهم العظم والروث « قالوا : يا رسول الله إن الناس يقذرونهما علينا ، فنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يستنجى بالعظم أو بروثه بقوله : فلا يستنقين أحدكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة ، لأنه زاد إخوانكم من الجن » .

وفى رواية « قالوا له صلى الله عليه وسلم انه أمتك عن الاستنجاء بهما ، فإن الله تعالى قد جعل لنا فيهما رزقا ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاستنجاء بالعظم والبعر » أى وحرمة نحو البول أوالتغوط عليهماتعلم من ذلك بالأولى ، ومنه يعلم أن مرادهم بالتقذير التنجيس لا ما يشمل التقذير بالطاهر كالبصاق والمخاط .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمشى إذ جاءت حية فقامت إلى جنبه صلى الله عليه وسلم وأدنت فاها من أذنه وكأنها تناجيه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم فانصرفت ، قال جابر : فسألته ، فأخبرنى أنه رجل من الجن ، وأنه قال له مر أمتك لا يستنجوا بالروث ولا بالرمة : أى العظم ، لأن الله تعالى جعل لنا فى ذلك رزقا » ولعل هذا الرجل من الجن لم يبلغه أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك . ولا يخفى أن سؤال الزاد يقتضى أن ذلك لم يكن زادهم وزاد دوابهم قبل ذلك . وحينئذ يسأل ماكان زادهم قبل ذلك ؟ وقد يقال : هو كل مالم يذكر اسم الله عليه من طعام الآدميين ، وحينئذ يكون ماتقدم فى خبر إبليس المراد بمالم يذكر اسم الله عليه غير العظم فليتأمل ، والنهى عن الاستنجاء يدل على أن ذلك لايختص بحالة السفر بل هو زادهم بعد ذلك دائما وأبدا .

وقصة جابر هذه سيأتى فى غزوة تبوك نظيرها « وهو أن حية عظيمة الخلق عارضتهم فى الطريق ، فانحاز الناس عنها ، فأقبلت حتى وقفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته طويلا والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتزلت الطريق فقامت قائمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلىّ يستمعون القرآن » قال فى المواهب : وفى هذا ردّ على من زعم أن الجن لاتأكل ولاتشرب : أى وإنما يتغذون بالشم .

أقول : ذكرت فى كتابى [عقد المرجان فيما يتعلق بالجان] أن فى أكل الجن ثلاثة أقوال : قيل يأكلون بالمضغ والبلع ، ويشربون بالازدراد . والثانى لا يأكلون ولايشربون بل يتغذون بالشم . والثالث أنهم صنفان : صنف يأكل ويشرب ، وصنف لا يأكل ولا يشرب ، وإنما يتغذون بالشم وهو خلاصتهم ، والله أعلم .

« قال ابن مسعود : فلما ولوا قلت من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء جن نصيبين » وفى رواية « فتوارى عنى حتى لم أره ، فلما سطع الفجر أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : أراك قائما ، فقلت ما قعدت ، فقال : ما عليك لو فعلت أى قعدت ؟ قلت : خشيت أن أخرج منه فقال : أما إنك لو خرجت لم ترنى ولم أرك إلى يوم القيامة » أى وفى رواية « لم آمن عليك أن يختطفك بعضهم » وفيه أن الخروج لاينشأ عن القعود حتى يخشى منه الخروج . وفى رواية « قال لى : أنمت ؟ فقلت : لا والله يارسول الله ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس ، أى لما تراكموا عليك ، وسمعت منهم لغطا شديدا حتى خفت عليك إلى أن سمعتك تقرعهم بعصاك وتقول : اجلسوا ، وسأله عن سبب اللغط الشديد الذى كان منهم ، فقال : إن الجن تداعت فى قتيل قتل بينهم فتحاكموا إلىّ ، فحكمت بينهم بالحق » .

وفى رواية عن سعيد بن جبير أنه أى ابن مسعود ، قال له : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثنى عشر ألفا ، والسورة التى قرأها عليهم (اقرأ باسم ربك) أى ولا ينافى ذلك ما جاء عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه افتتح القرآن ، لأن المراد بالقرآن القراءة . زاد ابن مسعود على ما فى بعض الروايات « ثم شبك أصابعه فى أصابعى ، وقال : إنى وعدت أن تؤمن بى الجن والإنس ، أما الإنس فقد آمنت ، وأما الجن فقد رأيت » .

أقول : وفى هذا أن ابن مسعود لم يخرج من الدائرة التى اختطها له صلى الله عليه وسلم

وفى السيرة الهشامية ما يقتضى أنه خرج منها حيث قال عن ابن مسعود « فجئتهم فرأيت الرجال ينحدرون عليه صلى الله عليه وسلم من الجبال ، فازدحموا عليه إلى آخره » فليتأمل .

فعلم أن هذه القصة بعد كل من قصة ابن عباس وقصة رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فإن قصة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كانت فى أول البعث ، وقصة رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف بعدها بمدة مديدة كما علمت ، وهذه القصة كانت بعدهما بمكة والله أعلم « ثم قال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود : هل معك وضوء » أى ماء نتوضأ به ؟» قلت لا ، فقال : ما هذه الإداوة أى وهى إناء من جلد ؟ قلت فيها نبيذ ؟ قال : ثمرة طيبة وماء طهور صبّ علىّ ، فصببت عليه فتوضأ وأقام الصلاة وصلى » .

أقول : وهو محمول عند أئمتنا معاشر الشافعية على أن الماء لم يتغير بالتمر تغيرا كثيرا يسلب اسم الماء ، ومن ثم قال ماء طهور ، وقول ابن مسعود رضى الله تعالى عنه فيها نبيذ أى منبوذ الذى هو التمر ، وسماه نبيذا باعتبار الأوّل على حد قوله تعالى (إنى أرانى أعصر خمرا) وهذا بناء على فرض صحة الحديث ، وإلا فقد قال بعضهم : حديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين .

وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه : الذى أقول به منع التطهر بالنبيذ ، لعدم صحة الخبر المروى فيه ، ولو أن الحديث صح لم يكن نصا فى الوضوء به فإنه صلى الله عليه وسلم قال « ثمرة طيبة وماء طهور » ، أى قليل الامتزاج والتغير عن وصف الماء ، وذلك لأن الله تعالى ما شرع الطهارة عند فقد الماء إلا بالتيمم بالتراب خاصـــة .

قال : ومن شرف الإنسان أن الله تعالى جعل له التطهر بالتراب ، وقد خلقه الله من تراب فأمره بالتطهر أيضا به تشريفا له . وعند أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة « قلت لابن مسعود هل صحب النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا استطير أو اغتيل وطلبناه فلم نجده فبتنا بشرّ ليلة ، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل الحجون » وفى لفظ « من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله إنا فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشرّ ليلة ، فقال إنه أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » وهذه القصة

يجوز أن تكون هى المنقولة عن كعب الأحبار المتقدم ذكرها وهى سابقة على القصة التى كان فيها ابن مسعود . ويجوز أن تكون غيرها وهى المرادة بقول عكرمة « إنهم كانوا اثنى عشر ألفا جاءوا من جزيرة الموصل » لأن المتقدم فى تلك عن كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه أنهم كانوا ثلثمائة من جن نصيبين .

وحينئذ يحتمل أن تكون هذه القصة سابقة على القصة التى كان بها ابن مسعود ، ويحتمل أن تكون متأخرة عنها ، وعلى ذلك يكون اجتماع الجن به صلى الله عليه وسلم فى مكة ثلاث مرات مرة كان فيها معه ابن مسعود ، ومرتين لم يكن معه ابن مسعود فيهما .

قال فى الأصل : ويكفى فى أمر الجن ما فى سورة الرحمن وسورة — قل أوحى إلىّ — وسورة الأحقاف .

أقول : فعلم أن الجن سمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم ولم يجتمعوا به ولا شعر بهم فى المرة الأولى وهو ذاهب من مكة إلى سوق عكاظ فى ابتداء البعث المتقدمة عن ابن عباس على ما تقدم ، ولا فى المرة الثانية عند منصرفه من الطائف بنخلة على ماقدمنا فيه ، وعلم أن الروايات متفقة على استماعهم لقراءته صلى الله عليه وسلم فى المرتين ، وبه يعلم ما فى المواهب عن الحافظ ابن كثير أنّ كون الجن اجتمعوا له صلى الله عليه وسلم فى نخلة عند منصرفه من الطائف فيه نظر ، وإنما استماعهم له كان فى ابتداء البعث كما يدلّ عليه حديث ابن عباس ، أى من أن ذلك كان عند ذهابه إلى سوق عكاظ ، وعلم أنهم اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم وآمنوا به فى مكة مرتين أو ثلاثة بعد ذلك والله أعلم .

وقد أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن قتادة « أنه قال : لما أهبط إبليس قال : أى رب قد لعنته فما علمه ؟ قال السحر ، قال : فما قراءته ؟ قال الشعر ، قال : فما كتابته ؟ قال : الوشم ، قال : فما طعامه ؟ قال: كل ميتة وما لم يذكر اسم الله عليه — أى من طعام الإنس يأخذه سرقة ، قال : فما شرابه ؟ قال : كل مسكر ، قال : فأين مسكنه ؟ قال : الحمام ، قال : فأين مجلسه ؟ قال : فى الأسواق ، قال : فما صوته ؟ قال المزمار ، قال : فما مصايده ؟ قال النساء » فالحمام محل أكثر إقامته ، والسوق محل تردده فى بعض الأوقات . والظاهر أن مثل إبليس فيما ذكر كل من لم يؤمن من الجن .

باب ذكر خبر الطفيل بن عمرو الدوسي

وإسلامه رضي الله تعالى عنه

كان الطفيل بن عمرو الدوسي شريفا فيقومه شاعراً نبيلا ، قدم مكة فشى إليه رجال من قريش ؛ فقالوا : يا أبا الطفيل؛ كنوه بذلك تعظيما له فلم يقولوا يا طفيل، إنك قدمت بلادنا ؛ وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل أمره بنا : اى اشتد وفرّق جماعتنا وشتت أمرنا ؛ وإنما قوله كالسحر ؛ يفرق به بين المرء وأخيه ؛ وبين الرجل وزوجته : وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ؛ فلا تكلمه ولا تسمع منه [ ] قال الطفيل : فوالله مازالوا بي حتى أجمعت : أى قصدت وعزمت على أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه : أى حتى حشوت في أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا وهو بضم الكاف وسكون الراء ثم سين مهملة مضمومة ثم فاء : أى قطنا ، فرقا : أى خوفا من أن يبلغني شيء من قوله؛ فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريبا منه[ ] فأبى الله إلا أن أسمع بعض قوله : أى فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : أنا ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل مايقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلت ، وإن كان قبيحا تركت ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فقلت يامحمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا حتى سددت أذنى بكرسف حتى لاأسمع قولك، فاعرض على أمرك ، فعرض عليه الإسلام ، وتلا عليه القرآن : أى قرأ عليه (قل هو الله أحد) إلى آخرها و (قل أعوذ برب الفلق) إلى آخرها ، و (قل أعوذ برب الناس) إلى آخرها .

وفيه أنه سيأتى أن نزول (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) كان بالمدينة عند ماسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن يقال يجوز أن يكون ذلك مما تكرر نزوله [ ] فقال: والله ماسمعت قط قولا أحسن من هذا،ولا أمرا أعدل منه فأسلمت. فقلت : يانبي الله إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يكون لى عونا عليهم قال : اللهم اجعل له آية ، فخرجت حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر : أى وهم النازلون المقيمون على الماء لا يرحلون عنه ، وكان ذلك فى ليلة مظلمة [ ]وقع نور بين عينى مثل المصباح ، فقلت: اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن

يظنوا أنه مثلة ، فتحول فى رأس سوطى ، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور كالقنديل المعلق : أى ومن ثم عرف بذى النور ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

وفى جبهة الدوسى ثم بسوطه   جعلت ضياء مثل شمس منيرة

قال : فأتانى أبى فقلت له : إليك عنى ياأبت فلست منى ولست منك ، فقال : لم يابنى ؟ قلت : قد أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : أى بنى دينى دينك ، فأسلم ، أى بعد أن قال له : اغتسل وطهر ثيابك ففعل ، ثم جاء فعرض عليه الإسلام[ ] ثم أتتنى صاحبتى فذكرت لها مثل ذلك : أى قلت لها إليك عنى فلست منك ولست منى ، قد أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم ، قالت : فدينى دينك فأسلمت ، ثم دعوت دوسا إلى الإسلام فأبطأوا على . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يارسول الله ، قد غلبنى دوس . وفى رواية « قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : اللهم اهددوسا » قال زاد فى رواية « وأت بهم ، فقال الطفيل : فرجعت فلم أزل بأرض قومى أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق» اه فأسلموا ، قال : فقدمت بمن أسلم من قومى عليه صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر سبعين أو ثمانين بيتا من دوس : أى ومنهم أبو هريرة ، فأسهم لنا مع المسلمين أى مع عدم حضورهم القتال اه .

أقول : قال فى النور : وفى الصحيح ماينفى هذا « وأنه لم يعط أحدا لم يشهد القتال إلا أهل السفينة الجائين من أرض الحبشة جعفرا ومن معه : أى ومنهم الأشعريون أبو موسى الأشعرى وقومه ، فقد تقدم أنهم هاجروا من اليمن إلى الحبشة ، ثم جاءوا إلى المدينة .

وفيه أنه سيأتى أنه صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه أن يشركوهم معهم فى الغنيمة ففعلوا وسيأتى أنه إنما أعطى أهل السفينة : أى والدوسيين على ماعلمت من الحصنين اللذين فتحا صلحا ، فقد أعطاهما مما أفاء الله عليه لامن الغنيمة ، وسؤال أصحابه فى إعطائهم من المشهورة العامة المأمور بها فى قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) لا لاستنزالهم عن شىء من حقهم ، والله أعلم .

باب ذكر الإسراء والمعراج

وفرض الصلوات الخمس

اعلم أنه لاخلاف فى الإسراء به صلى الله عليه وسلم إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال ، وجاءت بتفصيله وشرح أعاجيبه أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة من الرجال والنساء نحو الثلاثين : أى ومن ثم ذهب الحاتمى الصوفى إلى أن الإسراء وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاثين مرة ، فجعل كل حديث إسراء. واتفق العلماء على أن الإسراء كان بعد البعثة اه : أى الاسراء الذى كان فى اليقظة بجسده صلى الله عليه وسلم ، فلاينافى حديث البخارى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه « أن الإسراء كان قبل أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم » لأن ذلك كان فى نومه بروحه ، فكان هذا الإسراء توطئه له وتيسيرا عليه ، كما كان بدء نبوته صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة .

وفى كلام الشيخ عبدالوهاب الشعرانى أن إسراءاته صلى الله عليه وسلم كانت أربعا وثلاثين ، واحد بجسمه صلى الله عليه وسلم والباقى بروحه ، وتلك الليلة : أى التى كانت بجسمه صلى الله عليه وسلم كانت ليلة سبع عشرة ، وقيل سبع وعشرين خلت من شهر ربيع الأول ، وقيل ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان أى وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل من رجب [ ] واختار هذا الأخير الحافظ عبد الغنى المقدسى وعليه عمل الناس ، وقيل فى شوّال ، وقيل فى ذى الحجة .

وفى كلام الشيخ عبد الوهاب مايفيد أن إسراءاته صلى الله عليه وسلم كلها كانت فى تلك الليلة التى وقع فيها هذا الخلاف فليتأمل ، وذلك قبل الهجرة قيل بسنة وبه جزم ابن حزم ، وادعى فيه الإجماع ، وقيل بسنتين ؛ وقيل بثلاث سنين ، وكل من الإسراء والمعراج كان بعد خروجه صلى الله عليه وسلم للطائف كما دل عليه السياق ، وعن ابن إسحاق أن ذلك كان قبل خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وفيه نظر ظاهر .

واختلف فى اليوم الذى يسفر عن ليلتهما ، قيل الجمعة ، وقيل السبت . وقال ابن دحية : يكون يوم الاثنين إن شاء الله تعالى ليوافق المولد والمبعث والهجرة والوفاة : أى لأنه صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، ومات يوم الإثنين فليتأمل .

عن أم هانئ بنت أبي طالب رضى الله تعالى عنها : أى واسمها على الأشهر فاختة ، وسيأتى فى فتح مكة أنها أسلمت يوم الفتح ، وهرب زوجها هبيرة إلى نجران ومات بها على كفره ، قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلس : أى فى الظلام بعيد الفجر وأنا على فراشي ، فقال : أشعرت : أى علمت أنى نمت الليلة فى المسجد الحرام أى عند البيت أو فى الحجر » وهو المراد بالحطيم الذى وقع فى بعض الروايات، وفى رواية « فرج سقف بيتى » .

قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون السر فى ذلك أى فى انفراج السقف التمهيد لما يقع من شق صدره صلى الله عليه وسلم ، فكأن الملك أراه بانفراج السقف والتئامه فى الحال كيفية ماسيصنع به ، لطفا به وتثبيتا له صلى الله عليه وسلم : أى زيادة تمهيد وتثبيت له ، وإلا فشق صدره صلى الله عليه وسلم تقدم له غير مرة ، وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم نام فى بيت أم هانئ ، قالت : فقدته من الليل فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش » .

أى وحكى ابن سعد « أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد تلك الليلة ، فتفرقت بنو عبد المطلب يلتمسونه ، ووصل العباس إلى ذى طوى ، وجعل يصرخ يامحمد ، فأجابه لبيك لبيك ، فقال : يابن أخى عنيت قومك فأين كنت ؟ قال : ذهبت إلى بيت المقدس قال : من ليلتك ؟ قال نعم ، قال : هل أصابك إلا خير ؟ قال : ماأصابنى إلا خير » ولعله صلى الله عليه وسلم نزل عن البراق فى ذلك المحل .

وعن أم هانئ رضى الله تعالى عنها قالت « ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو فى بيتى نائم عندى تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبل الفجر أهبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أقامنا من نومنا » ومن ثم جاء فى رواية : «نبهنا ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ لقد صليت معك العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين» الحديث .

والمراد أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاته التى كان يصليها وهى الركعتان فى الوقتين المذكورين ، وإلا فصلاة العشاء وصلاة الصبح التى هى صلاة الغداة لم يكونا فرضا ، وفى قولها «وصلينا معه » نظر لما تقدم ، ويأتى أنها لم تسلم إلا يوم الفتح ، ثم رأيت فى مزيل

الخفاء : وأما قولها يعنى أم هانئ وصلينا فأرادت به وهيأنا له مايحتاج إليه فى الصلاة كذا أجاب .

وأقرب منه أنها تكلمت على لسان غيرها ، أو أنها لم تظهر إسلامها إلا يوم الفتح فليتأمل ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن جبريل أتانى » وفى رواية « أسرى به من شعب أبى طالب » قال الحافظ ابن حجر : والجمع بين هذه الروايات « أنه صلى الله عليه وسلم نام فى بيت أم هانئ وبيتها عند شعب أبى طالب ، ففرج عن سقف بيته الذى هو بيت أم هانئ» لأنه صلى الله عليه وسلم كان نائما به « فنزل الملك وأخرجه إلى المسجد وكان به أثر النعاس : أى فاضطجع فيه عند الحجر » فيصح قوله صلى الله عليه وسلم : نمت الليلة فى المسجد الحرام إلى آخره .

وفى رواية «أنه صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ، أى وهو مضطجع فى المسجد فى الحجر بين عمه حمزة وابن عمه جعفر رضى الله تعالى عنهما ، فقال أحدهم : خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين [ ] ، فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم ، فاستلقوه على ظهره ، فتولاه منهم جبريل ، فشق من ثغرة نحره » وهو الموضع المنخفض بين الترقوتين «إلى أسفل بطنه» أى وفى رواية «إلى مراق بطنه» وفى رواية «إلى شعرته » أى أشار إلى ذلك ؟ فانشق فلم يكن الشق فى المرات كلها بآلة ،ولم يسل منه دم ، ولم يجد لذلك ألماً كما تقدم التصريح به فى بعض الروايات ، لأنه من خرق العادات وظهور المعجزات « ثم قال جبريل لميكائيل : ائتنى بطشت من ماء زمزم كيما أطهر قلبه ، وأشرح صدره ، فاستخرج قلبه : أى فشقه ، فغسله ثلاث مرات، ونزع ماكان فيه من أذى » وهذا الأذى يحتمل أن يكون من بقايا تلك العلقة السوداء التى نزعت منه صلى الله عليه وسلم وهو مسترضع فى بنى سعد بناء على تجزئتها كما تقدم فى المرة الثانية ،وهو ابن عشر سنين والثالث عند البعث ، فلا يخالف أن العلقة السوداء نزعت منه صلى الله عليه وسلم فى المرة الأولى وهو مسترضع فى بنى سعد ، ويستحيل تكرار إخراجها وإلقائها . والذى ينبغى أن يكون نزع الملك العلقة إنما هو فى المرة الأولى ، والواقع فى غيرها إنما هو إخراج الأذى ، وأنه غير تلك العلقة ، وأن المراد به مايكون فى الجبليات البشرية ، وتكرر إخراج ذلك الأذى استئصاله ومبالغة فيه ، وذكر العلقة فى المرة الأولى ، وقول الملك هذا حظ الشيطان وهم من بعض الرواة .

« واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسات من ماء زمزم ، ثم أتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا» أى نفس الحكمة والإيمان ، لأن المعانى قد تمثل بالأجسام ، أو فيه ماهو سبب لحصول ذلك ، والمراد كنا لهما ، فلا ينافى ماتقدم فى قصة الرضاع أنه ملئ حكمة وإيماناً . « ووضعت فيه السكينة ثم أطبقه، ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة » وتقدم فى قصة الرضاع أن فى رواية أن الختم كان فى قلبه ،وفى أخرى أنه كان فى صدره ، وفى أخرى أنه كان بين كتفيه ، وتقدم الكلام على ذلك . وأنكر القاضى عياض شق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وقال : إنما كان وهو صلى الله عليه وسلم صبى فى بنى سعد ، وهو يتضمن إنكار شقه عند البعثة أيضا ، أى والتى قبلها وعمره صلى الله عليه وسلم عشر سنين . ورده الحافظ ابن حجر بأن الروايات تواردت بشق صدره صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة وعند البعثة ، أى زيادة على الواقع له صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد، وأبدى لكل من الثلاثة حكمة ، وتقدم أنه شق صدره صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشر سنين ، وأنه صلى الله عليه وسلم شق صدره وهو ابن عشرين سنة ، وتقدم مافيه .

أقول : ويمكن أن يكون إنكار القاضى عياض لشق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج على الوجه الذى جاء فى بعض الروايات أنه أخرج من قلبه علقة سوداء ، وقال الملك : هذا حظ الشيطان منك لأن هذا إنما كان وهو صلى الله عليه وسلم مسترضع فى بنى سعد ، ويستحيل تكرر إلقاء تلك العلقة ، وحمل ذلك على بعض بقايا تلك العلقة السوداء كما قدمناه ينافى قول الملك هذا حظ الشيطان منك، إلا أن يقال المراد أنه من حظ الشيطان أى بعض حظ الشيطان فليتأمل ذلك ، والأولى ماقدمناه فى ذلك . ثم لايخفى أنه ورد « غسل صدرى » وفى رواية « قلبى » .

وقد يقال : الغسل وقع لهما معا كما وقع الشق لهما معا ، فأخبر صلى الله عليه وسلم بإحداهما مرة وبالأخرى أخرى ، أى وتقدم فى مبحث الرضاع فى رواية شق بطنه صلى الله عليه وسلم ثم قلبه ، وفى أخرى شق صدره ثم قلبه ، وفى أخرى الاقتصار على شق صدره ، وفى أخرى الاقتصار على شق قلبه،وتقدم أن المراد بالبطن الصدر ، وليس المراد بأحدهما القلب .

وفى كلام غير واحد مايقتضى أن المراد بالصدر القلب ، ومن ثم قيل : هل شق صدره وغسله مخصوص به صلى الله عليه وسلم ، أو وقع لغيره من الأنبياء ؟

وأجيب بأنه جاء فى قصة تابوت بنى إسرائيل الذى أنزله الله تعالى على آدم حين أهبطه إلى الأرض « فيه صور الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرسل، وآخر البيوت بيت محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو من ياقوتة حمراء، ثلاثة أذرع فى ذراعين » وقيل كان من نوع من الخشب تتخذ منه الأمشاط مموها بالذهب، فكان عند آدم إلى أن مات ، ثم عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن وصل إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم كان عند إسمعيل ثم عند ابنه قيدار : فنازعه ولد إسحاق ، ثم أمر من السماء أن يدفعه الى ابن عمه يعقوب إسرائيل الله فحمله إلى أن أوصله له ، ثم وصل إلى موسى عليه الصلاة والسلام ، فوضع فيه التوراة وعصاه وعمامة هرون ورضاض الألواح التى تكسرت لما ألقاها، وأنه كان فيه الطشت طشت من ذهب الجنة الذى غسل فيه قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وذلك مقتض لعدم الخصوصية «وكان هذا التابوت إذا اختلفوا فى شىء سمعوا منه مايفصل بينهم، وما قدموه أمامهم فى حرب إلا نصروا، وكان كل من تقدم عليه من الجيش لابدّ أن يقتل أو ينهزم الجيش » .

وفى الخصائص للسيوطى : ومما اختص به صلى الله عليه وسلم عن جميع الأنبياء ولم يؤتها نبى قبله شق صدره فى أحد القولين وهو الأصح . وجمع بعضهم بحمل الخصوصية على تكرر شق الصدر ، لأن تكرر شق صدره الشريف ثبت فى الأحاديث ، وشق صدر غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما أخذ من قصة التابوت، وليس فيها تعرض للتكرار، ولو جمع بأن شق الصدر مشترك وشق القلب، وإخراج العلقة السوداء مختص به صلى الله عليه وسلم ، ويكون المراد بالقلب فى قصة التابوت الصدر وبالصدر فى كلام الخصائص القلب لم يكن بعيدا ، إذ ليس فى قصة التابوت مايدل على أن تلك العلقة السوداء أخرجت من غير قلب نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم أقف على أثر يدلّ على ذلك، وغسل قلب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس من لازمه الشق ، بل يجوز أن يكون غسله من خارج ، وقد أحلنا على هذا الجمع فى بحث الرضاع ، وبهذا يردّ ما قدمناه من قول الشمس الشامى : الراجح المشاركة ، ولم أر لعدم المشاركة ما يعتمد عليه بعض الفحص الشديد فليتأمل .

ثم رأيته ذكر أنه جمع جزءا سماه [نور البدر فيما جاء فى شق الصدر] ولم أقف عليه ، والله أعلم .

« قال فأتانى جبريل عليه الصلاة والسلام ، فذهب بى إلى باب المسجد » أى وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل عليه الصلاة والسلام ، فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فعدت لمضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فعدت لمضجعى، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فأخذ بعضدى ، فقمت معه فخرج بى إلى باب المسجد » .

وفيه أنه إذا لم يجد شيئا من أخذ بعضديه ، إلا أن يقال ثم رآه عند أخذه بعضديه ، فإذا دابة أبيض » أى ومن ثم قيل له البراق بضم الموحدة لشدة بريقه ، وقيل : قيل له ذلك لسرعته ، أى فهو كالبرق ، وقيل لأنه كان ذا لونين أبيض وأسود ، أى يقال شاة برقاء: إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سوداء: أى وهى العفراء، ومن ثم جاء فى الحديث «أبرقوا فإن دم عفراء عند الله أذكى من دم سوداوين» أى ضحوا بالبلقاء وهى العفراء لكن فى الصحاح الأعفر الأبيض ، وليس بالشديد البياض ، وشاة عفراء : يعلو بياضها حمرة ، ولغلبة بياض شعره على سواده أو حمرته قيل أبيض ، ولعل سواد شعره لم يكن حالكا بل كان قريبا من الحمرة فوصف بأنه أحمر ، وهذا لا يتم إلا لو كان البراق كذلك ، أى شعره أبيض داخله طاقات سود أو حمر ولعله كان كذلك ، ويدل له قول بعضهم : إنه ذو لونين ، أى بياض وسواد ، والسواد كما علمت إذا صفا شبه بالأحمر ، وهذه الرواية طوى فيها ذكر أنه كان بين حمزة وجعفر ، وأنه جاءه جبريل وميكائيل وملك آخر ، وأنهم احتملوه إلى زمزم ، وشق جبريل صدره إلى آخر ما تقدم « وذلك البراق فوق الحمار ودون البغل ، مضطرب الأذنين » أى طويلهما « أى وكان مسرجا ملجما » كما فى بعض الروايات « فركبته ، فكان يضع حافره مد بصره » أى حيث ينتهى بصره .

وفى رواية « ينتهى خفها حيث ينتهى طرفها ، إذا أخذ فى هبوط طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أخذ فى صعود طالت رجلاه وقصرت يداه » أى وقد ذكر هذا الوصف فى فرس فرعون موسى . فقد قيل : كان لفرعون أربع عجائب، فذكر منها أن لحيته كانت خضراء ثمانية أشبار ، وقامته سبعة أشبار ، فكانت لحيته أطول منه بشبر ، وكان له فرس ، وقيل برذون إذا صعد الجبل قصرت يداه وطالت رجلاه ، وإذ انحدر يكون على ضد ذلك . وفى رواية « أن البراق خطوه مد البصر » قال ابن المنير : فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء فى خطوة واحدة ، لأن بصر الذى فى الأرض يقع على السماء فبلغ أعلى السموات فى سبع خطوات انتهى ، أى لأن بصر من يكون فى سماء الدنيا يقع

على السماء فوقها وهكذا ، وهذا بناء على أنه عرج به صلى الله عليه وسلم على المعراج راكب البراق ، وسيأتى مافيه .

قال صلى الله عليه وسلم « فلما دنوت منه اشمأز : أى نفر » وفى رواية « فاستصعب ومنع ظهره أن يركب ؛ فقال جبريل : اسكن ،فما ركبك أحد أكرم على الله من محمد » وفى رواية « فى فخذيها » أى تلك الدابة التى هى البراق « جناحان تحفز بهما » أى تدفع بهما «رجليها» ففى اللغة:الحفز: الحث والإعجال « فلما دنوت لأركبها شمست» أى نفرت ومنعت ظهرها . وفى رواية « شمس » ، وفى رواية « صرّت أذنها » أى جمعتهما ، وذلك شأن الدابة إذا نفرت « فوضع جبريل يده على معرفتها ، ثم قال : ألا تستحيين يابراق مما تصنعين ؟ والله ما ركب عليك أحد » وفى رواية « عبد الله قبل محمد صلى الله عليه وسلم أكرم على الله منه ، فاستحيت حتى ارفضت عرقا » أى كثر عرقها وسال « ثم قرت حتى ركبها » أى وفى رواية « فقال جبريل : مه يابراق ، فوالله ماركبك مثله من الأنبياء » أى لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت تركبها قبله صلى الله عليه وسلم .

ففى البيهقى « وكانت الأنبياء تركبها قبلى » وعند النسائى « وكانت تسخر للأنبياء قبلى » وبعد عليها العهد من ركوبهم لأنها لم تكن ركبت فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كما ذكره ابن بطال وهو يقتضى أنه لم يركبه أحد ممن كان بين عيسى ومحمد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وجاء التصريح بذلك فى بعض الروايات ، أى والمتبادر منها أنها التى بينه وبين عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فيكون عيسى ممن ركبها دون من بعده من الأنبياء عليهما الصلاة والسلام على تقدير ثبوت وجود أنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد عيسى ، وتقدم عن النهر أنه كان بينهما ألف نبى .

وقوله لأن الأنبياء ظاهره يدل على أن جميع الأنبياء أى عيسى ومن قبله ركبوه . قال الإمام النووى : القول باشتراك جميع الأنبياء فى ركوبها يحتاج إلى نقل صحيح ، هذا كلامه .

ومما يدل على أن الأنبياء كانت تركبه قبله صلى الله عليه وسلم ما تقدم وظاهر ما سيأتى فى بعض الروايات « فربطه بالحلقة التى توثق بها الأنبياء » وإنما قلنا ظاهر لأنه لم يذكر الموثق بفتح المثلثة ، إذ يحتمل أن الأنبياء كانت تربط غير البراق من دوابهم بها. ثم رأيت فى رواية البيهقى « فأوثقت دابتى » يعنى البراق « التى كانت الأنبياء تربطها فيه »

ومن ثم قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله : مامن رسول إلا وقد أسرى به راكبا على ذلك البراق ، هذا كلامه ، وقد تقــدم أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه حمل هو وهاجر وولدهما يعنى إسماعيل على البراق إلى مكة .

وفى تاريخ الأزرقى : وكان إبراهيم يحج كل سنة على البراق ، فعن سعيد بن المسيب وغيره « أن البراق هو دابة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التى كان يزور عليها البيت الحرام » وعلى تسليم أنه لم يركب البراق أحد قبله صلى الله عليه وسلم كما يقول ابن دحية ووافقه الإمام النووى ، فقول جبريل عليه الصلاة والسلام « ماركبك » ونحوه لا ينافيه ، لأن السالبة تصدق بنفى الموضوع ، ومن ثم قال فى الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وســلم بركوب البراق فى أحد القولين ، أى وقيل إن الذى خص به هو ركوبه مسرجا ملجما .

وفى المنتقى أن البراق وإن كان ركبه الأنبياء إلا أنه لم يكن يضع حافره عند منتهى طرفه إلا عند ركوب النبى صلى الله عليه وسلم . وجاء فى غريب التفسير « أن البراق لما شمس قال له جبريل : لعلك يا محمد مسيت الصفر اليوم وهو صنم كان بعضه من ذهب وبعضه من نحاس كسره صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، فقال له صلى الله عليه وســلم : ما مسيته إلا أنى مررت به وقلت تبا لمن يعبدك من دون الله ، فقال جبريل وما شمس إلا لذلك » أى لمجرد مرورك عليه ، وهذا حديث موضوع كما نقل عن الإمام أحمد .

وقال الحافظ ابن حجر : إنه من الأخبار الواهية . وقال مغلطاى : لا ينبغى أن يذكر ولا يعزى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال فرس شموس : أى صعبة ، ولا يقال شموسة ، وذكر لاستصعاب البراق غير ذلك من الحكم لانطيل بذكره .

قال : وعن الثعلبى بسند ضعيف فى صفة البراق عن ابن عباس « له خد كخد الإنسان وعرف كعرف الفرس ، وقوائم كالإبل ، وأظلاف وذنب كالبقر » أى وحينئذ يكون إطلاق الخف على ذلك فى الرواية السابقة « ينتهى خفها حيث ينتهى طرفها » مجازا لأن مع كونها لها قوائم كقوائم الإبل لاخف لها بل ظلف وهو الحافر .

وفى كلام بعضهم فى صفة البراق « وجهه كوجه الإنسان ، وجسده كجسد الفرس وقوائمه كقوائم الثور ، وذنبه كذنب الغزال ، لا ذكر ولا أنثى » اه ، ومن ثم وصف بوصف المذكر تارة وبوصف المؤنث أخرى ، فهى حقيقة ثالثة ، ويكون خارجا من

قوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) كما خرجت من ذلك الملائكة ، فإنهم ليسوا ذكورا ولا إناثا .

وذكر بعضهم أن أذنيها كأذنى الفيل ، وعنقها كعنق البعير . وصدرها كصدر الفيل كأنه من ياقوت أحمر . لها جناحان كجناح النسر ،فيهما من كل لون قوائمها كقوائم الفرس ، وذنبها كذنب البعير . ويحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات على تقدير الصحة .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم سرت وجبريل عليه الصلاة والسلام لا يفارقنى » أى وفى رواية « أنه ركب معه البراق » وفى الشفاء « مازايلا ظهر البراق حتى رجعا » وفى رواية « ركبت البراق خلف جبريل »أى وفى صحيح ابن حبان«وحمله جبريل على البراق رديفا له » .

قال : وفى الشرف « كان الآخذ بركابه جبريل ، وبزمام البراق ميكائيل » وفى رواية «جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره» اه .

أقول : لا منافاة ، لجواز أن يكون جبريل تارة ركب مردفا له صلى الله عليه وسلم وتارة أخذ بركابه من جهة اليمين ، وميكائيل تارة أخذ بالزمام وتارة لم يأخذه ، وكان جهة يساره أو كان آخذ بالزمام من جهة اليسار ، ولا يخالف هذا الجمع قول الشفاء « مازايلا ظهر البراق » لإمكان حمله على غالب المسافة . هذا ، وفى حياة الحيوان : الظاهر عندى أن جبريل لم يركب مع النبى صلى الله عليه وسلم البراق ليلة الإسراء لأنه المخصوص بشرف الإسراء ، هذا كلامه فليتأمل ، والله أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم انتهيت إلى بيت المقدس ، فأوثقته بالحلقة التى بالباب » أى باب المسجد « التى كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام توثق » أى تربط « بها » أى تربطه بها على ماتقدم عن رواية البيهقى . وفى رواية « أن جبريل خرق بأصبعه الحجر » أى الذى هو الصخرة . وفى كلام بعضهم : فأدخل جبريل يده فى الصخرة فخرقها وشدّ به البراق .

أقول : لا منافاة ، لجواز أن يكون المراد وسع الخرق بأصبعه أو فتحه لعروض انسداده ،وأن هذا الخرق هو المراد بالحلقة التى فى الباب ، لأن الصخرة بالباب وقيل لهذا الخرق حلقة لاستدارته .

وفى الإمتاع : وعادت صخرة بيت المقدس كهيئة العجين ، فربط دابته فيها والناس يلتمسون ذلك الموضع إلى اليوم هذا كلامه .

وجمع بعضهم بأنه صلى الله عليه وسلم ربطه بالحلقة خارج باب المسجد الذى هو مكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأدبا ، فأخذه جبريل فربطه فى زاوية المسجد فى الحجر الذى هو الصخرة التى خرقها بأصبعه ، وجعله داخلا عن باب المسجد ، فكأنه يقول له : إنك لست ممن يكون مركوبه على الباب بل يكون داخلا .

وفى حديث أبى سفيان قبل إسلامه لقيصر ، أنه قال لقيصر يحط من قدره صلى الله عليه وسلم « ألا أخبرك أيها الملك عنه خبرا تعلم منه أنه يكذب ؟ قال : وما هو ؟ قال : إنه يزعم أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فجاء مسجدكم هذا ورجع إلينا فى ليلة واحدة» فقال : بطريق : أنا أعرف تلك الليلة ، فقال له قيصر : ماعلمك بها ؟ قال : إنى كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد : أى وهو الباب الفلانى غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى فلم نقدر ، فقالوا : إن البناء نزل عليه فاتركوه إلى غد حتى يأتى بعض النجارين فيصلحه فتركتــه مفتوحا ، فلما أصبحت غدوت فإذا الحجر الذى من زاوية الباب مثقوب ، أى زيادة على ما كان عليه على ماتقدم ، وإذا فيه أثر مربط الدابة أى التى هى البراق : أى ولم أجد بالباب مايمنعه من الإغلاق ، فعلمت أنه إنما امتنع لأجل ماكنت أجده فى العلم القديم أن نبيا يصعد من بيت المقدس إلى السماء ، وعند ذلك قلت لأصحابى : ماحبس هذا الباب الليلة إلا هذا الأمر ، وسيأتى ذلك عند الكلام على كتابه صلى الله عليه وسلم لقيصر. ولا يخفى أن المراد بالصخرة الحجر الذى بالباب لا الصخرة المعروفة كما هو المتبادر من بعض الروايات ، وهى « فأتى جبريل الصخرة التى فى بيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها فشدّ بها البراق » لأن الذى فى بابه يقال إنها فيه ، ولا يخفى أن عدم انغلاق الباب إنما كان آية ، وإلا فجبريل عليه الصلاة والسلام لا يمنعه باب مغلق ولا غيره .

وفى رواية عن شداد بن أوس أنه قال « ثم انطلق بى » أى جبريل « حتى دخلنا المدينة » يعنى مدينة بيت المقدس من بابها اليمانى « فأتى قبلة المسجد فربط فيها دابته» .

قد يقال : لا يخالفه ، لأنه يجوز أن يكون ذلك الباب كان بجانب قبلة المسجد ، ولعل هذا الباب هو الباب اليمانى الذى فيه صورة الشمس والقمر. ففى رواية «ودخل المسجد من باب فيه تمثال الشمس والقمر » أى مثالهما فيه ، والله أعلم .

وأنكر حذيفة رضى الله تعالى عنه رواية ربط البراق وقال لم يفر منه ، وقد سخره له

عالم الغيب والشهادة . ورد عليه بأن الأخذ بالحزم لا ينافى صحة التوكل . فعن وهب ابن منبه رضى الله عنه « الإيمان بالقدر لايمنع الحازم من توقى المهالك » قال وهب: وجدته فى سبعين من كتب الله عز وجل القديمة : اى ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » وقد كان صلى الله عليه وسلم يتزود فى أسفاره ويعد السلاح فى حروبه، حتى لقد ظاهر بين درعين فى غزوة أحد. قال وفى رواية « فلما استوى النبى صلى الله عليه وسلم فى صخرة المسجد قال جبريل : يامحمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال نعم، قال جبريل: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن فرددن عليه السلام ، فقال : من أنتن ؟ قلن خيرات حسان نساء قوم أبرار ، نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا » اه .

أقول: فى كلام بعضهم أنه لم يختلف أحد أنه صلى الله عليه وسلم عرج به من عند القبة التى يقال لها قبة المعراج من عند يمين الصخرة . وقد جاء « صخرة بيت المقدس من صخور الجنة » وفى لفظ « سيدة الصخور صخرة بيت المقدس » وجاء «صخرة بيت المقدس على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ينظمان سموط أهل الجنة إلى يوم القيامة » قال الذهبى: إسناده مظلم، وهو كذب ظاهر.

قال الإمام أبو بكر بن العربى فى شرحه لموطأ مالك : صخرة بيت المقدس من عجائب الله تعالى فإنها صخرة قائمة شعثاء فى وسط المسجد الأقصى ، قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فى أعلاها من جهة الجنوب قدم النبى صلى الله عليه وسلم حين ركب البراق ، وقد مالت من تلك الجهة لهيبته صلى الله عليه وسلم ، وفى الجهة الأخرى أصابع الملائكة التى أمسكتها لما مالت ، ومن تحتها المغارة التى انفصلت من كل جهة ، أى فهى معلقة بين السماء والأرض ، وامتنعت لهيبتها من أن أدخل تحتها، لأنى كنت أخاف أن تسقط على بالذنوب ، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب ، تمشى فى جوانبها من كل جهة ، فتراها منفصلة عن الأرض، لا يتصل بها من الأرض شىء ولا بعض شىء ، وبعض الجهات أشد انفصالا من بعض ، وهذا الذى ذكره ابن العربى ، أن قدمه صلى الله عليه وسلم أثر فى صخرة بيت المقدس حين ركب البراق، وأن الملائكة أمسكتها لما مالت، قال به الحافظ ناصر الدين الدمشقى حيث قال فى معراجه المسجع : ثم توجها نحو صخرة بيت المقدس وعماها، فصعد من جهة الشرق

أعلاها ، فاضطربت تحت قدم نبينا صلى الله عليه وسلم ولانت ، فأمسكتها الملائكة لما تحركت ومالت .

وقول ابن العربي حين ركب البراق يقتضى أنه عرج به على البراق ، وسيأتى الكلام فيه ، وتقدم أن الجلال السيوطى سئل عن غوص قدمه صلى الله عليه وسلم فى الحجر هل له أصل فى كتب الحديث ؟ فأجاب بأنه لم يقف فى ذلك على أصل ولا رأى من خرّجه فى شيء من كتب الحديث ، وتقدم مافيه .

وفى العرائس ، قال أبيّ بن كعب : مامن ماء عذب إلا وينبع من تحت الصخرة ببيت المقدس ثم يتفرق فى الأرض ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم « فنشر لى » بضم النون وكسر الشين المعجمة : أى أحيى لى بعد الموت « رهط من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » لأن نشر الميت إحياؤه . والرهط : ما دون العشرة من الرجال « فيهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام » أى وحكمة تخصيص هؤلاء بالذكر لاتخفى « فصليت بهم ، وكلمتهم » أى فالمراد نشروا عند دخوله صلى الله عليه وسلم المسجد وصلى بهم ركعتين ؛ ووصفهم بالنشور واضح فى غير عيسى عليه الصلاة والسلام ، لأنه لم يمت . ووصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالإحياء بعد الموت سيأتى فى قصة بدر فى الكلام على أصحاب القليب ما يعلم منه أن المراد بإحياء الأنبياء بعد الموت شدة تعلق أرواحهم بأجسادهم حتى انهم فى البرزخ بسبب ذلك أحياء كحياتهم فى الدنيا ، وقد ذكرنا هناك الكلام على صلاتهم فى البرزخ وحجهم وغير ذلك . وفى رواية « ثم صلى صلى الله عليه وسلم هو وجبريل كل واحد ركعتين ، فلم يلبثا إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير » أى مع أولئك الرهط ، فلا مخالفة بين الروايتين « فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة » .

أقول : ذكر ابن حبيب أن آية (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) الآية ، نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء . ويجوز أن يكون قوله وأقيمت الصلاة من عطف التفسير ، فالمراد بالأذان الإقامة ، وليس المراد بالإقامة الألفاظ المعروفة الآن لما سيذكر فى الكلام على مشروعية الأذان والإقامة بالمدينة ، وعلى أنه من عطف المغاير ، ويدل له مافى بعض الروايات « فلما استوينا فى المسجد أذن مؤذن ثم أقام الصلاة » فليس من لازم ذلك أن يكون كل من التأذين والإقامة باللفظين المعروفين الآن ، لأنهما كما علمت لم يشرعا إلا فى المدينة : أى فى السنة الأولى من الهجرة ، وقيل فى الثانية كما سيأتى .

وحديث « لما أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء أوحى الله تعالى إليه بالأذان فنزل به فعلمه بلالا » قال الحافظ ابن رجب : موضوع . وحديث «علم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذان ليلة أسرى به» فى إسناده متهم. وفى الخصائص الكبرى أنه صلى الله عليه وسلم علم الإقامة ليلة الإسراء . فقد جاء «لما أراد الله عز وجل أن يعلم رسوله الأذان » أى الإقامة « عرج به إلى أن انتهى إلى الحجاب الذى يلى الرحمن » أى يلى عرشه « خرج ملك من الحجاب ، فقال : الله أكبر الله أكبر ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى أنا أكبر أنا أكبر ، ثم قال الملك : أشهد أن لا إله إلا الله : فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى،لا إله إلا أنا، فقال الملك : أشهد أن محمدا رسول الله، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى أنا أرسلت محمدا، فقال الملك: حى على الصلاة حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، وأخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فقدمه يؤم بأهل السموات » قال فى الشفاء : والحجاب إنما هو فى حق المخلوق لا فى حق الخالق فهم المحجوبون . قال : فإن صح القول بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه ، فيحتمل أنه فى غير هذا الموطن بعد رفع الحجاب عن بصره حتى رآه .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن ذلك الملك ، فقال جبريل : إن هذا الملك ما رأيته قبل ساعتى هذه » وفى لفظ « والذى بعثك بالحق إنى لأقرب الخلق مكانا ، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتى هذه» وفيه أن هذا يقتضى أن جبريل عليه السلام كان معه صلى الله عليه وسلم فى هذا المكان ، وسيأتى أنه تخلف عنه عند سدرة المنتهى ، فليتأمل ، والله أعلم .

« ولما أقيمت الصلاة ببيت المقدس قاموا صفوفا ينتظرون من يؤمهم ، فأخذ جبريل بيده صلى الله عليه وسلم فقدمه ، فصلى بهم ركعتين » .

أى وأما حديث « لما أسرى بى أذن جبريل فظنت الملائكة أنه يصلى بهم ، فقدمنى فصليت بالملائكة » قال الذهبى منكر ، بل موضوع . والغرض من تلك الصلاة الإعلام بعلوّ مقامه صلى الله عليه وسلم ، وأنه المقدم لاسيما فى الإمامة .

وفى رواية « ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا » أى دفعوا « حتى قدموا محمدا صلى الله عليه وسلم » أى ولا مخالفة لأنه يجوز أن يكون جبريل قدمه صلى الله عليه وسلم بعد دفعهم وتقديمهم له صلى الله عليه وسلم . وفى رواية « فأذن جبريل » أى أقام الصلاة « ونزلت

الملائكة من السماء ، وحشر الله له المرسلين » أى جميعهم « وقد نزلت الملائكة وحشر له الأنبياء » أى جميعهم ، بدليل مافى بعض الروايات « بعث له آدم فمن دونه » فهو تعميم بعد تخصيص بناء على أن الرسول أخص من النبى لا بمعناه ، وهـــذا هو المراد بقوله الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم إحياء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وصلاته إماما بهم وبالملائكة ، لأن الأنبياء أحياء .

وفيه إذا كان الأنبياء أحياءفما معنى إحيائهم له ليصلى بهم وقد علمت معنى إحيائهم.

« فلما انصرف صلى الله عليه وسلم قال جبريل : يا محمد أتدرى من صلى خلفك ؟ قال : لا ، قال كل نبى بعثه الله تعالى » أى والنبى غير الرسول بعثه الله تعالى إلى نفسه .

أقول : ولا يخالف ماسبق من أنه عرف النبيين منه بين قائم وراكع وساجد ، لجواز أن يكون المراد عرف معظمهم ، أو أنه عرفهم بعد هذا القول .

وذكر القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس جمع الله له الأنبياء آدم فمن دونه وكانوا سبعة صفوف : ثلاثة صفوف من الأنبياء المرسلين ، وأربعة من سائر الأنبياء ، وكان خلف ظهره إبراهيم الخليل ، وعن يمينه إسمعيل وعن يساره إسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين » والله أعلم . وفى رواية « ثم دخل أى مسجد بيت المقدس فصلى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة قالوا : ياجبريل من هذا الذى معك ؟ قال : هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين ، قالوا : وقد أرسل إليه ، أى للمعراج بناء على أنه كان فى ليلة الإسراء ، قال نعم ، قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة » وهذه الرواية قد يقال لا تخالف ما سبق من أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالملائكة مع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لأنه يجوز أن يكون إنما أفردهم بالذكر لسؤالهم .

وفيه أن سؤالهم يدل على أن نزولهم من السماء لبيت المقدس لم يكن لأجل الصلاة معه صلى الله عليه وسلم .

قال القاضى عياض : والأظهر أن صلاته صلى الله عليه وسلم بهم ، يعنى بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى بيت المقدس كانت قبل العروج ، أى كما يدل على

ذلك سياق القصة. وقال الحافظ ابن كثير: صلى بهم فى بيت المقدس قبل العروج وبعده ، فإن فى الحديث مايدل على ذلك ولا مانع منه .

قال : ومن الناس من يزعم أنه إنما أمهم فى السماء ، أى لا فى بيت المقدس ، أى وهذا الزاعم هو حذيفة ، فإنه أنكر صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى بيت المقدس . قال بعضهم : والذى تظافرت به الروايات صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببيت المقدس .

والظاهر أنه بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم إليه ، أى فلم يصلّ فى بيت المقدس إلامرة واحدة وإنها بعد نزوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لما مر بهم فى منازلهم جعل يسأل جبريل عنهم واحداواحدا وهو يخبره بهم. أى ولو كان صلى بهم أولا لعرفهم ، بل تقدم أنه صلى الله عليه وسلم عرف النبيين ما بين قائم وراكع وساجد ، وما بالعهد من قدم ، وهذا هو اللائق ، لأنه صلى الله عليه وسلم أولا كان مطلوبا إلى الجناب العلوى : أى بناء على أن المعراج كان فى ليلة الإسراء ، وحيث كان مطلوبا لذلك ، اللائق أن لايشتغل بشىء عنه ، فلما فرغ من ذلك اجتمع هو صلى الله عليه وسلم وإخوته من النبيين ثم أظهر شرفه عليهم فقدمه فى الإمامة ، هذا كلامه .

أقول : بحث أن صلاته صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس ولم تكن إلا بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من العروج ، والاستدلال على ذلك بسؤاله صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحدا واحدا فى السماء ، وأن ذلك هو اللائق فيه نظر ظاهر ، لأنه لابحث مع وجود النقل بخلافه ، ومجرد الاستحسان العقلى لايردّ النقل ، فقد تقدم عن الحافظ ابن كثير أنه ثبت فى الحديث مايدل على أنه صلى الله عليه وسلم صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده ، وكونه سأل عن الأنبياء فى السماء لاينافى صلاته بهم أوّلا ، وأنه عرفهم بناء على تسليم أن معرفته لهم كانت عند صلاته بهم أوّلا ، وأنه عرفهم كلهم لامعظمهم على ماقدمناه ، لأنه يجوز أن يكونوا فى السماء على صور لم يكونوا عليها ببيت المقدس ، لأن البرزخ عالم مثال كما تقدم .

وبهذا يعلم مافى قول بعضهم رؤيته صلى الله عليه وسلم للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى السماء محمولة على رؤية أرواحهم إلا عيسى وإدريس عليهما الصلاة والسلام ، ورؤيته صلى الله عليه وسلم لهم فى بيت المقدس يحتمل أن المراد أرواحهم ، ويحتمل

أجسادهم ، ويدل للثانى «وبعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وفى رواية « فنشر لى الأنبياء من سمى الله ومن لم يسم ، فصليت بهم » صلى الله عليه وسلم وعليهم ، والاشتغال عن الجناب العلوى المدعو له بما فيه تأنيس ، وهو اجتماعه صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصلاته بهم مناسب لائق بالحال ، والله أعلم .

واختلف فى هذه الصلاة . فقيل العشاء ، أى الركعتان اللتان كان صلى الله عليه وسلم يصليهما بالعشاء بناء على أنه صلى ذلك قبل العروج .

وفيه أنه صلى تينك الركعتين اللتين كان يصليهما بالغداة : أى وهذا يدل على أن الفجر طلع وهو صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس بعد العروج وتقدم ، وسيأتى أنه صلى الغداة بمكة ، وعليه تكون معادة بمكة .

قال : والذى يظهر — والله أعلم — أنها كانت من النفل المطلق انتهى . أى ولا يضر وقوع الجماعة فيها. وبقولنا أى الركعتان إلى آخره يسقط ماقيل: القول بأنها العشاء أو الصبح ليس بشىء ، لأن أول صلاة صلاها من الخمس مطلقا الظهر ، ومن حمل الأولية على مكة أى ويكون صلى الصبح ببيت المقدس فعليه الدليل ، أى دليل يدل على أن تلك الصلاة إحدى الصلوات الخمس .

وفى زين القصص : كان زمن ذهابه صلى الله عليه وسلم ومجيئه ثلاث ساعات ، وقيل أربع ساعات : أى بقيت من تلك الليلة . لكن فى كلام السبكى أن ذلك كان فى قدر لحظة حيث قال فى تائيته « وعدت وكل الأمر فى قدر لحظة » أى ولا بدع لأن الله تعالى قد يطيل الزمن القصير كما يطوى الطويل لمن يشاء ، وقد فسح الله فى الزمن القصير لبعض أولياء أمته مايستغرق الأزمنة الكثيرة ، وفى ذلك حكايات شهيرة .

قال صلى الله عليه وسلم « وأتيت بإناءين أحمر وأبيض فشربت الأبيض ، فقال لى جبريل : شربت اللبن وتركت الخمر ، لو شربت الخمر لارتدت أمتك » أى غوت وانهمكت فى الشرب ، بدليل الرواية الأخرى ، وهى رواية البخارى « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به بإيليا بقدحين من خمر ولبن فنظر إليهما فأخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذى هداك للفطرة » أى الإستقامة « لو أخذت الخمرة غوت

أمتك ولم يتبعك منهم إلا القليل » أى يكونوا على ماأنت عليه من ترك ذلك ؟ فالمراد بالأرتداد الرجوع عما هو الصواب ، وإتيانه بذلك وهو فى المسجد ببيت المقدس ، وسيأتى مايدل على أنه أتى له صلى الله عليه وسلم بذلك أيضا بعد خروجه صلى الله عليه وسلم منه قبل العروج .

قال صلى الله عليه وسلم « واستويت على ظهر البراق ، فما كان بأسرع من أن أشرفت على مكة ومعى جبريل فصليت به الغداة ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لأم هانئ بعد أن أخبرها بذلك : أنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت ،قالت أم هانئ : فعلقت بردائه صلى الله عليه وسلم ، وقلت: أنشدك الله » أى بفتح الهمزة أسألك بالله « ابن عم » أى يا ابن عم ، أن تحدث أى لا تحدث بهذا قريشا فيكذبك من صدقك » وفى رواية « إنى أذكرك الله عز وجل أنك تأتى قوما يكذبونك وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطوا بك فضرب بيده الشريفة على ردائه ، فانتزعه من يدى فارتفع على بطنه صلى الله عليه وسلم فنظرت إلى عكنه : أى طبقات بطنه من السمن فوق ردائه صلى الله عليه وسلم وكأنه طى القراطيس » أى الورق « وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يخطف» بفتح الطاء وربما كسرت « بصرى ، فخررت ساجدة ، فلما رفعت رأسى إذ هو قد خرج ، فقلت لجاريتى نبعة » أى وكانت حبشية معدودة فى الصحابة رضى الله عنها « اتبعيه وانظرى ماذا يقول ؟ فلما رجعت أخبرتني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى نفر من قريش فى الحطيم » هو مابين باب الكعبة والحجر الأسود . وفى كلام بعضهم: بين الركن والمقام. سمى بذلك لأن الناس يحطم بعضهم بعضا فيه من الازدحام لأنه من مواطن إجابة الدعاء ، قيل ومن حلف فيه آثما عجلت عقوبته ، وربما أطلق كما تقدم على الحجر بكسر الحاء وأولئك النفر الذين انتهى صلى الله عليه وسلم إليهم فيهم المطعم بن عدى وأبو جهل بن هشام والوليد ابن المغيرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى صليت الليلة العشاء » أى أوقعت صلاة فى ذلك الوقت فى هذا المسجد «وصليت به الغداة » أى أوقعت صلاة فى ذلك الوقت، وإلا فصلاة العشاء لم تكن فرضت، وكذا صلاة الغداة التى هى الصبح لم تكن فرضت كما تقدم « وأتيت فيما بين ذلك بيت المقدس » .

أى لايقال كان المناسب لذلك أن يقول وأتيت فى لحظة أو ساعات ، وعلى ماتقدم فيما بين ذلك ببيت المقدس ولم يوسع لهم الزمن . لأنا نقول وسع لهم الزمن، لأن الطباع لاتنفر منه نفرتها من تلك فليتأمل .

قال «وجاء أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد قطع وعرف أن الناس تكذبه» أي، وما أحب أن يكتم ماهو دليل على قدرة الله تعالى ، وما هو دليل على علوّ مقامه صلى الله عليه وسلم الباعث على اتباعه ؟ فقعد صلى الله عليه وسلم حزينا ، فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ قال نعم، أسري بي الليلة ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا قال : نعم ، قال فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيته إن دعوت قومك أتحدثهم ماحدثتني ؟ قال نعم ، قال : يامعشر بني كعب بن لؤيّ ، فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما ، فقال : حدث قومك بما حدثتني به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أسري بي الليلة ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس » الحديث انتهى « فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وصليت بهم وكلمتهم . فقال أبو جهل كالمستهزئ : صفهم لي، فقال صلى الله عليه وسلم : أما عيسى عليه الصلاة والسلام ففوق الربعة ودون الطويل » أي لاطويل ولا قصير « عريض الصدر ، ظاهر الدم » أي لونه أحمر . وفي رواية « يعلوه حمرة كأنما يتحادر من لحيته الجمان » وفي رواية « كأنه خرج من ديماس » أي من حمام، وأصله الكنّ الذي يخرج منه الإنسان وهو عرقان، وأصله الظلمة . يقال : ليل دامس . والحمام لفظ عربي . وأول واضع له الجن، وضعته لسيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وقيل الواضع له بقراط ؛ وقيل شخص سابق على بقراط ، استفاده من رجل كان به تعقيد العصب فوقع في ماء حار في جب فسكن ، فصار يستعمله حتى برئ .

وجاء من طرق عديدة كلها ضعيفة ،لكن يقوى بعضها بعضا « إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما دخله ووجد حره وغمه قال : أوّاه من عذاب الله » لأن دخول الحمام يذكر النار ، لأن الحمام أشبه شيء بجهنم ، لأن النار أسفله ، والسواد والظلمة أعلاه. وقد قيل: خير الحمام ماقدم بناؤه ، واتسع فناؤه ، وعذب ماؤه . قال بعضهم : ويصير قديما بعد سبع سنين . قال بعضهم : ولم يعرف الحمام في بلاد الحجاز قبل البعثة ؟ وإنما عرفه الصحابة بعد موته صلى الله عليه وسلم بعد أن فتحوا بلاد العجم .

وفيه أن في البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون بيتا يقال له الحمام . قالوا : يارسول الله إنه يذهب بالدرن، وينفع المريض

قال فاستتروا» وفى رواية أنه لما قال صلى الله عليه وسلم «اتقوا بيتا يقال له الحمام، فقالوا: يارسول الله إنه يذهب بالدرن، وينفع المريض الوسخ، ويذكر النار، قال: إن كنتم لابد فاعلين فمن دخله فليستتر» وهو صريح فى أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم عرفوه فى زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أن يقال جاز أن يكونوا عرفوه من غيرهم بهذا الوصف لهم، والمنفى فى كلام هذا البعض معرفتهم له بالدخول فيه، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم بيتا يقال له الحمام، وقوله صلى الله عليه وسلم «ستفتح عليكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات».

وأما ماجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «أنه صلى الله عليه وسلم دخل حمام الجحفة» فلا يرد لأنه على تقدير صحته، فالمراد به أنه محل للاغتسال فيه لا بالهيئة المخصوصة وكذا لا يرد ما فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى رافع أنه قال «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضع، فقال: نعم موضع الحمام هذا» فبنى فيه حمام لجواز أن يكون بنى ذلك بعد موته صلى الله عليه وسلم، فهو من أعلام نبوته. قال بعضهم: ولعله قال ذلك لقبح الموضع أى فقول بعضهم ويكفى ذلك فى فضيلة الحمام ليس فى محله.

وفيه أن هذا البعض لم يعول فى الفضيلة على هـــذا فقط، بل عليه وعلى مارواه البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الذى فيه لأنه يذهب بالدرن وينفع المريض.

ولا يرد أيضا ما فى مسند أحمد عن أم الدرداء رضى الله تعالى عنها «أنها خرجت من الحمام فلقيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لها من أين ياأم الدرداء؟ قالت: من الحمام» لأن فى سنده ضعيفا ومتروكا، ولأنه يجوز أن يكون المراد به أنه محل الاغتسال لا أنه المبنى على الهيئة المخصوصة كما تقدم. وبه يجاب أيضا عما فى مسند الفردوس إن صح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر وعمر رضى تعالى عنهما، وقد خرجا من الحمام «طاب حمامكما».

قال ابن القيم: ولم يدخل المصطفى صلى الله عليه وسلم حماما قط، ولعله ما رآه بعينه هذا كلامه. وعن فرقد السنجى «أنه مادخل الحمام نبى قط» ويشكل عليه ماتقدم عن سليمان عليه الصلاة والسلام.

واعترض بعضهم قول ابن القيم: لعله صلى الله عليه وسلم مارأى الحمام بعينه بأنه صلى الله عليه وسلم دخل الشام وبها حمامات كثيرة فيبعد أنه ما رآها، نعم لم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم دخل شيئا منها.

وفيه أنه قد يقال هو صلى الله عليه وسلم لم يدخل بلاد الشام إلا بصرى ، وجاز أن لا يكون بها حمام حين دخوله صلى الله عليه وسلم إليها .

وفى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا « شر البيوت الحمام تعلو فيه الأصوات وتكشف فيه العورات فمن دخله لايدخله إلا مستترا» ورجاله رجال الصحيح إلا شخص منهم فيه مقال ، وما أحسن قول الإمام الغزالى : ورد «نعم البيت الحمام يطهر البدن ، ويذهب الدرن ، ويذكر النار . وبئس البيت الحمام ، يبدى العورة ، ويذهب الحياء» فهذا تعرض لآفتـه ، وذلك تعرض لفائدته ، ولا بأس بطلب الفائدة مع التحرز عن الآفة .

والحاصل أن الحمام تعتريه الأحكام الخمسة ، فيكون واجبا وحراما ومندوبا ومكروها ومباحا . والأصل فيه عندنا معاشر الشافعية الإباحة للرجال مع ستر العورة مكروه للنساء مع ستر العورة حيث لا عذر ، وهو محمل ماجاء « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من نسائكم ، فلا يدخل الحمامات » ومع عدم ستر العورة حرام ؛ وهو محمل ما جاء « الحمام حرام على نساء أمتى » .

وأول من اتخذ الحمام فى القاهرة العزيز ابن المعز العبيدى أحد الفواطم. قال بعضهم: ليس فى شأن الحمام ما يعوّل عليه إلا قول المصطفى صلى الله عليـه وسلم فى صفة عيسى عليه الصلاة والسلام «كأنما خرج من ديماس » .

وقال غيره : أصح حديث فى هذا الباب حديث «اتقوا بيتا يقال له الحمام، فمن دخله فليستتر » . وقال ابن عمر فى وصف عيسى عليه الصلاة والسلام « إنما هو آدم » وحلف بالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل فى عيسى إنه أحمر ، وإنما قال آدم ، وإنمـا اشتبه على الراوى . وأجاب الإمام النووى بأن الراوى لم يرد حقيقة الحمرة بل ماقاربها : أى والحمرة المقاربة لها أى للأدمة يقال لها أدمة ، أى كما يقال لها حمرة فلا منافاة ، قال صلى الله عليه وسلم «جاعد الشعر » أى فى شعره تثن وتكسر.

أقول : ينبغى حمل جعد الذى جاء فى بعض الروايات « وإذا هو بعيسى جعد » على هذا . ثم رأيت النووى قال : قال العلماء المراد بالجعد هنا جعودة الجسم ، وهو اجتماعه واكتنازه ، وليس المراد جعودة الشعر فليتأمل ، والله أعلم. « تعلوه صهبة » أى يعلو شعره

شقرة «كأنه عروة بن مسعود الثقفى» أى رضى الله تعالى عنه ، فإنه بعد انصرافه صلى الله عليه وسلم من الطائف لحق به قبل أن يدخل المدينة وأسلم ثم جاء إلى قومه ثقيف يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه . وقال صلى الله عليه وسلم فى حقه «إن مثله فى قومه كصاحب يس» كما سيأتى ذلك .

«وأما موسى عليه الصلاة والسلام فضخم آدم» أى أسمر ، ومن ثم كان خروج يده بيضاء مخالفا لونها لسائر لون جسده آية «طويل كأنه من رجال شنوءة» طائفة من اليمن : أى ينسبون إلى شنوءة ، وهو عبد الله بن كعب من أولاد الأزد ، لقب بذلك لشنآن كان بينه وبين أهله . وقيل لأنه كان فيه شنوءة : وهو التباعد من الأدناس . وفى رواية «كأنه من رجال أزدعمان» هو أبوحى من اليمن . وعمان هذه بضم العين المهملة وتخفيف الميم : بلدة باليمن ، سميت بذلك لأنه نزلها عمان بن سنان من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وأما عمان بفتح العين وتشديد الميم : فبلدة بالشام ؟ سميت بذلك لأن عمان بن لوط كان سكنها ، وكما يقال أزدعمان يقال أزد شنوءة ، ورجال الأزدمعروفون بالطول .

قال صلى الله عليه وسلم «كثير الشعر ، غائر العينين ، متراكم الأسنان ، مقلص الشفتين ، خارج اللثة» أى وهو اللحم الذى حول الأسنان «عابس وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فوالله إنه لأشبه الناس بى خلقا وخلقا» . وفى رواية «لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه» يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم «فضجوا وأعظموا ذلك ، وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجبا ، فقال المطعم بن عدى : إن أمرك قبل اليوم كان أمما» أى يسيرا «غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدرا شهرا ، أتزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة ، واللات والعزى لاأصدقك ، وماكان هذا الذى تقول قط ، وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : يامطعم بئس ماقلت لابن أخيك ، جبهته» أى استقبلته بالمكروه وكذبته ، أنا أشهد أنه صادق . وفى رواية «حين حدثهم بذلك ارتد ناس كانوا أسلموا» أى وحينئذ فقول المواهب فصدقه الصديق وكل من آمن بالله فيه نظر إلا أن يراد من ثبت على الإسلام .

وفى رواية «سعى رجال من المشركين إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك ، يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، قال : أو قد قال ذلك ؟

قالوا نعم ، قال : لئن قال ذلك لقد صدق ، قالوا : تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال نعم ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة » أى وهى مابين صلاة الصبح وطلوع الشمس « وروحة » أى وهى اسم للوقت من الزوال إلى الليل ، أى وهذا تفسير لهما بحسب الأصل،وإلا فالمراد أنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة واحدة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أى مجىء الخبر له من السماء بواسطة الملك أبعد مما تعجبون منه أى وحينئذ يجوز أن يكون قول أبى بكر للمطعم ماتقدم كان بعد هذا القول : أى قاله بعد أن اجتمع به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغته مقالته ، فلا مخالفة بين الروايتين ، وإلى إسرائه صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وتحـديثه قريشا بذلك أشار صاحب الهمزية بقوله :

حظى المسجد الحرام بممشا ٥ ولم ينس حظه إيلياء

ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربـه النعماء

أى جميع المسجد الحرام حصل له الحظ الأوفر بممشاه صلى الله عليه وسلم فيه ففضل سائر البقاع ،ولم ينس حظه من ممشاه صلى الله عليه وسلم بيت المقدس ، بل شرفه الله تعالى بمشيه فيه أيضا ، ففضل على ماعدا المسجدين : أى مسجد مكة ومسجد المدينة ؛ ثم وافى صلى الله عليه وسلم مكة يحدث الناس لأجل قيامه بالشكر لله تعالى أو حال كونه شاكرا له تعالى وقت أو لأجل أن أتته من ربه النعماء فى تلك الليلة .

ثم قال المطعم : يامحمد صف لنا بيت المقدس أراد بذلك إظهار كذبه . وقيل القائل له ذلك أبو بكر ، قال له : صفه لى فإنى قد جئته أراد بذلك إظهار صدقه صلى الله عليه وسلم لقوله « فقال : دخلته ليلا وخرجت منه ليلا ، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فصوّره فى جناحه » أى جاء بصورته ومثاله فى جناحه» فجعل صلى الله عليه وسلم يقول باب منه كذا فى موضع كذا وباب منه كذا فى موضع كذا ، وأبو بكر رضى الله تعالى عنه يقول صدقت ، أشهد أنك رسول الله حتى أتى على أوصافه » أى ومعلوم أن من ذهب بيت المقدس من قريش يصدق على ذلك أيضا .

وفى رواية « لما كذبتنى قريش » أى وسألتنى عن أشياء تتعلق ببيت المقدس لم أثبتها أى قالوا له كم للمسجد من باب ؟ « فكربت كربا شديدا لم أكرب مثله قط ، قمت فى الحجر

فجلى الله عز وجل لى بيت المقدس » أى وجلى بتشديد اللام وربما خففت: كشفه لى أى بوجود صورته ومثاله فى جناح جبريل .

وفى رواية « فجىء بالمسجد » أى بصورته «وأنا أنظر إليه حتى وضع» أى بوضع محله الذى هو جناح جبريل ، فلا مخالفة بين الروايات وهذا من باب التمثيل ، ومنه رؤية الجنة والنار فى عرض الحائط لامن باب طىّ المسافة وزوى الأرض ، ورفع الحجب المانعة من الاستطراق ،الذى ادعى الجلال السيوطى أنه أحسن مايحمل عليه حديث«رفع بيت المقدس حتى رآه النبى صلى الله عليه وسلم بمكة حال وصفه إياه لقريش صبيحة الإسراء » إذ ذلك لا يجامع مجىء صورته فى جناح جبريل ، وإنما قلنا إن ذلك من باب التمثيل لأن من المعلوم أن أهل بيت المقدس لم يفقدوه تلك الساعة من بلدهم ، فرفعه إنما هو برفع محله الذى هو جناح جبريل .

ثم رأيت ابن حجر الهيتمى قال : الأظهر أنه رفع بنفسه كما جىء بعرش بلقيس إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فى أسرع من طرفة عين ، ولك أن تتوقف فيه ، فان عرش بلقيس فقد بخلاف بيت المقدس ، وكان ذلك التجلى عند دار عقيل ، وتقدم أنها عند الصفا ، وأنها استمرت فى يد أولاد عقيل إلى أن آلت إلى يوسف أخى الحجاج ، وأن زبيدة أو الخيزران جعلتها مسجدا لما حجت كما تقدم وتقدم مافيه ، قال صلى الله عليه وسلم «فطفقت» أى جعلت « أخبرهم عن آياته»: أى علاماته ،« وأنا أنظر إليه » أى وذلك قبل أن تحول الأبنية بين الحجر تلك الدار ، أى لقوله صلى الله عليه وسلم «فقمت فى الحجر» وهم يصدقونه صلى الله عليه وسلم على ذلك .

ومن ثم قيل إن حكمة تخصيص الإسراء إلى المسجد الأقصى أن قريشا تعرفه فيسألونه عنه فيخبرهم بما يعرفونه مع علمهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل بيت المقدس قط فتقوم الحجة عليهم وكذلك وقع .

وأما قول المواهب : ولهذا لم يسألوه صلى الله عليه وسلم عما رأى أى فى السماء لأنهم لا عهد لهم بذلك يقتضى سياقه أنه أخبرهم بالمعراج عند إخباره لهم بالإسراء ، وسيأتى مايخالفه . على أنه سيأتى أنه قيل إن المعراج كان بعد الإسراء فى ليلة أخرى . وقيل فى حكمة ذلك أيضا أن باب السماء الذى يقال له مصعد الملائكة ، يقابل بيت المقدس فيحصل العروج مستويا من غير تعويج .

قال الحافظ ابن حجر: وفيه نظر، لورود أن فى كل سماء بيتا معمورا ، وأن الذى فى السماء الدنيا حيال الكعبة ، فكان المناسب أن يصعد من مكة ليصل إلى البيت المعمور من غير تعويج هذا كلامه ، ويقال عليه وإن سلم ذلك ، لكن لم يكن الباب فى تلك الجهة فإن ثبت أن فى السماء بابا يقابل الكعبة اتجه سؤاله .

قالت نبعة جارية أم هانئ: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومئذ: «يا أبابكر إن الله تعالى قد سماك الصديق» أى ومن ثم كان على رضى الله تعالى عنه يحلف بالله تعالى إن الله تعالى أنزل اسم أبى بكر من السماء الصديق .

وأما مارواه إسحاق بن بشر بسنده إلى أبى ليلى الغفارى : قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سيكون بعدى فتنة ، فإذا كان ذلك فالزموا على بن أبى طالب ، فإنه أول من يرانى وأول من يصافحنى يوم القيامة ، وهو الصدّيق الأكبر ، وهو فاروق هذه الأمة يفرق بين الحق والباطل ، وهو يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب المنافقين » قال فى الاستيعاب : إسحاق بن بشر لا يحتج بنقله إذا انفرد لضعفه ونكارة أحاديثه ، هذا كلامه . وفى مسند البزار بسند ضعيف «أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى بن أبى طالب: أنت الصديق الأكبر وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحق والباطل » .

وفى رواية « أن كفار قريش لما أخبرهم صلى الله عليه وسلم بالإسراء إلى بيت المقدس ووصفه لهم ، قالو له ماآية ذلك يامحمد» أى ما العلامة الدالة على هذا الذى أخبرت به « فإنا لم نسمع بمثل هذا قط » أى : هل رأيت فى مسراك وطريقك مانستدل بوجوده على صدقك أى لأن وصفك لبيت المقدس يحتمل أن تكون حفظته عمن ذهب إليه ، قال صلى الله عليه وسلم « آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا فأنفرهم » أى أنفر عيرهم حس الدابة، يعنى البراق « فندّلهم بعير» أى شرد «فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بمحل كذا مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نياما ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء فكشفت غطاءه ، وشربت مافيه، ثم غطيت عليه كما كان » أى وفى كلام بعضهم « فعثرت الدابة يعنى البراق : فقلب بحافره القدح الذى فيه الماء الذى كان يتوضأ به صاحبه فى القافلة » وشرب الماء الذى للغير جائز لأنه كان عند العرب كاللبن . مما يباح لكل مجتاز من أبناء السبيل ، على أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن له أن يأخذ مايحتاج إليه من مالكه المحتاج إليه ، ويجب على مالكه حينئذ بذله . وأما الجواب عن ذلك

بأنه مال حربى غير صحيح ، لأن هذا كان قبل مشروعية الجهاد ، ومع عدم مشروعيته لا يحل مال أهل الحرب كما لا يحل قتالهم، لأن الواجب حينئذ مسالمتهم ولا تتم إلا بترك التعرض لأموالهم كنفوسهم ، قاله ابن حجر فى شرح الهمزية : لكن فى قطعة التفسير للجلال المحلى فى تفسير قوله تعالى (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها) أن أمه أرضعته بأجرة وساغ لها أخذها ، لأنها مال حربى : أى من مال فرعون،إلا أن يقال ذاك: أى أخذ مال الكافر كان جائزا فى شريعتهم ، قال صلى الله عليه وسلم « وآية ذلك » أى علامته المصدقة لما أخبر به صلى الله عليه وسلم « أن عيرهم الآن تصوب من الثنية يقدمها جمل أورق » وهو مابياضه إلى سواد وهو أطيب الإبل لحما عند العرب، وأخسها عملا عندهم : أى ليس بمحمود عندهم ، فى عمله وسيره « عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء » أى فيها بياض وسواد ، كما تقدم ، فابتدر القوم الثنية فأول مالقيهم الجمل الأورق عليه الغرارتان فسألوهم عن الإناء ، وعن نفار العير ، وعن ندّ البعير ، وعن الشخص الذى دلهم عليه فصدقوا قوله .

أقول : قد علم أن العير التى نفرت وندّ منها البعير ودلهم عليه مرّ عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى الشام ، والعير التى كان بها الإناء الذى شربه صلى الله عليه وسلم مر عليها وهو راجع إلى مكة،وهى التى صوبت من الثنية، وحينئذ لايحسن سؤال أهلها عما وقع لأهل تلك العير تصديقهم له صلى الله عليه وسلم فيما أخبر، إلا أن يقال : يجوز أن تكون هذه العير التى مر عليها صلى الله عليه وسلم فى العود اجتمعت فى عودها بتلك العير الذاهبة إلى الشام ، وأخبروهم بما ذكر، والله تعالى أعلم .

وفى رواية : «قالوا يامطعم دعنا نسأله عما هو أغنى لنا عن بيت المقدس » أى فقولهم ذلك كان بعد أن أخبرهم بيت المقدس « يامحمد أخبرنا عن عيرنا » : أى عيراتنا الذاهبة والآتية « هل لقيت منها شيئا ، فقال نعم أتيت على عير بنى فلان بالروحاء » أى وهو محل قريب من المدينة ، أى بينه وبين المدينة ليلتان « قد أضلوا ناقة لهم فانطلقوا فى طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم ليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء فشربت منه فاسألوهم عن ذلك ، فقالوا هذه واللات والعزى آية» أى علامة .

أقول : وهذه العيرهى التى مر صلى الله عليه وسلم عليها فى العود وهى قادمة إلى مكة، وفى هذه الرواية : زيادة أنهم أضلوا ناقة ، وتقدم فى تلك الرواية ، أنه صلى الله عليه

وسلم وجدهم نياما ، وفى هذه الرواية : إنه ليس بها منهم أحد . وقد يقال : لا مخالفة بين الروايتين ، لأنه يجوز أن يكون الراوى أسقط منها هذه الزيادة وهى إضلال الناقة ، وأن قوله صلى الله عليه وسلم ليس بها منهم أحد ، أى مستيقظ ، بل بعضهم ذهب فى طلب تلك الناقة ، وبعضهم كان نائما ، لكن فى هذه الرواية أنه صلى الله عليه وسلم مر عليها وهى بالروحاء ، وهو لايناسب قوله فى تلك إنها الآن تصوب من الثنية لأن كونها تأتى من الروحاء إلى مكة فى ليلة واحدة من أبعد البعيد ، إلا أن يقال إن الروحاء مشتركة بين المحل المعروف المتقدم ذكره ومحل آخر قريب من مكة، والله أعلم .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : «فانتهيت إلى عير بنى فلان فنفرت منها » أى من الدابة التى هى البراق «الإبل» أى التى هى العير «وبرك منها جمل أحمر، عليه جوالق مخطط ببياض لا أدرى أكسر البعير أم لا؟» وهذه الرواية يحتمل أنها ثالثة. ويمكن أن تكون هى الأولى، أسقط من تلك قوله فى هذه : وبرك منها جمل إلى آخره ، كما أسقط من هذه قوله : فى تلك : فندّلهم بعير .

وفى رواية : « ثم انتهيت إلى عير بنى فلان بمكان كذا وكذا فيها جمل عليه غرارتان ، غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذت العير نفرت وصرع ذلك البعير وانكسر ، أى وأضلوا بعيرا لهم قدجمعه فلان أى بدلالتى لهم عليه فسلمت عليهم ، فقال بعضهم : هذا صوت محمد فاسألوهم عن ذلك» فعلم أن هذه الرواية والتى قبلها هى الأولى ، غاية الأمر أنه زيد فى هذه قوله : فسلمت عليهم فقالوا هذه واللات والعزى آية ، قال صلى الله عليه وسلم « ثم انتهيت إلى عير بنى فلان بالأبواء » أى وهو كما تقدم غير مرة أنه محل بين مكة والمدينة«يقدمها جمل أورق أى بياضه إلى سواد كما تقدم هاهى تطلع عليكم من الثنية ، فانطلقوا لينظروا فوجدوا الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم فقالوا صدق الوليد فيما قال أى فى قوله إنه ساحر، وأنزل الله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وهذا يدل على أن المراد رؤيا الإسراء وأنها رؤيا العين ، وأنه يقال فى مصدرها رؤيا بالألف كما يقال رؤية بالتاء خلافا لمن أنكر ذلك ، إذ لو كان رؤيا الإسراء مناما لما أنكر عليه فى ذلك : أى وقيل نزلت وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم ولد الحكم بن أبى العاص أبى مروان وهم بنو أمية على منبره كأنهم القردة ، وقد ورد « رأيت بنى مروان يتعاورون منبرى » وفى لفظ « ينزون على منبرى نزو القردة » زاد وفى رواية « فما استجمع

صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى مات» وأنزل الله تعالى فى ذلك (وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وفى رواية : فنزل (إنا أعطيناك الكوثر) وفى رواية : فنزل (إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) قال بعضهم : أى خير من ألف شهر يملكها بعدك بنو أمية ، فإن مدة ملك بنى أمية كانت اثنتين وثمانين سنة ، وهى ألف أشهر وكان جميع من ولى الخلافة منهم أربعة عشر رجلا ، أولهم معاوية وآخرهم مروان بن محمد .

وقد قيل لبعضهم : ما سبب زوال ملك بنى أمية مع كثرة العدد والعدد والأموال والموالى ؟ فقال : أبعدوا أصدقاءهم ثقة بهم ، وقربوا أعداءهم جهلا منهم ، فصار الصديق بالإبعاد عدوا ، ولم يصر العدوّ صديقا بالتقريب له ، وحديث «رأيت بني مروان» إلى آخره . قال الترمذى : هو حديث غريب ، وقال غيره منكر ، قال صلى الله عليه وسلم ورأيت بنى العباس يتعاورون منبرى فسرنى ذلك: وقيل إن هذه الآية أى آية.(وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) إنما نزلت فى رؤيا الحديبية، حيث رأى النبى صلى الله عليه وسلم أنه وأصحابه يدخلون المسجد محلقين رؤوسهم ومقصرين ، ولم يوجد ذلك بل صدهم المشركون ، وقال بعض الصحابة له صلى الله عليه وسلم : ألم تقل إنك تدخل مكة آمنا ؟ قال : بلى ، أفقلت لكم من عامى هذا؟ قالوا: لا ، قال فهو كما قال جبريل عليه الصلاة والسلام كما سيأتى ذلك فى قصة الحديبية .

وقيل : إنما نزلت هذه الآية فى رؤيا وقعة بدر ، حيث أراه جبريل مصارع القوم ببدر ، فأرى النبي صلى الله عليه وسلم الناس مصارعهم ، فتسامعت بذلك قريش فخروا منه ، أى ولا مانع من تعدد نزول هذه الآية لهذه الأمور ، فقد يتعدد نزول الآية لتعدد أسبابها .

قال ابن حجر الهيتمى : إن اتحاد النزول لا ينافى تعدد أسبابه : أى وذلك إذا تقدمت الأسباب ، ويروى أنه عين لهم اليوم الذى تقدم فيه العير : أى قالوا له : متى تجىء ؟ قال لهم : يأتوكم يوم كذا وكذا ، يقدمهم جمل أورق عليه مسح آدم وغرارتان ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون ذلك وقد ولى النهار ولم تجىء حتى كادت الشمس أن تغرب أى دنت للغروب ، فدعا الله تعالى فحبس الشمس عن الغروب حتى قدم العير : أى كما وصف صلى الله عليه وسلم .

أقول: يجوز أن يكون هذا بالنسبة لبعض العيرات التى مرّ عليها فلا يخالف ماتقدم أنه صلى الله عليه وسلم قال فى بعض العيرات إنها الآن تصوب من الثنية ، وإلى حبس الشمس عن المغيب أشار الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

وشمس الضحى طاعتك وقت مغيبها فما غربت بل وافقتك بوقفة

وجاء فى بعض الروايات : أنها حبست له صلى الله عليه وسلم عن الطلوع ، ففى رواية : أن بعضهم قال له أخبرنا عن عيرنا « قال مررت بها بالتنعيم ، قالوا : فما عدتها وأحمالها ومن فيها ؟ فقال : كنت فى شغل عن ذلك ، ثم قيل له ذلك فأخبر بعدتها وعدة أحمالها وعدة من فيها ، وقال: تطلع عليكم عند طلوع الشمس ، فحبس الله تعالى الشمس عن الطلوع حتى قدمت تلك العير » .

فلما خرجوا لينظروا فإذا قائل يقول : هذه الشمس قد طلعت ، وقال آخر : وهذه العير قد أقبلت فيها فلان وفلان كما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم » . وعلى تقدير صحة هذه الروايات يجاب عنها بمثل ما تقدم والله أعلم ، وحبس الشمس وقوفها عن السير : أى عن الحركة بالكلية ، وقيل بطء حركتها ، وقيل ردها إلى ورائها ، قالوا : ولم تحبس له صلى الله عليه وسلم إلا ذلك اليوم وما قيل إنها حبست له صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن الغروب أيضا حتى صلى العصر معارض بأنه صلى الله عليه وسلم صلى العصر بعد غروب الشمس وقال «شغلونا عن الصلاة الوسطى » كما سيأتى ، ثم رأيت فى كلام بعضهم ما يؤخذ منه الجواب ، وهو أن وقعة الخندق كانت أياما فحبست الشمس فى بعض تلك الأيام إلى الاحمرار والاصفرار وصلى حينئذ ، وفى بعضها لم تحبس بلى صلى بعد الغروب قال ذلك البعض : ويؤيده أن راوى التأخير إلى الغروب غير راوى التأخير إلى الحمرة والصفرة .

وجاء فى رواية ضعيفة أن الشمس حبست عن الغروب لداود عليه الصلاة والسلام. وذكرى البغوى أنها حبست كذلك لسليمان عليه الصلاة والسلام .

أى فعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه « أن الله أمر الملائكة الموكلين بالشمس حتى ردوها على سليمان حتى صلى العصر فى وقتها » وهذا ردّ لها لا حبس لها عن غروبها الذى الكلام فيه. والذى فى كلام بعضهم إنما ضرب سيدنا سليمان سوق خيله وأعناقها حيث شغله عرضها عليه عن صلاة العصر حتى كادت الشمس أن تغرب ، ولم يتصدق بها مبادرة

لتعظيم أمر الله تعالى بالصلاة فى وقتها لأن التصدق يحتاج إلى صرف زمن فى دفعها وأخذها. وحبست كذلك ليوشع ابن أخت موسى عليه الصلاة والسلام وهو ابن نون بن يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، أى وهو الذى قام بالأمر بعد موسى ، لأن موسى عليه الصلاة والسلام لما وعده الله تعالى أن يورثه وقومه بنى إسرائيل الأرض المقدسة التى هى أرض الشام ، وكان سكنها الكنعانيون الجبارون ، وأمر بمقاتلة أولئك الجبارين وهم العماليق ، سار بمن معه وهم ستمائة ألف مقاتل حتى نزل قريبا من مدينتهم وهى أريحا ، فبعث إليهم اثنى عشر رجلا من كل سبط واحدا ليأتوه بخبر القوم ، فدخلوا المدينة فرأوا أمرا هائلا من عظم أجسادهم. فقد ذكر بعضهم أنه رأى فى فجاج: أى نقرة عين رجل منهم ضبعة رابضة ، أى جالسة هى وأولادها حولها ، والفجاج فى الأصل الطريق الواسع ، واستظل سبعون رجلا من قوم موسى فى قحف رجل منهم ، أى فى عظم أمّ رأسه ، وفى العرائس : وكان لايحمل عنقود عنبهم الاخمسة أنفس منهم ، ويدخل فى قشرة الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس ، أو أربعة ، وإن رجلا من العماليق أخذ الاثنى عشر ووضعهم فى كمه مع فاكهة كانت فيه ، وجاء بهم إلى ملكهم فسألهم فقالوا نحن عيون موسى فقال ارجعوا وأخبروه. وفى العرائس أنه عوج بن عنق إحدى بنات آدم عليه السلام من صلبه ، ويقال إنها أول بغىّ فى الأرض .

وفى العرائس : أنه لما لقيهم كان على رأسه حزمة حطب ، وأخذ الاثنى عشر فى حجره وانطلق بهم لامرأته ، وقال انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا ، وطرحهم بين يديها ، وقال لها : ألا أطحنهم برجلى ، فقالت : امرأته لا ولكن خلّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك ، فلما رجعوا أخبروا موسى عليه الصلاة والسلام ، فقال : اكتموا خوفا من بنى إسرائيل أن يفشلوا ويرتدوا عن موسى فلم يفعلوا ، وأخبر كل واحد سبطه بشدة مارآه من أمرهم الهائل ، ففشلوا وجبنوا عن القتال إلا رجلان لم يخبرا سبطيهما وهما يوشع بن نون من سبط يوسف ، وكالب بن يوقنا من سبط بنيامين ، وقالوا لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فدعا عليهم وقال (رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) أى : فإنه لم يبق معه موافق يثق به غير أخيه هرون وكالب ويوشع ، وهما المذكوران بقوله تعالى (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) لأن الله منجز وعده وإنا قد

خبرناهم فوجدنا أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فلا تخشوهم (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وحينئذ يكون مراد موسى بقوله وأخى من واخاه ووافقه لا خصوص هرون ، ثم دعا بقوله (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) أى باعد بيننا وبينهم فضرب عليه التيه فتاهوا ، أى تحيروا فى ستة فراسخ من الأرض ، يمشون النهار كله ثم يمسون حيث أصبحوا ويصبحون حيث أمسوا ، وأنزل الله تعالى عليهم المنّ والسلوى ، لأنهم شغلوا عن المعاش ، وأبقيت عليهم ثيابهم لا تخلق ولا تتسخ ، وتطول مع الصغير إذا طال ، وظلل عليهم الغمام من الشمس ، ولما رأى موسى عليه الصلاة والسلام مابهم من التعب ندم على دعائه عليهم .

وفى حياة الحيوان : لمّا عبد بنو إسرائيل العجل أربعين يوما عوقبوا بالتيه أربعين سنة لكل يوم سنة ، فأوحى الله تعالى له (فلا تأس) أى لاتحزن (على القوم الفاسقين) ، أى الذين فسقوا : أى خرجوا عن أمرك .

قال فى أنس الجليل : ومن عجيب الاتفاق أن أريحا هذه كانت فى زمن بنى إسرائيل منزل الجبارين ، وفى زمن الاسلام منزل حكام الشرطة فإنها الآن قرية من قرى بيت المقدس. ثم مات موسى وهرون بالتيه ، مات هرون أولا ثم موسى بعد سنتين . وفى ذلك رد على من قال إن قبر هرون أخى موسى بأحدكما سيأتى . وفيه رد أيضا على من يقول موسى مات قبل هرون وأنه دفنه ، وقيل إن هرون رأى سريرا فى بعض الكهوف فقام عليه فمات ، وإن بنى إسرائيل قالوا قتل موسى هرون حسدا له على محبة بنى إسرائيل له ، فقال لهم موسى: ويحكم كان أخى ووزيرى أفترنى أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا فنزل السرير الذى قام عليه فمات حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه . وعلى الأول أن موسى انطلق ببنى إسرائيل إلى قبره ، ودعا الله أن يحييه فأحياه الله تعالى ، وأخبرهم أنه مات ولم يقتله موسى ، وعند ذلك قام بالأمر يوشع بن نون المذكور ؛ أى فإن موسى لما احتضر أخبرهم بأن يوشع بعده نبى ، وإن الله أمره بقتال الجبارين ، فسار بهم يوشع وقاتل الجبارين وكان يوم الجمعة ، ولما كاد أن يفتحها كادت الشمس أن تغرب فقال للشمس : « أيتها الشمس إنك مأمورة وأنا مأمور ، بحرمتى عليك إلا ركدت ، أى مكثت ساعة من النهار » .

وفى رواية « قال اللهم احبسها علىّ فحبسها الله تعالى حتى افتتح المدينة » أى قال

ذلك خوفا من دخول السبت المحرم عليهم فيــه المقاتلة ، وقد عبر الإمام السبكى عن حبسها ليوشع ردها فى قوله :

وردت عليك الشمس بعد مغيبها كما أنها قدما ليوشع ردّت

ولولا قوله بعد مغيبها لما أشكل ، وأمكن أن يراد بالرد وقوفها وعدم غروبها ، ومن ثم ذكر ابن كثير فى تاريخه ، أن فى حديث رواه الإمام أحمد وهو على شرط البخارى «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع عليه السلام، ليالى سار إلى بيت المقدس» وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون لا موسى ،وأن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس ، لافى فتح أريحا هذا كلامه وُهو خلاف السياق .

وفى العرائس أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمت فى التيه ، بل سار ببنى إسرائيل إلى أريحا وعلى مقدمته يوشع ، فدخل يوشع وقتل الجبارين ثم دخلها موسى عليه الصلاة والسلام ببنى إسرائيل ، فأقام فيها ما شاء الله ثم قبض ، ولا يعلم موضع قبره من الخلق أحد ، قال : وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى الحق . وذكر بعد ذلك أن موسى لما حضرته الوفاة قال يارب أدننى من الأرض المقدسة برمية حجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أنى عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » .

قال ابن كثير : قوله صلى الله عليه وسلم لم تحبس لبشر ،يدل على أن هذا من خصائص يوشع عليه الصلاة والسلام ، فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه أن الشمس رجعت أى بعد مغيبها أى فى خيبر كما سنذكره هنا حتى صلى علىّ بن أبى طالب العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبى صلى الله عليه وسلم على ركبته ، وهو حديث منكر ، ليس فى شىء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعى على نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لايعرف حالها هذا كلامه ، وسيأتى قريبا مافيه. على أن قوله صلى الله عليه وسلم لم تحبس لبشر أى غيره صلى الله عليه وسلم،وقد علمت أن الحبس لها يكون منعا لها عن مغيبها والرد لها يكون بعد مغيبها فليتأمل .

وفى كلام سبط ابن الجوزى: إن قيل حبسها ورجوعها مشكل لأنها لوتخلفت أو ردت لاختلت الأفلاك ولفسد النظام قلنا حبسها وردها من باب المعجزات ولا مجال للقياس فى خرق العادات .

وذكر أنه وقع لبعض الوعاظ ببغداد إذ قعد يعظ بعد العصر ثم أخذ فى ذكر فضائل

آل البيت فجاءت سحابة غطت الشمس فظن وظن الناس الحاضرون عنده أن الشمس غابت ، فأرادوا الانصراف فأشار إليهم أن لا يتحركوا ، ثم أدار وجهه إلى ناحية الغرب وقال :

لا تغربى ياشمس حتى ينتهى   مدحى لآل المصطفى ولنجله
إن كان للمولى وقوفك فليكن   هـذا الوقوف لولده ولنسله

فطلعت الشمس فلا يحصى مارمى عليه من الحلى والثياب هذا كلامه .

ولما افتتحوا المدينة التى هى أريحا أصابوا بها أموالا عظيمة ، وكانوا : أى الأمم السابقة إذا أصابوا الغنائم قربوها ، فتجيء النار تأكلها أى إذا لم يكن فيها غلول كما تقدم ، فمجيء النار وأكلها دليل على قبولها ، ولم تحل إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، فلما أصابوا تلك الغنائم قربوها فلم تجيء إليها النار ، فقالوا له : يانبى الله مالها لا تأكل قرباننا؟ قال : فيكم الغلول ، فدعا رأس كل سبط وصافحه ، فلصق كف واحد منهم فى كف يوشع عليه السلام ، فقال : الغلول فى سبطك ، فقال : كيف أعلم ذلك ؟ قال : تصافح واحدا بعد واحد ، فلصقت كفه بكف واحد منهم ، فسئل فقال نعم : رأيت رأس بقرة من ذهب ، عيناها من ياقوت وأسنانها من لؤلؤ فأعجبتنى فغللتها فجاء بها ووضعها فى الغنيمة فجاءت النار فأكلتها .

وذكر البغوى أن الشمس حبست عن الطلوع لموسى عليه الصلاة والسلام كما حبست كذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وكذا القمر حبس لموسى عليه الصلاة والسلام عن الطلوع له . فعن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنه قال : إن الله تعالى حين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بالمسير ببنى إسرائيل إلى بيت المقدس ، أمره أن يحمل معه عظام يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأن لايخلفها بأرض مصر وأن يسير بها حتى يضعها بالأرض المقدسة ، أى وفاء بما أوصى به يوسف عليه الصلاة والسلام .

فقد ذكر أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أدركته الوفاة ، أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه ، فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك ، فسأل موسى عليه الصلاة والسلام عمن يعرف موضع قبر يوسف ، فما وجد أحداً يعرفه إلا عجوزا من بنى إسرائيل ، فقالت له : يا نبى الله أنا أعرف مكانه وأدلك عليه إن أنت أخرجتنى معك ولم تخلفنى بأرض مصر ، قال أفعل ، وفى لفظ : إنها قالت أكون معك فى الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له أعطها طلبتها فأعطاها .

وقد كان موسى عليه الصلاة والسلام وعدبنى إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر ، فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف عليه الصلاة والسلام، ففعل فخرجت به العجوز حتى أرته أيلة فى ناحية من النيل ، وفى لفظ فى مستنقعة ماء أى وتلك المستنقعة فى ناحية من النيل ، فقالت لهم أنضبوا عنها الماء : أى ارفعوه عنها ففعلوا ، قالت : احفروا فحفروا وأخرجوه. وفى لفظ : أنها انتهت به إلى عمود على شاطئ النيل ، أى فى ناحية منه فلا يخالفه ما سبق فى أصله سكة من حديد فيها سلسلة ؛ أى ويجوز أن يكون حفرهم الواقع فى تلك الرواية كان على إظهار تلك السكة فلا مخالفة ، ووجدوه فى صندوق من حديد وسط النيل فى الماء ، فاستخرجه موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو فى صندوق من مرمر أى داخل ذلك الصندوق الذى من الحديد فاحتمله .

وفى أنس الجليل : أن موسى عليه الصلاة والسلام جاءه شيخ له ثلثمائة سنة، فقال له يانبى الله مايعرف قبر يوسف إلا والدتى ، فقال له موسى : قم معى إلى والدتك فقام الرجل ودخل منزله وأتى بقفة فيها والدته فقال لها موسى: ألك علم بقبر يوسف ؟ فقالت : نعم ولا أدلك على قبره إلا إن دعوت الله تعالى أن يرد علىّ شبابى إلى سبع عشرة سنة ويزيد فى عمرى مثل مامضى فدعا موسى لها ، وقال لها كم عمرك؟ قالت له تسعمائة سنة فعاشت ألفا وثمانمائة سنة ، فأرته قبر يوسف وكان فى وسط نيل مصر ليمر النيل عليه فيصل إلى جميع مصر فيكونون شركاء فى بركته .

وأما عود الشمس بعد غروبها، فقد وقع له صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، فعن أسماء بنت عميس أنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ ، ولم يسر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى غربت الشمس وعلىّ لم يصل العصر أى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصليت العصر ؟ فقال لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك ، فاردد عليه الشمس . قالت أسماء فرأيتها طلعت بعد ماغربت» .

قال بعضهم : لا ينبغى لمن سبيله العلم أن يتخلف عن حفظ هذا الحديث ، لأنه من أجلّ أعلام النبوّة وهو حديث متصل. وقد ذكر فى الإمتاع : أنه جاء عن أسماء من خمسة طرق وذكرها ، وبه يرد ماتقدم عن ابن كثير بأنه تفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لايعرف حالها ؛ وبه يرد على ابن الجوزى ، حيث قال فيه إنه حديث موضوع بلاشك

لكن فى الإمتاع ذكر فى خامس الطرق «أن عليا اشتغل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قسمة الغنائم يوم خيبر حتى غابت الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علىّ صليت العصر؟ قال لا يارسول الله، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس فى المسجد فتكلم بكلمتين أو ثلاثة كأنها من كلام الحبش ، فارتجعت الشمس كهيئتها فى العصر فقام على فتوضأ وصلى العصر ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ماتكلم به قبل ذلك ، فرجعت إلى مغربها فسمعت لهـا صريراً كالمنشار فى الخشب » وذلك مخالف لسائر الطرق ، إلا أن يدعى أن هـذه الطريق فيها حذف ، والأصل اشتغل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم خيبر ، ثم وضع رأسه فى حجر على ونام فـما استيقظ حتى غابت الشمس فلا مخالفة .

قال « وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قبل وصوله إلى بيت المقدس ساروا حتى بلغوا أرضا ذات نخل ؛ فقال له جبريل : انزل فصلّ هنا ففعل ، ثم ركب فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال لا ، قال : صليت بطيبة وإليها المهاجرة » وسيأتى مافيه فى الكلام على الهجرة « فانطلق البراق يهوى يضع حافره حيث أدرك طرفه ، حتى إذا بلغ أرضا فقال له جبريل انزل فصل ههنا ففعل ثم ركب ، فقال له جبريل أتدرى أين صليت؟ قال لا ، قال : صليت بمدين » أى وهى قرية تلقاء غزة عند شجرة موسى ، سميت باسم مدين بن إبراهيم لما نزلها « ثم ركب فانطلق البراق يهوى به ، ثم قال انزل فصل ، ففعل ثم ركب ، فقال له : أتدرى أين صليت ؟ قال لا ، قال : صليت ببيت لحم » أى وهى قرية تلقاء بيت المقدس « حيث ولد عيسى عليه الصلاة والسلام » أى وفى الهدى وقيل إنه نزل ببيت لحم وصلى فيه ولا يصح عنه ذلك البتة « وبينا هو يسير على البراق إذ رأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رآه ، فقال له جبريل : ألا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخرّ لفيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بلى ، فقال جبريل : قل أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ماذرأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يارحمن ، أى فقال ذلك فانكب لفيه وطفئت شعلته . ورأى حال المجاهدين فى سبيل الله » أى كشف له عن حالهم فى دار الجزاء بضرب مثاله : فرأى قوما يزرعون فى يوم أى فى وقت « ويحصدونه فى يوم »

أى فى ذلك الوقت كما يرشد إليه الحال «كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل ماهذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من خير فهو يخلفه » هذا الثانى هو المناسب لحالهم دون الأول ، فالأولى الاقتصار عليه إلا أن يدعى أنه صلى الله عليه وسلم شاهد الحصاد والعود العدد المذكور الذى هو سبعمائة مرة على أن المضاعفة المذكورة لاتختص بالمجاهدين . فقد جاء «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلا أن يقال المراد تكرر الجزاء العدد المذكور للمجاهدين أمر مؤكد لا يكاد يتخلف ، وفى غيرهم بخلافه .

«ووجد صلى الله عليه وسلم ريح ماشطة بنت فرعون ، ووجد داعى اليهود وداعى النصارى ، فأما الأول ، فقد رأى عن يمينه داعيا يقول : يامحمد انظرنى أسالك ، فلم يجبه ، فقال : ماهذا ياجبريل ، فقال : داعى اليهود ، أما إنك لو أجبته لتهودت أمتك» أى لتمسكوا بالتوراة ، والمراد غالب الأمة «وأما الثانى فقد رأى عن يساره داعيا يقول : يا محمد انظرنى أسألك فلم يجبه ، فقال : ماهذا يا جبريل ؟ قال هذا داعى النصارى ، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك » أى تمسكت بالإنجيل ، وحكمة كون داعى اليهود على اليمين وداعى النصارى على اليسار لاتخفى .

«ورأى صلى الله عليه وسلم حال الدنيا أى كشف له عن حالتها بضرب مثال « فرأى امرأة حاسرة عن ذراعيها» كأن ذلك شأن المقتص لغيره «وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى» أى ومعلوم أن النوع الواحد من الزينة يجذب القلوب إليه ، فكيف بوجود سائر أنواع الزينة « فقالت يامحمد انظرنى أسالك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه ياجبريل ؟ قال تلك الدنيا أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة . ورأى عجوزا على جانب الطريق ، فقالت : يامحمد انظرنى أسالك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه ياجبريل ؟ فقال : إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا مابقى من عمر تلك العجوز «أى فزينتها لاينبغى الالتفات إليها لأنها على عجوز شوهاء » لم يبق من عمرها إلا القليل » ولينظر لم لم يقل تلك الدنيا ولم يبق من عمرها إلى آخره ؟

وفى كلام بعضهم : الدنياقد يقال لها شابة وعجوز ، بمعنى يتعلق بذاتها ، وبمعنى يتعلق بغيرها ، الأول وهو حقيقة أنها من أول وجود هذا النوع الإنسانى إلى أيام إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه سبعة بعدها تسمى الدنيا شابة وفيما بعد ذلك إلى بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم كهلة ، ومن بعد ذلك إلى يوم القيامة تسمى عجوزا :

واعترض بأن الأئمة صرحوا بأن الشباب ومقابله إنما يكون فى الحيوان . ويجاب بأن الغرض من ذلك التمثيل .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يقبل الأمانة مع عجزه عن حفظهابضرب مثال « فأتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لايستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده أمانات الناس لايقدر على أدائها ويريد أن يتحمل عليها » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يترك الصلاة المفروضة فى دار الجزاء « فأتى على قوم ترضخ رءوسهم ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال : يا جبريل ماهؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة » أى المفروضة عليهم .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يترك الزكاة الواجبة عليه « ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع » وهو اليابس من الشوك « والزقوم » ثمر شجر مرله زفرة ، قيل إنه لايعرف بشجر الدنيا وإنما هو لشجرة من النار ، وهى المذكورة فى قوله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) أى منبتها فى أصل الجحيم ، وتقدم الكلام عليها عند الكلام على المستهزئين « ويأكلون رضف جهنم » أى حجاراتها المحماة ، لأن الرضف بالضاد المعجمة الحجارة المحماة التى يكوى بها « فقال من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لايؤدون صدقات أموالهم المفروضة عليهم » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال الزناة ، بضرب مثال « ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدور ولحم نيء أيضا فى قدور خبيث فجعلوا يأكلون من ذلك النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، فقال : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عنده زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يقطع الطريق بضرب مثال « ثم أتى على خشبة لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقته ، فقال : ما هذه يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه وتلا (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يأكل الربا أى حالته التى يكون عليها فى دار الجزاء « فرأى رجلا يسبح فى نهر من دم يلقم الحجارة، فقال له: من هذا ؟ قال : آكل الربا » وقد شبهه الله تعالى فى القرآن بقوله (الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) » أى إذا بعث الناس يوم القيامة خرجوا مسرعين من قبورهم ، إلا أكلة الربا فإنهم لا يقومون من قبورهم إلا مثل قيام الذى يصرعه الشيطان ، فكلما قاموا سقطوا على وجوههم وجنوبهم وظهورهم ، كما أن المصروع حاله ذلك ، أى فهذه حالته فى الذهاب إلى المحشر زيادة على حالته المتقدمة التى تكون فى دار الجزاء .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يعظ ولا يتعظ « ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت لايفتر عنهم من ذلك شىء ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك ، يقولون مالا يفعلون » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال المغتابين للناس « فمر على قوم لهم أظفار من نحاس يخدشون وجوههم وصدورهم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من يتكلم بالفحش بضرب مثال « فأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع ، فقال : ما هذا الرجل يا جبريل ؟ فقال : هذا الرجل من أمتك يتكلم الكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها » .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من أحوال الجنة « فأتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح المسك وسمع صوتا ، فقال : يا جبريل ماهذا ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول يارب ائتنى بما وعدتنى » أى لأنه يجوز أن يكون محل الجنة من السماء السابعة مقابلا لذلك الوادى .

وكشف له صلى الله عليه وسلم عن حال من أحوال النار « فأتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا خبيثة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم ، تقول يارب ائتنى بما وعدتنى » أى وليست جهنم بذلك الوادى كما سيأتى أن الوادى التى هى به هو الذى ببيت المقدس ، ولعل هذا الوادى مقابل لذلك الوادى ، وينبغى أن لا يكون هذا هو المراد بما فى الخصائص الصغرى للسيوطى .

وخص صلى الله عليه وسلم باطلاعه على الجنة والنار ، بل المراد بذلك رؤية ذلك فى المعراج ، وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى الوادى الذى ببيت المقدس بالنسبة للنار . « ورأى صلى الله عليه وسلم الدجال شبيها بعبد العزى بن قطن » أى وهو ممن هلك فى الجاهلية أى قبل البعثة .

«ومرّ صلى الله عليه وسلم على شخص متنحيا على الطريق ، يقول : هلم يا محمد ، قال : جبريل : سر يا محمد ، قال : من هذا؟ قال : هذا عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه » اه .

وفى رواية « لما وصلت بيت المقدس وصليت فيه ركعتين أى إماما بالأنبياء والملائكة أخذنى العطش أشدّ ما أخذنى ، فأتيتُ بإناءين فى إحداهما لبن وفى الأخرى عسل ، فهدانى الله تعالى ، فأخذت اللبن فشربت ، وبين يدىّ شيخ متكىء على منبر له ، فقال : أى مخاطبا لجبريل : أخذ صاحبك الفطرة ، إنه لمهدىّ ، فلما خرجت منه جاءنى جبريل عليه الصلاة والسلام بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة » أى الاستقامة التى سببها الإسلام ، ومنه «كل مولود يولد على الفطرة » أى على الإسلام .

وفى رواية أخرى « فأتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها ، فأتى بإناء منها فيه ماء فشرب منه قليلا . وفى رواية : أنه لم يشرب منه شيئا ، وأنه قيل له لو شربت الماء » أى جميعه أو بعضه « لغرقت أمتك » أى وفى رواية : «وأنه سمع قائلا يقول : إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته ، ثم رفع إليه إناء آخر فيه لبن فشرب منه حتى روى » .

أى وفى روايه « سمع قائلا يقول إن أخذ اللبن هدى وهديت أمته ، ثم رفع إليه إناء فيه خمر ، فقيل له اشرب ، فقال : لاأريده فقد رويت ، فقال له جبريل : إنها ستحرم على أمتك » أى بعد إباحتها لهم .

وفى رواية « أنه قيل له لو شربت الخمر لغويت أمتك ولم تتبعك » أى لايكون على طريقتك منهم إلا قليل . أى وفى رواية « أنه سمع قائلا يقول إن أخذ الخمر غوى وغويت أمته » .

أقول : وهذه الرواية محتملة لأن تكون وهو فى بيت المقدس ، ولأن تكون وهو خارج عنه ، ومن هذا كله تعلم أنه تكرر عليه عرض اللبن والخمر داخل بيت المقدس

وخارجه ، ولا مانع من تكرر عرض آنيتى الخمر واللبن قبل خروجه من بيت المقدس وبعد خروجه منه قبل العروج .

ولا تعارض بين الإخبار بأن إحداهما كان فيه عسل مع اللبن ، وبين الإخبار بأن إحداهما كان فيه خمر مع اللبن . ولا بين الإخبار بإناءين ، والإخبار بأوانى ثلاثة ، لأنه يجوز أن يكون بعض الرواة اقتصر على إناءين. ولا بين كون الإناء الثالث كان فيه عسل أو ماء ، لأنه يجوز أن يكون إحدى الأوانى الثلاثة كان فيها عسل ثم جعل فيها الماء بدل العسل ، أو مزج العسل به وغلب الماء على العسل ، أو تكون الأوانى أربعة وبعض الرواة اقتصر .

وقد قال ابن كثير : مجموع الأوانى أربعة ، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التى تخرج من أصل سدرة المنتهى ، ولكن لم يسقط اللبن . وفى رواية بخلاف غيره ،فإنه تارة ذكر معه الخمر فقط ، وتارة ذكر معه العسل فقط ، وتارة ذكر معه الماء والخمر .

وعلى الاحتمال الأول يسأل عن سر عدم ذكر جبريل عليه‌الصلاة والسلام حكمة عدم الشرب من العسل والله أعلم .

قال « ومرّ على موسى عليه الصلاة والسلام وهو يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر وهو يقول برفع صوته: أكرمته ، فضلته » اهـ .

وفى رواية « سمعت صوتا وتذمرا » هو بالذال المعجمة : الحدة « فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال : ياجبريل من هذا ؟ قال : هذا موسى بن عمران ، قال : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ، قال : أو يرفع صوته على ربه » والعتاب مخاطبة فيها إدلال ، وهذا يدل على أن الصوت الذى سمعه كان مشتملا على عتاب وتذمر مع رفعه . وفى رواية « على من كان تذمره » أى حدته « قال على ربه ، قلت : أعلى ربه ؟ قال جبريل: إن الله عز وجل قد عرف له حدته » وهـــذا كما علمت كان كالذى بعده قبل وصوله إلى مسجد بيت المقدس والله أعلم .

وجاء « وليلة أسرى بى مر بى جبريل على قبر أبى إبراهيم ، فقال : انزل فصل ركعتين قال : ومرّ على شجرة تحتها شيخ وعياله ، فقال : ومن هذا ؟ فقال : هذا أبوك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال :من هذا الذى معك ياجبريل ؟ فقال : هذا ابنك أحمد ، قال : مرحبا بالنبى العربى الأمى ، ودعا له بالبركة» أى فموسى

عرفه فلم يسأل عنه ، وإبراهيم لم يعرفه فسأل عنه ، لكن فى السيرة الهشامية « أن موسى، سأل عنه أيضا ، فقال : من هـذا ياجبريل . فقال : هـذا أحمد ، فقال : مرحبا بالنبى العربى الذى نصح أمته، ودعا له بالبركة . وقال: اسـأل لأمتك اليسير » والظاهر أن قبر إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان تحت تلك الشجرة أو قريبا منها، فلا مخالفة بين الروايتين .

« وسار صلى الله عليه وسلم حتى أتى الوادى الذى فى بيت المقدس،فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابىّ » أى وهى النمارق . أى الوسائد « فقيل : يارسول الله كيف وجدتها ؟ قال : مثل الحممة » أى الفحمة اهـ .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم عرج بنا إلى السماء » أى من الصخرة كما تقدم « أى على المعراج» بكسر الميم وفتحها « الذى تعرج أرواح بنى آدم فيه» وهو كما فى بعض الروايات « سلم له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب » أى عشر مراقى . وهو المراد بقول بعضهم : « وكانت المعاريج ليلة الإسراء عشرة : سبع إلى السموات ، والثامن إلى سدرة المنتهى ، والتاسع إلى المستوى ، والعاشر إلى العرش والرفرف » أى فأطلق على كل مرقاة معراجا «وهذا المعراج لم ير الخلائق أحسن منه. أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا إلى السماء» أى بعد خروج روحه « فإن ذلك عجبه بالمعراج الذى نصب لروحه لتعرج عليه ، وذلك شامل للمؤمن والكافر ، إلا أن المؤمن يفتح لروحه إلى السماء دون الكافر فترد بعد عروجها تحسيرا وندامة وتبكيتا له . وذلك المعراج أتى به من جنة الفردوس وإنه منضد باللؤلؤ » أى جعل فيه اللؤلؤ بعضه على بعض « عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة ، فصعد هو وجبريل عليهما الصلاة والسلام » قال الحافظ ابن كثير : ولم يكن صعوده على البراق كما توهمه بعض الناس ، أى ومنهم صاحب الهمزية كما يأتى عنه « حتى انتهى إلى باب من أبواب سماء الدنيا ، أى ويقال له باب الحفظة عليه ملك يقال له إسمعيل ، أى وهذا يسكن الهواء، لم يصعد إلى السماء قط ، ولم يهبط إلى الأرض قط إلا مع ملك الموت لما نزل لقبض روحه الشريفة وتحت يده اثنا عشر ألف ملك » .

أى وفى رواية « أن تحت يده سبعين ألف ملك تحت يد كل ملك سبعون ألف ملك ، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت » وفى رواية «فضرب بابا من أبوبها فناداه أهل سماءالدنيا أى حفظتها من هذا ؟ قال جبريل ، فقيل : ومن معك ؟ أى فإنهم رأوهما ولم يعرفوهما ، ولعل جبريل لم يكن على الصورة التى يعرفونه بها « قال محمد » وفى رواية « قال معك

أحد » يجوز أن يكون هذا القائل لم يرهما ويكون الرائى له معظم الحفظة « قال : نعم معى محمد ، قيل: وقد بعث إليه » أى للإسراء والعروج ، أى لأنه كان عندهم علم بأنه سيعرج به إلى السموات بعد الإسراء به إلى بيت المقدس ، وإلا فبعثته صلى الله عليه وسلم ورسالته إلى الخلق يبعد أن تخفى على أولئك الملائكة إلى هذه المدة . وأيضا لوكان هذا مرادهم لقالوا أو قد بعث ولم يقولوا إليه .

فإن قيل قد جاء فى حديث أنس « إن ملائكة سماء الدنيا قالت لجبريل أو قد بعث » قلنا تقدم أن حديث أنس كان قبل أن يوحى إليه ، وأنه كان مناما لايقظة . قال السهيلى : ولم نجد فى رواية من الروايات أن الملائكة قالوا وقد بعث إلا فى هذا الحديث .

وفى رواية بدل بعث إليه « أرسل إليه . قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، قال صلى الله عليه وسلم : فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى بخير » .

واختلف فى لفظ آدم ؟ فقيل أعجمى ، ومن ثم منع الصرف . وقيل عربى ، لأنه مشتق من الأدمة التى هى السّمرة ، والمراد بها هنا لون بين البياض والحمرة حتى لاينافى كونه أحسن الناس ، أو هو مشتق من أديم الأرض أى وجهها لأنه مخلوق منه . وعلى أنه عربى يكون منع صرفه للعلمية ووزن الفعل .

وفى رواية « تعرض عليه أرواح بنيه فيسرّ بمؤمنها » أى عند رؤيته « ويعبس بوجهه عند رؤية كافرها » .

قال وفى رواية « فإذا فيها آدم كيوم خلقه الله تعالى على صورته » أى على غاية من الحسن والجمال « فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ونفس طيبة ، خرجت من جسد طيب ، اجعلوها فى عليين . وتعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة خرجت من جسد خبيث ، اجعلوها فى سجين » .

أقول : وهذا وإن اقتضى كون أرواح العصاة من المؤمنين فى عليين كأرواح الطائفين منهم ، لكن لايقتضى تساويهما فى الدرجة كما لايخفى .

وفى رواية « تعرض عليه أعمال ذريته » وهو إما على حذف المضاف : أى صحف أعمالهم التى وقعت منهم ، وهى التى فى صحف الحفظة ، أو التى ستقع منهم وهى مافى صحف الملائكة غير الحفظة . أو تعرض عليه نفس أعمال تجسمت لما سيأتى أن المعانى تجسم ، ففى كل من الروايتين اقتصار ، والله أعلم .

وفي رواية سندها ضعيف، كما قاله الحافظ ابن حجر « وعن يمينه أسودة ، وباب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة ، وباب يخرج منه ريح خبيثة ، فإذا نظر عن يمينه أى إلى تلك الأسودة ضحك واستبشر ، وإذا نظر عن شماله أى إلى تلك الأسودة حزن وبكى فسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، فقال : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقال : هذا أبوك آدم » أى وزاد فى الجواب قوله « وهذه الأسودة نسم » أى أرواح « بنيه ، فأهل اليمين أهل الجنة ، وأهل الشمال أهل النار ؛ فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر ، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى » وزاد فى الجواب أيضا قوله « وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة ، إذا نظر من سيدخله من ذريته ضحك واستبشر والباب الذى عن شماله باب جهنم ، إذا نظر من سيدخله من ذريته حزن وبكى » اهـ أى إذا نظر إلى أرواح من سيدخلهما . وفيه أن الجنة فوق السماء السابعة والنار فى الأرض السابعة ، وهى محيطة بالدنيا فكيف يكون بابهما فى السماء الدنيا ، وأن أرواح الكفار لاتفتح لها أبواب السماء كما تقدم .

وأجيب عن الثانى بأن عرضها : أى أرواح ذريته الكفار عليه نظرة إليها وهى دون السماء لأنها شفافة أو من ذلك الباب ، أى وكونها عن يساره الذى أخبر به صلى الله عليه وسلم : أى فى جهة يساره .

ويجاب عن الأول بأن الباب الذى على يمينه يجوز أن يكون محاذيا لموضع الجنة من السماء السابعة ، ولهذا قيل له باب الجنة ، وكذا يقال فى باب جهنم ، لأن الإضافة تأتى لأدنى ملابسة ، وبما أجبنا به عن كون أرواح ذريته الكفار عن جهة يساره يعلم أنه لاحاجة فى الجواب عن ذلك إلى قول الحافظ ابن حجر : ويحتمل أن يقال إن النسم المرئية هى الأرواح التى لم تدخل الأجساد بعد : أى الآن ، ومستقرها عن يمين آدم وشماله . وقد أعلم بما سيصيرون إليه ، بناء على أن الأرواح مخلوقة قبل أجسادها . على أنه لا يناسب قوله روح طيبة ونفس طيبة خرجت من جسد طيب إلى آخره .

ولا حاجة لما نقل عن القرطبى فى الجواب عن ذلك ، من أن الكفار التى لا يفتح لها أبواب السماء المشركون دون الكفار من أهل الكتاب ، فيجوز أن تكون تلك الأسودة أرواح كفار أهل الكتاب ، إذ هو يقتضى أن المراد بأرواح بنيه فى الروايتين السابقتين الأرواح التى خرجت من أجسادها .

قال صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل » أى كشفاه الإبل « أى وفى أيديهم قطع من نار كالأفهار » أى الحجارة التى كل واحد منها ملء الكف « يقذفونها فى أفواههم تخرج من أدبارهم ، قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما » وهؤلاء لم تتقدم رؤيته صلى الله عليه وسلم لهم فى الأرض : أى ولعل المراد بالرجال الأشخاص ، أوخصوا بذلك لأنهم أولياء الأيتام غالبا « قال صلى الله عليه وسلم : ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط » وفى رواية « أمثال البيوت » زاد فى رواية « فيها حيات ، ترى من خارج البطون بسبيل » أى طريق آل فرعون ، يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار ولا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك: أى فتطؤهم آل فرعون الموصوفون بما ذكر ، المقتضى لشدة وطئهم لهم . والمهيومة : التى أصابها الهيام ، وهو داء يأخذ الإبل فتهيم فى الأرض ولا ترعى ، وفى كلام السهيلى : الإبل المهيومة العطاش ، والهيام : شدة العطش : أى وفى رواية « كلما نهض أحدهم خر » أى سقط « قال: قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال: هؤلاء أكلة الربا » وتقدمت رؤيته صلى الله عليه وسلم لهم فى الأرض ، لا بهذا الوصف ، بل إن الواحد منهم يسبح فى نهر من دم يلقم الحجارة : أى ولا مانع من اجتماع الوصفين لهم: أى فيخرجون من ذلك النهر ويلقون فى طريق من ذكر ، وهكذا عذابهم دائما .

قال صلى الله عليه وسلم «ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم خبيث منتن ، يأكلون من الغث أى الخبيث المنتن ، ويتركون السمين الطيب ، قال : قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ماحرم الله عليهم منهن » أى وتقدمت رؤيته صلى الله عليه وسلم لهم أى الرجال والنساء فى الأرض بنحو هذا الوصف .

وفى رواية « رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد ، وأخرى عليها لحم منتن عليها ناس يأكلون . قال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام » أى من الأموال ، أعم مما قبله : أى وهؤلاء لم تتقدم رؤيته صلى الله عليه وسلم لهم فى الأرض .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم رأيت نساء متعلقات بثديهن ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال ماليس من أولادهم ، أى بسبب زناهن : أى

وهؤلاء لم يتقدم رؤيته صلى الله عليه وسلم لهن فى الأرض ، والذى تقدم رؤيته لهن الزانيات لا بهذا القيد ، وهو إدخالهن على أزواجهن ما ليس من أولادهم ، على أنه يجوز أن يكون المراد مطلق الزانيات ، لأن الزنا سبب فى حصول ما ذكر غالبا ، ولا مانع من اجتماع الوصفين لهن .

قال «ثم مضى هنيهة ، فإذا هو بأقوام يقطع اللحم من جنوبهم فيلقمونه ، فيقال له أى لـكل واحد منهم كل كما كنت تأكل لحم أخيك ، قال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك ، اللمازون : أى المغتابون للناس النمامون لهم » اهـ أى وتقدمت رؤيته صلى الله عليه وسلم للمغتابين فى الأرض بغير هذا الوصف. أى وروى « أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى هذه السماء النيل والفرات يطردان أن يجريان وعنصرهما: أى أصلهما » وهو يخالف ما يأتى « أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران » وأن الظاهرين النيل والفرات .

وأجيب بأنه يجوز أن يكون منبعهما من تحت سدرة المنتهى ، ومقرهما وهو المراد بعنصرهما الذى هو أصلهما فى السماء الدنيا : أى بعد مرورهما فى الجنة ، ومن سماء الدنيا ينزلان إلى الأرض . فقد جاء « فى تفسير قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) أنهما النيل والفرات أنزلا من الجنة من أسفل درجة منها على جناح جبريل عليه الصلاة والسلام فأودعهما بطون الجبال » ثم إن الله سبحانه وتعالى سيرفعهما ويذهب بهما عند رفع القرآن وذهاب الإيمان ، وذلك قوله تعالى (وإنا على ذهاب به لقادرون) وذكره السهيلى وفى زيادة الجامع الصغير « أن النيل ليخرج من الجنة ، ولو التمستم فيه حين يسبح لوجدتم فيه من ورقها » .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : قد بعث إليه ؟ قال نعم قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى ابن زكريا صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما ، أى شبيه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما ، ومعهما نفر من قومهما ، فرحبا بى ودعوا لى بخير » وفى بعض الروايات التى حكم عليها بالشذوذ « أنهما فى السماء الثالثة » وقد ذكرها الجلال السيوطى فى أوائل الجامع الصغير ، وذكر بعضهم أنها رواية الشيخين عن أنس ، والشذوذ لا ينافى الصحة المطلقة .

فقد قال شيخ الإسلام فى شرح ألفية العراقى عند قوله من غير ماشذوذ: خرج الشاذ، وهو ماخالف فيه الراوى من هو أرجح منه، ولا يرد عليه الشاذ الصحيح عند بعضهم، لأن التعريف للصحيح المجمع على صحته لا مطلقا هذا كلامه .

وفى كلام السخاوى نقلا عن شيخه ابن حجر أن من تأمل الصحيحين وجد فيهما أمثلة من ذلك ، أى من الصحيح الموصوف بالشذوذ .

أقول : وكونهما ابنى الخالة : أى أن أم كل خالة الآخر هو المشهور . وعليه قال ابن السكيت : يقال ابنا خالة ، ولا يقال ابنا عمة ، ويقال ابنا عم ولا يقال ابنا خال ؛ لكن فى عيون المعارف للقضاعى أن يحيى إنما هو ابن خالة مريم أم عيسى لا ابن خالة عيسى ، لأن أم يحيى أخت أم مريم لا أخت مريم .

وكذا فى كلام ابن إسحاق أن عمران وزكريا كلاهما من ذرية سليمان عليهم الصلاة والسلام ، وأنهما تزوجا أختين ؛ فزوجة زكريا ولدت يحيى قبل عيسى بستة أشهر ، ثم ولدت مريم عيسى ، وزوجة عمران ولدت مريم ، فأم يحيى أخت أم مريم، فعيسى ابن بنت خالة يحيى ، وحينئذ يكون قوله صلى الله عليه وسلم « فإذا أنا بابنى الخالة » على التجوّز ، وكذا قول عيسى ليحيى يا ابن الخالة كما فى تفسير التسترى على التجوز .

ففيه : حكى عن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام أنهما خرجا يمشيان ، فصدم يحيى امرأة، فقال له عيسى: يا ابن الخالة ، لقد أخطأت اليوم خطيئة ما أرى الله عز وجل يغفرها لك ، قال : وما هى ؟ قال : صدمت امرأة قال : والله ما شعرت بها ، قال عيسى : سبحان الله : بدنك معى فأين قلبك ؟ قال: معلق بالعرش ، ولو أن قلبى اطمأن إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه طرفة عين لظننت أنى ما عرفت الله عز وجل ووجه التجوز أنه أطلق على بنت الأخت لفظ الأخت . وقال بعضهم : وهو كثير شائع فى كلامهم .

ثم رأيت المولى أبا السعود ذكر ما يجمع به بين القولين ، وهو أنه قيل إن أم يحيى أخت أم مريم من الأم ، وأخت مريم من الأب، فليتأمل تصويره بناء على تحريم نكاح المحارم لأن أم مريم حينئذ بنت موطوءة أبيها لأنها ربيبته إلا أن يكون فى شريعتهم جواز ذلك .

ثم رأيت بعضهم ذكر ذلك حيث قال : لا يبعد أن عمران تزوج أولا أم حنة فولدته

أشياع : أى التى هى أم يحيى ، ثم تزوج حنة بعد ذلك التى هى ربيبته بنت موطوءته فجاء منها بمريم ، بناء على جواز ذلك فى شريعتهم .

وفيه أنه تقدم أن نوحاً عليه الصلاة والسلام بعث بتحريم نكاح المحارم ، إلا أن يقال المراد محارم النسب دون المصاهرة ، ولم يسم أحد يحيى بعد يحيى هذا إلا يحيى بن خلاد الأنصارى جىء به للنبى صلى الله عليه وسلم يوم ولد فحنكه بتمرة ؛ وقال : لأسمينه باسم لم يسم به بعد يحيى بن زكريا فسماه يحيى .

ومما يدل على شرف سيدنا يحيى بن زكريا ما فى الكشاف عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كنا فى المسجد نتذاكر فضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فذكرنا نوحاً بطول عبادته ، وإبراهيم بخلته ، وموسى بتكليم الله تعالى إياه ، وعيسى برفعته إلى السماء ، وقلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منهم ؟ بعث إلى الناس كافة ، وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وهو خاتم الأنبياء ؛ أى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فيم أنتم ؟ فذكرنا له ، فقال : لاينبغى لأحد أن يكون خيرا من يحيى بن زكريا ، فذكر أنه لم يعمل سيئة قط ولاهمّ بها » أى ففى الحديث « مامن أحد إلا ويلقى الله عز وجل وقد همّ بمعصية عملها إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهمّ بها ولم يعملها » فليتأمل مافى ذلك .

وقد ذكر « أن والد زكريا لامه على كثرة العبادة والبكاء ، فقال له : أنت أمرتنى بذلك يا أبت ، ألست أنت القائل : إن بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلا البكاءون من خشية الله عز وجل ؟ فقال : بلى ، فجدّ واجتهد » .

وقد جاء فى الحديث «أن يحيى هو الذى يذبح الموت يوم القيامة ، يضجعه ويذبحه بشعرة تكون فى يده والناس ينظرون إليه ، أى فإن الموت يكون فى صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ويقال لأهلهما : أتعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت » أى يلقى الله عز وجل معرفته فى قلوبهم ، وتجسم المعانى جاء به الحديث الصحيح .

على أنه جاء فى تفسير قوله تعالى (خلق الموت والحياة) أن الموت فى صورة كبش ، لا يمر على أحد إلا مات . وخلق الحياة فى صورة فرس لا يمر على شىء إلا حيى ، وهو يدل على أن الموت جسم ، وأن الميت يشاهد حلول الموت به .

وقيل الذى يذبح الموت جبريل عليه الصلاة والسلام . وقيل إن فى هذه السماء الثانية إدريس ، وهو قول شاذ . وقيل يوسف جاءت به رواية ذكرها الجلال السيوطى فى أوائل

الجامع الصغير ، وذكر فيها أن ابنى الخالة فى السماء الثالثة كما تقدم ، وتقدم أن بعضهم ذكر أنها رواية الشيخين عن أنس .

قال أبو حيان: وعيسى لفظ أعجمى. والظاهر أن مثله يحيى ، هذا كلامه . وفى كلام غيره أن يحيى عربى ، ومنع صرفه العلمية ووزن الفعل .

وقيل فى عيسى إنه عربى مشتق من العيس: وهو بياض يخالطه صفرة. وعلى أنه أعجمى قيل عبرانى . وقيل سريانى .

« ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هـذا ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال: محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم ، أى ومعه نفر من قومه ، وإذا هو أعطى شطر الحسن » أى وفى رواية « صورته صورة القمر ليلة البدر » والمراد بشطر الحسن نصف الحسن الذى أعطيه الناس .

وفى الحديث : « أعطى يوسف وأمه ثلث حسن الدنيا ، وأعطى الناسُ الثلثين » ويحتاج للجمع بينها وبين ما جاء فى رواية « قسم الله ليوسف من الحسن والجمال ثلثى حسن الخلق ، وقسم بين سائر الخلق الثلث » وعن وهب بن منبه : الحسن عشرة أجزاء تسعة منها ليوسف وواحد منها بين الناس .

وفى كلام بعضهم « كان فضل يوسف فى الحسن على الناس كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء ، وكان إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يتلألأ نور الشمس وضوء القمر على الجدران » والمراد بالناس غير نبينا صلى الله عليه وسلم ، لأن حسن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يشارك فى شى منه كما أشار إليه صاحب البردة بقوله: * فجوهر الحسن فيه غير منقسم * خلافا لابن المنير حيث ادعى أن يوسف أعطى شطر الحسن الذى أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وتبعه على ذلك شارح تائية الإمام السبكى .

وعبارته « فإذا هو أى يوسف عليه الصلاة والسلام أعطى شطر الحسن الذى أعطيه كله صلى الله عليه وسلم » .

هـــذا ، وقد قيل إن يوسف ورث الحسن من إسحاق الذى هو جده ، وإسحاق ورث الحسن من سارة التى هى أمه ، وسارة أعطيت سدس الحسن ، ورثت ذلك من حواء .

أى وفى رواية «وصف يوسف وإنه أحسن ما خلق الله تعالى ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب» أى كفضل القمر ليلة البدر على بقية الكواكب الليلية ، والمراد بخلق الله تعالى وبالناس غير نبينا صلى الله عليه وسلم ، لما علمت أنه أعطى شطر الحسن الذى لغير نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولأن المتكلم لا يدخل فى عموم خطابه على ما فيه .

وقد جاء «إن يوسف أعطى نصف حسن آدم» وفى رواية «ثلث حسن آدم» وقد جاء «كان يوسف يشبه آدم يوم خلقه ربه» .

وفى الخصائص الصغرى للسيوطى : وخص بأنه صلى الله عليه وسلم أوتى كل الحسن ولم يعط يوسف إلا شطره ، فلينظر الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها .

وقد جاء «ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه وحسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً أحسنهم صوتاً» .

قال : «فرحب بى ودعا لى بخير» وفى بعض الروايات «إن فى هذه السماء الثالثة ابنى الخالة يحيى وعيسى» كما مر «ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير» وفى رواية «قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح» .

وفى رواية قتادة «مرحباً بالابن الصالح» قال بعضهم : وهو القياس ، لأنه جده الأعلى لأنه من ولد شيث ، بينه وبين شيث أربعة آباء؛ أرسل بعد موت آدم بمائتى سنة. وهو أول من أعطى الرسالة من ولد آدم ، وهو يقتضى أن شيثاً لم يكن رسولا . ونوح من ولده ، بينه وبينه ابنان ، فإدريس فى عمود نسبه صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ يكون قوله بالأخ الصالح فى تلك الرواية محمول على التواضع منه ، خلافا لمن تمسك بذلك .

على أن إدريس ليس جداً لنوح ولا هو من آباء النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الله عزوجل (ورفعناه مكاناً عليا) أى حال حياته لأنه رفع إلى السماء . قيل من مصر بعد أن خرج منها ودار الأرض كلها وعاد إليها ودعا الخلائق إلى الله تعالى باثنتين وسبعين لغة ، خاطب كل قوم بلغتهم وعلمهم العلوم .

وهو أوّل من استخرج علم النجوم: أى علم الحوادث التى تكون فى الأرض باقتران الكواكب .

قال الشيخ محيي الدين بن العربى : وهو علم صحيح لا يخطىء فى نفسه ؛ وإنما الناظر فى ذلك هو الذى يخطىء لعدم استيفاء النظر . ودعوى إدريس عليه السلام الخلائق يدل على أنه كان رسولا . وفى كلام الشيخ محيي الدين : لم يجىء نص فى القرآن برسالة إدريس بل قيل فيه صديقاً نبياً .

وأول شخص افتتحت به الرسالة نوح عليه الصلاة والسلام ، ومن كانوا قبله إنما كانوا أنبياء كل واحد على شريعة من ربه ، فمن شاء دخل معه فى شرعه ، ومن شاء لم يدخل ؛ فمن دخل ثم رجع كان كافرا .

ومما يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام : حب الدنيا والآخرة لا يجتمعان فى قلب أبدا . الناس اثنان : طالب لا يجد ، وواجد لا يكتفى . من ذكر عار الفضيحة هان عليه لذتها . خير الإخوان من نسى ذنبك ومعروفه عندك . وقد قبضت روحه فى هذه السماء الرابعة فصلت عليه الملائكة ، ومدفنه بها ، تصلى عليه الملائكة كلما هبطت . وحينئذ لا يقال : من كان فى السماء الخامسة والسادسة والسابعة أرفع منه . على أنه قيل لما مات أحياه الله تعالى وأدخله الجنة ، وهو فيها الآن: أى غالب أحواله فى الجنة ، فلا ينافى وجوده فى السماء المذكورة فى تلك الليلة ، لأن الجنة أرفع من السموات ، لأنها فوق السماء السابعة ، ولا ما جاء فى الحديث أنه فى السماء حىّ كعيسى عليهما الصلاة والسلام . وفى بعض الروايات أن فى هذه السماء الرابعة هرون .

«ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بهرون أى ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء تكاد تضرب إلى سرّته من طولها وحوله قوم من بنى إسرائيل وهو يقص عليهم ، فرحب بى ودعالى بخير » أى وفى رواية «فقال : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا الرجل المحبب فى قومه هرون بن عمران» أى لأنه كان ألين لهم من موسى عليهما الصلاة والسلام ، لأن موسى عليه الصلاة والسلام كان فيه بعض الشدة عليهم ، ومن ثم كان له منهم بعض الإيذاء .

«ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل :

ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه، قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى صلى الله عليه وسلم، فرحب بى ودعا لى بخير » أى وفى رواية « جعل يمر بالنبى والنبيين معهم القوم، والنبى والنبيين ليس معهم أحد، ثم مر بسواد عظيم فقال: من هذا؟ قيل موسى وقومه » المناسب هذا قوم موسى كما لايخفى « لكن ارفع رأسك، فإذا هو بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب، فقيل: هؤلاء أمتك، هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » أى منهم بدليل ما جاء فى رواية « قيل لى: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقال عكاشة بن محصن: أنا منهم؟ قال نعم، ثم قال رجل آخر: أنا منهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: سبقك بها عكاشة » لأن هذا الرجل كان منافقا، فلم يقل له صلى الله عليه وسلم لست منهم لأنك منافقا، بل أجابه بما فيه ستر عليه. والقول بأن ذلك الرجل هو سعد بن عبادة مردود. وهذا تمثيل: أى مثل له صلى الله عليه وسلم أمته أى وأمة موسى أيضا، إذ يبعد وجودها حقيقة فى السماء السادسة وهذا السياق يدل على أن الذى مر بهم من النبى والنبيين فى السماء السادسة « فلما خلصا » أى جاوزا ما ذكر من النبى والنبيين والسواد العظيم « فإذا موسى بن عمران رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة كثير الشعر » أى مع صلابته « لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر منهما » أى وكان إذا غضب يخرج شعر رأسه من قلنسوته وربما اشتعلت قلنسوته نارا لشدة غضبه.

وفى كلام بعضهم: كان إذا غضب خرج شعره من مدرعته كسل النخل، ولشدة غضبه لما فر الحجر بثوبه صار يضربه حتى ضربه ست ضربات أو سبعا مع أنه لا إدراك له. ووجه بأنه لما فر صار كالدابة، والدابة إذا جمحت بصاحبها يؤدبها بالضرب « فسلم عليه النبى صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم دعا له ولأمته بخير، وقال: يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا؟ بل هذا أكرم على الله منى، فلما جاوزه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل الجنة من أمتى » أى وبل من سائر الأمم.

فقد ذكر الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى أن مما اختص به صلى الله عليه وسلم

فى أمته فى الآخرة أن أهل الجنة : أى من الأمم مائة وعشرون صفا ، هـذه الأمة منها ثمانون وسائر الأمم أربعون .

وجاء فى المرفوع « كل أمة بعضها فى الجنة وبعضها فى النار إلا هـــذه الأمة ، فإنها كلها فى الجنة » .

وفى العرائس عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « لما كلم الله عز وجل موسى كان بعد ذلك يسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصفا ، من مسيرة عشرة فراسخ » ،

وفى الحديث « ليس أحد يدخل الجنة إلا جرد مرد إلا موسى بن عمران فإن لحيته إلى سرته ثم عرج بنا إلى السماء السابعة واسمها عريبا ، واسم الأرض السابعة جريبا » .

روى الخطيب بإسناد صحيح أن وهب بن منبه قال : من قرأ البقرة وآل عمران يوم الجمعة كان له ثواب يملأ مابين عريبا وجريبا «فاستفتح جبريل، قيل : من هذا قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال: محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال نعم قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أى رجل أشمط » وفى لفظ « كهل » ولا ينافى ذلك ماتقدم من قوله صلى الله عليه وسلم فى وصفه إنه أشبه بصاحبكم يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم خلقا وخلقا « جالس عند باب الجنة » أى فى جهتها كما تقدم ، وإلا فالجنة فوق السماء السابعة على كرسى مسندا ظهره إلى البيت المعمور : أى وهو من عقيق ويقال له الضراح بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وفى آخره حاء مهملة ، من ضرح : إذا بعد ، ومنه الضريح .

أى وفى كلام الحافظ ابن حجر : يقال له الضراح والضريح . وجاء « إنه مسجد بحذاء الكعبة لو خر لخر عليها » أى فهو فى تلك السماء فى محل يحاذى الكعبة ، أى وقيل فى السماء الرابعة » وبه جزم فى القاموس ، وقيل فى السادسة ، وقيل فى الأولى ، وتقدم أن فى كل سماء بيتا معمورا ، وأن كل بيت منها بحيال الكعبة « وإذا هو يدخله كل يوم ألف ملك لايعودون إليه » .

أقول : عن بعضهم « أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك » وفى رواية « سبعون وجيها ، مع كل وجيه سبعون ألف ملك » والوجيه : الرئيس ، ولعله صلى الله عليه وسلم علم ذلك بإعلام جبريل ، وإلا فرؤيته صلى الله عليه وسلم له تلك الليلة لاتقتضى ذلك .

ثم رأيت الشيخ عبد الوهاب الشعرانى أشار إلى ذلك حيث قال « وسما له البيت المعمور ، فنظر إليه وركع فيه ركعتين وعرّفه » أى جبريل « أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الباب الواحد ، ويخرجون من الباب الآخر » فالدخول من باب مطالع الكواكب والخروج من باب مغاربها . والظاهر أن دخول هؤلاء الملائكة خاص بالذى فى السماء السابعة .

وقال السهيلى : وقد ثبت فى الصحيح «أن أطفال المؤمنين والكافرين فى كفالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين رآهم مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء أولاد المؤمنين الذين يموتون صغارا ، قال له : وأولاد الكافرين ؟ قال له : وأولاد الكافرين » خرجه البخارى فى الحديث الطويل فى كتاب الجنائز ، وخرجه فى موضع آخر فقال « فيه أولاد الناس » .

وقد روى فى أطفال الكافرين أيضا أنهم خدم أهل الجنة ، هذا كلامه . وجاء فى حديث مرفوع ، لكن سنده ضعيف « إن فى السماء الرابعة نهرا يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم » أى سحرا كما فى بعض الروايات «فينغمس ثم يخرج فينتفض ، فيخرج منه سبعون ألف قطرة ، يخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا » وفى لفظ « يخلق الله عز وجل من كل قطرة كذا وكذا ألف ملك يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور يصلون فيه ، فهم الذين يصلون فى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه أبدا ، يولى عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم فى السماء موقفا يسبحون الله عز وجل إلى أن تقوم الساعة » وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى أن جبريل أخبره بذلك فى تلك الليلة ، والله أعلم .

وفى رواية « وإذا أنا بأمتى شطرين شطراً عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس ، وشطراً عليهم ثياب رمدة ، فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة ، فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور » أى والظاهر أنه ليس المراد بالشطر النصف حتى يكون العصاة من أمته بقدر الطائعين منهم ، وإن الصلاة محتملة للدعاء ولذات الركوع والسجود ، ويناسبه ما تقدم من قوله ركعتين « وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال له : يانبى الله إنك لاق ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك فى أمتك فافعل » .

وفى السيرة الشامية أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال له صلى الله عليه وسلم

ذلك فى الأرض قبل وصول بيت المقدس، وقال له: هنا «مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة ، فقال له : وما غراس الجنة ؟ فقال : لاحول ولا قوة إلا بالله » وفى رواية أخرى « أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

وقد يقال : لا مخالفة بين الروايتين ، لأنه يجوز أن يكون غراس الجنة مجموع ماذكر وأن بعض الرواة اقتصر .

قال صلى الله عليه وسلم «واستقبلتنى جارية لعساء وقد أعجبتنى ، فقلت لها: ياجارية أنت لمن ؟ قالت : لزيد بن حارثة » أى ولعل تلك الجارية خرجت من الجنة فيكون استقبالها له صلى الله عليه وسلم بعد مجاوزة السماء السابعة ، لكن فى رواية « فرأيت فيها أى فى الجنة جارية » الحديث .

وقد يقال : يجوز أن يكون رآها مرتين خارج الجنة وداخلها فيكون سؤالها فى المرة الأولى . واللعس : لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، وذلك مستملح قاله فى الصحاح .

وفى رواية « فلما انتهى إلى السماء السابعة رأى فوقه رعدا وبرقا وصواعق » أى وهذه الرواية ظاهرة فى أنه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك فى السماء السابعة محتملة لأن يكون رآه قبل دخوله فيها ، وحينئذ يكون قوله ثم أتى بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل على الاحتمالين المذكورين .

وعند عرض تلك الأوانى عليه صلى الله عليه وسلم أخذ اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة : أى بأخذك اللبن الذى هو الفطرة ، أصاب الله عز وجل بك أمتك على الفطرة : أى أوجدهم على الفطرة ببركتك . وفى رواية « هذه الفطرة التى أنت عليها وأمتك » [ ] أى وتقدم أن المراد بها الإسلام .

وورد أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى السماء السادسة ، وموسى فى السماء السابعة ، وهذه الرواية فى البخارى عن أنس ، وتقدم أن ذلك كان فى الإسراء بروحه صلى الله عليه وسلم لا بجسده ، وفيه أن رؤيا الأنبياء حق .

فالأولى الجمع بين الروايات بالانتقال ، وأن بعض الأنبياء نزل من محله إلى ما تحته لملاقاته صلى الله عليه وسلم عند صعوده ، وبعضهم خرج عن محله وصعد إلى

مافوقه لملاقاته صلى الله عليه وسلم عند هبوطه ، فأخبر صلى الله عليه وسلم عنه تارة بأنه فى سماء كذا وتارة بأنه فى سماء كذا ، والحافظ ابن حجر لايرى الجمع ، بل يحكم على ما خالف أصح الروايات بأنه لا يعمل به . قال : والجمع إنما هو مجرد استرواح لا ينبغى المصير إليه هذا كلامه .

وعندى فيــه نظر ظاهر ، والجمع أولى من إثبات المعارضة لاسيا بين الأصح والصحيح وإن كان الصحيح شاذا ، لأنا لانقدم الأصح أو الصحيح على غيره إلا حيث تعذر الجمع فليتأمل .

وعلى المشهور من الروايات الذى صدّرنا به أبدى بعضهم لاختصاص هؤلاء الأنبياء بملاقاته صلى الله عليه وسلم واختصاص كل واحد منهم بالسماء الذى لقيه فيها حكمة يطول ذكرها .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم ذهب بى : أى جبريل إلى سدرة المنتهى ، وإذا أوراقها كآذان الفيلة » وفى رواية « مثل آذان الفيول » وفى رواية « الورقة منها تظل الخلق » وفى رواية « تكاد الورقة تغطى هذه الأمة » وفى رواية « لو أن الورقة الواحدة ظهرت لغطت هذه الدنيا » وحينئذ يكون المراد بكونها كآذان الفيلة فى الشكل ، وهو الاستدارة لا فى السعة [ ] « وإذا ثمرها كالقلال » وفى رواية «كقلال هجر » قرية بقرب المدينة ، والواحدة من قلالها تسع قربتين ونصفا من قرب الحجاز ، والقربة تسع من الماء مائة رطل بغدادى ، فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشيها تغيرت » أى صار لها حالة من الحسن غير تلك الحالة التى كانت عليها « فما أحد من خلق الله عز وجل يستطيع أن ينعتها من حسنها » أى لأن رؤية الحسن تدهش الرائى ، وهذا السياق يدل على أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة : أى وهو قول الأكثر ، وفى بعض الروايات أن أغصانها تحت الكرسى ، وعن وهب أن العرش والكرسى فوق السماء السابعة . قال : ويسأل هل ثمــرة سدرة المنتهى كالثمار المأكولة فى أنه يزول ويعقبه غيره هــذا الزائل يؤكل أو يسقط ، أى فلا يؤكل انتهى .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ » أى بالمعجمة « قباب اللؤلؤ » وفى لفظ « حبائل اللؤلؤ المعقود والقلائد ، وإذا ترابها المسك ، ورمانها كالدلاء وطيرها كالبخت» فدخوله صلى الله عليه وسلم للجنة كان قبل عروجه للسحابة .

وفى الحديث « مافى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، والذى نفس محمد بيده لايقطف رجل ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه حتى يبدل الله مكانها خيرا منها » وهذا القسم يرشد إلى أن ثمرة الجنة كلها حلوة تؤكل ، وأنها تكون على صورة ثمرة الدنيا المرة .

وفى كلام الشيخ محيي الدين بن العربى : فاكهة الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة : أى تؤكل من غير قطع : أى يؤكل منها ، فالأكل موجود ، والعين باقية فى غصن الشجرة ، وليس المراد أن الفاكهة غير مقطوعة فى شتاء ولا صيف ، أو يخلق مكان قطعها أخرى على الفور كما فهمه بعضهم ، فعين ما يأكل العبد هو عين ما يشهد ، وأطال فى ذلك ، وكأنه لم يقف على هذا الحديث ، أو لم يثبت عنده فليتأمل .

قال « ويخرج من أصل تلك الشجرة أربعة أنهار : نهران باطنان » أى يبطنان ويغيبان فى الجنة بعد خروجهما من أصل تلك الشجرة « ونهران ظاهران » أى يستمران ظاهرين بعد خروجهما من أصل تلك الشجرة فيجاوزان الجنة « فقال : ما هذه ، أى الأنهار يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان ففى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » انتهى .

أقول : قول جبريل أما الباطنان ففى الجنة لا يحسن أن يكون جوابا عن هذا السؤال : أى الذى هو سؤال عن بيان الحقيقة ويحصل بذكر اسمها ، فكان المناسب بحسب الظاهر أن يقول وأما الباطنان فنهر كذا ونهر كذا ، وهذا السياق يدل على أن النيل والفرات يمران فى الجنة ويجاوزانها ، وأن ما عداهما كسيحان وجيحان بناء على أنهما ينبعان من أصل شجرة المنتهى يغيبان فيها ولا يجاوزانها ، والنيل نهر مصر ، والفرات نهر الكوفة . ويحتمل أن النهرين اللذين هما ما عدا النيل والفرات بناء على أنهما سيحان وجيحان ، يبطنان فى الجنة ولا يظهران إلا بعد خروجهما منها لوجودهما فى الخارج ، بخلاف النيل والفرات فإنهما يستمران ظاهرين فيها إلى أن يخرجا منها .

وقد جاء فى حديث « مامن يوم إلا وينزل ماء من الجنة فى الفرات » قال بعضهم : ومصداقه أن الفرات مد فى بعض السنين فوجد فيه رمان كل واحدة مثل البعير ، فيقال إنه رمان الجنة . وهذا الحديث ذكره ابن الجوزى فى الأحاديث الواهية . وفى حديث موقوف على ابن عباس « إذا حان خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل ، فرفع من الأرض هذه الأنهار والقرآن والعلم ، والحجر والمقام ، وتابوت موسى بما فيه إلى السماء » .

هذا ، وفى بعض الروايات مايدل على أن سيحان وجيحان لاينبعان من أصل شجرة المنتهى ، فليسا هما المراد بالباطنين .

وعن مقاتل: الباطنان السلسبيل والكوثر ، أى ومعنى كونهما باطنين أنهما لم يخرجا من الجنة أصلا . ومعنى كون النيل والفرات ظاهرين أنهما يخرجان منها .

وفى السيرة الشامية : لم يثبت فى سيحان وجيحان أنهما ينبعان من أصل شجرة المنتهى فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك . وأما الباطنان المذكوران : أى فى الحديث فهما غير سيحان وجيحان . قال القرطبى : ولعل ترك ذكرهما : أى سيحان وجيحان فى حديث الإسراء كونهما ليسا أصلا برأسهما ، وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات ، هذا كلامه ، ولعل المراد أنهما يتفرعان عنهما بعد خروجهما من الجنة ، فهما لم يخرجا من أصل السدرة ولا يبطنان فى الجنة أصلا .

قال «وإذا فيها» فى تلك الشجرة «عين» أى فى أصلها أيضا «يقال لها السلسبيل ، فينشق منها نهران أحدهما الكوثر ، والآخر يقال له نهر الرحمة ، فاغتسلت منه فغفر لى ماتقدم من ذنبى وما تأخر » انتهى : أى فهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى ، لكن لامن المحل الذى يخرج منه النيل والفرات ، وحينئذ يحسن القول بأنه يخرج من أصل تلك الشجرة أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان . وفى جعل الكوثر قسما من السلسبيل يخالفه جعله قسيما كما تقدم عن مقاتل ، فالباطنان الكوثر ونهر الرحمة ؛ فالأنهار التى تخرج من أصل سدرة المنتهى أربعة بناء على أن سيحان وجيحان لايخرجان منها أو ستة بناء على أنهما يخرجان منها .

وعلى الأول لاينافى قول القرطبى : مافى الجنة نهر إلا ويخرج من أصل سدرة المنتهى لأن المراد إما خروجه بنفسه أو أصله الذى يتفرع منه بناء على ماتقدم من أن سيحان وجيحان يتفرعان عن النيل والفرات .

ولا ينافى ماعند مسلم « يخرج من أصلها يعنى سدرة المنتهى أربعة أنهار من الجنة ، وهى : النيل والفرات وسيحان وجيحان » ولا ماعند الطبرانى « سدرة المنتهى يخرج من أصلها أربعة أنهار : من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، ومن عسل مصفى » وعن كعب الأحبار : إن نهر العسل نهر النيل ، أى ويدل لذلك قول بعضهم : لولا دخول بحر النيل فى البحر الملح الذى يقال له البحر الأخضر قبل أن يصل

إلى بحيرة الزنج ويختلط بملوحته لما قدر أحد على شربه لشدة حلاوته . ونهر اللبن نهر جيحان ، ونهر الخمر نهر الفرات ، ونهر الماء نهر سيحان ، لأن غاية ذلك سكوتهما عن النهرين الآخرين وهما الكوثر ونهر الرحمة . ومعنى كونها تخرج من أصل سدرة المنتهى من الجنة أنه يحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة فى الجنة والأنهار تخرج من أصلها ، فصح أنها من الجنة ، هكذا ذكره العارف ابن أبى جمرة ، ولم أقف على مايدل على ثبوت هذا الاحتمال : أى أن سدرة المنتهى مغروسة فى الجنة ، ولا حاجة لهذا الاحتمال فى تصحيح هذه الرواية ، لأن المعنى أن تلك الأنهار تخرج من أصل تلك الشجرة ، ثم تكون خارجة من الجنة ؛ ثم لايخفى أن فى كلام القاضى عياض أن سيحان يقال فيه سيحون وجيحان يقال فيه جيحون .

ويخالفه قول صاحب النهاية : اتفقوا كلهم على أن جيحون غير جيحان ، وسيحون غير سيحان ، ومن ثم أنكر الإمام النووى على القاضى عياض حيث قال : الثانى أى من وجوه الإنكار على القاضى قوله سيحان وجيحان ويقال سيحون وجيحون ، فجعل الأسماء مترادفة ، وليس كذلك ، فسيحان وجيحان غير سيحون وجيحون هذا كلامه .

وذكر صاحب النهاية أن جيحون نهر وراء خراسان عند بلخ ، وسكت عن بيان سيحون فليتأمل .

قال « والذى غشى الشجرة فراش من ذهب » والفراش : هو الحيوان الذى يلقى نفسه فى السراج ليحترق « وملائكة على كل ورقة ملك يسبح الله تعالى ، وملائكة أى آخرون يغشونها كأنهم الغربان يأوون إليها متشوقين إليها متبركين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة » انتهى .

«ورأى صلى الله عليه وسلم جبريل عند تلك السدرة على الصورة التى خلقه الله عز وجل عليها ، له ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يتناثر من أجنحته تهاويل الدر والياقوت مما لايعلمه إلا الله عز وجل ، وغشيت تلك السدرة سحابة ، فتأخر جبريل عليه الصلاة والسلام ، ثم عرج به صلى الله عليه وسلم : أى فى تلك السحابة حتى ظهر لمستوى سمع فيه صرير الأقلام » وفى رواية « صريف » أى صوت حركتها حال الكتابة : أى ماتكتبه الملائكة من الأقضية ، وهذا السياق يدل على أن جبريل لم يتعد سدرة المنتهى ، ويدل

على ماتقدم من أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة إلى آخر ماتقدم ، وهو الموافق لقول بعضهم إنها على يمين العرش .

وفى رواية « ثم انطلق بى أى جبريل إلى ظهر السماء السابعة حتى انتهى إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير أخضر نعم الطير رأيت، قال جبريل : هذا الكوثر الذى أعطاك الله ، فإذا فيه آنية الذهب والفضة ، يجرى على رضاض من الياقوت والزمرد بالذال المعجمة كما تقدم « وماؤه أشد بياضا من اللبن ، فأخذت من آنيته واغترفت من ذلك فشربت ، فإذا هو أحلى من العسل وأشدّ رائحة من المسك » .

أقول : قد تقدم أن هــذا النهر من العين التى تخرج من سدرة المنتهى التى يقال لها السلسبيل : أى فهو يخرج من تلك الشجرة ويمر على ماذكر ، ثم يدخل الجنة ويستقر بها فلا ينافى كون الكوثر نهرا فى الجنة ، وأن السلسبيل عين فى الجنة ، لأن السلسبيل على ماتقدم أصل الكوثر ، والله أعلم .

وفى رواية « إنها» أى سدرة المنتهى «فى السماء السادسة وإليها ينتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى مايهبط من فوقها فيقبض منها ، وعندها تقف الحفظة وغيرهم فلا يتعدونها ، ومن ثم سميت سدرة المنتهى .

وعن تفسير ابن سلام عن بعض السلف قال : إنما سميت سدرة المنتهى ، لأن روح المؤمن ينتهى بها إليها ، فتصلى عليها هناك الملائكة المقرّبون وجمع الحافظ ابن حجر بين كون سدرة المنتهى فى السادسة ، وكونها فى السابعة بأن أصلها فى السادسة وأغصانها فى السابعة : أى فوق السابعة : أى جاوزت السابعة ، فلا ينافى القول بأنها فوق السابعة على ماتقدم ، وهذا الحمل المقتضى لكون أصلها فى السادسة لايناسب كون الأنهار تخرج من أصلها إلى آخر ماتقدم .

ويروى « أن جبريل لما وصل إلى مقامه وهو سدرة المنتهى فوق السماء السابعة قال له صلى الله عليه وسلم : هاأنت وربك ، هذا مقامى لا أتعداه ، فزج بى فى النور » أى لما غشيته تلك السحابة ، ويعبر عن تلك السحابة بالرفرف . قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى وهو نظير المحفة عندنا .

وفى تاريخ الشيخ العينى شارح البخارى عن مقاتل بن حيان، قال «انطلق بى جبريل حتى انتهى إلى الحجاب الأكبر عند سدرة المنتهى ، قال جبريل : تقدم يامحمد ، قال :

فتقدمت حتى انتهيت إلى سرير من ذهب عليه فراش من حرير الجنة ، فنادى جبريل من خلفى : يامحمد إن الله يثنى عليك فاسمع وأطع ولا يهولنك كلامه ، فبدأت بالثناء على الله عز وجل » الحديث ، أى وفى ذلك النور المستوى الذى يسمع فيه صريف الأقلام ثم العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب .

وفى رواية « أنه لما وقف جبريل ، قال له صلى الله عليه وسلم : فى مثل هذا المقام يترك الخليل خليله ؟ قال : إن تجاوزت احترقت بالنار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ياجبريل هل لك من حاجة إلى ربك ؟ قال : يامحمد سل الله عز وجل لى أن أبسط جناحى على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه ، قال : ثم زج بى فى النور فخرق بى إلى سبعين ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجابا ، غلظ كل حجاب خمسمائة عام ، وانقطع عنى حس كل ملك ، فلحقنى عند ذلك استيحاش ، فعند ذلك نادى مناد بلغة أبى بكر رضى الله تعالى عنه : قف إن ربك يصلى ، فبينا أنا أتفكر فى ذلك » أى فى وجود أبى بكر فى هذا المحل وفى صلاة ربى ، فأقول : هل سبقنى أبوبكر وكيف يصلى ربى وهو غنى عن أن يصلى كما يدل على ذلك ما يأتى « فإذا النداء من العلى الأعلى : ادن يا خير البرية ، ادن يا أحمد ، ادن يا محمد ، فأدنانى ربى حتى كنت كما قال عز وجل (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) .

وفى الخصائص الصغرى « وخص بالاسراء وما تضمنه اختراق السموات السبع والعلو إلى قاب قوسين ووطئه مكانا ماوطئه نبى مرسل ولا ملك مقرب وهذه الرواية ككلام الخصائص تدل على أن فاعل دنا وتدلى واحد وكان هو صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ يكون معنى تدلى زاد فى القرب . وجعل بعض العلماء من جملة ما خالف شريك فيه المشهور من الروايات أنه جعل فاعل دنا فتدلى الحق سبحانه وتعالى : أى دنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان من محمد صلى الله عليه وسلم قاب قوسين أو أدنى ، ثم رأيت الحافظ ابن حجر ذكر عن البيهقى أنه روى بسند حسن مايوافق ماذكر شريك ، ومعلوم أن معنى الدنو والتدلى الواقعين من الله سبحانه وتعالى ، كمعنى النزول منه فى « ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير » وهو أى ذلك عند أهل الحقائق من مقام التنزل ؛ بمعنى أنه تعالى يتلطف بعباده ويتنزل فى خطابه لهم ، فيطلق على نفسه مايطلقونه على أنفسهم فهو فى حقهم حقيقة ، وفى حقه تعالى مجاز .

ورأيت بعضهم ذكر أن فاعل دنا جبريل ، وفاعل تدلى محمد صلى الله عليه وسلم : أى سجد لربه سبحانه وتعالى شكرا على ما أعطى من الزلفى .

ورأيت بعضا آخر ذكر أن فاعل تدلى الرفرف ، وفاعل دنا محمد صلى الله عليه وسلم : أى تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم حتى جلس عليه ، ثم دنا محمد صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى : أى قرب قرب منزلة وتشريف لا قرب مكان ، تعالى الله عز وجل عن ذلك .

قال صلى الله عليه وسلم « وسألنى ربى فلم أستطع أن أجيبه عز وجل ، فوضع يده عز وجل بين كتفى بلا تكييف ولا تحديد » أى يد قدرته تعالى ، لأنه سبحانه منزه عن الجارحة «فوجدت بردها ، فأورثنى علم الأولين والآخرين ، وعلمنى علوما شتى ، فعلم أخذ على كتمانه إذ علم أنه لايقدر على حمله غيرى. وعلم خيرنى فيه . وعلم أمرنى بتبليغه إلى العام والخاص من أمتى ، وهى الإنس والجن » أى وكذلك الملائكة على ما تقدم .

أقول : هذا التفصيل يدل على أن العلوم الشتى هى هذه العلوم الثلاثة ، إلا أن يقال كل علم من هذه الثلاثة يشتمل على أنواع من العلوم ، والله أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم « ثم قلت : اللهم إنه لما لحقنى استيحاش سمعت مناديا ينادى بلغة تشبه لغة أبى بكر ، فقال لى قف فإن ربك يصلى ، فعجبت من هاتين هل سبقنى أبو بكر إلى هذا المقام ، وإن ربى لغنى أن يصلى! فقال تعالى: أنا الغنى عن أن أصلى لأحد وإنما أقول سبحانى سبحانى سبقت رحمتى غضبى ، اقرأ يا محمد (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما) فصلاتى رحمة لك ولأمتك ، وأما أمر صاحبك يا محمد فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا ، فلما أردنا كلامه قلنا (وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى) وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة ، وكذلك أنت يامحمد لما كان أنسك بصاحبك أبى بكر خلقنا ملكا على صورته ينادى بلغته ليزول عنك الاستيحاش لما يلحقك من عظم الهيبة » .

أقول : لعل المراد خلقنا صورة على صورة صوته ، لأنه ليس فى الرواية أنه رأى ذلك الملك على صورة أبى بكر ، وإنما سمع صوته والله أعلم .

« ثم قال الله عز وجل : يامحمد وأين حاجة جبريل ؟ فقلت : اللهم إنك أعلم ؛ فقال يامحمد قد أجبته فيما سأل ، ولكن فيمن أحبك وصحبك » .

أقول : لعل المراد بمن صحبك من كان تابعا لك فى دينك عاملا بسنتك : أى وهو مراد جبريل بأمته صلى الله عليه وسلم فى قوله أن أبسط جناحى لأمتك على الصراط ، والله أعلم .

وفى رواية « إنه صلى الله عليه وسلم لما رأى الحق سبحانه وتعالى خر ساجدا ، قال صلى الله عليه وسلم : فأوحى الله عز وجل إلىّ ما أوحى » .

وقد ذكر الثعلبى والقشيرى فى تفسير قوله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) أن من جملة ما أوحى إليه « إن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك » قال القشيرى : وأوحى إليه « خصصتك بحوض الكوثر ، فكلّ أهل الجنة أضيافك بالماء ولهم الخمر واللبن والعسل ، ففرضَ علىّ خمسين صلاة فى كل يوم وليلة » .

أقول : تقدم أن من جملة ما أوحى إليه فى هذا الموطن من القرآن : خواتيم سورة البقرة ، وبعض سورة الضحى ، وبعض ألم نشرح ، وقد تقدم ذلك عند الكلام على أنواع الوحى ، وقدمنا أنه يضم لذلك (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) الآية على ما تقدم .

هذا . وفى حديث رواته ثقات « لما وصلت إلى السماء السابعة ، قال لى جبريل عليه السلام: رويدا » أى قف قليلا « فإن ربك يصلى ، قلت : أهو يصلى؟ » وفى لفظ «كيف يصلى » وفى لفظ آخر « قلت : يا جبريل أيصلى ربك ؟ قال نعم ، قلت : وما يقول ؟ قال : يقول : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبقت رحمتى غضبى » ولا مانع من تكرر وقوع ذلك له صلى الله عليه وسلم من جبريل ومن غيره فى السماء السابعة وفيما فوقها ، لكن يبعد تعجبه صلى الله عليه وسلم من كونه عز وجل يصلى فى المرة الثانية وما بعدها .

وورد أن بنى إسرائيل سألوا موسى هل يصلى ربك ؟ فبكى موسى عليه الصلاة والسلام لذلك ، فقال الله تعالى : ياموسى ماقالوا لك ؟ فقال : قالوا الذى سمعت ، قال : أخبرهم أنى أصلى ، وأن صلاتى تطفئ غضبى ، والله أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم « فنزلت إلى موسى » أى وفى رواية « ثم انجلت تلك السحابة » أى عند وصوله إلى سدرة المنتهى الذى هو المحل الذى وقف فيه جبريل « فأخذ بيده جبريل فانصرف سريعا ، فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئا ، ثم أتى على موسى » [] وهذا

يدل على ماهو المشهور فى الروايات أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى السابعة ، وموسى كان فى السادسة ، لاعلى غير المشهور أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى السادسة وموسى كان فى السابعة كما تقدم .

«ولما أتى إلى موسى عليه الصلاة والسلام قال له : مافرض ربك عليك » أى وفى لفظ « بم أمرت؟ قال : خمسين صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإنى بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم » أى وفى البخارى « إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإنى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، أى فإنه فرض عليهم صلاتان فما قاموا بهما : أى ركعتان بالغداة وركعتان بالعشى ، وقيل فرض ركعتان عند الزوال : أى فما قاموا بذلك » .

وفى تفسير البيضاوى أن الذى فرض على بنى إسرائيل خمسون صلاة فى اليوم والليلة ، وسيأتى ذكر ذلك فى بعض الروايات .

ويرده قولهم : إن سبب طلب التخفيف أنه استكثر الخمس التى هى المرة الأخيرة فهو إنما يناسب ماتقدم .

ثم رأيت القاضى البيضاوى قال فى تفسير قوله تعالى (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) أن من ذلك الإصر الذى كلفت به بنو إسرائيل خمسون صلاة فى اليوم والليلة. وكتب عليه الجلال السيوطى فى الحاشية أن كون بنى إسرائيل كلفوا بخمسين صلاة فى اليوم والليلة باطل وبسط الكلام على ذلك .

« ثم قال موسى فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك » أى وإنما كانت أمته مأمورة بما أمر به ومفروض عليها ما فرض عليه ، لأن الفرض عليه صلى الله عليه وسلم فرض على أمته ، والأمر له صلى الله عليه وسلم أمر لها ، لأن الأصل أن ماثبت فيه حق كل نبى ثبت فى حق أمته إلا أن يقوم الدليل على الخصوصية .

قال « فرجعت إلى ربى أى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وخر ساجدا ، فقلت : يارب خفف عن أمتى فحط عنى خمسا ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عنى خمسا ، قال : إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك واسأله التخفيف ، قال : فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى صلى الله عليه وسلم ، حتى قال الله تعالى : يامحمد إنهن خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم

بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرا ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، قال صلى الله عليه وسلم : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقلت : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه » أى وفى رواية « أنه وضع عنه عشر صلوات عشر صلوات إلى أن أمر بخمس صلوات » وجاء فى الحديث « أكثروا من الصلاة على موسى ، فما رأيت أحدا من الأنبياء أحوط على أمتى منه» .

أقول فى الوفاء أن رواية « وضعت خمس صلوات » من أفراد مسلم ، ورواية « وضع عنه عشر صلوات » أصح ، لأنه قد اتفق البخارى ومسلم عليها ، والرواية التى فيها « حط خمسا خمسا » غلط من الرواة هذا كلامه فليتأمل .

والمتبادر من قوله « إلى أن مر بخمس صلوات » أنه رفع التعلق بجميع الخمسين وأثبت تعلقا جديدا بخمس ليست من الخمسين ، فالمنسوخ جميع الخمسين .

ويحتمل أنه رفع التعلق بجملة الخمسين مع إثبات التعلق بخمسة منها التى هى بعضها، فيكون المنسوخ ماعدا الخمس من الخمسين . قيل ، وفى هذا وقوع النسخ قبل البلاغ . وقد اتفق أهل السنة والمعتزلة على منعه .

وردّ بأن هذا وقع بعد البلاغ بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه كلف بذلك ثم نسخ ، فقد قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى رحمه الله تعالى : وما قيل إن الخمس فى ليلة الإسراء ناسخة للخمسين إنما هو فى حقه صلى الله عليه وسلم لبلوغه له ، لافى حق الأمة : أى لعدم بلوغه لهم ، هذا كلامه . وإذا نسخ فى حقه صلى الله عليه وسلم نسخ فى حق أمته كما هو الأصل ، إلا أن تثبت الخصوصية بدليل صحيح ، وهذا يردّ ما فى الخصائص الصغرى للسيوطى رحمه الله تعالى ، من أن وجوب الخمسين لم ينسخ فى حقه صلى الله عليه وسلم ، وإنما نسخ فى حق الأمة ، ولعل مستنده فى ذلك رواية « فرض الله على أمتى ليلة الإسراء خمسين صلاة ، فلم أزل أراجعه وأسأله التخفيف حتى جعلها خمسا فى كل يوم وليلة » أى على الأمة كما هو المتبادر ، وقول موسى عليه الصلاة والسلام له صلى الله عليه وسلم « إن أمتك لاتطيق ذلك » وربما يوافق ذلك قول الإمام السبكى فى تائيته :

وقد كان ربّ العالمين مطالبا بخمسين فرضا كل يوم وليلة
فأبقيت أجر الكل ما اختل ذرة وخففت الخمسون عنا بخمسة

وفيه النسخ قبل التمكن من الفعل ، وهو يردّ قول المعتزلة القائلين بأنه لايجوز النسخ قبل التمكن من الفعل ودخول وقته .

والظاهر من الخمسين التى فرضت أولا أن كل صلاة من الخمس تكرر عشر مرات فما زاد على الخمس مساو لها .

ويحتمل أن تكون صلوات أخر مغايرة لتلك الخمس ، ولم أقف على بيان تلك الصلوات .

وعلى أن الخمسين لم تنسخ فى حقه صلى الله عليه وسلم لم أقف على ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم صلاها ولا على كيفية صلاته صلى الله عليه وسلم لها ، وإلى عروجه صلى الله عليه وسلم ورجوعه أشار صاحب الهمزية بقوله :

وطوى الأرض سائرا والسموا ت العلا فوقها له إسراء
فصف الليلة التى كان للمختـار فيها على البراق استواء
وترّقى به إلى قاب قوسيـن وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء
وتلقّى من ربه كلمات كل علم فى شمسهن هباء
زاخرات البحار يغرق فى قطـ رتها العالمون والحكماء

أى وطوى الأرض حالة كونه صلى الله عليه وسلم سائرا عليها إلى المدينة عند الهجرة كما طويت له صلى الله عليه وسلم قبل ذلك السموات العلا لما كان له صلى الله عليه وسلم فوقها إسراء : أى ليلة الإسراء إلى أن جاوزها جميعها فى أسرع وقت ، فصف تلك الليلة التى كان للمختار فيها على البراق استواء واستقرار ، وصعد به ذلك البراق إلى مقدار قاب قوسين ، وتلك الرتبة التى وصل إليها صلى الله عليه وسلم هى السعادة الثابتة التى لايعتريها نقص ولا زوال ، وهذه رتب تسقط دونها الأمانى حسرى ذات إعياء وتعب ما قداهن قدام : أى ليس بعدها من رتبة ينالها أحد غيره صلى الله عليه وسلم ، وتلقّى من ربه كلمات ماعداها بالنسبة إليها كالهباء ، وهو ما يرى فى ضوء الشمس ، وبث سبحانه

وتعالى إليه علوما لايدرك العاماء والحكماء شذرة منها ؛ وكونه صلى الله عليه وسلم صعد السموات على البراق يوافقه ما فى حياة الحيوان .

إن قيل : لم عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء على البراق ؛ ولم ينزل عند منصرفه عليه . فالجواب أنه عرج به إلى دار الكرامة ولم ينزل به عليه إظهارا لقدرة الله تعالى ، هذا كلامه فليتأمل .

وتقدم عن الحافظ ابن كثير إنكار صعوده صلى الله عليه وسلم على البراق ، وقد جاء «كان موسى أشدهم علىّ حين مررت عليه ، وخيرهم إلىّ حين رجعت،ونعم الصاحب كان لكم أى فإنه صلى الله عليه وسلم كما تقدم لما جاوزه عند الصعود بكى ، فنودى ما يبكيك ؟ قال : رب هذا غلام » أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان حديث السن بالنسبة لموسى صلى الله عليه وسلم ، هذا هو المناسب للمقام « بعثته بعدي ، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتى » وفى رواية « تزعم بنو إسرائيل » أى وهو يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام ، ومعنى إسرائيل عبد الله ، وقيل صفوة الله . وفى لفظ « تزعم الناس أنه أكرم على الله منى ، ولو كان هذا وحده هان ، ولكن معه أمته وهم أفضل الأمم عند الله تعالى » أى انضم إلى شرفه شرف أمته على سائر الأمم .

أقول : والغرض من هذا ومما تقدم عنه عند مروره صلى الله عليه وسلم على قبره عليه الصلاة والسلام عند الكثيب الأحمر إظهار فضيلة نبينا صلى الله عليه وسلم وفضيلة أمته ، بأنه أفضل الأنبياء وأمته بأنها أفضل الأمم . وفى رواية عن ابن عمر «كانت الصلاة خمسين ، والغسل من الجنابة سبع مرات ، وغسل الثوب من البول سبع مرات ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم يسأل حتى جعلت الصلاة خمسا ، وغسل الجنابة مرة ، وغسل الثوب من البول مرة » .

قال : وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده،والمستقرض لايستقرض إلا من حاجة » انتهى . هذا والراجح عند أئمتنا أن درهم الصدقة أفضل من درهم القرض .

وبيان كون درهم القرض بثمانية عشر درهما أن درهم القرض بدرهمين من دراهم

الصدقة كما جاء فى بعض الروايات ، ودرهم الصدقة بعشرة تصير الجملة عشرين ، ودرهم القرض يرجع للمقرض بدله وهو بدرهمين من عشرين يتخلف ثمانية عشر .

« وعرضت عليه صلى الله عليه وسلم النار ، فإذا فيها غضب الله تعالى » أى نقمته « لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتهما » وفى هذه الرواية زيادة على ما تقدم، وهى « فإذا قوم يأكلون الجيف،فقال صلى الله عليه وسلم: من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال :هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس » أى وتقدم « أنه صلى الله عليه وسلم رأى هؤلاء فى الأرض وأن لهم أظفارا من حديد يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، ورآهم فى السماء الدنيا ، وأنهم يقطعون اللحم من جنوبهم فيلقمونه » ولينظر ما الحكمة فى تكرير رؤية هؤلاء دون غيرهم من بقية أهل الكبائر الذين رآهم فى الأرض وفى السماء الدنيا، ولعل الحكمة فى ذلك المبالغة فى الزجر عن الغيبة لكثرة وقوعها .

«ورأى فيها رجلا أحمر أزرق ، فقال : من هذا ياجبريل ؟ فقال : هذا عاقر الناقة » أى ولعل دخول الجنة وعرض النار عليه صلى الله عليه وسلم كان قبل أن تغشاه السحابة ويزج به فى النور ، ولا مانع من أن تعرض عليه النار وهو فوق السماء السابعة وهى فى الأرض السابعة .

أقول : ونقل القرطبي فى تفسيره عن الثعلبي عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى إلى السماء تحت العرش سبعين مدينة كل مدينة مثل دنيا كم هذه سبعين مرة مملوآت من الملائكة يسبحون الله عز وجل ويقدسونه ، ويقولون فى تسبيحهم : اللهم اغفر لمن شهد الجمعة » أى صلاتها « اللهم اغفر لمن اغتسل يوم الجمعة » أى لصلاتها ، وهذا يفيد أن هذه التسمية أى تسمية ذلك اليوم بيوم الجمعة معروفة عند الملائكة وعنده صلى الله عليه وسلم ، وهو يوافق ماقيل إن المسمى لها بذلك كعب بن لؤىّ كما تقدم ، ويخالف ماسيأتى من أن تسمية ذلك اليوم يوم الجمعة هداية من الله عز وجل للمسلمين بالمدينة ، وأنه لما أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلوها فى ذلك اليوم لم يسمه بيوم الجمعة ، بل اقتصر على قوله اليوم الذى يليه اليوم الذى تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم ، أى فى أكثر الروايات ، وإلا فقد رأيت السهيلى ذكر حديثا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سمى ذلك اليوم بيوم الجمعة ، ونصه « كتب صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير : أما بعد ، فانظر اليوم

الذى يليه اليوم الذى تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم ، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة ، فتقربوا إلى الله تعالى فيه بركعتين » فعلى أكثر الروايات يجوز أن يكون إخباره صلى الله عليه وسلم بذلك هنا : أى قصة المعراج كان بعد التسمية وصلاة الجمعة ، وعبر بهذه العبارة لكونها عرفت لهم ، فيكون الذى سمعه من الملائكة يوم العروبة مثلا ، والله أعلم .

قال « ورأى صلى الله عليه وسلم مالكا خازن النار ، فإذا هو رجل عابس يعرف الغضب فى وجهه ، فبدأ النبى صلى الله عليه وسلم أى بالسلام ثم أغلقت دونه » انتهى .

وفى الأصل : وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « وقد رأيتنى : أى يخبر أنه صلى الله عليه وسلم رأى نفسه فى جماعة من الأنبياء ، فحانت الصلاة » أي حضرت إرادة الصلاة فأممتهم » ، أى صليت بهم إماما « قال قائل : يامحمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فبدأنى بالسلام . قال : وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : مالى لم آت لأهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلا غير واحد سلمت عليه فردّ علىّ السلام ورحب بى ودعا لى ولم يضحك إلىّ ؟ قال : ذلك مالك خازن النار ، لم يضحك منذ خلق ولو ضحك لأحد لضحك إليك » انتهى .

أقول : وهذا السياق يدل على أن ضحك من لقيه من الأنبياء والملائكة فى السموات له صلى الله عليه وسلم سقط من جميع روايات المعراج ، إذ لم يذكر فى شىء منها على ماعلمت . ويدل على أن مالكا خازن النار وجده فى السماء السابعة وأنه مرة بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بالسلام ، ومرة بدأه النبى صلى الله عليه وسلم بالسلام ، والمناسب أن يكون فى المرة الأولى هو الذى بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بالسلام وهو عند الباب . ثم رأيت الطيبى صرح بذلك حيث قال : إنما بدأ خازن النار بالسلام عليه ، ليزيل مااستشعر من الخوف منه ، لما ذكر من أنه رأى رجلا عابسا يعرف الغضب فى وجهه ، فلا ينافيه ماذكره السهيلى من أنه صلى الله عليه وسلم لم يره على الصورة التى يراه عليها المعذبون فى الآخرة ، ولو رآه عليها لم يستطع أن ينظر إليه .

وقوله صلى الله عليه وسلم « لم آت أهل سماء إلى آخره » قد يعارضه ماجاء « أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لجبريل : مالى لم أر ميكائيل ضاحكا ؟ قال : ماضحك منذ خلقت النار » وفيه أن هذا يفيد أن ميكائيل كان موجودا قبل خلق النار وإيجادها ، وهذا لاينافى أنه

ميكائيل ضحك بعد ذلك ، فقد جاء «أنه صلى الله عليه وسلم تبسم فى الصلاة ، فسئل عن ذلك ، فقال: رأيت ميكائيل راجعا من طلب القوم ، أى يوم بدر ، وعلى جناحه الغبار فضحك إلىّ فتبسمت إليه » .

ولعل هذا كان بعد ماأخرجه أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه قال لجبريل : إنى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ، قال: ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » ومما يدل على أن جبريل عليه الصلاة والسلام خلق قبل النار أيضا مافى مسند أحمد عن أنس بن مالك ، قال : قال صلى الله عليه وسلم لجبريل « لم تأتنى إلا رأيتك صارّا بين عينيك، قال: إنى لم أضحك منذ خلقت النار » وهذا مع ماتقدم من رؤية الجنة والنار يردّ على الجهمية وبعض المعتزلة كعبد الجبار وأبى هاشم،حيث زعموا أن الله تعالى لم يخلق الجنة والنار ، وأنهما ليستا موجودتين الآن ، وإنما يخلقهما سبحانه وتعالى يوم الجزاء ، مستدلين بأنه لايحسن من الحكيم أن يخلق الجنة دار النعمة والنار دار النقمة قبل خلق أهلهما ، وبأنهما لو كانا مخلوقتين فى السماء والأرض لفنيا بفنائهما

وأجيب عن الأوّل بأنه يحسن من الحكيم خلقهما قبل يوم الجزاء ، لأن الإنسان إذا علم ثوابا مخلوقا اجتهد فى العبادة لتحصيل ذلك الثواب ، وإذا علم عقابا مخلوقا اجتهد فى اجتناب المعاصى لئلا يصيبه ذلك العقاب ، فليتأمل .

وأجيب عن الثانى بأن الله استثناهما من قوله تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء) .

وفيه أن هذه صعقة الموت ، ولا يتصف بالموت غير ذى الروح ، ولأن الجنة كما قيل ليست فى السماء السابعة بل فوقها ، والنار ليست فى الأرض السابعة بل تحتها ، وحينئذ يكون القول بأن الجنة فى السماء السابعة والنار فى الأرض السابعة فيه تجوّز والله أعلم .

قال : واختلف فى رؤيته صلى الله عليه وسلم لربه تبارك وتعالى تلك الليلة فأكثر العلماء على وقوع ذلك : أى أنه صلى الله عليه وسلم رآه عز وجل بعين رأسه . واستدل له بحديث « رأيت ربى فى أحسن صورة » . وردّ بأن هذا الحديث مضطرب الإسناد والمتن [] .

وقد قال بعض العارفين : شاهد الحق سبحانه وتعالى القلوب فلم ير قلبا أشوق إليه

من قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه بالمعراج تعجيلا للرؤية والمكالمة ، وأنكرتها عائشة رضى الله تعالى عنها . وقالت : من زعم أن محمدا رأى ربه أى بعين رأسه فقد أعظم الفرية على الله عز وجل ، أى أتى بأعظم الافتراء والكذب على الله عز وجل ، ووافقها على ذلك من الصحابة ابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهما وجمع من العلماء .

ونقل عن الدارمى الحافظ أنه نقل إجماع الصحابة على ذلك ونظر فيه . وذهب إلى الرؤية : أى المذكورة أكثر الصحابة وكثير من المحدثين والمتكلمين ، بل حكى بعض الحفاظ على وقوع الرؤية له بعين رأسه الإجماع ، وإلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله :

ورآه وما رآه سواه رؤية العين يقظة لاالمرائى

واحتجت عائشة رضى الله تعالى عنها على منع الرؤية بقوله تعالى (لاتدركه الأبصار) قال : وروى أن مسروقا قال لها : ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه نزلة أخرى) أى مرة أخرى ، أى بناء على أن الضمير المستتر له صلى الله عليه وسلم والبارز له سبحانه وتعالى ؛ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فقال : إنما رأيت جبريل منهبطا : أى فالضمير البارز إنما هو لجبريل. وفى رواية قال لها : « ذاك جبريل ، لم أره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين : أى مرة فى الأرض ومرة فى السماء » فى هذه الليلة كما تقدم ، وعلى ظاهر الآية : أى من جعل الضمير المستتر له صلى الله عليه وسلم والبارز له سبحانه وتعالى ، وقطع النظر عن هذه الرواية التى جاءت عن عائشة رضى الله تعالى عنها يلزم أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى الحق سبحانه وتعالى ليلة المعراج مرتين : مرة فى قاب قوسين ، ومرة عند سدرة المنتهى ، ولا مانع من ذلك ، ولعل ذلك هو المعنىّ بقول الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم برؤيته للبارى عز وجل مرتين ، وفيها : وجمع له بين الكلام والرؤية ، وكلمه عند سدرة المنتهى ، وكلم موسى بالجبل .

قال بعضهم : يجوز أنه صلى الله عليه وسلم خاطب عائشة رضى الله تعالى عنها بما ذكر أى بقوله : إنما رأيت جبريل إلى آخره على قدر عقلها أى فى ذلك الوقت انتهى ، وأيد قولها بما روى عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه « قلت : يارسول الله هل رأيت ربك؟ قال : رأيت نورا » أى حجبنى ومنعنى عن رؤيته عز وجل ، ومن ثم جاء فى رواية « نور أنى أراه ؟ » أى كيف أراه مع وجود النور ، لأن النور إذا غشى البصر حجبه عن رؤية

ما وراءه ، أى وليس المراد أنه سبحانه وتعالى هو النور المرئى له خلافا لمن فهم ذلك ، وأيده بما روى « نورانى » أى لأن هذه الرواية كما قيل تصحيف ، ومن ثم قال القاضى عياض : لم أرها فى أصل من الأصول ، ومحال أن تكون ذاته تعالى نورا لأن النور من جملة الأعراض : أى لأنه كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطة تلك الكيفية تدرك سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما ، والله تعالى يتعالى عن ذلك ، أى فحجابه تعالى النور كما رواه مسلم : أى ومن ثم قيل فى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) أى ذو نور ، أو هو على المبالغة : أى وجاء « رأيته فى صورة شاب أمرد عليه حلة خضراء دونه ستر من لؤلؤ » وجاء « رأيت ربى فى أحسن صورة » قال الكمال بن الهمام : إن كان المراد به رؤية اليقظة فهو حجاب الصورة .

قال : وقيل رآه بفؤاده مرتين لا بعيني رأسه ؛ فعن بعض الصحابة « قلنا : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : لم أره بعينى ، رأيته بفؤادى مرتين ، ثم تلا (ثم دنا فتدلى) الآية » وهذا السياق يدل على أن فاعل (دنا فتدلى) الحق سبحانه وتعالى ، والمراد بالفؤاد القلب : أى خلقت الرؤية فى القلب ، أو خلق الله لفؤاده بصرا رأى به انتهى .

أقول : وكون الفؤاد له بصر واضح ، لقوله تعالى (مازاغ البصر وما طغى) . وأجيب عما احتجت به عائشة رضى الله عنها من قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) بأنه لا يلزم من الرؤية الإدراك : أى الذى هو الإحاطة ، فالنور إنما منع من الإحاطة به لا من أصل الرؤية . وقد قال بعضهم للإمام أحمد : بأى معنى تدفع قول عائشة رضى الله تعالى عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية ؟ فقال : يدفع بقول النبى صلى الله عليه وسلم « رأيت ربى » وقول النبى صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها .

هذا ، وقد قال أبو العباس بن تيمية : الإمام أحمد إنما يعنى رؤية المنام ، فإنه لما سئل عن ذلك ، قال نعم رآه ؟ فإن رؤيا الأنبياء حق ، ولم يقل إنه رآه بعين رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم ، وهذه نصوصه موجودة ليس فيها ذلك .

أقول : وفيه أنه يبعد أن يكون الإمام أحمد يفهم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها تنكر رؤيا المنام حتى يرد عليها ، وقد ضعف حديث أبى ذر المتقدم ، وهو « قلت يارسول الله رأيت ربك ؟ فقال : نور أنى أراه ؟ » وهو من جملة الأحاديث التى فى مسلم التى نظر فيها والله أعلم .

قال أبو العباس بن تيمية : وأهل السنة متفقون على أن الله عز وجل لايراه أحد بعينه فى الدنيا لا نبى ولا غير نبى ، ولم يقع النزاع إلا فى نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة ، مع أن أحاديث المعراج المعروفة ليس فى شىء منها أنه رآه ، وإنما روى ذلك باسناد موضوع باتفاق أهل الحديث .

وفى صحيح مسلم وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت وقد سأله موسى الرؤية فمنعها » .

وقد نقل القرطبى عن جماعة من المحققين القول بالوقف فى هذه المسألة ، لأنه لا دليل قاطع ، وغاية ما استدل به الفريقان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل ، وهو من المعتقدات ، فلا بد فيها من الدليل القطعى هذا كلامه .

ونازع فيه السبكى بأنه ليس من المعتقدات التى يشترط فيها الدليل القطعى ، وهى التى تكلف باعتقادها كالحشر والنشر ، بل من المعتقدات التى يكتفى فيها بخبر الآحاد الصحيح ، وهى التى لم نكلف باعتقادها كما نحن فيه .

وفى الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم برؤيته من آيات ربه الكبرى وحفظه ، حتى مازاغ البصر وما طغى ، وبرؤيته للبارى مرتين .

وفى كلام بعضهم قال العلماء فى قوله تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) رأى صورة ذاته المباركة فى الملكوت ، فإذا هو عروس المملكة .

وفى كلام ابن دحية : خص صلى الله عليه وسلم بألف خصلة : منها الرؤية والدنو والقرب . قال بعضهم : قد صحت الأحاديث عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى إثبات الرؤية ، وحينئذ يجب المصير إلى إثباتها ، ولا يجترىء أحد أن يظن فى ابن عباس أن يتكلم فى هذه المسألة بالظن والاجتهاد .

قال الإمام النووى : والراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، أى وأما رؤيته عز وجل يوم القيامة فى الموقف فعامة لكل أحد من الخلق الإنس والجن من الرجال والنساء ، المؤمن والكافر ، والملائكة جبريل وغيره .

وأما رؤيته عز وجل فى الجنة ، فقيل لا تراه الملائكة ، وقيل يراه منهم جبريل خاصة مرة واحدة . قال بعضهم : وقياس عدم رؤية الملائكة عدم رؤية الجن ورد ذلك .

واختلف فى رؤية النساء من هذه الأمة له تعالى فى الجنة ، فقيل لايرينه لأنهن

مقصورات أى محبوسات فى الخيام . وقيل يرينه فى أيام الأعياد دون أيام الجمع ، بخلاف الرجال فإنهم يرونه فى كل يوم جمعة .

فقد جاء « أنه تعالى يتجلى فى مثل عيد الفطر ويوم النحر لأهل الجنة تجليا عاما » ومن أهل الجنة مؤمن الجن على الراجح .

وجاء « إن كل يوم كان للمسلمين عيدا فى الدنيا فإنه عيد لهم فى الجنة ، يجتمعون فيه على زيارة ربهم ، ويتجلى لهم فيه ، ويدعى يوم الجمعة فى الجنة بيوم المزيد » قال بعضهم : هذا لعموم أهل الجنة ، وأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يرون ربهم فيه بكرة وعشيا .

وأما رؤية الله عز وجل فى النوم ، ففى الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه يجوز له رؤية الله وعز وجل فى المنام ولا يجوز ذلك لغيره صلى الله عليه وسلم فى أحد القولين ، وهو اختيارى ، وعليه أبو منصور الماتريدى . وفى كلام الإمام النووى قال القاضى عياض : اتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى فى المنام وصحتها : أى وقوعها قال : وإن رآه حينئذ إنسان على صفة لا تليق بجلاله من صفات الأجساد لأن ذلك المرئ غير ذات الله تعالى والله أعلم .

ثم لا يخفى أن أكثر العلماء على أن الإسراء إلى بيت المقدس ثم المعراج إلى السماء كانا فى ليلة واحدة ، أى وقيل كان الإسراء وحده فى ليلة ، ثم كان هو والمعراج فى ليلة أخرى .

قال : وقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل إلى سماء الدنيا نظر إلى أسفل منه ، فإذا هو برهج ودخان وأصوات ، فقال : ماهذا ياجبريل؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم لا يتفكرون » أى وذلك مانع لهم من التفكر فى ملكوت السموات والأرض أى لعدم نظرهم للعلامات الموصلة لذلك « لولا ذلك لرأوا العجائب » أى أدركوها .

« ثم ركب صلى الله عليه وسلم البراق منصرفا » أى بناء على أنه لم يعرج على البراق « فمر بعير لقريش » إلى آخر ما تقدم انتهى .

أقول : ذكر بعضهم أن مما نزل عليه صلى الله عليه وسلم بين السماء والأرض أى عند نزوله من السماء قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) الآيات الثلاث ، وقوله تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) الآية ، والآيتان من آخر سورة البقرة ، وتقدم أنهما نزلتا بقاب قوسين ، والله أعلم .

واستدل على أن كلا من الإسراء والمعراج كان يقظة بجسده صلى الله عليه وسلم وروحه بقوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) لأن العبد حقيقة هو الروح والجسد قال تعالى (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) وقال (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) ولو كان الإسراء مناما لقال بروح عبده ، ولأن الدواب التى منها البراق لاتحمل الأرواح ، وإنما تحمل الأجساد .

واستدل على أن الرؤية كانت بعين بصره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (مازاغ البصر وما طغى) لأن وصف البصر بعدم الإزاغة يقتضى أن ذلك يقظة، ولو كانت الرؤية قلبية لقال مازاغ قلبه [ ] .

أقول : فيه أن لقائل أن يقول : يجوز أن يكون المراد بالبصر بصر قلبه ، لما تقدم أن الله تعالى خلق لقلبه بصرا ، والله أعلم .

وقيل كان الإسراء بجسده ، والمعراج بروحه الشريفة ، أى بذاتها عرج بها حقيقة من غير إماتة للجسد ، وكان حالها فى ذلك أرقى منه كحالها بعد مفارقتها لجسدها بموته فى صعودها فى السموات حتى بين يدى الله تعالى ، وهـذا أمر فوق ما يراه النائم وغيره صلى الله عليه وسلم ، لا تنال ذات روحه الصعود إلا بعد الموت لجسدها . قيل ومن ثم لم يشنع كفار قريش إلا أمر الإسراء دون المعراج .

أقول : الظاهر أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالمعراج لم يكن عند إخباره بالإسراء ، بل تأخر عن إخباره بالإسراء بناء على أنهما كان فى ليلة واحدة ، وإلا فقد ذكر بعضهم أن المعراج لم يكن ليلة الإسراء الذى أخبر به كفار قريش قال: إذ لو كان أى فى تلك الليلة لأخبر به حين أخبرهم بالإسراء ، أى ولم يخبر به حينئذ ، إذ لو أخبر به حينئذ لنقل ، ولذكره سبحانه وتعالى مع الإسراء ، لأن المعراج أبلغ فى المدح والكرامة وخرق العادة من الإسراء إلى المسجد الأقصى .

وأجيب عنه بأنه على تسليم أنه كان فى ليلة الإسراء الذى أخبر به قريشا هو صلى الله عليه وسلم استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولا ، فلما ظهرت لهم أمارات صدقه على تلك الآية الخارقة التى هى الإسراء أخبرهم بما هو أعظم منها وهو المعراج بعد ذلك : أى وحيث أخبرهم بذلك لم ينكروه لذلك أى لثبوت صدقه صلى الله عليه وسلم فيما ادعاه من الإسراء . وتقدم عن المواهب أنهم لم يسألوه عن علامات تدل على صدقه صلى الله

عليه وسلم فى ذلك ، لعدم علمهم ومعرفتهم بشىء فى السماء ، والحق سبحانه وتعالى أرشده إلى ذلك : أى إلى أن يخبرهم بالإسراء أولا ثم بالمعراج ثانيا ، حيث لم ينزل قصة المعراج فى سورة الإسراء ، بل أنزل ذلك فى سورة النجم .

ومما يؤيد أنهما كانا فى ليلة واحدة قول الإمام البخارى فى صحيحه « باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء » لأن من المعلوم أن فرض الصلاة : أى الصلوات الخمس إنما هو فى المعراج .

وأما إفراده كلا من الإسراء والمعراج بترجمة فلا يخالف ذلك ، لأنه إنما أفرد كلا منهما بترجمة ، لأن كلا منهما يشتمل على قصة منفردة وإن كانا وقعا معا .

وقد خالف الحافظ الدمياطى فى سيرته ، فذكر أن المعراج كان فى رمضان ، والإسراء كان فى ربيع الأول ، والله أعلم .

وقيل الإسراء وقع له صلى الله عليه وسلم أى بعد البعثة مرتين مناما أولا ويقظة ثانيا أى فكانت مرة المنام توطئة وتبشيرا لوقوعه يقظة ، وبذلك يجمع بين الاختلاف الواقع فى الأحاديث ، أى فبعض الرواة خلط الواقع له صلى الله عليه وسلم منامنا بالواقع له صلى الله عليه وسلم يقظة .

وعلى هذا لا يشكل قول شريك : فلما استيقظت ، لكنه قال إن مرة المنام كانت قبل البعثة ، ففى رواية « وذلك قبل أن يوحى إلىّ » وقد أنكر الخطابى عليه ذلك ، وعدّه من جملة أوهامه الواقعة فى حديث الإسراء والمعراج . ورد على الخطابى الحافظ ابن حجر فى ذلك بما ينبغى الوقوف عليه .

وقيل كان المعراج يقظة ، ولم يكن ليلا ، ولم يكن من بيت المقدس ، بل كان من مكة وكان نهارا ، فقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم كان يسأل ربه عز وجل أن يريه الجنة والنار ، فلما كان نائما ظهرا أتاه جبريل وميكائيل ، فقالا : انطلق إلى ما سألت الله تعالى ، فانطلقا بى إلى ما بين المقام وزمزم ، فأتى بالمعراج ، فإذا هو أحسن شىء منظرا فعرجا بى إلى السموات سماء سماء » الحديث . ولا يخفى أن سياق هذا الحديث يدل على أن ذلك كان مناما ، فلا يحسن أن يكون دليلا على قوله يقظة .

وقد جاء عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال « فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدرى ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغهما فى صدرى ، ثم أخذ بيدى فعرج إلى السماء » الحديث . وقد يدعى أن فى رواية أبى ذر اختصارا وليس فيها أن ذلك كان مناما أو يقظة .

أى وأما ما ادعاه بعضهم أن المعراج تكرر يقظة فغريب : إذ كيف يتكرر يقظة سؤال أهل كل باب من أبواب السماء هل بعث إليه ، وكيف يتكرر سؤاله صلى الله عليه وسلم عن كل نبى ، وكيف يتكرر فرض الصلوات الخمس والمراجعة ، وأما مناما فلا بعد فى تكرر ذلك توطئة لوقوعه يقظة [ ] أى وهذا منشأ اختلاف الروايات،أدخل بعض الرواة ماوقع فى المنام ماوقع فى اليقظة كما تقدم نظيره فى الإسراء ،وتعدد روايات الإسراء لايقتضى تعدده فى اليقظة خلافا لمن زعمه . ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : من جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب ، أى فالحق أنه إسراء واحد بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم يقظة ، وذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم . وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم كان له إسراءات أربعة وعشرون مرة ، وقيل ثلاثون مرة ، منها مرة واحدة بروحه وجسده يقظة ، والباقى بروحه ، رؤيا رآها : أى ومن ذلك ماوقع له صلى الله عليه وسلم فى المدينة بعد الهجرة ، وهو محمل قول عائشة رضى الله تعالى عنها : ما فقدت جسده الشريف .

وفى صبيحة ليلة المعراج حين زالت الشمس من اليوم الذى يلى الليل التى فرضت فيها الصلوات الخمس كان نزول جبريل عليه الصلاة والسلام وإمامته بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ليعلمه أوقات الصلوات أى وكيفيتها أى لأنه لايلزم من علمه صلى الله عليه وسلم بكيفية صلاة الركعتين وصلاة قيام الليل علم كيفية الصلوات الخمس وإن قلنا بأن الرباعية منها فرضت ركعتين ، فأمر صلى الله عليه وسلم فصيح بأصحابه الصلاة جامعة ، فاجتمعوا فصلى به صلى الله عليه وسلم جبريل وصلى النبى صلى الله عليه وسلم بالناس فسميت تلك الصلاة الظهر ، لأنها أول صلاة ظهرت ، أو لأنها فعلت عند قيام الظهيرة : أى شدة الحر أو عند نهاية ارتفاع الشمس ، وهذا الحديث ظاهر بأن صلاته صلى الله عليه وسلم بالناس كانت بعد صلاته مع جبريل محتمل لأن يكون صلى الله عليه وسلم صلى بصلاة جبريل والناس صلوا بصلاته صلى الله عليه وسلم .

فنى بعض الروايات « لما نودى بالصلاة جامعة فزعوا لذلك واجتمعوا فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر أربع ركعات لايقرأ فيهن علانية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يدى الناس ، وجبريل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتدى الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل ، ثم يصلى كذلك فى العصر . ولما غابت الشمس صلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب ثلاث ركعات ، يقرأ فى الركعتين علانية ، وركعة لايقرأ فيها علانية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يدى الناس ، وجبريل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل » .

وفى كلام الإمام النووى قوله إن جبريل نزل فصلى إمام رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بكسر الهمزة ، ويوضحه قوله فى الحديث « نزل جبريل فأمنى » واستدل بذلك بعضهم على جواز الاقتداء بمن هو مقتد بغيره ، لا كما يقوله أئمتنا من منع ذلك .

وأجيب عنه من جانب أئمتنا ، بأن معنى كونه صلى الله عليه وسلم مقتديا بجبريل أنه متابع له فى الأفعال من غير نية اقتداء ولا إيقاف فعله على فعل جبريل ، فلا يشكل على أئمتنا نعم هذا حينئذ يشكل على أئمتنا القائلين بأنه لابد من علم كيفية الصلاة قبل الدخول فيها ، ولا يكفى علمها بالمشاهدة .

وقد يجاب بأنه يجوز أن يكون جبريل عليه الصلاة والسلام علمه صلى الله عليه وسلم كيفيتها بالقول ثم أتبع القول الفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم علم أصحابه كذلك .

وبما تقرر يسقط الاستدلال بذلك على جواز الفرض خلف النفل ، لأن تلك الصلاة لم تكن واجبة على جبريل ، لأن الملائكة ليسوا مكلفين بذلك .

وأجيب بأنها كانت واجبة على جبريل ، لأنه مأمور بتعليمها له صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا ، وكان ذلك عند البيت : أى الكعبة مستقبلا بيت المقدس أى صخرته ، واستقباله صلى الله عليه وسلم لبيت المقدس . قيل كان باجتهاد منه ، وقيل كان بأمر من الله تعالى له ، قيل بقرآن وقيل بغيره أى وعلى أنه بقرآن يكون مما نسخت تلاوته : وقد قال أئمتنا : ونسخ قيام الليل بالصلوات الخمس إلى بيت المقدس كما تقدم ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا استقبل بيت المقدس يجعل الكعبة بينه وبينه ، فيصلى بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود ، أى كما صلى بهجبريل الركعتين أول البعث كما تقدم .

وحينئذ لا يخالف هذا قول بعضهم : لم يزل صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة حتى خرج منها : أى من مكة : أى لم يستدبرها ، فلما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة استقبل بيت المقدس: أى تمحض استقباله واستدبر الكعبة . وظاهر إطلاقهم أن هذا : أى استقباله بيت المقدس ، وجعل الكعبة بينه وبينه كان شأنه صلى الله عليه وسلم غالباً ، وإن صلى خارج المسجد بمكة ونواحيها .

والظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك أدباً لا وجوباً ، وإلا فقد جاء أن صلاة جبريل به صلى الله عليه وسلم كانت عند باب الكعبة كما رواه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الأم .

وروى الطحاوى عند باب البيت مرتين ، أى وذلك فى المحل المنخفض الذى تسميه العامة المعجنة كما تقدم ، وصلاته صلى الله عليه وسلم عند باب الكعبة فى المحل المذكور لبيت المقدس لا يكون مستقبلا للكعبة ، بل تكون على يساره ، لأنه لا يتصور أن يستقبل بيت المقدس ويكون مستقبلا للكعبة أيضا إلا إذا صلى بين اليمانيين كما تقدم .

وأيضاً ذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسجد نحو بيت المقدس ويجعل الكعبة وراء ظهره وهو بمكة أى فى بعض الأوقات حتى لا يخالف ماسبق أنه صلى الله عليه وسلم كان يستقبلها مع استقباله لبيت المقدس .

ولا ينافى ذلك ما فى زبدة الأعمال : أقام صلى الله عليه وسلم بعد نزول جبريل ثلاثة عشرة سنة ، وكان يصلى إلى بيت المقدس مدة إقامته بمكة ، يجعلها : أى الكعبة بين يديه ولا يستدبرها لإمكان حمل مدة إقامته على غالبها .

ومما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع الصحابة كانوا يصلون إلى بيت المقدس وهم بمكة ، ما سيأتى عن البراء بن معرور « أنه لما عدل عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة قبل أن يهاجر صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك ، قال له : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها » .

وأم به صلى الله عليه وسلم جبريل مرتين : مرة أول الوقت ومرة آخر الوقت لكن الوقت الاختيارى بالنسبة للعصر والعشاء والصبح لا الآخر الحقيقى ليعلمه الوقت :

أى ولما جاءه صلى الله عليه وسلم جبريل أمر فصيح بأصحابه الصلاة جامعة ، كما تقدم، أى لأن الإقامة المعروفة للصلوات الخمس لم تشرع إلا بالمدينة على ماتقدم وسيأتى .

قال : فقد جاء « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم وصلى به فى أول يوم الظهر حين زالت الشمس » كما تقدم ، أى عقب زوالها ، وصلى به العصر حين صار ظل كل شىء مثله ، أى زيادة على ظل الاستواء أو على الظل الحاصل عقب الزوال ، وصلى به المغرب حين أفطر الصائم : أى دخل وقت فطره وهو غروب الشمس . وصلى به العشاء حين غاب الشفق . وصلى به أى فى غد ذلك وهو اليوم الثانى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم أى حين دخل وقت حرمة ذلك وهو الفجر .

أى فإن قيل صلاة جبريل به صلى الله عليه وسلم حينئذ لم يكن الصوم الذى هو رمضان فرض .

أجيب بأنه على تسليم أنه لم يفرض عليه صوم قبل رمضان وهو صوم عاشوراء و ثلاث أيام من كل شهر على ما سيأتى ، جاز أن يكون إخباره صلى الله عليه وسلم بهذه العبارة كل بعد فرض رمضان .

« وصلى به الظهر حين كان ظل الشىء مثله . وصلى به العصر حين كان ظل الشىء مثليه . وصلى به المغرب حين أفطر الصائم . وصلى به العشاء ثلث الليل الأول . وصلى به الفجر ، أى فى اليوم الثالث فأسفر ، ثم التفت وقال : يا محمد هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين » اهـ .

وأما رواية صلى بى الظهر إلى أن قال وصلى بى الفجر ، فلما كان الغد صلى بى الظهر المقتضى ذلك ، لأن يكون الفجر ليس من اليوم الثانى بل من تتمة ما قبله .

ففيه دليل على أن اليوم من طلوع الشمس كما يقول الفلكيون ، أى ولا يخفى أن قوله « والوقت ما بين هذين الوقتين » محمول عند إمامنا الشافعى رضى الله عنه على الوقت الاختيارى بالنسبة للعصر والعشاء والفجر ، وإلا فوقت العصر لا يخرج إلا بغروب الشمس ، ووقت العشاء لا يخرج إلا بطلوع الفجر ، ووقت الصبح لا يخرج إلا بطلوع الشمس خلافا للإصطخرى حيث ذهب إلى خروج وقت العصر بمصير ظل الشىء مثليه ، والعشاء بثلث الليل ، والصبح بالإسفار متمسكاً بظاهر الحديث . والبداءة بالظهر هو ما عليه أكثر الروايات . وروى « أن البداءة كانت بالصبح عند طلوع الفجر » وعلى الأول إنما لم تقع البداءة بالصبح مع أنها أول صلاة تحضر بعد ليلة الإسراء لأن الإتيان بها يتوقف على

بيان علم كيفيتها المعلق عليه الوجوب كأنه قيل أوجبت عليه حينما تبين كيفيته فى وقته والصبح لم تتبين كيفيتها فى وقتها فلم تجب . فلا يقال : هذا من تأخير البيان عن وقت الحاجة .

وأجاب الإمام النووى بأنه حصل التصريح بأن أول وجوب الخمس من الظهر ، كأنه قيل أوجبت ما عدا صلاة الصبح يوم هذه الليلة ، فعدم وجوبها ليس لعدم علم كيفيتها فهى غير واجبة وإن فرض علم كيفيتها .

وفيه أنه يلزم حينئذ أن الخمس صلوات فى اليوم والليلة لم توجد إلا فيما عدا ذلك اليوم وليلته . قال أبو بكر بن العربى : ظاهر قوله « هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك » أن هذه الصلوات فى هذه الأوقات كانت مشروعة لكل واحد من الأنبياء قبله وليس كذلك ، وإنما معناه أن وقتك هذا المحدود الطرفين مثل وقت الأنبياء قبلك فإنه كان محدود الطرفين ، وإلا فلم تكن هذه الصلوات الخمس على هذه المواقيت إلا لهذه الأمة خاصة وإن كان غيرهم قد شاركهم فى بعضها أى فقد جاء عن عائشة رضى الله تعالى عنها « أن آدم لما تيب عليه كان ذلك عند الفجر ، فصلى ركعتين فصارت الصبح . وفدى إسحاق عند الظهر » أى على القول بأنه الذبيح ، فصلى أربع ركعات فصارت الظهر ، وبعث عزير فقيل له كم لبثت ؟ قال لبثت يوما فلما رأى الشمس قريبة من الغروب ، قال أو بعض يوم ، فصلى أربع ركعات فصارت العصر . وغفر لداود عند المغرب أى الغروب فقام يصلى أربع ركعات فجهد أى تعب فجلس فى الثالثة أى سلم منها فصارت المغرب ثلاثا ، وأول من صلى العشاء الآخرة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فصلاتها من خصائصه .

وفى شرح مسند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه للإمام الرافعى رحمه الله تعالى : كانت الصبح صلاة آدم . والظهر صلاة داود ، أى فقد اشترك داود وإسحاق فى صلاة الظهر . والعصر صلاة سليمان أى فقد اشترك سليمان وعزير فى صلاة العصر . والمغرب صلاة يعقوب ، أى فقد اشترك يعقوب وداود فى صلاة المغرب . والعشاء صلاة يونس وأورد فى ذلك خبرا وعليه فليست صلاة العشاء من خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم . والأصل أن ما ثبت فى حق نبى ثبت فى حق أمته إلا أن يقوم الدليل على الخصوصية ، فليست من خصائص هذه الأمة .

وذكر بعضهم أن المغرب كانت صلاة عيسى ، أى وكانت أربعا : ركعتين عن نفسه وركعتين عن أمه ، أى فقد اشترك عيسى ويعقوب وداود فى صلاة المغرب .

وفى كلام بعضهم : أوّل من صلى الفجر آدم ، والظهر إبراهيم ، أى وعليه فقد اشترك إبراهيم وإسحاق وداود فى صلاة الظهر . وأوّل من صلى العصر يونس ، أى وعليه فقد اشترك سليمان وعزير ويونس فى صلاة العصر . وأوّل من صلى المغرب عيسى . وأول من صلى العتمة التى هى العشاء موسى ، أى وعليه فقد اشترك موسى ويونس ونبينا صلى الله عليه وسلم فى صلاة العشاء .

وفى الخصائص الكبرى : خص صلى الله عليه وسلم بأنه أوّل من صلى العشاء ، ولم يصلها نبى قبله ، ومن لازمه أنه لم يصلها أحد من الأمم . وقد جاء التصريح به فى بعض الروايات « إنكم فضلتم بها » أى العشاء « على سائر الأمم » وعليه فهى من خصائصنا ومن خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم عند بناء الكعبة أن جبريل صلى بإبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم الصلوات الخمس فليتأمل .

قال قيل « فرضت الصلوات فى المعراج ركعتين ركعتين » أى حتى المغرب « ثم زيدت فى صلاة الحضر فأكملت أربعا فى الظهر » أى فى غير يوم الجمعة « وأربعا فى العصر والعشاء وثلاثا فى المغرب ، وأقرت صلاة السفر على ركعتين » أى حتى فى المغرب .

فعن عائشة رضى الله تعالى عنها « فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين » أى فى الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء « فلما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة » أى بعد شهر وقيل وعشرة أيام من الهجرة « زيد فى صلاة الحضر ركعتان ركعتان وتركت صلاة الفجر » أى لم يزد عليها شىء لطول القراءة : أى فإنها يطلب فيها زيادة القراءة على الظهر والعصر المطلوب فيهما قراءة طوال المفصل « وصلاة المغرب » أى تركت صلاة المغرب « فلم يزد فيها ركعتان بل ركعة فصارت ثلاثة لأنها وتر النهار » أى كما فى الحديث ، فتعود عليه بركة الوترية « إن الله وتر يحب الوتر » والمراد أنها وتر عقب صلاة النهار « وتركت صلاة السفر فلم يزد فيها شىء » أى فى غير المغرب ، هذا هو المفهوم من كلام عائشة رضى الله تعالى عنها ، وهو يفيد أن صلاة السفر استمرت على ركعتين أى فى غير المغرب ، أى وحينئذ يلزم أن يكون القصر فى الظهر والعصر والعشاء عزيمة لارخصة ، ولا يحسن ذلك مع قوله تعالى (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) .

وفى كلام الحافظ ابن حجر : المراد بقول عائشة « فأقرت صلاة السفر » باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف ، أى لأنه لما استقر فرض الرباعية خفف منها أى فى السفر

لأنه استقر أمرها بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة بشهر أو بأربعين يوما ، ثم نزلت آية القصر فى ربيع الأول من السنة الثانية إلا أنها استمرت عند فرضت ، فلا يلزم من ذلك أن القصر عزيمة .

وقيل فرضت أى الصلوات الخمس فى المعراج أربعا ، إلا المغرب ففرضت ثلاثا ، وإلا الصبح ففرضت ركعتين ، أى وإلا صلاة الجمعة ففرضت ركعتين ثم قصرت لأربع فى السفر ، أى وهو المناسب لقوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ومن ثم قال بعضهم : إن هذا هو الذى يقتضيه ظاهر القرآن وكلام جمهور العلماء .

ويمكن أن يكون المراد من كلام عائشة رضى الله تعالى عنها أنها فرضت ركعتين بتشهد ثم ركعتين بتشهد وسلام .

وفيه أن هذا لا يأتى فى الصبح والمغرب . وقال بعضهم : ويبعد هذا الحمل ماروى عنها كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى أى الصلوات الخمس التى فرضت بالمعراج بمكة ركعتين ركعتين ، فلما قدم المدينة أى وأقام شهرا أو وعشرة أيام فرضت الصلاة أربعا أو ثلاثا وتركت الركعتان تماما أى تامة للمسافر .

وعن يعلى بن أمية ، قال « قلت لعمر بن الخطاب (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) وقد أمن الناس ؟ قال عمر : عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » أى فصار سبب القصر مجرد السفر لا الخوف .

وهذا قد يخالف ما فى الإتقان « سأل قوم من بنى النجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم انقطع الوحى ، فلما كان بعد ذلك غزا النبى صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر ، فقال المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلا شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها فى أثرها فأنزل الله عز وجل بين الصلاتين (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) إلى قوله (عذابا مهينا) فنزلت صلاة الخوف » فتبين بهذا الحديث أن قوله (إن خفتم) شرط فيما بعده وهو صلاة الخوف لا فى صلاة القصر . قال ابن جرير : هذا تأويل فى الآية حسن لو لم يكن فى الآية إذا قال ابن الغرس يصح مع إذا على جعل الواو زائدة .

قلت: ويكون من اعتراض الشرط على الشرط . وأحسن منه أن يجعل إذا زائدة بناء على قول من يجيز زيادتها هذا كلامه فليتأمل .

وقيل فرضت : أى الرباعية أربعا فى الحضر وركعتين فى السفر فعن عمر رضى الله تعالى عنه « صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان ، وصلاة الغد ركعتان غير قصر » أى تامة « على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى وفيه بالنسبة لصلاة السفر ماتقدم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « فرضت فى الحضر أربعا ، وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة » أى وفيه فى صلاة السفر ماتقدم ، وقوله فى الخوف ركعة أى يصليها مع الإمام وينفرد بالأخرى وذلك فى صلاة عسفان حيث يحرم بالجميع ويسجد معه صف أول ، ويحرس الصف الثانى ، فإذا قاموا سجد من حرس ولحقه وسجد معه فى الركعة الثانية وحرس الآخرون ، فقد صلى كل صف مع الإمام ركعة ، فلا يقال إن فى كلام ابن عباس مايفيد أن صلاة الفجر تقصر ، وفرض التشهد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم متأخر عن فرض الصلاة .

فعن ابن مسعود « كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهد السلام على الله قبل عباده ، السلام على جبريل ، السلام على ميكائيل ، السلام على فلان » أى من الملائكة « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام ، وقال له بعض الصحابة : كيف نصلى عليك إذا نحن صلينا عليك فى صلاتنا ؟ فقال قولوا : اللهم صل على محمد » إلى آخره ولم أقف على الوقت الذى فرض فيه التشهد والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فيه ، ولا على أن قولهم السلام على الله إلى آخره هل كان واجبا أو مندوبا .

قال بعضهم : والحكمة فى جعل الصلوات فى اليوم والليلة خمسا أن الحواس لما كانت خمسة والمعاصى تقع بواسطتها كانت كذلك لتكون ماحية لما يقع فى اليوم والليلة من المعاصى أى بسبب تلك الحواس ، وقد أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله « أرأيتم لو كان بباب أحدكم نهر يغتسل منه فى اليوم والليلة خمس مرات أكان ذلك يبقى من درنه شيئا ؟ قالوا لا ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

قيل وجعلت مثنى وثلاث ورباع ، ليوافق أجنحة الملائكة ، كأنها جعلت أجنحة للشخص يطير بها إلى الله تعالى .

وسئل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هل تجد الصلوات الخمس فى كتاب الله تعالى؟ فقال نعم وتلا قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) أراد بحين تمسون المغرب والعشاء ؛ وبحين تصبحون الفجر ، وبعشيا العصر ، وبحين تظهرون الظهر .

وإطلاق التسبيح بمعنى الصلاة جاء فى قوله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين) . قال القرطبى : أى من المصلين . وفى الكشاف عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة » والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

باب عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل

من العرب أن يحموه ويناصروه على ما جاء به من الحق

أى لأنه صلى الله عليه وسلم أخفى رسالته ثلاث سنين ، ثم أعلن بها فى الرابعة على ما تقدم ، ودعا إلى الإسلام عشر سنين يوافى الموسم كل عام ، يتبع الحجاج فى منازلهم أى بمنى والموقف يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة ، ويسأل عن منازلهم ويأتى إليهم فى أسواق المواسم ، وهى : عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز ، فقد تقدم أن العرب كانت إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تجىء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوما ، ثم تجىء سوق ذى المجاز فتقيم به إلى أيام الحج يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه .

فعن جابر بن عبدالله رضى الله تعالى عنه قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس فى الموقف ويقول : ألا رجل يعرض علىّ قومه ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » وعن بعضهم « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر إلى المدينة يطوف على الناس فى منازلهم أى بمنى يقول : يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ووراءه رجل يقول يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت من هذا الرجل؟ فقيل أبو لهب يعنى عمه » .

وفى رواية عن أبى طارق رضى الله تعالى عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذى المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا ، وخلفه رجل له غديرتان » أي ذؤابتان « يرجمه بالحجارة حتى أدمى كعبه يقول يا أيها الناس لاتسمعوا منه فإنه كذاب ، فسألت عنه ، فقيل إنه غلام عبد المطلب ، فقلت ومن الرجل الذى يرجمه ؟ فقيل هو عمه عبد العزى يعنى أبا لهب » .

أى وفى السيرة الهشامية عن بعضهم قال : إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف فى منازل القبائل من العرب فيقول : يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثنى به ، قال : وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله قال ذلك الرجل : يابنى فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلاتطيعوه ولا تسمعوا منه ، فقلت لأبى : من هذا الرجل الذى يتبعه يرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب » .

وذكر ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على كندة وكلب أى إلى بطن منهم ، يقال لهم بنو عبد الله ، فقال لهم « إن الله قد أحسن اسم أبيكم أى عبد الله » أى فقد قال صلى الله عليه وسلم « أحب الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن ثم عرض عليهم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم ، وعرض على بنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة أى فقال له رجل منهم : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ، فقال : الأمر إلى الله يضعه حيث شاء ؛ قال : فقال له ، أنقاتل العرب دونك ؟ وفى رواية ، أنهدف نحورنا للعرب دونك » أى نجعل نحورنا هدفا لنبلهم « فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لاحاجة لنا بأمرك وأبوا عليه ، فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركه السن حتى لايقدر أن يوافى معهم الموسم ؛ فلما قدموا عليه سألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يا بنى عامر هل لها من تلاف » أى تدارك . « هل لها من مطلب ؛ والذى نفس فلان بيده ما يقولها » أى ما يدعى النبوة « كاذبا أحد من بنى إسمعيل قط ، وإنها لحق ، وإن رأيكم غاب عنكم » .

وذكر الواقدى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بنى عبس أى وبنى سليم وغسان وبنى محارب أى وفزارة وبنى نضر ومرة وعذرة والحضارمة ، فيردون عليه صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ، ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ، ولم يكن أحد من العرب أقبح ردا عليه من بنى حنيفة ، أى وهم أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب ؟ وقيل لهم بنو حنيفة ، لأن أمهم حنيفة قيل لها ذلك لحنف كان فى رجلها وثقيف ، أى ومن ثم جاء « شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف » .

أى ودفع صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر فسلم . وقال : ممن القوم ، قالوا : من ربيعة ؟ قال : وأى ربيعة ؟ من هامتها أو من لهازمها قالوا : بل الهامة العظمى ، قال : من أيها ؟ قالوا : من ذهل الأكبر ، قال : منكم حامى الذمار ومانع الجار فلان ؟ قالوا لا ، قال : منكم قاتل الملوك وسالبها فلان ؟ قالوا لا ، قال : منكم صاحب العمامة الفردة فلان ؟ قالوا لا ، قال : فلستم من ذهل الأكبر ، أنتم ذهل الأصغر ، فقام إليه شاب حين بقل وجهه أى طلع شعر وجهه ، فقال له : إن على سائلنا أن نسأله ، يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ، فمن الرجل ؟ فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أنا من قريش ، فقال الفتى ، بخ بخ أهل الشرف والرياسة ، فمن أى قريش أنت ؟ قال : من ولد تيم بن مرة فقال الفتى : أمكنت أمنكم قصى الذى كان يدعى مجمعا قال لا ، قال : فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه قال لا ، قال : فمنكم شيبة الحمد عبد المطلب ، مطعم طير السماء ، الذى كأن وجهه القمر يضىء فى الليلة الظلماء قال لا ، واجتذب أبو بكر رضى الله تعالى عنه زمام ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له على رضى الله تعالى عنه : لقد وقعت من الأعرابى على باقعة أى داهية أى ذى دهاء . وهو فى الأصل اسم لطائر حذر يطير يمنة ويسرة قال : أجل أبا حسن ؛ مامن طامة إلا فوقها طامة ، والبلاء موكل بالمنطق ، أى واستفهام الفتى توبيخى لا حقيقى لأن من المعلوم أن من ذكر ليسوا من تيم ، لأن أبا بكر كما تقدم إنما يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مرة ؛ ومرة جد لقصى ؛ فكأنه يقول له إن قبيلتكم لم تشتمل على هؤلاء الأشراف ؛ أى كما أن قبيلتنا لم تشتمل على أولئك الأشراف .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم لقى جماعة من

شيبان بن ثعلبة ؛ وكان معه أبو بكر وعلى رضى الله تعالى عنهما ؛ وأن أبا بكر سألهم ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبوبكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى ، هؤلاء غرر ، أى سادات فى قومهم ، وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء » بالهمز «ابن قبيصة» بفتح القاف « ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك . وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالا ولسانا له غديرتان » أى ذؤابتان من شعر « وكان أدنى القوم ، أى أقرب مجلسا من أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ قال مفروق : إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب الألف من قلة ، والذى قاله صلى الله عليه وسلم « لن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة » قاله لما أراد أن يغزو هوازن ، وكان جيشه العدد المذكور كما سيأتى « فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، كيف المنعة فيكم قال مفروق : علينا الجهد » أى بفتح الجيم وضمها أى الطاقة « ولكل قوم جد » بفتح الجيم أى حظ وسعادة « أى علينا أن نجهد وليس علينا أن يكون لنا الظفر ، لأنه من عند الله يؤتيه من يشاء ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم فقال الفرق : إنا لأشد ما يكون غضبا حين نلقى ، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد أى من الخيل على الأولاد ، والسلاح على اللقاح » أى ذوات اللبن من الإبل ، وربما قيل للبقر والغنم أيضا « والنصر من عند الله ، يديلنا » بضم أوله وكسر الدال المهملة : أى ينصرنا « مرة ، ويديل علينا مرة » أى ينصر علينا أخرى ولعلك أخو قريش ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أو قد بلغكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها هوذا فقال مفروق : بلغنا أنه يذكر ذلك ، فإلام تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنى رسول الله ، وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشا قد تظاهرت » أى تعاونت « على أمر الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد ، قال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) قال مفروق : ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم عرفناه ؛ ثم قال : وإلام

تدعو أيضا يا أخا قريش ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) » .

وهذه الآية ذكر العز بن عبد السلام أنها اشتملت على جميع الأحكام الشرعية ، وبين ذلك فى سائر الأبواب الفقهية ، وضمن ذلك كتابا سماه الشجرة « فقال مفروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم » أى صرفوا عن الحق « كذبوك وظاهروا » أى عاونوا « عليك ، وكان مفروق أراد أن يشركه أى يشاركه فى الكلام هانئ بن قبيصة ، فقال : هذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا ، فقال هانئ قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أن تركنا ديننا ، واتباعنا إياك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لزلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : هذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا ، فقال المثنى قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب دون مايلى أنهار كسرى فعلنا ، فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : أن لا نحدث حدثا ، وأن لانؤوى محدثا . وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه أنت هو مما تكرهه الملوك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم فى الرد ، إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ، ويغرسكم نساءهم تسبحون الله وتقدسونه ؟ فقال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين) ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى وهؤلاء لم أقف على إسلام أحد منهم ، إلا أن فى الصحابة شخصا يقال له المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكان فارس قومه وسيدهم والمطاع فيهم ، ولعله هو هذا ، لقول هانئ بن قبيصة فيه : إنه صاحب حربنا .

ورأيت بعضهم ذكر أن النعمان بن شريك له وفادة ، فيكون من الصحابة ، أى وفى

أسد الغابة أن مفروق بن عمرو من الصحابة ، ونقل عن أبى نعيم أنه قال لا أعرف لمفروق إسلاما .

ولما قدمت بكر بن وائل مكة للحج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر ائتهم فاعرضنى عليهم ، فأتاهم فعرض عليهم ، فقال لهم : كيف العدد فيكم ؟ قالوا : كثير مثل الثرى ، قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم ، قال : فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين وتكبروه ثلاثا وثلاثين ؟ قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا رسول الله ، ثم مر بهم أبو لهب فقالوا له هل تعرف هذا الرجل ؟ قال نعم ، فأخبروه بما دعاهم إليه ، وأنه زعم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : لا ترفعوا بقوله رأسا فإنه مجنون يهذى من أم رأسه ، فقالوا : لقد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر » .

وفى رواية أنه لما سألهم قالوا له : حتى يجىء شيخنا حارثة ، فلما جاء قال : إن بيننا وبينك من الفرس حربا ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول ، فلما التقوا مع الفرس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذى دعاكم إليه ؟ قالوا محمد ، قال : فهو شعاركم فنصروا على الفرس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بى نصروا ، أى نصروا بذكرهم اسمى .

ولا زال صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل فى كل موسم ، ويقول « لا أكره أحدا على شىء ، من رضى الذى أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ، إنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالات ربى ، فلم يقبله أحد من تلك القبائل ، ويقولون : قوم الرجل أعلم به ترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه .

وعن ابن إسحاق لما أراد الله تعالى إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم .

وفى سيرة مغلطاى ومستدرك الحاكم أن ذلك كان فى شهر رجب يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم « فبينا هو عند العقبة التى تضاف إليها الجمرة فيقال جمرة العقبة ، أى وهى عند يسار الطريق لقاصد منى مكة ، وبها الآن مسجد يقال له مسجد البيعة ، إذ لقى بها رهطا من الخزرج : أى لأن الأوس والخزرج كانوا يحجون

فيمن يحج من العرب ، أى والأوس فى الأصل أى اللغة : العطية ، ويقال للذئب ، ويقال لرجل اللهو واللعب . والخزرج فى الأصل : الريح الباردة ، قيل هى الجنوب خاصة وكانوا ستة نفر ، وقيل ثمانية أراد الله تعالى بهم خيرا ، وقد عد الستة فى الأصل ، وبين الناس اختلاف فى ذكرهم ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج ، فقال : أمن موالى يهود : أى من حلفاء يهود المدينة قريظة والنضير ، لأنهم تحالفوا معهم على التناصر والتعاضد على من سواهم ، وأن يأمن بعضهم من بعض ، وهذا كان فى أول أمرهم قبل أن تقوى شوكتهم على يهود [] قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه صلى الله عليه وسلم ، وفى لفظ « وجدهم يحلقون رءوسهم فجلس إليهم فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، أى ورأوا أمارات الصدق عليه صلى الله عليه وسلم لائحة ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه للنبى الذى يوعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، لأن يهود كانوا إذا وقع بينهم وبينهم شىء من الشر قالوا لهم : سيبعث نبى قد أظل : أى قرب زمانه نتبعه ، تقتلكم معه قتلة عاد وإرم : أى كما تقدم فى أخبار الأحبار ، والمراد نستأصلكم بالقتل ، فلما دعاهم إلى الإسلام أجابوه وصدقوه وأسلموا وقالوا له ; إنا تركنا قومنا يعنون الأوس والخزرج بينهم من العداوة والشر مابينهم ، أى فإن الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم ، فوقعت بينهما العداوة ، وتطاولت بينهما الحروب ، فمكثوا على المحاربة والمقاتلة أكثر من مائة سنة : أى مائة وعشرين كما فى الكشاف ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

أقول: وفى رواية « قالوا يارسول الله إنما كانت بعاث» أى بضم الموحدة ثم عين مهملة مخففة وفى آخره ثاء مثلثة ، وقيل بفتح الموحدة وبدل المهملة معجمة ، قيل وذكر المعجمة تصحيف . فعن ابن دريد : صحف الخليل بن أحمد يوم بغاث بالغين المعجمة ، وإنما هو بالمهملة . وفى القاموس بالمهملة والمعجمة « عام أول يوم من أيامنا اقتتلنا به ونحن كذلك ، لا يكون لنا عليك اجتماع حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله أن يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى مادعوتنا فعسى الله أن يجمعهم عليك ، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك » وبعاث مكان قريب من المدينة على ليلتين منها عند بنى قريظة ، ويقال إنه حصن للأوس كان به القتال قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة بخمس سنين بين الأوس

والخزرج . وسيد الأوس ورئيسهم حينئذ حضير والد أسيد ، وبه قتل مع من قتل من قومه ، وكان النصر فيهم أولا للخزرج ثم صار للأوس .

وسبب القتل أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف ، فقتل رجل من الأوس أي وهو سويد بن الصامت رجلا حليفا للخزرج : أي وهو ذياد والد المحذر بن ذياد ، وذياد بالذال المعجمة ، مكسورة ومفتوحة وتخفيف المثناة تحت ، والمحذر بالذال المعجمة مشددة مفتوحة ، فأرادوا أن يقتلوا سويدا فيه ، فأبى عليه الأوس ، وذلك لأن سويدا هذا كان تسميه قومه الكامل لشرفه ، ونسبه وشعره وجلده ، كان ابن خالة عبد المطلب لأن أمه أخت سلمى أم عبد المطلب ، وكان قدم مكة حاجا أو معتمرا فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به لأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يسمع بقادم قدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى ، فدعا سويدا إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : حكمة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرضها عليّ فعرضها عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله عليّ هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال : إن هذا القول حسن ، ثم انصرف وقدم المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج » .

وفى كلام بعضهم أنه آمن بالله ورسوله وسافر حتى دخل المدينة إلى قومه ، فشعروا بإيمانه ، فقتلته الخزرج بغتة وقيل القاتل له المحذر ولد ذياد الذى قتله سويد ، لأن سويدا كان قد شرب الخمر وجلس يبول وهو ممتلئ سكرا ، فضربه إنسان من الخزرج فخرج حتى أتى المحذر بن ذياد فقال : هل لك فى الغنيمة الباردة ؟ قال : ما هى ، قال : سويد أعزل لاسلاح معه فخرج المحذر بالسيف مصلتا فلما أبصر سويدا قال له : قد أمكن الله منك ، قال : ما تريد منى ؟ قال : قتلك فقتله ، فكان ذلك سبب الحرب بين الأوس والخزرج ببعاث ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم الحارث بن سويد والمحذر بن ذياد وشهدا بدرا ، فجعل الحارث بن سويد يطلب محذرا يقتله بأبيه فلم يقدر عليه ، حتى كان وقعة أحد قدر عليه فقتله غيلة كما سيأتى .

وممن قتل فى هذه الحرب التى يقال لها بعاث شخص ، يقال له إياس بن معاذ قدم

مكة هو وشخص يقال له أبو الحيسر أنس بن رافع ، مع جماعة من قومهم يلتمسون الحلف من قريش على قومهم الخزرج ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إليهم وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؛ قالوا : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثنى للعباد ، وأدعوهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وأنزل علىّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ وكان صغيرا : أى قوم والله خير مما جئنا إليه ، فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب فضرب بها وجه إياس وانتهره ، وقال له : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فلما دنا موت إياس صار يحمد الله ويسبحه ويهلله ويكبره حتى مات ، والله أعلم . ثم انصرف أولئك الرهط من الخزرج راجعين إلى بلادهم .

قال وفى رواية « أنهم لما آمنوا به صلى الله عليه وسلم وصدقوه قالوا له : إنا نشير عليك أن تمكث على رسلك : أى على حالك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم لعل الله يصلح ذات بينهم ونواعدك الموسم من العام المقبل ؛ فرضى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم » انتهى أى فلم يقع لهؤلاء الستة أو الثمانية مبايعة ، ويسمى هذا ابتداء الإسلام للأنصار ، وربما سماه بعضهم العقبة الأولى ، فلما كان العام المقبل قدم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا : أى عشرة من الخزرج واثنان من الأوس . وقيل : كانوا أحد عشر رجلا منهم خمسة من الستة أو الثمانية الذين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم عند العقبة أولا ، فاجتمع بهم صلى الله عليه وسلم عند العقبة أيضا ، فبايعهم : أى عاهدهم صلى الله عليه وسلم ، أى وسميت المعاهدة مبايعة تشبيها بالمعاوضة المالية ، وتلا عليهم آية النساء : أى الآية التى نزلت بعد ذلك فى شأن النسـاء يوم الفتح لما فرغ من مبايعة الرجال وأراد مبايعة النساء .

فعن عبادة بن الصامت « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة النساء » أى كبيعة النساء أى كمبايعته للنسـاء التى كانت يوم فتح مكة ، وهى على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا » أى لأن قتل الأولاد كان سائغا فيهم ؛ وهو وأد البنات قيل والبنين خوف الإملاق .

وفى النهر : كان جمهور العرب لايئدون بناتهم ، وكان بعض ربيعة ومضر يئدونهن : وهو دفنهن أحياء ؛ فبعضهم يئد خوف العيلة والافتقار ، وبعضهم خوف السبي ، قال : «ولا نأتى ببهتان » أى الكذب الذى يبهت صاحبه سامعه « نفتريه بين أيدينا وأرجلنا » أى فى الحال والاستقبال ، قيل وغير ذلك ، ولا نعصيه فى معروف أى ما عرف من الشارع حسنه نهيا وأمرا .

قال الحافظ ابن حجر : المبايعة المذكورة فى حديث عبادة بن الصامت على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة ، وإنما نص بيعة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره عن أهل المغازى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار : أبايعكم على أن تمنعونى ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه على ذلك ، وعلى أن يرحل إليهم هو صلى الله عليه وسلم وأصحابه » ثم ذكر جملة من الأحاديث ، وقال : هذه أدلة صريحة فى أن هذه البيعة بعد نزول الآية بعد فتح مكة .

أقول : ليس فى كلام عبادة أن هذه البيعة بيعة العقبة ، إذ لم يقل بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة وإن كان السياق يقتضيه ، وحينئذ فلا يحسن أن يكون كلام عبادة شاهدا لمن قال ، وتلا عليهم آية النساء ، فلا يحسن التفريع المتقدم ، بل هو دليل على أن هذه المبايعة متأخرة عن يوم الفتح كما قال الحافظ ، والله أعلم .

زاد بعضهم « والسمع والطاعة فى اليسر والعسر والمنشط والمكره ، وأن لاننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ، ثم قال : ومن وفى» بالتخفيف والتشديد : أى ثبت على العهد « فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو » أى العقاب « طهرة له ؛ أو قال كفارة له » .

واستشكل بأن أبا هريرة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا أدرى ، الحدود كفارة لأهلها أولا» وإسلام أبى هريرة تأخر عن بيعة العقبة بسبع سنين كما سيأتى ، فإنه كان عام خيبر سنة سبع .

ويجاب بأن هذه البيعة التى ذكرها عبادة ليست بيعة العقبة ، بل بيعة غيرها وقعت بعد فتح مكة كما علمت .

وحينئذ يكون ما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه كان قبل أن يعلم صلى الله عليه وسلم ذلك ثم علمه : أى أن الحدود كفارة ، قال صلى الله عليه وسلم « ومن أصاب من

ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله عز وجل : إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » أى وكون الحدود كفارة وطهرة مخصوص بغير الشرك ، فقتل المرتد لا يكون كفارة وطهرة له : لأن الله لا يغفر أن يشرك به .

وفى رواية « فإن رضيتم فلكم الجنة » وإن غشيتم من ذلك شيئا فأصبتم بحد فى الدنيا فهو كفارة لكم فى الدنيا ، وإن سترتم عليه فأمركم إلى الله ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » أى وفى هذا ردّ على من قال بوجوب التعذيب لمن مات بلا توبة ، وعلى من قال بكفر مرتكب الكبيرة .

« فلما انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ابن أم مكتوم » واسمها عاتكة ، واسمه عمرو ، وقيل عبد الله ، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها .

قال الشعبى : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة غزوة ، ما فيها غزوة إلا واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة ، وكان يصلى بهم » وليس له رواية ، ومصعب ابن عمير رضى الله تعالى عنهما يعلمان من أسلم منهم القرآن ويعلمانهم : أى من أراد أن يسلم الإسلام ، ويفقهانهم فى الدين ، ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام ، وهذا ما فى أكثر الروايات ؛ وهو يفيد أنه صلى الله عليه وسلم بعث بهما معا ، ويدل له ما روى عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه « أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئان الناس القرآن » أى وفى رواية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم مصعبا حين كتبوا إليه يبعث إليهم » .

وفى رواية « ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن عفراء ورافع بن مالك رضى الله تعالى عنهما أن ابعث إلينا رجلا من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله » وفى رواية « كتبوا إليه صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وكان يقال له المقرى ، وهو أول من تسمى بهذا الاسم » وهذا يدل على أن مصعبا لم يكن معهم .

أقول : وقد يقال لا منافاة ، لأنه يجوز أن يكون كتبوا وأرسلوا إليه صلى الله عليه وسلم بذلك عند خروجهم من مكة ، وقبل أن ينصرفوا منها راجعين إلى المدينة : والاقتصار على مصعب لا ينافى ما تقدم من ذكر ابن أم مكتوم معه .

ثم رأيت ما يبعد الجمع الأول ، وهو عن ابن إسحاق « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بعثه يعنى مصعب بن عمير بعدهم » وإنما كتبوا إليه « إن الإسلام قد فشا فينا ، فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا فى الإسلام ويعلمنا بسنته وشرائعه ويؤمنا فى صلاتنا ، فبعث مصعب بن عمير » وما يبعد الجمع الثانى ، وهو ما نقل عن الواقدى « أن ابن أم مكتوم قدم المدينة بعد بدر بيسير » . وفى كلام ابن قتيبة : وقدم ابن أم مكتوم المدينة مهاجرا بعد بدر بسنتين .

وقد يقال : لا منافاة ، لأنه يجوز أن يكون كل من مصعب بن عمير وابن أم مكتوم رجعا إلى مكة بعد مجيئهما مع القوم ، وأن مكاتبتهم بأن الإسلام فشا فينا إلى آخره كانت وهم بالمدينة ، فجاء إليهم مصعب وتخلف ابن أم مكتوم ، فليتأمل ذلك ، والله تعالى أعلم . وهذه المبايعة يقال لها العقبة الأولى لوجود تلك المبايعة عندها .

ولما قدم مصعب المدينة نزل على أبى أمامة أسعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه دون بقية رفقته ، وكان سالم مولى أبى حذيفة رضى الله تعالى عنه يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مصعب يؤم القوم : أى الأوس والخزرج ، لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض . وجمع بهم أول جمعة جمعت فى الإسلام قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقبل نزول سورة الجمعة الآمرة بها فإنها مدنية .

وقال الشيخ أبو حامد : فرضت الجمعة بمكة ولم يتمكن من فعلها . قال الحافظ ابن حجر : وهو غريب ، أى وعلى صحته فهو ماتقدم حكمه على تلاوته .

وعند ابن إسحاق أن أول من جمع بهم أبو أمامة أسعد بن زرارة وكانوا أربعين رجلا : أى فعن كعب بن مالك قال : أول من جمع بنا فى المدينة أسعد بن زرارة قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم فى نقيع الخضمات ، والنقيع بالنون قيل أو بالباء الموحدة ، لكن قال الخطابى : إنه خطأ ، والخضمات : جمع خضمة : وهى الماشية التى تخضم أى تأكل بفمها كله مما فى ذلك المحل من الكلأ : وهو اسم لقرية من قرى المدينة ، قال : وكنا أربعين رجلا : أى ولا مخالفة ، لأن مصعب بن عمير كان عند أبى أمامة أسعد بن زرارة كما علمت فكان هو المعاون على الجمع ، وكان الخطيب والمصلى مصعب بن عمير ، فنسب الجمع لكل منهما ، أى ويكون مافى الرواية الآتية من أن أسعد بن زرارة هو الذى صلى بهم على التجوز : أى جمعهم على الصلاة ، ويؤيده ماتقدم من أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض . وأيضا المأمور بالتجميع مصعب بن عمير كما سيأتى .

قال السهيلى : وتسميتهم : أى الأنصار إياها بهذا الاسم : أى تسميتهم اليوم بيوم الجمعة لاجتماعهم فيه هداية من الله تعالى لهم ؛ وإلا فكانت تسمى فى الجاهلية العروبة : أى يسمى ذلك اليوم بيوم العروبة : أى الرحمة . وقال عليه الصلاة والسلام فى حق ذلك اليوم « إنه اليوم الذى فرض عليهم » أى على اليهود والنصارى أى طلب منهم تعظيمه والتفرغ للعبادة فيه كما فرض علينا «أضلته اليهود والنصارى ، وهدانا الله تعالى له » أى إن كلا من اليهود والنصارى أمر بذلك اليوم يعظمون فيه الحق سبحانه وتعالى ويتفرغون فيه لعبادته ، واختار اليهود من قبل أنفسهم بدله السبت لأنهم يزعمون أنه اليوم السابع الذى استراح فيه الحق سبحانه وتعالى من خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات ، أى بناء على أن أول الأسبوع الأحد ، وأنه مبدأ الخلق . قال بعضهم : وهو الراجح .

وفى كلام بعضهم : أول الأسبوع الأحد لغة ؛ وأوله السبت عرفا : أى فى عرف الفقهاء فى الإيمان ونحوها . ويؤيد الأول أن السبت مأخوذ من السبات وهى الراحة ، قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أى راحة ظنا منهم أنه أولى بالتعظيم لهذه الفضيلة .

واختارت النصارى من قبل أنفسهم بدل يوم الجمعة يوم الأحد ؛ أى بناء على أنه أول يوم ابتدأ الله فيه بإيجاد المخلوقات ظنا منهم أنه أولى بالتعظيم هذه الفضيلة . وحينئذ يكون معنى قوله أضلوه : تركوه مع علمهم به ؛ ويؤيد ذلك ما جاء « إن الله تعالى فرض على اليهود الجمعة فأبوا ، وقالوا : ياموسى اجعل لنا يوم السبت فجعل عليهم ، وهدى الله تعالى المسلمين ليوم الجمعة » أى وهداية المسلمين له تدل على أنهم لم يعلموا عينه ، وإنما اجتهدوا فيه فصادفوه .

وفى [سفر السعادة] : كان من عوائده الكريمة صلى الله عليه وسلم أن يعظم يوم الجمعة غاية التعظيم ، ويخصه بأنواع التشريف والتكريم .

وجاء « إن أهل الجنة يتباشرون فى الجنة بيوم الجمعة كما تتباشر به أهل الدنيا فى الدنيا واسمه عندهم يوم المزيد » كما تقدم « لأن الله تعالى يتجلى عليهم فى ذلك اليوم ؛ ويعطيهم كل ما يتمنونه ويقول لهم : لكم ما تمنيتم ولدينا مزيد » فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير .

وقد جاء فى المرفوع « يوم الجمعة سيد الأيام : وأعظمها عند الله تعالى ، فهو فى الأيام كشهر رمضان فى الشهور ؛ وساعة الإجابة فيه كليلة القدر فى رمضان » .

والذى فى البخارى « ثم هذا » أى يوم الجمعة « يومهم الذى فرض عليهم : أى على اليهود والنصارى ، فاختلفوا فيه فهدانا الله تعالى له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » وقوله فاختلفوا فيه يدل على أنهم لم يعلموا عينه ، ويوافقه ما نقل عن بعض أهل العلم أن اليهود أمروا بيوم من الأسبوع يعظمون الله تعالى فيه ويتفرغون لعبادته ، فاختاروا من قبل أنفسهم السبت فأكرموه فى شرعهم ، وكذلك النصارى أمروا على لسان عيسى بيوم من الأسبوع ، فاختاروا من قبل أنفسهم الأحد ، فالتزموه شرعا لهم ، وهو يخالف ما سبق فليتأمل .

قال بعضهم : والراجح أن أول الأسبوع السبت ، لأنه أول يوم ابتدئ فيه بإيجاد المخلوقات ، فقد جاء فى الصحيح « إن الله خلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء » كذا فى مسلم . وعليه يشكل تسمية اليوم الذى يليه الأحد . وأجيب بأنه من تسمية اليهود ، وتبعهم غيرهم .

وقد ذكر السهيلى أن تسمية هذه الأيام طارئة ؛ ولو كان الله سبحانه وتعالى سماها فى القرآن بهذه الأسماء المشتقة من العدد لقلنا هى تسمية صادقة ، لكن لم يذكر منها إلا الجمعة والسبت ، وإنهما ليسا مشتقين من العدد هذا كلامه .

وردّ بأنه جاء « إن الله تعالى خلق يوما فسماه الأحد ، ثم خلق ثانيا فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعا فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامساً فسماه الخميس »

وأجاب ابن حجر الهيتمى بأن هذه : أى التسمية المذكورة لم تثبت ، وأن العرب تسمى خامس الورد أربعاء ، هذا كلامه ، فيكون أول الأسبوع السبت .

ثم رأيت السهيلى قال : لم يسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأحد والاثنين إلى سائرها إلا حاكيا للغة قومه لا مبتدئا تسميتها ، ولعل قومه أن يكونوا أخذوا معانى هذه الأسماء من أهل الكتاب المجاورين لهم ، فألقوا عليها هذه الأسماء اتباعا لهم ، هذا كلامه فليتأمل .

وفى السبعيات للهمدانى : أكرم الله موسى عليه الصلاة والسلام بالسبت ، وعيسى بالأحد ، وداود بالاثنين ، وسليمان بالثلاثاء ، ويعقوب بالأربعاء ، وآدم بالخميس ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم بالجمعة ، وهذا يدل على أن اليهود لم يختاروا يوم السبت والنصارى يوم الأحد من عند أنفسهم فليتأمل الجمع .

وقد « سئل صلى الله عليه وسلم عن يوم السبت ؟ قال : يوم مكر وخديعة » أى وقع فيه المكر والخديعة ، أى لأنه اليوم الذى اجتمعت فيه قريش فى دار الندوة ، للاستشارة فى أمره صلى الله عليه وسلم « وسئل عن يوم الأحد ؟ فقال: يوم غرس وعمارة» لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق الدنيا وعمارتها . وفى رواية لأن الجنة بنيت فيه وغرست « وسئل عن يوم الاثنين ، فقال : يوم سفر وتجارة» لأن فيه سافر شعيب فربح فى تجارته. « وسئل عن يوم الثلاثاء ؟ فقال : يوم دم » لأن فيه حاضت حواء وقتل ابن آدم أخاه .

وذكر الهمدانى فى السبعيات أيضا أنه قتل فيه سبعة : جرجيس ، وزكريا ، ويحيى ولده عليهم الصلاة والسلام ، وسحرة فرعون ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وبقرة بنى إسرائيل ، وهابيل بن آدم ، وبين قصة كل واحد .

أى ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحجامة يوم الثلاثاء أشد النهى وقال « فيه ساعة لايرقأ فيها الدم ، وفيه نزل إبليس إلى الأرض ، وفيه خلقت جهنم ، وفيه سلط الله ملك الموت على أرواح بنى آدم ، وفيه ابتلى أيوب » وفى بعض الروايات أن اليوم الذى ابتلى الله فيه أيوب يوم الأربعاء .

وسئل « عن يوم الأربعاء ؟ قال : يوم نحس » لأن فيه أغرق فرعون وقومه ، وأهلك فيه عاد وثمود وقوم صالح ، أى ومن ثم كان يسمى فى الجاهلية دبار : والدبار الملك لكن الذى فى الحديث الموقوف على ابن عباس الذى لايقال من قبل الرأى « آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر » وجاء « يوم الأربعاء لا أخذ ولا عطاء » .

وذكر الزمخشرى أن بعضهم قال لأخيه اخرج معى فى حاجة فقال : هذا الأربعاء ، قال : فيه ولد يونس ، قال لاجرم قد بانت له بركته : أى حيث ابتلعه الحوت ؛ قال : وفيه ولد يوسف ، قال : فما أحسن ما فعل به إخوته ! طال حبسه وغربته ، قال : وفيه نصر المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، قال : أجل ، ولكن بعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر .

وورد فى بعض الآثار النهى عن قص الأظفار يوم الأربعاء وأنه يورث البرص .

وعن ابن الحاج صاحب المدخل أنه هم بقص أظفاره يوم الأربعاء ، فتذكر ذلك فترك ، ثم رأى أن قص الأظفار سنة حاضرة ولم يصح عنده النهى فقصها فلحقه البرص فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال له ألم تسمع نهيى عن ذلك ؟ فقال :

يارسول الله لم يصح ذلك عندى ، فقال : يكفيك أن تسمع ، ثم مسح صلى الله عليه وسلم بيده على بدنه فزال البرص جميعا . قال ابن الحاج ، فجددت مع الله توبة أنى لا أخالف ما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا .

وجاء فى حديث أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعا ، وخرجه الحاكم من طريقين آخرين « لايبدو جـــذام ولا مرض إلا يوم الأربعاء » وكره بعضهم عيادة المريض يوم الأربعاء .

وفى منهاج الحليمى وشعب الإيمان للبيهقى « إن الدعاء مستجاب يوم الأربعاء بعد الزوال قبل وقت العصر » لأنه صلى الله عليه وسلم استجيب له الدعاء على الأحزاب فى ذلك اليوم فى ذلك الوقت . وكان جابر يتحرى ذلك بالدعاء فى مهماته ، وذكر أنه مابدئ بشئ يوم الأربعاء إلا وتم ، فينبغى البداءة بنحو التدريس فيه .

« وسئل عن يوم الخميس ؟ فقال : يوم قضاء الحوائج » لأن فيه دخل إبراهيم الخليل على ملك مصر فقضى حاجته وأعطاه هاجر ، ومن ثم زاد فى رواية « والدخول على السلطان » . « وسئل عن يوم الجمعة ؟ فقال : يوم نـكاح نكح فيه آدم حــواء ، ويوسف زليخا ، وموسى بنت شعيب ، وسليمان بلقيس » أى ونكح فيه صلى الله عليه وسلم خديجة وعائشة .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أذن النبى صلى الله عليه وسلم لهم قبل الهجرة » أى قبل أن يهاجر صلى الله عليه وسلم « فى إقامة الجمعة » أى فلم يفعلوها باجتهاد ، بل بإذنه صلى الله عليه وسلم . كتب إلى مصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه « أما بعد فانظر اليوم الذى تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم أى اليوم الذى يليه يوم السبت ، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم ، فإذا مال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله بركعتين ، فجمع مصعب بن عمير عند الزوال : أى صلى الجمعة حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى استمر على ذلك حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم عين لهم ذلك اليوم ، وهو خلاف قوله السابق « فهداكم الله له » الظاهر فى أن هدايتهم له باجتهاد منهم .

ويدل له ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما باسناد صحيح « أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك ، فهلم فلنجعل يوما نجتمع فيه ، فنذكر الله ونصلى ونشكره ، فجعلوه يوم العروبة » أى لأنه اليوم الذى وقع

فيه خلق آدم الذى هو مبدأ هذا الجنس ، وجعل فيه فناء الخلق وانقضاءهم إذ فيه تقوم الساعة ، ففيه المبدأ والمعاد إذ هو المروىّ عن ابن عباس ، يقتضى أن الأنصار اختاروه باجتهاد منهم . إلا أن يقال : لا مخالفة ، لأنه يجوز أن يكون هـذا العزم على ذلك حصل منهم أوّلا ثم أرسلوا له صلى الله عليه وسلم يستأذنونه فى ذلك فأذن لهم فيه،فقد جاء الوحى موافقة لما اختاروه .

وفيه أنه لو كان كذلك لقال صلى الله عليه وسلم لمصعب بن عمير افعلوا ذلك ولم يقل له انظروا إلى اليوم إلى آخره . إلا أن يقال : يجوز أنهم لما استأذنوه صلى الله عليه وسلم فى الاجتماع لم يعينوا له اليوم فبينه صلى الله عليه وسلم لهم . وتقدم عن الشيخ أبى حامد أن الجمعة أمر بها صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، وتركها لعدم التمكن من فعلها ، تقدم عن الحافظ ابن حجر أنه غريب، ويؤيده أنه لو كان أمر بها صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وتركها لعدم التمكن من فعلها لأمر بها مصعب بن عمير عند إرساله للمدينة ولم يأمره بها إلا بعد ذلك . إلا أن يقال : إنما لم يأمره بها حينئذ ، لأنه يجوز أن يكون إنما أمر بها بعد ذهاب مصعب إلى المدينة ، أو أنه إنما لم يأمره بذلك لأن لإقامتها شروطا منها العدد وهو عند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه أربعون بشروط ولم يكن ذلك موجودا عند إرساله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم لما علم صلى الله عليه وسلم وجود العدد المذكور أرسل له يأمره بذلك فى قوله : أما بعد فانظر اليوم الخ .

ثم لا يخفى أن ظاهر سياق الروايات يدل على أن الذى هداهم الله إليه إنما هو إيقاع العبادة فى هذا اليوم لا تسميته بيوم الجمعة كما تقدم عن السهيلى ، على أن تسميتهم له بذلك لم أقف عليها فى رواية .

على أن السهيلى ذكر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم سماها يوم الجمعة لما أرسل لمصعب بن عمير أن يفعلها كما تقدم فى الإسراء،وذكر أيضا أن كعب بن لؤىّ أول من سمى يوم العروبة الجمعة .

وقد يقال : لا مخالفة، لأنه يجوز أن تكون الأنصار ومن معهم من المهاجرين لم يبلغهم ما ذكر عن كعب بن لؤىّ إن ثبت أنهم سموها بهذا الاسم اجتهادا منهم .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب تسمية هذا اليوم بيوم الجمعة ، فقال : لأن فيها جمعت طينة أبيك آدم » وقدمنا أنه لا مخالفة بين ما هنا وما تقدم فى الإسراء والله أعلم .

وأسلم سعد بن معاذ وابن عمه أسيد بن حضير رضى الله تعالى عنهما على يد بن مصعب ابن عمير ، وكان إسلام أسيد قبل سعد فى يومه .

فعن ابن إسحاق أن أسعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه خرج بمصعب بن عمير إلى حائط : أى بستان من حوائط بنى ظفر ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما : أى بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبالك ، انطلق بنا إلى هذين الرجلين ؛ يعنى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير اللذين أتيا دارينا تثنية دار ، وهى المحلة، والمراد قبيلتنا وعشيرتنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما : أى وفى لفظ قال له : ائت أسعد بن زرارة فازجره عنا فليكف عنا ما نكره ، فإنه بلغنى أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب يسفه سفهاءنا وضعفاءنا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة منى حيث علمت لكفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدما ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، ثم قال مصعب : إن يجلس هذا كلمته . قال : فوقف عليهما متشمتا ، قال: ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، وفى لفظ قال : يا أسعد مالنا ولك ؟ تأتينا بهذا الرجل الغريب تسفه به سفهاءنا وضعفاءنا .

وفى رواية : علام أتيتنا فى دورنا بهذا الرجل الوحيد الغريب الطريد يسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه . فقال له مصعب : أو تجلس بفتح الواو استفهاما فتسمع بالنصب فى جواب الاستفهام ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره : أى منعنا عنك ماتكره ، قال أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليها ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقال : ما أحسن هذا وأجمله بالنصب على التعجب ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ، فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد بشهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين: أى وهما صلاة التوبة .

فقد روى أصحاب السنن ، وقال الترمذى حديث حسن أنه صلى الله عليه وسلم قال « مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له » ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه

وسأرسله إليكما الآن ، وهو سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه ، ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك : أى ينقضوا عهدك ، فقام سعد مغضبا مبادرا فأخذ الحربة من يده وقال : والله ما أراك أغنيت شيئا ، ثم خرج إليهما ، ولما أقبل سعد قال أسعد لمصعب : لقد جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشمتا ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة والله لولا ما بينى وبينك من القرابة مارمت منى هذا ، هـذا يغشانا فى دارنا بما نكره ، فقال له مصعب : أو تقعد تسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهت عزلنا عنك ما تكره ، فقال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وعرض عليه القرآن ، فقال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟ فقال : تغتسل وتتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تركع ركعتين ، فقام سعد فاغتسل وطهر ثوبه ثم شهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ، ومعه : أى مع ذلك النادى أسيد بن حضير . فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا وأبركنا نقيبة أى نفسا وأمرا ؛ قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : فوالله ما أمسى فى دارى : أى قبيلة بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة فأسلموا فى يوم واحد كلهم ، وكان ذلك بعد العقبة الأولى وقبل العقبة الثانية ، إلا ما كان من الأصيرم وهو عمرو بن ثابت من بنى عبد الأشهل فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد ، ولم يسجد لله سجدة ، وأخبره صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة .

أى وفى كلام ابن الجوزى : أول دار أى قبيلة أسلمت من دور الأنصار دار بنى عبد الأشهل ، ثم رجع مصعب إلى دار أسعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان

من سكان عوالى المدينة : أى قراها من جهة نجد ، قال : وفى كلام بعضهم إلا جماعة من الأوس بن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس وهو صيفى بن الأسلت ، وكان شاعرا لهم يسمعون منه ويطيعونه ، لأنه كان قوّالا بالحق معظما؛ وقد ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح ، واغتسل من الجنابة ، ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا وقال : أعبد إله إبراهيم لايدخل فيه حائض ولا جنب ، فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق فأسلم وحسن إسلامه وهو شيخ كبير اه ، أى سبب تأخر إسلامه ماذكره بعضهم أنه لما أراد الإسلام عند قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة لقيه أبىّ ابن سلول وكلمه بما أغضبه ونفره عن الإسلام وقال أبو قيس : لا أتبعه إلا آخر الناس، فلما احتضر أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قل : لا إله إلا الله أشفع لك بها ، فقالها وهمّ ابنه أن ينكح امرأة أبيه ، أى على ما هو عادة الجاهلية ، أى وكان ذلك فى المدينة حتى فى أول الإسلام أنّ أكبر أولاد الرجل يخلفه على زوجته بعد موته فنزل التحريم : أى قوله تعالى (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) وتقدم الكلام على سبب نزول هذه الآية مستوفى .

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة مع من خرج من المسلمين من الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة ، أى وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بمن أسلم، فسرّ بذلك .

وعن كعب بن مالك قال : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، والبراء بالمد لغة : آخر ليلة من الشهر ، سمى بذلك لأنه ولد فيها . ومعرور : معناه لغة: مقصود ، فلما خرجنا من المدينة قال البراء لنا : إنى قد رأيت رأيا ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ، قال : قلنا وماذاك ؟ قال : رأيت أن لا أدع هذه البنية أى بفتح الموحدة وكسر النون وتشديد المثناة تحت المفتوحة ثم تاء التأنيث على وزن فعيلة يعنى الكعبة منى بظهر ، وأن أصلى إليها ، قال : قلنا والله مابلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام : يعنون بيت المقدس : أى صخرته ، وما نريد أن نخالفه قال : فقال : إنى أصلى إليها ، قال : فقلنا له : لكنا لانفعل، قال : فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام يعنى بيت المقدس : أى واستدبرنا الكعبة ، وصلى إلى الكعبة أى مستدبرا للشام حتى قدمنا مكة وقد كنا عبنا عليه ذلك وأبى إلا الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا مكة

قال لى : يا ابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لانعرفه ، لأنا لم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تعرفانه ؟ قلنا لا ، قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا نعم ، وكنا نعرف العباس ، كان لايزال يقدم علينا تاجرا ، قال : فإذا دخلتما المسجد ، فإذا هو الرجل الجالس مع العباس ، فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، فسلمنا حين جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب ابن مالك ، قال كعب : فو الله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الشاعر ؟ قال نعم ، فقال له البراء بن معرور : يارسول الله إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله بالإسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر : يعنى الكعبة ، فصليت إليها ، وخالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء ، فماذا ترى يارسول الله ؟ قال قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ، فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بيت المقدس : أى ولم يأمره بإعادة ماصلاه مع أنه كان مسلما ؛ وبين له أنه كان الواجب عليه استقبال بيت المقدس ، لأنه كان متأولا فليتأمل .

وفى هذا تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا بمكة قبل الهجرة وبعدها يصلون إلى بيت المقدس قبل أن تحوّل القبلة ، وقد تقدم الوعد بذلك .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة : أى إلى أن يوافوه فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة حيث المسجد اليوم ، أى الذى يقال له مسجد البيعة كما تقدم ، وأمرهم أن لاينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا ، وذلك فى ليلة اليوم الذى هو يوم النفر الأول ، قال : فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، وكان من جملة المشركين أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام بفتح الحاء والراء المهملتين ، سيد من ساداتنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه

إلى الإسلام فأسلم ، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معنا العقبة ، فـكثنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بعد هدءة ، يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطا مستخفين ، حتى إذا اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا وامرأتان : نسيبة بالتصغير ، وهى أم عمارة من بنى النجار ، أى وكانت تشهد الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وزوجها وابناها حبيب وعبد الله رضى الله تعالى عنهم . وحبيب هذا اكتنفه مسيلمة الكذاب وصار يعذبه يقول له : أتشهد أن محمدا رسول الله فيقول نعم ، ثم يقول : وتشهد أنى رسول الله ، فيقول لا ، فيقطع عضوا من أعضائه وهكذا حتى فنيت أعضاؤه ومات ، وسيأتى ما وقع لها رضى الله تعالى عنها فى حرب مسيلمة . وأم منيع : أى وهذه الرواية لاتخالف رواية الحاكم خمسة وسبعون نفسا ، نعم تخالف قول ابن مسعود وهم سبعون رجلا يزيدون رجلا أو رجلين وامرأتان : أى منهم أحد عشر رجلا من الأوس ، قال : فلا زلنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا. أى وفى رواية «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبقهم وانتظرهم» [ ] .

أقول : وقد يقال لامخالفة ، لأنه يجوز أن يكون سبقهم وانتظرهم ، فلما لم يجيئوا ذهب ، ثم جاءهم بعد مجيئهم — والله أعلم — ومعه عمه العباس بن عبد المطلب : أى ليس معه غيره ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

أقول : وهذا لايخالف ماجاء أنه كان معه أيضا أبوبكر وعلى لأن العباس أوقف عليا على فم الشعب عينا له ، وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عينا ، فلم يكن معه عندهم إلا العباس والله أعلم ، فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم ، فقال : يا معشر الخزرج أى قال ذلك ، لأن العرب كانت تطلق الخزرج على ما يشمل الأوس ، وكانت تغلب الخزرج على الأوس فيقولون الخزرجين [ ] إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له ، بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن تدعونه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ، فقال البراء بن معرور : إنا

والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى والبراء بن معرور هو أول من أوصى بثلث ماله .

وفى رواية أن العباس قال : قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فأروا رأيكم وائتمروا بينكم ، ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

أقول : قول العباس قد أبى محمد الناس كلهم غيركم، ربما يفيد أن الناس غير الأنصار وافقوه على مناصرته فأباهم ، ولا يساعد عليه ما تقدم ، ولولا التأكيد بلفظ كلهم لأمكن أن يراد بالناس قبيلة شيبان بن ثعلبة ، فانهم كما تقدم قالوا له : ننصرك بما يلى ميـاه العرب دون ما يلى مياه كسرى فأبى ذلك . ويحتمل أن المراد بالناس الذين أباهم أهله وعشيرته والله أعلم .

وعند ما تكلم العباس بما ذكر ، قالوا له : قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . وفى رواية : خذ لنفسك ماشئت ، واشترط لربك ماشئت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أشترط لربى عز وجل أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم ، فقال ابن رواحة : فإذا فعلنا فما لنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لكم الجنة ، قالوا ربح البيع لانقيل ولانستقيل .

وفى رواية : « فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » أى وفى رواية « أنهم قالوا له : يا رسول الله نبايعك ؟ قال : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة ، فأخذ البراء بن معرور بيده صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا أى نساءنا وأنفسنا » لأن العرب تكنى بالإزار عن المرأة وعن النفس « فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة » أى السلاح « ورثناها كابرا عن كابر ، وبينا البراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو الهيثم بن التيهان» بتشديد المثناة تحت وتخفيفها « نقبله على مصيبة المـال وقتل

الأشراف ، فقال العباس : اخفوا جرسكم : أى صوتكم ، فإن علينا عيونا ، ثم قال أبو الهيثم : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال؛ يعنى اليهود حبالا أى عهودا ، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، بفتح الدال وسكونها : إهدار دم القتيل : أى دمى دمكم : أى تطلبون بدمى وأطلب بدمكم ، فدمى ودمكم واحد » وفى لفظ بدل الدم « اللدم » وهو بالتحريك : الحرم من القرابات : أى حرمى حرمكم . تقول العرب : اللدم اللدم ، إذا أرادت تأكيد المحالفة هدمى وهدمكم واحد ، أى وإذا أهدرتم الدم أهدرته « وذمتى ذمتكم ، ورحلتى مع رحلتكم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » أى وعند ذلك قال لهم العباس رضى الله تعالى عنه « عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم فى هذا الشهر الحرام والبلد الحرام، يد الله فوق أيديكم لتجدّن فى نصرته ولتشدن من أزره، قالوا جميعا نعم، قال العباس : اللهم إنك سامع شاهد ، وإن ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخى عليهم شهيدا . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس » أى وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا ، فلا يحدّث أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل » أى لأنه عليه الصلاة والسلام حضر البيعة « فلما تخيرهم أى وهم سعد بن عبادة ، وأسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن أبى خيثمة ، والمنذر بن عمرو ، وعبد الله بن رواحة ، والبراء بن معرور ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وأسيد بن حضير ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، ورافع بن مالك ، كل واحد على قبيلة » رضى الله تعالى عنهم أجمعين . «وقال صلى الله عليه وسلم لأولئك النقباء : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى يعنى المهاجرين » .

وقيل إن الذى تولى الكلام من الأنصار وشد العقدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسعد بن زرارة : أى وهو من أصغرهم « فإنه أخذ بيد النبى صلى الله عليه وسلم وقال : رويدا يا أهل يثرب إنا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب ، وقتل خياركم ، وإن تعطكم السيوف

فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافة : أى جميعا ، فخذوه وأجركم على الله تعالى ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو عذر لكم عند الله عز وجل ، فقالوا : يا أسعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر : أى نترك هذه البيعة ولا نستقيلها : أى لا نطلب الإقالة منها .

وقيل إن الذى تكلم مع الأنصار وشدّ العقدة العباس بن عبادة بن نضلة ، قال : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس : أى على من حاربه منهم ، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم لم يؤذن له فى البداءة بالمحاربة إلا بعد أن هاجر إلى المدينة بمدة كما سيأتى ، وكان قبل ذلك مأمورا بالدعاء إلى الله تعالى والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، ثم ذكر ما تقدم عن أسعد بن زرارة أى ثم توافقوا على ذلك وقالوا : يارسول الله مالنا بذلك إن نحن قضينا ؟ قال : « رضوان الله والجنة » . قالوا : رضينا ، ابسط يدك فبسط يده صلى الله عليه وسلم فبايعوه ، [ ] أى وأول من بايعه صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ، وقيل أسعد بن زرارة ، وقيل أبو الهيثم بن التيهان ، ثم بايعه السبعون كلهم ، أى وبايعه المرأتان المذكورتان من غير مصافحة ، « لأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصافح النساء إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أحرزن قال : اذهبن فقد بايعتكن » كما سيأتى ، فكانت هذه البيعة على حرب الأسود والأحمر أى العرب والعجم ، فهؤلاء الثلاثة لم يتقدم عليهم أحد غيرهم ، وحينئذ تكون الأولية فيهم حقيقية وإضافية .

أى ويقال : إن أبا الهيثم قال : أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيبا من بنى إسرائيل موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وأن عبد الله بن رواحة قال : أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقال أسعد بن زرارة : أبايع الله عز وجل يارسول الله ، فأبايعك على أن أتمّ عهدى بوفائى وأصدق قولى بفعلى فى نصرك ، وقال النعمان بن حارثة : أبايع الله عز وجل يارسول الله ، وأبايعك على الإقدام فى أمر الله عز وجل ، لا أرأف فيه القريب ولا البعيد أى لا أعامل فيه بالرأفة والرحمة . وقال عبادة بن الصامت : أبايعك يارسول الله على أن لا تأخذنى فى الله لومة لائم ، وقال سعد بن الربيع : أبايع الله وأبايعك يا رسول الله على أن

لأأعصى لكما أمراً ولا أكذبكما حديثا ، فلما انتهت البيعة ، وهذه البيعة يقال لها العقبة الثانية ، ولما وقعت صرخ الشيطان من رأس العقبة بأشدصوت وأبعده : ياأهل الجباجب : أى بجيمين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبعدكل جيم باء موحدة : وهى منازل منى . وفى الهدى : يا أهل الأخاشب هل لكم فى مذمم والصباة معه ، يعنى بمذمم النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن قريشا كانت تقول بدل محمد صلى الله عليه وسلم مذمم ، ويعنى بالصباة أصحابه الذين بايعوه ، لأنهم كانوا يقولون لمن أسلم صابئ ، لأن الصابئ من خرج من دين إلى دين ، وقدجاء « ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم ، يسبون مذمما وأنا محمد ، فإنهم قد أجمعوا » أى عزموا « على حربكم « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا إزب العقبة أسمع ، أى عدو الله ، أما والله لا أفزعن » وإزب بكسر الهمزة وإسكان الزاى ثم بالباء الموحدة الخفيفة ، وقيل بفتح الهمزة وفتح الزاى وتشديد الموحدة : أى شيطان سمى بهذا الاسم المركب من المضاف والمضاف إليه عامرها . والإزب فى الأصل : القصير ، ومن ثم رأى عبد الله بن الزبير رجلا طوله شبران على برذعة رحله ، فقال له : ماأنت ؟ قال إزب ، قال . وما إزب ؟ قال : رجل من الجن ، فضربه على رأســه بعود سوطه فهرب .

« وعند ذلك قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا » وفى لفظ « انفضوا إلى رحالكم » .

أقول : وفى رواية « لما بايع الأنصار بالعقبة صاح الشيطان من رأس الجبل : يامعشر قريش هذه بنو الأوس والخزرج تحالف على قتالكم ، ففزعوا : أى الأنصار عند ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايروعكم هذا الصوت ، فإنما هو عدوّ الله إبليس وليس يسمعه أحد مما تخافون » .

ولا مانع من اجتماع صراخ إزب العقبة وصراخ إبليس الذى هو أبو الجن . ويجوز أن يكون المراد بعدو الله إبليس إزب العقبة ، لأنه من الأبالسة وإنه أتى باللفظين معا ، وقد حضر البيعة جبريل كما تقدم .

فعن حارثة بن النعمان رضى الله تعالى عنه « لما فرغوا من المبايعة قلت : يانبى الله ، لقد رأيت رجلا عليه ثياب بيض أنكرته قائما على يمينك قال : وقد رأيته؟ قلت : نعم ، قال : ذاك جبريل » والله أعلم .

ثم إن الحديث نمـا وسمع المشركون من قريش بذلك : أى وفى كتاب الشريعة أن الشيطان لما نادى بما ذكر شبه صوته بصوت منبه بن الحجاج ، فقال عمرو بن العاص مانال أبو جهل ، قال عمرو : ذهبت أنا وهو إلى عتبة بن ربيعة فأخبره بصوت منبه بن الحجاج فلم يرعه ماراعنا ، وقال : هل أتاكم فأخبركم بهذا منبه ؟ قلنا لا ، فقال : لعله إبليس الكذاب الحديث . وفيه طول وأمور مستغربة .

ولاينافى سماع عمرو وأبى جهل صوت إبليس قوله صلى الله عليه وسلم «وليس يسمعه أحد مما تخافون » لأن سماعهما لم يحصل منه خوف لهم «وعند فشوّ الخبر جاء أجلتهم وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار ، فقالوا يا معشر الأوس والخزرج ، وفى رواية : يامعشر الخزرج أى بالتغليب بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا ، والله مامن حى أبغض إلينا أن نشب الحرب بيننا وبينه منكم ، فصار مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ماكان من هذا شيء وما علمناه : أى حتى إن أبىّ ابن سلول جعل يقول هذا باطل ، وماكان هذا وماكان قومى ليفتاتوا علىّ بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ماصنع هذا قومى حتى يؤامرونى» وصدقوا لأنهم لم يعلموه كما علم مما تقدم : أى ونفر الناس من منى وبحثت قريش عن خبر الأنصار فوجدوه حقا ، فلما تحققوا الخبر اقتفوا آثارهم فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، فأما سعد فأمسك وعذب فى الله ، وأما المنذر فأفلت ثم أنقذ الله سعدا من أيدى المشركين ، قال : نقل عنه أنه قال : لما ظفروا بى ربطوا يدى فى عنقى ، فلا زالوا يلطمونى على وجهى ويجذبونى بجمتى : أى وكان ذا شعر كثير حتى أدخلونى مكة ، فأومأ إلىّ رجل أى وهو أبو البخترى بن هشام ، مات كافرا [ ] وقال : ويحك ما بينك وبين أحد من قريش ، جوار ولا عهد ، قال : بلى ، قد كنت أجير لجبير بن مطعم تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية : أى وهو أخو أبى سفيان ، والأول أسلم بعد الحديبية ، والثانى لايعلم له إسلام ، فقال : ويحك فاهتف باسم الرجلين ، ففعلت ، فخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد ، فقال لهما إن رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمكما ، فقالا : من هو ؟ قال : يقول إنه سعد بن عبادة ، فجاءا فخلصانى من أيديهم اهـ .

وعن سعد : بينا أنا مع القوم أضرب إذ طلع علىّ رجل أبيض وضئ شعشاع : أى طويل زائد الحسن حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى : إن يكن عند أحد من القوم خير

فعند هذا ، فلما دنا منى رفع يديه ولـكمنى لكمة شديدة فقلت فى نفسى والله ماعندهم بعد هذا خير ، أى وهذا الرجل سهيل بن عمرو رضى الله تعالى عنه ؛ فإنه أسلم بعد ذلك .

فلما قدم الأنصار المدينة أظهروا الإسلام ، أى إظهارا كليا وتجاهروا ، وإلا فقد تقدم أن الإسلام فشا فيهم قبل قدومهم لهذه البيعة ،وكان عمرو بن الجموح وهو من سادات بنى سلمة بكسر اللام وأشرافهم ولم يكن أسلم ، وكان ممن أسلم ولده معاذ بن عمرو [ ] وكان لعمرو فى داره صنم أى من خشب يقال له المناة لأن الدماء كانت تمنى : أى تصب عنده تقرّبا إليه ،وكان يعظمه ، فكان فتيان قومه ممن أسلم كمعاذ بن جبل وولده عمرو بن معاذ ومعاذ بن عمرو ، يدلجون بالليل على ذلك الصنم فيطرحونه أى ولعله بعد إخراجه من داره فى بعض الحفر التى فيها خرء الناس منكسا ، فإذا أصبح عمرو قال : ويحكم من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يعود يلتمسه ؛ حتى إذا وجده غسله ، فإذا أمسى عدوا عليه وفعلوا به مثل ذلك ، إلى أن غسله وطيبه وجاء بسيف علقه فى عنقه ، ثم قال له : ماأعلم من يصنع بك ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك ، فلما أمسى عدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها خرء الناس ، فلما أصبح عمرو غدا إليه فلم يجده،ثم تطلبه إلى أن وجده فى تلك البئر ، فلما رآه كذلك رجع إلى عقله ، وكلمه من أسلم من قومه ، فأسلم وحسن إسلامه ، وأنشد أبياتاً منها :

والله لو كنت إلها لم تـكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن

أى حبل

«وأمر صلى الله عليه وسلم من كان معه من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ،أى لأن قريشا لما علمت أنه صلى الله عليه وسلم آوى : أى استند إلى قوم أهل حرب وتحمل ضيقوا على أصحابه ؛ ونالوا منهم مالم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى ، وجعل البلاء يشتد عليهم ، وصاروا مابين مفتون فى دينه ، وبين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد شكوا إليه صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فى الهجرة: أى فمكث أياما لايأذن لهم ، ثم قال لهم : أريت دار هجرتـكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان ، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هى هى » والسراة بفتح السين : أعظم جبال بلاد العرب « ثم خرج إليهم مسرورا ، فقال : قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب ، فأذن لهم » وقال : من اراد أن يخرج فليخرج إليها فخرجوا إليها أرسالا » أى متتابعين « يخفون ذلك » أى وفى

رواية «أريت فى المنام أنى هاجرت من مكة إلى أرض بها نخل ؛ فذهب وهلى» أى وهمى «إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هى المدينة يثرب» .

وفى الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله أوحى إلىّ : أى هؤلاء الثلاثة نزلت هى دار هجرتك المدينة، أو البحرين، أو قنسرين» قال الترمذى ، هذا حديث غريب ، وزاد الحاكم «فاختار المدينة» .

أقول : فيه أن هذا السياق المتقدم يدل على أن استئذانهم فى الهجرة عبارة عن خروجهم من مكة لا لخصوص المدينة ، وأن عدم إذنه صلى الله عليه وسلم لهم فى الهجرة لعدم تعيين المحل الذى يهاجرون إليه له صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك لايناسب ماتقدم فى حديث المعراج من قول جبريل له «صليت بطيبة وإليها المهاجرة» .

وقد يجاب بأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم أنسى قول جبريل المذكور حينئذ ثم تذكره بعد ذلك فى قوله «قد أخبرت بدار هجرتكم» إلى آخره .

وفيه أن هذا لا يحسن بعد مبايعته صلى الله عليه وسلم للأوس والخزرج على مناصرته ومحاربة عدوّه مع علمه بأن وطنه المدينة ، وكونهم يبايعونه على مناصرته مع كونه ساكنا فى البحرين أو قنسرين فى غاية البعد .

على أنه سيأتى فى غزوة بدر «أنه صلى الله عليه وسلم خشى أن الأنصار لاترى مناصرته إلا فى المدينة» أى فإن فى بعض الروايات «وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم بيثرب» والله أعلم .

وقبل الهجرة «آخى صلى الله عليه وسلم بين المسلمين» أى المهاجرين «على الحق والمواساة ، فآخى بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير وابن مسعود ، وبين عبادة بن الحارث وبلال ، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص ، وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة ، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ، وبين علىّ ونفسه صلى الله عليه وسلم ، وقال : أما ترضى أن أكون أخاك؟ قال : بلى يا رسول الله رضيت ، قال : فأنت أخى فى الدنيا والآخرة» قال : وأنكر العباس بن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين سيما مؤاخاة النبى صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضى الله تعالى عنه ، قال : لأن المؤاخاة بين

المهاجرين والأنصار إنما جعلت ليرتفق بعضهم ببعض ، ولتألف قلوب بعضهم ببعض ، فلا معنى لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى .

قال الحافظ ابن حجر : هذا رد للنص بالقياس ، وبعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ، وليستعين الأعلى بالأدنى ، ولهذا تظهر مؤاخاته صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله تعالى عنه كان هو الذى يقوم بأمره قبل البعثة .

وفى الصحيح فى عمرة القضاء «أن زيد بن حارثة قال إن بنت حمزة بنت أخى» أى بسبب المواخاة اه ، وكان أول من هاجر منهم إليها أى لامعهم أبو سلمة عبد الله بن عبدالأسد المخزومى ، وهو أخوه من الرضاع وابن عمته . وهو أول من يدعى للحساب اليسير كما تقدم فإنه لما قدم من الحبشة لمكة آذاه أهلها وأراد الرجوع إلى الحبشة ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، أى الاثنى عشر الذين بايعوا البيعة الأولى خرج إليهم ، وقدم المدينة بكرة النهار . ولما عزم على الرحيل رحل بعيره وحمل عليه أم سامة وابنها سلمة فى حجرها ، وخرج يقود البعير رآه رجال من قوم أم سلمة فقاموا إليه وقالوا : يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسك فصاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ، ثم نزعوا خطام البعير منه ، فجاء رجال من قوم أبى سلمة ، وقالوا : إن ابننا معها إذا نزعتموها من صاحبنا ننزع ولدنا منها ، ثم تجاذبوه حتى خلعوا يده وأخذه قوم أبيه ففرق بينها وبين زوجها وولدها ، فكانت تخرج كل غداة بالأبطح فتبكى حتى المساء مدة سنة ، فمر بها رجل من بنى عمها فرأى ما بها فرحمها وقال لقومها : أما ترحمون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين ولدها وزوجها ، فقالوا لها : الحقى بزوجك ، فلما بلغ ذلك قوم أبى سلمة ردوا عليها ولدها ، فارتحلت بعيرا وجعلت ولدها فى حجرها وخرجت تريد المدينة وما معها أحد من خلق الله تعالى ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة : أى الحجبى صاحب مفتاح الكعبة وكان عثمان بن طلحة يومئذ مشركا ثم أسلم رضى الله تعالى عنه فى هدنة الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص كما سيأتى ، فتبعها إلى المدينة حتى إذا وافى على قباء قال لها : هــذا زوجك هنا ثم انصرف ، وهى أول ظعينة دخلت من المهاجرين المدينة رضى الله تعالى عنها ، وكانت أم سلمة تقول : مارأيت صاحبا أكرم من عثمان بن طلحة .

قال : وقال ابن إسحاق وابن سعد : ثم كان أول من قدمها بعد أبى سلمة عامر بن

ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة — بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الثاء المثلثة — وهى أول ظعينة قدمت المدينة اهـ .

أقول : فأم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة لامع زوجها ، وليلى أول ظعينة قدمت المدينة مع زوجها ، فلا منافاة .

وفى كلام ابن الجوزى : أول من هاجر إلى المدينة من النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، والله أعلم .

قال : بينت : أى أم سلمة ما تقدم عنها فى حق عثمان بن طلحة بقولها : فإنه لما رآنى قال : إلى أين ؟ قلت : إلى زوجى ، قال : أو ما معك أحد ؟ قلت لا ، مامعى إلا الله وابنى هذا ، فقال : والله لا أتركك ، ثم أخذ بخطام البعير وسار معى ، فكان إذا وصلنا المنزل أناخ بى ثم استأخر ، فإذا نزلت جاء وأخذ بعيرى فحط عنه ثم قيده فى الشجرة ، ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فرحله وقدمه ثم استأخر عنى وقال اركبى ، فإذا ركبت أخذ بخطامه فقادنى اهـ .

أى وقد قال فقهاؤنا : من الصغائر مسافرة المرأة بغير زوج ولا محرم ولا امرأة ثقة فى غير الهجرة وفرض الحج والعمرة ؛ أما فى ذلك فيجوز حيث أمنت الطريق .

وقولنا لا معهم لاينافى أن أول من قدم المدينة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ، لأن قدومه كان معهم على ما تقدم أو يقال : أبو سلمة أول من قدم المدينة بوازع طبعه . وأما مصعب فكان بإرسال منه صلى الله عليه وسلم . ثم رأيت فى السيرة الهشامية : أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مخزوم أبو سلمة ، وعليه فلا إشكال . ثم جاء عمار وبلال وسعد .

وفى رواية : ثم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرسالا بعد العقبة الثانية فنزلوا على الأنصار فى دورهم فأووهم وواسوهم ، ثم قدم المدينة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعياش بن أبي ربيعة فى عشرين راكبا . وكان هشام بن العاص واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه وقال : تجدنى أو أجدك عند محل كذا ، ففطن بهشام قومه فحبسوه عن الهجرة .

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه قال : ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا

إلا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد بسيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يديه أسهما واختصر عنزته : أى وهى الحربة الصغيرة علقها عند خاصرته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس : أى الأنوف ، من أراد أن تثكله أمه : أى تفقده ، أو يوتم ولده ، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ، قال على رضى الله تعالى عنه : فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه . ثم إن أبا جهل وأخاه شقيقه الحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه — فإنه أسلم بعد ذلك يوم الفتح — قدما المدينة والنبى صلى الله عليه وسلم بمكة لم يهاجر ، فكلما عياش بن أبى ربيعة وكان أخاهما لأمهما وابن عمهما كان أصغر ولد أمه ، وأخبراه أن أمه قد نذرت أن لا تغسل رأسها . وفى لفظ : ولا يمس رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراه ، أى وفى لفظ : أن لا تأكل ولا تشرب ولا تدخل مسكنا حتى يرجع إليها ، وقالا له وأنت أحب ولد أمك إليها ، وأنت فى دين منه بر الوالدين ، فارجع إلى مكة فاعبد ربك كما تعبده بالمدينة ، فرقت نفسه وصدقهما : أى وأخذ عليهما المواثيق أن لا يغشياه بسوء ، وقال له عمر : إن يريدا إلا فتنتك عن دينك فاحذرهما ، والله لو آذى أمك القمل امتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فقال عياش : أبر أمى ولى مال هناك آخذه ، فقال عمر : خذ نصف مالى ولا تذهب معهما ، فأبى إلا ذلك ، فقال له عمر : فحيث صممت فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك منهما ريب فانج عليها ، فأبى ذلك وخرج راجعا معهما إلى مكة ، فلما خرجا من المدينة كتفاه بتخفيف التاء : أى شدا يديه إلى خلف بالكتاف فى الطريق . أى وفى السيرة الهشامية أنه أخذ الناقة وخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه؟ قال بلى ، قال : فأناخ وأناخ ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه وأوثقاه رباطا ودخلا به مكة نهارا موثقا . وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهائنا . وفى لفظ : بسفيهنا ، فجلس بمكة مع هشام بن العاص ، فإنه كما تقدم منع وحبس عن الهجرة ، وجعل كل فى قيد .

وفى لفظ : أنهما لما ذكرا له أن أمه حلفت أن لا يظلها سقف بيت حتى تراه ، وأعطياه موثقاً أن لا يمنعاه وأن يخليا سبيله بعد أن تراه أمه ، فانطلق معهما حتى إذا خرجا من

المدينة عمدا إليه فشداه وثاقا وجلداه نحوا من مائة جلدة ، وكان أعانهما عليه رجل من بنى كنانة : أى يقال له الحارث بن يزيد القرشى وفى كلام ابن عبد البر أنه كان ممن يعذبه بمكة مع أبى جهل .

وفى الينبوع : جلده كل واحد منهما مائة جلدة ، وأنه لما جىء به إلى مكة ألقى فى الشمس ، وحلفت أمه أنه لا يحل عنه حتى يرجع عن دينه ففتن . قيل وكان ذلك سبب نزول قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه) الآية .

وفيه أنه تقدم أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص ؛ إلا أن يقال يجوز أن يكون مما تكرر نزوله ، فتكون نزلت فيهما ، وحلف عياش ليقتلن ذلك الرجل إن قدر عليه . قيل ولم يزل عياش محبوسا حتى فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، فخرج عياش فلقى ذلك الرجل الكنانى وكان قد أسلم وعياش لايعلم بإسلامه ، فقتله وأعلم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأنزل الله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) فقرأها النبى صلى الله عليه وسلم وقال لعياش « قم فحرر » أى أعتق رقبة . وما ذكر من أن عياشا استمر محبوسا إلى الفتح يخالف قول بعضهم : مكث صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة كما سيأتى أربعين صباحا يقنت فى صلاة الصبح بعد الركوع : أى من الركعة الأخيرة « وكان يقول فى قنوته اللهم أنج الوليد بن الوليد وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص ، والمستضعفين من المؤمنين بمكة الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » فإن هـذا يدل على أن هشام ابن العاص وعياش بن أبى ربيعة لم يفتتنا ولم يرجعا عن الإسلام . وفى السيرة الهشامية ما يفيد أنهما فتنا ، الأول صريحا ، والثانى ظاهرا .

وفى السيرة الهشامية التصريح بافتتانهما ، وفيه نظر لما ذكر ، ولأنهما لو كانا فتنا لأطلقا من الحبس والقيد وإدامة ذلك ، إلا أن يقال فعل بهما ذلك لعدم الوثوق برجوعهما عن الإسلام . ومما يدل على أن رجوعهما عن الإسلام إن صح إنما كان ظاهرا فقط دعاؤه صلى الله عليه وسلم لهما .

أى وسيأتى أن الوليد كان سببا لتخليص عياش بن أبى ربيعة وهشام بن أبى العاص بعد أن تخلص من الحبس وهاجر إلى المدينة ، فإن الوليد كان أسر ببدر ثم افتداه أخوه خالد وهشام ابنا الوليد بن المغيرة وذهبا به إلى مكة فأسلم وأراد الهجرة فحبساه بمكة . وقيل له : هلا أسلمت قبل أن تفدى ؟ قال : كرهت أن يظن فى أنى جزعت من الأسر ، ثم نجا وتوصل

إلى المدينة ورجع إلى مكة مستخفيا وخلص عياشا وهشاما وجاء بهما إلى المدينة ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وشكر صنيعه ، وبه يعلم ضعف ما تقدم من أن عياشا لم يزل محبوسا إلى يوم الفتح .

وممن هاجر قبل النبي صلى الله عليه وسلم سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة : أي لأنه لما أعتقته زوجة أبي حذيفة وكانت أنصارية تبناه أبو حذيفة ، وكان يؤم المهاجرين بالمدينة فيهم عمر بن الخطاب ، لأنه كان أكثرهم أخذا للقرآن ، فكان عمر بن الخطاب يثني عليه كثيرا ، حتى قال لما أوصى عند قتله : لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا ما جعلتها شورى . قال ابن عبد البر : معناه أنه كان يأخذ برأيه فيمن يولّيه الخلافة : أي فإنه قتل في يوم اليمامة ، وأرسل عمر بميراثه لمعتقته فأبت أن تقبله ، فجعله في بيت المال .

ولما أراد صهيب الهجرة إلى المدينة ، أي بعد أن هاجر إليها صلى الله عليه وسلم ، خلافا لما يوهمه كلام الأصل والشامي قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا فقيرا فكثر مالك عندنا ثم تريد أن تخرج بمالك ؟ لا والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب ، أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا نعم ، قال : فإني جعلته لكم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « ربح صهيب » .

أقول : « وذكر أن صهيبا تواعد معه صلى الله عليه وسلم أن يكون معه في الهجرة ، فلما أراد صلى الله عليه وسلم الخروج للغار أرسل إليه أبا بكر مرتين أو ثلاثا فوجده يصلي ، فكره أن يقطع عليه صلاته » كما سيأتي ، وحينئذ يكون قول صهيب المذكور بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كما تقدم ، وهو ما في الخصائص الكبرى عن صهيب « لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وخرج معه أبو بكر وقد كنت هممت بالخروج معه فصدني فتيان من قريش » أي بعد أن أردت الخروج بعده « وقالوا له جئتنا فقيرا حقيرا صعلوكا فكثر مالك عندنا وتريد أن تخرج بمالك ونفسك لا يكون ذلك أبدا ، قال فقلت لهم : أنا أعطيكم أواقي من الذهب . وفي لفظ ثلث مالي . وفي لفظ : مالي وتخلون سبيلي ، ففعلوا ، فقلت احفروا تحت أسكفة الباب ، فإن تحتها الأواقي ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء قبل أن يتحوّل منها ، فلما رآني قال يا أبا يحيى ربح البيع ثلاثا ، فقلت : يارسول الله إنه ما سبقني إليك أحد ، وما أخبرك إلا جبريل عليه الصلاة والسلام » .

أى وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن المسيب قال « أقبل صهيب مهاجرا نحو النبى صلى الله عليه وسلم وقد أخذ سيفه وكنانته وقوسه ، فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانتثل ما فى كنانته . ثم قال : يامعشر قريش قد علمتم أنى من أرماكم رجلا وايم الله لا تصلون إلىّ حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شيء ثم افعلوا ما شئتم ، وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى ، فقالوا نعم ، فقال لهم ما تقدم » وفى رواية « أنهم قالوا له : دلنا على مالك ونخلى عنك ، وعاهدوه على ذلك ففعل » .

وذكر بعض المفسرينّ « أن المشركين أخذوه وعذبوه فقال لهم : إنى شيخ كبير لايضركم أمنكم كنت أم من غيركم ، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى ، وتتركوا لى راحلة ونفقة ففعلوا ، ونزل قوله تعالى : (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) قال : فلما قدمت وجدت النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر جالسين ، فلما رآنى أبوبكر قام إلىّ فبشرنى بالآية التى نزلت فىّ أى وفى رواية « فتلقانى أبو بكر وعمر ورجال ، فقال لى أبوبكر : ربح بيعك أبا يحيى ، فقلت : وبيعك ، هلا تخبرنى ماذاك ؟ فقال : أنزل الله فيك كذا ، وقرأ علىّ الآية » .

وفى تفسير سهل بن عبد الله التسترى أن صهيبا كان من المشتاقين لم يكن له قرار ؛ كان لاينام لا بالليل ولا بالنهار .

وقد حكى أن امرأة اشترته فرأته كذلك ، فقالت : لاأرضى حتى تنام بالليل ، لأنك تضعف فلا يتهيأ لك الاشتغال بأعمالى ؛ فبكى وقال : إن صهيبا إذا ذكر النار طار نومه وإذا ذكر الجنة جاء شوقه ، وإذا ذكر الله طال شوقه : أى وليتأمل هذا مع مافى تاريخ ابن كثير أن الروم أغارت على بلاد صهيب وكانت على دجلة ، وقيل على الفرات ، فأسرته وهو صغير ، ثم اشتراه منهم بنو كلب فحملوه إلى مكة فابتاعه عبد الله بن جدعان فأعتقه وأقام بمكة حينا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وكان إسلامه وإسلام عمار بن ياسر فى يوم واحد . وقد يقال : يجوز أن تكون تلك المرأة التى اشترته كانت من بنى كلب .

وعن صهيب رضى الله تعالى عنه « صحبت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه وأنه قال له عمر رضى الله تعالى عنه : ياصهيب اكتنيت وليس لك ولد ؛ فقال : كنانى

رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي يحيى » فهو من جملة من كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ولد له ؛ وكان فى لسانه عجمة شديدة ، وكان فيه دعابة « رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قثاء ورطبا وهو أرمد إحدى عينيه ، فقال له : تأكل رطبا وأنت أرمد ؟ فقال : إنما آكل من ناحية عيني الصحيحة فضحك صلى الله عليه وسلم » .

وفى المعجم الكبير للطبرانى عن صهيب ، قال «قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر وخبز ، فقال : ادن فكل ، فأخذت آكل من التمر ، فقال لى : أتأكل التمر وعينك رمدة ، فقلت : يارسول الله أمصه من الناحية الأخرى ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى ولا مانع من التعدد « ولما أذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة وهاجروا مكث صلى الله عليه وسلم بعد أصحابه ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ولم يتخلف معه إلا على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه وأبوبكر أى وصهيب كما علمت ، ومن كان محبوسا أو مريضا أو عاجزا عن الخروج ، وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه كثيرا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له : لاتعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا فيطمع أبو بكر أن يكون هو » وفى رواية « تجهز أبوبكر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك ؛ فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فقال له أبو بكر هل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين عنده الخبط » أى وفى لفظ « ورق السمر » بفتح المهملة وضم الميم ، قال الزهرى ، وهو الخبط . قال ابن فارس : والخبط ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر ، وكان مدة علفها أربعة أشهر ، وكان اشتراهما بثمانمائة درهم .

أقول : ظاهر هذا السياق أن علفه للراحلتين كان بعد قول المصطفى صلى الله عليه وسلم له ما ذكر . ومعلوم أن ذلك بعد مبايعة الأنصار له صلى الله عليه وسلم ، والمدة بين مبايعة الأنصار له صلى الله عليه وسلم والهجرة كانت ثلاثة أشهر أو قريبا منها ، لأنها كانت فى ذى الحجة ، ومهاجرته صلى الله عليه وسلم كانت فى ربيع الأول .

وفى السيرة الشامية ما يصرح بأن علفه للراحلتين كان بعد قول المصطفى صلى الله عليه وسلم له ما ذكر . ففيها « أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لأبى بكر وقد استأذنه فى الهجرة : لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا» طمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعنى نفسه فابتاع راحلتين فحبسها فى داره يعلفهما إعدادا لذلك ، وسيأتى عن الحافظ ابن حجر

أن بين ابتداء هجرة الصحابة وبين هجرته صلى الله عليه وسلم شهرين ونصف شهر على التحرير، والله أعلم .

« فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صار له شيعة » أى أنصار وأصحاب من غيرهم « ورأوا خروج أصحابه إليهم ، وأنهم أصابوا منعة لأن الأنصار قوم أهل حلقة» أى سلاح وبأس « حذروا : أى خافوا أن يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يجمع على حربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت محل مشورتهم لايقطعون أمرا الا فيها » أى وهى أول دار بنيت بمكة ، كانت منزل قصىّ بن كلاب كما تقدم ، ثم صارت لولده عبد الدار ، ثم ابتاعها معاوية لما حج وهو خليفة من أولاد عبد الدار .

وتقدم أن معاوية إنما اشتراها من حكيم بن حزام ، ويدل لذلك ما جاء عن مصعب ابن عبدالله قال : جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام ، فباعها من معاوية بن أبى سفيان بمائة ألف درهم ، فقال له عبد الله بن الزبير : بعت مكرمة قريش ، فقال له حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى يا ابن أخى إلى آخر ما تقدم ، وكانت دار الندوة جهة الحجر عند المقام الحنفى الآن ، وكان لها باب للمسجد ، وكان لايدخلها عند المشورة من غير ولد قصى إلا ابن أربعين سنة .

وفى كلام بعضهم : ساد أبوجهل وما طرّ شاربه ، ودخل دار الندوة وما استدارت لحيته ، وقد أدخلت فى المسجد . قيل لها دار الندوة لاجتماع الندى وهو الجماعة فيها ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرحمة ، لأنه اجتمع فيه أشراف بنى عبد شمس وبنى نوفل وبنى عبد الدار وبنى أسد وبنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح ، وغيرهم مما لايعدّ من قريش ، ولم يتخلف من أهل الرأى والحجا أحد . ثم إن إبليس جاء إليهم فى صورة شيخ نجدى عليه طيلسان من خز وقيل من صوف: أى وإنما فعل ذلك ليقبل منه مايشير به ، لأن أهل الطيالسة فى العادة من أهل الوقار والمعرفة ؛ ووقف ذلك الشيخ على الباب ، فقالوا له : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمع بالذى اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لايعدمكم منه رأيا ونصحا ، قالوا أجل : أى نعم ، فادخل فدخل معهم ، أى وإنما قال لهم من أهل نجد، لأن قريشا قالوا : لايدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم كان مع محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل لما سمعهم يقولون: لايدخل معكم اليوم إلا من هو معكم ، قال لهم لما سألوه وقالوا له من أنت ؟ قال شيخ من نجد ، وأنا ابن أختكم ؛ فقالوا: ابن أخت القوم منهم .

وقيل إن إبليس لما دخل عليهم أنكروه وقالوا له من أنت وما أدخلك علينا فى خلوتنا هذه بغير إذننا ؟ فقال : إنى رجل من أهل نجد ، رأيتكم حسنة وجوهكم طيبة ريحكم فأحببت أن أجلس إليكم وأسمع كلامكم ، فإن كرهتم ذلك خرجت عنكم ؛ فقال بعضهم لبعض : هذا نجدى ولا عين عليكم منه ، وفى لفظ : هذا من أهل نجد لامن مكة فلايضركم حضوره معكم . وعند المشورة قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل يعنى النبى صلى الله عليه وسلم : قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله لانأمنه الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا فتشاوروا ، فقال قائل:أى وهو أبو البخترى بن هشام احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ماأصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ماأصابهم من هذا الموت ، فقال الشيخ النجدى ، لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا تشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم ، ماهذا برأى ، فانظروا رأيا غيره ، فتشاوروا ، فقال قائل منهم ، أى وهو الأسود بن ربيعة بن عمير : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فو الله ما نبالى أين يذهب ، فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى الله به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل ، بفتح أوله وضم الحاء المهملة أى ينزل ، ويجوز أن يكون بكسرها: أى يسقط على حىّ من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ثم يسير به إليكم حتى يطأكم بهم ، فيأخذوا أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ماأراد ، دبروا فيه رأياً غير هذا ؛ فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأياً ماأراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا: وما هو ياأبا الحكم ؟ قال: الرأى أن تأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا : أى قويا حسيبا فى قومه نسيبا وسطا ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يغدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيرضوا منا بالعقل : أى الدية فعقلنا لهم . فقال النجدى : القول ماقال هذا الرجل ، هذا هو الرأى ولا أرى غيره ، فتفرق القوم على ذلك ، فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : لا تبت هذه الليلة فى فراشك الذى كنت تبيت عليه : أى وأخبره بمكرهم ، وأنزل الله عز وجل عليه (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) الآية ، فلما كانت عتمة من الليل : أى الثلث الأوّل من الليل اجتمعوا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه : أى وكانوا مائة .

أقول فى الدرّ المنثور : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبيد بن عمير « لما ائتمروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، قال له أبو طالب : هل تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال : يريدون أن يحبسونى أو يقتلونى أو يخرجونى ، قال : من حدّثك بهذا ؟ قال : ربى ، قال : نعم الرب ، وربك فاستوص به خيرا ، قال : أنا أستوصى به ، بل هو يستوصى بى » هذا كلامه . ولم يتعقبه بأن هذا كان بعد موت أبى طالب قال : وكان ائتمارهم يوم السبت .

فقد « سئل صلى الله عليه وسلم عن يوم السبت ؟ فقال : يوم مكر وخديعة ، قالوا : ولم يا رسول الله ؟ قال : إن قريشا أرادوا أن يمكروا فيه بى » أى أرادوا فيه المكر « فأنزل الله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى « فاجتمع أولئك القوم من قريش يتطلعون من صير الباب أى شقه ويرصدونه يريدون بياته : أى يوقعون به الأمر ليلا ويأتمرون أيهم يحمل على المضطجع » وفيه أن ائتمارهم فى ذلك لايناسب مااجتمع رأيهم عليه من أنهم يجتمعون على قتله ليتفرق دمه فى القبائل .

ثم رأيت بعضهم قال : وأحدقوا ببابه صلى الله عليه وسلم وعليهم السلاح يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهرا فيذهب دمه لمشاهدة بنى هاشم قاتله من جميع القبائل فلا يتمّ لهم أخذ ثأره وهو المناسب لما ذكر ، والله أعلم .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم : أى علم مايكون منهم « قال لعلىّ ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : نم على فراشى ، واتشح بردائى هذا الحضرمى ، وقد كان يشهد فيه العيدين ، وقد كان طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان وشبر » وهل كان أخضر أو أحمر ؟ يدل للثانى قول جابر « كان يلبس رداء أحمر فى العيدين والجمعة » ثم رأيت فى بعض الروايات أنه كان أخضر فلينظر الجمع .

وفى سيرة الدمياطى « وارتد بردائى هذا الأحمر » والحضرمى : منسوب إلى حضرموت

التى هى البلدة أو القبيلة باليمن . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسجى بذلك البرد عند نومه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » .

أقول : وأما ماروى « أن الله تعالى أوحى إلى جبريل وميكائيل : إنى قد آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختار كلاهما الحياة فأوحى الله إليهما : ألا كنتما مثل علىّ بن أبى طالب : آخيت بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه ليفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه فنزلا فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه ، فقال جبريل : بخ بخ ، من مثلك يا ابن أبى طالب ؟ باهى الله بك الملائكة ، وأنزل الله عز وجل (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) قال فيه الإمام ابن تيمية : إنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث والسير .

وأيضا قد حصلت له الطمأنينة بقول الصادق له « لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » فلم يكن فيه فداء بالنفس ولا إيثار بالحياة ، والآية المذكورة فى سورة البقرة وهى مدنية باتفاق . وقد قيل إنها نزلت فى صهيب رضى الله تعالى عنه لما هاجر أى كما تقدم ؛ لكنه فى الإمتاع لم يذكر أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ ماذكر ، وعليه فيكون فداؤه للنبى صلى الله عليه وسلم بنفسه واضحا ، ولا مانع من تكرر نزول الآية فى حق علىّ وفى حق صهيب . وحينئذ يكون شرى فى حق علىّ رضى الله تعالى بمعنى باع : أى باع نفسه بحياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفى حق صهيب بمعنى اشترى : أى اشترى نفسه بماله ، ونزول هذه الآية بمكة لا يخرج سورة البقرة عن كونها مدنية ، لأن الحكم يكون للغالب .

وفى السبعيات « أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى أصحابه وقال : أيكم يبيت على فراشى وأنا أضمن له الجنة ، فقال علىّ : أنا أبيت وأجعل نفسى فداءك » هذا كلامه ، ولعله لا يصح .

ثم رأيت فى الإمتاع مايدل لعدم الصحة ، وهو قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغنى بخروجه صلى الله عليه وسلم حين خرج إلا علىّ وأبو بكر الصدّيق ، فليتأمل والله تعالى أعلم .

وكان فى القوم الحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأمية

ابن خلف وزمعة بن الأسود وأبو لهب وأبو جهل ، فقال : وهم على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، أى بضم الهمزة وتشديد النون ، وهو محل بأرض الشام بقرب بيت المقدس ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحترقون فيها ، وسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم وهو يقول : نعم أنا أقول ذلك ، وأخذ حفنة من تراب وتلا قوله تعالى (يس والقرآن الحكيم) إلى قوله (فأغشيناهم فهم لايبصرون) فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه .

وفى مسند الحارث بن أبى أسامة عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه ذكر فى فضل (يس) أنها إن قرأها خائف أمن ، أو جائع شبع ، أو عار كسى ، أو عاطش سقى ، أو سقيم شفى» «وعند خروجه صلى الله عليه وسلم جعل ينثر التراب على رءوسهم ، فلم يبق رجل إلا وضع على رأسه ترابا ثم انصرف إلى حيث أراد ، فأتاهم آت ، فقال : ماتنتظرون ههنا ؟ قالوا محمدا ، فقال : قد خيبكم الله ، والله خرج عليكم محمد ثم ماترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب» . قال فى النور وهذا يعارضه حديث مارية خادم النبي صلى الله عليه وسلم تكنى أم الرباب «أنها طأطأت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد حائطا ليلة فر من المشركين» وينبغى أن يوفق بينهما إن صحا وإلا فالعبرة بالصحيح منهما هذا كلامه .

أقول : التوفيق حاصل ، وهو أنه يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لم يحب أن يخرج عليهم من الباب فتسور الحائط التى نزل منها عليهم والله أعلم ، أى وكان ذهابه صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة إلى بيت أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فكان فيه إلى الليل : أى إلى الليلة المقبلة ، ثم خرج هو وأبوبكر رضى الله تعالى عنه ، ثم مضيا إلى جبل ثور كذا فى سيرة الدمياطى ثم أى بعد إخبارهم بخروجه صلى الله عليه وسلم ووضعه التراب على رءوسهم جعلوا يطلعون فيرون عليا نائما على الفراش مسجى ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا محمد نائما عليه برده ، فلم يزالوا كذلك ، أى يريدون أن يوقعوا به الفعل ، والله مانع لهم من ذلك «حتى أصبحوا واتضح النهار ،

فقام عليّ رضى الله تعالى عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذى كان حدّثنا ، أى ولما قام عليّ رضى الله تعالى عنه سألوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لا علم لى به وفى رواية : « فلما أصبحوا ساروا إليه يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا عليا رضى الله تعالى عنه ردّ الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك ؟ قال لا أدرى ، فأنزل الله تعالى قوله (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وأنزل الله عز وجل (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) كذا فى الأصل تبعا لابن إسحاق ، ولا يخفى أن الآية الثانية موفية بما ذكروه من المشاورة .

قال : والمانع من اقتحام الجدار عليه فى الدار مع قصر الجدار وقد جاءوا لقتله ، أنهم هموا بذلك فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : إنها لسبة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمنا انتهى .

أقول : لا يخفى أن هذا لا يناسب ما قدمناه عن بعضهم أنهم إنما أرادوا قتله صلى الله عليه وسلم عند طلوع الفجر ليظهر لبنى هاشم قاتلوه فلا يثبوا عليه لئلا يتسور الجدار ، إلا أن يقال إرادة ذلك منهم كانت عند طلوع الفجر ، ووجود الأسباب المانعة لهم من الوثوب عليه لا ينافى أن المانع لهم عن الوثوب عليه الذى جاءوا بصدده وهم مائة رجل من صناديد قريش ، إنما هى حماية الله تعالى الموجبة لخذلانهم وإظهار عجزهم ، وفى ذلك تصديق لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال لعلى « لا يخلص إليك شئ تكرهه منهم » على ما تقدم ؛ والمراد بقول بعضهم : كان المشركون يرمون عليا يظنون أنه النبى صلى الله عليه وسلم يرمونه بأبصارهم لا بنحو حجارة أو نبل كما لا يخفى .

فإن قيل : هلا نام صلى الله عليه وسلم على فراشه ؟ قلنا لو فعل ذلك لفات ، إذلالهم بوضع التراب على رءوسهم وإظهار حماية الله تعالى له بخروجه عليهم ولم يبصره أحد منهم . وفى رواية « أنهم تسوروا عليه صلى الله عليه وسلم ودخلوا شاهرين سيوفهم ، فثار على فى وجوههم فعرفوه ، فقالوا : هو أنت أين صاحبك ؟ فقال : لا أدرى » وهذا مخالف لما تقدم ، فلينظر الجمع بناء على صحة هذا .

وفى لفظ : « أمروه بالخروج فضربوه وأدخلوه المسجد وحبس به ساعة ثم خلوا عنه » والله أعلم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن له فى الهجرة إلى المدينة ، أى وأنزل الله تعالى عليه (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) قال زيد بن أسلم : جعل الله عز وجل مدخل صدق المدينة ، ومخرج صدق مكة وسلطانا نصيرا الأنصار .

ويعارضه ماجاء « أن عند رجوعه صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة قال له جبريل : سل ربك ، فإن لكل نبى مسألة ، فقال : ماتأمرنى أن أسأله ؟ قال : قل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ، فأنزل الله تعالى عليه ذلك فى رجعته من تبوك بعد ماختمت السورة » أى إلا أن يدعى تكرار النزول « وعند الإذن له صلى الله عليه وسلم فى الهجرة قال لجبريل : من يهاجر معى ؟ قال جبريل : أبو بكر الصديق » .

أى ومن الغريب قول بعضهم : ومن ذلك اليوم سماه الله تعالى صدّيقا ، فقد تقدم أن تسميته بذلك كان عند تصديقه له صلى الله عليه وسلم عند إخباره بالإسراء ، وعن صفة بيت المقدس .

ومن الغريب أيضا مافى السبعيات « أن النبى صلى الله عليه وسلم تشاور مع أصحابه ، فقال : أيكم يوافق معى ويرافقنى ، فقد أمرنى الله تعالى بالخروج من مكة إلى المدينة ؟ فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أنا يارسول الله » .

ويرده مافى السير « أنه صلى الله عليه وسلم أتى أبا بكر ذات يوم ظهرا ، فناداه فقال أخرج من عندك ، فقال : يارسول الله إنما هما ابنتاى يعنى عائشة وأسماء رضى الله تعالى عنهما ، قال شعرت : أى علمت أنه قد أذن لى فى الهجرة ؟ فقال : يا رسول الله الصحبة » أى أسألك الصحبة « فقال : أى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحبة » أى لك الصحبة عندى « فانطلقا » أى ليلا كما تقدم عن سيرة الدمياطى ، لكن تقدم عنها أنه دخل بيت أبى بكر فى ليلة خروجه من على فراشه ؛ وأنه مكث ببيت أبى بكر إلى الليلة القابلة التى كان فيها خروجه صلى الله عليه وسلم إلى جبل ثور ، فيحتاج إلى الجمع .

وقد يقال : إن مجيئه صلى الله عليه وسلم ظهرا كان قبل تلك الليلة ، ومع خروجهما خرجا مستخفين حتى أتيا الغار وهو بجبل ثور ، فتواريا فيه .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال عند خروجه من

مكة أى متوجها إلى المدينة « والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ماخرجت » .

أى وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم وقف » أى على راحلته « بالحزورة ونظر إلى البيت وقال: والله إنك لأحب أرض الله إلى، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك قهرا ماخرجت » .

وفى لفظ « أنه صلى الله عليه وسلم وقف فى وسط المسجد والتفت إلى البيت فقال : إنى لأعلم ماوضع الله بيتا أحب إلى الله منك ، وما فى الأرض بلد أحب إليه منك ، وما خرجت منك رغبة ، ولكن الذين كفروا أخرجونى » .

أى وهذا السياق يدل على أن وقوفه صلى الله عليه وسلم على الحزورة أو فى وسط المسجد يقتضى أنه جاء بعد خروجه من الغار إلى ماذكر ، ثم ذهب إلى المدينة . وفى رواية « وقف صلى الله عليه وسلم على الحجون وقال :والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله، ولو لم أخرج منك ماخرجت » وفى لفظ « ولو تركت فيك لما خرجت منك » ولا مانع من تكرر ذلك . ثم رأيت فى كلام بعضهم أن وقوفه صلى الله عليه وسلم على الحجون كان فى عام الفتح . وفى لفظ آخر « قال لمكة : ماأطيبك من بلدة وأحبك إلىّ ، ولولا أن قومى أخرجونى ماسكنت غيرك » .

أى وفى [جمال القراء] للسخاوى « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما توجه مهاجرا إلى المدينة وقف ونظر إلى مكة وبكى ، فأنزل الله عز وجل عليه (وكأين من قرية هى أشد قوة) الآية » .

وأمّا ماروى الحاكم عن أبى هريرة مرفوعا « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البقاع إلىّ فأسكنى فى أحب البقاع إليك » فقال الذهبى : إنه موضوع . وقال ابن عبد البر : لا يختلف أهل العلم أنه منكر موضوع .

أقول : والذى رأيته عن المستدرك للحاكم « اللهم : إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلىّ فأسكنى أحب البلاد إليك » والمعنى واحد، وإليه وإلى ما روى عن الزهرى « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىّ فأسكنى أحب البــلاد إليك » استند من قال بتفضيل المدينة على مكة ، قال : لأن الله تعالى أجاب دعاءه فأسكنه المدينة . قيل وعليه جمهور العلماء ، ومنهم الإمام مالك رضى الله تعالى عنه . وإلى الأحاديث الأول استند من

قال بتفضيل مكة على المدينة وهم الجمهور ، ومنهم إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه ، واستندوا فى ذلك إلى أنه صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع « أىّ بلد تعلمونه أعظم حرمة ؟ قالوا لانعلم إلا بلدنا هذه » يعنون مكة ، وهذا إجماع من الصحابة أقرهم عليه صلى الله عليه وسلم أنها : أى مكة أفضل من سائر البلاد ، لأن ماكان أعظم حرمة فهو أفضل . وقد قال صلى الله عليه وسلم « المقام بمكة سعادة ، والخروج منها شقاوة » وقال صلى الله عليه وسلم « من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام » .

قال ابن عبد البر : وإنى لأعجب ممن ترك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله « والله إنى لأعلم أنك خير أرض وأحبها إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ماخرجت » وهذا حديث صحيح ، ويميل إلى تأويل لايجامع ما تأوله عليه : أى ولأن الحسنة فيها بمائة ألف حسنة . فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من حج ماشيا كتبت له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل : وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة فيه بمائة ألف حسنة » .

والكلام فى غير ماضم أعضاءه الشريفة صلى الله عليه وسلم من أرض المدينة ، وإلا فذاك أفضل بقاع الأرض بالإجماع ، بل حتى من العرش والكرسى .

على أن صاحب [عوارف المعارف] ذكر أن الطوفان موّج تلك التربة المكرمة عن محل الكعبة حتى أرساها بالمدينة ، فهى من جملة أرض مكة . وحينئذ لا يحسن الاستناد فى تفضيل المدينة على مكة بقول أبى بكر رضى الله تعالى عنه إنهم لما اختلفوا فى أى محل يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبضه الله إلا فى أحب البقاع إليه ليدفن فيه كما سيأتى ، والله أعلم .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت « بينا نحن جلوس يوما فى بيت أبى بكر الصديق فى نحر الظهيرة » أى وسطها وهو وقت الزوال « قال قائل لأبى بكر » أى وهذا القائل هى أسماء بنت أبى بكر . وفى كلام بعض الحفاظ : يحتمل أن يفسر بعامر بن فهيرة أى مولى أبى بكر « قالت أسماء: قلت : يا أبت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا » أى متطيلسا « فى ساعة لم يكن يأتينا فيها » أى فعن عائشة رضى الله تعالى عنها « لم يمر علينا يوم » أى قبل الهجرة « إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا »

وفى لفظ « كان لا يخطئ أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشيا » أى ويحتاج إلى الجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحة الثانية وإلا فالأولى فى البخارى . وتفسير التقنع بالتطيلس ذكره الحافظ ابن حجر ، بحيث قال : قوله : متقنعا : أى متطيلسا ، وهو أصل فى لبس الطيلسان ، هذا كلامه .

واعترضه ابن القيم حيث قال : لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه لبس الطيلسان ولا أحد من أصحابه . وحينئذ لا يكون القناع هنا هو الطيلسان ، بل التقنع تغطية الرأس وأكثر الوجه بالرداء من غير أن يجعل منه شىء تحت رقبته الذى يقال له التحنيك . وحمل قول ابن القيم المذكور على الطيلسان المقوّر التى تلبسها اليهود . قال بعضهم : وهذا الطيلسان المقور هو المعروف بالطرحة ، وقد اتخذت خلفاء بنى العباس الطرحة السوداء على العمامة عند الخطبة ، واستمر ذلك شعارا للخلفاء .

فالحاصل أن ما يغطى به الرأس مع أكثر الوجه إن كان معه تحنيك : أى إدارة على العنق قيل له طيلسان ، وربما قيل له رداء مجازا ، وإن لم يكن معه تحنيك ، قيل له رداء أو قناع ، وربما قيل له مجازا طيلسان : وهو ما كان شعارا فى القديم لقاضى القضاة الشافعى خاصة . قال بعضهم : بل صار شعارا للعلماء ، ومن ثم صار لبسه يتوقف على الإجازة من المشايخ كالإفتاء والتدريس . وكان الشيخ يكتب فى إجازته : وقد أذنت له فى لبس الطيلسان ، لأنه شهادة بالأهلية ، وما يجعل على الأكتاف دون الرأس يقال له رداء فقط ، وربما قيل له طيلسان أيضا مجازا . وصح عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وله حكم المرفوع « التقنع من أخلاق الأنبياء » . وقد ذكر بعضهم أن الطيلسان الخلوة الصغرى وفى حديث « لا يتقنع إلا من استكمل الحكمة فى قوله وفعله » وكان ذلك من عادة فرسان العرب فى المواسم والجموع كالأسواق .

وأول من لبس الطيلسان بالمدينة جبير بن مطعم رضى الله تعالى عنه . وعن الكفاية لابن الرفعة أن ترك الطيلسان للفقيه مخلّ بالمروءة أى وهو بحسب ما كان فى زمنه رحمه الله . وفى الترمذى « لم تكن عادته صلى الله عليه وسلم التقنع إنما كان يفعله لحر أو برد » . وتعقب بأن فى حديث أنس « أنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر التقنع » وفى طبقات ابن سعد مرسلا أنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هذا ثوب لا يؤدى شكره » أى لأن فيه غض البصر ، ومن ثم قيل إنه الخلوة الصغرى كما تقدم .

ولما قيل لأبى بكر رضى الله تعالى عنه ذلك ، أى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا ، قال أبو بكر : فدا له أبى وأمى ، والله ماجاء به فى هـذه الساعة إلا أمر ، قال : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل ، أى وتنحى أبو بكر عن سريره وجلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله تعالى عنه : « أخرج من عندك ، قال أبو بكر : إنما هى أهلك » أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان عقد على عائشة رضى الله تعالى عنها كما تقدم ، فأمها من جملة أهله وأختها كذلك ، وقيل هو على حدّ قول الشخص لآخر أهلى أهلك . وفى رواية « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : لاعين عليك إنما هما ابنتاى » أى وسكت عن أمهما سترا « قال : فإنه قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله بأبى أنت وأمى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ، أى فبكى أبو بكر سرورا ؟ قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : فرأيت أبا بكر يبكى ، وما كنت أحسب أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر » ولله درّ القائل :

ورد الـكتاب من الحبيب بأنه   سيزورنى فاستعبرت أجفـانى
غلب السرور علىّ حتى إننى   من فرط ما قد سرنى أبكانى
ياعين صار الدمع عندك عادة   تبكين من فرح ومن أحزان

أى ومنه : أقرّ الله عينه لمن يدعى له ، وهو قرّة عين لمن يفرح به . وأسخن عينه لمن يدعى عليه : وهو سخنة العين لما يحزن به ، لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة .

وقد روى « أن نبيا من الأنبياء اجتاز بحجر يخرج منه الماء ، فسأل ربه عن ذلك ؟ فأنطق الله تعالى الحجر ، فقال : منذ سمعت أن لله تعالى نارا وقودها الناس والحجارة وأنا أبكى هـذا الدمع خوفا من تلك النار ، فاشفع لى عند ربك ، فشفع له ، فشفع فيـه وبشره بذلك . ثم مرّ به بعدمدة فإذا الماء يخرج منه ، فقال : ألم أبشرك أن الله أنجاك من النار فما هذا ؟ فقال : يانبىّ الله ذاك بكاء الخوف والخشية ، وهذا بكاء الفرح والسرور » ومن ثم لما قال صلى الله عليه وسلم لأبىّ بن كعب « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا : أى لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ـ بكى من الفرح ، وقال : أو ذُكِرْتُ هناك ؟» أى ذكرنى الله عز وجل » وفى لفظ « وسمانى ؟ قال نعم » .

وفى سفر السعادة قال العلماء : البكاء على عشرة أنواع : بكاء فرح ، وبكاء حزن لما فات ، وبكاء رحمة ، وبكاء خوف لمـا يحصل ، وبكاء كذب كبكاء النائحة فإنها تبكى بشجو غيرها ، وبكاء موافقة بأن يرى جماعة يبكون فيبكى مع عدم علمه بالسبب ، وبكاء المحبة والشوق ، وبكاء الجزع من حصول ألم لا يحتمله ، وبكاء الخور والضعف ، وبكاء النفاق ، وهو أن تدمع العين والقلب قاس . والبكى بالقصر : دمع العين من غير صوت . والممدود : ماكان معه صوت . وأما التباكى فهو تكلف البكاء . وهو نوعان : محمود ومذموم ؛ فالأول مايكون لاستجلاب رقة القلب ، وهو المراد بقول سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه لما رأى المصطفى صلى الله عليه وسـلم وأبا بكر يبكيان فى شأن أسارى بدر : أخبرنى مايبكيك يارسول الله ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت ، ومن ثم لم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم ذلك . والثانى ما يكون لأجل الرياء والسمعة .

قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت وأمى يا رسول الله إحـدى راحلتىّ هاتين ، فإنى أعددتهما للخروج ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل بالثمن » أى لتكون هجرته صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى بنفسه وماله ، أى وإلا فقد أنفق أبو بكر رضى الله تعالى عنه أكثر ماله عليه صلى الله عليه وسلم : أى فعن عائشة رضى الله تعالى عنها : « أنفق أبو بكر على النبى صلى الله عليه وسلم أربعين ألف درهم» . وفى لفظ « دينار » ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « ليس من أحد أمنّ علىّ فى أهل ومال من أبى بكر » وفى رواية « ما أحد أمنّ على فى صحبته وذات يده من أبى بكر ، ومانفعنى مال مانفعنى مال أبى بكر ، فبكى أبو بكر وقال : هل أنا ومالى إلا لك يارسول الله ؟ » وفى رواية « مالأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا الله يكافئه بها يوم القيامة » .

أقول : ولا ينافى كونه صلى الله عليه وسلم أخذ إحدى ناقتى أبى بكر بالثمن ما رواه أبان بن أبى عياش أحد التابعين عن أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله تعالى عنه « ما أطيب مالك : منه بلال مؤذنى ، وناقتى التى هاجرت عليها ، وزوجتنى ابنتك وواسيتنى بمالك كأنى أنظر إليك على باب الجنة تشفع لأمتى » لأن أبان بن أبى عياش معدود من الضعفاء .

وقد قال شعبة : لأن أشرب من بول حمار حتى أروى أحبّ إلىّ من أن أقول حديثا عن أبان بن أبى عياش ، وقال فيه مرة أخرى : لأن يزنى الرجل خير من أن يروى عن

أبان . وقد طلب من شعبة أن يكف عن أبان هذا ، فقال : الأمر دين ، وهذا يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد بين ابن حبان عذر أبان بأنه كان يروى عن أنس وأبان مجالس الحسن البصرى فكان يسمع كلامه ، فإذا حدث ربما جعل كلام الحسن عن أنس مرفوعا وهو لا يعلم . وعلى تقدير صحة ما قاله لا منافاة أيضا ، لأنها كانت من مال أبى بكر قبل أن يأخذها صلى الله عليه وسلم بثمنها .

على أن فى الترمذى مايوافق ما رواه أبان . ففيه عن علىّ رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أبا بكر ، زوّجنى ابنته ، وحملنى إلى دار الهجرة وصحبنى فى الغار ، وأعتق بلالا من ماله » .

قال : وهذا حديث غريب والله أعلم .

وكان الثمن عن تلك الناقة التى هى القصواء ، وقد عاشت بعده صلى الله عليه وسلم ، وماتت فى خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه أو الجدعاء أربعمائة درهم ، أى لما علمت أن الناقتين اشتراهما أبو بكر بثمانمائة درهم .

وأما ناقته صلى الله عليه وسلم العضباء فقد جاء « أن بنته فاطمة رضى الله تعالى عنها تحشر عليها » .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها « فجهزناهما أحب الجهاز » أى أسرعه . والجهاز : بكسر الجيم أفصح من فتحها . مايحتاج إليه فى السفر « ووضعنا لهما سفرة فى جراب » أى زادا فى جراب ، لأن السفرة فى الأصل الزاد الذى يصنع للمسافر ، ثم استعمل فى وعاء الزاد « وكان فى السفرة شاة مطبوخة فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب أى وأبقت الأخرى نطاقا لها » وهو يوافق مافى صحيح مسلم عن أسماء رضى الله تعالى عنها أنها قالت للحجاج : بلغنى أنك تقول أى لولدها عبد الله بن الزبير تعيره بابن ذات النطاقين ، أما أنا والله ذات النطاقين ؛ أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وأما الآخر فنطاق المرأة : أى الذى لا تستغنى عنه ، أى عند اشتغالها ؛ لأن النطاق ما تشدّ به المرأة وسطها لئلا تعثر فى ذيلها على ثوب يلقى على أسفله . وقيل النطاق إزار فيه تكة ؛ ومن ثم جاءت ذات النطاق : أى وكلاهما صحيح ، لكن فى لفظ « قطعت نطاقها قطعتين ، فأوكت بقطعة منه فم الجراب ، وشدّت فم القربة بالباقى » ، أى فلم يبق لها شىء منه [ ]

ويوافقه ماقى البخارى عن أسماء : لم نجد لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى لمحلها الذى هو الجراب ولا لسقائه الذى هو القربة ما نربطهما به ، فقلت لأبى بكر : لا والله ما أجد شيئا أربط به إلا نطاقى ، قال فشقيه اثنين ، واربطى بواحد السقاء الذى هو القربة وبواحد السفرة ففعلت ، فلذلك سميت ذات النطاقين : أى سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة » .

وفيه أن الرواية الأولى التى عن عائشة ، والرواية الثانية التى عن أسماء رواها مسلم لم يذكر السقاء . وفى رواية البخارى ذكر السقاء وإسقاط الجراب ، لكن ذكر بعد الجراب السفرة .

وقد يقال : المراد بربط السفرة ربط محلها الذى هو الجراب كما أشار إليه . قال بعضهم : وما تقدم عن مسلم ينبغى أن يكون أقرب إلى الضبط ، لأن أسماء قالت فى آخر عمرها مخبرة عن نفسها : أى ولم تربط إلا الجراب بأحد شقى النطاق وأبقت لها الآخر .

وقد يقال : الحصر ليس فى محله لمنافاته لرواية البخارى . وحينئذ يجمع بأنه بجوازها لما شقت النطاق نصفين قطعت أحدهما قطعتين ، فشدت بإحداهما الجراب والأخرى السقاء ، فهى ذات النطاقين الذى أبقته ، والذى فعلت به ماذكر .

وفى السيرة الهشامية أن أسماء بنت أبى بكر جاءت إليهما لما نزلا من الغار بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما فدهشت لغلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فشقت نطاقها فجعلته عصاما فعلقتها به وانتطقت الآخر : أى وهذا يدل على أن المراد بقول عائشة: فجهزناهما أحب الجهاز : أى عند خروجهما من الغار ، لاعند ذهابهما إلى الغار كما قد يتبادر من السياق . ثم على المتبادر جرى ابن الجوزى حيث قال : أسماء بنت أبى بكر أسلمت بمكة قديما ، وبايعت وشقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدا لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر عصاما لقربته ، فسميت ذات النطاقين هذا كلامه .

وقد قال : لامانع من تعدد ذلك ، وكون النطاق ماتشد به المرأة وسطها لئلا تعثر فى ذيلها يخالفه قول بعضهم : النطاق هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل ، وهذا يوافق القيل المتقدم ، ولعل له إطلاقين ، ويوافق الثانى ماقيل أول من فعله هاجر أم إسمعيل ، اتخذته لتخفى أثر مشيتها على سارة ، ولعله عند خروجها

لما أمره الله عز وجل بإخراجها مع إبراهيم، فيذهب بها إلى مكة قبل أن تركب مع إبراهيم على البراق .

« ثم استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل ، وهو عبد الله بن أريقط » ويقال ابن أرقط أو أرقد اسم أمه ، فأريقط مصغرها « ليدلهما على الطريق للمدينة » وكان على دين قريش ، أى ثم أسلم بعد ذلك . وقيل لم يعرف له إسلام .

وفى الروض ماوجدنا من طريق صحيح أنه أسلم بعد ذلك « فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه على جبل ثور بعد ثلاث ليال » وقيل للجبل ذلك لأنه على صورة الثور الذى يحرث عليه ، وسياق النسائى يدل على أن استئجار عبد الله المذكور كان قبل التجهيز .

« قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور » أى ليلا كما تقدم .

وعن ابن سعد : « لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته إلى بيت أبى بكر رضى الله تعالى عنه فكان فيه إلى الليل ، ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه » أى وكان خروجهما من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر» . فعن عائشة بنت قدامه رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لقد خرجت من الخوخة متنكرا فكان أول من لقينى أبو جهل لعنه الله فأعمى الله بصره عنى » وعن أبى بكر « حتى مضينا » .

وفى كلام سبط ابن الجوزى : وعن وهب بن منبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خرج إلى الغار من بيت أبى بكر، فخرج من خوخة فى ظهر الدار . والأصح إنما كان خروجه من بيت نفسه .

« وجعل أبو بكر رضى الله تعالى عنه يمشى مرة أمام النبى صلى الله عليه وسلم ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : يارسول الله ، أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك لا آمن عليك » .

أقول : فى الدر المنثور « فمشى صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض حتى حفيت رجلاه ، فلما رآهما أبو بكر قد حفيتا حمله على كاهله وجعل يشتد به حتى أتى على فم الغار فأنزله » وفى لفظ « لم يصب رسول الله صلى الله عليه

وسلم الغار حتى قطرت قدماه دما » وفى كلام السهيلى عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه قال : « نظرت إلى قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وقد تقطرتا دما » .

قال بعضهم : ويشبه أن يكون ذلك من خشونة الجبل ، وإلا فبعد المكان لايحتمل ذلك أو لعلهم ضلوا طريق الغار حتى بعدت المسافة ، ويدل عليه قوله : فمشى ليلته رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ فانتهينا « إلى الغار مع الصبح » ولا يحتمل ذلك مشى لياته إلا بتقدير ذلك ، أو أنه صلى الله عليه وسلم كما قيل ذهب إلى جبل حنين فناداه اهبط عنى ، فإنى أخاف أن تقتل على ظهرى فأعذب ، فناداه جبل ثور : إلىّ يارسول الله وساق فى الأصل رواية تقتضى أنه ذهب إلى غار ثور راكبا ناقته الجدعاء . ثم رأيته فى النور أشار إلى أن ركوبه صلى الله عليه وسلم الجدعاء إنما كان بعد خروجه من الغار ، لأنه ركبها من منزل أبى بكر إلى الغار كما هو ظاهر الرواية .

وفى الخصائص الكبرى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « لما تشاور المشركون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطلع الله نبيه على ذلك ، فخرج تلك الليلة حتى أتى الغار ، فلما أصبحوا اقتفوا أثره صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغوا الجبل » الحديث ، أى وهو مخالف لما تقدم من أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الغار كان فى الليلة الثانية لا فى ليلة خروجه على قريش .

وقد يقال : لامنافاة ، لأن قوله : حتى لحق بالغار غاية لمطلق الخروج من بيته لافى خصوص تلك الليلة ، أى خرج من بيته واستمر على خروجه حتى لحق بالغار وذلك فى الليلة الثانية ، لكن تقدم أنه صلى الله عليه وسلم جاء إلى بيت أبى بكر متقنعا فى وقت الظهيرة فليتأمل .

وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بخروجه إلى الهجرة وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس ، لأنه لم يكن بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من أمانته ، أى ولعل إعلام علىّ بذلك كان عند توجهه صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبى بكر ، لأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بعلى رضى الله تعالى عنه بعد ذلك إلا فى المدينة لكن سيأتى عن الدرّ مايقتضى أنه اجتمع به عند خروجه من الغار .

وفى الفصول المهمة « أنه صلى الله عليه وسلم وصى عليا رضى الله تعالى عنه بحفظ

خدمته وأداء أمانته ظاهرا على أعين الناس، وأمره أن يبتاع رواحل للفواطم» : فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ولمن هاجر معه من بنى هاشم ومن ضعفاء المؤمنين ، وشراء على رضى الله عنه الرواحل مخالف لما يأتى فى الأصل « أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى علىّ حلة وأرسل يقول : تشقها خمرا بين الفواطم ، وهى فاطمة ابنة حمزة ، وفاطمة بنت عتبة ، وفاطمة أم على، وفاطمة بنته صلى الله عليه وسلم» وإرساله لتلك الحلة كان بعد وصوله إلى المدينة فليتأمل .

قال فى الفصول المهمة : وقال له : أى لعلىّ « إذا أبرمت ماأمرتك به كن على أهبة الهجرة إلى الله ورسوله ، وبقدوم كتابى عليك، وإذا جاء أبو بكر توجهه خلفى نحو بئر أم ميمون » وكان ذلك فى فحمة العشاء ، والرصد من قريش قد أحاطوا بالدار ينتظرون أن تنتصف الليلة وتنام الناس ، ودخل أبوبكر على علىّ وهو يظنه : أى وأبو بكر يظن عليا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له علىّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج نحو بئر أم ميمون ، وهو يقول لك : أدركنى ، فلحقه أبو بكر ، ومضيا جميعا يتسايران حتى أتياجبل ثور فدخلا الغار ، فليتأمل الجمع بينه وبين ماتقدم .

« ولما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق لاتدخل حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك ، فدخل رضى الله تعالى عنه فجعل يلتمس بيده كلما رأى جحرا قال بثوبه فشقه ، ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بجميع ثوبه ، فبقى جحر ، وكان فيه حية فوضع عقبه عليه ، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن الحية التى فى الجحر لما أحست بعقب سيدنا أبى بكر جعلت تلسعه وصارت دموعه تتحدر » قال ابن كثير : وفى هذا السياق غرابة ونكارة « أى وقد كان صلى الله عليه وسلم وضع رأسه فى حجر أبى بكر رضى الله تعالى عنه ونام، فسقطت دموع أبى بكر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مالك يا أبا بكر ؟ قال: لدغت» بالدال المهملة والغين المعجمة « فداك أبى وأمى، فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على محل اللدغة فذهب مايجده » قال بعضهم : وقاه بعقبه فبورك فى عقبه .

قال بعضهم : والسر فى اتخاذ رافضة العجم اللباد المقصص على رءوسهم تعظيما للحية التى لدغت أبا بكر فى الغار ، أى لأنهم يزعمون أن ذلك على صورة تلك الحية .

« ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأبى بكر : أين ثوبك ؟ فأخبره

الحبر » زاد فى رواية « وأنه رأى على أبى بكر أثر الورم فسأل عنه، فقال : من لدغة الحية، فقال صلى الله عليه وسلم : هلا أخبرتنى ؟ قال : كرهت أن أوقظك فمسحه النبى صلى الله عليه وسلم فذهب مابه من الورم والألم » .

أى ويحتاج إلى الجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتهما « وحين أخبره أبو بكر بذلك رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة ، فأوحى الله تعالى إليه : قد استجاب الله لك » .

وروى أنه لما صار يسد كل جحر وجده أصاب يده ما أدماها ، فصار يمسح الدم عن أصبعه وهو يقول :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وسيأتى أن هذا البيت من كلام ابن رواحة . وقيل من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وأنه يجوز أن يكون ابن رواحة ضم ذلك البيت لأبياته .

ومما قد يؤيد أن ذلك من كلامه صلى الله عليه وسلم ما ذكره سبط ابن الجوزى « أن أبا بكر لما لحقه صلى الله عليه وسلم فى أثناء الطريق ظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار فأسرع فى المشى ، فانقطع قبال نعله ، ففلق إبهامه حجر فسال الدم ، فرفع أبو بكر صوته ليعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفه » .

ومما يصرح بذلك مارأيت عن جندب البجلى قال « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غار كذا فدميت أصبعه فذكر البيت المذكور » وأراد بالغار غارا من الغيران لا هذا الغار كما توهم .

وجاء فى الصحيحين عن جندب بن عبدالله « بينا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أصابه حجر فدميت أصبعه ، فقال : هل أنت إلا إصبع دميت » . . . البيت .

« أى ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار أمر الله تعالى شجرة » أى وهى التى يقال لها العشار ، وقيل أم غيلان « فنبتت فى وجه الغار فسترته بفروعها » .

« أى ويقال إنه صلى الله عليه وسلم دعا تلك الشجرة وكانت أمام الغار فأقبلت حتى وقفت على باب الغار وأنها كانت مثل قامة الإنسان وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها » أى نسجا مترا كبا بعضه على بعض أى كنسج أربع سنين كما قال بعضهم .

وقد نسج العنكبوت أيضا على عبد الله بن أنيس رضى الله تعالى عنه لما قتل سفيان بن خالد وقطع رأسه وأخذها ودخل فى غار فى الجبل وكنّ فيه حتى انقطع عنه الطلب كما سيأتى . ونسج على نبى الله داود لما طلبه طالوت . ونسج أيضا على عورة سيدنا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم ، وهو أخو الإمام محمد الباقر وعم الإمام جعفر الصادق ، وهو الذى ينسب إليه الزيدية كان إماما مجتهدا ، وكان ممن أخذ عن واصل بن عطاء الآخذ عن الحسن البصرى .

ولما أثبت ابن عطاء المنزلة بين المنزلتين أمره الحسن البصرى باعتزال مجلسه ، فقيل له معتزلى ، وصار يقال لأصحابه معتزلة .

ولا يلزم من كون شيخ سيدنا زيد معتزليا أن يسلك زيد مسلكه . وصلب سيدنا زيد عريانا ، وأقام مصلوبا أربع سنين ، وقيل خمس سنين فلم ترعورته ، وقيل إن بطنه الشريف ارتخى على عورته فغطاها . ولامانع من وجود الأمرين . وكان عند صلبه وجهه إلى غير القبلة فدارت خشبته التى صلب عليها إلى أن صار وجهه إلى القبلة . أى وقد وقع لخبيب نحو ذلك كما سيأتى ، ثم أحرقوا خشبة زيد وجسده وذرى رماده فى الرياح على شاطىء الفرات ، فإنه خرج على هشام بن عبد الملك وقد سمت نفسه للخلافة ، فحاربه يوسف بن عمر الثقفى أمير العراقين من قبل هشام بن عبد الملك ، فانهزم أصحاب زيد عنه بعد أن خذله وانصرف عنه أكثرهم .

فقد بايعه ناس كثير من أهل الكوفة وطلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين أبى بكر وعمر لينصروه ، فقال : كلا ، بل أتولاهما ، فقالوا إذن نرفضك ، فقال : اذهبوا فأنتم الرافضة ، فسموا بذلك من حينئذ رافضة . وجاءت إليه طائفة وقالوا : نحن نتولاهما ونبرأ ممن يبرأ منهما وقاتلوا معه فسموا الزيدية .

أقول : والعجب ممن يتمذهب بمذهب سيدنا زيد ، ويتبرأ من الشيخين ويكرههما ويكره من يذكرهما بخير ، بل ربما سبهما .

وعند مقاتلته أصابته جراحات وأصابه سهم فى جبهته وحال الليل بين الفريقين ، فطلبوا حجاما من بعض القرى لينزع له النصل ، فاستخرجه فمات من ساعته ، فدفنوه من ساعته ، وأخفوا قبره ، وأجروا عليه الماء ، واستكتموا الحجام ذلك ، فلما أصبح

الحجام مشى إلى يوسف بن عمر متنصحا وأخبره ، ودله على موضع قبره ، فاستخرجه وبعث برأسه إلى هشام . فكتب إليه هشام أن اصلبه عريانا فصلبه كذلك .

ويقال إن هشام بن عبد الملك قال يوما لزيد : بلغنى أنك تريد الخلافة ولا تصلح لك لأنك ابن أمة ، فقال : قد كان إسماعيل ابن أمة وإسحاق ابن حرة ، فأخرج الله من صلب إسماعيل خير ولد آدم ، فقال له هشام : قم ، قال : إذن لا ترانى إلا حيث تكره . ومن شعره :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

قيل ورأس زيد دفنت بمصر القديمة بمسجد يقال له مشهد زين العابدين بن الحسين . وكذلك وقع فى طبقات الشيخ الشعرانى ، نفعنا الله به وببركاته ، وليس كذلك ؛ بل هو محل زيد بن زين العابدين كما ذكره المقريزى فى الخطط ، ويقال له زيد الأزياد .

وذكر فى حياة الحيوان أن ما ينسجه العنكبوت يخرج من خارج جلدها لا من جوفها وعن علىّ رضى الله تعالى عنه « طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت ، فإن تركه فى البيوت يورث الفقر » .

وأمر الله تعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار : أى ويروى « أنهما باضتا » أى وفرختا ، قال لأبى بكر : « ضع قدمك موضع قدمى ، فإن الرمل لا ينم » وتقدم ما فى ذلك : أى لأن المشركين لما فقدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شق عليهم ذلك وخافوا ذلك وطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة : أى الذين يقصون الأثر فى كل وجه يقفون أثره ، فوجدوا الذى ذهب إلى جبل ثور أثره ، وقال ماتقدم .

« وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم ، أى ولما أقبلوا أشفق صلى الله عليه وسلم على صهيب وخاف عليه ، وقال : واصهيباه ولا صهيب لى » أى لأنه تواعد معهما أن يكون ثالثهما « فلما أراد صلى الله عليه وسلم الخروج للغار أرسل له أبو بكر مرتين أو ثلاثا فوجده يصلى ، فقال : يا رسول الله وجدت صهيبا يصلى فكرهت أن أقطع عليه صلاته ، فقال أصبت » وتقدمت الحوالة على هذا .

« فلما كان فتيان قريش على أربعين ذراعا من الغار تعجل بعضهم ينظر فى الغار ، فلم ير إلا حمامتين وحشيتين أى مع العنكبوت ، فقال : ليس فيه أحد ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم ما قال ، فعرف أن الله عز وجل قد درأ عنه أى دفع عنه » .

وفى رواية « فلما انتهوا إلى فم الغار ، قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما أربكم » أى حاجتكم إلى الغار « إن عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم » أى ولو دخل الغار لانفتح ذلك العنكبوت وتكسر البيض . وهذا يدل على أن البيض لم يكن فرخ : أى ويحتمل أن بعض البيض فرخ وبعضه لم يفرخ « ثم جاء قبالة فم الغار فبال ، فقال أبو بكر : يارسول الله إنه يرانا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر لو كان يرانا ما فعل هذا » وفى بعض الروايات « لو رآنا ما تكشف عن فرجه » أى ما استقبلنا بفرجه وبوله ، وقال أبو جهل : أما والله إنى لأحسب قريبا يرانا ، ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا ، فانصرفوا .

وذكر ابن كثير أن بعض أهل السير ذكر أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : لو جاءونا من هاهنا لذهبنا من هاهنا ، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر ، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه . قال ابن كثير : وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة ، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى ولا ضعيف ، ولسنا نثبت شيئا من تلقاء أنفسنا « ونهى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ عن قتل العنكبوت ، وقال : إنها جند من جند الله » انتهى .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال « لا أزال أحب العنكبوت منذ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبها ، ويقول : جزى الله العنكبوت عنا خيرا ، فإنها نسجت على وعليك يا أبا بكر » إلا أن البيوت تطهر من نسجها ، أى ينبغى ذلك لما تقدم أن وجود نسجها فى البيوت يورث الفقر .

وفى الجامع الصغير « جزى الله العنكبوت عنا خيرا ، فإنها نسجت على الغار » .

أقول : فيه أن فى الحديث « العنكبوت شيطان فاقتلوه » وفى لفظ « العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه » فإن صح وثبت تأخره فهو ناسخ له ، وإن كان متقدما على ماهنا وصح ماهنا فهو منسوخ به والله أعلم ، « وبارك صلى الله عليه وسلم على الحمامتين ، وفرض جزاء الحمام وانحدرتا فى الحرم فأفرختا كل شىء فى الحرم من الحمام » أى ولأجل ذلك ذهب الغزالى من أئمتنا إلى صحة الوقف على حمام مكة دون غيره من الطيور وهو الراجح .

ونظر فى الإمتاع فى كون حمام الحرم من نسل ذلك الزوج ، فإنه روى فى قصة نوح عليه الصلاة والسلام « أنه بعث الحمامة من السفينة لتأتيه بخبر الأرض فوقعت بوادى الحرم فإذا الماء قد نضب من موضع الكعبة ، وكانت طينتها حمراء فاختضبت رجلاها ، ثم جاءته فمسح عنقها وطوّقها طوقا ، ووهب لها الحمرة فى رجليها ، وأسكنها الحرم ، ودعا لها بالبركة » .

وفى شعر الحارث بن مضاض الذى أوله :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ويبك لبيت ليس يؤذى حمامه يظل به أمنا وفيه العصافر

ففى هذا أن الحمام قد كان فى الحرم من عهد جرهم ، أى ونوح . وذكر بعضهم « أن حمام مكة أظله صلى الله عليه وسلم يوم فتحها ، فدعا له بالبركة » .

ويروى « أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما رأى قريشا أقبلت نحو الغار خصوصا ومعهم القافة بكى ، أى ويقال لما سمع القائف يقول لقريش: والله ما جاز مطلوبكم من هذا الغار حزن وبكى ، وقال : والله ما على نفسى أبكى ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحزن إن الله معنا وأنزل الله تعالى سكينته على أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، أى وأنزل عليه أمنته التى تسكن عندها القلوب» قيل قال له لا تحزن ولم يقل له لا تخف ، لأن حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا النهى تأنيس وتبشير له كما فى قوله تعالى له صلى الله عليه وسلم (ولا يحزنك قولهم) وبه يرد مازعمته الرافضة ، أن ذلك غضبا من أبى بكر وذماله ، لأن حزنه رضى الله تعالى عنه إن كان طاعة فالنبى صلى الله عليه وسلم لا ينهى عن الطاعة فلم يبق إلا أنه معصية .

وفى رواية عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه « قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه » أى لأنهما علوا على رؤوسهما .

فعن أبى بكر قال « نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رءوسنا ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال : يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما » .

قال بعضهم: كان معهما وثالثهما باللفظ والمعنى؛ أما باللفظ فكان يقال : يارسول الله ويقال لأبى بكر ، ياخليفة رسول الله ، وأما بالمعنى فكان مصاحبا لهما بالنصر والهداية

والإرشاد ، والضمير فى (أيده بجنود لم تروها) راجع للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتلك الجنود ملائكة أنزلهم الله تعالى عليه فى الغار يبشرونه صلى الله عليه وسلم بالنصر على أعدائه .

وروى « أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه عطش فى الغار ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب إلى صدر الغار فاشرب ، فانطلق أبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى صدر الغار فوجد ماء أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأزكى رائحة من المسك فشرب منه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن يخرق نهرا من جنة الفردوس إلى صدر الغار لتشرب ، قال أبو بكر : يارسول الله ، ولى عند الله هذه المنزلة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم وأفضل ، والذى بعثنى بالحق نبيا لا يدخل الجنة مبغضك ولو كان عمله عمل سبعين نبيا » .

أى وذكر بعضهم قال : « كنت جالسا عند أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فقال : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة فليقم ، فقام رجل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدنى بثلاث حثيات من تمر ، فقال أرسلوا إلى علىّ فجاء ، فقال : يا أبا الحسن إن هذا يزعم كذا وكذا فاحث له فحثى له ، فقال أبو بكر عدّوها ، فعدوها فوجدوها كل حثية ستين تمرة لا تزيد ولا تنقص ، فقال أبو بكر : صدق الله ورسوله ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة فى الغار : كفى وكف علىّ فى العدد سواء » ذكر الذهبى أنه موضوع ، ولعل قول الصديق صدق الله ورسوله علة لاختياره عليا على نفسه فى أن يحثو ، لا أن ذلك علة لكون كل حثية جاءت ستين حبة .

« ولما أيست قريش منهما أرسلوا لأهل السواحل إن من أسر أو قتل أحدهما كان له مائة ناقة » أى ويقال إن أبا جهل أمر مناديا ينادى فى أعلى مكة وأسفلها : من جاء بمحمد أو دل عليه فله مائة بعير ، وإلى قصة الغار أشار صاحب الهمزية بقوله :

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآ ه ومن شدة الظهور الخفاء

أى كانوا سببا لإخراجه من تلك الأرض التى هى مولده صلى الله عليه وسلم ومرباه ووطنه ووطن آبائه ، بسبب مبالغتهم فى إيذائه وإيذاء أصحابه خصوصا ضعفاءهم ، وآواه

غار وحمته منهم حمامة فى لونها بياض وسواد ، وكفته أعداءه عنكبوت بنسجها الذى كفته إياهم الحمامة الكثيرة الريش ، فتلك الحمامة كانت ورقاء حصداء واستتر منهم مع قرب محل رؤيته .

وحكمة خفائه واستتاره منهم مع ظهوره لهم لو نظر أحدهم إلى ماتحت قدميه شدة ظهوره عليهم بالغلبة والمعونة الإلهية ، ومكثا فى الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبى بكر وهو غلام يعرف ما يقال ، يأتيهما حين يختلط الظلام ويدلج من عندهما بفجر فيصبح مع قريش كبائت فى بيته فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه ويخبرهما به .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر رضى الله تعالى عنهما كان مملوكا للطفيل فأسلم وهو مملوك ، وكان ممن يعذب فى الله عز وجل ، فاشتراه أبو بكر من الطفيل وأعتقه كما تقدم ، فكان يروح عليهما بمنحة غنم : أى قطعة من غنم أبى بكر ، فكان يرعاها حيث تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما ثم يغلس : أى إذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يقفو أثر قدميه ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث : أى وذلك بارشاد من أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

ففى السيرة الهشامية : وأمر أبو بكر ابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن يستمع لهما مايقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهارا ، ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنها تأتيهما إذا أمست بما يصلحهما من الطعام .

أقول : وفى الدر عن عائشة رضى الله تعالى عنها : ما كان أحد يعلم مكان ذلك الغار إلا عبد الله بن أبى بكر وأسماء بنت أبى بكر ، فإنهما كانا يختلفان إليهما وعامر بن فهيرة ، فإنه كان إذا سرح غنمه مر بهما فحلب لهما .

وفى الفصول المهمة : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام بلياليها فى الغار وقريش لا يدرون أين هو ؟ وأسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنها تأتيهما ليلا بطعامهما وشرابهما ، فلما كان بعد الثلاث أمرها صلى الله عليه وسلم أن تأتى عليا وتخبره بموضعهما وتقول له يستأجر لهما دليلا ويأتى معه بثلاث من الإبل بعد مضى ساعة من الليلة الآتية : أى وهى الرابعة : فجاءت أسماء إلى على كرم الله وجهه فأخبرته بذلك ، فاستأجر لهما رجلا يقال له الأريقط بن عبد الله الليثى ، وأرسل معه بثلاث من الإبل فجاء بهن إلى أسفل

الجبل ليلا ، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم رغاء الإبل نزل من الغار هو وأبو بكر فعرفاه » أى والذى فى البخارى « فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا » . وتقدم أن المستأجر لهما للدليل النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر .

وقد يجمع بأن المراد باستئجار على رضى الله تعالى عنه إعطاؤه الأجرة، وكونه استأجر لهما ثلاث رواحل وأتى بها معه فيه نظر ظاهر ، وركب النبي صلى الله عليه وسلم وركب أبو بكر وركب الدليل .

وفى الدر المنثور « فمكث هو صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ثلاثة أيام يختلف إليهما بالطعام عامر بن فهيرة وعلىّ يجهزهما ، فاشترى ثلاثة أباعر واستأجر لهم دليلا ، فلما كان فى بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علىّ بالإبل والدليل » . فليتأمل ذلك مع ماقبله .

وفى حديث مرسل « مكثت مع صاحبي فى الغار بضعة عشر يوما مالنا طعام إلا ثمر البرير » أى الأراك . وتقدم فى باب رعيه الغنم أن ثمر الأراك النضيج يقال له الكباث بكاف فباء موحدة مفتوحتين فثاء مثلثة .

قال ابن عبد البر : وهذا أى القول بأنهما مكثا فى الغار بضعة عشر يوما غير صحيح عند أهل العلم بالحديث . قال الحافظ ابن حجر : والمراد كما قال الحاكم أنهما مكثا مختفيين من المشركين فى الغار وفى الطريق بضعة عشر يوما ، وذكر فى الغار : أى الاقتصار عليه من بعض الرواة ، والله أعلم .

قال : وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما « أن أبا بكر أرسل ابنه عبد الله فحمل ماله وكان خمسة آلاف درهم أو أربعة آلاف ، وكان حين أسلم أربعين ألف درهم» وفى لفظ « أربعين ألف دينار » أى ويؤيد ذلك ماجاء عن أنس رضى الله تعالى عنه « أنفق أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألف دينار ، فحمل إليه ذلك فى الغار » قالت أسماء : فدخل علينا جدّى أبو قحافة رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، وكان قد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه — يعنى أبا بكر — قد فجعكم بماله مع نفسه فقالت : كلا ياأبت إنه ترك لناخيرا كثيرا ، قالت : فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة : أى طاقة فى البيت كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه فقال : لابأس إن كان ترك لكم هذا ،

فى هذا بلاغ لكم ، ولا والله ماترك لنا شيئا ، ولكن أردت أن أسكن قلب الشيخ اهـ .

أى ولما بلغ ضمرة بن جندب خروجه صلى الله عليه وسلم وكان مريضا فقال : لاعذر لى فى مقامى بمكة فأمر أهله فخرجوا به ، فلما وصل إلى التنعيم مات به ، فأنزل الله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما) وقيل نزلت فى خالد بن حرام بن خويلد بن أسد ، أسلم قديما ، وهاجر إلى الحبشة فى المرة الثانية ، فمات من نهش حية قبل أن يصل. وجاء «أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان رضى الله تعالى عنه هل قلت فى أبى بكر شيئا ؟ قال نعم ، قال : قل وأنا أسمع ، فقال :

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد   طاف العدوّ به إذ صاعدوا الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا   من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أى وفى لفظ «فتبسم ، ثم قال صدقت ياحسان ، هو كما قلت » إنه أحب البرية إليه ، أى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعدل به غيره .

أقول : فى ينبوع الحياة : والذى أعرف فى هذين البيتين ، أنهما من أبيات رثى بهما حسان أبا بكر رضى الله تعالى عنهما هذا كلامه .

وقد يقال : لامانع أن يكون أدخلهما حسان فى مرثيته لأبى بكر بعد ذلك ، والله أعلم. وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال لجماعة : أيكم يقرأ سورة التوبة ؟ قال رجل أنا أقرأ ، فلما بلغ (إذ يقول لصاحبه لاتحزن) بكى وقال : أنا والله صاحبه .

وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال « رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمشى أمام أبى بكر ، فقال : يا أبا الدرداء أتمشى أمام من هو أفضل منك فى الدنيا والآخرة؟ فوالذى نفس محمد بيده ماطلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر » وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أتانى جبريل فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تستشير أبا بكر » وعن أنس قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب أبى بكر واجب على أمتى » .

باب الهجرة إلى المدينة

لايخفى أنه لما كان صبيحة الليلة الثالثة من دخولهما الغار على ماتقدم ، جاءهما الدليل الذى هو الرجل الدؤلى براحلتيهما ، فركبا وانطلق بهما وانطلق معهما عامر بن فهيرة : أى رديفا لأبى بكر يخدمهما ، أى وفى البخارى « أن أبا بكر كان رديفا له صلى الله عليه وسلم » أى ولا مخالفة لما سيأتى .

ويروى «أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار وركب أخذ أبو بكر بغرزه » أى بركابه ، والغرز بغين معجمة مفتوحة وراء ساكنة وزاى : ركاب الإبل خاصة « فقال صلى الله عليه وسلم : ألا أبشرك ؟ قال بلى فداك أبى وأمى ، قال : إن الله عز وجل يتجلى للخلائق يوم القيامة عامة ، ويتجلى لك خاصة » قال الخطيب : هذا الحديث لاأصل له . قال السيوطى : رأيت له متابعات « ودعا صلى الله عليه وسلم بدعاء منه : اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى » .

« وأخذ بهم الدليل على طريق السواحل ، وصار أبو بكر إذا سأله سائل عن النبى صلى الله عليه وسلم من هذا الذى معك » أى وفى رواية : « من هذا الذى بين يديك ؟» وفى رواية : «من هذا الغلام بين يديك » أى بناء على أنه كان رديفا له صلى الله عليه وسلم يقول : هذا الرجل يهدينى الطريق يعنى طريق الخير ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر « أله الناس » أى أشغل الناس عنى : أى تكفل عنى بالجواب لمن سأل عنى ، فإنه لاينبغى لنبىّ أن يكذب : أى ولو صورة كالتورية ، فكان أبو بكر يقول لمن سأله عن النبى صلى الله عليه وسلم ماذكر ، وإنما لم يسأل أبو بكر عن نفسه ، لأن أبا بكر كان معروفا لهم ، لأنه كان يكثر المرور عليهم فى التجارة للشام : أى معروفا لغالبهم ، فلا ينافى ماجاء فى بعض الروايات أنه كان إذا سئل من أنت ؟ يقول : باغى أى طالب حاجة ، فعلم أن الأنبياء لاينبغى لهم الكذب ولو صورة ، ومن ذلك التورية ، لكن سيأتى فى غزوة بدر وقوع التورية منه صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية « ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء أبى بكر ناقته » وفى التمهيد لابن عبد البر « أنه لما أتى براحلة أبى بكر سأل أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يركب ويردفه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنت اركب وأردفك أنا ، فإن

الرجل أحق بصدر دابته ، فكان إذا قيل له من هذا وراءك ؟ قال : هذا يهدينى السبيل » .

أقول : لامخالفة بين هذا وما تقدم ، لأنه يجوز أن يكون ركب صلى الله عليه وسلم تارة خلف أبى بكر على ناقة أبى بكر ، وتارة ركب صلى الله عليه وسلم على ناقة نفسه أمامه ، وأن ركوبه لها كان فى أثناء الطريق ، ويكون صلى الله عليه وسلم إما أركب راحلته عامر بن فهيرة ، أو ترك ركوبها لأجل إراحتها ، والهداية كما تكون من المتقدم تكون من المتأخر ، وإن كان الأول هو الغالب والله أعلم ، وإلى توجهه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أشار صاحب الهمزية بقوله :

ونحا المصطفى المدينة واشتا قت إليه من مكة الأنحاء

أى وقصد صلى الله عليه وسلم المدينة واشتاقت إليه الجهات والنواحى من مكة . وقد جاء « أنه لما خرج صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة مهاجرا وبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله تعالى عليه (إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) أى إلى مكة » .

وأهل الرجعة يقولون إلى الدنيا : أى من يقول بأن النبى صلى الله عليه وسلم يرجع إلى الدنيا كما يرجع عيسى ، وقد أظهرها عبد الله بن سبأ ، كان يهوديا وأمه يهودية سوداء ، ومن ثم كان يقال له ابن السوداء ، أظهر الإسلام فى خلافة عمر رضى الله تعالى عنه ، وقيل فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وكان قصده بإظهار الإسلام بوار الإسلام ، فكان يقول : العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع إلى الدنيا ويكذب برجعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فمحمد أحق بالرجعة من عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وتقدم ذلك فى أثناء الكلام على بدء الوحى ، وسيأتى ذلك عند بناء المسجد . وكانت قريش كما تقدم أرسلت لأهل السواحل أن من قتل أو أسر أبا بكر أو محمدا كان له مائة ناقة ، أى فمن قتلهما أو أسرهما كان له مائتان .

فعن سراقة « جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فيهما إن قتلا أو أسرا ديتين ، فبينا أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج : أى بقديد وهو محل قريب من رابغ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : ياسراقة إنى رأيت أسودة : أى أشخاصا بالسواحل أراه محمدا وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت : إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا : أى بمعرفتنا يطلبون ضالة لهم ، أى وفى

لفظ «قال رأيت ركبة بالتحريك جمع راكب ثلاثا مروا علىّ آنفا» أى قريبا « إنى لأراهم محمدا وأصحابه . قال سراقة : فأومأت إليه أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان يتبعون ضالة لهم ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت إلى منزلى، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى خفية إلى بطن الوادى وتحبسها علىّ ، وأخذت رمحى وخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه فى الأرض» والزج الحديدة التى تكون فى أسفل الرمح « وخفضت عاليه» أى أمسكت بأعلاه « وجعلت أسفله فى الأرض لئلا يراه أحد » وإنما فعل ذلك كله ليفوز بالجعل المتقدم ذكره،ولا يشركه فيه أحد من قومه بخروجه معه لقتلهما أو أسرهما، زاد فى رواية « ثم انطلقت فلبست لامتى ، وجعلت أجر الرمح مخافة أن يشركنى أهل الماء يعنى قومه . قال : حتى أتيت فرسى » أى وكان يقال لها العود ، والفرس لغة تقع على الذكر والأنثى . قال فى النور : والمراد هنا الأنثى ، لقوله « فركبتها » ولقوله « فرفعتها » أى بالغت فى إجرائها « حتى دنوت منهم » ..

وفى لفظ : « فرفعتها تقرب بى » وحينئذ يكون المراد أسرعت بالسير بها ، لأن التقريب دون العدو وفوق العادة « فعثرت بى فرسى » أى فوقعت لمنخريها كما فى حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما .

زاد فى رواية « ثم قامت تحمحم ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت بيدى على كنانتى فاستخرجت الأزلام » أى وهى عيدان السهام التى لاريش لها ولم تركب فيها النصال « واستقسمت بها أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره وهو عدم إضرارهم » أى لأنه مكتوب عليها افعل لاتفعل ، ويقال للأول الآمر ، ويقال للثانى الناهى « فركبت فرسى وعصيت الأزلام تقرب بى حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لايلتفت وأبوبكر يكثر الالتفات ، ساخت» أى غابت « يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ،أى وكانت الأرض جلدة فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان » أى غبار « ساطع فى السماء مثل الدخان أى مع كون الأرض جلدة ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان : أى وقلت أنظرونى لاأوذيكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه » .

أى وفى رواية : «ناديت القوم،وقلت أنا سراقة بن مالك،أنظرونى أكلمكم، أنا لكم نافع غير ضار ، وإنى لاأدرى لعل الحى فزعوا لركوبى : أى أن بلغهم ذلك وأنا راجع

رادّهم عنكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : قل له : ماذا تبتغى ؟ فوقفوا فأخبرتهم بما تريد الناس منهم » .

وفى رواية « قال يامحمد ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائى » وفى رواية قال « ياهذان ادعوا لى الله ربكما ، ولكما أن لاأعود ففعل : أى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق الفرس » وحينئذ يكون زجره لها ونهوضها بعد الدعاء فلا مخالفة ، « قال : فركبت فرسى » أى بعد نهوضها « حتى جئتهم ، فقلت : إن قومك جعلوا فيك الدية : أى مائة من الإبل لمن قتلك أو أسرك » وهذا هو المراد بقوله فى الرواية السابقة فأخبرتهم بما يريد الناس منهم ، وكأنه رأى أن ذلك كاف فى لحوقه بهم عن ذكر أبى بكر. « قال سراقة وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يقبلا وقالا : اخف عنا » أى وفى رواية « عرضت عليهما الزاد والحملان » أى ولعل الحملان هو المراد بالمتاع ، أى لأنه جاء « أنه قال لهما خذا هذا السهم من كنانتى ، وغنمى وإبلى بمحل كذا وكذا فخذا منهما ما شئتما ، فقالا : اكفنا نفسك ، فقال : كفيتماها » .

أقول : وفى رواية قال له صلى الله عليه وسلم « ياسراقة إذا لم ترغب فى دين الإسلام فإنى لا أرغب فى إبلك ومواشيك » . وفى رواية عن أبى بكر رضى الله عنه ، قال « لما أدركنا سراقة ، قلت : يارسول الله هذا الطلب قد لحقنا (قال لاتحزن إن الله معنا) أى وقد تقدم أنه قال ذلك له فى الغار فلما ، كان بيننا وبينه قيد : أى مقدار رمح أو ثلاثة ، قلت : يارسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكيت ، قال : لم تبكى ؟ قلت : أما والله ماعلى نفسى أبكى ، ولكن أبكى عليك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت به فرسه فى الأرض إلى بطنها وكانت الأرض صلبة » أى ولا يخالف ماسبق أنها بلغت الركبتين ، لجواز أن يكون ذلك فى أوّل أمرها ، ثم صارت إلى بطنها ، وذلك كله فى المرة الأولى ، فلا يخالف مافى الإمتاع « لما قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساخت يدا فرسه فى الأرض إلى بطنها ، فقال : ادع لى يامحمد أن يخلصنى الله تعالى ولك علىّ أن أرد عنك الطلب ، فدعا فخلص فعاد فتبعهم ، فساخت قوائم فرسه فى الأرض أشد من الأولى ، فقال : يامحمد قد علمت أن هذا من دعائك علىّ » الحديث إذ هو يدل على أنها فى المرة الأولى وصلت إلى بطنها ؛ وفى الثانية وصلت إلى ماهو زائد على ذلك . وقد يدل له مايأتى عن الهمزية ، ولعل المراد أنه دخل جزء من بطنها فى الأرض

فى المرة الثانية. وفى لفظ « فقال : يامحمد قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله ينجينى مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائى من الطلب ، فدعا له فانطلق راجعا » .

وفى السبعيات للهمدانى « أن سراقة لما دنا منه صلى الله عليه وسلم صاح وقال : يامحمد من يمنعك منى اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمنعنى الجبار الواحد القهار ، ونزل جبريل عليه السلام وقال : يامحمد إن الله عز وجل يقول : جعلت الأرض مطيعة لك فأمرها بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأرض خذيه فأخذت الأرض أرجل جواده إلى الركب ، فساق سراقة فرسه فلم يتحرك ، فقال : يامحمد الأمان وعزة العزى لو أنجيتنى لأكونن لك لاعليك ، فقال : ياأرض أطلقيه فأطلقت جواده » .

وروى فى بعض التفاسير أن سراقة عاهد سبع مرات ثم ينكث العهد ، وكلما ينكث العهد تغوص قوائم فرسه فى الأرض ؛ وهذا أى الاقتصار على غوص قوائم فرسه فى الأرض لاينافى الزيادة ، فلا يخالف ماسبق ، وفى السابعة تاب توبة صدق .

وفى الفصول المهمة « لما اتصل خبر مسيره صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وذلك فى اليوم الثانى من خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار جمع الناس أبو جهل وقال : بلغنى أن محمدا قد مضى نحو يثرب على طريق الساحل ومعه رجلان آخران ، فأيكم يأتينى بخبره فوثب سراقة ، فقال ، أنا لمحمد يا أبا الحكم ، ثم إنه ركب راحلته واستجنب فرسه وأخذ معه عبدا له أسود كان ذلك العبد من الشجعان المشهورين فسارا : أى فى أثر النبى صلى الله عليه وسلم سيرا عنيفا حتى لحقا به ، فقال أبو بكر : يارسول الله قد دهينا ، هذا سراقة قد أقبل فى طلبنا ومعه غلامه الأسود المشهور ، فلما أبصرهم سراقة نزل عن راحلته وركب فرسه وتناول رمحه وأقبل نحوهم ، فلما قرب منهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم اكفنا أمر سراقة بما شئت وكيف شئت وأنى شئت ؛ فغابت قوائم فرسه فى الأرض حتى لم يقدر الفرس أن يتحرك ، فلما نظر سراقة إلى ذلك هاله ورمى نفسه عن الفرس إلى الأرض ورمى رمحه وقال : يامحمد أنت أنت وأصحابك ، أى أنت كما أنت أى آمن وأصحابك ، فادع ربك يطلق لى جوادى ولك عهد وميثاق أن أرجع عنك ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء ، وقال : اللهم إن كان صادقا فيما يقول فأطلق له جواده قال : فأطلق الله تعالى له قوائم فرسه حتى وثب على الأرض سليما » أى ولعل هذا فى المرة الثانية أو المرة الأخيرة من السبع على ماتقدم ، وتقدم أن الاقتصار على القوائم لاينافى

الزيادة عليها ، فلا يخالف ماسبق فى هذه الرواية « ورجع سراقة إلى مكة فاجتمع الناس عليه فأنكر أنه رأى محمدا ، فلا زال به أبو جهل حتى اعترف وأخبرهم بالقصة » وفى ذلك يقول سراقة مخاطبا لأبى جهل :

أباحكم والله لو كنت شاهدا لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمدا رسول ببرهان فمن ذا يقاومه؟

وسياق هذه الرواية يدل على أنه خرج خلف النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ، ويدل لذلك ما ذكر أنه كان أحد القاصين لأثره صلى الله عليه وسلم فى الجبل ؛ لكنه مخالف لما تقدم أنه خرج خلفه صلى الله عليه وسلم من قديد من مجلس قومه وأخفى خروج فرسه وخروجه عن قومه .

وقد يقال : لامخالفة لأنه يجوز أن يكون لما خرج من مكة سلك طريقا غير الطريق الذى سلكها النبى صلى الله عليه وسلم فلم يجده وسبقه على قديد فجلس فى مجلس قومه ؛ فلما أخبر بمرورهم فعل ما تقدم ثم وجد عبده الأسود فى مروره وكان معه راحلته فركبها واستجنب فرسه وصحب عبده .

ولا مانع أن يخرج من مكة بعد خروجهم من الغار ، ويسبقهم على قديد . ولاينافى ذلك قوله فأتانا رسل كفار قريش ، لأنه يجوز أن يكون ذلك هو الحامل لسراقة على الذهاب إلى مكة لعله يجده بطريقه . ولاينافى ذلك كونه كان أحد القصاصين لأثره صلى الله عليه وسلم ، لأنه يجوز أن يكون عاد إلى قديد قبل أن يجعل الجعل . وفى كلام بعضهم أنه أرسل بهذين البيتين إلى أبى جهل . ولا منافاة لجواز أن يكون أرسل بهما قبل أن يشافهه بهما .

وفى رواية «أنه لما لحق بهم قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اصرعه فصرع عن فرسه ، فقال : يانبى الله مرنى بما شئت ، قال : تقف مكانك لاتتركن أحدا يلحق بنا » .

ثم لايخفى أن صرعه عن فرسه يحتمل أن يكون لما ساخت . ويحتمل أنه صرع عنها قبل ذلك وهو ظاهر سياق الرواية الأولى وهى : فعثرت بى فرسى فخررت عنها . وحينئذ يكون عثورها بدعائه صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

قال سراقة « فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، لأنه وقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وفى السبعيات « قال سراقة : يا محمد إنى لأعلم أنه سيظهر أمرك فى العالم ؛ وتملك رقاب الناس ، فعاهدنى أنى إذا أتيتك يوم ملكك فأكرمنى ، فأمر عامر بن فهيرة ، أى وقيل أبا بكر فكتب لى فى رقعة من أدم ، أى وقيل فى قطعة من عظم ، وقيل فى خرقة » .

أقول : وحينئذ يمكن أن يكون كتب عامر بن فهيرة أولا فطلب سراقة أن يكون أبوبكر هو الذى يكتب ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابة ذلك ، فأحدهما كتب فى الرقعة من الأدم ، والآخر كتب فى العظم أو الخرقة . أو المراد بالخرقة الرقعة من الأدم ، فلا مخالفة .

« ولما أراد الانصراف قال له : كيف بك ياسراقة إذا تسورت بسوارى كسرى ؟ قال كسرى بن هرمز ؟ قال نعم» وسيأتى أن سراقة أسلم بالجعرانة ، ولما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بها قال له مرحبا بك .

وعن سراقة « لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين والطائف خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة ، فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون إليك ، ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يارسول الله هذا كتابى وأنا سراقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبشر ، أدنه ، فدنوت منه وأسلمت » .

ولما جىء لعمر رضى الله تعالى عنه فى زمن خلافته بسوارى كسرى وتاجه ومنطقته أى وبساطه وكان ستين ذراعا فى ستين ذراعا ، منظوما باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان زهر الربيع ، كان يبسط له فى إيوانه ويشرب عليه إذا عدمت الزهور — وجىء له بمال كثير من مال كسرى وبنات كسرى وكنّ ثلاثا وعليهنّ الحلىّ والحلل والجواهر مايقصر اللسان عن وصفه . وعند ذلك دعا سراقة وقال : ارفع يديك وألبسه السوارين وقال له : قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة بن مالك : أى ورفع عمر بها صوته وصبّ المال الذى جىء به من أموال كسرى فى صحن المسجد ، وفرقه على المسلمين ، ثم قطع البساط وفرقه بين المسلمين ، فأصاب عليا رضى الله تعالى عنه منه قطعة باعها بخمسين ألف دينار . ثم جىء ببنات الملك الثلاث فوقفن بين يديه ، وأمر المنادى أن ينادى عليهنّ ، وأن يزيل نقابهنّ عن

وجوههن ليزيد المسلمون فى ثمنهن ، فامتنعن من كشف نقابهن ووكزن المنادى فى صدره فغضب عمر رضى الله تعالى عنه وأراد أن يعلوهن بالدرة وهن يبكين ، فقال له على رضى الله تعالى عنه : مهلا يا أمير المؤمنين ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر » فسكن غضبه ، فقال له على : إن بنات الملوك لايعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال له عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ فقال : يقوّمن ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن ، فقومن وأخذهن على رضى الله تعالى عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر فجاء منها بولده سالم ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر فجاء منها بولده القاسم ، والثالثة لولده الحسين فجاء منها بولده علىّ الملقب بزين العابدين وهؤلاء الثلاثة فاقوا أهل المدينة علما وورعا ، وكان أهل المدينة قبل ذلك يرغبون عن التسرّى ، فلما نشأ هؤلاء الثلاثة فيهم رغبوا فيه .

ومن غريب الاتفاق ما حكاه بعضهم قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب وأعجب سعيد بى يوما ، فقال لى : من أخوالك ؟ فقلت : أمى فتاة ، فكأنى نقصت من عينه ، فأنا عنده إذ دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر ، فلما خرج من عنده ، قلت له : ياعم من هذا؟ قال: سبحان الله أتجهل مثل هذا من قومك؟ هذا سالم بن عبدالله بن عمر ، قلت: فمن أمه ؟ قال فتاة . ثم دخل القاسم بن محمد فجلس عنده ثم نهض ، فلما خرج قلت : ياعم من هذا ؟ قال : ما أعجب أمرك ! أتجهل مثل هذا ؟ هذا القاسم بن محمد بن أبى بكر ، قلت : فمن أمه ؟ قال فتاة . ثم دخل عليه على بن حسين فجلس ثم نهض ، فلما خرج قلت له : من هذا ؟ قال : عجبت منك ! أتجهل مثل هذا ؟ هذا على زين العابدين بن الحسين ، قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة . قلت : ياعمى رأيتنى نقصت من عينك لما علمت أن أمى فتاة فما لى فى هؤلاء أسوة ؟ فقال : أجل وعظمت فى عينه جدا .

ولما رجع سراقة صار يردّ عنهم الطلب ، لا يلقى أحدا إلا ردّه ، يقول : سبرت أى اختبرت الطريق فلم أر أحدا . وفى لفظ قال لقريش : أى لجماعة منهم قصدوه صلى الله عليه وسلم كأنهم أخبروا بمكان مسيره ذلك : قد عرفتم بصرى بالطريق ، وقد سرت فلم أر شيئا فرجعوا ، أى ولعل كفار قريش لما سمعوا من الهاتف أى ومن غيره بأنه صلى الله عليه وسلم نزل فى خيمة أم معبد كما سيأتى ، أرسلوا سرية فى طلبه ، يقول قائلهم : اطلبوه قبل أن يستعين عليكم بكلبان العرب ، فيحتمل أن هؤلاء هم الذين ردهم سراقة ،

فكان سراقة أول النهار جاهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر النهار مسلحة أى سلاحا له .

وفى رواية « قال سراقة : خرجت وأنا أحب الناس فى تحصيلهما ، ورجعت وأنا أحب الناس فى أن لايعلم بهما أحد » ويحتمل أنه بعد أن ردهم سراقة ذهبوا إلى أمّ معبد .

فنى تتمة الخبر : أن تلك السرية جاءت إلى أمّ معبد فسألوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشفقت : أى خافت عليه منهم ، فتعاجمت عليهم : أى أظهرت عدم علمها بذلك ؛ فقالت : إنكم تسألونى عن أمر ما سمعت به قبل عامى هذا ، ثم قالت : لئن لم تنصرفوا عنى لأصرخنّ فى قومى عليكم وكانت فى عز من قومها ، فانصرفوا ولم يعلموا أين توجه : أى من أى طريق توجه ، أى ولعلها قالت لهم ذلك لما رأت منهم التثقيل عليها وهذا السياق يدل على أن قصة سراقة قبل قصة أمّ معبد ، وإلى قصة سراقة أشار صاحب الأصل بقوله :

غرّت سراقة أطماع فساخ به جواده فانثنى للصلح مطلبا

وإليها أشار أيضا صاحب الهمزية بقوله :

واقتفى أثره سراقة فاستهـ وته فى الأرض صافن جرداء
ثم ناداه بعد ما سمت الخسـ ف وقد ينجد الغريق النداء

أى وتبع أثره سراقة ، فهوت : أى سقطت به صافن ، وهى الفرس التى تقوم على ثلاث قوائم وتقيم الرابعة على طرف الحافر ، وهو وصف محمود فى الخيل . جرداء ، قصيرة الشعر ، وذلك وصف محمود فى الخيل أيضا بعد أن قاربت أن يخسف بها كلها . وقد يخلص الدعاء الغريق ، كما وقع ليونس صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه .

قال : وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه « أنه قال : سرنا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد ، رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل ، فنزلنا عندها ، فأتيت الصخرة فسوّيت بيدى مكانا ينام فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلها ، ثم بسطت له فروة معى ، ثم قلت : يارسول الله نم وأنا أتجسس وأتعرّف من تخافه فنام صلى الله عليه وسلم وإذا براع يقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذى أردناه : أى وهو الظل ، فلقيته ، فقلت له : لمن أنت ياغلام ؟ فقال لرجل من أهل مكة فسماه فعرفته » أى وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على اسم هذا الراعى ولا على اسم صاحب الغنم « قال

أبو بكر رضى الله تعالى عنه : فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال نعم ، قلت : أفتحلب لى ؟ قال نعم ، فأخذ شاة فحلب لى فى قعب معه » وفى رواية فى إداوة معى على فيها خرقة فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكرهت أن أوقظه من نومه ، فوقفت حتى استيقظ ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله ، فقلت : يارسول الله اشرب من هــذا اللبن فشرب ، لأنه جرت العادة بإباحة مثل ذلك لابن السبيل إذا احتاج إلى ذلك ، فكان كل راع مأذونا له فى ذلك أى كما تقدم ، فلا ينافى ماجاء « لايحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه » أو أن هذا الحديث محمول على فعل ذلك اختلاسا من غير معرفة الزاعى .

وأما قول بعضهم « إنما استجاز شربه لأنه مال حربى ، ففيه نظر ، لأن الغنائم : أى أموال الحربيين لم تكن أبيحت له حينئذ ؛ ثم قال : يعنى النبى صلى الله عليه وسلم : ألم يأن للرحيل ؟ قلت بلى ، فارتحلنا بعد مازالت الشمس » انتهى .

أى وفى رواية « أن أبا بكر ، قال : قد آن الرحيل يارسول الله » أى دخل وقته ، قال الحافظ ابن حجر : يجمع بينهما بأن يكون النبى صلى الله عليه وسلم بدأ فسأل فقال له أبو بكر : بلى ، ثم أعاد عليه بقوله قد آن الرحيل « واجتازوا فى طريقهم بأم معبد » أى واسمها عاتكة ، وكان منزلها بقديد ، أى وهو محل سراقه كما تقدم ، ولعلها كانت بطرفه الأخير الذى يلى المدينة ، ومنزل سراقة بطرفه الذى يلى مكة وكانت مسافته متسعة فليتأمل. « وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء بيتها وتطعم وتسقى وهى لاتعرفهم ، أى وسألوها لحما وتمرا » أى وفى رواية « أو لبنا يشترونه ، فقالت : والله لو كانت عندنا شئ ماأعوزناكم » أى للشراء ، وفى رواية « ما أعوزناكم القرى » لأنهم كانوا مسنتين : أى مجدبين « فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أم معبد هل عندك من لبن ؟ قالت : لاوالله ، فرأى شاة خلفها الجهد عن الغنم » أى لم تطق اللحاق بها لما بها من الهزال « قال هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك [ ] قال : أتأذنين فى حلابها ؟ قالت : والله ماضربها من فحل قط فشأنك » أى أصلح شأنك « بها إن رأيت منها حلبا فاحلبها ، فدعا بها فمسح ظهرها بيده » أى وفى رواية « فبعث النبى صلى الله عليه وسلم معبدا وكان صغيرا فقال ادع هذه الشاة ، ثم قال : ياغلام هات فرقا ، فمسح ظهرها » وفى رواية « فمسح بيده ضرعها وظهرها وسمى الله تعالى ، أى وقال : اللهم بارك لنا فى شاتنا فدرت واجترت وتفاحجت » أى فتحت مابين رجليها للحلب « ثم دعا بإناء يربض الرهط » أى يرويهم

بحيث يغلب عليهم الرى فيربضون وينامون . والرهط من الثلاثة للعشرة ، وقيل من التسعة إلى الأربعين « فحلب فيها ثجا» أى بقوة لكثرة اللبن . ومن ثم قال «حتى علاه البهاء » وفى رواية « حتى علته الثمالة » بضم المثلثة : أى الرغوة . وفى رواية « فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا عللا بعد نهل » أى مرة ثانية بعد الأولى « ثم شرب صلى الله عليه وسلم ، فكان آخرهم شربا » وقال « ساقى القوم آخرهم شربا» [ ] ثم حلب فيه وغادره » أى تركه عندها وارتحل ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى بقوله فى تائيته :

مسحت على شاة لدى أم معبد   بجهد فألفتها أدر حلوبة

وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله فى وصف راحته الشريفة :

دربت الشاة حين مرت عليها   فلها ثروة بها ونمـاء

أى أرسلت الشاة لبنها حين مرت راحته الشريفة على تلك الشاة فلتلك الشاة بسبب تلك الراحة كثرة لبن وزيادة .

وعن أم معبد : أن هذه الشاة بقيت إلى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى سنة ثمانى عشرة ، وقيل سبع عشرة من الهجرة ، ويقال لتلك السنة عام الرمادة : أى وكانت تلك السنة أجدبت الأرض إجدابا شديدا ، حتى جعلت الوحوش تأوى إلى الإنس ويذبح الرجل الشاة فيعافها ، أى لخبث لحمها ، وكانت الريح إذا هبت ألقت ترابا كالرماد ، فسمى ذلك العام عام الرمادة ، وعند ذلك آلى عمر رضى الله تعالى عنه أن لايذوق لبنا ولا سمنا ولا لحما حتى تحيا الناس : أى يجىء عليهم الحيا وهو المطر ، وقال : كيف لايعنينى شأن الرعية إذ لم يمسنى مامسهم ، وهـذا السياق يدل على أن الذى حلبه صلى الله عليه وسلم عند أم معبد شاة واحدة .

وفى تاريخ العينى شارح البخارى ، قال يونس «عن ابن إسحاق أنه دعا ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده ودعا الله وحلب فى العس حتى أرغى، وقال اشربى ياأم معبد، فقالت أشرب أشرب فأنت أحق به فرده عليها فشربت ثم دعا بحائل أخرى ، ففعل بها مثل ذلك فشربه ، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك ، فسقى دليله ، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك فسقى عامر بن فهيرة ، وطلبت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغوا أم معبد، فسألوا عنه صلى الله عليه وسلم ، ووصفوه لها، فقالت : ماأدرى ماتقولون قد ضافنى حالب الحائل ، فقالوا : ذلك الذى نريده » .

وعند قول عمر رضى الله تعالى عنه ذلك ، قال كعب لعمر : يا أمير المؤمنين إن بنى إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء ، فقال عمر : هذا عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وصنو أبيه ، وسيد بنى هاشم يعنى العباس ، فمشى إليه عمر وشكا إليه مافيه الناس ، فصعد عمر المنبر ومعه العباس ، وقال : اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه صلى الله عليه وسلم فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ؛ ثم قال عمر للعباس : ياأبا الفضل قم وادع ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ودعا بدعاء منه : اللهم شفعنا فى أنفسنا وأهلينا . اللهم إنا نشكو إليك جوع كل جائع . اللهم إنا لانرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك ، فسقوا قبل أن يصلوا إلى منازلهم ، وخاضوا فى الماء وأخصبت الأرض ، وعاش الناس ، فقال عمر : هذا والله هو الوسيلة إلى الله تعالى ، فصار الناس يتمسحون بالعباس ويقولون : هنيئا لك ، سقينا فى الحرمين .

وذكر السهيلى أن جماعة كانت مقبلة إلى المدينة فى ذلك اليوم فسمعوا صائحا يصيح فى السحاب . أتاك الغوث أبا حفص ، أتاك الغوث أبا حفص .

هذا ، وذكر العلامة ابن حجر الهيتمى فى الصواعق عن تاريخ دمشق أن الناس كرروا الاستسقاء عام الرمادة سنة سبع عشرة من الهجرة فلم يسقوا ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه ، لأستسقين غدا بمن يسقينى الله به ، فلما أصبح غدا للعباس رضى الله تعالى عنه فدق عليه الباب ، فقال من ؟ قال : عمر ، قال : ماحاجتك ؟ قال : اخرج حتى نستسقى الله بك ، قال اقعد ، فأرسل إلى بنى هاشم أن تطهروا ، والبسوا من صالح ثيابكم فأتوه ، وأخرج طيبا وطيبهم ، ثم خرج وعلى أمامه بين يديه والحسن عن يمينه والحسين عن يساره وبنو هاشم خلف ظهره ، وقال ياعمر لاتخلط بنا غيرنا ، ثم أتى المصلى فوقف فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال : اللهم إنك خلقتنا ولم تؤامرنا ، وعلمت مانحن عاملون قبل أن تخلقنا فلم يمنعك علمك فينا عن رزقنا . اللهم فكما تفضلت علينا فى أوله فتفضل علينا فى آخره . قال جابر : فما برحنا حتى سحت السماء علينا سحا ، فما وصلنا إلى منازلنا إلا خوضاً ، فقال العباس : أنا ابن المسقى ابن المسقى ابن المسقى ابن المسقى ابن المسقى خمس مرات ، أشار إلى أن أباه عبد المطلب استسقى خمس مرات فسقى ، هذا كلامه فلينظر الجمع .

قال ابن شهاب : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعرفون للعباس فضله

ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه : أى وكان لايمر عمر وعثمان وهما راكبان إلا ترجلا حتى يجوز العباس ، وربما مشيا معه إلى بيته إجلالا له ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قال « احفظونى فى العباس ، فإنه عمى وصنو أبى » وفى رواية « فإنه بقية آبائى » .

قالت أم معبد فى وصف تلك الشاة « وكنا نحلبها صبوحا وغبوقا » أى بكرة وعشية وما فى الأرض قليل ولا كثير : أى مما يتعاطى الدواب أكله « ولما جاء زوجها أبومعبد » قال السهيلى : لايعرف اسمه ، وقيل اسمه أكثم بالثاء المثلثة كما تقدم ، وقيل خنيس ، وقيل عبد الله « جاء عند المساء يسوق أعنزا عجافا ، ورأى اللبن الذى حلبه صلى الله عليه وسلم عجب ، وقال: يا أم معبد ماهذا اللبن ولا حلوب فى البيت ؟ أى والشاة عازب» أى لم يطرقها فحل ، لكن رأيته فى النور فسر العازب بالبعيدة المرعى التى لاتأوى إلى المنزل فى الليل . وفى الصحاح : العازب الكلأ البعيد الذى لم يؤكل ولم يوطأ .

قالت : «مر بنا رجل مبارك ، قال : صفيه ، قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج الوجه » أى مشرقه «فى إشفاره » أى أجفان عينيه أى شعرها النابت بها « وطف » أى طول « وفى عينيه دعج » أى شدة سواد فى شدة بياض ، أى وهذا هو الحور ، ومن ثم فسر بعضهم الدعج بشدة السواد . وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن بياض عينيه شديد البياض ، بل كان أشكل العين . والشكلة : حمرة فى بياض العين ، وهو دليل الشهامة ، وهى من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم فى الكتب القديمة كما تقدم « وفى صوته صحل » أى بحة بضم الموحدة ، أى ليس حاد الصوت « غصن بين الغصنين ، لاتشنؤه من طول » أى لاتبغضه لفرط طوله « ولا تقتحمه من قصر » أى تحتقره من قصره « لم تعبه ثجلة » أى عظم البطن وكبرها « ولم تزر به صعلة » أى صغر الرأس ، « كأن عنقه إبريق فضة » أى والإبريق السيف الشديد البريق « إذا نطق فعليه البهاء ، وإذاصمت فعليه الوقار ، له كلام كخرزات النظم ، أزين أصحابه منظرا ، وأحسنهم وجها ، أصحابه يحفون به ، إذا أمر ابتدروا أمره ، وإذا نهى انتهوا عند نهيه » .

قال : وفى لفظ « أنها قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة أبلج الوجه » أى مشرقه « حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولم تزره صعلة ، وسيما قسيما » أى حسنا « فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل » أو قالت « صهل ، أحور أكحل » أى فى أجفان عينيه سواد خلقة «وفى عنقه سطع » أى نور « وفى لحيته كثافة » أى لا طويلة ولا دقيقة

« أزج » أى رقيق طرف « الحاجب ، أقرن » أى مقرون الحاجبين « شديد سواد الشعر ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما به » أى ارتفع على جلسائه « وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لانزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن ، ربعة لاتشنؤه » أى تبغضه « من طول » أى من فرط طوله « ولا تقتحمه عين من نظر » أى لاتتجاوزه إلى غيره اختيارا له « غصنا بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ؛ له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر ابتدروا إلى أمره ، محفود مخدوم محشود ، له حشد وجماعة ، لاعابس ولا مفند » أى يكثر اللوم اه « قال : هذه والله صفة صاحب قريش ، ولو رأيته لاتبعته ، ولأجتهدن أن أفعل » .

أى وفى الإمتاع « ويقال إنها » أى أم معبد « ذبحت لهم شاة وطبختها فأكلوا منها ، ووضعت لهم فى سفرتهم منها ما وسعته تلك السفرة ، وبقى عندها أكثر لحمها » .

وفى الخصائص الكبرى « أنه صلى الله عليه وسلم بايعها » أى أسلمت قبل أن يرتحلوا عنها . وفى كلام ابن الجوزى أن أم معبد هاجرت وأسلمت وكذا زوجها هاجر وأسلم .

أقول : فى شرح السنة للبغوى : وهاجرت هى وزوجها ؛ وأسلم أخوها حبيش بن الأصفر ، واستشهد يوم الفتح ، وكان أهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المبارك ، ويقال بأن زوجها خرج فى أثرهم فأدركهم ، وبايعه صلى الله عليه وسلم ورجع .

وفى الأجوبة المسكتة لابن عون ، قيل لأم معبد : مابال صفتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه به من سائر صفات من وصفه : أى من الرجال ، فقالت : أما علمتم أن نظر المرأة من الرجل أشفى من نظر الرجل إلى الرجل ؟ .

وفى ربيع الأبرار للزمخشرى عن هند بنت الجون « أنه صلى الله عليه وسلم لما كان بخيمة خالتها أم معبد قام من رقدته ، فدعا بماء فغسل يديه ، ثم تمضمض ومجّ ذلك فى عوسجة إلى جانب الخيمة فأصبحت وهى أعظم دوحة » أى شجرة ذات فروع كثيرة « وجاءت بثمر كأعظم مايكون ، فى لون الورس ، ورائحة العنبر ، وطعم الشهد ، ما أكل منها جائع إلا شبع ، ولا ظمآن إلا روى ، ولا سقيم إلا برئ ، ولا أكل من ورقها بعير ولا شاة إلا درّ فكنا نسميها المباركة ، فأصبحنا فى يوم من الأيام وقد سقط ثمرها واصفر

ورقها ففزعنا لذلك، فما راعنا إلا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم» قال: والعجب كيف لم يشتهر أمر هذه الشجرة كما اشتهر أمر الشاة .

وعن أم معبد أنها قالت : مرّ على خيمتى غلام سهيل بن عمرو ومعه قربتان ، فقلت ماهذا ؟ قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى مولاى : يستهديه ماء زمزم فأنا أعجل السير كى لاتنشف القرب، أى فإنه صلى الله عليه وسلم كتب إلى سهيل بن عمرو «إن جاءك كتابى ليلا فلا تصبحن، أو نهارا فلا تمسين حتى تبعث إلىّ من ماء زمزم» فجاء بقربتين فملأهما من ماء زمزم وبعث بهما على بعير مولاه أزهر » ولا زال كفار قريش بمكة لايعلمون أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حتى سمعوا هاتفا يذكرهما ويذكر أم معبد فى أبيات ، منها :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلح من أمسى رفيق محمد

فعلموا توجهه ليثرب : أى وفى طريق اليمن محل يقال له اللديم وبئر أم معبد : قال بعضهم : وليست بأم معبد التى نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة . ويجوز أن يكون الخبر الذى وصل إليهم فى اليوم الثانى من خروجه من الغار هو قول هذا الهاتف أو عقبه من شخص رآهم ، وإلى قول الهاتف أشار صاحب الهمزية بقوله :

وتغنت بمدحه الجن حتى أطرب الإنس منه ذاك الغناء

أى وأظهرت الجن أوصافه صلى الله عليه وسلم الحميدة فى صورة الغناء الذى تتولع به النفس حتى أطرب ذلك الغناء الإنس حيث سمعوه ، وأما قول بعضهم إنهم علموا ذلك من هاتف هتف بقوله :

إن يسلم السعدان يصبح محمد من الأمر لايخشى خلاف المخالف

فقالوا: السعود سعد بن بكر، وسعد بن زيد مناة، وسعد هذيم، فلما كانت القابلة سمعوا ذلك الهاتف يقول :

فياسعد سعد الأوس كن أنت مانعا ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف

فقالوا : سعد الأوس سعد بن معاذ ، وسعد الخزرجين سعد بن عبادة، ففيه نظر ، لأن السعدين المذكورين كانا أسلما قبل ذلك ؟ فلا يحسن قوله إن يسلم السعدان .

أقول : يجوز أن تكون أن هنا بمعنى إذ: أى صيرورته صلى الله عليه وسلم آمنا لايخشى

خلاف المخالف لأجل إسلام السعدين ، أو المراد دوامهما على الإسلام ، على أنه ذكر فى الأصل أن إنشاد هذين البيتين وسماع أهل مكة له كان قبل إسلام سعد بن معاذ .

وذكر بعضهم أن السعود من الأنصار سبعة : أربعة من الأوس : سعد بن معاذ ، وسعد بن خيثمة ، وسعد بن عبيد ، وسعد بن زيد ، وثلاثة من الخزرج : سعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع وسعد بن عثمان أبو عبيدة ، والله أعلم .

قال : وتقديم قصة سراقة على قصة أم معبد هو ما فى الأصل ، وقد التزم فيه ترتيب الوقائع وقضية الترتيب ذكر قصة أم معبد قبل قصة سراقة لأنه الصحيح الذى صرح به جماعة اه.

أقول : ومما يدل لذلك ماتقدم من أن كفار قريش لم يعلموا أين توجه صلى الله عليه وسلم حتى سمعوا الهاتف يذكر أم معبد .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل وقفوا على الباب فخرجت إليهم ؛ فقالوا : أين أبوك ؟ قلت : والله لاأدرى ، فرفع أبو جهل يده فلطم خدى لطمة خرم منها قرطى ، أى وفى لفظ : طرح منها قرطى . والقرط : مايعلق فى شحمة الأذن ، قالت . ثم انصرفوا فمضى ثلاث ليال ولم ندر أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، يغنى بأبيات وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته حتى خرج بأعلى مكة يقول : جزى الله رب الناس الأبيات كذا فى الأصل .

وفيه أن قولها لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر فى خروجه للغار ، وقولها فمضى ثلاث لاندرى أين توجه يقتضى أن المراد خروجه من الغار ، وتقدم أنهم علموا بخروجه إلى المدينة فى اليوم الثانى من خروجه من الغار ، وتقدم أنهم لم يعلموا بذلك إلا من الهاتف فليتأمل .

وقد تبع الأصل فى ذلك شيخه الحافظ الدمياطى حيث قدم خبر سراقة على قصة أم معبد ، إلا أن يقال الدمياطى لم يلتزم الترتيب فلا تحسن تبعيته ، وهنا قصة أخرى فيها زيادة ونقص . قيل هى قصة أم معبد وقيل غيرها ، « وهى أنه اجتاز صلى الله عليه وسلم بغنم فقال لراعيها لمن هذه ؟ فقال لرجل من أسلم ، فالتفت صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وقال : سلمت إن شاء الله تعالى ، ثم قال للراعى : ما اسمك ؟ قال مسعود ، فالتفت إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقال : سعدت إن شاء الله تعالى» .

وفى الإمتاع : ولقى بريدة بن الحصيب الأسلمى رضى الله تعالى عنه فى ركب من قومه فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا : أى والحصيب بضم الحاء المهملة وفتح الصاد .

وفى الشرف « أن بريدة لما بلغه ما جعلته قريش لمن يأخذ النبى صلى الله عليه وسلم طمع فى ذلك » فخرج هو فى سبعين من أهل بيته . وفى لفظ كانوا نحو ثمانين بيتا ، وحينئذ يراد ببيته قومه ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال له : من أنت ؟ قال : بريدة ابن الحصيب ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا أبابكر برد أمرنا وصلح ، قال : ممن أنت ؟ قال : من أسلم من بنى سهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم سلمنا وخرج سهمك يا أبا بكر » أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتفاءل ولا يتطير كما تقدم . ثم قال بريدة للنبى صلى الله عليه وسلم من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب رسول الله ، فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فأسلم بريده وكل من كان معه : أى وصلوا خلفه صلى الله عليه وسلم العشاء الآخرة ، ثم قال بريدة : يارسول الله لاتدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحل بريدة عمامته ، ثم شدها فى رمح ثم مشى بين يديه : أى وقال له كما فى الوفاء : تنزل علام يانبى الله ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن ناقتى هذه مأمورة ، فقال بريدة : الحمد لله الذى أسلمت بنو سهم » يعنى قومه « طائعين غير مكرهين » .

ولما سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة .

أقول : ولعل خروجهم كان فى ثلاثة أيام ، وهى المدة الزائدة على المسافة المعتادة بين مكة والمدينة التى كان بها فى الغار ، والله أعلم .

فانقلبوا يوما بعد أن طال انتظارهم أى وأحرقتهم الشمس ، وإذا رجل من اليهود صعد على أطم : أى محل مرتفع من آطامهم أى من محالهم المرتفعة لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين : أى لأنهم لقوا الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبابكر ثيابا بيضا كما فى البخارى .

وقيل إن الذى كساهما طلحة بن عبيد الله . قال فى النور : ولعلهما لقياه معا أومتعاقبين فكسواه وأبا بكر ما ذكر ، وهذا الجمع أولى من ترجيح الحافظ الدمياطى لهذا القيل :

ومن ثم ذكر الحافظ ابن حجر أن هذا القيل هو الذى فى السير . ومال الدمياطى إلى ترجيحه على عادته فى ترجيح ما فى السير على ما فى الصحيح ، لكنه ذكر أن ذلك كان شأنه فى ابتداء أمره ، فلما تضلع من الأحاديث الصحيحة كان يرى الرجوع عن كثير مما وافق عليه أهل السير وخالف الأحاديث الصحيحة .

فلما رآهم ذلك اليهودى يزول بهم السراب ، أى يرفعهم ويظهرهم : أى والسراب ما يرى كالماء فى وسط النهار فى زمن الحرّ ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم: أى حظكم الذى تنتظرون، أى وفى رواية: فلما دنوا من المدينة بعثوا رجلا من أهل البادية إلى أبى أمامة وأصحابه من الأنصار ، أى ولا مانع من وجود الأمرين ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فبلغوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة، أى وفى لفظ : فوافوه وهو مع أبى بكر فى ظل نخلة ، ولعل تلك النخلة كانت بظهر الحرة فلا مخالفة ، ثم قالوا لهما ادخلا آمنين مطمئنين . وفى لفظ: فاستقبله زهاء خمسمائة أى مايزيد على خمسمائة من الأنصار ، فقالوا : اركبا آمنين مطاعين ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء فى دار بنى عمرو بن عوف ، وذلك فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على كلثوم بن الهدم : أى لأنه كان شيخ بنى عمرو بن عوف : أى وهم بطن من الأوس ، قيل وكان يومئذ مشركا ثم أسلم وتوفى قبل بدر بيسير وقيل أسلم قبل وصوله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أى وعند نزوله صلى الله عليه وسلم نادى كلثوم بغلام له يانجيح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنجحت يا أبا بكر ، وكان يجلس للناس ويتحدث مع أصحابه فى بيت سعد بن خيثمة : أى لأنه كان عزبا لا أهل له هناك ، أى وكان منزله يسمى منزل العزاب ، والعزب من الرجال من لا زوجة له ولا يقال أعزب ، وقيل هى لغة رديئة .

أقول : وبذلك يجمع بين قول من قال: نزل على كلثوم وقول من قال: نزل على سعد ابن خيثمة ، ثم رأيت الحافظ الدمياطى أشار إلى ذلك ، والله أعلم .

ونزل علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما قدم المدينة على كلثوم أيضا بقباء بعد أن تأخر بمكة بعده صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال يؤدى الودائع التى كانت عند النبى صلى الله عليه وسلم ، لأمره له صلى الله عليه وسلم بذلك كما تقدم .

فلما توجه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قام علىّ رضى الله تعالى عنه بالأبطح ينادى:

من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وديعة فليأت تؤدى إليه أمانته ، فلما نفد ذلك ورد عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشخوص إليه؛ فابتاع ركائب وقدم ومعه الفواطم ، ومعه أم أيمن وولدها أيمن ، وجماعة من ضعفاء المؤمنين .

أقول : سيأتى ما يخالف ذلك ، وهو «أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل فى دار أبى أيوب بعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين يقدمان عليه بفاطمة وأم كلثوم بنته وسودة زوجته وأم أيمن وولدها أسامة » إلا أن يقال يجوز أن يكون الكتاب الذى فيه استدعاء سيدنا على رضى الله تعالى عنه للهجرة كان مع زيد وأبى رافع رضى الله تعالى عنهما وأنهما صحباه . ولا ينافى ذلك ماتقدم من أنه صلى الله عليه وسلم تأخر بعد علىّ رضى الله تعالى عنه بمكة ثلاث ليال يؤدى الودائع ، لأن تلك الليالى الثلاث كانت مدة تأدية الودائع ؛ ومكث بعدها إلى أن جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ يكون قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد نزوله بقباء على كلثوم فلا مخالفة ، لكن فى السيرة الهشامية « فنزل : أى علىّ معه أى مع النبى صلى الله عليه وسلم على كلثوم » وهو لا يتأتى إلا على القول بأنه صلى الله عليه وسلم مكث فى قباء بضع عشرة ليلة كما سيأتى ، وحينئذ يخالف ما سبق من مجيئه مع زيد وأبى رافع ، لما علمت أنه صلى الله عليه وسلم إنما أرسلهما بعد أن تحول من قباء إلى المدينة .

وفى الإمتاع : لما قدم علىّ من مكة كان يسير الليل ويكمن النهار حتى تفطرت قدماه ، فاعتنقه النبى صلى الله عليه وسلم ، وبكى رحمة لما بقدميه من الورم ، وتفل فى يديه وأمرّهما على قدميه فلم يشكهما بعد ذلك ، ولا مانع من وقوع ذلك من علىّ مع وجود مايركبه ، لأنه يجوز أن يكون هاجر ماشيا رغبة فى عظيم الأجر .

وفى السيرة الهشامية : أن إقامة علىّ بقباء كانت ليلة أو ليلتين ، وأنه رأى امرأة مسلمة لازوج لها يأتيها إنسان من جوف الليل يضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه ، قال علىّ : فسألتها فقالت : هذا سهل بن حنيف قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى غدا على أوثان قومه فكسرها ، ثم جاءنى بها فقال احتطبى بهذا : أى اجعليه للنار ، فكان علىّ يعرف ذلك لسهل بن حنيف والله أعلم .

قال : ونزل أبو بكر على حبيب بن أبى إساف ، وقيل على خارجة بن زيد بالسنح بضم السين المهملة فنون ساكنة فحاء مهملة .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ولد نبيكم يوم الاثنين ، وحملت به أمه يوم الاثنين ، وخرج من مكة : أى من الغار يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين .

قال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه صلى الله عليه وسلم كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين . زاد بعضهم : وفتح مكة كان يوم الاثنين ، ووضع الركن كان يوم الاثنين .

ومن الغريب ماحكاه بعضهم عن الربيع المالكى ، وكان بمصر كان يوم الاثنين خاصة إذا نام فيه تنام عيناه ولا ينام قلبه. وقيل خرج من مكة أى إلى الغار يوم الخميس ، وعليه يكون مكث صلى الله عليه وسلم فى الغار تلك الليلة التى هى ليلة الجمعة ، وليلة السبت وليلة الأحد ، وعليه يكون خروجه من الغار صبيحة ليلة الأحد .

ففى البخارى «أتاهما» أى الدليل «براحلتهما صبح ثلاث» وتقدم أن خروجهما إلى الغار كان ليلا من بيت أبى بكر ، وقول أبى بكر «سرنا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة» يقتضى أنهما خرجا من الغار ليلا ، بل أول الليل ، لأن مع التأكيد يبعد أن يكون المراد بقية ليلتنا ، وتقدم عن البخارى « أتاهما براحلتيهما صبح ثلاث » وحمل ذلك على ماقارب الصبح من الليل بعيد فليتأمل هذا المحل . وقيل دخلها أى المدينة ليلا كما فى رواية لمسلم ، أى وقال الحافظ ابن حجر : ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل فدخلها نهارا .

أقول : لعل مراد الحافظ أن الوصول كان ليلا إلى قرب المدينة فأقاموا بذلك المحل إلى أن أسفر النهار وساروا فما وصلوا إلا وقت الظهيرة ، فلا يخالف ماتقدم ، وقيل دخلها يوم الجمعة . وذكر الحافظ ابن حجر أنه شاذ والله أعلم .

وسرى السرور إلى القلوب بحلوله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . فعن البراء رضى الله تعالى عنه ، قال : مارأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير : أى الأسطحة عند قدومه صلى الله عليه وسلم يعلنّ بقولهن : طلع البدر علينا. الخ .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... مادعا لله داعى
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

قال : واستشكل بأن ثنيات الوداع ليست من جهة القادم من مكة ، بل هى من جهة الشام . فقد قال ابن القيم فى الهدى فى غزوة تبوك: ثنيات الوداع من جهة الشام لايطؤها القادم من مكة. ونقل الحافظ ابن حجر عنه عكس ذلك، وليس فى محله، وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم جاء من جهتها فى دخوله للمدينة عند خروجه من قباء اه .

أى وفى كلام بعضهم : «ما كان أحد يدخل المدينة إلا منها ، فإن لم يعبر منها مات قبل أن يخرج لوبائها كما زعمت اليهود، فإذا وقف عليها قيل قد ودع فسميت به؛ وقيل قيل لها ثنية الوداع لأن المودع يمشى مع المسافر من المدينة إليها، وهو اسم قديم جاهلى، وقيل إسلامى؛ سمى ذلك المحل لذلك، وقيل لأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ودعوا فيها النساء اللاتى استمتعوا بهن فى خيبر عند رجوعهن من خيبر ، أو وقع توديع من خرج إلى غزوة تبوك فيها، أو لكونه صلى الله عليه وسلم ودّع بعض المسافرين عندها ، وهذا يدل على أن هذا الشعر قيل له عند دخوله المدينة لا عند دخوله قباء ، وسياق بعضهم يقتضيه ؛ وسياق بعض آخر يقتضى أنه كان عند دخوله قباء ؛ ومن هذا تعلم أن المدينة تطلق ويراد بها مايشمل قباء ، ومنه قولنا وسرى السرور إلى القلوب بحلوله صلى الله عليه وسلم فى المدينة؛ فعن البراء إلى آخره ، وهى المرادة بدخوله المدينة يوم الاثنين على ماتقدم ؛ وتطلق ويراد بها ماقابل قباء وحينئذ تكون هذه المرادة بقول أنس : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة إلى آخره ، ولعل منه مافى بعض الروايات المتقدمة «دخل المدينة يوم الجمعة» الذى حكم الحافظ ابن حجر بشذوذه كما تقدم .

« ولما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم قام أبو بكر للناس » أى وأبو بكر شيخ : أى شيبه ظاهر ، والنبى صلى الله عليه وسلم شاب : أى شعر لحيته أسود مع كونه أسن من أبى بكر كما تقدم . وقد قال أنس : لم يكن فى الذين هاجروا أشمط غير أبى بكر « فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عايه وسلم يجىء أبا بكر فيعرفه بالنبى صلى الله عليه وسلم حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرفه الناس » أى عرفه من جاء منهم بعد ذلك : أى لأن عدم تأثير الشمس فيه لتظليل الغمامة كان قبل البعثة إرهاصا كما تقدم .

ومما يدل على أن خروجه من قباء كان يوم الجمعة قول بعضهم « ولبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف » أى فى قباء « بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وخرج يوم الجمعة » وقيل لبث بضع عشرة ليلة ، وهو المنقول عن البخارى .

وعن ابن عقبة « أقام صلى الله عليه وسلم ثنتين وعشرين ليلة» وفى الهدى « أقام أربعة عشر يوما » وهو مافى صحيح مسـلم فليتأمل « وأسس فى قباء المسجد الذى أسس على التقوى : أى الذى نزلت فيه الآية ، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » قال فى الهدى : ولا ينافى هذا قوله صلى الله عليه وسلم « وقد سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : مسجدكم هذا ، وأشار لمسجد المدينة » أى وفى رواية «فأخذ حصاة فضرب بها الأرض ، وقال : مسجدكم هذا » يعنى مسجد المدينة ، لأن كلا منهما مؤسس على التقوى هذا كلامه . ويوافقه مانقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان يرى كل مسجد بنى بالمدينة الشاملة لقباء أسس على التقوى : أى لكن الذى نزلت فيه الآية مسجد قباء «وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من قباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار » قال: قيل وكان محل مسجد قباء مربد أى محلا يجفف فيه التمر لكلثوم بن الهدم ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام لعموم المسلمين ، فلا ينافى أنه بنى قبله غيره من المساجد، لكن لخصوص الذى بناه كالمسجد الذى بناه الصديق بفناء داره بمكة كما تقدم انتهى .

أى وفى كلام ابن الجوزى : أول من بنى مسجدا فى الإسلام عمار بن ياسر .

وفى السيرة الهشامية عن الحكم بن عيينة « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قباء قال عمار بن ياسر : مالرسول الله صلى الله عليه وسلم بد من أن يجعل له مكانا يستظل به إذا استيقظ ويصلى فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء » أى فانه لما جمع الحجارة أسسه صلى الله عليه وسلم واستتم بنيانه عمار ، فعمار أول من بنى مسجدا لعموم المسلمين .

قال : وعن جابر « لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم النبى صلى الله عليه سلم بسنتين ، نعمر المساجد ، ونقيم الصلاة » انتهى .

ونعمر يحتمل أن يكون بالتخفيف فيكون عطف نقيم الصلاة من عطف التفسير . ويحتمل أن يكون بالتشديد فيكون بناء المساجد تعدد فى المدينة قبل قدومه صلى الله عليه وسلم وفيه أن الحافظ ابن حجر قال : كان بين ابتداء هجرة الصحابة وبين هجرته صلى الله

عليه وسلم شهران ونصف شهر على التحرير كما تقدم ، أى ورواية جابر تدل على أنه كان بين اجتماع الاثنى عشر من الأنصار به صلى الله عليه وسلم ومجيئهم إلى المدينة وبين قدومه صلى الله عليه وسلم للمدينة سنتان .

وقد يقال : ليس مراد جابر أن ابتداء المدة من قدوم الاثنى عشر عليه ، بل مراده أن ابتداءها من قدوم الستة عليه الذين منهم جابر ، والمدة تزيد على السنتين فليتأمل . وهو: أى مسجد قباء أول مسجد صلى فيه صلى الله عليه وسلم بأصحابه جماعة ظاهرين أى آمنين .

وقيل: إن هذا المسجد بناه المهاجرون والأنصار يصلون فيه ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد قباء صلى فيه ولم يحدث فيه شيئا .

ويخالفه ماتقدم عن السيرة الهشامية ، وما فى الطبرانى بسند رجاله ثقات ، عن الشموس بفتح الشين المعجمة بنت النعمان رضى الله تعالى عنها قالت « نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم ونزل وأسس المسجد مسجد قباء ، فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يصهره الحجر » أى يتبعه « فيأتى الرجل من أصحابه فيقول : يارسول الله بأبى أنت وأمى تعطينى أكفك . فيقول: لآخذ مثله حتى أسسه .

أى وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما أراد بناءه قال : ياأهل قباء ائتونى بأحجار من الحرة ، فجمعت عنده أحجار كثيرة ، فخط القبلة وأخذ حجرا فوضعه ، ثم قال : ياأبا بكر خذ بحجر فضعه إلى جنب حجرى ، ثم قال : ياعمر خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر أبى بكر ، ثم قال: ياعثمان خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر عمر » قال بعضهم : كأنه صلى الله عليه وسلم أشار إلى ترتيب الخلافة ، وسيجىء فى بناء مسجد المدينة نحوه ، ويحتاج للجمع بين هذه الروايات .

وبعد تحوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان يأتيه يوم السبت ماشيا وراكبا وقال « من توضأ وأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه كان له أجر عمرة » وروى : أى الترمذى والحاكم وصححاه عن أسيد بن حضير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » وفى رواية « من صلى فى مسجد قباء يوم الاثنين والخميس انقلب بأجر عمرة » وكان عمر رضى الله تعالى عنه يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس ، وقال : لو كان بطرف من الأطراف . وفى رواية فى أفق من الآفاق لضربت إليه أكباد الإبل .

أى وصح الحاكم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال « كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم يكثر الاختلاف إلى قباء ماشيا وراكبا » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن أبيه قال « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين إلى قباء » وعن ابن عمر « أنه صلى الله عليه وسلم كان يأتى مسجد قباء فيصلى فيه ركعتين » وعنه قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء فقام يصلى فجاءته الأنصار تسلم عليه . فقلت لبلال : كيف رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عليهم ، قال : يشير إليهم بيده وهو يصلى » أى يجعل باطنها إلى أسفل وظهرها إلى فوق .

وقد وقعت له صلى الله عليه وسلم الإشارة فى الصلاة برد السلام لما قدمت عليه ابنته رضى الله تعالى عنها من الحبشة وهو يصلى فسلمت فأومأ إليها برأسه .

وفى الهدى : وأما حديث « من أشار فى الصلاة إشارة تفهم عنه فليعد صلاته » فحديث باطل . وفى كلام بعضهم : قد ثبت فى الأحاديث الصحيحة « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم عليه أحد وهو فى الصلاة أشار بأصبعه المباركة جواب السلام » وليس لهذه الأحاديث معارض إلا حديث مجهول ، وهو « من أشار فى صلاته إشارة مفهمة فليعد صلاته » وهذا الحديث لا يصلح للمعارضة .

ولما نزل قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألهم عن ذلك فقال : ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم به . فقالوا : يارسول الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، فقال : هو هذا » وفى لفظ « أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد قباء » أى وفى الكشاف « ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم ثم أعادها ، فقال عمر : يارسول الله إنهم لمؤمنون وأنا منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : أتؤمنون بالقضاء ؟ قالوا نعم ، قال : وتصبرون على البلاء ؟ قالوا نعم ، قال : أتشكرون على الرخاء ؟ قالوا نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : مؤمنون ورب الكعبة ، فجلس وقال : يامعشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم ، فما الذى تتبعون عند الوضوء وعند الغائط » أى المعبر عنه بالطهور « فقالوا : يارسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء ، فتلا النبى صلى الله عليه وسلم (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) » هذا كلامه . وفى رواية ، « فقال إن الله قد أحسن إليكم الثناء فى الطهور ، فما هذا الطهور الذى تتطهرون به ؟ قالوا : يارسول الله مانعلم شيئا ، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون

أدبارهم من الغائط فغسلناها كما غسلوا » وفى لفظ « كنا نستنجى بالماء فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام لم ندعه ، قال : فلا تدعوه » وفى لفظ « قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، فقال : هل مع ذلك غيره ؟ قالوا لا غير إن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجى بالماء » وفى رواية ، « نستنجى من البول والغائط » زاد فى رواية « ولاننام الليل كله على الجنابة ، قال : هو ذاك فعليكموه » أى الزموه .

أى وفى مسند البزار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم لما سألهم قالوا: إنا نتبع الحجارة الماء . قال بعضهم فى إسناده ضعف ، وبهذا وما تقدم من ذكر الحجارة يرد على الإمام النووى حيث قال : هكذا أى ذكر الحجر مع الماء فى خبر الأنصار بقباء رواه الفقهاء فى كتبهم ، وليس له أصل فى كتب الحديث ، بل المذكور فيها أنهم قالوا كنا نستنجى بالماء وليس فيها مع الحجر . أى ويكون السكوت عن ذكر الحجر لكونه كان معلوما فعله .

وفى الخصائص الصغرى أن مما اختص به صلى الله عليه وسلم فى شرعه وأمته الاستنجاء بالجامد ، وبالجمع فيه بين الماء والحجر .

ومن أهل قباء عويمر بن ساعدة قال فى حقه صلى الله عليه وسلم « نعم العبد من عباد الله والرجل من أهل الجنة عويمر بن ساعدة » أى لأنه كان أول من استنجى بالماء كما قيل ، أى ومن ثم جاء تخصيصه بالسؤال . فقد روى البيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عويمر بن ساعدة فقال : ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم به . فقال : يانبى الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط » الحديث ، وهذا السياق ربما يقتضى أن الاستنجاء بالماء لم يكن معروفا فى غير أهل قباء نزول هذه الآية .

وفى كلام بعضهم : أول من استنجى بالماء إبراهيم الخليل . وكره بعض الصحابة الاستنجاء بالماء وهو حذيفة ، ولعله لكونه فى الاستنجاء بالماء عدول عن الرخصة .

ونقل عن ابن عمر أنه كان لايستنجى بالماء ، ولعله لما ذكرنا ، وكذا مانقل عن ابن الزبير « ما كنا نفعله » وعن الإمام أحمد أنه لم يصح حديث فى الاستنجاء بالماء . وبالغ مغلطاى فى رده . وعن سيدنا مالك إنكار أن النبى صلى الله عليه وسلم استنجى بالماء ، ولعل المراد إنكار صحة ذلك عنه صلى الله عليه وسلم فليتأمل .

وذكر الأحجار فى الخبر يؤيد ظاهره ماذكره إمامنا فى الأم أن سنة الجمع بين الحجر

والماء تتوقف على كون الاستنجاء بالحجر كافيا لو اقتصر عليه بقوله والاستنجاء بالحجر كاف ، ولو أتى به : أى بالاستنجاء الكافى رجل ثم غسل بالماء كان أحب إلىّ ، وإنما قلنا ظاهره لإمكان رجوع الضمير للاستنجاء لابقيد كونه كافيا .

والذى عليه متأخرو أصحابنا أن سنة الجمع يكتفى فيها بازالة العين ولو بحجر واحد . وقد يقال هذا محبوب ، وماذكره الإمام أحب .

ولايخفى أن حديث الأنصار يقتضى اختصاص سن الجمع بين الحجر والماء بالغائط ، وبه قال القفال فى كتابه [محاسن الشريعة] والمفهوم من نص الأم أن مثل الغائط البول، ثم بعد إقامته صلى الله عليه وسلم المدة المذكورة بقباء ركب راحلته الجدعاء ، وقيل القصواء ، وقيل العضباء . أى قاصدا المدينة . والجدعاء بالدال المهملة: المقطوعة الأنف أو مقطوعة الأذن كلها . والقصواء : المقطوع طرف أذنها . والغضباء: المشقوقة الأذن . قال بعضهم . وهذه ألقاب ، ولم يكن بها : أى بتلك النوق شىء من ذلك ، وسيأتى عن الأصل أن هذه ألقاب لناقة واحدة .

ولما ركب صلى الله عليه وسلم وخرج من قباء وسار سار الناس معه مابين ماش وراكب أى ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شحا : أى حرصا على كرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما له حتى دخل المدينة . قال : وصار الخدم والصبيان يقولون: الله أكبر ، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ولعبت الحبشة بحرابها فرحا برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قالت بنو عمرو بن عوف له صلى الله عليه وسلم: «يارسول الله أخرجت ملالا لنا ، أم تريد دارا خيرا من دارنا ؟ قال إنى أمرت بقرية تأكل القرى» أى تغلبها وتقهرها ، والمراد أهلها: أى أن أهلها تفتح القرى فيأكلون أموال أهل تلك القرى ، ويسبون ذراريهم فخلوا سبيلها ، يعنى ناقته صلى الله عليه وسلم ، أى ومن أسماء تلك القرية المدينة .

وروى الشيخان «أمرت بقرية تأكل القرى يثرب وهى المدينة» فالمدينة علم بالغلبة على تلك القرية كالنجم للثريا إذا أطلق فهى المرادة ، وإن أريد غيرها قيد ، والنسبة إليها مدنى، ولغيرها من المدن مدينى للفرق بينهما. ويثرب: اسم محل فيها سميت كلها به، ولعل ذلك المحل سمى بذلك لأنه نزل به يثرب من نسل نوح . وفى الحديث «المدينة تنفى الناس» أى شرارهم «كما ينفى الكير خبث الحديد» .

ففى بعض الروايات « لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها » قيل وكان ذلك فى حياته صلى الله عليه وسلم . وقيل يكون ذلك فى زمن الدجال ، فقد جاء أن الدجال يرجف بأهلها فلا يبقى منافق ولا كافر إلا خرج إليه » وفى رواية « ينزل الدجال السبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج الله منها كل منافق وكافر » وبهذا استدل من قال : كون المدينة تنفى الخبث ليس عاما فى الأزمنة ولا فى الأشخاص ، لأن المنافقين كانوا بها ، وخرج منها جماعة من خيار الصحابة منهم على وطلحة والزبير وأبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود .

وفى كلام ابن الجوزى أن عبد الله بن مسعود مات بالمدينة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أىّ أرض مات بها رجل من أصحابى كان قائدهم ونورهم يوم القيامة » وفى رواية « فهو شفيع لأهل تلك الأرض » .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » أى خير لهم من بلاد الرخاء ، بدليل صدر الحديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلم إلى الرخاء هلم إلى الرخاء والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذى نفسى بيده لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله من هو خير منه » أى من خرج منها رغبة عنها إلى غيرها من بلاد الرخاء والسعة فلا دليل فى ذلك على أنها أفضل من مكة .

ومن أسمائها أكالة البلدان ، ومن أسمائها البارة بتشديد الراء ، وتسمى الفاضحة لأن من أضمر فيها شيئا أظهر الله ما أضمره وافتضح به : أى فالمراد أضمر شيئا من السوء . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى ، هى طابة » كشامة « هى طابة ، هى طابة ، قال ذلك ثلاثا » وفى رواية « فليستغفر الله ، فليستغفر الله ، فليستغفر الله ، هى طيبة » كهيبة « هى طيبة ، هى طيبة ، هى طائب » ككاتب .

قيل : وإنما سميت طيبة لطيب رائحة من مكث بها وتزايد روائح الطيب بها ، ولا يدخلها طاعون ولا دجال ، ولا يكون بها مجذوم : أى لأن ترابها يشفى من الجذام ، وتسميتها يثرب فى القرآن إنما هو حكاية لقول المنافقين أى بعد نهيهم عن ذلك ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لا أراها إلا يثرب » أى ونحو ذلك من كل ما وقع فى كلامه صلى الله عليه وسلم من تسميتها بذلك كان قبل النهى عن ذلك انتهى .

أى وجاء « إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها » ويأزر بكسر الزاى أى ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض ، وفى رواية « إن الإسلام بدا غريبا ، وسيعود غريبا كما

بدا ، يأزر كما تأزر الحية إلى جحرها » ، وإنما كرهت تسميتها بيثرب ، لأن يثرب مأخوذ من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب ، ومنه قوله تعالى (لاتثريب عليكم اليوم) أو من الثرب بالتحريك وهو الفساد .

وعن القاسم بن محمد ، قال : بلغنى أن للمدينة فى التوراة أربعين اسما ، وقيل أحد عشر ، من جملتها سكينة ، أى ومن جملتها الجابرة : أى التى تجبر ، والعذراء والمرحومة . وفى كلام بعضهم : لها نحو مائة اسم منها دار الأخيار ، ودار الأبرار ، ودار الإيمان ، ودار السنة ، ودار السلامة ، ودار الفتح . قال الإمام النووى : لايعرف فى البلاد أكثر اسما منها ومن مكة .

ومما يدل على أن خروجه صلى الله عليه وسلم من قباء متوجها إلى المدينة كان يوم الجمعة قول بعضهم : وعند مسيره صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم ابن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى بمن معه من المسلمين وهم مائة ، وصلاها بعد ذلك فى المدينة وكانوا به صلى الله عليه وسلم أربعين .

فعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه « أنه صلى الله عليه وسلم جمع بالمدينة وكانوا أربعين رجلا ، أى ولم يحفظ أنه صلاها مع النقص عن هذا العدد ومن حينئذ صلى الجمعة فى ذلك المسجد . سمى هذا المسجد بمسجد الجمعة ، وهو على يمين السالك نحو قباء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة : أى وخطب لها ، وهى أول خطبة خطبها فى الإسلام أى ومن خطبته تلك « فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمة الله وبركاته » وفى رواية « والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ونقل القرطبى هـــذه الخطبة فى تفسيره ، وأوردها جميعها فى المواهب ، وليس فيها هذا اللفظ .

أقول : هذا واضح إن كان أقام فى قباء الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس كما تقدم وأما على أنه صلى الله عليه وسلم أقام بضع عشرة ليلة أو أكثر من ذلك كما تقدم ، فيبعد أنه لم يصل الجمعة فى قباء فى تلك المدة . ثم رأيت فى كلام بعضهم أنه كان يصلى الجمعة فى مسجد قباء فى إقامته هناك .

أى ويبعد أنه صلاها من غير خطبة . وفى الجامع الصغير « إن الله كتب عليكم الجمعة

فى مقامى هذا ، فى ساعتى هـذه ، فى مشهدى هذا ، فى عامى هذا إلى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر مع إمام عادل أو إمام جائر فلا جمع له شمله ولا بورك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ولا حج له ، ألا ولا بركة له ولا صدقة له » فإن كان قال ذلك فى هذه الخطبة التى خطبها فىمسجد الجمعة كما هو المتبادر،اقتضى ذلك أنها لم تـكن واجبة قبل ذلك وهو مخالف قول فقهائنا أنها وجبت بمكة ولم تقم بها لعدم قدرتهم على إظهارها بمكة ؛ لأن إظهارها أقوى من إظهار جماعة الصلوات الخمس .

وفى الإتقان مما تأخر حكمه عن نزوله آية الجمعة فإنها مدنية والجمعة فرضت بمكة . وقول ابن الغرس إن إقامة الجمعة لم تـكن بمكة قط يرده ماأخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك ، قال : كنت قائد أبى حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع النداء يستغفر لأبى أمامة أسعد بن زرارة ، فقلت : ياأبتاه أرأيت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة لم هذا ؟ قال : أى بنى ، كان أول من صلى بنا الجمعة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، هذا كلامه ، وليتأمل ماوجه الرد من هذا .

وجاء « صلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها ،وصيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها » كذا فى الوفاء عن نافع عن ابن عمر . وأول قرية صليت فيها الجمعة بعد المدينة قرية عبد القيس بالبحرين ، وهل كانت الخطبة قبل الصلاة أو بعدها .

فى الدر أنه صلى الله عليه وسلم كان وهو بالمدينة يخطب الجمعة بعد أن يصلى مثل العيدين ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذ قدمت عير دحية الكلبى ، وكان إذا قدم يخرج أهله للقائه بالطبل واللهو ، ويخرج الناس للشراء من طعام تلك العير والتفرج عليها ، وقيل للتفرج على وجه دحية ، فقد قيل كان إذا قدم دحية المدينة لم تبق معصر إلا خرجت لتنظر إليه لفرط جماله . ولا مانع أن يكون ذلك لاجتماع الأمرين ، فانفض الناس ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم إلا نحو اثنى عشر رجلا . والجلال المحلى فى قطعة التفسير أسقط لفظ نحو : أى وانفضاض ماعدا هؤلاء ، يحتمل أن يكون بعد ذلك فى حال الخطبة قبل تمام الأركان . ويحتمل أن يكون بعد ذلك .

وعلى الأول : يجوز أن يكون رجع ممن انفض ما يكمل به العـدد أربعين قبل طول

الفصل . وقد أعاد صلى الله عليه وسلم مالم يسمعوه من أركان الخطبة عند انفضاضهم ، فلا يخالف ما ذهب إليه إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه من وجوب سماع أربعين لأركان الخطبة .

قال مقاتل : بلغني أنهم فعلوا ذلك أي الانفضاض عند الخطبة ثلاث مرات ، فأنزل الله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا) الآية . ثم صار صلى الله عليه وسلم يخطب قبل أن يصلي أي ليحافظ الناس على عدم الإنفضاض لأجل الصلاة ، وعليه انعقد الإجماع ، فلا نظر لمخالفة الحسن البصري . وحينئذ يكون قول بعض فقهائنا استدلالا على وجوب تأخر صلاة الجمعة عن الخطبتين يثبت صلاته صلى الله عليه وسلم بعد خطبتين أي استقر ثبوت ذلك .

وعن الزهري « بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا خطب » أي في غير الخطبة المتقدمة «كل ما هو آت قريب لابعد لما هو آت ، لا يعجل الله لعجلة أحد ولا يخف لأمر من الناس ، يريد الناس أمرا ويريد الله أمرا ، فما شاء الله كان لا ما شاء الناس ، وما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مبعد لما قرب الله ، ولا مقرب لما بعد الله ولا يكون شيء إلا بإذن الله » والله أعلم .

ثم ركب صلى الله عليه وسلم راحلته بعد الجمعة متوجها للمدينة : أي وقد أرخى زمامها ولم يحركها وهي تنظر يمينا وشمالا ، فسأله بنو سالم منهم عتبان بكسر العين المهملة ابن مالك ، ونوفل بن عبد الله بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، فقالوا : يارسول الله أقم عندنا في العدد والعزة والمنعة . وفي لفظ « والثروة » وفي لفظ «أنزل فينا ، فإن فينا العدد والعدة والحلقة » أي السلاح «ونحن أصحاب الحدائق والدرك ، يارسول الله كان الرجل من العرب يدخل هذه البحيرة خائفا فيلجأ إلينا ، فقال لهم خيرا ، وقال : خلوا سبيلها » يعني ناقته « دعوها فإنها مأمورة » ، أي وفي رواية « إنها مأمورة خلوا سبيلها وهو يتبسم ويقول : بارك الله عليكم ، فانطلقت حتى وردت دار بني بياضة » أي محلتهم ، أي والمراد القبيلة « فسأله بنو بياضة أي ومنهم زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو بمثل ما تقدم ، وأجابهم بأنها مأمورة خلوا سبيلها ، فانطلقت حتى وردت دار بني ساعدة أي ومنهم سعد ابن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة ، فسأله بنو ساعدة بمثل ذلك وأجابهم بخلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فانطلقت حتى مرت بدار عدي بن النجار وهم أخواله صلى الله عليه وسلم»

أى أخوال جده عبد المطلب كما تقدم أى بأوائل دورهم « فسأله بنو عدى بن النجار أى أولئك الطائفة منهم بمثل ما تقدم » أى وفى رواية « أنهم قالوا له : نحن أخوالك ، هلم إلى العدة والمنعة والعزة مع القرابة لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله » أى زاد فى رواية لا تجاوزنا ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا ، وأجابهم بأنها مأمورة ، فانطلقت حتى بركت فى محل من محلات بنى النجار وذلك فى محل المسجد، أى محل بابه أو فى محل المنبر الآن وذلك عند دار بنى مالك بن النجار ، وعند باب أبى أيوب الأنصارى » أى واسمه خالد بن زيد النجارى الأنصارى الخزرجى شهد العقبة وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع على بن أبى طالب من خاصته شهد معه الجمل وصفين والنهروان . غزا أيام معاوية أرض الشام مع يزيد بن معاوية سنة خمسين ، وقيل : إحدى وخمسين فتوفى عند مدينة قسطنطينية فدفن هناك . وأمر يزيد بالخيل فجعلت تقبل وتدبر على قبره حتى خفى أثر القبر خوفا أن تنبشه الكفار ، فكان المشركون إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فيمطروا فلم ينزل عنها صلى الله عليه وسلم ثم وثبت ، وسارت غير بعيد ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها ، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مبركها فبركت فيه وتجلجلت أى بالجيم تضعضعت ووضعت جرانها أى باطن عنقها من المذبح إلى المنحر ، وأزرمت أى صوتت من غير أن تفتح فاها فنزل عنها صلى الله عليه وسلم ، وقال (رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) أى قال ذلك أربع مرات ، وأخذه صلى الله عليه وسلم الذى كان يأخذه عند الوحى أى وسرى عنه وقال : هذا إن شاء الله يكون المنزل أى وأمر أن يحط رحله وفى لفظ : أن أبا أيوب قال له ائذن لى أن أنقل رحلك فأذن له ، واحتمل أبو أيوب رحله فوضعه فى بيته ، أى وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده ، أى وذكر بعضهم أن أبا أيوب لما نقل رحله أناخ الناقة فى منزله . وقد يقال : لا مخالفة ، لجواز أن يكون أسعد أخذ بزمامها بعد ذلك فكانت عنده .

أى وعن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه « لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة اقترعت الأنصار أيهم يأويه فقرعتهم » الحديث . وقد يقال : مراده بالأنصار أهل تلك المحلة التى بركت فيها الناقة .

وذكر السهيلى أنها لما ألقت جرانها فى دار بنى النجار : أى فى محل من محلاتها جعل

رجل من بنى سلمة وهو جبار بن صخر ، أى وكان من صالحى المسلمين ينخسها رجاء أن تقوم فينزل فى دار بنى سلمة فلم تفعل .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم « قال خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث ، ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير » .

ولما بلغ ذلك سعد بن عبادة وجد فى نفسه وقال : خلفنا فكنا آخر الأربع ، أسرجوا لى حمارى آت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ابن أخته سهل ، فقال : أتذهب لترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم ؟ أو ليس حسبك أن تكون رابع أربع ، فرجع وقال : الله ورسوله أعلم ، وأمر بحماره فحل عنه . وفى رواية قال له : اجلس ، ألا ترضى أن سماك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأربع الدور التى سمى ، فمن ترك فلم يسم أكثر ممن سمى ، فانتهى سعد بن عبادة عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجت جويريات من بنى النجار بالدفوف يقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أتحببننى ، وفى رواية أتحبوننى ؟ قلن نعم يا رسول الله ، فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكن » وفى رواية « والله أحبكم » وفى رواية « وأنا والله أحبكم ، وأنا والله أحبكم ، وأنا والله أحبكم قال ذلك ثلاثا » وهذا دليل لسماع الغناء على الدف من المرأة لغير العرس ؛ ويدل لذلك أيضا ما جاء عن ابن عباس مرفوعا « أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم جلسوا سماطين ، وجاءت جارية يقال لها سيرين معها مزهر تختلف به بين القوم ، وهى تغنيهم وتقول :

هل على ويحكم إن لهوت من حرج

فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « لا حرج إن شاء الله تعالى » .

وما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان من جوارى الأنصار يغنيان » وفى رواية « يضربان بدفين ، فاضطجع صلى الله عليه وسلم على الفراش وحول وجهه ، ودخل أبو بكر رضى الله تعالى عنه فانتهرنى ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعها » وفى رواية « قال أبو بكر بمزمور » وفى رواية « بمزمار » وفى لفظ « بمزمارة الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ذلك مرتين وانتهرنى ، وكان صلى الله عليه وسلم متغشيا بثوبه ،

فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه الشريف ، فقال : دعها يا أبابكر فإنها أيام عيد » أى لأن تلك كانت أيام منى .

وقيل كان يوم عيد الفطر . وقيل الأضحى ، ولا مانع من تعدد الواقعة .

أقول : فى البخارى عن الربيّع بنت معوّذ « أنه صلى الله عليه وسلم دخل عليها غداة بنى عليها وعندها جويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر ، حتى قالت جارية: وفينا نبى يعلم ما فى غد ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم لاتقولى هكذا ، وقولى ما كنت تقولين » .

وفى حديث أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى بعض مغازيه ، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت : يارسول الله إنى كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف ، فقال لها : إن كنت نذرت فاضربى ، فجعلت تضرب ، فدخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها وقعدت عليه ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ليفرق منك ياعمر ، إنى كنت جالسا وهى تضرب ودخل أبوبكر وهى تضرب ، فلما دخلت أنت ألقت الدف » أى وإذا كان الشيطان يخاف منك فما بالك بامرأة ضعيفة العقل .

ولا ينافى هذا : أى سماعه الغناء من المرأة مع الضرب على الدف ما تقدم فى باب ما حفظ به صلى الله تعالى عليه وسلم فى صغره من أمر الجاهلية ، لأن الدف ثم كان معه مزمار بخلافه هنا ، وتسمية أبى بكر رضى الله تعالى عنه الدف مزمارا ، لأنه كان يعتقد حرمة ذلك ، فشبهه بالمزمار المحرم سماعه .

قال بعضهم : واعلم أن السماع فى طريق القوم معروف وفى الجواذب إلى المحبة معدود وموصوف . وقال بعض آخر : إنه من أكبر مصايد النفوس أى والرجوع بها إلى الله تعالى . وقد شوهد تأثير السماع فى الحيوانات غير الناطقة بل فى الأشجار ، ومن لم يحركه السماع فهو فاسد المزاج غليظ الطبع .

وعن أبى بشر : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبا بكر مرّا بالحبشة وهم يلعبون ويرقصون ويقولون :

يا أيها الضيف المعرج طارقا ... لولا مررت بآل عبد الدار
لولا مررت بهم تريد قراهم ... منعوك من جهد ومن إقتار

أى ولم ينكر عليهم ، وبه استدل أئمتنا على جواز الرقص حيث خلا عن التكسر ، فقد صحت الأخبار وتواترت الآثار بإنشاد الأشعار بين يديه صلى الله عايه وسلم بالأصوات الطيبة مع الدف وبغيره ، وبذلك استدل أئمتنا على جواز الضرب بالدف ولو فيه جلاجل لما هو سبب لإظهار السرور . وعلى جواز إنشاد الشعر واستماعه ، حيث خلا عن هجو لغير نحو فاسق متجاهر بفسقه ، وخلا عن تشبب بمعين من امرأة أو غلام ، والخلاف إنما هو فى سماع الملاهى كالأوتار والمزامير ، وخوف الفتنة من سماع صوت المرأة أو الأمرد الجميل .

ونقل عن الجنيد أنه قال : الناس فى السماع : أى سماع الآلات على ثلاثة أضرب العوام وهو حرام عليهم لبقاء نفوسهم . والزهاد وهو مباح لهم لحصول مجاهداتهم. والعارفون وهو مستحب لهم لحياة قلوبهم . وذكر نحوه أبو طالب المكى ، وصححه السهروردى فى عوارف المعارف .

وفى كلام بعضهم : جبلت النفوس حتى غير العاقلة على الإصغاء إلى ما يحسن من سماع الصوت الحسن ، فقد كانت الطيور تقف على رأس داود عليه الصلاة والسلام لسماع صوته ، لكن يشكل على ذلك ما أخرجه ابن أبى شيبة عن صفوان بن أمية وهو من المؤلفة قال : «كنا عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ جاء عمر بن قرة ، فقال : يارسول الله إن الله كتب علىّ الشقوة فلا أنال الرزق إلا من دفى بكفى ، فأذن لى فى الغناء من غير فاحشة ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لا إذن لك ولا كرامة ولا نعمة ، كذبت أى عدوّ الله : أى ياعدوّ الله ، والله لقد رزقك الله طيبا فاخترت ماحرّم الله عليك من رزقه ، مكان ما أحل الله لك من حلاله ، أما إنك لو قلت بعد كهذه المقالة ، لضربتك ضربا وجيعا » إلا أن يقال هذا النهى إن صح محمول على من يتخذ ضرب الدف حرفة ، وهو مكروه تنزيها . وقوله صلى الله عليه وسلم « اخترت ما حرم الله عليك » إلى آخره للمبالغة فى التنفير عن ذلك .

« ونزل صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب وقال : المرء مع رحله ، أى بعد أن قال أى بيوت أهلنا يعنى أهل تلك المحلة من بنى النجار أقرب ؟ فقال أبو أيوب : دارى هذه وقد حططنا رحلك فيها ، فذهبت تلك الكلمة أى التى هى : المرء مع رحله مثلا وقال : اذهب فهيئ لنا مقيلا فذهب فهيأ ذلك ، ثم جاء فقال : يانبى الله قد هيأت مقيلا فقم على

بركة الله تعالى ، ونزل معه صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه » .

أقول : وفى رواية « فتنازع القوم أيهم ينزل عليه » أى كل يحرص على أن تكون داره له منزلا أى مقاما « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الليلة على بنى النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك ، فلما أصبح غدا حيث أمر » وحينئذ يكون قوله صلى الله عليه وسلم: أنزل الليلة : أى غد تلك الليلة ، ولا يخالف هذا ماقبله من قول بنى النجار هلم إلينا ، وقوله لهم : إنها مأمورة ، لجواز أن يكون أمر بالنزول عليهم .

واعلم أن خصوص البقعة والمحلة من محلات بنى النجار التى ينزل بها من دارهم ما تبرك به الناقة . وفيه أنه يبعد مع ذلك ، أى مع قوله المذكور أى أنه ينزل على بنى النجار سؤال غير بنى النجار فى النزول عنده ، إلا أن يقال لعل السائلين له صلى الله عليه وسلم فى ذلك لم يبلغهم قوله المذكور ، أو جوزوا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم بدا له فى ذلك رأى ، وقد أشار إلى نزوله صلى الله تعالى عليه وسلم على بنى النجار الامام السبكى فى تائيته بقوله :

نزلت على قوم بأيمن طائر لأنك ميمون السنا والنقيبة
فيالبنى النجار من شرف به يجرون أذيال المعالى الشريفة

وهذا السياق يدل على أن تنازع القوم ، وقوله لهم المذكور كان فى آخر ليلة ، وهو فى قباء ، وهو يرد قول بعضهم : يشبه أن يكون ذلك فى أول قدومه صلى الله عليه وسلم من مكة قبل نزوله قباء ، لا فى قدومه باطن المدينة . فالمراد بأهل المدينة أهل قباء .

ويرد قول سبط ابن الجوزى لعله نزل على بنى النجار ليلة انتهى : أى تلك الليلة ثم ارتحل إلى بنى عمرو بن عوف أى فى قباء هذا . وفى رواية عن أنس بن مالك رضى الله عنه « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل فى علو المدينة فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ من بنى النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم . قال أنس : فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر رديفه وملأ من بنى النجار حوله حتى أناخ بفناء أبى أيوب » وهذه الرواية وقع فيها اختصار كبير .

ويقال « إنه صلى الله عليه وسلم عرج على عبد الله بن أبى ابن سلول وكان جالسا محتبيا وأراد النزول عليه ، فقال له اذهب إلى الذين دعوك وانزل عليهم ، فقال له سعد

ابن عبادة : يا رسول الله لاتجد فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه » وقد وقع له فى بعض الأيام « أنه صلى الله عليه وسلم ، قيل له : يارسول الله لو أتيت عبد الله بن أبى ابن سلول » أى متألفا له ليكون ذلك سببا لإسلام من تخلف من قومه ، وليزول ماعنده من النفاق « فانطلق النبى صلى الله عليه وسلم وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون معه ، فلما أتاه النبى صلى الله عليه وسلم قال له : إليك عنى ، والله لقد آذانى نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهما ضرب بالجريد ، والأيدى والنعال ، فنزل (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) » كذا فى البخارى .

وفيه أيضا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على بن أبى ابن سلول وهو فى جماعة فقال ابن أبىّ : لقد عثا ابن أبى كبشة فى هذه البلاد ، فسمعها ابنه عبد الله رضى الله تعالى عنه ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيه برأسه ، فقال له صلى الله عليه وسلم لا ، ولكن برّ أباك » وكان ابن أبىّ جميل الصورة ممتلىء الجسم ، فصيح اللسان ، وهو المعنىّ بقوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) الآية ، ولكونه متبوعا جىء فيه بصيغة الجمع .

وعن الزهرى «أخبرنى عروة بن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب حمارا على إكاف وأردف أسامة وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى ابن سلول ، فاذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفى المسلمين عبد الله بن رواحة فثار غبار من مشى الحمار ، فخمر ابن أبىّ أنفه بردائه ، ثم قال : لاتغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم نزل ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال ابن أبىّ : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذينا به فى مجالسنا ، إرجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا فإنا نحب ذلك ، واستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتبادرون ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سعد ألم تسمع

ما قال أبو حباب يعنى ابن أبيّ ، قال كذا وكذا ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله اعف عنه واصفح ، فوالله الذى أنزل عليك الكتاب لقدجاءالله بالحق الذى أنزل عليك وقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوّجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما ردّ بالحق الذى أعطاك الله شرق ، فذلك الذى فعل به مارأيت ، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم » والله أعلم .

ومكث صلى الله عليه وسلم ببيت أبى أيوب إلى أن بنى المسجد وبعض مساكنه ، وقد مكث فى بناء ذلك من شهر ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة ، أى وذلك اثنا عشر شهرا : وقيل مكث ببيت أبى أيوب سبعة أشهر .

«قال ولما تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عمرو بن عوف إلى المدينة تحول المهاجرون » أى غالبهم أخذا مما يأتى « فتنافس فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان ، فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا بقرعة بينهم. فكان المهاجرون فى دور الأنصار وأموالهم » اه .

وكان من جملة محل مسجده صلى الله عليه وسلم مسجد لأبى أمامة أسعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه ، وكان أبو أمامة يجمع فيه بمن يليه ، بناه فى بعض مربد للتمر لسهل وسهيل : أى يجفف فيه التمر ، ويرادف المربد الجرين والمسطح والبيدر : وهو ما يبسط فيه الزرع أو التمر للتجفيف .

«وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى ذلك المسجد ، قال : فعن أمّ زيد بن ثابت أنها قالت : رأيت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يصلى بالناس الصلوات الخمس ويجمع بهم فى مسجد بناه فى مربد سهل وسهيل ، قالت : فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم وصلى بهم فى ذلك المسجد وبناه » أى مع إدخال بقية ذلك المربد فهو مسجده .

وحينئذ لا يخالف ذلك قول الحافظ بن الدمياطى عن الزهرى قال « بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موضع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين قبل قدومه صلى الله عليه وسلم ، وكان مربدا لسهل وسهيل ، وكان جدارا مجدرا ليس عليه سقف وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة بناه ، وكان يصلى بأصحابه ويجمع بهم فيه الجمعة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صار يصلى فيه » .

وفى الإمتاع «كان أسعد بن زرارة بنى فيه جدارا تجاه بيت المقدس كان يصلى إليه بمن أسلم قبل قدوم مصعب بن عمير ، ثم صلى بهم إليه مصعب» هذا كلامه ، وتعلم مافيه لما قدّمناه فى قدوم مصعب المدينة ، لكن فى البخارى «أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى مرابض الغنم قبل أن يبنى المسجد» أى ولعله اتفق له ذلك فى بعض الأوقات ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى حيث أدركته الصلاة .

«ثم إنه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك سأل أسعد بن زرارة أن يبيعه تلك البقعة التى كان من جملتها ذلك المسجد ليجعلها مسجدا فإنها كانت فى يده ليتيمين فى حجره ، وهما سهل وسهيل ، وقيل كانا فى حجر معاذ بن عفراء» قال فى الأصل ، وهو الأشهر .

وفى المواهب : أن الأول هو المرجح ، واليتيمان المذكوران من بنى مالك بن النجار ، وقيل كانا فى حجر أبى أيوب الأنصارى . قال بعضهم : والظاهر أن الكل : أى من أسعد ومعاذ وأبى أيوب كانوا يتكلمون لليتيمين لأنهم بنوعمّ فنسبا إلى حجر كل .

«وقد عرض أبو أيوب عليه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ تلك الأرض ويغرم لليتيمين قيمتها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر» أى وفى رواية «فدعا الغلامين فساومهما بالمربد فقالا : نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك» أى وحينئذ يكون وصفهما باليتم باعتبار ما كان .

وفى رواية «أرسل صلى الله عليه وسلم إلى ملأ من بنى النجار ولعلهم من تقدم وهم أسعد ومعاذ وأبو أيوب ومعهم سهل وسهيل فجاءوه صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم ثامنونى بحائطكم هذا أى خذوا منى ثمنه . قالوا لا يا رسول الله ، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله ، فأبى أن يأخذه إلا بالثمن» .

قال «وجاء أن أسعد بن زرارة عوض اليتيمين من تلك الأرض نخلا أى له فى بنى بياضة ، وقيل: أرضاهما فيها أبو أيوب ، وقيل معاذ بن عفراء» .

وطريق الجمع بين ذلك أنه يحتمل أن كلا من أسعد وأبى أيوب ومعاذ بن عفراء دفع للغلامين شيئا : أى زيادة على العشرة دنانير فنسب ذلك لكلّ منهم .

وجاء «أنه كان فى تلك الأرض قبور جاهلية فأمر بها صلى الله عليه وسلم فنبشت ، وأمر بالعظام فألقيت» اهـ ، أى وفى رواية «وأمر بالعظام أن تغيب» أى وفى رواية «كانت

فى موضع المسجد نخل وخرب » أى حفر ومقابر للمشركين « فأمر صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل فقطعت » .

أى وفى سيرة الحافظ الدمياطى « فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل الذى فى الحديقة » أى وهى تلك الأرض التى كانت مربدا ، أى وسمى حديقة لوجود النخل به « وأمر بالغرقد الذى فيه أن يقطع » أى والغرقد : شجر معروف . وبقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة . وشجر الغرقد : يقال له شجر اليهود ، فإنه لا يدل على اليهودى إذا توارى به عند نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتله للدجال وجنده من اليهود ، فإذا توارى اليهودى بشجرة نادته يا روح الله ههنا يهودى ، فيأتى حتى يقف عليه ، فإما أن يسلم وإما أن يقتل ؛ إلا شجر الغرقد فإنه لايدل على اليهودى إذا توارى به ؛ فقيل له شجر اليهود لذلك .

قال : وكان فى المربد ماء مستبحر فسيروه حتى ذهب . والمستبحر الذى ينشع ويظهر من الأرض .

« ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وبنى به المسجد » وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم عند الشروع فى البناء وضع لبنة ، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة أى بجانب لبنته صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا عمر فوضع لبنة بجانب لبنة أبى بكر ، ثم جاء عثمان فوضع لبنة بجانب لبنة عمر » .

أى وقد أخرج ابن حبان « لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ووضع فى البناء حجرا وقال لأبى بكر : ضع حجرك إلى جنب حجرى ، ثم قال لعمر : ضع حجرك إلى جنب حجر أبى بكر ، ثم قال لعثمان ضع حجرك إلى جنب حجر عمر ، ثم قال : هؤلاء الخلفاء بعدى » قال أبو زرعة إسناده لا بأس به ، فقد أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه ، وفى رواية « هؤلاء ولاة الأمر بعدى » قال ابن كثير وهـذا الحديث بهذا الإسناد غريب جدا .

قال بعضهم : وقوله صلى الله عليه وسلم لعثمان ماذكر . أى ضع حجرك إلى جنب حجر عمر يرد على من زعم أن هذا منه صلى الله عليه وسلم إشارة إلى قبورهم ، أى إذ لو كان إشارة إلى ذلك لدفن عثمان بجانب عمر كما دفن عمر بجانب أبى بكر ، بل هو إشارة إلى ترتيب الخلافة ، أى لأنه لايستفادمن قوله صلى الله عليه وسلم «هؤلاء الخلفاء بعدى إلاذلك»

ومن ثم جاء فى رواية «فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال أمر الخلافة من بعدى» .

وتصحيح الحاكم لما ذكر يظهر التوقف فى قول بعضهم إن هذا لم يجىء فى الصحيح إلا أن يريد صحيح الشيخين .

وأما قوله قال البخارى فى تاريخه : إن ابن حبان لم يتابع على الحديث المذكور ، لأن عمر وعثمان وعليا قالوا : لم يستخلف النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد يقال عليه : معناه لم ينص على استخلاف أحد بعينه عند موته ، وذلك لاينافى الإشارة إلى وقوع الخلافة لهؤلاء بعده ، ولا ينافى قوله « هؤلاء الخلفاء بعدى » لجواز أن يراد الخلافة فى العلم . ثم رأيت ابن حجر الهيتمى أشار إلى ذلك حيث قال : قلت هذا أى وضع تلك الأحجار ، وقوله صلى الله عليه وسلم « هؤلاء الخلفاء بعدى » مع احتماله للخلافة فى العلم والإرشاد متقدم على وقت الاستخلاف عادة وهو قرب الموت ، فلم يكن نصا سالما من المعارض هذا كلامه « ثم قال للناس ضعوا أى الحجارة فوضعوا ، ورفع بالحجارة أى قريب من ثلاثة أذرع ، وبنى باللبن وجعل عضادتيه أى جانبيه بالحجارة وسقفه بالجريد ، وجعلت عمده » وفى رواية « سواريه من جذوع النخل ، وطول جداره قامة » أى كان ارتفاعه قدر قامة .

قال : وعن شهر بن حوشب قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى المسجد قال « ابنوا لى عريشا كعريش موسى ثمامات وخشبات وظلة كظلة موسى ، والأمر أعجل من ذلك ، قيل : وماظلة موسى ؟ قال : كان إذا قام أصاب رأسه السقف» انتهى .

أى فالمراد اجعلوا سقفه يكون بحيث إذا قمت أصاب رأسى السقف ، أو رفعت يدى أصابت السقف .

والجمع بين هاتين الروايتين يدل على أن المراد ماهو قريب من ذلك ، بحيث لا يكون كثير الارتفاع ، فلا ينافى ما يأتى من أمره بجعل ارتفاعه سبعة أذرع فليتأمل .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى « فقيل له : ألا تسقف ؟ فقال : عريش كعريش موسى ، خشبات وثمام » أى وقيل للحسن : ما عريش موسى ؟ قال : إذا رفع يده بلغ العريش : يعنى السقف .

وفى رواية « لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء المسجد ، قال : قيل لى : أى قال له جبريل : عريش كعريش أخيك موسى ، سبعة أذرع طولا فى السماء ، وكان

سبعة أذرع بحيث يصيب رأسه ولا تزخرفه ، ثم الأمر أعجل من ذلك » أى وفيه أن هذا يقتضى أن موسى كان طوله سبعة أذرع ، وهو يخالف ما اشتهر أن قامة موسى كانت أربعين ذراعا ، وعصاه كذلك ، ووثبته كذلك . وقد جاء « ما أمرت بتشييد المساجد » أى ولعل قوله ذلك كان « لما جمع الأنصار مالا وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله ابن هذا المسجد وزينه ، إلى متى نصلى تحت هذا الجريد » .

وجاء « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » . وجاء « من أشراط الساعة أن يتباهى الناس فى المساجد » أى تزخرفها كما تزخرف اليهود والنصارى كنائسهم وبيعهم ولم يكن على السقف كبير طين ، إذ كان المطر يكف : أى ينزل منه ماء المطر المخالط للطين عليهم بحيث يمتلئ : أى المسجد طينا ، فقالوا : يارسول الله لو أمرت فطين : أى جعل عليه طين كثير بحيث لا ينزل عليه المطر فقال : « لا عريش كعريش موسى » فلم يزل كذلك حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعند بنائه عمل فيه المسلمون المهاجرون والأنصار ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ليرغب المسلمين فى العمل فيه .

قال : فقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم صار ينقل اللبن » أى فى ثيابه . وفى رواية « فى ردائه حتى اغبرّ صدره الشريف ، وصار يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبرّ ربنا وأطهر »

أى هذا المحمول من اللبن أبرّ وأطهر ياربنا مما يحمل من خيبر من نحو التمر والزبيب ، فالحمال بالحاء المهملة بمعنى المحمول ، ووقع فى رواية بالجيم جمع جمل ، قال بعضهم : وله وجه ، والأول أظهر ، ولا يحسن هذا الوجه إلا إذا كانت جمال خيبر أنفس من جمال غيرها وصار يقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخره   فارحم الأنصار والمهاجره

قال البلاذرى : وهذا القول لامرأة من الأنصار ، وتمامه :

وعافهم من حرّ نار ساعره   فإنها لكافر وكافره

والذى فى البخارى « فاغفر للأنصار والمهاجره » ولعله صلى الله عليه وسلم هو الذى أخرجه عن الوزن كما هو عادته فى إنشاد الشعر كما سيأتى : وفى لفظ « فأصلح » وفى لفظ « فأكرم » وفى رواية « اللهم لا خير إلا خير الآخره ، فارحم المهاجرين والأناصره » وفى رواية « فانصر الأنصار والمهاجره » وعن الزهرى أنه كان يقول « اللهم لا خير إلا خير

الآخرة ، فارحم المهاجرين والأنصار » لأنه كان لا يقيم الشعر : أى لا يأتى به موزونا ولو متمثلا ، وفيه أنه مع قوله : اللهم إن الأجر إلى آخره لا يكون شعرا موزونا ، إلا إن حذف أل من اللهم وقال لاهم وكسر همزة فارحم ؛ وحينئذ تكون المرأة من الأنصار إنما نطقت بذلك : أى قالت لاهم إلى آخره ، وهو صلى عليه وسلم هو الذى غيره .

ونقل عن الزهرى « أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل بيتا موزونا متمثلا به إلا قوله هذا الحمال » البيت ، ولم أقف على قائله ، وسيأتى عن الزهرى أنه من إنشائه صلى الله عليه وسلم وسيأتى ما فيه .

وفى كلام بعضهم : قال ابن شهاب : يعنى الزهرى : لم يبلغنا فى الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام : أى موزون إلا هـذه الأبيات ، قال ابن عائذ : أى التى كان يرتجز بهن وهو ينقل اللبن لبناء المسجد : أى وفيه أن هـذا مخالف لما تقدم عن الزهرى أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل بيتا موزونا إلا قوله هـذا الحمال ، فلا يحسن أن يفسر كلامه بذلك ، على أنه تمثل ببيت شعر تام موزون غير ذلك ، فقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم جعل يدور بين قتلى بدر ويقول :

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وفى المواهب : وقد قيل إن الممتنع عليه صلى الله عليه وسلم إنشاء الشعر لا إنشاده ، أى ولذلك جاء « ما أبالى ما أوتيت إن أنا قلت الشعر من قبل نفسى » وفى الكشاف : وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر ، ولا دليل على منع إنشاده أى الشعر موزونا متمثلا .

أقول : نقل الحافظ الدمياطى عن الزهرى أنه كان يقول : إنه صلى الله عليه وسلم لم يقل شيئا من الشعر إلا ما قد قيل قبله إلا قوله :

هـذا الحمال لا حمال خيبر هـذا أبر ربنا وأطهر

أى فإنه من قوله ، وهو يخالف ماتقدم عنه ، ولعله سقط من عبارة الزهرى المذكورة شىء ، والأصل أنه لم يقل شيئا من الشعر إلا ماقد قيل قبله ، ولم يقل ماقبله تاما : أى موزونا إلا قوله : هذا الحمال إلى آخره ، فلا يخالف ما تقدم عنه ، وكونه كان لا يقيم الشعر : أى لا يأتى به موزونا ولو متمثلا هو المنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، فقد قيل لها : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى بشىء من الشعر ؟ فقالت : كان

أبغض الحديث إليه الشعر ، غير أنه كان يتمثل ويجعل أوله آخره وآخره أوله : أى غالبا كان يقول : ويأتيك من لم تزود بالأخبار ، ويقول : كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا أى وذلك قول سحيم بمهملة مصغرا عبد بنى الحساس ، شاعر مشهور مخضرم * كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا * ولما غير ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الصديق رضى الله تعالى عنه : إنما قال الشاعر كذا ، فأعاده صلى الله عليه وسلم كالأول ، فقال الصديق: أشهد أنك رسول الله (وما علمناه الشعر) . ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قول سحيم :

الحمد لله حمدا لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

قال أحسن وصدق ، وقول الصديق أشهد أنك رسول الله (وما علمناه الشعر) يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يجرى الشعر على لسانه موزونا وقد قيل له صلى الله عليه وسلم : من أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

الأصل وجدت بها طيبا وإن لم تطيب .

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يقول له : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما أنت بشاعر ولا راوية ، والمراد بكون الشعر أبغض إليه الإتيان به ، وإلا فقد كان يسمع الشعر كما تقدم ويستنشده ، فقد ذكر بعضهم « أنه صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الخنساء أخت صخر لأمه ، ويعجبه شعرها ، فكانت تنشده وهو يقول : هيه ياخناس ، ويومىء بيده » .

وقد قال بعضهم : أجمع أهل العلم أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها ، ومن شعرها فى أخيها المذكور :

أعينىّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

طويل النجاد عظيم الرماد وساد عشيرته أمردا

وللجلال السيوطى كتاب سماه [نزهة الجلساء فى أشعار الخنساء] وقولنا فى قول عائشة إنه كان يتمثل بالشعر ، ويجعل أوله آخره : أى غالبا حتى لا ينافى ما جاء عنها : كان يتمثل بشعر ابن رواحة : * ويأتيك بالأخبار من لم تزود *

وقولها : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد شعرا إلا بيتا واحدا :

تفاءل لما تهوى بكن فلقلما يقال لشىء كان إلا تحققا

وفى الخصائص الكبرى قال المزنى : ولم يبلغنى أنه صلى الله عليه وسلم أنشد بيتا تاما على رويه ، بل إما الصدر كقول لبيد * ألا كل شىء ما خلا الله باطل * أو العجز كقول طرفة * ويأتيك بالأخبار من لم تزود * أى وفيه ما تقدم عن عائشة ، وكقوله وقد أنشده أعشى بنى مازن أبياتا فى ذم النساء ، آخر تلك الأبيات * وهن من شر غالب لمن غلب * فجعل صلى الله عليه وسلم يقول : وهن شر غالب لمن غلب ، فإن أنشد بيتا كاملا غيره أى غالبا ، لما تقدم كبيت العباس بن مرداس ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال يوما للعباس بن مرداس « أرأيت قولك » وفى لفظ « أنت القائل :

أصبح نهبى ونهب العبيـ ـد بين الأقرع وعيينة

فقيل له : إنما هو بين عيينة والأقرع ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنما هو الأقرع وعيينة ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : بأبى أنت وأمى يا رسول الله » وفى لفظ « أشهد أنك رسول الله ، ما أنت بشاعر ولا راويه ، ولا ينبغى لك » إنما قال بين عيينة والأقرع : أى أنه لا ينبغى لك أن تكون شاعرا كما قال الله ، ولا ينبغى لك أن تكون راويا للشعر : أى بأن تأتى به على وجهه ، أى لا يكون شأنك ذلك مباعدة عن الشعر ، وكون شأنه ذلك لا ينافى وجوده منه على وجهه فى بعض الأحيان فليتأمل .

وعن بعضهم : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتَ شعر قط أى موزونا . وقد يقال : لا يخالف هذا ما تقدم عن المواهب ، لأنه يجوز أن يكون هذا المنقول عن عائشة .

وعن المزنى وعن بعضهم : كان أغلب أحواله كما قدمناه فى المنقول عن عائشة ثم رأيته فى الامتاع أشار إلى ذلك بقوله : وربما أنشد صلى الله عليه وسلم البيت المستقيم فى النادر ، وقول المواهب : لا دليل على منع إنشاده متمثلا ، أى دائما وأبدا ، ويدل لذلك قول الزهرى : إنه لم يقل بيتا موزونا متمثلا به إلا قوله : هذا الحمال إلى آخره ، وفيه ماعلمت ولا يخفى أن الشعر عرف بأنه كلام عربى موزون عن قصد . قال البدر الدمياطى . وقولنا عن قصد يخرج ما كان وزنه اتفاقيا كآيات شريفة اتفق جريان الوزن فيها : أى من بحور الشعر الستة عشر ، وقد ذكرها الجلال السيوطى فى نظمه للتلخيص ، وذلك كما فى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وكقوله تعالى (وجفان كالجواب وقدور

راسيات) وقوله تعالى (نصر من الله وفتح قريب) وككلمات شريفة نبوية جاء الوزن فيها اتفاقيا غير مقصود، كما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت

أى بناء على تسليم أنه من قوله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فقد قيل إنه من قول عبد الله ابن رواحة : أى فإن ذلك مذكور فى أبيات قالها فى غزوة مؤتة وقد صدمت أصبعه فدميت ، وذكر بدل « فى سبيل الله» فى كتاب الله ، ولا مانع أن يكون ابن رواحة أدخل ذلك البيت فى تلك الأبيات التى صنعها كما تقدم .

وفى كلام ابن دحية : ولا يمرّ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضروب الرجز إلا ضربان منهوك ومشطور ؛ فالمنهوك * أنا النبى لا كذب * والمشطور * هل أنت إلا أصبع دميت * وقيل البيت الواحد لا يكون شعرا، على أنه قيل: إن الرجز ليس من الشعر عند الأخفش خلافا للخليل : أى فإن الأخفش احتج على أن الرجز ليس بشعر رادا على الخليل ومن تبعه القائلين بأنه من الشعر حيث قال : لأحتجنّ عليهم بحجة إن لم يقروا بها كفروا : لو كان شعرا ما جرى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعـالى يقول (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) هذا كلامه . قال فى النور : والصحيح أنه شعر أى موافقة للخليل ، وقد علمت أن ما جرى منه على لسانه صلى الله عليه وسلم ليس شعرا لعدم قصده فليتأمل .

وقد نقل الماوردى من أئمتنا أنه كما يحرم عليه قول الشعر أى إنشاؤه، يحرم عليه روايته أى دون إنشاده متمثلا .

وفرق بعضهم بين الإنشاد والرواية ، بأن الرواية يقول : قال فلان كذا ؛ وأما إنشاده متمثلا ، فلا يقول ذلك هذا كلامه .

وفيه أنه قال لما قيل له : من أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول إلى آخره . وقال للعباس ابن مرداس : أنت القائل إلى آخره . قال ذلك البعض . وكان الفرق بين الرواية والإنشاد أن فى قوله قال فلان فيه رفعة للقائل بسبب قوله ، وهذا متضمن لرفع شأن الشعر ، والمطلوب منه الإعراض عن الشعر من حيث كونه شعرا .

وفيه أن الصديق قال له عند كل من الرواية والإنشاد ، لست براوية كما تقدم ، وعن الخليل : كان الشعر أحب إليه صلى الله عليه وسلم من كثير من الـكلام .

أى وقد يقال لا يخالف هـــذا ما تقدم عن عائشة رضى الله تعالى عنها : كان أبغض الحديث إليه صلى الله عليه وسلم الشعر ، لأن المراد بالشعر الذى يحبه ما كان مشتملا على حكمة أو وصف جميل من مكارم الأخلاق ؛ والذى يبغضه ما كان مشتملا على ما فيه هجنة أو هجو ونحو ذلك .

ومن ثم قيل : الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح . وفى الجامع الصغير : الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، الشعر الحسن أحد الجمالين ، يكسوه الله المرء المسلم .

وقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إذا خفى عليكم شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب ، وفى كلام سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه : نعم الأبيات من الشعر يقدمها الرجل فى صدر حاجته، يستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها لؤم اللئيم .

والحاصل أن الحق الحقيق بالاعتماد وبه تجتمع الأقوال أن المحرم عليه صـــلى الله عليه وسلم إنما هو إنشاد الشعر : أى الاتيان بالكلام الموزون عن قصد وزنه ، وهذا هو المعنى بقوله تعالى (وما علمناه الشعر) .

فإن فرض وقوع كلام موزون منه صلى الله عليه وسلم لايكون ذلك شعرا اصطلاحا لعدم قصد وزنه ، فليس من الممنوع منه .

والغالب عليه صلى الله عليه وسلم أنه إذا أنشد بيتا من الشعر متمثلا أو مسندا لقائله لايأتى به موزونا ، وربما أتى به موزونا .

وادّعى بعض الأدباء أنه صلى الله عليه وسلم كان يحسن الشعر : أى يأتى به موزونا قصدا ، ولكنه كان لايتعاطاه : أى لايقصد الإتيان به موزونا . قال : وهـذا أتم وأكمل مما لو قلنا بأنه كان لايحسنه ، وفيه أن فى ذلك تـكذيبا للقرآن .

وفى التهذيب للبغوى . من أئمتنا ، قيل : كان صلى الله عليه وسلم يحسن الشعر ولا يقوله . والأصح أنه كان لايحسنه ، ولكن كان يميز بين جيد الشعر ورديئه ، ولعل المراد بين الموزون منه وغير الموزون . ثم رأيته فى ينبوع الحياة . قال : كان بعض الزنادقة المتظاهرين بالإسلام حفظا لنفسه وماله يعرّض فى كلامه بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحسن الشعر ، يقصد بذلك تـكذيب كتاب الله تعالى فى قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) .

قال بعضهم : والحكمة فى تنزيه القرآن عن الشعر الموزون مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره أن القرآن منبع الحق ، ومجمع الصدق، وقصارى أمر الشاعر التخيل بتصور الباطل فى صورة الحق ، والإفراط فى الإطراء ، والمبالغة فى الذم والإيذاء ، دون إظهار الحق وإثبات الصدق ، ولهذا نزه الله تعالى نبيه عنه ، ولأجل شهر الشعر بالكذب سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدّية فى أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية .

وقد جاء التنفير عن إنشاد الشعر فى المسجد ، قال صلى الله عليه وسلم « من رأيتموه ينشد شعرا فى المسجد فقولوا : فض الله فاك ثلاث مرات » والأخذ بعمومه فيه من العسر مالا يخفى .

وفى العرائس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، قال : من قال آدم قد قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالإثم ، وإن محمدا والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كلهم فى النهى عن الشعر سواء .

وفى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى فى قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) اعلم أن الشعر محل الإجمال واللغز والتورية : أى مارمزنا لمحمد صلى الله عليه وسلم شيئا ولا ألغزنا ولا خاطبناه بشىء ونحن نريد شيئا آخر ، ولا أجملنا له الخطاب بحيث لم يفهمه ، وأطال فى ذلك . وهل يشكل على ذلك الحروف المقطعة أوائل السور ، ولعله رضى الله تعالى عنه لايرى أن ذلك من المتشابه ، أو أن المتشابه ليس مما استأثر الله بعلمه والله أعلم .

ولما رأته صلى الله عليه وسلم الصحابة ينقل اللبن بنفسه دأبوا فى ذلك، أى فى نقل اللبن أى وهو المراد بالصخر فى قول بعضهم وجعل أصحابه ينقلون الصخر ، أو المراد الصخر الذى يبنى به الجدار وجانبا الباب كما تقدم، حتى قال قائلهم :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

وجعل يحمل كل رجل لبنة لبنة ،وعمار بن ياسر يحمل لبنتين لبنتين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض التراب عن رأس عمار ويقول : « ياعمار ألا تحمل كما يحمل أصحابك ؟ قال : إنى أريد الأجر من الله تعالى » وفى رواية « كان يحمل لبنة عن نفسه ولبنة عنه صلى الله عليه وسلم ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره وقال : يا ابن سمية: للناس أجر ، ولك أجران ، وآخر زادك أى من الدنيا شربة من لبن » وجاء فى حق

عمار بن سمية « ما عرض عليه أمران قط إلا اختار رضى الله عنه الأرشد منهما ،إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق ، وتقتلك الفئة الباغية ،تدعوهم إلى الجنة،وتدعوك إلى النار ، وعمار يقول : أعوذ بالله » . وفى رواية: بالرحمن من الفتن ، أى وهذا السياق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يستمر ينقل اللبن ، بل نقل ذلك فى بعض الأوقات .

وفى مسلم وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال أخبرنى من هو خير منى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر لعمار حين شغل بحفر الخندق، فجعل يمسح رأس عمار ويقول : ابن سمية تقتلك فئة باغية » . وفى رواية : تعيين من أبهمه أبو سعيد وهو أبو قتادة . وزاد فى رواية « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حفر الخندق وكان الناس يحملون لبنة لبنة » أى من الحجارة التى تقطع « وعمار ناقه من وجع كان به ، فجعل يحمل لبنتين ، قال لعمار : بؤسا لك يا ابن سمية ، تقتلك الفئة الباغية » .

ثم رأيت بعضهم قال : يشبه أن يكون ذكر الخندق وهما ، أوقالها عند بناء المسجد وقالها يوم الخندق ، هذا كلامه : أى ويكون عمار بن ياسر فى الخندق قد صار يحمل الحجرين وكان فى بناء المسجد يحمل اللبنتين ، وكان عثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنه رجلا متنظفا أى مترفها ، فكان إذا حمل اللبنة يجافى بها عن ثوبه لئلا يصيبه التراب ، فإن أصابه شىء من التراب نفضه ، فنظر إليه على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وأنشد يقول : أى مباسطة مع عثمان بن مظعون لا طعنا فيه :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

أى وكان عثمان هذا من جملة من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وقال : لا أشرب شرابا يذهب عقلى ويضحك بى من هو أدنى منى .

وذكر ابن إسحق قال : سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز ، هل تمثل به على أو أنشأه ؟ فكل يقول : لا أدرى ، فسمع ذلك الرجز عمار بن ياسر ، فصار يرتجز بذلك وهو لا يدرى من يعنى بذلك ، فمر يرتجز بذلك على عثمان ، فظن عثمان أن عمارا يقصد التعريض به ، فقال له عثمان : يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرض به ، لتكفن أو لأعترضن بهذه الحديدة — لحديدة كانت معه — وجهك ، وفى لفظ : والله إنى أرانى سأعرض هذه العصا بأنفك ، لعصا كانت فى يده ، فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب وقال « إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عينى . ووضع يده الشريفة بين عينيه الشريفتين

فقال الناس لعمار : قد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ونخاف أن ينزل فينا قرآن ، فقال : أنا أرضيه ، فقال : يارسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك ولهم ؟ قال : يريدون قتلى فيحملون لبنة لبنة ويحملون علىّ لبنتين لبنتين » أى وفى لفظ « يحملون علىّ اللبنتين والثلاث » أى ولعله حمل ثلاث لبنات فى بعض الأوقات « فأخذ بيده وطاف به المسجد ، وجعل يمسح ذفرته من التراب » والذفرة بالذال المعجمة : الشعر الذى جهة القفا ، ويقول « ياابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، تقتلك الفئة الباغية ، ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة » أى إلى سببها ، وهو اتباع الإمام الحق ، لأنه كان يدعو إلى اتباع علىّ وطاعته وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك « ويدعونه إلى النار » أى إلى سببها ، وهو عدم اتباع علىّ وطاعته واتباع معاوية وطاعته .

وفيه أن تلك الفئة التى كان فيها قاتله كان فيها جمع من الصحابة وهم معذورون بالتأويل الذى ظهر لهم ، إلا أن يقال : يدعونه إلى النار باعتبار اعتقاده ، وإطلاق البغى عليهم حينئذ باعتبار ذلك ، قال بعضهم : وفئة معاوية وإن كانت باغية لكنه بغى لافسق فيه ، لأنه إنما صدر عن تأويل يعذر به أصحابه انتهى ، أى وما زاده بعضهم فى الحديث : «لا أنالهم الله شفاعتى يوم القيامة » قال ابن كثير : من روى هذا فقد افترى فى هذه الزيادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يقلها ، إذ لم تنقل عمن يقبل . وقال الإمام أبو العباس ابن تيمية : وهذا كذب مزيد فى الحديث ، لم يروه أحد من أهل العلم ، بإسناد معروف. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « عمار جلدة ما بين عينىّ » لايعرف له إسناد . والذى فى الصحيح « تقتل عمارا الفئة الباغية » وعن أبى العالية « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قاتل عمار فى النار » ومن العجب أن أبا العالية هذا هو القاتل لعمار يوم صفين ، فكان أبو العالية مع معاوية ، وكان عمار مع علىّ ، أى ويقول : إن عمارا لما برز للقتال قال : اللهم لوأعلم رضاك عنى أن أوقد نارا فأرمى نفسى فيها لفعلت ، أو أغرق نفسى لفعلت ، وإنى لا أريد قتال هؤلاء إلا لوجهك الكريم ، وأنا أرجو أن لا تخيبنى وجعلت يده ترتعش على الحربة ، أى لأن عمره يومئذ كان ثلاثا وسبعين سنة ، أى وقد كان جىء له بلبن فضحك ، فقيل له : ما يضحكك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آخر شراب تشربه حين تموت لبن » وفى رواية « آخر زادك من الدنيا مشيج من اللبن » ثم نادى : اليوم زخرفت الجنان ، وزينت الحور الحسان ، اليوم نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .

ولما قتل عمار دخل عمرو بن العاص على معاوية فزعا وقال : قتل عمار ، فقال معاوية قتل عمار فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تقتل عمارا الفئة الباغية » فقال له معاوية : دحضت ، أى زلفت فى بولك ، أنحن قتلناه ، إنما قتله من أخرجه ، وفى رواية قال له : اسكت ، فو الله ماتزال تدحض ، أى تزلق فى بولك ، إنما قتله علىّ وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بيننا .

وذكر أن عليا رضى الله تعالى عنه لما احتج على معاوية رضى الله تعالى عنه بهذا الحديث ولم يسع معاوية إنكاره ، قال إنما قتله من أخرجه من داره يعنى بذلك عليا ، فقال على رضى الله تعالى عنه ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم إذن قتل حمزة حين أخرجه .

ولما قتل عمار ، جرد خزيمة بن ثابت رضى الله تعالى عنه سيفه وقاتل مع على وكان قبل ذلك اعتزل عن الفريقين ، وقال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « تقتل عمارا الفئة الباغية » فقاتل معاوية حتى قتل . وكان ذو الكلاع رضى الله تعالى عنه مع معاوية ، وقال له يوما ولعمرو بن العاص: كيف نقاتل عليا وعمار بن ياسر ، فقالا له، إن عمارا يعود إلينا ويقتل معنا فقتل ذو الكلاع قبل قتل عمار .

ولما قتل عمار قال معاوية : لوكان ذو الكلاع حيا لمال بنصف الناس إلى على أى لأن ذا الكلاع كان ذووه أربعة آلاف أهل بيت ، وقيل عشرة آلاف .

وكان عبد الله بن بديل بن ورقاء رضى الله تعالى عنه مع على رضى الله تعالى عنه ، فلما قتل عمار أخذ سيفين ولبس درعين ، ولم يزل يضرب بسيفه حتى انتهى إلى معاوية ، فأزاله عن موقفه ، وأزال أصحابه الذين كانوا معه عن موقفهم ، ثم قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : ألا إن معاوية ادعى ماليس له ونازع الأمر أهله . ومن ليس قبله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحق ؛ وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزين لهم الضلالة ، وزرع فى قلوبهم حب الفتنة ، ولبس عليهم الأمر ، وأنتم والله على الحق ، على نور من ربكم وبرهان مبين ، فقاتلوا الطغاة الجناة ؛ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، قاتلوا الفئة الباغية الذين نازعوا الأمر أهله ، قوموا رحمكم الله .

ولما قتل عمار ندم ابن عمر رضى الله تعالى عنهما على عدم نصرة علىّ والمقاتلة معه ، وقال عند موته : ما أسفى على شىء ما أسفى على ترك قتال الباغية ، قال بعضهم : شهدنا

صفين مع على بن أبى طالب فى ثمانمائة من أهل بيعة الرضوان ، وقتل منهم ثلاثة وستون. منهم عمار بن ياسر ، وكان خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين كان مع على يوم صفين كافا سلاحه حتى قتل عمار جرد سيفه. وقاتل حتى قتل ، لأنه كان يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عمار تقتله الفئة الباغية » .

وفى الحديث « من عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله ، عمار يزول مع الحق حيث يزول ، عمار خلط الإيمان بلحمه ودمه ، عمار ماعرض عليه أمران إلا اختار الأرشد منهما » .

وجاء « أن عمارا دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : مرحبا بالطيب المطيب. إن عمار بن ياسر حشى ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنه إيمانا » وفى رواية « إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » .

وتخاصم عمار مع خالد بن الوليد فى سرية كان فيها خالد أميرا ، فلما جاءا إليه صلى الله عليه وسلم استبا عنده ، فقال خالد : يارسول الله أيسرك أن هذا العبد الأجدع يشتمنى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا خالد لاتسب عمارا ؛ فإن من سب عمارا فقد سب الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله ، ومن لعن عمارا لعنه الله ، ثم إن عمارا قام مغضبا ، فقام خالد فتبعه حتى أخذ بثوبه واعتذر إليه ، فرضى عنه .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الحق مع عمار مالم يغلب عليه دلهة الكبر » وهذا الحديث من أعلام النبوّة ، فإن عمارا وقع بينه وبين عثمان بن عفان بعض الشحناء ، وأشيع عنه أنه يريد أن يخلع عثمان ، فاستدعاه سعد بن أبى وقاص وكان مريضا ، فقال له : ويحك يا أبا اليقظان ، كنت فينا من أهل الخير ، فما الذى بلغنى عنك ، من السعى فى الفساد بين المسلمين ، والتألب على أمير المؤمنين ، أمعك عقلك أم لا ؟ فغضب عمار ونزع عمامته وقال : خلعت عثمان كما خلعت عمامتى هذه ، فقال سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون ، ويحك حين كبر سنك ورق عظمك ونفد عمرك ، خلعت ربقة الإسلام من عنقك ، وخرجت من الدين عريانا كما ولدتك أمك ، فقام عمار مغضبا موليا وهو يقول : أعوذ بربى من فتنة سعد ، وعندذلك روى سعد الحديث وقال : قد دله وخرف عمار ، وأظهر عمار القوم على ذلك .

قال : وجعلت قبلة المسجد إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب ، باب فى مؤخره والباب الذى كان يقال له باب عاتكة ، وكان يقال له باب الرحمة ، والباب الذى يقال له الآن باب جبريل . انتهى ، أى وهو الباب الذى كان يدخل منه صلى الله تعالى عليه وسلم ويقال له باب عثمان ، لأنه كان يلى دار عثمان ، وهو الذى يخرج منه الآن إلى البقيع .

أقول : وجعل قبلته إلى بيت المقدس كان قبل أن تحول القبلة ، ولما حولت قبلته إلى الكعبة وهذا محمل قوله صلى الله عليه وسلم « ماوضعت قبلة مسجدى هذا حتى رفعت لى الكعبة فوضعتها أتيممها أو أؤمها » أى أقصدها . وفى رواية « ما وضعت قبلة مسجدى هذا حتى فرج لى ما بينى وبين الكعبة » والله أعلم .

أى وفى كلام بعضهم: ومن الفوائد الحسنة ما ذكره مغلطاى، أن موضع المسجد كان ابتاعه تبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه بألف سنة ، وإنه لم يزل على ملكه : أى متعلقا به من ذلك العهد على ما دل عليه كتاب تبع .

أقول : سيأتى أن تبعا بنى للنبى صلى الله عليه وسلم دارا بالمدينة إذا قدمها ينزل فى تلك الدار ، وأنه يقال : إنها دار أبى أيوب .

وقد يجمع بأنه يجوز أن يكون ذلك المربد ودار أبى أيوب بمجموعهما تلك الدار ، وأن تلك الدار قسمت فكان دار أبى أيوب بعضها وذلك المربد بعضها الآخر ؛ وأن الأيدى تداولت سكنى تلك الدار إلى أن صارت سكنا لأبى أيوب ، وهذا هو المراد بقول المواهب : تداولت الدار الملاك إلى أن صارت لأبى أيوب .

لكن قد يقال : لو كانت الدار مذكورة فى الكتاب لذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الكتاب كما سيأتى وصل إليه فى مكة فى أول البعثة ونزوله دار أبى أيوب ، وأخذه المربد على الكيفية المذكورة يبعد ذلك ، أي أنه ذكر له أمر تلك الدار ، والله أعلم .

قال « ومكث صلى الله عليه وسلم يصلى فى المسجد بعد تمامه إلى بيت المقدس خمسة أشهر ، ولما حولت القبلة سد صلى الله عليه وسلم الباب الذى كان فى مؤخر المسجد » .

وفى كلام بعضهم : لما حولت القبلة لم يبق من الأبواب التى كان يدخل منها صلى الله عليه وسلم إلا الباب الذى يقال له باب جبريل عليه السلام ، أى فإنه بقى فى محله وأما باب الرحمة الذى كان يقال له أيضا باب عاتكة فأخر عن محله .

وسبب وضع الحصا فى المسجد أن المطر جاء ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة ،

فجعل الرجل يأتى بالحصا فى ثوبه فيبسطه تحته ليصلى عليه ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال : «ما أحسن هذا» وفى رواية «ما أحسن هذا البساط» .

وقد يعارض هذا ما قيل «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يحصب المسجد» فمات قبل ذلك فحصبه عمر رضى الله تعالى عنه .

أقول : قد يقال لا معارضة ، لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم لما أعجبه ذلك من فعل بعض الصحابة أمره أن يحصب جميع المسجد ، لأن الواقع تحصيب بعضه ، لكن يشكل على ذلك قول بعضهم من البدع فرش المساجد ، إلا أن يراد بالحصر ونحوها لأنه لم يكن زمنه صلى الله عليه وسلم ولا أمر به ، ثم رأيت بعضهم ذكر ذلك حيث قال : أول من فرش الحصر فى المساجد عمر بن الخطاب ، وكانت قبل ذلك مفروشة بالحصباء أى فى زمنه صلى الله عليه وسلم كما تقدم .

وفى الإحياء : أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، إذ من عزيز المعروف فى زماننا فرش المساجد بالبسط الرقيقة فيها ، وقد كان يعدّ فرش البوارى فى المسجد بدعة ؛ كانوا لايرون أن يكون بينهم وبين الأرض حائل ، هذا كلام الإحياء : أى والحصباء لا تعد حائلا ، وسيأتى أن المسجد بنى بعد فتح خيبر ، وهى التى عناها خارجة رضى الله تعالى عنه بقوله «لما كثر الناس قالوا : يا رسول الله لو زيد فيه ، ففعل» ولعلها هى التى أدخل فيها الأرض التى اشتراها عثمان رضى الله تعالى عنه من بعض الأنصار بعشرة آلاف درهم ، ثم جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أتشترى منى البقعة التى اشتريتها من الأنصار أى التى كانت مجاورة للمسجد «فاشتراها منه ببيت فى الجنة» .

أى وفى رواية : أن عثمان رضى الله تعالى عنه لما حصر ، أى الحصرة الثانية وأشرف على الناس من فوق سطح داره ، وقد اشتد به العطش ، قال : أههنا علىّ؟ قالوا لا ، قال : أههنا طلحة؟ قالوا لا ، قال : أنشدكم بالله الذى لاإله إلا هو أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من يبتاع مربد بنى فلان» أى لمربد كان مجاورا للمسجد «غفر الله له» فابتعته بعشرين ألفا أو بخمسة وعشرين ألفا شك عثمان ، وتقدم أنه اشتراها بعشرة آلاف درهم فليتأمل «فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : قد ابتعته ، فقال اجعله مسجدنا وأجره لك ، قالوا : اللهم نعم ، قد كان ذلك» وفى لفظ «أنشدكم بالله

وبالإسلام ، هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة ابن فلان لبقعة كانت إلى جنب المسجد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : من يشتريها ويوسعها فى المسجد له مثلها » وفى لفظ « بخير له منها فى الجنة » فاشتريتها ووسعتها فى المسجد فأنتم الآن تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين ، أى وزاد فيه عثمان رضى الله تعالى عنه بعد ذلك زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج كما فى البخارى ، وعدد عثمان رضى الله تعالى عنه أشياء منها أنه قال « أنشدكم بالله وبالإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ، ولم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشترى بئر رومة يجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين » فى لفظ : « ليكون دلوه فيها كدلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة » وفى لفظ له « بها مشرب فى الجنة » فاشتريتها من صلب مالى فجعلتها للغنى والفقير وابن السبيل ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ، بل وتمنعونى الماء : ألا أحد يسقينا فإنى أفطر على الماء الملح وفى رواية : هل فيكم من يبلغ عليا عطشنا فأبلغوه ، فلما بلغ ذلك عليا أرسل إليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه وجرح بسببها عدة من موالى بنى هاشم وبنى أمية. أى وكانت هذه البئر ركية ليهودى يقال له رومة ، يقال إنه أسلم ، وكان يبيع المسلمين ماءها ، كانت بالعقيق ، وتفل فيها صلى الله عليه وسلم فعذب ماؤها : ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يشترى بئر رومة فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة » فساومه فيها عثمان فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم ، وجعل ذلك للمسلمين ، وجعل له يوما ولليهودى يوما ، فإذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فلما رأى اليهودى ذلك قال لعثمان : أفسدت على ركيتى ، فاشترى النصف الآخر بثمانية آلاف ، وقيل جملة ما اشتراها به خمسة وثلاثون ألف درهم . وقول عثمان جعلتها للغنى والفقير وابن السبيل ، دليل على أن قوله دلوى فيها كدلاء المسلمين على أنه لم يشترط ذلك بل قصد به التعميم فى الموقوف عليه . ولا دليل فيه على جواز أن للواقف أن يشترط له الانتفاع بما وقفه كما زعمه بعضهم .

وكان حصار عثمان رضى الله تعالى عنه شهرين وعشرين يوما . وفى كلام سبط ابن الجوزى : كان الحصار الأول عشرين يوما ، والثانى أربعين يوما ، وفى يوم من تلك

الأيام قال : وددت لو أن رجلا صادقا أخبر عن أمرى هذا : أى من أين أوتيت ؟ فقام رجل من الأنصار ، فقال أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، إنك تطأطأت لهم فركبوك وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك ، فقال له : صدقت ، اجلس .

وأول من دخل عليه الدار محمد بن أبى بكر ، تسور عليه هو وجماعة من الحائط من دار عمرو بن حزم فأخذ بلحيته ، فقال له : دعها يا ابن أخى ، فوالله لقد كان أبوك يكرمها فاستحى وخرج . وفى رواية : لما أخذ بلحيته هزها وقال له ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك ابن أبى سرح ، فقال له : يا ابن أخى أرسل لحيتى ، فو الله إنك لتجر لحية كانت تعز على أبيك ، وما كان أبوك يرضى مجلسك هذا منى ، فتركه وخرج ، ويقال إنه قال له : ما أريد بك أشد من قبضى على لحيتك ، فقال عثمان : أستنصر بالله عليك وأستعين به ، ثم طعن جبينه بمشقص كان فى يده ، ثم ضربه بعض هؤلاء بالسيف فأتته نائلة زوج عثمان فقطع أصابع يدها الخمس .

وعن ابن الماجشون ، عن مالك أن عثمان بعد قتله ألقى على المزبلة ثلاثة أيام ، وقيل أغلق عليه بابه بعد قتله ثلاثة أيام لا يستطيع أحد أن يدفنه ، فلما كان الليل أتاه اثنا عشر رجلا منهم حويطب بن عبد العزى وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير ، وقيل صلى عليه أربعة ، وإن ابن الزبير لم يشهد قتل عثمان فاحتملوه ، فلما اجتازوا به للمقبرة منعوهم وقالوا : والله لا يدفن فى مقابر المسلمين فدفنوه بمحل كان الناس يتوقون أن يدفنوا موتاهم به ، فكان يمر به ويقول : سيدفن هنا رجل صالح فيتأسى به الناس فى دفن موتاهم به وكان ذلك المحل بستانا فاشتراه عثمان وزاده فى البقيع ، فكان هو أول من قبر فيه ، وحملوه على باب وإن رأسه ليقرع الباب لإسراعهم به من شدة الخوف ، ولما دفنوه عفوا قبره خوفا عليه أن ينبش . وأما غلاماه اللذان قتلا معه فجروهما برجليهما وألقوهما على التلال فأكلتهما الكلاب .

وسبب هذه الفتنة أنهم نقموا عليه أمورا :

منها عزله لأكابر الصحابة ممن ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من أوصى عمر رضى الله تعالى عنه بأن يبقى على ولايته ، وهو أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه من البصرة ، فإن عمر رضى الله تعالى عنه أوصى بأن يبقى على ولايته ، فعزله عثمان وولى ابن خاله عبد الله بن عامر محله ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولاها ابن أبى سرح

وعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة ، وعزل ابن مسعود رضى الله تعالى عنه عنها أيضا وأشخصه إلى المدينة ، وعزل سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه عن الكوفة وولى أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبى معيط الذى سماه الله تعالى فاسقا بقوله تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) وصار الناس يقولون بئس ما فعل عثمان ، عزل اللين الهين الورع المستجاب الدعوة ، وولى أخاه الخائن الفاسق المدمن للخمر ، ولعل مستندهم فى ذلك مارواه الحاكم فى صحيحه « من ولى رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ومنها أنه أدخل عمه الحكم بن أبى العاص والد مروان المدينة وكان يقال له طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم طرده إلى الطائف ، ومكث به مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدة أبى بكر بعد أن سأله عثمان فى إدخاله المدينة فأبى ، فقال له عثمان : عمى ، فقال : عمك إلى النار ، هيهات هيهات أن أغير شيئا فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لارددته أبدا ، فلما توفى أبو بكر وولى عمر كلمه عثمان فى ذلك ، فقال له : ويحك ياعثمان ، تتكلم فى لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريده وعدو الله وعدو رسوله ؟ فلما ولى عثمان ردّه إلى المدينة ، فاشتد ذلك على المهاجرين والأنصار ، فأنكر ذلك عليه أعيان الصحابة ، فكان ذلك من أكبر الأسباب على القيام عليه ، واعتذر عثمان عن ذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان وعده برده وهو فى مرض موته ، قال : فشهدت عند أبى بكر ، فقال إنك شاهد واحد ولا تقبل شهادة الواحد ، ثم قال لى عمر كذلك ، فلما صار الأمر إلى قضيت بعلمى . أى : وأما عزله لأبى موسى ، فإن جند عمله شكوا شحه فعزله خوف الفتنة .

ومنها أنه جاء إلى عثمان أهل مصر يشكون ممن ولاه عليهم وهو ابن أبى سرح وقالوا : كيف توليه على المسلمين وقد أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دمه ؟ وتعزل عمرو بن العاص عنا .

وردّ هذا بأن عزله لعمرو إنما كان لكثرة شكايتهم منه ، وابن أبى سرح أسلم بعد الفتح وحسن حاله ووجدوه لسياسة الأمر أقوى من عمرو بن العاص ، وعزله للمغيرة بأنه أنهى إليه فيه أنه ارتشى فرأى المصلحة فى عزله ، فلما عادوا إلى مصر قتل ابن أبى سرح رجلا منهم فعادوا إلى عثمان وكلموا أكابر الصحابة كعلى وطلحة بن عبيد الله ، فقالوا

اعزله عنهم فإنهم يسألونك رجلا مكانه ، فقال لهم عثمان : يختارون رجلا أوليه عليهم ، فاختاروا محمد بن أبى بكر ، فكتب إليه عهده وولاه ، فخرج وخرج معه جماعة من المهاجرين والأنصار وجماعة من التابعين لينظروا بين أهل مصر وبين ابن أبى سرح ، فلما كان محمد بن أبى بكر ومن معه على مسيرة ثلاثة مراحل من المدينة ، فإذا هم بغلام أسود على بعير ، فقالوا له : ماقضيتك ؟ فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين ، أرسلنى إلى عامل مصر ، فقال له واحد منهم : هذا عامل مصر يعنى محمد بن أبى بكر ، فقال : ما هذا أريد ، فلما أخبر ذلك الرجل محمد بن أبى بكر استدعاه ، فقال له بحضور من معه من المهاجرين والأنصار : أنت غلام من ؟ فصار تارة يقول غلام أمير المؤمنين وتارة يقول غلام مروان ، فعرفه رجل من القوم وقال : هذا غلام عثمان ، فقال له محمد : إلى من أرسلت ؟ قال : إلى عامل مصر برسالة ، قال : معك كتاب ؟ قال لا ، ففتشوه فإذا معه كتاب : من عثمان إلى ابن أبى سرح فى قصبة من رصاص فى جوف الإداوة فى الماء ، ففتح الكتاب ، فحضره جميع من معه ، فإذا فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم ، وفى رواية : انظر فلانا وفلانا إذا قدموا عليك فاضرب أعناقهم ، وعاقب فلانا بكذا وفلانا بكذا ، منهم نفر من الصحابة ونفر من التابعين .

وفى رواية : اذبح محمد بن أبى بكر واحش جلده تبنا ، وكن على عملك حتى يأتيك كتابى ، فلما قرءوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة ، وقرئ الكتاب على جميع من بالمدينة من الصحابة والتابعين ، فما منهم أحد إلا واغتم لذلك ، فدخل عليه علىّ مع جماعة من أهل بدر ومعه الكتاب والغلام ، فقالوا له : هذا الغلام غلامك ؟ قال نعم ، قالوا : والبعير بعيرك ؟ قال نعم ، قالوا : فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ فقال : لا ، وحلف بالله ماكتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا علم لى به ، فقال له علىّ : والخاتم خاتمك ، قال نعم ، قال : فكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتابك عليه ختمك وأنت لا تعلم به ؟ فحلف بالله ما أمرت بهذا الكتاب ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر ، فعرفوا أنه خط مروان لا عثمان ، لأن عثمان لا يحلف باطلا : وفى رواية : الخط خط كاتبى ، والخاتم خاتمى . وفى رواية : انطلق الغلام بغير أمرى وأخذ الجمل بغير علمى ، قالوا فما نقش خاتمك ؟ قال : نقش عليه مروان ، فسألوه أن يدفع لهم مروان وكان مروان عنده فى الدار فأبى ، فخرجوا من عنده غضابا ، وقالوا لايبرأ عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نبحث ونعرف

حال الكتاب ، فإن كان عثمان أمر به عزلناه ، وإن كان مروان كتبه على لسان عثمان نظرنا ما يكون فى أمر مروان ، فأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان خوفا عليه من القتل ، فحوصر عثمان بسبب ذلك ، ومنعوه الماء ووقع ما تقدم .

وذكر ابن الجوزى أنه لما دخل المصريون على عثمان رضى الله عنه والمصحف فى حجره يقرأ فيه ، فمدوا إليه أيديهم ، فمد يده فضربت فسال الدم . وقيل: وقعت قطرة على (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) فقال : أما إنها أول يد خطت المفصل هذا كلامه : أى وهذا من أعلام النبوة . فقد أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يا عثمان تقتل وأنت تقرأ سورة البقرة ، فتقع قطرة من دمك على (فسيكفيكهم الله) » قال الذهبى : إنه حديث موضوع : أى قوله فيه وأنت تقرأ إلى آخره .

وروى أنه لما حوصر قال : والله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا منذ هدانى الله ، ولا قتلت نفسا فبم تقتلوننى ؟ وقال (يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) يا قوم لا تقتلونى ، إنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا وشبك بين أصابعه ، وقال معددا لنعم الله تعالى عليه : ما وضعت يدى على فرجى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما مرت بى جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن لا يكون عندى شىء فأعتقها بعد ذلك، قال بعضهم: وجملة من أعتقه عثمان ألفان وأربعمائة رقبة تقريبا .

وذكر أنه رأى فى الليلة التى قتل فى يومها المصطفى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر فى المنام وقالوا له : اصبر فإنك تفطر عندنا الليلة القابلة ، فلما أصبح دعا بالمصحف فنشره بين يديه ولبس السراويل ، ولم يكن لبسها قبل ذلك فى الجاهلية ولا فى الإسلام خوفا أن يطلع على عورته عند قتله .

وكان من جملة ما انتقم به على عثمان رضى الله تعالى عنه ، أنه أعطى ابن عمه مروان بن الحكم مائة ألف وخمسين أوقية . وأعطى الحارث عشر ما يباع فى السوق : أى سوق المدينة . وأنه جاء إليه ابو موسى بكيلة ذهب وفضة فقسمها بين نسائه وبناته ، وأنه أنفق أكثر بيت المال فى عمارة ضياعه ودوره ، وأنه حمى لنفسه دون إبل الصدقة ، وأنه حبس عبد الله بن مسعود وهجره ، وحبس عطاء وأبى بن كعب ، ونفى أبا ذر إلى الربذة ،

وأشخص عبادة بن الصامت من الشام لما شكاه معاوية ، وضرب عمار بن ياسر وكعب بن عبدة ، ضربه عشرين سوطا ونفاه إلى بعض الجبال ، وقال لعبد الرحمن بن عوف : إنك منافق ، وإنه أقطع أكثر أراضي بيت المال ، وأن لا يشترى أحد قبل وكيله وأن لا تسير سفينة فى البحر إلا فى تجارته ، وأنه أحرق الصحف التى فيها القرآن ، وأنه أتمّ الصلاة بمنى ولم يقصرها لما حج بالناس ، وأنه ترك قتل عبيد الله وقد قتل الهرمزان . وقد أجاب عن ذلك كله فى الصواعق فراجعه .

وما رواه الزبير بن بكار عن أنس من أنه صلى الله عليه وسلم لم يعمل اللبن ولم يبن به المسجد إلا بعد أربع سنين من الهجرة رأيت ما يرده فى تاريخ للمدينة . ونصه : ماروى عن أنس واه أو مؤوّل ، والمعروف خلافه والله أعلم .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو بنى مسجدى هذا إلى صنعاء كان مسجدى » قال بعضهم : إن صح هذا كان من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، أى لأنه وسع بعد ذلك : أى وسعه المهدى وذلك فى سنة ستين ومائة ثم زاد فيه المأمون فى سنة اثنتين ومائتين .

وبه يردّ القول بأن المضاعفة خاصة بالموجود حين الإشارة : أى لكن المحافظة على الصلاة فيما كان فى عهده صلى الله عليه وسلم أولى .

قال : وبنى حجرتين لعائشة وسودة : أى بناهما مجاورتين للمسجد وملاصقتين له على طرز بناء المسجد من لبن ، وجعل سقفهما من جذوع النخل والجريد : أى وقدم رجل من أهل اليمامة عند الشروع فى بناء المسجد يقال له طلق من بنى حنيفة . فعنه رضى الله تعالى عنه قال : قدمت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبنى مسجده والمسلمون يعملون معه فيه ، وكنت صاحب علاج الطين ، فأخذت المسحاة وخلطت بها الطين ، فقال لى : يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ أحسن صنعته » وقال لى « الزم أنت هذا الشغل فإنى أراك تحسنه » وفى لفظ « إن هذا الحنفى لصاحب طين » وفى لفظ « قربوا اليمانى من الطين ، فإنه أحسنكم له مسكا ، وأشدكم منكبا » وفى لفظ « دعوا الحنفى والطين فإنه من أصنعكم للطين » وأرسل وهو فى بيت أبى أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع مكة وأعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين ليأتيا بأهله : أى والخمسمائة أخذها من أبى بكر ليشتريا بها ما يحتاجان إليه ، فاشترى بها زيد ثلاثة أبعرة ، وأرسل معهما أبو بكر رضى الله تعالى

عنه عبد الله بن الأريقط دليلا أى ببعيرين أو ثلاثة ، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه صلى الله عليه وسلم وسودة زوجته وأم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم زوج زيد بن حارثة وابنها أسامة بن زيد، فأسامة أخو أيمن لأمه ، وكان أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه وابن حاضنته .

عن عائشة رضى الله تعالى عنها « أن أسامة عثر يوما فى أسكفة الباب فشج وجهه ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أميطى عنه ، قالت عائشة : فكأنى تقذرته » أى لأنه كان أسود أفطس « فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمصه » يعنى الدم « ثم يمجه » .

وأما بنته صلى الله عليه وسلم زينب التى هى أكبر بناته ، فكانت مع زوجها ابن خالتها أبى العاص بن الربيع فنعها من الهجرة ، وسيأتى أنها هاجرت بعد ذلك قبله وتركته على شركه ، وبعد أن أسر فى بدر وأطلق ، وأمره صلى الله عليه وسلم بأن يخلى سبيلها ، ففعل ثم لما أسلم ردها إليه .

وأما بنته رقية ، فتقدم أنها هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان ، وخرج مع فاطمة ومن ذكر معها عبد الله بن أبى بكر ، ومعه عيال أبى بكر فيهم زوجته أم رومان وعائشة وأختها أسماء زوج الزبير : أى وهى حامل بابنها عبد الله بن الزبير ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها «أنها كانت هى وأمها على بعير فى محفة فنفر البعير ، قالت : فصارت أمى تقول : وابنتاه واعروساه ، فمسك البعير وسلم الله » وفى رواية عن عائشة رضى الله تعالى عنها : « لما صارت أمى تقول : واعروساه وابنتاه سمعت قائلا يقول : أرسلى خطامه ، فأرسلت خطامه ، فوقف بإذن الله ، وسلمنا الله » وأم رومان ولدت لأبى بكر عائشة وعبد الرحمن رضى الله تعالى عنهم ؛ وكانت قبل أبى بكر تحت عبد الله بن الحارث فولدت له الطفيل ، قال صلى الله عليه وسلم فى حقها « من يسره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » وتوفيت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ماتت سنة ست من الهجرة «ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها ، وقال : اللهم إنه لم يخف عليك ما لاقت أم رومان فيك وفى رسولك صلى الله عليه وسلم» .

وعورض القول بموتها فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى البخارى عن مسروق قال : سألت أم رومان وهى أم عائشة رضى الله تعالى عنهما ، ومسروق ولد بعد

موت النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف ، وما فى البخارى حديث صحيح مقدم على ما ذكره أهل السير من موتها فى حياته صلى الله عليه وسلم .

وفى البخارى عن أسماء « فنزلت بقباء فولدته بها » يعنى ولدها عبد الله بن الزبير ، «ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فوضعته فى حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل فى فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بتمرة » أى بتلك التمرة . ففى المواهب « وحنكه بها ، ثم دعا له وبرك عليه » وهو أوّل مولود ولد فى الإسلام أى للمهاجرين .

وفيه أن أسماء إنما قدمت المدينة: أى إلى قباء بعد تحوله صلى الله عليه وسلم من قباء ، ويدل له قول بعضهم : قدم آل أبى بكر من مكة وهو صلى الله عليه وسلم يبنى مسجده ، وأنزلهم أبو بكر فى السنح ، إلا أن يقال : يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم جاء إلى قباء بعد ذلك فقد قال بعضهم : وهذا السياق يدل على أن عبد الله بن الزبير ولد فى السنة الأولى لا فى الثانية كما قاله الواحدى وتبعه غيره ، فقال : ولد بعد عشرين شهرا من الهجرة ففرح به المسلمون فرحا شديدا ، لأن اليهود كانوا يقولون قد سحرناهم فلا يولد لهم مولود ، وهذا ربما يؤيد القول الثانى ، إلا أن يقال : يجوز أن يكون عبد الله مكث فى بطنها المدة المذكورة .

فقد ذكر أن مالكا رضى الله تعالى عنه مكث فى بطن أمه سنتين ، وكذا الضحاك ابن مزاحم التابعى مكث فى بطن أمه سنتين . وفى المحاضرات للجلال السيوطى أن مالكا مكث فى بطن أمه ثلاث سنين ، وأخبر سيدنا مالك أن جارة له ولدت ثلاثة أولاد فى اثنتى عشرة سنة بحمل أربع سنين ، وحينئذ يجوز أن تكون سيدتنا أسماء جاءت إلى قباء فولدته سيدنا عبد الله ، وصادف مجيئه صلى الله عليه وسلم إلى قباء فى ذلك اليوم ، وقد سماه صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وكناه أبا بكر بكنية جده الصديق رضى الله تعالى عنه .

وروى «أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع أو ثمان ليبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمره والده الزبير بذلك فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعه» وكون آل أبى بكر نزلوا عند مجيئهم المدينة فى السنح لا ينافى كون أسماء نزلت بقباء وولدت بها لأنه يجوز أن يكون نزول أسماء فى السنح بعد نزولها فى قباء ، قصدها لراحتها لكونها كانت حاملا حتى وضعت ، والسياق المتقدم يدل على ذلك ، وكون عبد الله بن الزبير

أول مولود ولد فى الإسلام للمهاجرين بالمدينة كذلك عبدالله بن جعفر بن أبى طالب ، أول مولود ولد للمهاجرين بالحبشة ، ويقال له عبد الله الجواد .

واتفق أن النجاشي ولد له مولود يوم ولد عبد الله هذا ، فأرسل إلى جعفر يقول له : كيف سميت ابنك ، فقال : سميته عبد الله ، فسمى النجاشى ابنه عبد الله وأرضعته أسماء بنت عميس مع ابنها عبد الله المذكور ، فكانا يتراسلان بتلك الأخوة من الرضاع .

وأوّل مولود ولد للأنصار بعـد الهجرة مسلمة بن مخلد ، وقيل النعمان بن بشير . وذكر أن أم أسماء قدمت المدينة وهى مشركة على أسماء بهدية ، فحجبتها أسماء وردت عليها هديتها ، فسألت عائشة رضى الله تعالى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأمر أسماء أن تؤوى أمها وتقبل هديتها .

قيل وفى ذلك وفى إرسال عبد الرحمن بن أبى بكر وهو بمكة على دينه قبل أن يسلم إلى أبيه يسأله النفقة فأبى أبوه أن ينفق عليه أنزل الله الإذن فى الإنفاق على الكفار .

وقال أبو أيوب الأنصارى « لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى أسفل البيت وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، إنى أكره وأعظم أن أكون فى العلو وتكون تحتى ، فاظهر أنت وكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا أيوب أرفق بنا» : أى السفل أرفق بنا «وبمن يغشانا »أى وفى لفظ «إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت ، قال أبو أيوب : فانكسر حب لنا فيه ماء »والحب بضم الحاء المهملة : الجرة الكبيرة «فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء فيؤذيه ، ولم أزل أتضرع للنبى صلى الله عليه وسلم حتى تحول فى العلو » أى وفى رواية عن أبى أيوب قال « نزل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فكنت فى العلو ، فلما خلوت إلى أم أيوب ، فقلت لها : رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالعلو منا ، ينتثر التراب عليه من وطء أقدامنا ، وتنزل عليه الملائكة وينزل عليه الوحى » وفى رواية « ينزل عليـه القرآن ، ويأتيه جبريل ، فما بت تلك الليلة أنا ولا أم أيوب ، فلما أصبحت قلت : يا رسول الله مابت الليلة أنا ولا أم أيوب قال : لم؟ يأبا أيوب؛ قلت: كنت أحق بالعلو منا ، ينزل عليك الملائكة ، وينزل عليك الوحى والذى بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبدا » أى وعن أفلح مولى أبى أيوب « أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل أسفل وأبو أيوب فى العلو انتبه أبو أيوب ذات ليلة ؛ فقال : نمشى فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم فباتا فى جانب ، فلما أصبح » الحديث .

وعند نزوله صلى الله عليه وسلم فى بيت أبى أيوب صارت تأتى إليه جفنة سعد بن عبادة ، وجفنة أسعد به زرارة كل ليلة ، أى وكانت جفنة سعد بن عبادة ؛ بعد ذلك تدور معه صلى الله عليه وسلم فى بيوت أزواجه ، فقد جاء « كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من سعد بن عبادة جفنة من ثريد » أى عليه لحم « أو خبز فى لبن أو فى سمن أو فى عسل أو بخل وزيت ، فى كل يوم تدور معه أينما دار مع نسائه ، وصار وهو فى بيت أبى أيوب يأتى إليه الطعام من غيرهما » أى فقد جاء « وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون ، حتى تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل أبى أيوب » أى وفى لفظ « وجعل بنو النجار يتناوبون فى حمل الطعام إليه صلى الله عليه وسلم مقامه فى منزل أبى أيوب رضى الله تعالى عنه وهو تسعة أشهر . وأول طعام جىء به إليه صلى الله عليه وسلم فى دار أبى أيوب قصعة أم زيد بن ثابت » .

فعن زيد بن ثابت « أول هدية دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أبى أيوب قصعة أرسلتنى بها أمى إليه فيها ثريد خبز برّ بسمن ولبن فوضعتها بين يديه ، وقلت : يارسول الله أرسلت بهذه القصعة أمى ، فقال له : بارك الله فيها » أى وفى رواية « بارك الله فيك ودعا أصحابه فأكلوا » قال زيد : فلم أرم الباب : أى أرده حتى جاءت قصعة سعد ابن عبادة ثريد وعراق لحم » أى بفتح العين عظم عليه لحم ، فإن أخذ عنه اللحم قيل له عراق بضم العين . وقد جاء « كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الثريد » ويقال له الثفل بالمثلثة والفاء .

ولما بنى المسجد جعل فى المسجد محلا مظللا يأوى إليه المساكين يسمى الصفة ، وكان أهله يسمون أهل الصفة ، وكان صلى الله عليه وسلم فى وقت العشاء يفرقهم على أصحابه ويتعشى معه منهم طائفة .

وظاهر السياق أن ذلك : أى المحل فعل فى زمن بناء المسجد وآوى إليه المساكين من حينئذ ، لكن روى البيهقى عن عثمان بن اليمان قال : « لما كثر المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم زاد ولا مأوى ، أنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وسماهم أصحاب الصفة ؛ وكان يجالسهم ويأنس بهم ، أى وكان إذا صلى أتاهم فوقف عليهم فقال : لو تعلمون مالكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقرا وحاجة » .

أقول : ذكر « أن المسجد كان إذا جاءت العتمة يوقد فيه بسعف النخل ، فلما قدم تميم الدارى المدينة صحب معه قناديل وحبالا وزيتا وعلق تلك القناديل بسوارى المسجد وأوقدت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : نوّرت مسجدنا نوّر الله عليك ، أما والله لو كان لى ابنة لأنكحتكها » .

هذا ، وفى كلام بعضهم : أول من جعل فى المسجد المصابيح عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . ويوافقه قول بعضهم : والمستحب من بدع الأفعال تعليق القناديل فيها : أى المساجد . وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فإنه لما جمع الناس على أبى بن كعب فى صلاة التراويح علق القناديل ، فلما رآها علىّ تزهر قال : نورت مساجدنا نور الله قبرك يا ابن الخطاب ، ولعل المراد تعليق ذلك بكثرة ، فلا يخالف ما تقدم عن تميم الدارى .

ثم رأيت فى أسد الغابة عن سراج غلام تميم الدارى قال « قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن خمسة غلمان لتميم الدارى ، فأمرنى يعنى سيده فأسرجت المسجد بقنديل فيه زيت وكانوا لايسرجون فيه إلا بسعف النخل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أسرج مسجدنا ؟ فقال تميم : غلامى هذا ، فقال : ما اسمه؟ فقال فتح . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل اسمه سراج ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سراجا » .

وعن بعضهم قال : أمرنى المأمون أن أكتب بالاستكثار من المصابيح فى المساجد ، فلم أدر ما أكتب ، لأنه شىء لم أسبق إليه ، فأريت فى المنام اكتب ، فإن فيها أنسا للمجتهدين ، ونفيا لبيوت الله عن وحشة الظلم ، فانتبهت وكتبت بذلك . قال بعضهم : لكن زيادة الوقود كالواقع ليلة النصف من شعبان ، ويقال لها ليلة الوقود ينبغى أن يكون ذلك كتزويق المساجد ونقشها . وقد كرهه بعضهم والله أعلم .

قال : وذكر ابن إسحاق فى كتاب المبدإ وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن تبع بن حسان الحميرى ، وهو تبع الأول : أى الذى ملك الأرض كلها شرقها وغربها ، وتبع بلغة اليمن : الملك المتبوع ، ويقال له الرئيس لأنه رأس الناس بما أوسعهم من العطاء وقسم فيهم من الغنائم ، وكان أول من غنم .

ولما عمد إلى البيت يريد تخريبه رمى بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا ، وأنتن

حتى لايستطيع أحد أن يدنو منه قيد رمح كما تقدم ، وتقدم أنه بعد ذلك كسا الكعبة ، وبعد ذلك اجتاز بيثرب ، وكان فى ركابه مائة ألف وثلاثون ألفا من الفرسان ، ومائة ألف وثلاثة عشر ألفا من الرجالة ، فأخبر أن أربعمائة رجل من أتباعه من الحكماء والعلماء تبايعوا أن لايخرجوا منها ، فسألهم عن الحكمة فى ذلك ؟ فقالوا : إن شرف البيت إنما هو برجل يخرج يقال له محمد هذه دار إقامته ولايخرج منها ، فبنى فيها لكل واحد منهم دارا ، واشترى له جارية وأعتقها وزوجها منه ، وأعطاهم عطاء جزيلا ، وكتب كتابا وختمه ودفعه إلى عالم عظيم منهم ، وأمره أن يدفع ذلك الكتاب لمحمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه ، وفى ذلك الكتاب ، أنه آمن به وعلى دينه ، وبنى دارا له صلى الله عليه وسلم ينزلها إذا قدم تلك البلد ويقال إنها دار أبى أيوب . أى كما تقدم ، وأنه من ولد ذلك العالم الذى دفع إليه الكتاب ، أى فهو صلى الله عليه وسلم لم ينزل إلا داره أى على ما تقـــدم .

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى دعا إلى الإسلام أرسلوا إليه ذلك الكتاب مع شخص يسمى أباليلى ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت أبوليلى الذى معك كتاب تبع الأول ؟ فقال له أبوليلى : من أنت ؟ قال : أنا محمد ، هات الكتاب ، فلما قرأه : أى قرئ عليه . وذكر بعضهم : أن مضمون الكتاب . أما بعد يامحمد ، فإنى آمنت بك وبربك ورب كل شئ ، وبكل ماجاءك من ربك من شرائع الإسلام والإيمان . وإنى قلت ذلك ، فإن أدركتك فيها ونعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لى يوم القيامة ولا تنسنى فإنى من أصل الأولين ، وبايعتك قبل مجيئك وقبل أن يرسلك الله ، وأنا على ملتك وملة إبراهيم . وختم الكتاب وتلا : أى قرأ عليه (لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) فقد قرأ هذا قبل نزوله : وكتب عنوان الكتاب : إلى محمد بن عبد الله خاتم النبيين والمرسلين ورسول رب العالمين ، من اتبع ، لأول حمير ، أمانة الله فى يد من وقع هذا الكتاب فى يده ، إلى أن يدفعه إلى صاحبه ودفعه إلى رأس العلماء المذكورين . ثم وصل الكتاب المذكور إلى النبى صلى الله عليه وسلم على يد بعض ولد العالم المذكور حين هاجر وهو بين مكة والمدينة ، وسياق الرواية الأولى يدل على أن ذلك كان فى أول البعثة ، وبعد قراءة الكتاب عليه صلى الله عليه وسلم قال : مرحبا بتبع الأخ الصالح ثلاث مرات ، وكان بين تبع هذا ، أى بين قوله إنه آمن به

وعلى دينه ، وبين مولد النبى صلى الله عليه وسلم ألف سنة سواء ، أى وتقدم أنه ابتاع المحل الذى بناه دارا له قبل مبعثه بألف سنة فليتأمل . ويقال إن الأوس والخزرج من أولاد أولئك العلماء والحكماء اه .

أقول : قد علمت أن نزوله صلى الله عليه وسلم دار أبى أيوب على الوجه المتقدم ، وأخذه المربد على الكيفية المتقدمة مع وصول الكتاب إليه أول البعثة أو بين مكة والمدينة وهو مهاجر إلى المدينة يبعد هذا .

وفيه أيضا : أن الذى فى [التنوير] لابن دحية أن هذا تبع الأوسط ، وأنه الذى كسا البيت بعد ما أراد غزوه ، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبى اسمه محمد .

أى فقد ذكر بعضهم أن تبعا أراد تخريب المدينة واستئصال اليهود ، فقال له رجل منهم بلغ من العمر مائتين وخمسين سنة : الملك أجل من أن يستخفه غضب ، وأمره أعظم أن يضيق عنا حلمه أو نحرم صفحه ، مع أن هذه البلدة مهاجر نبى يبعث بدين إبراهيم . فكتب كتابا وذكر فيه شعرا ، فكانوا يتوارثون ذلك الكتاب إلى أن هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأدوه إليه . ويقال إن الكتاب كان عند أبى أيوب الأنصارى وكان ذلك قبل مبعثه بسبعمائة عام .

وفى [التنوير]أيضا أن ابن أبى الدنيا ذكر أنه حفر قبر بصنعاء قبل الإسلام ، فوجد فيه امرأتان لم يبليا ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: هذا قبر فلانة وفلانة ابنتى تبع ، ماتتاوهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما . وجاء « لا تسبوا تبعا ، فإنه كان مؤمنا » .. وفى رواية « لا تسبوا تبعا الحميرى ، فإنه أول من كسا الكعبة » قال السهيلى : وكذا تبع الأول كان مؤمنا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقال شعرا ينبئ فيه بمبعثه صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

وكانت المدينة فى الجاهلية معروفة بالوباء : أى الحمى ، وكان إذا أشرف على واديها أحد ونهق نهيق الحمار لايضره الوباء . وفى لفظ : كان إذا دخلها غريب فى الجاهلية يقال له إن أردت السلامة من الوباء فانهق نهيق الحمار ، فإذا فعل ذلك سلم .

وفى حياة الحيوان : كانوا فى الجاهلية إذا خافوا وباء بلد عشروا كتعشير الحمار : أى نهقوا عشرة أصوات فى طلق واحد قبل أن يدخلوها ، وكانوا يزعمون أن ذلك يمنعهم من الوباء .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة وجد أهلها من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى (ويل للمطففين) الآية فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة وأصحابه أصابت أصحابه بالحمى . وفى لفظ : استوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق أمزجتهم ، فرض كثير منهم وضعفوا ، حتى كانوا يصلون من قعود ، فرآهم صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اعلموا : أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، فتجشموا المشقة وصلوا قياما » .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها « قدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله ، ولما حصلت لها الحمى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالى أراك هكذا ؟ قالت : بأبى أنت وأمى هذه الحمى وسبتها ، فقال : لا تسبيها فإنها مأمورة ، ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتهن أذهبها الله تعالى عنك ، قالت : فعلمنى ، قال ، قولى : اللهم ارحم جلدى الرقيق وعظمى الدقيق ، من شدة الحريق ؛ يا أم ملدم إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعى الرأس ، ولا تنتنى الفم ، ولا تأكلى اللحم ، ولا تشربى الدم ، وتحولى عنى إلى من اتخذ مع الله إلها آخر ، فقالتها ، فذهبت عنها »

وعن على رضى الله تعالى عنه « لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فأصابنا بها وعك» : أى حمى ، ومن جملة من أصابته الحمى سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه ومولياه عامر بن فهيرة وبلال : أى وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى أنشد :

كل امرىء مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

أى وهذا من شعر حنظلة بن يسار ، بناء على الصحيح أن الرجز يقال له شعر كما تقدم ؛ وليس من شعر أبى بكر .

فعن عائشة رضى الله تعالى عنها أن أبا بكر لم يقل شعرا فى الإسلام ، أى ولا فى الجاهلية كما فى رواية عنها : والله ما قال أبو بكر بيت شعر فى الجاهلية ولا فى الإسلام : أى لم ينشئه حتى مات ، أى وهذا ربما ينافى مافى الينبوع : ليس عمل الشعر رذيلة ، قد كان الصديق وعمر وعلى رضوان الله تعالى عليهم يقولون الشعر ، وعلىّ كرم الله وجهه أشعر من أبى بكر وعمر . وما تقدم عن عائشة معارض بظاهر ما روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه إذا رأى النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو   كضوء البدر زايله الظلام

إلا أن يحمل قولها على أنها لما تسمع ذلك منه بناء على أن ذلك من إنشاء الصديق .

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته : أى صوته يقول متشوقا إلى مكة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء ، وأراد بلال بالوادى وادى مكة. والإذخر : نبت معروف . وجليل: بالجيم نبت ضعيف ، وشامة وطفيل: جبلان بقرب مكة ،أى وفى رواية «وهل يبدون لى عامر وطفيل» وعامر أيضا: جبل من جبال مكة .

وفى شرح البخارى للخطابى : كنت أحسب شامة وطفيلا جبلين حتى مررت بهما ، فإذا هما عينان من ماء هذا كلامه .

وقد يقال : يجوز أن تكون العينان بقرب الجبلين المذكورين ، فأطلق اسم كل منهما على الآخرين ، ولعل هذا اللعن من بلال كان قبل النهى عن لعن المعين ، لأنه لا يجوز لعن الشخص المعين على الراجح ، إلا إن علم موته على الكفر كأبى جهل وأبى لهب دون الكافر الحى ، لأنه يحتمل أن يختم له بالحسنى فيموت على الإسلام ، لأن اللعن هو الطرد عن رحمة الله تعالى المستلزم لليأس منها . وأما اللعن على الوصف كآكل الربا فجائز أو أن ذلك محمول فى ذلك على الإهانة والطرد عن مواطن الكرامة لاعلى الطرد عن رحمة الله تعالى الذى هو حقيقة اللعن ،وكان كل من أبى بكر وعامر وبلال فى بيت واحد . قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيادتهم ، فدخلت عليهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فإذا بهم مالا يعلمه إلا الله تعالى من شدة الوعك فسلمت عليهم ، أى وقالت لأبيها : يا أبت كيف أصبحت ؟ فأنشدها الشعر المتقدم ، قالت : فقلت : إنا لله ، إن أبى ليهذى ، قالت : فقلت لعامر بن فهيرة : كيف تجدك ؟ فقال :

إنى وجدت الموت قبل ذوقه   إن الجبان حتفه من فوقه

قالت : فقلت : هذا والله لايدرى ما يقول ، قالت: ثم قلت لبلال : كيف أصبحت فإذا هو لا يعقل . وفى رواية فأنشدها البيتين ، قالت: وذكرت حالهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقلت : إنهم يهذون ولا يعقلون من شدة الحمى .

أى وهذا السياق يخالف مافى السيرة الهشامية أن الصديق رضى الله تعالى عنه لما قدم المدينة أخذته الحمى هو وعامر بن فهيرة وبلال ، إلا أن يقال لا مخالفة لأنه يجوز أنها أخذتهم أولا وأقلعت عنهم ثم عادت عليهم بعد دخوله صلى الله عليه وسلم بعائشة ، أو أن عائشة استأذنته فى ذلك وذكرت له حالهم قبل دخوله بها لأنها كانت معقودا عليها ، ولعل الصديق كان فى غير بيت أم عائشة :

والذى فى تاريخ الأزرقى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « لما قدم المهاجرون المدينة شكوا بها ، فعاد النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، فقال : كيف تجدك ؟ فأنشده ما تقدم ، ثم دخل على بلال فقال : كيف تجدك يا بلال ؟ فأنشده ما تقدم ، ثم دخل على عامر بن فهيرة فقال : كيف تجدك يا عامر ؟ فأنشده ما تقدم » ولا مانع من التعدد فليتأمل .

وحين ذكرت عائشة رضى الله تعالى عنها له ذلك نظر إلى السماء ، أى لأنها قبلة الدعاء وقال « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد » وفى رواية « وأشدّ وبارك لنا فى مدّها وصاعها ، وصححها لنا ثم انقل وباءها إلى مهيعة » أى الجحفة كما فى رواية . وهى قرية قريبة من رابع محل إحرام من يجىء من جهة مصر حاجا ، وكان سكانها إذ ذاك يهود . ودعاؤه صلى الله عليه وسلم أن يحبب إليهم المدينة إنما هو لما جبلت عليه النفوس من حبّ الوطن والحنين إليه ، ومن ثم جاء فى حديث « أن عائشة رضى الله تعالى عنها سألت رجلا بحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة من مكة ، فقالت له : كيف تركت مكة ؟ فذكر من أوصافها الحسنة ما غرغرت منه عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « لا تشوقنا يا فلان » وفى رواية « دع القلوب تقر » .

أقول : ودعاؤه صلى الله عليه وسلم بنقل الحمى كان فى آخر الأمر ، وأما عند قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة فخير بين الطاعون والحمى : أى بقائها ، فأمسك الحمى بالمدينة وأرسل الطاعون إلى الشام كما جاء فى بعض الأحاديث « أتانى جبريل بالحمى والطاعون ، فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون إلى الشام » وقولنا أى بقائها ردّ لما قد يتوهم من الحديث أن الحمى لم تكن بالمدينة قبل قدومه صلى الله عليه وسلم إليها ، وإنما اختار الحمى على الطاعون لأنه كان حينئذ فى قلة من أصحابه ، فاختار بقاء الحمى لقلة الموت بها غالبا بخلاف الطاعون . ثم لما احتاج للجهاد وأذن له فى القتال وجد الحمى تضعف أجساد

الذين يقاتلون دعا بنقل الحمى من المدينة إلى الجحفة ، فعادت المدينة أصح بلاد الله تعالى بعد أن كانت بخلاف ذلك ، كذا قيل فليتأمل .

فإنه يقتضى أن الحمى لما نقلت إلى الجحفة لم يبق منها بقية بالمدينة ، وهو الموافق لما يأتى عن الخصائص ، وحين نقلت الحمى إلى الجحفة صارت الجحفة لايدخلها أحد إلا حم ، بل قيل إذا مر بها الطائر حم .

واستشكل حينئذ جعلها ميقاتا للإحرام ، وقد علم من قواعد الشرع أنه صلى الله عليه وسلم لايأمر بما فيه ضرر .

وأجيب بأن الحمى انتقلت إليها مدة مقام اليهود بها ثم زالت بزوالهم من الحجاز أو قبله حين التوقيت بها ، كذا قيل فليتأمل .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال « رأيت » أى فى النوم « امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة ، فأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة » .

وفى الخصائص الصغرى للسيوطى : « وصرف الحمى عنها : يعنى المدينة أول ماقدمها ونقلها إلى الجحفة ، ثم لما أتاه جبريل بالحمى والطاعون أمسك الحمى بالمدينة وأرسل الطاعون إلى الشام ، ولما عادت الحمى إلى المدينة باختياره صلى الله عليه وسلم إياها لم تستطع أن تأتى أحدا من أهلها حتى جاءت ووقفت ببابه واستأذنته فيمن يبعثها إليه ، فأرسلها إلى الأنصار » .

فقد جاء « إن الحمى جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : أنا أم ملدم » وفى رواية « أنا الحمى ، أبرى اللحم ، وأشرب الدم ، قال : لامرحبا بك ولا أهلا » .

وفيه أنه تقدم « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عائشة عن سبها ، فقالت له : أمضى إلى أحب قومك أو أحب أصحابك إليك ، فقال : اذهبى للأنصار ، فذهبت إليهم فصرعتهم فقالوا له : ادع لنا بالشفاء ، فقال : إن شئتم دعوت الله عز وجل يكشفها عنكم ، وإن شئتم تركتموها فأسقطت ذنوبكم » وفى رواية « كانت لكم طهورا ، فقالوا بلى دعها يارسول الله » ولعل هذا كان لطائفة من الأنصار ، فلا ينافى ماجاء « أن الأنصار لما شكوا له الحمى وقد مكثت عليهم ستة أيام بلياليها دعا لهم بالشفاء ، وصار صلى الله عليه وسلم يدخل دارا دارا وبيتا بيتا يدعو لهم بالعافية » وهذا الذى فى الخصائص يدل على أن الحمى لما ذهبت إلى الجحفة لم يبق منها بقية بالمدينة ، وأنها بعد ذلك عادت إلى المدينة باختيار منه صلى الله عليه وسلم .

والذى نقله هو عن الحافظ ابن حجر أن الحمى كانت تصيب من أقام بالمدينة من أهلها وغيرهم ، فارتفعت بالدعاء عن أهلها إلا النادر ومن لا يألف هواها .

وقد جاء «وإن حمى ليلة كفارة سنة ، ومن حم يوما كانت له براءة من النار ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والذى رواه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه عن جابر « استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ قالت : أم ملدم ، فأمر بها إلى أهل قباء فلقوا مالا يعلمه إلا الله تعالى ، فشكوا إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن شئتم دعوت الله تعالى ليكشفها وإن شئتم تكون لكم طهورا ، قالوا أو يفعل ؟ قال نعم ، قالوا فدعها » والله أعلم .

ثم دعا صلى الله عليه وسلم بقوله « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ماجعلت بمكة من البركة وفى رواية « واجعل مع البركة بركتين » وجاء « أنهم شكوا له صلى الله عليه وسلم سرعة فناء طعامهم ، فقال لهم : قوتوا طعامكم يبارك لكم فيه » قيل معناه تصغير الأرغفة ، ودعا لغنم كانت ترعى بالمدينة فقال « اللهم اجعل نصف أكراشها مثل ملئها فى غيرها من البلاد » أى ولعل الدعاء بذلك ليس خاصا بتلك الأغنام الموجودة فى زمنه صلى الله عليه وسلم .

ويدل لذلك ماذكره السيوطى فى الخصائص الصغرى : مما اختصت به المدينة أن غبارها يطفئ الجذام ، ونصف أكراش الغنم فيها مثل ملئها فى غيرها من البلاد ، والكرش كالمعدة للإنسان .

وكما صينت المدينة عن الطاعون بإرساله إلى الشام صينت عن الدجال . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « على أنقاب المدينة » أى على أبوابها « ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » وفى رواية « لها » : أى المدينة « سبعة أبواب على كل باب ملك » .

فإن قيل : كيف مدحت المدينة بعدم دخول الطاعون ، وكيف أرسله صلى الله عليه وسلم إلى الشام مع أنه شهادة ؟

وأجيب بأنه إنما أرسله إلى الشام لما تقدم ، وصينت عنه بعد انتفاء ماتقدم ، لأن سببه طعن كفار الجن وشياطينهم ، فمنع من المدينة احتراما لها ، ولم يتفق دخول الطاعون

بها فى زمن من الأزمنة ، بخلاف مكة فإنه وجد بها فى بعض السنين وهى سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

ويقال إنه وقع فى سنة تسع وثلاثين بعد الألف لما هدم السيل الكعبة : أى الجانب الذى جهة الحجر . قال بعضهم : فمن حين انهدم وجد الطاعون بمكة ، واستمر إلى أن أقاموا الأخشاب موضع المنهدم وجعلوا عليها الستر ، فعند ذلك ارتفع الطاعون ، كذا أخبر بعض الثقات من أهل مكة .

وكونه لم يتفق دخول الطاعون فى المدينة فى زمن من الأزمنة يخالفه قول بعضهم : وفى السنة السادسة من الهجرة وقع طاعون فى المدينة أفنى الخلق ، وهو أول طاعون وقع فى الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها ، وإن سمعتم به فى أرض فلا تقربوها » .

ويروى «أنه لما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة رفع يديه وهو على المنبر وقال : اللهم انقل عنها الوباء ثلاثا » أى وفيه أن هذا قد يخالف ماسبق من أن هذا كان فى آخرة الأمر لاعند قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة ، إلا أن يحمل على أن قدومه صلى الله عليه وسلم كان من سفر لاللهجرة .

وفى الحديث «سيأتى على الناس زمان يلتمسون فيه الرخاء فيحملون بأهليهم إلى الرخاء والمدينة خير لهم لوكانوا يعلمون ؛ لايلبث فيها أحد فيصبر للأوائها وشدتها حتى يموت إلا كنت له يوم القيامة شهيدا وشفيعا » .

وفى مسلم « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا وكنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا » أى شفيعا للعاصى وشهيدا للطائع . واللأواء بالمد الجوع .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ، فإنى أشفع لمن يموت بها ، لايريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله تعالى ذوب الملح فى الماء » وفى رواية « أذابه الله فى النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح فى الماء ، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد » أى وفى رواية فى مسلم « تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة » وتقدم أن هذا ليس عاما فى الأزمنة ولا فى الأشخاص ، وفى رواية « مكة والمدينة ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد ، من أخاف أهل المدينة ظلما أخافه الله عز وجل وعليه لعنة الله والملائكة والناس ، لا يقبل الله

منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » أى وبهذا الحديث تمسك من جوّز اللعن على يزيد ، لما تقدم عنه فى إباحة المدينة فى وقعة الحرة .

وردّ بأنه لا دلالة فيه على جواز لعن يزيد باسمه ، والكلام إنما هو فيه ، وإنما يدل على جواز لعنه بالوصف وهو « من أخاف أهل المدينة » وليس الكلام فيه ، والفرق بين المقامين واضح كما علمت .

وجاء « أهل المدينة جيرانى وحقيق على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر من حفظهم كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة ، ومن لم يحفظهم سقى من طينة الخبال ، أى وهى عصارة أهل النار » وفى لفظ « من أخاف هذا الحىّ من الأنصار ، فقد أخاف مابين هذين ووضع يده على جنبيه » وقيل لها طيبة لطيب العيش بها ، ولأن للعطر أى الطيب بها رائحة لا توجد فيه فى غيرها .

ومن خصائصها أن ترابها شفاء من الجذام كما تقدم . زاد بعضهم : ومن البرص ، بل من كل داء ، وعجوتها شفاء من السم .

أى وفى الحديث « تخرب المدينة قبل يوم القيامة بأربعين سنة ، وإن خرابها يكون من الجوع ، وإن خراب اليمن يكون من الجراد » أى وقد دعا صلى الله عليه وسلم على الجراد ، فقال « اللهم أهلك الجراد ، واقتل كباره ، وأهلك صغاره واقطع دابره ، وخذ بأفواهها عن مواشينا وارزقنا إنك سميع الدعاء » وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « كان صلى الله عليه وسلم يؤتى بأول التمر فيقول : اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، وفى ثمارها ، وفى مدنا ، وفى صاعنا بركة مع بركة ، ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لمكة ، وإنى عبدك ونبيك أدعوك للمدينة بمثل مادعاك لمكة ومثله معه » .

ثم بنى صلى الله عليه وسلم بقية الحجر التسع عند الحاجة إليها ، أى وهذا هو الموافق لماسبق أن بعضها بنى مع المسجد وهى حجرة سودة وحجرة عائشة رضى الله تعالى عنهما كما تقدم .

وفى كلام أئمتنا أن بيوته صلى الله عليه وسلم كانت مختلفة وأكثرها كان بعيدا عن المسجد ، وكلام الأصل يقتضى أنها بنيت كلها فى السنة الأولى من الهجرة حيث قال : وفيها : أى السنة الأولى بنى مسجده صلى الله عليه وسلم ومساكنه : أى وخط صلى الله

عليه وسلم للمهاجرين فى كل أرض ليست لأحد وفيما وهبته له الأنصار من خططها. وأقام قوم منهم ممن لم يمكنه البناء بقباء عند من نزلوا عليه بها .

قال عبدالله بن زيد الهذلى : رأيت بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك : أى بعد موت أزواجه صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : حضرت كتاب الوليد بن عبدالملك يقرأ بادخالها فى المسجد ، فما رأيت أكثر باكيا من ذلك اليوم : أى وكانت تسعة : أربعة مبنية باللبن ، أى وسقفها من جريد النخل مطين بالطين ، ولها حجر من جريد ، أى غير بيت أم سلمة فإنها جعلت حجرتها بناء .

وكان صلى الله عليه وسلم فى غزوة دومة الجندل ، فلما قدم دخل عليه أول نسائه فقال لها : ماهذا البنيان ؟ قالت : أردت أن أكف أبصار الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم «وإن شر ماذهب فيه مال المرء المسلم البنيان» وعن على رضى الله تعالى عنه «إن لله بقاعا تسمى المنتقمات ، فإذا اكتسب الرجل المال من حرام سلط الله عليه الماء والطين ، ثم لايمتعه به» أى وكانت تلك الحجر التى من الجريد مغشاة من خارج بمسوح الشعر ، وخمسة أبيات من جريد مطينة لاحجر بها ، على أبوابها ستور من مسوح الشعر ، أى وهى التى يقال لها البلانس ذرع الستر فوجد ثلاثة أذرع فى ذراع .

هذا ، وفى كلام السهيلى : كانت مساكنه صلى الله عليه وسلم مبنية من جريد عليه طين ، وبعضها من حجارة موضوعة وسقوفها كلها من جريد ، وكانت حجرته عليه الصلاة والسلام أكسية من شعر مربوطة بخشب من عرعر ، هذا كلامه .

قال بعضهم : وليتها تركت ولم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ، ويريدون مارضى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الأرض بيده ، أى فإن ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فى البنيان .

وجاء «أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى بعض طرق المدينة فرأى فيه مشرعة ، فقال : ماهذه ؟ قالوا : هذه لرجل من الأنصار ، فجاء ذلك الرجل فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه فعل ذلك مرارا ، فأعلم بالقصة فهدمها الرجل» .

وعن الحسن البصرى قال : كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدى ، أى لأن الحسن البصرى ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب يقينا ، وكان ابنا لمولاة لأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم اسمها

خيرة ، وكانت أم سلمة تخرجه للصحابة يباركون عليه ، وأخرجته إلى عمر رضى الله تعالى عنه فدعا له بقوله : اللهم فقهه فى الدين ، وحببه إلى الناس ، وكان والده من جملة السبى الذى سباه خالد فى خلافة الصديق من الفرس .

وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، لأن عمره كان قبل أن يخرج علىّ من المدينة إلى الكوفة ، وذلك بعد قتل عثمان أربع عشرة سنة . قيل له : يا أبا سعيد : إنك تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنك لم تدركه ؟ فقال لذلك السائل : كل شىء سمعتنى أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عن على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، غير أنى فى زمان لا أستطيع أن أذكر عليا ، أى خوفا من الحجاج .

وقد أخرج له عن علىّ جماعة من الحفاظ كالترمذى والنسائى والحاكم والدارقطنى وأبو نعيم مابين حسن وصحيح ، وبه يردّ قول من أنكر أنه لم يسمع من على ، لأن المثبت مقدم على النافى ، أو هو محمول على أنه لم يسمع من على بعد خروج على من المدينة .

قال بعضهم : وتلك الفصاحة التى كانت عند الحسن والحكمة من قطرات لبن شربها من ثدى أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ، فإن أمه ربما غابت فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجىء أمه فربما در عليه ثديها فشربه .

قال بعضهم : كان الحسن البصرى أجمل أهل البصرة . وفى كلام ابن كثير : كان الحسن البصرى شكلا ضخما طوالا ، هذا كلامه . وكان إذا أقبل كأنه أقبل من دفن حميمة ، وإذا جلس فكأنه أسير أمر يضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له .

وعن الواقدى : كان لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله ، فكلما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلا تحول له حارثة عن منزل حتى صارت منازله كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وهذا يخالف ماتقدم عن الأصل ، من أن مساكنه بنيت فى السنة الأولى .

ومات عثمان بن مظعون ، وهو أخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، وأمر صلى الله عليه وسلم أن يرش قبره بالماء ، ووضع حجرا عند رأس القبر ، أى بعد أن أمر رجلا أن يأتيه بحجر ، فأخذ الرجل حجرا ضعف عن حمله ، فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فحسر عن ذراعيه ثم حمله ووضعه فى المحل المذكور، وقال : أتعلم به قبر أخى وأدفن إليه من مات من أهلى » أى ومن ثم دفن ولده إبراهيم عند رجليه .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : « أنه صلى الله عليه وسلم قبل عثمان بن مظعون وهو ميت ، قالت : ورأيت دموع رسول الله صلى الله عليه وسلم على خدى عثمان بن مظعون .

أى وفى الاستيعاب « أنه مات بعد شهوده بدرا ، فلما غسل وكفن قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه » ولا معارضة بينه وبين خبر عائشة رضى الله تعالى عنها السابق كما لا يخفى « وجعل النساء يبكين ، فجعل عمر يسكتهن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مهلا يا عمر ، ثم قال : إياكن ونعيق الشيطان ، ومهما كان من العين فمن الله ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان ، وقالت امرأته ، وهى خولة بنت حكيم ، وقيل أم العلاء الأنصارية وكان نزل عليها ، وقيل أم خارجة بن زيد : طبت ، هنيئا لك الجنة أبا السائب ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة غضب وقال : وما يدريك ؟ فقالت : يا رسول الله مارسك وصاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أدرى ما يفعل بى ، فأشفق الناس على عثمان » .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « أن خولة بنت حكيم دخلت عليها وهى منشوشة الخاطر ، فقالت لها عائشة : مابالك ؟ قالت : زوجى «تعنى عثمان بن مظعون » يقوم الليل ويصوم النهار ، فدخل النبى صلى الله عليه وسلم على عائشة فذكرت له ذلك ، فلقى عثمان فقال له : يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أمالك بى أسوة ، والله إن أخشاكم لله وحدوده لأنا » أى وسماه السلف الصالح فقال عند دفن ولده إبراهيم « الحق بسلفنا الصالح » وقال عند دفن بنته زينب « الحقى بسلفنا الخير عثمان بن مظعون » .

ومات أسعد بن زرارة رضى الله تعالى عنه « ووجد » أى حزن « رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا عليه ، وكان نقيبا لبنى النجار ، فلم يجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبا بعده ، أى بعد أن قالوا له اجعل لنا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم ، وقال لهم : أنتم أخوالى وأنا نقيبكم ، وكره أن يخص بذلك بعضهم دون بعض ، فكانت من مفاخرهم » .

أى ووهم ابن منده وأبو نعيم فى قولهما إن أبا أمامة كان نقيبا لبنى ساعدة ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يجعل نقيب كل قبيلة منهم ، ومن ثم كان نقيب بنى ساعدة سعد بن عبادة .

أى وقد قيل إن قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة مات البراء بن معرور ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ذهب هو وأصحابه فصلى على قبره، وقال: « اللهم اغفر له وارحمه وارض عنه وقد فعلت » وهى أول صلاة صليت على الميت فى الإسلام بناء على أن المراد بالصلاة حقيقتها ، وإلا جاز أن يراد بالصلاة الدعاء ، ويوافق ذلك قول الإمتاع : لم أجد فى شيء من كتب السير متى فرضت صلاة الجنازة .

ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم صلى على عثمان بن مظعون . وقد مات فى السنة الثانية ، وكذلك أسعد بن زرارة مات فى السنة الأولى .

ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه الصلاة الحقيقية، وقد تقدم ذلك وتقدم مافيه.

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود ؛ أى بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير : أى صالحهم على ترك الحرب والأذى : أى أن لا يحاربهم ولا يؤذيهم ، وأن لا يعينوا عليه أحدا ، وأنه إن دهمه بها عدوّ ينصروه ، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم .

وقد ذكر فى الأصل صورة الكتاب ، وآخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك ، وهى دار أبى طلحة زوج أمّ أنس ، أى واسمه زيد ابن سهل ، وقد ركب البحر غازيا فمات فلم يجدوا جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه بها ولم يتغير .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه أن أبا طلحة لم يكن يكثر من الصوم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب الغزو ، فلما مات صلى الله عليه وسلم سرد الصوم . وكانت المؤاخاة -بعد بناء المسجد، وقيل والمسجد يبنى- على المواساة والحق، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام ، وفى لفظ دون القرابة، فقال « تآخوا فى الله أخوين أخوين » .

أقول : ذكر ابن الجوزى عن زيد بن أبى أوفى قال « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد المدينة ، فجعل يقول : أين فلان أين فلان ؟ فلم يزل يتفقدهم ويبعث إليهم حتى اجتمعوا عنده ، فقال : إنى محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه وحدثوا به من بعدكم : إن الله تعالى اصطفى من خلقه خلقا ، ثم تلا هذه الآية (اللهُ يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وإنى أصطفى منكم من أحبّ أن أصطفيه ، وأواخى بينكم كما آخى الله تعالى بين ملائكته ، قم يا أبا بكر ، فقام فجثا بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال :

إن لك عندى يدا الله يجزيك بها ، ولو كنت متخذا خليلا لا تخذتك خليلا ، فأنت منى بمنزلة قميصى من جسدى وحرك قميصه بيده ، ثم قال : ادن يا عمر ، فدنا فقال : قد كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص، فدعوت الله أن يعزّ بك الدين أو بأبى جهل ففعل الله ذلك بك ، وكنت أحبهما إلى الله فأنت معى فى الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة ، وآخى بينه وبين أبى بكر » هذا كلام ابن الجوزى ، وهو يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة آخى بين المهاجرين والأنصار أيضا كما آخى بينهم قبل الهجرة ، وهذا لا يتم إلا لو آخى بين غير أبى بكر وعمر من المهاجرين ، ويكون ابن أبى أوفى اقتصر .

والمعروف المشهور أن المؤاخاة إنما وقعت مرتين مرة بين المهاجرين قبل الهجرة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة والله أعلم . ويدلّ لذلك قول بعضهم : كانوا إذ ذاك خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار ، أى وقيل كانوا تسعين « فأخذ بيد علىّ بن أبى طالب وقال : هذا أخى ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىّ أخوين ، وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زيد » وكان صهرا لأبى بكر ، كانت ابنته تحت أبى بكر « وبين عمر وعتبان بن مالك ، وبين أبى رويم الخثعمى وبين بلال ، وبين أسيد ابن حضير وبين زيد بن حارثة ، وكان أسيد ممن كناه النبى صلى الله عليه وسلم كناه أبا عبس ، وكان من أحسن الناس صوتا بالقرآن وكان أحد العقلاء أهل الرأى ، وكان الصديق رضى الله تعالى عنه يكرمه ولا يقدم عليه أحدا ، وآخى بين أبى عبيدة وبين سعد ابن معاذ ، وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع ، وعند ذلك قال سعد لعبد الرحمن : يا عبد الرحمن إنى من أكثر الأنصار مالا ، فأنا مقاسمك ، وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له بارك الله لك فى أهلك ومالك » .

وفى الأصل عن ابن إسحق « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين » .

وفى كلام بعضهم « أنه صلى الله عليه وسلم آخى بين حمزة وبين زيد بن حارثة » وإليه أوصى حمزة يوم أحد ، فليتأمل فإنهما مهاجران « ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب وقال هذا أخى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىّ أخوين» وفيه أن هذا ليس من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وقد تقدم فى المؤاخاة بين المهاجرين قبل الهجرة مؤاخاته له صلى الله عليه وسلم . وفى رواية « لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه جاء علىّ

تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أخى فى الدنيا والآخرة » قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب « وآخى بين جعفر بن أبى طالب ، وهو غائب بالحبشة وبين معاذ بن جبل » أى أرصد معاذا لأخوة جعفر إذا قدم من الحبشة .

وبه يردّ ما قيل جعفر بن أبى طالب إنما قدم فى فتح خيبر سنة سبع ، فكيف يؤاخى بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه عليه الصلاة والسلام « وآخى بين أبى ذرّ الغفارى والمنذر بن عمرو ، وبين حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، وبين مصعب بن عمير وأبى أيوب » .

وفى الاستيعاب « أنه آخى بين سلمان وأبى الدرداء » وجاء سلمان لأبى الدرداء زائرا فرأى أمّ الدرداء مبتذلة فقال : ما شأنك ؟ قالت : إن أخاك ليس له حاجة فى شىء من الدنيا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولجسدك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، فسأل أبوالدرداء النبى صلى الله عليه وسلم عما قال سلمان ، فقال له مثل ما قال سلمان » ولعل هذه المؤاخاة بين سلمان وأبى الدرداء كانت قبل عتق سلمان ، لأنه تأخر عتقه عن أحد ، لأن أول مشاهده الخندق كما تقدم .

وروى الإمام أحمد عن أنس « أنه آخى بين أبى عبيدة وبين أبى طلحة » وقد تقدم أنه آخى بينه وبين سعد بن معاذ ، وقال المهاجرون « يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير ، كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنة . أى الخدمة « حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله » قال : لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم » أى فإن ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع مكافأة .

قال بعضهم : والمؤاخاة من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن ذلك لنبىّ قبله « ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من لى بعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص» أى المحبوسين عند قريش المانعين لهما من الهجرة ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة » أى بعد أن خرج إلى المدينة من حبس أهله له بمكة كما تقدم « أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج إلى مكة فقدمها مستخفيا ، فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين تعنيهما ، فتبعها حتى عرف موضعهما وكان بيتا لا سقف له ، فلما أمسى تسوّر عليهما ، ثم أخذ مروة : أى حجرا فوضعها تحت قيدهما

ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه ذو المروة ، ثم جعلهما على بعيره وساق بهما ، فعثر فدميت أصبعه ، فأنشد أى متمثلا :

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقدم أن ذلك يرد القول بأن عياشا استمر محبوسا حتى فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقد دعا صلى الله عليه وسلم فى قنوت الصلاة بقوله « اللهم أنج الوليد بن الوليد » أى وذلك أن يتخلص من حبسه بمكة ، أى فإن الوليد أسر يوم بدر ، أسره عبد الله بن جحش فقدم فى فدائه أخواه خالد وكان أخاه لأبيه وهشام وكان أخاه لأمه وأبيه ، أى ومن ثم لما أبى عبد الله أن يأخذ فى فداء الوليد إلا أربعة آلاف درهم وصار خالد يأبى ذلك ، قال له هشام : إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلت .

ويقال « إنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن جحش : « ولا تقبل فى فدائه إلا شملة أبيه » وهى درع فضفاضة مقومة بمائة دينار « فجاءا بها وسلماها إلى عبد الله » فلما افتدى وقدم إلى مكة أسلم ، فقيل له : هلا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ فقال : كرهت أن يظنوا بى أنى جزعت من الإسار ، فلما أسلم حبسه أهل مكة ، ثم أفلت ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد عمرة القضاء ، وكتب إلى أخيه خالد ، فوقع الإسلام فى قلب خالد ، وكان خالد من جملة من خرج من مكة فارا لئلا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كراهة الإسلام وأهله ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد عنه ، وقال « لو أتانا خالد لأكرمناه ، وما مثله يجهل الإسلام » فكتب له أخوه الوليد بذلك ، وفى مدة حبس الوليد كان صلى الله عليه وسلم فى كل ليلة إذا صلى العشاء الآخرة قنت فى الركعة الأخيرة يقول « اللهم أنج الوليد بن الوليد ، اللهم أنج سلمة بن هشام ، اللهم أنج عياش بن أبى ربيعة ، اللهم أنج هشام بن العاص ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سنى يوسف ، فأكلوا العلهز ؛ ثم لم يزل يدعو للمستضعفين حتى نجاهم الله » أى بعد أن نجى عياشا وهشاما والوليد .

أقول : هذه الرواية تدل على أنه كان يدعو بما ذكر فى الركعة الأخيرة من العشاء الآخرة . وفى البخارى أن ذلك كان فى الركعة الأخيرة من الصبح .

وقد يقال : لا مخالفة ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم تارة يدعو فى الركعة الأخيرة

من صلاه العشاء الآخرة ، وتارة فى الركعة الأخيرة من الصبح ، أوكان يدعو بذلك فيهما وكل روى بحسب ما رأى ، والله أعلم .

ثم لا زال المهاجرون الأنصار يتوارثون بذلك الإخاء دون القرابات إلى أن نزل قوله تعالى فى وقعة بدر (وأولوا الأرحام) أى القرابات (بعضهم أولى ببعض) أى فى الإرث (فى كتاب الله) أى اللوح المحفوظ فنسخت ذلك ، أى لأنه كان الغرض من المؤاخاة ذهاب وحشة الغربة ومفارقة الأهل والعشيرة ، وشدّ أزر بعضهم ببعض ؛ فلما عزّ الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، بطل التوارث ، ورجع كل إنسان إلى نسبه وذوى رحمه : أى ومن ثم قيل لزيد بن حارثة زيد بن حارثة : أى بعد أن كان يقال له زيد بن محمد ، وكانت المؤاخاة بعد الهجرة بخمسة أشهر ، وقيل غير ذلك .

أقول : تقدم أن سبب امتناع أن يقال زيد بن محمد نزول قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) أى ومن ثم قيل للمقداد بن عمرو ، وكان يقال له المقداد بن الأسود ، لأن الأسود كان تبناه فى الجاهلية ، ومن لم يعرف أبوه ردّ إلى مواليه ؛ ومن ثم قيل لسالم مولى أبى حذيفة ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بعد أن كان يقال له سالم بن أبى حذيفة ، فكان أبو حذيفة يرى أنه ابنه ، ومن ثم أنكحه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة .

وجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو امرأة أبى حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولدا ، وكان يدخل علىّ وقد بلغ مايبلغ الرجال ، وإنه يدخل علىّ ، وأظن فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا فماذا ترى فيـه ؟ فقال : أرضعيه تحرمى » .

وعن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت لعائشة « ما ترى هذه إلا رخصة رخصها رسول الله صلى الله عليه وسلم لسالم » وكان سالم رضى الله تعالى عنه يؤم المهاجرين الأولين فى مسجد قباء فيهم أبوبكر وعمر .

وفى ينبوع الحياة : كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار توجب التوارث بينهم ثم نسخ ذلك قبل العمل به ، وأما قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كانوا يتوارثون بذلك حتى نزلت (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) فمعناه أنهم التزموا هذا الحكم ودانوا به .

ومن المشكل حينئذ ما نقل « أن الحتات » بضم الحاء وفتح المثناة فوق مخففة « كان

صلى الله عليه وسلم آخى بينه وبين معاوية ، ولما مات الحتات عند معاوية فى خلافته ورثه بالأخوة مع وجود أولاده ؛ ثم رأيت الحافظ ابن حجر فى الإصابة ذكر ذلك ونظر فيه ، والله أعلم .

باب بدء الأذان ومشروعيته

أى والإقامة ومشروعيتها ، وكل منهما من خصائص هذه الأمة ،كما أن من خصائصها الركوع والجماعة وافتتاح الصلاة بالتكبير ، فإن صلاة الأمم السابقة كانت لا ركوع فيها ولا جماعة ، وكانت الأنبياء كأممهم يستفتحون الصلاة بالتوحيد والتسبيح والتهليل ، أى وكان دأبه صلى الله عليه وسلم فى إحرامه لفظة الله أكبر ، ولم ينقل عنه سواها أى كالنية .

ولا يشكل على الركوع قوله تعالى لمريم (واسجدى واركعى مع الراكعين) لأن المراد به فى ذلك الخضوع أو الصلاة ، لا الركوع المعهود كما قيل ، لكن فى البغوى قيل إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك فى شريعتهم وقيل بل كان الركوع قبل السجود فى الشرائع كلها وليست الواو للترتيب بل للجمع هذا كلامه فليتأمل ، وكان وجود ذلك : أى الأذان والإقامة فى السنة الأولى ، وقيل فى الثانية .

ذكر أن الناس إنما كانوا يجتمعون للصلاة لتحين مواقيتها ، أى لدخول أوقاتها من غير دعوة ، أى وقد قال ابن المنذر : هو صلى الله عليه وسلم كان يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة ، إلى أن هاجر إلى المدينة ، وإلى أن وقع التشاور .

قال : ووردت أحاديث تدل على أن الأذان شرع بمكة قبل الهجرة من تلك الأحاديث ما فى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال « لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إليه بالأذان ، فنزل به وعلمه بلالا » قال الحافظ ابن رجب : هو حديث موضوع .

ومنها ما رواه ابن مردويه عن عائشة رضى الله تعالى عنها مرفوعا « لما أسرى بى أذن جبريل فظنت الملائكة أنه » أى جبريل « يصلى بهم ، فقدمنى فصليت » قال فيه الذهبى : حديث منكر ، بل موضوع هذا كلامه . على أنه يدل على أن المراد بالأذان الإقامة كما تقدم أنها المرادة بالأذان انتهى .

أقول : ومن أغرب ماوقع فى بدء الأذان مارواه أبو نعيم فى الحلية بسند فيه مجاهيل « إن جبريل نادى بالأذان لآدم حين أهبط من الجنة » وقد سئل الحافظ السيوطى : هل ورد أن بلالا أو غيره أذن بمكة قبل الهجرة ؟ فأجاب بقوله : ورد ذلك بأسانيد ضعيفة لايعتمد عليها . والمشهور الذى صححه أكثر العلماء ودلت عليه الأحاديث الصحيحة أن الأذان إنما شرع بعد الهجرة ، وأنه لم يؤذن قبلها لا بلال ولا غيره . وذكر فى الدر فى قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا) أنها نزلت بمكة فى شأن المؤذنين ، والأذان إنما شرع فى المدينة ، فهى مما تأخر حكمه عن نزوله هذا كلامه .

وفى كلام الحافظ ابن حجر ما يوافقه ، حيث ذكر أن الحق أنه لا يصح شىء من الأحاديث الدالة على أن الأذان شرع بمكة قبل الهجرة ، وذكر ما تقدم عن ابن المنذر ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى من غير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة ، إلى أن هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وإلى أن وقع التشاور فى ذلك : أى فقد ائتمر صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه كيف يجمع الناس للصلاة ؟ فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رآها الناس آذن » أى أعلم «بعضهم بعضا فلم يعجبه ذلك ، فذكر له بوق يهود » أى ويقال له الشبور بفتح الشين المعجمة ثم موحدة مشددة مضمومة ثم واو ساكنة ثم راء ، ويقال له القبع بضم القاف وإسكان الموحدة وقيل بفتحها ، وقيل باسكان النون وبالعين المهملة .

قال السهيلى : وهو أولى بالصواب ، وقيل بالمثناة فوق ، وقيل بالمثلثة ، وهو القرن الذى يدعون به لصلاتهم : أى يجتمعون لها عند سماع صوته « فكرهه صلى الله عليه وسلم وقال : هو من أمر اليهود ، فذكر له الناقوس الذى يدعون به النصارى لصلاتهم ، فقال : هو من أمر النصارى ، أى فقالوا لو رفعنا نارا أى فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة ، فقال ذلك للمجوس ، وقيل كما فى حديث الشيخين عن ابن عمر « أن عمر رضى الله عنهما قال : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة » أى بحضورها « أى ففعلوا ذلك وكان المنادى هو بلال رضى الله تعالى عنه » .

قال الحافظ ابن حجر : وكان اللفظ الذى ينادى به بلال : أى قبل رؤيا عبد الله « الصلاة جامعة » كما رواه ابن سعد وسعيد بن منصور عن سعيد بن المسيب مرسلا .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « لقد هممت أن أبث رجالا ينادون الناس بحين

الصلاة » أى فى حينها : أى وقتها « وقد هممت أن آمر رجالا تقوم على الآطام ينادون المسلمين بحين الصلاة » أى ولعل هذا كان منه صلى الله عليه وسلم قبل وقوع ما تقدم عن بلال ، ثم أمر بلال بما تقدم .

وقيل ائتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بالناقوس : أى اتفقوا عليه فنحت ليضرب به المسلمون : أى وهو خشبة طويلة يضرب عليها بخشبة صغيرة ، فنام عبد الله بن زيد ، فأرى الأذان أى والإقامة فى منامه :

فعنه رضى الله تعالى عنه ، قال « لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس فطاف بى وأنا نائم رجل » وفى لفظ «إنى لبين نائم ويقظان طاف بى رجل » والمراد أنه نام نوما خفيفا قريبا من اليقظة فروحه كالمتوسطة بين النوم واليقظة .

قال الحافظ السيوطى : أظهر من هذا أن يحمل على الحالة التى تعترى أرباب الأحوال ويشاهدون فيها ما يشاهدون ، ويسمعون ما يسمعون ، والصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين هم رءوس أرباب الأحوال ، أى وهذه الحالة هى التى عناها الشيخ عبد الله الدلاصى بقوله : كنت بالمسجد الحرام فى صلاة الصبح ، فلما أحرم الإمام وأحرمت أخذتنى أخذة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إماما وخلفه العشرة فصليت معهم ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركعة الأولى سورة المدثر ، وفى الثانية (عمّ يتساءلون) ثم سلم الإمام فعقلت تسليمه فسلمت .

أى ويدل لذلك قول عبد الله بن زيد كما جاء فى رواية : ولولا أن يقول الناس : أى يستبعد الناس ذلك لقلت إنى كنت يقظان غير نائم وذلك الرجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ؛ فقلت : يا عبد الله أتبيع الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ فقلت : ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على ما هو خير لك من ذلك ؟ فقلت بلى : أى وفى رواية فقلت أتبيع الناقوس ؛ فقال : ماذا تريد به ؟ فقلت : أريد أن أبتاعه لكى أضرب به للصلاة لجماعة الناس ، قال : فأنا أحدثك بخير لك من ذلك ، فقلت بل ، قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، قال عبد الله : ثم استأخر عنى : أى ذلك الرجل غير بعيد ، ثم قال : وتقول

إذا قمت إلى الصلاة : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله : أي ففي هذه الرواية إفراد ألفاظ الإقامة إلا لفظها ولفظ التكبير أولا وآخرا . وفي رواية « رأى رجلا عليه ثياب خضر وهو قائم على سقف المسجد . وفي رواية : على جذم حائط ، بكسر الجيم وسكون المعجمة : أي أصل الحائط ، ولا مخالفة لما سيعلم فأذن ثم قعد قعدة ، ثم قام فقال مثلها ، أي مثل الكلمات : أي كلمات الأذان ، إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، أي زيادة على تلك الكلمات التي هي الأذان . ففي هذه الرواية تثنية ألفاظ الإقامة والإتيان بالتكبير في أولها أربعا كالأذان ، أي وهذا : أي كونه على سقف المسجد ، وكونه على جذم حائط لا مخالفة بينهما ، لأنه يجوز أن يكون لما قال له تقول الله أكبر ، إلى آخر الأذان والإقامة كان قائما على سقف المسجد قريبا من جذم الحائط ، فنسب قيامه إلى كل منهما ، ويكون قوله ثم استأخر عني غير بعيد : أي سكت غير طويل . قال عبد الله : فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت . أي وفي رواية : أنه أتاه ليلا وأخبره ، وهي المذكورة في سيرة الحافظ الدمياطي .

ولا منافاة لأنه يجوز أن يكون قول عبد الله : فلما أصبحت : أي قاربت الصباح ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى ، فقم مع بلال ، فألق عليه ما رأيت ، فليؤذن به فإنه أندى » وفي رواية « أمدّ صوتا منك » أي أعلى وأرفع . وقيل أحسن وأعذب . ولا مانع من إرادة ذلك كله هنا « فقمت مع بلال » وفي رواية « فقال لبلال : قم فانظر ما أمرك به عبد الله بن زيد فافعله ، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به » أي فبلال أول مؤذنيه صلى الله عليه وسلم ، أي وقيل أول مؤذنيه عبد الله ابن زيد ذكره الإمام والغزالي ، وأنكره ابن الصلاح ، أي حيث قال أجد هذا بعد البحث عنه ، هذا كلامه .

وقد يقال : لا منافاة لأن عبد الله أول من نطق بالأذان ، وبلال أول من أعلن به ، وحينئذ يكون أوّل مشروعيته كان في أذان الصبح ، فلما سمع بذلك : أي بأذان بلال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو في بيته خرج يجر رداءه . وفي رواية : إزاره أي عجلا ، أي وقد أعلم بالقصة لقوله « والذي بعثك بالحق يارسول الله لقد رأيت مثل

مارأى عبد الله بن زيد رضى الله تعالى عنه » . وفى رواية « مثل ما يقول » أى بلال رضى الله تعالى عنه « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلله الحمد » قال الترمذى : عبد الله ابن زيد بن عبد ربه لانعرف له عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئا يصح إلا هذا الحديث الواحد فى الأذان .

وقيل رأى مثل مارأى عبد الله أبو بكر رضى الله تعالى عنه . وقيل سبعة من الأنصار وقيل أربعة عشر .

قال ابن الصلاح : لم أجد هذا بعد إمعان النظر ، وتبعه النووى ، فقال : هذا ليس بثابت ولا معروف ، وإنما الثابت خروج عمر يجرّ رداءه، وقيل رآه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء « أسمع ملكا يؤذن » أى فقد جاء فى حديث بعض رواته متروك .

بل قيل إنه من وضعه « أنه لما أراد الله عز وجل أن يعلم رسوله الأذان جاء جبريل عليه الصلاة والسلام بدابة يقال لها البراق ، فركبها حتى أتى الحجاب الذى يلى الرحمن ، فبينما هو كذلك خرج من الحجاب ملك فقال : الله أكبر ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى أنا أكبر أنا أكبر » وذكر بقية الأذان .

فرؤيا عبد الله دلت على أن هذا الذى رآه فى السماء يكون سنة فى الأرض عند الصلوات الخمس التى فرضت عليه تلك الليلة ، أى فلذلك قال « إنها لرؤيا حق إن شاء الله » .

وفيه أن الذى تقدم عن الخصائص أن المراد بهذا الأذان الذى أتى به الملك الإقامة لاحقيقة الأذان ، أى ويدل لذلك أن الملك قال فيه « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، فقال الله: صدق عبدى ، أنا أقمت فريضتها ، ثم قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم ، فأمّ أهل السماء فيهم آدم ونوح » .

قال بعضهم : والأذان ثبت بحديث عبدالله بن زيد باجماع الأمة لايعرف بينهم خلاف فى ذلك ، إلا ماروى عن محمد بن الحنفية . وعن أبى العلاء قال : قلت لمحمد ابن الحنفية : إنا لنتحدث أن بدء هذا الأذان كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار فى منامه ، قال : ففزع لذلك محمدا بن الحنفية فزعا شديدا ، وقال : عمدتم إلى ماهو الأصل فى شرائع الإسلام ومعالم دينكم فزعمتم أنه إنما كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار فى منامه تحتمل الصدق والكذب ، وقد تكون أضغاث أحلام ، قال : فقلت له : هـذا الحديث قد

استفاض فى الناس ، قال هذا : والله هو الباطل ، ثم قال : « وإنما أخبرنى أبى أن جبريل عليه الصلاة والسلام أذن فى بيت المقدس ليلة الإسراء ، وأقام ، ثم أعاد جبريل الأذان لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء فسمعه عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب .

وفى رواية عنه أنه لما انتهى إلى مكان من السماء وقف به وبعث الله ملكا ، فقيل له علمه الأذان ، فقال الملك : الله أكبر ، فقال الله : صدق عبدى ، أنا الله أكبر ، إلى أن قال : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . وفيه ماعلمت أن هذا الإقامة لا الأذان ، وقد ردّ عليه بأنه لو ثبت بقول جبريل لما احتاج صلى الله عليه وسلم إلى المشورة ، والمعراج كان بمكة قبل الهجرة .

والأولى أن يتمسك ابن الحنفية بما يأتى عن بعض الروايات ، من قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله « قد سبقك بذلك الوحى » وكونه أتى بالبراق إلى الحجاب هو بناء على أن العروج كان على البراق وتقدم مافيه . ويحتمل أن يكون هـــذا عروجا آخر غير ذلك ، وحينئذ لايخالف هذا ماتقدم أنه لما أسرى به أذن جبريل وتقدم مافيه ، ولا ماجاء عن علىّ رضى الله تعالى عنه « مؤذن أهل السماء جبريل » لجواز حمل ذلك على الغالب ، وحينئذ لايخالف أيضا ماجاء « إسرافيل مؤذن أهل السماء ، وإمامهم ميكائيل عند البيت المعمور » وفى لفظ « يؤمّ بالملائكة فى البيت المعمور » ولعلّ كون ميكائيل إمام أهل السماء لايخالف ماجاء عن عائشة رضى الله تعالى عنها « إمام أهل السماء جبريل » لما علم ، وجاء « إن مؤذن أهل السماء يؤذن لاثنتى عشرة ساعة من النهار ، ولاثنتى عشرة ساعة من الليل » .

أقول : وفى النور لو رآه أى الأذان ليلة الإسراء لم يحتج إلا إلى مايجمع به المسلمين إلى الصلاة . ويردّ بأنه لم يكن يعلم قبل هذه الرؤيا أن مارآه فى السماء يكون سنة للصلوات الخمس التى فرضت عليه تلك الليلة ، فبتلك الرؤيا علم أن ذلك سنة فى الأرض كما تقدم .

وعبارة بعضهم : ولا يشكل على أذان جبريل ببيت المقدس أن الأذان إنما كان بعد الهجرة ، لأنه لامانع من وقوعه ليلة الإسراء قبل مشروعيته للصلوات الخمس ، وهذا كله على تسليم أن المرئى له الأذان حقيقة لا الإقامة ، وقد علمت مافيه .

ثم رأيت بعضهم قال : وأما قول القرطبى . لايلزم من كونه سمعه ليلة الإسراء أن يكون مشروعا فى حقه ، ففيه نظر لقوله فى أوله : لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان ، أى لأن المتبادر تعليمه الأذان الذى يأتى به فى الأرض للصلوات .

وقد يقال : على تسليم ذلك قد علمت أن المراد بالأذان الذى سمعه ليلة الإسراء الإقامة وقد قال الحافظ ابن حجر : الحق أنه لم يصح شىء من هذه الأحاديث الواردة بأنه سمعه ليلة الإسراء ، ومن ثم قال ابن كثير فى بعض الأحاديث الواردة بأنه سمع هذا الأذان فى السماء ليلة المعراج : هذا الحديث ليس كما زعم البيهقى أنه صحيح ، بل هو منكر ، تفرد به زياد بن المنذر أبو الجارود الذى تنسب إليه الفرقة الجارودية ، وهو من المتهمين ، وبهذا يعلم مافى الخصائص الصغرى : خص صلى الله عليه وسلم بذكر اسمه فى الأذان فى عهد آدم وفى الملكوت الأعلى ، والله أعلم .

أى وروى بسند واه : إن أول من أذن بالصلاة جبريل عليه الصلاة والسلام فى سماء الدنيا ، فسمعه عمر وبلال رضى الله تعالى عنهما ، فسبق عمر بلالا ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء بلال ، فقال له : سبقك بها عمر ، وهذا لادلالة فيه ، لأنه يجوز أن يكون ذلك بعد رؤيا عبد الله .

وذكر أن عمر رضى الله تعالى عنه رآه من عشرين يوما وكتمه ، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك ، قال له : مامنعك أن تخبرنى ؟ قال : سبقنى عبد الله بن زيد فاستحييت منه .

أقول : فى هذا الكلام ما لايخفى فليتأمل ، إنما قال له « إنها رؤيا حق » لأنه يجوز أن يكون جاءه صلى الله عليه وسلم الوحى بذلك قبل أن يجىء إليه عبد الله بن زيد به ، ومن ثم قال له حين أخبره بذلك على مافى بعض الروايات « قد سبقك بذلك الوحى » فالأذان إنما ثبت بالوحى لابمجرد رؤيا عبد الله .

قال بعضهم فى قوله (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا) الآية ، كان اليهود إذا نودى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها يقولون : قاموا لا قاموا صلوا لاصلوا ، على طريق الاستهزاء والسخرية .

وفيها دليل على مشروعية الأذان بنص الكتاب لابالمنام وحده هذا كلامه . ورده أبوحيان بأن هذه جملة شرطية دلت على سبق المشروعية لا على إنشائها هـذا كلامه أى وذلك على تسليم أن يكون المدعو به للصلاة خصوص اللفظ الذى وجد فى المنام ، وصار بلال يؤذن بذلك للصلوات الخمس ، وينادى فى الناس لغير الصلوات الخمس ، لأمر يحدث يطلب له حضور الناس كالكسوف والخسوف والاستسقاء «الصلاة جامعة» .

قيل « وكان بلال إذا أذن ، قال : أشهد أن لاإله إلا الله حيّ على الصلاة ، فقال له عمر على أثرها : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال : قل كما قال عمر » وهذا روى عن ابن عمر فى حديث فيه راو ضعيف ، ولولا التعبير بكان لأمكن حمل ذلك على أن بلالا أتى بذلك ناسيا فى ذلك الوقت لما لقنه عبد الله بن زيد . ثم رأيت ابن حجر الهيتمى ، قال : والحديث الصحيح الثابت فى أول مشروعية الأذان يرد هذا كله ، هذا كلامه .

قيل وزاد بلال فى أذان الصبح بعد الحيعلات « الصلاة خير من النوم مرتين » فأقرها صلى الله عليه وسلم » أى لأن بلالا كان يدعو النبى صلى الله عليه وسلم للصلاة ، فيقول له الصلاة « فدعاه ذات غداة إلى الفجر ، فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نائم ، فصرخ بأعلى صوته : الصلاة خير من النوم مرتين » أى اليقظة الحاصلة للصلاة خير من الراحة الحاصلة بالنوم .

أقول : وهذا يقال له التثويب ، وذكر فقهاؤنا أنه صح أنه صلى الله عليه وسلم لقن ذلك لأبى محذورة أى قال له « فإن كانت صلاة الصبح ، قلت الصلاة خير من النوم » ولا منافاة لأن تعليم أبى محذورة للأذان كان عند منصرفه صلى الله عليه وسلم من حنين على ماسيأتى ، وكذا ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم قال إن ذلك من السنة ، لأنه يجوز أن يكون ذلك صدر منه بعد أن أقرّ بلالا عليه ، نعم ذكر أنه لم ينقل أن ابن أم مكتوم كان يقوله ، أى لقول بلال له فى الأذان الأول ، وهو يدل لمن قال إنه إذا قيل فى الأذان الأول لايقال فى الثانى ، لأن أذانه للصبح كان متأخرا عن أذان بلال فى أكثر الأحوال ، وهو محمل ماجاء فى كثير من الأحاديث « إن بلالا يؤذن بليل فكلوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » ومن غير الأكثر محمل ماجاء « إن ابن أم مكتوم ينادى بليل وكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال ، ابن أم مكتوم أعمى ، فإذا أذن ابن أم مكتوم فكلوا ، وإذا أذن بلال فأمسكوا ولاتأكلوا » والراجح أنه يقوله فيهما : لكن ربما يخالف ذلك مافى الموطأ أن المؤذن جاء عمر يؤذنه لصلاة الصبح فوجده نائما ، فقال : الصلاة خير من النوم ، فأمره عمر رضى الله عنه أن يجعلها فى نداء الصبح » وفى الترمذى « أن بلالا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتثويب فى شئ من الصلاة » أى من أذان الصلاة « إلا فى صلاة الفجر » أى يقول الصلاة خير من النوم .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع الأذان فى مسجد ، فأراد أن يصلى فيه ، فسمع المؤذن يثوب فى غير الصبح ، فقال لرفيق له : اخرج بنا من عند هذا المبتدع ، فإن هذه بدعة: أى سمع المؤذن يقول بين الأذان والإقامة على باب المسجد الصلاة ، الصلاة وهذا هو المراد بالتثويب الذى سمعه ابن عمر كما قاله بعضهم.

وفى كلام بعضهم: من المحدثات أن المؤذن يجىء بين الأذان والإقامة إلى باب المسجد فيقول : حى على الصلاة . قيل وأول من أحدثه مؤذن معاوية رضى الله تعالى عنه فكان يأتيه بعد الأذان وقبل الإقامة يقول : حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، وحى على الفلاح ، حى على الفلاح يرحمك الله .

أما قول المؤذن بين الأذان والإقامة : الصلاة الصلاة فليس بدعة ، لأن بلالا كان يقول ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . وأما قوله « حى على الصلاة » فهذا لم يعهد فى عصره صلى الله عليه وسلم .

ثم رأيت فى [درر المباحث فى أحكام البدع والحوادث] : اختلف الفقهاء فى جواز دعاء الأمير إلى الصلاة بعد الأذان وقبل الإقامة ؛ بأن يأتى المؤذن باب الأمير ، فيقول : حى على الصلاة حى على الفلاح أيها الأمير ، وفسر به التثويب. فاحتج من قال بجوازه : أى بسنيته « أن بلالا كان إذا أذن يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ثم يقول: حى على الصلاة حى على الفلاح ، الصلاة يرحمك الله » أى كما كان يفعل مؤذن معاوية رضى الله تعالى عنه ، فليس من المحدثات .

وفى الحديث المشهور « أنه فى مرضه صلى الله عليه وسلم أتاه بلال ، فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ، فقال صلى الله عليه وسلم له : مر أبا بكر فليصلّ بالناس » . واحتج من قال بالمنع ، بأن عمر رضى الله تعالى عنه لما قدم مكة أتاه أبو محذورة فقال : الصلاة يا أمـــير المؤمنين ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح ، فقال : ويحك أمجنون أنت ؟ أما كان فى دعائك الذى دعوته ما يكفيك حتى تأتينا ؟ ولو كان هذا سنة لم ينكر عليه ، أى وكون عمر رضى الله تعالى عنه لم يبلغه فعل بلال من البعيد .

وعن أبى يوسف : لا أرى بأسا أن يقول المؤذن : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة يرحمك الله ، لاشتغال الأمراء بمصالح المسلمين ، أى ولهذا كان مؤذن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه يفعله .

وذكر بعضهم أن في دولة بني بويه كانت الرافضة تقول بعد الحيعلتين : حيّ على خير العمل ، فلما كانت دولة السلجوقية منعوا المؤذّنين من ذلك ، وأمروا أن يقولوا في أذان الصبح بدل ذلك : الصلاة خير من النوم مرتين ، وذلك في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .

ونقل عن ابن عمرو عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أنهما كانا يقولان في أذانيهما بعد حي على الفلاح : حي على خير العمل .

وورد الترجيع في خبر أذان أبي محذورة أيضا ، وهو أن يخفض صوته بالشهادتين قبل رفعه بهما . ففي مسلم عن أبي محذورة أنه قال « قلت : يارسول الله علمني سنة الأذان قال : فمسح مقدّم رأسي وقال : تقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله تخفض بها صوتك ، ثم ترفع صوتك بالشهادة : أشهدأن لاإله إلا الله ، أشهد أنلا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله » وكان أبو محذورة يشفع الإقامة كالأذان : أي يكرر ألفاظها فيقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، حي على الفلاح . قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله » لقنه صلى الله عليه وسلم ذلك وهي الرواية الثانية التي تقدمت عن عبد الله بن زيد رضي الله تعالى عنه .

وذكر الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله أن النقل ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أبا محذورة الأذان فيه الترجيع والإقامة مثناة كالأذان ؛ وأن بلالا كان يشفع الأذان ويوتر الإقامة ، أي ولا يرجع الأذان .

ففي الصحيحين «أمر بلال أن يشفع الأذان» أي ومن شفع الأذان التكبير أوله أربعا ، ولم يصح عنه صلى الله عليه وسلم الاقتصار فيه على مرتين وإن كان هو عمل أهل المدينة كما سيأتي ، نعم يرد على شفع الأذان التهليل آخره فإنه مفرد ، فالأولى أن يقال يشفع معظم الأذان ، ويوتر الإقامة إلا الإقامة : أي لفظها ، أي وهي « قد قامت الصلاة » فإنه يكررها مرتين يقول « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة » ولم يصح عنه صلى الله عليه وسلم

إفرادها البتة أى وإن كان هو عمل أهل المدينة كما سيأتى ، وصح عنه تكرير لفظ التكبير مرتين أولا وآخرا ؛ وحينئذ يكون المراد بإفراد الإقامة إفراد معظمها ، فكان يقول فى الإقامة « الله أكبر ، الله أكبر ؛ أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » ولم يكن فى أذانه ترجيع : أى وهو الإتيان بالشهادتين مرتين سرا ، ثم يأتى بهما جهرا : أى كما تقدم ، قال : فنقل إفراد الإقامة صحيح بلا ريب ، وتثنيتها صحيح بلا ريب .

أى وكل روى عن عبد الله بن زيد كما علمت ، قال : أى ابن تيمية وأحمد وغيره : أخذوا بأذان بلال وإقامته ، أى فلم يستحبوا الترجيع فى الأذان ، واستحبوا إفراد الإقامة إلا لفظها .

والشافعى رضى الله تعالى عنه أخذ بأذان أبى محذورة وإقامة بلال ، فاستحب الترجيع فى الأذان والإفراد فى الإقامة إلا لفظها .

وأبو حنيفة رحمه الله أخذ بأذان بلال وإقامة أبى محذورة ، أى فلم يستحب الترجيع ، واستحب تثنية ألفاظ الإقامة .

قال فى الهدى : وأخذ مالك بما عليه عمل أهل المدينة من الاقتصار فى التكبير على مرتين فى الأذان وعلى كلمة الإقامة مرة واحدة ؛ أى ولعل هذا بحسب ما كان فى المدينة ، وإلا ففى أبى داود « ولم يزل ولد أبى محذورة وهم الذين يلون الأذان بمكة يفردون الإقامة » أى معظم ألفاظها « ويحكونه عن جدهم » غير أن التثنية عنه أكثر ؛ فيحتمل أن إتيان أبى محذورة بالإقامة فرادى ، واستمراره وولده بعده على ذلك كان بأمر منه صلى الله عليه وسلم له بذلك بعد أمره أولا له بتثنيتها ، أى فيكون آخر أمره الإفراد . وقد قيل لأحمد رضى الله تعالى عنه — وقد كان يأخذ بأذان بلال أى كما تقدم : أليس أذان أبى محذورة بعد أذان بلال ، أى لأن النبى صلى الله عليه وسلم علمه له عند منصرفه من حنين على ما سيأتى ، وهو الذى رواه إمامنا الشافعى رضى الله عنه عن أبى محذورة أنه قال « خرجت فى نفر وكنا ببعض طريق حنين ، فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين ، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الطريق ، فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالصلاة ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون » أى عن الطريق « فصرنا نحكيه ونستهزئ به ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع ؟ فأشار القوم كلهم إلىّ فحبسنى » أى أبقانى عنده « وأرسلهم وقال : قم فأذن ، فقمت ولا شيء أكره إلىّ من النبي صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرنى به ، فقمت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقى علىّ التأذين هو بنفسه صلى الله عليه وسلم » الحديث « ثم دعانى حين قضيت التأذين فأعطانى صرة فيها شيء من فضة ، ثم وضع يده على ناصيتى ومر بها على وجهى ، ثم بين يدى ، ثم على كبدى حتى بلغت يده سرتى ، ثم قال : بارك الله فيك ، وبارك عليك ، فقلت : يا رسول الله مرنى بالتأذين بمكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد أمرتك به » وذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهته وعاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدمت على عتاب بن أسيد رضى الله تعالى عنه عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فأذنت بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل علمه صلى الله عليه وسلم ذلك يوم فتح مكة لما أذن بلال رضى الله تعالى عنه للظهر على ظهر الكعبة ، وصار فتية من قريش يستهزئون ببلال ويحكون صوته ، وكان من جملتهم أبو محذورة ، فأعجبه صلى الله عليه وسلم صوته فدعاه وعلمه الأذان ، وأمره أن يؤذن لأهل مكة فليتأمل الجمع ، وإنما يؤخذ بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى بالمتأخر عنه ، لأن المتأخر ينسخ المتقدم ، فقال : أليس لما عاد إلى المدينة أقر بلالا على أذانه ؟

قال أبوداود : وتثنية الأذان وإفراد الإقامة مذهب أكثر علماء الأمصار ، وجرى به العمل فى الحرمين والحجاز وبلاد الشام واليمن وديار مصر ونواحى المغرب ، أى إلا مصر فى المساجد التى تغلب صلاة الأروام بها فإن الإقامة تثنى كالأذان فيها .

وقد ذكر أن أبا يوسف رحمه الله ناظر إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه فى المدينة بين يدى مالك رضى الله تعالى عنه والرشيد ، فأمر الشافعى بإحضار أولاد بلال وأولاد سائر مؤذنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : كيف تلقيتم الأذان والإقامة عن

آبائكم ؟ فقالوا : الأذان مثنى مثنى والإقامة فرادى ، هكذا تلقيناه من آبائنا ، وآباؤنا عن أسلافنا إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم سمع بلالا يقيم الصلاة، فلما قال : قد قامت الصلاة، قال صلى الله عليه وسلم أقامها الله وأدامها» وفى البخارى « من قال حين يسمع النداء : أى الأذان ، اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته وجبت له شفاعتى يوم القيامة» .

قال بعضهم : كان المؤذنون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنين بلالا وابن أم مكتوم ، فلما كان زمن عثمان رضى الله تعالى عنه جعلهم أربعا وزاد الناس بعده .

ولما مات صلى الله عليه وسلم ترك بلال الأذان ولحق بالشام ، فمكث زمانا ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال له : يا بلال جفوتنا وخرجت من جوارنا فاقصد إلى زيارتنا . وفى لفظ أنه قال له : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ ما آن لك أن تزورنا فانتبه بلال رضى الله تعالى عنه فقصد المدينة ، فلما انتهى إلى المدينة تلقاه الناس ، أى وأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يبكى عنده ويتمرغ عليه ، وأقبل على الحسن والحسين يقبلهما ويضمهما ، وألحوا عليه أن يؤذن ، فلما صعد ليؤذن اجتمع أهل المدينة رجالهم ونساؤهم ، وخرجت العذارى من خدورهن ليستمعوا أذانه رضى الله تعالى عنه ، فلما قال : الله أكبر ارتجت المدينة وصاحوا وبكوا ؛ فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ضجوا جميعا ، فلما قال : أشهد أن محمدا رسول الله لم يبق ذو روح إلا بكى وصاح ، وكان ذلك اليوم كيوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف إلى الشام وكان يرجع إلى المدينة فى كل سنة مرة فينادى بالأذان إلى أن مات رضى الله تعالى عنه .

أقول : فى كلام بعضهم كان سعد القرظ رضى الله تعالى عنه مؤذنه صلى الله عليه وسلم بقباء ، فلما لحق بلال بالشام أيام عمر رضى الله تعالى عنه أمر سعد القرظ أن يؤذن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى فإن بلالا لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقال : يا خليفة رسول الله ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أفضل أعمال المؤمن الجهاد فى سبيل الله » وقد أردت أن أرابط فى سبيل الله حتى أموت ، فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أنشدك الله يا بلال وحرمتى وحقى عليك أن لا تفارقنى ، فأقام بلال حتى توفى أبو بكر رضى الله تعالى عنه

وهو يؤذن . ثم جاء إلى عمر فقال له كما قال لأبى بكر ورد عليه رضى الله عنه كما رد عليه أبو بكر ، فأبى وخرج إلى الشام مجاهدا .

وفى [أنس الجليل]: لما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه بيت المقدس حضرت الصلاة ، فقال : يا بلال أذن لنا يرحمك الله، قال بلال : يا أمير المؤمنين والله ما أردت أن أؤذن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد ولكن سأطيعك إذ أمرتنى فى هذه الصلاة وحدها ، فلما أذن بلال وسمعت الصحابة رضى الله تعالى عنهم صوته ذكروا النبى صلى الله عليه وسلم فبكوا بكاء شديدا ، ولم يكن من الصحابة يومئذ أطول بكاء من أبى عبيدة ومعاذ بن جبل ، حتى قال لهما عمر رضى الله تعالى عنه : حسبكما رحمكما الله تعالى ، فلم يؤذن بلال بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة واحدة لما أمره عمر بالأذان ؛ هذا ما فى أنس الجليل ، أى فالمراد بالمرة هذه المرة التى كانت ببيت المقدس .

وفيه أن هذا يخالف ما تقدم مما ظاهره أنه استمر يؤذن مدة خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وما تقدم من إلحاح الحسن والحسين عليه فى أن يؤذن عند مجيئه للمدينة .

إلا أن يقال : المراد لم يؤذن خارج المدينة فلا يخالف ما سبق من أذانه بعد إلحاح الحسن والحسين ، ولعل ما سبق كان بعد فتح بيت المقدس ، بل وبعد موت الخلفاء الأربعة .

ثم رأيت الزين العراقى قال : لم يؤذن بلال بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم لأحد من الخلفاء ، إلا أن عمر لما قدم الشام حين فتحها أذن بلال ، هذا كلامه فليتأمل مع ماسبق .

وفى الكتاب المذكور : روى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه « أن رجلا قال : يا رسول الله أى الخلق أول دخولا الجنة ، قال : الأنبياء ، قال : ثم من ؟ قال الشهداء ، قال : ثم من ؟ قال مؤذنو بيت المقدس ، قال : ثم من ؟ قال مؤذنو بيت الحرام قال : ثم من ؟ قال مؤذنو مسجدى ، قال : ثم من ؟ قال سائر المؤذنين» .

ثم رأيت فى نسخة من شرح المنهاج للدميرى عن جابر تقديم مؤذنى المسجد الحرام على مؤذنى بيت المقدس . ورأيت فى بعض الروايات ما يوافقه ، وهى « أول من يدخل الجنة بعدى أبو بكر ثم الفقراء ، ثم مؤذنو المسجد الحرام ، ثم مؤذنو بيت المقدس ، ثم مؤذنو مسجدى ، ثم سائرهم على قدر أعمالهم » .

وفى [البدور السافرة] عن جابر رضى الله تعالى عنه « أن رجلا قال: يا رسول الله أى

الخلق أول دخولا الجنة يوم القيامة ؟ قال : الأنبياء ، قال : ثم من ؟ قال الشهداء ، قال ثم من ؟ قال : مؤذنو الكعبة ، قال : ثم من ؟ قال: مؤذنو بيت المقدس ، قال : ثم من ؟ قال : مؤذنو مسجدى هذا ، قال : ثم من ؟ قال : سائر المؤذنين على قدر أعمالهم » .

وفيها عن جابر أيضا « أول من يكسى من حلل الجنة إبراهيم ، ثم محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم النبيون والرسل ، ثم يكسى المؤذنون » .

وجاء «إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم قالوا : يا رسول الله لقد تركتنا نتنافس فى الأذان بعدك ، فقال : أما إنه يكون قوم بعدكم كفلتهم مؤذنوهم » قيل وهذه الزيادة منكرة وقال الدارقطنى : ليست محفوظة .

وجاء « إذا أخذ المؤذن فى أذانه وضع الرب جل وعز يده فوق رأسه ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ من أذانه ، وإنه ليغفر له مدّ صوته ، فإذا فرغ قال الرب : صدقت عبدى ؛ وشهدت شهادة الحق ، فأبشر » والله أعلم .

قال : وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كان رجل من اليهود أى من التجار وعن السدى : من النصارى بالمدينة سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمدا رسول الله ، قال: أخزى الله الكاذب . وفى رواية : أحرق الله الكاذب ؛ فدخلت خادمه بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت واحترق هو وأهله انتهى .

أى وفى بعض الأسفار « حضر وقت الصلاة : أى صلاة الصبح فطلبوا بلالا يؤذن فلم يوجد أى لتأخره فى السير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن زياد بن الحارث الصدائى أى بأمره صلى الله عليه وسلم ، فقال له أذن يا أخا صداء» وصداء حى من اليمن .

وعنه رضى الله تعالى عنه « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمرنى على قومى ، فقال : لاخير فى الإمرة لرجل مؤمن ، فقلت : حسبى ، ثم سار النبى صلى الله عليه وسلم مسيرا فسرت معه ، فانقطع عنه أصحابه وأضاء الفجر ، فقال لى : أذن يا أخا صداء ، فأذنت ، ثم لما حضرت الصلاة أراد بلال أن يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ، إنما يقيم من أذن » واختلف هل أذن صلى الله عليه وسلم بنفسه ؟ فقيل نعم أذن مرة ، واستدل على ذلك بأنه جاء فى بعض الأحاديث ، أى وقد صح « أنه صلى الله عليه وسلم أذن فى السفر وصلى وهم على رواحلهم ، فتقدم على راحلته صلى الله عليه وسلم فصلى بهم يومىء إيماء يجعل السجود أخفض من الركوع » وقيل ما أذن ، وإنما أمر بلالا بالأذان كما فى بعض طرق ذلك الحديث .

ففى الهدى « وصلى بهم الفرض على الرواحل لأجل المطر والطين » وقد روى أحمد والترمذى « أنه صلى الله عليه وسلم انتهى إلى مضيق هو وأصحابه ، والسماء من فوقهم ، والمسيل من أسفل منهم فحضرت الصلاة ، فأمر المؤذن فأذن وأقام ، ثم تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم » الحديث والمفصل يقضى على المجمل .

وفى رواية « أذن اختصاراً » : أى أمر بالأذان ، أى وهذا المجمل الذى تشير إليه هو «فأذن صلى الله عليه وسلم على راحلته وأقام » : أى ويروى « أن بلالا كان يبدل الشين فى أشهد سينا ، فقال صلى الله عليه وسلم : سين بلال عند الله شين » قال ابن كثير : لا أصل لرواية سين بلال شين فى الجنة ، ولا يلزم من كون هذه الرواية لا أصل لها أن تكون تلك الرواية كذلك .

وكان بلال وابن أم مكتوم يتناوبان فى أذانى الصبح ، فكان أحدهما يؤذن بعد مضى نصف الليل الأول والليل باق ، والثانى يؤذن بعد طلوع الفجر » وروى الشيخان « إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » أى وفى مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايمنعن أحدا منكم أذان بلال أو قال نداء بلال من سحوره فإنه يؤذن ، أو قال ينادى ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم ، إنما يؤذن بليل بعد نصفه الأول ، فيرجع القائم المتهجد إلى راحلته لينام غفوة ليصبح نشيطا ويستيقظ النائم ليتأهب للصبح » .

قال فى الهدى : وانقلب على بعض الرواة ، فقال إن ابن أم مكتوم ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى بلال . أى وقد علمت أنه لا قلب وأنهما كانا يناديان ، فكان بلال تارة يؤذن بليل وابن أم مكتوم عند الفجر الثانى ، وتارة يكون ابن مكتوم بالعكس ، فوقع كل من الأحاديث باعتبار ماهو موجود عنـــد النطق ، ولم يكن بين أذانهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا : أى أن ينزل المؤذن الأول من أذانه ويرقى المؤذن الثانى كما ذكر ، فمن كان يؤذن أولا يتربص بعد أذانه لنحو الدعاء ثم يرقب الفجر ، فإذا قارب طلوعه نزل فأخبر صاحبه فيرقى ويؤذن مع الفجر أو عقبه من غير فاصل ، وهذا هو المراد مما قيل « إن ابن أم مكتوم كان لا يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت » .

وعن ابن عمر كان ابن أم مكتوم يتوخى الفجر فلا يخطئه . وفى أبى داود عن ابن عمر « أن بلالا أذن قبل طلوع الفجر ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يرجع فينادى : ألا إن

العبد نام ، فرجع فنادى : ألا إن العبد نام ، ألا إن العبد نام » أى غفل عن الوقت ، أو رجع لينام لبقاء الليل ، ولعل هذا كان قبل أن يتخذ ابن أم مكتوم مؤذنا ثانيا أو كان أذان بلال فى هذه المرة بعد أذان ابن أم مكتوم على ما تقدم ، فلا مخالفة .

والثابت فى الجمعة أذان واحد كان يفعل بين يديه صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر وجلس عليه ، كذا قال فقهاؤنا ، مستدلين على ذلك بحديث البخارى عن السائب بن يزيد قال « كان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام على المنبر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما » وليس فيه أن ذلك الأذان كان بين يديه ولما كثر المسلمون أمر عثمان رضى الله تعالى عنه ، أى وقيل عمر ، وقيل معاوية بأن يؤذن قبله على المنارة .

وعبارة بعضهم : وفى السنة الرابعة والعشرين زاد عثمان النداء على الزوراء يوم الجمعة ليسمع الناس فيأتوا إلى المسجد ، وأول من أحدثه بمكة الحجاج ، والتذكير قبل الأذان الأول الذى هو التسبيح أحدث بعد السبعمائة فى زمن الناصر محمد بن قلاوون .

وأول ما أحدثت الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم : أى على الكيفية المعهودة الآن بعد تمام الأذان على المنارة ، أى فى غير المغرب فى زمن السلطان المنصور حاجى بن الأشرف شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون بأمر المحتسب نجم الدين الطنبدى فى أواخر القرن الثامن ، واستمر ذلك إلى الآن ، لكن فى غير أذان الصبح الثانى وغير أذان الجمعة أول الوقت ، أما أذان الصبح الثانى وأذان الجمعة المذكور ، فتقدم الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم على الأذان فيهما ، وكان أحدث ذلك فى زمان صلاح الدين بن أيوب ، ولعل الحكمة فى ذلك ، أما فى الأول فلاستيقاظ النائم ، وأما فى الثانى فلأجل حصول التكبير المطلوب فى الجمعة .

ولا يخفى أن من السنة مطلق الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم بعد فراغ الأذان ففى مسلم «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على» وقيس بذلك الإقامة ، فالأذان والإقامة من المواطن التى يستحب فيها الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم ، لقوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) فقد قيل فى معناه : لا أذكر إلا وتذكر معى ، لكن بعد فراغهما لا عند الابتداء بهما كما يقع لبعض الأروام أن يقول المقيم للصلاة عند ابتداء الإقامة اللهم صل على سيدنا محمد الله أكبر الله أكبر فإن ذلك بدعة .

ومن البدع التطريب فى الأذان والتلحين فيه . وفى كلام إمامنا الشافعي رضى الله تعالى عنه : ويكون الأذان مرسلا بغير تمطيط ولا تغن . قيل التمطيط التفريط فى المد والتغنى أن يرفع صوته حتى يجاوز المقدار .

ومن البدع رفع المؤذنين أصواتها بتبليغ التكبير لمن بعد عن الإمام من المقتدين . قال بعضهم : ولا بأس به لما فيه من النفع ، أى حيث لم يبلغهم صوت الإمام بخلاف ما إذا بلغهم .

ففى كلام بعضهم : التبليغ بدعة منكرة باتفاق الأئمة الأربعة حيث بلغ المأمومين صوت الإمام ، ومعنى منكرة أنها مكروهة .

وأول ما أحدث التسبيح بالأسحار فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام حين كان بالتيه ، واستمر إلى أن بنى داود عليه الصلاة والسلام بيت المقدس ، فرتب فيه جماعة يقومون به على الآلات إلى ثلث الليل الأخير ، ثم بعد ثلث الليل الأخير يقومون به على الآلات عند الفجر .

وأول حدوثه فى ملتنا كان بمصر ، أمر به أميرها من قبل معاوية مسلمة بن مخلد الصحابى رضى الله تعالى عنهما ، فإنه لما اعتكف بجامع عمرو سمع أصوات النواقيس عالية ، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين بجامع عمرو ، ففعل ذلك من نصف الليل إلى قريب الفجر . ومسلمة هذا تولى مصر من معاوية بعد عتبة بن أبى سفيان أخى معاوية رضى الله تعالى عنهما ، وعتبة تولاها حين مات أميرها عمرو بن العاص ، وهذا مما يدل على أن عمرو بن العاص مدفون بمصر ، وكان عتبة خطيبا فصيحا .

قال الأصمعي : الخطباء من بنى أمية : عتبة بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان . خطب عتبة يوما أهل مصر فقال : يا أهل مصر خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تأتونه ، وذم الباطل وأنتم تفعلونه كالحمار يحمل أسفارا ، يثقله حملها ولا ينفعه علمها ، وإنى لا أداوى داءكم إلا بالسيف ، ولا أبلغ السيف ما كفانى السوط ، ولا أبلغ السوط ما صلحتم على الدرة ، فالزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وهذا يوم ليس فيه عتاب ولا بعده عتاب .

ومما يؤثر عنه : ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وقال لبنيه يوما : تلقوا النعم بحسن مجاورتها ، والتمسوا المزيد منها بالشكر عليها .

ومسلمة أول من جعل بنيان المنابر التي هي محل التأذين في المساجد ، فلما ولى أحمد بن طولون رتب جماعة يكبرون ويسبحون ويحمدون ، فلما ولى صلاح الدين يوسف ابن أيوب وحمل الناس على اعتقاد مذهب الأشعرى والخروج عما كان يعتقد الفواطم أمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة المرشدة ، وقد وقفت عليها فإذا هي ثلاث ورقات ، ولم أقف على اسم مؤلفها ، فواظبوا على ذكرها في كل ليلة .

قيل في سبب نزول قوله تعالى (قل كلٌ من عند الله) أن اليهود قالوا في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم : منذ دخل المدينة نقصت ثمارها ، وغلت أسعارها ، فرد الله تعالى عليهم بقوله (قل كل من عند الله) أى يبسط الأرزاق ويقبضها ، وعند ظهور الإسلام وقوته في المدينة قامت نفوس أحبار اليهود ونصبوا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) وقال في موضع آخر (إن تمسسكم حسنة تسؤهم) .

وعن صفية أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها بنت حيي قالت : كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمى أبي ياسر ، وكانا من أكبر اليهود وأعظمهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة غدوا إليه ثم جاءا من العشى ، فسمعت عمى يقول لأبي : أهو هو؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ؛ قال : وفي رواية أنها قالت : إن عمى أبا ياسر حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ذهب إليه وسمع منه صلى الله عليه وسلم وحادثه ، ثم رجع إلى قومه فقال : يا قوم أطيعونى ، فإن الله قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه ، ثم انطلق أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، ثم رجع إلى قومه فقال لهم : أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدوا . فقال له أخوه أبو ياسر : يا ابن أم أطعني في هذا الأمر واعصنى فيما شئت بعد لا تهلك ، فقال : والله لا نطيعك اه ، أى ثم وافق أخاه حييا فكانا أشد اليهود عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله تعالى فيهما وفيمن كان موافقا لهما في ذلك (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) .

وحيي بن أخطب هذا ، قيل هو الذى قال، لما نزل قوله تعالى (من ذا الذى يقرض

الله قرضا حسنا) : يستقرضنا ربنا ؛ وإنما يستقرض الفقير الغنى ، فأنزل الله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) .

أى وقيل فى سبب نزولها إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه دخل بيت المدراس ، فقال لفنحاص : اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، فقال : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال : والله لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ، فشكاه فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له أبو بكر ماكان منه ، فأنكر قوله ذلك ، فنزلت الآية .

وقيل فى سبب نزولها أيضا « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر رضى الله تعالى عنه إلى فنحاص بن عازوراء بكتاب ، وكان انفرد بالعلم والسيادة على يهود بنى قينقاع بعد إسلام عبد الله بن سلام ، يأمرهم فى ذلك الكتاب بالإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضا حسنا ، فلما قرأ فنحاص الكتاب قال: أقد احتاج ربكم؟ سنمده » . وفى رواية « قال : يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، فإن كان حقا ما تقول ، فإن الله جل وعلا إذن لفقير ونحن أغنياء ، فضرب أبو بكر وجه فنحاص ضربا شديدا وقال : لقد هممت أن أضربه بالسيف وما منعنى أن أضربه بالسيف إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دفع إلىّ الكتاب قال لى : لا تفتت علىّ بشىء حتى ترجع إلىّ ، فجاء فنحاص إلى النبى صلى الله عليه وسلم وشكا أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله إنه قال قولا عظيما ، زعم أن الله عز وجل فقير وأنهم أغنياء ، فغضبت لله تعالى ، وقال فنحاص : والله ما قلت هذا ، فنزلت الآية تصديقا لأبى بكر رضى الله تعالى عنه » .

وقد قال بعض اليهود لبعض العلماء إنما قلنا إن الله فقير ونحن أغنياء لأنه استقرض أموالنا ، فقال له : إن كان استقرضها لنفسه فهو فقير ، وإن كان استقرضها لفقرائكم ثم يكافئ عليها فهو الغنى الحميد .

ومن شدة عداوتهم : أى اليهود أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبى صلى الله عليه وسلم فى مشط أى له صلى الله عليه وسلم . وقيل فى أسنان من مشطه صلى الله عليه وسلم

ومشاطة : وهى ما يخرج من الشعر إذا مشط : أى من شعر رأسه صلى الله عليه وسلم ، أعطاها لهم غلام يهودى كان يخدمه صلى الله عليه وسلم ، وجعل مثالا من شمع . وقيل من عجين كمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرز فيه إبرا وجعل معه وترا عقد فيه إحدى عشرة عقدة .

وفى لفظ أن الإبر كانت فى العقد ، ودفن ذلك تحت راعونة فى بئرذى أروان . وقد مسخ الله تعالى ماءها حتى صار كنقاعة الحناء ، فكان يخيل إليه صلى الله عليه وسلم أنه يفعل الفعل وهو لا يفعله : أى ومكث فى ذلك سنة ، وقيل ستة أشهر ، وقيل أربعين يوما .

قال بعضهم : ويمكن أن تكون السنة أو الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه الشريف ، وأن مدة اشتداده كانت فى الأربعين ، وقيل اشتد عليه ثلاثة أيام . وقد يقال هى أشد الأربعين ، فلا منافاة . وعند ذلك نزل جبريل عليه الصلاة والسلام وقال له « إن رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا ودفنها بمحل كذا فأرسل صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله تعالى عنه فاستخرجها فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد صلى الله عليه وسلم بذلك خفة حتى قام كأنما نشط من عقال » وفى رواية : أن اليهودى دفن ذلك بقبر ، فأنزل الله تعالى سورة الفلق وسورة الناس وهما إحدى عشرة آية ، سورة الفلق خمس آيات ، وسورة الناس ست آيات ، كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها. وفى لفظ : فإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر ، فلم يقدروا على حل تلك العقد ، فنزلت المعوذتان ، فكلما قرأ جبريل آية انحلت عقدة ، ووجد صلى الله عليه وسلم بعض الخفة حتى قام عند انحلال العقدة الأخيرة كأنما نشط من عقال ، وجعل جبريل يقول : « بسم الله أرقيك ، والله يشفيك من كل داء يؤذيك » أى ولعله كان يقول ذلك عند حل كل عقدة بعد قراءة الآية أى وكان ذلك بين الحديبية وخيبر .

وذكر بعضهم أنه بعد خيبر جاءت رؤساء يهود الذين بقوا فى المدينة ممن يظهر الإسلام إلى لبيد بن الأعصم وكان أعلمهم بالسحر ، فقالوا له : يا أبا الأعصم قد سحرنا محمدا ، سحره منا الرجال فلم يصنع شيئا أى ولم يؤثر سحرهم ، وأنت ترى أمره فينا وخلافه فى ديننا ومن قتل وأجلى ، ونجعل لك على سحره ثلاثة دنانير ففعل ذلك . ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال « جاءنى رجلان » أى وهما جبريل وميكائيل كما فى بعض طرق الحديث

« فقعد أحدهما عند رأسي والآخر تحت رجلي » فقال أحدهما : ما وجع الرجل ؟ فقال الآخر : مطبوب ، أي مسحور ، فقال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فيم ؟ قال في مشط ومشاطة » وفي لفظ « ومشاقة » أي وهي المشاطة . وقيل هي مشاقة الكتان وجف بالجيم والفاء ، وقيل بالباء الموجدة طلعة ذكر : أي غشاء طلع الذكر الذي يقال له كوز الطلع ، قال : فأين هو ؟ قال : في بئر ذي ذروان» على وزن مروان . وفي لفظ « بئرذي أروان » وفي لفظ « بئر ذروان » وعليه اقتصر في الإمتاع « تحت صخرة في الماء قال : فما دواء ذلك ؟ قال : تنزح البئر ثم تقلب الصخرة فتوجد الكدية فيها تمثال فيه إحدى عشرة عقدة فتحرق : فإنه يبرأ بإذن الله تعالى ، ثم أحضر صلى الله عليه وسلم لبيدا فاعترف فعفا عنه لما اعتذر له بأن الحامل له على ذلك حب الدنانير . وقيل له : يارسول الله لو قتلته ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد عافاني الله، ما وراءه من عذاب الله تعالى أشد» .

ويحتاج إلى الجمع بين كون جبريل قال له سحرك إلى آخره ، وكون جاءه رجلان قعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما للآخر ماوجع الرجل إلى آخره قيل وهذا : أي عدم قتل الساحر ربما يعارض القول بأن الساحر يتحتم قتله . فيه أنه عندنا لايتحتم قتله ، ولا يقتل إلا إذا قتل بسحره واعترف بأن سحره يقتل غالبا .

ولبيد هذا قيل إنه أول من قال ينفي صفات الباري ، وقال بها الجهم بن صفوان وأظهرها ، فقيل لأتباعه في ذلك الجهمية .

« فعند ذلك بعث صلى الله عليه وسلم عليا وعمار بن ياسر إلى تلك البئر فاستخرجا ذلك» . وقيل الذي استخرج السحر بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن محصن .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها « أنه صلى الله عليه وسلم توجه إلى البئر مع جماعة من أصحابه ، فإذا ماؤها كأنه خضب بالحناء ، فاستخرجا » أي النبي صلى الله عليه وسلم وجماعته « منها ذلك » .

ويحتاج إلى الجمع بين كونه صلى الله عليه وسلم أرسل لاستخراج السحر عليا كرم الله وجهه ، وكونه بعث لاستخراجه عليا وعمار بن ياسر ، وكونه أمر قيس بن محصن باستخراجه ، وكونه صلى الله عليه وسلم ذهب هو وجماعته لاستخراجه ، فإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة : أي وإذا فيها إبر مغروزة ، ونزلت المعوذتان ، فجعل رسول الله

صلى الله عليه وسلم كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد ، فذهب عنه صلى الله عليه وسلم ما كان يجد .

أى ولا ينافى ما تقدم أن القارئ لذلك جبريل عليه الصلاة والسلام ، لجواز أن يكون كلاهما صار يقرأ الآية ، أو أنه صلى الله عليه وسلم صار يقرأ بعد قراءة جبريل .

وفى الإمتاع عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت له « أفلا استخرجته ؟ قال : لا ، أما أنا فقد عافانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شرا » ومراد عائشة بقولها أفلا استخرجته السحر : أى هلا استخرجت السحر من الجف والمشاطة حتى تنظر إليه ، فقال أكره أن أثير على الناس شرا .

قال ابن بطال : أى كره أن يخرجه فيتعلم منه بعض الناس ، فذلك هو الشر الذى كرهه صلى الله عليه وسلم . وذكر السهيلى أنه يجوز أن يكون الشر غير هذا ، وهو أنه لو أظهر للناس لربما قتله طائفة من المسلمين ، ويغضب آخرون من عشيرته فيثور شر .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « أنها قالت له صلى الله عليه وسلم : هلا تنشرت » ؟ أى استعملت النشرة . قال بعضهم : وفيه دليل على عدم كراهة استعمال النشرة حيث لم ينكر عليها قولها . وكرهها جمع واستندوا الحديث فى أبى داود مرفوعا « النشرة من عمل الشيطان » وحمل ذلك على النشرة التى تصحبها العزائم المشتملة على الأسماء التى لا تفهم « فأمر بها فطمت » أى تلك البئر ، وحفروا بئرا أخرى ، فأعانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرها حيث طموا الأخرى التى سحر فيها ، هذا كلامه ، فليتأمل مع ما قبله .

وقيل إنما سحره بنات أعصم أخوات لبيد ، ودخلت إحداهن على عائشة فسمعت عائشة تذكر ما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بصره ثم خرجت إلى أخواتها فأخبرتهن بذلك ، فقالت إحداهن : إن يكن نبيا فسيخبر ، وإن يكن غير ذلك فسوف يذهله هذا السحر حتى يذهب عقله ، فدله الله تعالى عليه .

وقد يجمع بين كون الساحر له صلى الله عليه وسلم لبيدا وكون الساحر له أخوات لبيد بأن الساحر له أخوات لبيد ، ونسب السحر إلى لبيد لأنه جاء أنه الذى ذهب به فأدخله تحت راعونة البئر : أى أو فى القبر كما تقدم . ولا منافاة ، لجواز أن يكون وضعه فى القبر مدة ثم أخرجه منه ووضعه تحت تلك الراعونة أى وهى حجر يوضع على رأس البئر يقوم

عليه المستقى ، وقد يكون فى أسفل البئر يجلس عليه الذى ينظف البئر ، أى والثانى هو المراد بدليل ماسبق .

وفى النهر لأبى حيان : ونص القرآن والحديث أن السحر تخييل : أى لايقلب الأعيان ولا شك فى وجوده فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأما فى زماننا الآن فكل ماوقفنا عليه من كتبه فهو كذب وافتراء لايترتب عليه شىء ، فلا يصح منه شىء ألبتة .

وطعنت المعتزلة وطوائف من أهل البدع فى كونه صلى الله عليه وسلم سحر وقالوا : لا يجوز على الأنبياء أن يسحروا ، ولو جاز أن يسحروا لجاز أن يجنوا وقد عصموا من الناس .

ورد بأن الحديث الدال على ذلك صحيح ، والعصمة إنما وجبت لهم فى عقولهم وأديانهم وأما أبدانهم فيبتلون فيها ، والسحر إنما أثر فى بعض جوارحه صلى الله عليه وسلم فقد تقدم عن عائشة رضى الله تعالى عنها من ذكرها ماأنكر صلى الله عليه وسلم من بصره لكن تقدم أنه صلى الله عليه وسلم صار يخيل له أنه يفعل الشىء ولا يفعله ، وهذا متعلق بالعقل .

ثم رأيت أبا بكر بن العربى قال : لم يقل كل الرواة إنه اختلط عليه صلى الله عليه وسلم أمر ، وإنما هذا اللفظ زيد فى الحديث لاأصل له .

قال : ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعبا واستجرارا إلى القول وإبطال معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والقدح فيها ؛ وأنه لافرق بين معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين فعل السحرة ، وأن جميعه من نوع واحد هذا كلامه .

وممن كان حريصا على رد الناس عن الإسلام أيضا شاس بن قيس ، كان شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم . مر يوما على الأنصار الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون ، فغاظه مارأى من ألفتهم بعد ماكان بينهم من العداوة ، فقال : قد اجتمع بنو قيلة ، والله مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ؛ ثم اذكر يوم بعاث : أى يوب الحرب الذى كان بينهم ، وماكان فيه ، وأنشدهم ماكانوا يتقاولون به من الأشعار ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك : أى قال أحد الحيين : قد قال شاعرنا كذا ، وقال الآخر قد قال شاعرنا كذا ، وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة : أى قالوا : تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت ، فنادى هؤلاء :

ياللأوس ، ونادى هؤلاء ياللخزرج ، ثم خرجوا إليهم وقد أخذوا السلاح ، واصطفوا للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم ،فقال: « يامعشر المسلمين الله الله » أى اتقوا الله « أبدعوى الجاهلية» أى وهى ياللخزرج ياللأوس،« وأنا بين أظهركم؟ بعد أن هداكم الله إلى الإسلام،وألفكم به،وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وغانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس (ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا) الآية » .

وقد جاء فى ذم هذه الكلمة التى هى دعوى الجاهلية ، وهى : يالفلان قوله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ، ولا تكنوا » أى قولوا له اعضض على ذكر أبيك ولا تكنوا عنه بالهن ؛ فلا تقولوا على هن أبيك ، بل قولوا على ذكر أبيك ، تنكيلا له وزجراً عما أتى به : أى وقد كان أنزل الله تعالى فيهم (ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) الآية، وقد قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم وهو بين الصفين رافعا بها صوته ، فألقوا السلاح وفعلوا ماتقدم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن يهود كانوا يستفتحون » أى يستنصرون « على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه » أى يقولون سيبعث نبى صفته كذا وكذا نقتلكم معه قتل عاد وإرم كما تقدم عند مبايعة العقبة ، فقال لهم معاذ ابن جبل وبشر بن البراء: يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وكفر ، وتخبرونا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام » أى بالتشديد « ابن مشكم من عظماء يهود بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، ما هو الذى كنا نذكره لكم ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله تعالى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) » .

وقيل فى سبب نزول قوله تعالى (ما أنزل الله على بشر من شىء) أنه صلى الله عليه وسلم قال لمالك بن الصيف وكان رئيسا على اليهود : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى

هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ، فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود ، فضحك القوم ، فغضب والتفت إلى عمر رضى الله تعالى عنه ، فقال : ما أنزل الله على بشر من شىء ، فقالت له اليهود : ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ فقال : إنه أغضبنى فنزعوه من الرياسة وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف » أى لأن فى قوله المذكور طعنا فى التوراة

وقيل «إن يهود المدينة من بنى قريظة وبنى النضير وغيرهم كانوا إذا قاتلوا من بينهم من مشركى العرب من أسد وغطفان وجهينة وعذرة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم يقولون : اللهم إنا نستنصرك بحق النبى الأمى الذى وعدت أنك باعثه فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم » وفى لفظ « قالوا : اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته وصفته فى التوراة فينصرون » وفى لفظ « يقولون : اللهم ابعث النبى الذى نجده فى التوراة يعذبهم ويقتلهم » وفى لفظ « أن يهود خيبر كانت تقاتل غطفان ، فكلما التقوا هزمت يهود ، فدعت يوما : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فيهزمون غطفان وصار اليهود يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أشياء ليلبسوا الحق بالباطل » أى ومن جملة ما سألوه صلى الله عليه وسلم عن الروح ؛ فعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ، قال « كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى خرث المدينة يتوكأ على عسيب» أى جريدة من جريد النخل « إذ مر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : لا تسألوه لئلا يسمعكم ما تكرهون » وفى رواية : « لئلا يستقبلكم بشىء تكرهونه » أى يجيبكم بما هو دليل عندكم على أنه النبى الأمى وأنتم تنكرون نبوته « فقاموا إليه فقالوا : يا محمد » وفى رواية « يا أبا القاسم ما الروح ؟ » وفى رواية «أخبرنا عن الروح فسكت» قال ابن مسعود : فظننت أنه صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، فقال (ويسألونك عن الروح) أى التى يكون بها الحيوان حيا (قل الروح من أمر ربى) فقالوا : هكذا نجد فى كتابنا أى التوراة » وقد تقدم الكلام على ذلك عند الكلام على فترة الوحى .

قال صاحب الإفصاح : إنه إنما سأل اليهود عن الروح تعجيزا وتغليطا ؛ لأن الروح تطلق بالاشتراك على الروح للإنسان ، وعلى القرآن ، وعلى عيسى ، وعلى جبريل ، وعلى ملك آخر ، وعلى صنف من الملائكة ، فقصد اليهود أنه بأى شىء أجابهم به ، قالوا :

ليس هو ، فجاءهم الجواب مجملا ، فكان هذا الجواب لردكيدهم ، لأن كل واحد مما ذكر أمر من مأمورات الحق تعالى . ولما أنزل الله تعالى فى حق اليهود (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فأنزل الله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) وفى الكشاف «أنهم قالوا : نحن مخصوصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلا ، فقالوا: ما أعجب شأنك ، ساعة تقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) وساعة تقول هذا ، فنزلت (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) هذا كلامه » وسألوه صلى الله عليه وسلم متى الساعة إن كنت نبيا » فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى) الآية » .

أى « وجاء يهوديان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ، فقال صلى الله عليه وسلم لهما لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، وعليكم يايهود خاصة أن لا تعتدوا فى السبت ، فقبلا يديه ورجليه صلى الله عليه وسلم وقالا : نشهد أنك نبى ، قال : ما يمنعكما أن تسلما؟ فقالا : نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود » .

أى « وسألوه صلى الله عليه وسلم عن خلق السموات ، أى فى أى زمن ، والأرض وما بينهما ، أى مدة ما بينهما ؟ فقال لهم : خلق الأرض فى يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيها يوم الثلاثاء » أى ، ولذلك يقول الناس إنه يوم ثقيل « وخلق البحر والماء والمدائن والعمران والخراب يوم الأربعاء ، وخلق السموات يوم الخميس ، وخلق الشمس والقمر والنجوم والملائكة يوم الجمعة ، قالوا : ثم ماذا يامحمد؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا: قدأصبت لوتممت ثم استراح » أى لو قلت هذا اللفظ ، لأنهم يقولون إنه استراح جل وعز يوم السبت ، ومن ثم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تعالى (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى تعب (فاصبر على ما يقولون) .

وفى رواية « خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ،

وخلق الأنهار والأشجار يوم الأربعاء ، وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس ، وخلق الإنسان يوم الجمعة ، وفرغ من الخلق يوم السبت » .

وهذا يشكل على ماتقدم أن مبدأ الخلق يوم السبت حتى يكون آخر الأسبوع يوم الجمعة ، وهو الراجح على ما تقدم .

وقد قيل فى سبب نزول قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) إلى قوله (إن الدين عند الله الإسلام) أن حبرين من أراضى الشام لم يعلما ببعثته صلى الله عليه وسلم ، فقدما المدينة ، فقال أحدهما للآخر : ما أشبه هذه بمدينة النبى الخارج فى آخر الزمان ، فأخبرا بمهاجرة النبى صلى الله عليه وسلم ووجوده فى تلك المدينة ، فلما رأياه قالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، قالا : نسألك مسألة إن أخبرتنا بها آمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : اسألانى ، فقالا : أخبرنا عن أعظم الشهادة فى كتاب الله تعالى ، فنزلت هذه الآية ، فتلاها صلى الله عليه وسلم عليهما فآمنا » .

قال : وعن قتادة رضى الله تعالى عنه «أن رهطا من اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد هــذا الذى خلق الجن والإنس من خلقه » وفى لفظ « خلق الله الملائكة من نور الحجاب ، وآدم من حمأ مسنون ، وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك من أى شىء خلق ؟ فغضب صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام ، وقال له : خفض عليك ، فأنزل الله تعالى عليه (قل هو الله أحد) السورة » أى متوحد فى صفات الجلال والكمال ، منزه عن الجسمية ، واجب الوجود لذاته : أى اقتضت ذاته وجوده ، مستغن عن غيره ، وكل ما عداه محتاج إليه اهـ .

أقول : ونزول جبريل بذلك ربما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم توقف ولم يدر ما يقول كما وقع له لمـا سأله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه ، وقال له صف ربك كما سيأتى .

ثم رأيت عن الشيخين وغيرهما أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ذكر فى سبب نزول هذه السورة غير ما ذكر ، ولعله ما سيأتى فى قصة إسلام عبد الله بن سلام ، ولا مانع من تكرر النزول لأسباب مختلفة .

ثم رأيته فى الإتقان ذكر أن سورة الإخلاص تكرر نزولها ، فنزلت جوابا للمشركين بمكة وجوابا لأهل الكتاب بالمدينة ، وقال قبل ذلك إنها إنما نزلت بالمدينة .

وفى دعوى تكرر نزولها يقال : حيث سئل أولا ونزلت جوابا كيف يتوقف ثانيا عند السؤال الثانى حتى يحتاج إلى نزولها مع بعد نسيان ذلك له صلى الله عليه وسلم .

ثم رأيت عن البرهان : قد ينزل الشيء مرتين ، تعظيما لشأنه وتذكيرا عند حدوث سببه خوف نسيانه ، وهو كما ترى لايدفع التوقف . وكان من أعلم أحبار يهود عبد الله بن سلام بالتخفيف : وكان قبل أن يسلم اسمه الحصين ، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله وكان من ولديوسف الصديق : أى وقد أثنى الله تعالى عليه فى قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾ وكان من يهود بنى قينقاع كما تقدم. جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع كلامه ، أى فى أول يوم دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أبى أيوب [ ] أى ولعل الذى سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ، هو قوله « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وصلوا الأرحام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

فعنه رضى الله تعالى عنه ، قال « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل إليه الناس » أى بالجيم : أسرعوا « فكنت ممن أتى إليه » أى وهذا يدل على أنه جاءه فى قباء وسيأتى « قال : فلما رأيت وجهه صلى الله عليه وسلم عرفت أنه وجه غير كذاب » أى لأن صورته وهيئته وسمته صلى الله عليه وسلم تدل العقلاء على صدقه ، وأنه لا يقول الكذب ، قال عبد الله « فسمعته صلى الله عليه وسلم يقول : أيها الناس إلى آخره » .

أى ولا مانع أن يكون ذلك تكرر منه صلى الله عليه وسلم ، وعند ذلك قال : أشهد أنك رسول الله حقا ، وأنك جئت بحق ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا ، وكتمت إسلامى من اليهود ، ثم جئته صلى الله عليه وسلم ، أى فى بيت أبى أيوب وقلت له لقد علمت اليهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فأخبئنى يارسول الله قبل أن يدخلوا عليك ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى أسلمت ، فإنهم قوم بهت » أى بضم الباء والهاء « يواجهون الإنسان بالباطل ، وأعظم قوم عضيهة » أى كذبا ، « وإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ماليس فىّ ، وخذ عليهم ميثاقا أنى إن اتبعتك بكتابك أن يؤمنوا بك وبكتابك الذى أنزل عليك ، فأرسل رسول الله صلى الله

عليه وسلم إليهم فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر يهود ويلكم اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق ، أسلموا ، قالوا ما نعلم ، فأعاد ذلك عليهم ثلاثا وهم يجيبونه كذلك ، قال فأى رجل فيكم ابن سلام ؟ قالوا ، ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى رواية « خيرنا وابن خيرنا » بالخاء المعجمة والياء المثناة تحت أفعل تفضيل ، وقيل بالمهملة والباء الموحدة ، أى أعلمنا بكتاب الله « سيدنا وعالمنا وأفضلنا ، قال : أفرأيتم إن شهد أنى رسول الله وآمن بالكتاب الذى أنزل علىّ تؤمنوا بى ؟ قالوا نعم ، فدعاه ، فقال : يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج عليهم فقال : ياعبد الله بن سلام ، أما تعلم أنى رسول الله تجدنى عندكم مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، أخذ الله ميثاقكم أن تؤمنوا بى وأن تتبعونى من أدركنى منكم ؟ قال ابن سلام : بلى يا معشر يهود ، ويلكم اتقوا الله ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقا ، وأنه جاء بالحق » ، قال زاد فى رواية « تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة اسمه وصفته ، قالوا : كذبت ، أنت أشرنا ، وابن أشرنا » وهذه لغة رديئة ، والفصحى شرنا وابن شرنا بغير همزة وهى رواية البخارى « قال ابن سلام رضى الله تعالى عنه : هذا الذى كنت أخاف يارسول الله ، ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟ » انتهى « فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهرت إسلامى ، وأنزل الله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله) يعنى الكتاب أو الرسول (وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل) يعنى عبد الله بن سلام (على مثله) يعنى اليهود (فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين) » .

أقول : هذا السياق لايناسب ما حكاه فى الخصائص الكبرى عن تاريخ الشام لابن عساكر : أن ابن سلام اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يهاجر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ، أنت ابن سلام عالم أهل يثرب ؟ قال نعم ، قال : ناشدتك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد صفتى فى كتاب الله يعنى التوراة ؟ قال : انسب ربك يا محمد ، فارتج النبى صلى الله عليه وسلم » أى توقف « ولم يدر ما يقول ، فقال له جبريل : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ، فقال ابن سلام : أشهد أنك رسول الله ، وأن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان ، وإنى لأجد صفتك فى كتاب الله تعالى (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) أنت عبدى

ورسولى » إلى آخر ما تقدم عن التوراة ، فإنه يدل على أن ابن سلام أسلم بمكة وكتم إسلامه ، ولو كان كذلك لما قال « فلما رأيت وجهه الشريف عرفت أنه غير وجه كذاب » ولما قال « وكنت عرفت صفته واسمه » ولما سأله عن الأمور الآتية ،ولما احتاج إلى الإسلام ثانيا ، إلا أن يقال على تسليم صحة ما قاله ابن عساكر جاز أن يكون قال ذلك ، وفعل ما ذكر إقامة للحجة على اليهود .

وقد وقع لابن سلام هذا أنه لقى عليا بالربذة وقد خرج بعد قتل عثمان وبعد أن بويع بالخلافة متوجها إلى البصرة لما بلغه أن عائشة وطلحة والزبير ومن معهم خرجوا إلى البصرة فى طلب دم عثمان ، وكان ذلك سببا لوقعة الجمل ، فأخذ بعنان فرس علىّ ، وقال : يا أمير المؤمنين لاتخرج منها يعنى المدينة ، فوالله لئن خرجت منها لايعود إليها سلطان المسلمين أبدا ، فسبه بعض الناس ، وقال له : مالك ولهذا ؟ يا ابن اليهودية ، فقال علىّ : دعوه ، فنعم الرجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : لقد لقيت عبد الله بن سلام ، فقلت له : أخبرنى عن ساعة الإجابة يوم الجمعة ، فقال فى آخر ساعة فى يوم الجمعة ؟ قلت : وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايصادفها عبد مسلم وهو يصلى » وتلك الساعة لاصلاة فيها ؟ فقال ابن سلام : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى يصلى » .

وفيه أن فى الصحيحين « إن فى يوم الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلى فسأل الله عز وجل شيئا إلا أعطاه إياه » ثم رأيت عن سنن ابن ماجه أن جواب ابن سلام تلقاه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ونص السنن المذكورة ، عن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه ، قال « قلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، إنا لنجد فى كتابنا يعنى التوراة ، فى الجمعة ساعة لايوافقها عبد مؤمن يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا قضى حاجته ، قال عبد الله ابن سلام : فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعض ساعة ؟ فقلت : صدقت يارسول الله ، أو بعض ساعة ، قلت : أى ساعة هى ؟ قال : آخر ساعة من ساعات النهار ، قلت : إنها ليست ساعة صلاة ، قال : بلى ؛ إن العبد المؤمن إذا صلى ثم جلس لايحبسه إلا الصلاة فهو فى الصلاة » أى ولعل لفظ قائم فى رواية الصحيحين يراد به

مريد القيام إلى الصلاة ، أى صلاة العصر . وقد قيل : إن تلك الساعة رفعت بعد موته صلى الله عليه وسلم . وقيل هى باقية ، وهو الصحيح . وعليه ، فقيل لازمن لها معين ، وقيل هى فى زمن معين وعليه فى تعيينها أحد عشر قولا ، وقيل أربعون قولا .

وقد وقع لميمون بن يامين وكان رأس اليهود مثل ماوقع لابن سلام مع اليهود ، فإنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ابعث إليهم واجعلنى حكما فإنهم يرجعون إلىّ ، فأدخله داخلا وأرسل إليهم ، فجاءوه صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم اختاروا رجلا حكما يكون بينى وبينكم ، قالوا : قد رضينا ميمون بن يامين ، فقال : اخرج إليهم ، فقال : أشهد أنه لرسول الله ، فأبوا أن يصدقوه ، والله أعلم .

وقد أشار إلى إنكارهم نبوته صلى الله عليه وسلم مع معرفتهم لها صاحب الهمزية بقوله :

عرفوه وأنكروه فظلما	كتمته الشهادة الشهداء
أو نور الإله تطفئه الأفـ	ـواه وهو الذى به يستضاء
كيف يهدى الإله منهم قلوبا	حشوها من حبيبه البغضاء

أى عرفوه أنه النبى المنتظر ، وأنكروه بظواهرهم ، ولأجل ظلمهم كتمت الشهادة به العارفون به . أو نور الإله الذى هو النبوة تذهبه الألسن ؟ لايكون ذلك ، وكيف يكون ذلك وهو الذى يستضاء به فى الظاهر والباطن ، كيف يوصل الإله قلوبا للحق ومثها البغضاء لحبيبه صلى الله عليه وسلم ؟ .

أقول : وقيل فى سبب نزول سورة (قل هو الله أحد) أن وفد نجران لما نطقوا بالتثليث ، قال لهم المسلمون : من خلقكم ؟ قالوا الله ، قالوا لهم : فلم عبدتم غيره وجعلتم معه إلهين ؟ فقالوا : بل هو إله واحد ، لكنه حل فى جسد المسيح ، إذ كان فى بطن أمه ، فقالوا لهم : هل كان المسيح يأكل الطعام ؟ قالوا : كان يأكل الطعام ، فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد) تكذيبا لهم فى أنه ثالث ثلاثة ، والصمد : هو الذى لاجوف له ، فهو غير محتاج إلى الطعام .

وقيل سبب نزولها أن قريشا هم الذين قالوا له انسب لنا ربك يامحمد ، وتقدم مافيه والله أعلم .

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تفسير قوله تعالى (يا بنى إسرائيل

اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) قال الله تعالى للأحبار من اليهود (أوفوا بعهدى) الذى أخذته فى أعناقكم للنبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءكم بتصديقه واتباعه (أوف بعهدكم) أنجز لكم ما وعدتم عليه ؛ بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال (ولا تكونوا أول كافر به) وعندكم فيه من العلم ماليس عند غيركم (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) أى لاتكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى ، وبما جاء به وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم .

قال بعضهم : ولم يسلم من رؤساء علماء اليهود إلا عبد الله بن سلام وضم إليه السهيلى عبد الله بن صوريا ، قال الحافظ ابن حجر : لم أقف لعبد الله بن صوريا على إسلام من طريق صحيح ، وإنما نسب لتفسير النقاش ؛ أى ويضم لعبد الله بن سلام ميمون المتقدم ذكره.

وروى فى سبب إسلام عبد الله بن سلام : أى إظهار إسلامه على ما تقدم أنه لما بلغه مقدم النبى صلى الله عليه وسلم أتاه فى قباء ، فعنه رضى الله تعالى عنه « جاء رجل حتى أخبر بقدومه صلى الله عليه وسلم وأنا فى رأس نخلة أعمل فيها وعمتى تحتى جالسة ، فلما سمعت بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لى عمتى : لو كنت سمعت بموسى بن عمران مازدت ، فقلت لها : أى عمة ، فوالله هو أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بمابعث به . قالت يا ابن أخى أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع بعث الساعة» وفى لفظ « مع نفس الساعة ، فقلت لها نعم » .

أى وقد جاء عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما «بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى » وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين وقال بأصبعيه هكذا يعنى السبابة والوسطى » أى جمع بينهما. وفى رواية « بعثت فى نفس الساعة سبقتها كما سبقت هذه هذه » وفى رواية «سبقتها بما سبقت هذه هذه وأشار بأصبعيه الوسطى والسبابة » قال الطبرى الوسطى تزيد على السبابة بنصف سبع أصبع ، كما أن نصف يوم من سبعة أيام نصف سبع ، أى وقد تقدم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : الدنيا سبعة أيام ، كل يوم ألف سنة ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم منها ، وتقدم فى حديث أخرجه أبو داود « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » يعنى خمسمائة سنة .

قال بعضهم : فإن قيل ماوجه الجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الساعة « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » لدلالة الرواية الأولى على علمه بها .

أجيب بأن القرآن نطق بأن علمها عند الله لا يعلمها إلا هو . ومعنى قوله « بعثت أنا والساعة كهاتين » أنه ليس بيني وبينها نبي آخر يأتى بشريعة ولا يتراخى إلى أن تندرس شريعتى ، فهو صلى الله عليه وسلم أول أشراطها لأنه نبى آخر الزمان ، وهذا لا يقتضى أن يكون عالما بخصوص وقتها . قال ابن سلام : وكنت عرفت صفته واسمه : أى فى التوراة . زاد فى رواية « فكنت مسرا لذلك ساكتا عليه حتى قدم المدينة فجئته صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا محمد إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومابال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنى بهن جبريل آنفا ، فقال ابن سلام : ذلك يعنى جبريل عدو اليهود من الملائكة » .

وقيل قائل ذلك عبد الله بن صوريا ، ولا مانع من أن يكون قال ذلك كل منهما : أى وعن ابن صوريا أنه قال له صلى الله عليه وسلم : « من ينزل عليك بالوحى ؟ قال جبريل ، قال : ذلك عدونا لو كان غيره » وفى لفظ « لو كان ميكائيل لآمنا بك لأن جبريل ينزل بالخسف والحرب والهلاك ، وميكائيل ، ينزل بالخصب والسلم » .

وسبب العداوة أنهم زعموا أنه أمر أن يجعل النبوة فيهم : أى يجعل النبى المنتظر فى بنى إسرائيل الذين هم أولاد إسحاق فجعلها فى غيرهم : أى فى ولد إسماعيل .

وقيل سبب عداوتهم لجبريل أنه أنزل على نبيهم أن بيت المقدس سيخربه بختنصر فبعثوا من يقتله من أعظم بنى إسرائيل قوة ، فأراد قتله فمنعه عنه جبريل وقال : إن كان ربكم أمره بإهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ، فصدقه ورجع عنه .

أى فإن بنى إسرائيل لما اعتدوا وقتلوا شعياء جاء بختنصر ملك فارس وحاصر بيت المقدس وفتحها عنوة وأحرق التوراة وخرب بيت المقدس .

وقيل فى سبب العداوة كونه يطلع النبى صلى الله عليه وسلم على سرهم ، ولا مانع من أن يكون كل ذلك سببا للعداوة .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أما أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت » أى وهى القطعة المنفردة المعلقة بالكبد . قال بعضهم : وهى فى الطعم فى غاية اللذة . ويقال إنها أهنأ طعام وأمرؤه .

وروى «أن الثور ينطح الحوت بقرنه فيموت فتأكل منه أهل الجنة ، ثم يحيا فينحر الثور بذنبه فتأكله أهل الجنة ، ثم يحيا ، قال : وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إليه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إليها » أى لكن فى فتح البارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها « إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه أعمامه ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه أخواله » والمراد بالعلو السبق .

وعن ثوبان « إذ علا منىّ الرجل منىّ المرأة جاء الولد ذكراً ، وإن علا منىّ المرأة منى الرجل جاء أنثى » والعلو فيه على بابه هذا كلامه ، أى وإذا استوى المـاآن جاء خنثى وفى رواية « قالوا له صلى الله عليه وسلم : أين تكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ ومن أول الناس إجازة وما تحفتهم » أى الناس حين يدخلون الجنة «وماغذاؤهم على أثره ، وما شرابهم عليه ؟ فأجابهم عليه الصلاة والسـلام بأنهم يكونون فى ظلمة دون الجسر » ولعل المراد بالجسر الصراط ، لكن فى رواية مسلم « أين الناس يومئذ ؟ قال : على الصراط » ثم رأيت عن البيهقى أن قوله : على الصراط مجاز لكونهم بمجاورته .

ونقل القرطبى على صاحب الإفصاح أن الأرض والسماء يتبدلان مرتين .

المرة الأولى : تتبدل صفتهما فقط ، وذلك قبل نفخة الصعق فتتناثر كواكبها ، وتخسف الشمس والقمر وتتناثر السماء كالمهل ، وتنكشط الأرض ، وتسير الجبال .

والمرة الثانية : تتبدل ذاتهما ، وذلك إذا وقفوا فى المحشر ، فتتبدل الأرض بأرض من فضة لم يقع عليها معصية وهى الساهرة : أى والسماء تكون من ذهب كما جاء عن على رضى الله تعالى عنه .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفأها الجبار كما يكفأ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة ، فيأكل المؤمن من تحت رجليه ، ويشرب من الحوض » .

قال الحافظ ابن حجر : ويستفاد منه أن المؤمنين لا يعذبون بالجوع فى طول زمان الموقف ، بل يقلب الله بقدرته طبع الأرض خبزا حتى يأكلون منها من تحت أقدامهم ما شاء الله من غير علاج ولا كلفة .

قال : ويؤيد أن علينا نزاد الحديث ما جاء « تبدل الأرض بيضاء مثل الخبزة يأكل منها أهل الإسلام حتى يفرغوا من الحساب » هذا كلامه ، فليتأمل مع ما قبله من أن الأرض تبدل بأرض من فضة ، وأن هذا يدل على أن تلك الأرض التي تكون خبزة تكون في موقف الحساب . ومما جاء عن عليّ رضي الله تعالى عنه يدل على أنها تكون بعد مجاوزتهم الصراط « وأول الناس إجازة فقراء المهاجرين ، وتحفة أهل الجنة حين يدخلونها زيادة كبد النون » أي الحوت « وغذاؤهم ينحر لهم ثور الجنة التي يأكل من أطرافها ، وشرابهم من عين تسمى سلسبيلا . وسألوه صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا عن علامة النبي ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : تنام عيناه ولا ينام قلبه . وسألوه أي طعام حرم إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة ؟ قال : أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا وطال سقمه ، فنذر لله لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمنّ أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه ، فكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ قالوا : اللهم نعم » أي حرمهما ردعا لنفسه ومنعا لها عن شهواتها . وقيل لأنه كان به عرق النسا وكان إذا طعم ذلك هاج به .

وذكر أن سبب نزول قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) قول اليهود له صلى الله عليه وسلم « كيف تقول إنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها وكان ذلك محرما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا أي علمه في التوراة ، فنحن أولى الناس بإبراهيم منك ومن غيرك ، فأنزل الله تعالى الآية تكذيبا لهم » أي بأن هذا إنما حرمه يعقوب على نفسه ، ومن ثم جاء فيها (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) .

وكانت اليهود إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها أي وفي كلام الواحدي قال المفسرون : كانت العرب في الجاهلية إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها في بيت كفعل المجوس هذا كلامه « فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك » أي قال له بعض الأعراب « يارسول الله البرد شديد والثياب قليلة ، فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت ، وإن استأثرنا بها هلك الحيض فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) الآية ، فقال لهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم : اصنعوا كل شئ إلا النكاح » أى الوطء وما فى معناه ، وهو مباشرة ما بين السرة والركبة ، أى فإن الآية لم تنص إلا على عدم قربانهن بالوطء فى الحيض .

ومن ثم جاء فى رواية « إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت ، فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالا إن اليهود قالت كذا فهلا نجامعهن ؟ أى نوافقهن ، فتغير وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » أى وعند ذلك قال بعض الصحابة « فظننا أنه قد وجد أى غضب عليهما فلما خرجا استقبلتهما هدية من لبن إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأرسل فى أثرهما فسقاهما ، فعرفنا أنه لم يجد عليهما » .

وذكر المفسرون أن فى منع الوطء للحائض اقتصادا من إفراط اليهود وتفريط النصارى ، فإنهم لا يمتنعون من وطء الحيض ، أى وذكر أن ابن سلام وغيره ممن أسلم من يهود استمروا على تعظيم السبت وكراهة أكل لحم الإبل وشرب ألبانها ، فأنكر ذلك عليهم المسلمون فقالوا : إن التوراة كتاب الله فنعمل به أيضاً ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) : أى وفى رواية « قالوا له ما هذا السواد الذى فى القمر ؟ فأجابهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك بأنهما كانا شمسين أى شمس فى الليل وشمس فى النهار ، قال الله تعالى (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) فالسواد الذى يرى هو المحو » أى أثره . قال بعضهم فى قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) أن الليل ذكر والنهار أنثى ، فالليل كآدم والنهار كحواء .

وقد ذكر أن الليل من الجنة والنهار من النار ، ومن ثم كان الأنس بالليل أكثر . وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من علماء اليهود : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال لا ، قال أتقرأ التوراة ؟ قال نعم ، قال : والإنجيل ؟ قال نعم ، فناشده هل تجدنى فى التوراة والإنجيل ؟ قال : نجد مثلك ومثل مخرجك ومثل هيئتك ، فلما خرجت خفنا أن تكون أنت ، فنظرنا فإذا أنت لست هو ، قال : ولم ذاك ؟ قال : معه من أمته سبعون ألفا ليس عليهم حساب ولا عذاب ، وإنما معك نفر يسير ، قال : والذى نفسى بيده لأنا هو وإنهم لأكثر من سبعين ألفا وسبعين ألفا » وقد سأله صلى الله عليه وسلم اليهود عن الرعد أى

والبرق فقال « صوت ملك موكل بالسحاب يسوقه أى بمخراق من نار فى يده يزجر به السحاب إلى حيث أمره الله تعالى ».

وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال « البرق مخاريق من نار بأيدى ملائكة يزجرون به السحاب » والمخراق المنديل يلف ليضرب به ، أى وحينئذ فالمراد بالملك الجنس . وفى رواية « إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك ، ومنطقها الرعد ، وضحكها البرق » .

وفى بعض الآثار « لله ملائكة يقال لهم الحيات ، فاذا حركوا أجنحتهم فهو البرق » أى وتحريكهم لأجنحتهم يكون غالبا عند الرعد ، لأن الغالب وجود البرق عند الرعد .

وعن بعضهم قال : بلغنى أن البرق ملك له أربعة وجوه ، وجه إنسان ، ووجه ثور ووجه نسر ، ووجه أسد ، فإذا مصع بذنبه ، أى حركه فذلك البرق ، أى وتحريكه غالبا يكون عند وجود الرعد .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « البرق ملك يتراءى » أى يظهر ويغيب وفى رواية « الرعد ملك يزجر السحاب ، والبرق طرف ملك » أى ينظر به عند وجود الرعد غالبا . وفى رواية « إن ملكا موكل بالسحاب فى يده مخراق ، فإذا رفع برقت ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضربه صعقت » .

وعن مجاهد : « الرعد ملك ، والبرق أجنحته يسوق بها السحاب » فيكون المسموع صوته أو صوت سوقه ، فليتأمل الجمع بين هذه الروايات .

وذهب الفلاسفة إلى أن الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب ، والبرق ما ينقدح من اصطكاكها ، فقد زعموا أن عند اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض تخرج نار لطيفة حديدة لا تمر بشئ إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود .

وقيل فى سبب نزول قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) أن اليهود أنكروا النسخ فقالوا ، ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا فنزلت .

« وسألوه صلى الله عليه وسلم مم يخلق الولد ؟ فقال : يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، أما نطفة الرجل فنطفة غليظة أى بيضاء منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة أى صفراء منها اللحم والدم ؛ فقالوا : هكذا كان يقول من قبلك أى

من الأنبياء » وتقدم فى ترجمة سطيح إيراد عيسى عليه الصلاة والسلام على ذلك، أى وقالوا إغاظة له صلى الله عليه وسلم ما نرى لهذا الرجل همة ، إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ؛ فأنزل الله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) .

فقد جاء « إنه كان لسليمان عليه الصلاة والسلام مائة امرأة وتسعمائة سرية » .

« وسألوه صلى الله عليه وسلم عن رجل زنى بامرأة بعد إحصانه : أى كان شريفا من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان ، فكرهوا رجمهما لشرفهما ، فبعثوا رهطا منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى قالوا لهم إن هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرجم ولكنه الضرب ، فسألوه فأجابهم بالرجم ؛ فلم يفعلوا ذلك فقال لجمع من علمائهم : أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أما تجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان الرجم ؟ فأنكروا ذلك ؛ فقال عبد الله بن سلام كذبتم ، فإن فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة ، فوضع واحد منهم يده على تلك الآية ، فقال له ابن سلام ارفع يدك عنها فرفعها فإذا آية الرجم .

أقول : هذا كان فى السنة الرابعة ، وهو يخالف ما فى بعض الروايات «أن بعض أحبار يهود أى وهم كعب بن الأشرف وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبى الحقيق اجتمعوا فى بيت المدراس حين قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وقد زنى رجل من يهود بعد إحصانه بامرأة محصنة من اليهود وقالوا : إن أفتانا بالجلد أخذنا به واحتججنا بتتواه عند الله ، وقلنا : فتيا نبى من أنبيائك ، وإن أفتانا بالرجم خالفناه ، لأنا خالفنا التوراة فلا علينا من مخالفته » .

وفى رواية الصحيحين عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلا زنيا : أى بعد إحصان، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ قالوا : نفضحهما : أى بأن نسود وجوههما ، ثم يحملان على حمارين وجوههما من قبل إدبار الحمار » وفى لفظ « يحملان على الحمار ، وتقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما ويجلدان ، أى بحبل من ليف مطلى بقار ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن

سلام : ارفع يدك ؛ فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدقت يا محمد ، فيها آية الرجم » .

وقد جاء « إن موسى عليه الصلاة والسلام خطب بنى إسرائيل فقال : يابنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت » والله أعلم .

قال « ولما جاءوا إليه صلى الله عليه وسلم قالوا : ياأبا القاسم ماترى فى رجل وامرأة زنيا : أى بعد إحصان فقال لهم : ماتجدون فى التوراة ؟ فقالوا : دعنا من التوراة ، فقل لنا ما عندك فأفتاهم بالرجم فأنكروه ، فلم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى بيت مدراسهم ، فقام على الباب فقال : يامعشر يهود أخرجوا إلىّ أعلمكم ، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب ووهب بن يهود ، فقالوا : هؤلاء علماؤنا ، فقال أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ماتجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان قالوا : يحم أى يعير ويجتنب ، فقال عبد الله بن سلام كذبتم فإن فيها آية الرجم » أى وفى رواية « لما سألهم وأجابوه إلا شابا منهم فإنه سكت ، فألح عليه صلى الله عليه وسلم فى النشدة فقال : اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم ، ولكن رأينا أنه إن زنى الشريف جلدناه والوضيع رجمناه كان من الحيف ، فاتفقنا على مانقيمه على الشريف والوضيع وهو ماعلمت فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحكم بما فى التوراة » ولعل هذا الشاب ابن صوريا ، ففى الكشاف «أنه لما أمرهم عليه الصلاة والسلام بالرجم فأبوا أن يأخذوا به ، فقال له جبريل عليه السلام : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا حكما » أى ووصفه له جبريل « فقال صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا ؟ قالوا نعم ؛ وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى فى التوراة ورضوا به حكما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله الذى لاإله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى وفلق البحر ؛ ورفع فوقكم الطور ، وأنجاكم ، وأغرق فرعون ، وظلل عليكم الغمام ، وأنزل عليكم المنّ والسلوى والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه ، هل تجدون فيه الرجم على من أحصن ؟ قال : نعم ، فوثب عليه سفلة اليهود ، فقال : خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب » ، وفى رواية « قال نعم ، والذى ذكرتنى به لولا خشيت أن تحرقنى التوراة إن كذبتك مااعترفت لك ، ولكن كيف

هي في كتابك يامحمد ؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم ، فقال ابن صوريا : والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى » فليتأمل الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها « ثم سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء يعرفها من أعلامه ، فقال : أشهد أن لاإله إلا الله وأنك رسول الله النبي الأمي » وهذا مما يدل على إسلامه ، وتقدم إنكار صحته عن الحافظ ابن حجر » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتوا بالشهود ، فجاءوا بأربعة فشهدوا أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة، فأمر بهما فرجما عند باب مسجده صلى الله عليه وسلم » قال ابن عمر : فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة، فكان ذلك سببا لنزول قوله تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ولنزول قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) وفى آية أخرى (فأولئك هم الفاسقون) وفى أخرى (فأولئك هم الكافرون) .

وعن عمرو بن ميمون قال : رأيت الرجم فى الجاهلية فى غير بنى آدم ، كنت فى اليمن فى غنم لأهلى ، فجاء قرد ومعه قردة فتوسد يدها ونام،فجاء قرد أصغر منه فغمزها فسلت يدها من تحت رأس القرد برفق وذهبت معه، ثم جاءت فاستيقظ القرد فزعا فشمها فصاح فاجتمعت القردة ، فجعل يصيح ويومى إليها بيده ، فذهبت القردة يمنة ويسرة، فجاءوا بذلك القرد ، فحفروا لهما حفرة فرجموهما . وفى لفظ : رأيت فى الجاهلية قردة زنت فرجموها يعنى القردة ورجمتها معهم :

قال فى الإستيعاب : وهذا عند جماعة من أهل العلم منكر لإضافة الزنا إلىغير المكلف وإقامة الحدود فى البهائم ، ولو صح هذا لكانوا من الجن ،لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما ، هذا كلامه فليتأمل والله أعلم .

وقد ذكر غير واحد أن أحبار يهود غيروا صفته صلى الله عليه وسلم التى فى التوراة خوفا على انقطاع نفقتهم ، فانهم كانت على عوامهم لقيامهم بالتوراة ، فخافوا أن تؤمن عوامهم فتنقطع عنهم النفقة ، أى وكانوا يقولون لمن أسلم : لاتنفقوا مالكم على هؤلاء ، يعنى المهاجرين فإنا نخشى عليكم الفقر ، فأنزل الله تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) أى من صفة النبى صلى الله عليه وسلم التى يجدونها فى كتابهم ، فقد كان فيه « أكحل عين ، ربعة جعد الشعر ، حسن الوجه ، فمحوه وقالوا

نجده طويلا ، أزرق العين ، سبط الشعر ، وأخرجوا ذلك إلى أتباعهم ، وقالوا : هذا نعت النبي الذى يخرج آخر الزمان ، وعند ذلك أنزل الله تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) الآية .

وكان اليهود إذا كلموا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا راعنا سمعك واسمع غير مسمع ، ويضحكون فيما بينهم ، أى لأن ذلك كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بلسان اليهود السب القبيح ، فلما سمع المسلمون منهم ذلك ظنوا أن ذلك شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ، فصاروا يقولون ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، ففطن سعد بن معاذ لليهود يوما وهم يضحكون . فقال لهم : ياأعداء الله لئن سمعنا من رجل منكم هذا بعد هذا المجلس لأضربن عنقه : فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا أنظرنا) .

وفى رواية أن اليهود لما سمعوا الصحابة رضي الله تعالى عنهم تقول له صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئا : يارسول الله راعنا : أى انتظرنا وتأن علينا حتى نفهم، وكانت هذه الكلمة عبرانية تتسابب بها اليهود، فلما سمعوا المسلمين يقولون له صلى الله عليه وسلم راعنا خاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم براعنا يعنون بها تلك السبة ، ومن ثم لما سمع سعد ابن معاذ ذلك من اليهود قال لهم: يا أعداء الله عليكم لعنة الله، والذى نفسى بيده إن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه ، فقالوا: ألستم تقولونها فنزلت « وجاءه صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود بأطفالهم ، فقالوا له : يامحمد هل على أولادنا هؤلاء من ذنب ؟ قال لا ، فقالوا : والذى يحلف به مانحن إلا كهيئتهم ، مامن ذنب نعمله بالليل إلا كفر عنا بالنهار وما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا بالليل ، فأنزل الله تعالى (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) الآية .

وجاء « أن أحبار يهود منهم ابن صوريا : أى قبل أن يسلم على ماتقدم وشاس بن قيس وكعب بن أسيد اجتمعوا وقالوا نبعث إلى محمد لعلنا نفتنه فى دينه ، فجاءوا إليه صلى الله عليه وسلم فقالوا: يامحمد قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم ، وإن اتبعناك اتبعك كل اليهود وبيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم فنؤمن بك ، فأبى ذلك عليهم فنزل قوله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) الآية » .

ومن اليهود من دخل فى الإسلام تقية من القتل ، لما قهرهم الإسلام بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فكان هواهم مع يهود فى السر ، أى وهم المنافقون .

وقد ذكر بعضهم « أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة منهم الجلاس بجيم مضمومة فلام مخففة فألف فسين مهملة ابن سويد بن الصامت قال يوما إن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد رضى الله تعالى عنه ، وهو ابن زوجة جلاس ، أى فإن الجلاس كان زوجا لأم عمير ، وكان عمير يتيما فى حجره ولا مال له ، وكان يكفله ويحسن إليه ، فجاء الجلاس ليلة فاستلقى على فراشه . فقال : لئن كان مايقوله محمد حقا فلنحن شر من الحمير . فقال له عمير : ياجلاس إنك لأحب الناس وأحسنهم عندى يدا ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ؛ أى سكت عنها ليهلكن علىّ دينى ولأحداهما أيسر على من الأخرى فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له مقالة جلاس ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جلاس ، فحلف بالله لقد كذب علىّ عمير وما قلت ما قال عمير . فقال عمير : بلى والله لقد قلته فتب إلى الله ، ولولا أن ينزل القرآن فيجعلنى معك ماقلته » .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم استحلف الجلاس عند المنبر ، فحلف أنه ما قال ، واستحلف الراوى عنه فحلف لقد قال وقال : اللهم أنزل على نبيك تكذيب الكاذب وتصديق الصادق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين ، فنزل قوله تعالى (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى قوله (فان يتوبوا يك خيرا لهم) فاعترف الجلاس وتاب ، وقبل منه صلى الله عليه وسلم توبته ، وحسنت توبته ، ولم ينزع عن خير كان يصنعه مع عمير ؛ فكان ذلك مما عرف به حسن توبته ، فقال صلى الله عليه وسلم لعمير : وقيت أذنك » .

ومنهم نبتل بنون مفتوحة فوحدة ساكنة فمثناة فوقية مفتوحة فلام ابن الحارث قال النبى صلى الله عليه وسلم « من أحبّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث ، كان يجلس إليه صلى الله عليه وسلم ثم ينقل حديثه للمنافقين ، وهو الذى قال لهم : إنما محمد أذن ، من حدثه بشىء صدقه فأنزل الله تعالى فيه (ومنهم الذين يؤذون النبىّ ويقولون هو أذن) الآية » .

وجاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له « يجلس إليك رجل معك صفته كذا ، فقال : أى للحديث الذى تحدث به ، كبده أغلظ من كبد الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره » .

ومنهم عبد الله بن أبى ابن سلول وهو رأس المنافقين ، ولاشتهاره بالنفاق لم يعد فى الصحابة ، وكان من أعظم أشراف أهل المدينة ، وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، أى كما تقدم ، لأن الأنصار من آل قحطان . ولم يتوج من العرب إلا قحطان ، ولم يبق من الخرز إلا خرزة واحدة كانت عند شمعون اليهودى ، فلما جاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم انصرف عنه قومه إلى الإسلام فضغن : أى أضمر العداوة ، لأنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكا عظيما ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق ، أى وكان له إماء يكرههن على الزنا ليأخذ أجورهن ، فأنزل الله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية .

وقد قيل فى سبب نزول قوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم ، فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله تعالى عنهم . فقال عبد الله بن أبى : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فأخذ بيد أبى بكر ، فقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ بيد عمر ، فقال : مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ بيد على فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم افترقوا فقال له على : اتق الله يا عبد الله ولاتنافق، فإن المنافقين شر خليقة الله تعالى ، فقال له عبد الله : مهلا يا أبا الحسن ، إلى تقول هذا ؟ والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم . فقال لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت ؟ فأثنوا عليه خيرا فنزلت .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « مثل المنافق مثل الشاة العايرة بين الغنمين » أى المترددة بينهما تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة .

وفى السنة الأولى من الهجرة أعرس صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله تعالى عنها كذا فى الأصل . وفى المواهب أن ذلك كان فى السنة الثانية من الهجرة فى شوال على رأس ثمانية عشر شهرا ، وقيل بعد سبعة أشهر ، وقيل بعد ثمانية أشهر من مقدمه صلى الله عليه وسلم .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها « تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى بى فى شوال فأىّ نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أحظى عنده منى » أى فما توهمه بعض الناس من التشاؤم بذلك ، لكونه بين العيدين ، فتحصل المفارقة بين الزوجين لا عبرة به ولا التفات إليه .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بيتنا واجتمع إليه رجال ونساء من الأنصار ، فجاءتنى أمى وإنى لفى أرجوحة بين عذقين » أى نخلتين « فأنزلتنى من الأرجوحة ولى جميمة » أى شعر « لأنى وعكت » أى مرضت « لما قدمنا المدينة » أى أصابتها الحمى .

فعن البراء رضى الله تعالى عنه قال « دخلت مع أبى بكر الصديق على أهله فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها الحمى ، فرأيت أباها يقبل خدها ويقول : كيف أنت يا بنية ؟ قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : فتمزق شعرى ، ففرقتها ومسحت وجهى بشىء من ماء ثم أقبلت تقودنى حتى وقفت بى عند الباب وإنى لأنهج حتى سكن نفسى ، ثم دخلت بى ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على سرير فى بيتنا وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأجلستنى فى حجره ، ثم قالت : هؤلاء أهلك ، بارك الله لك فيهم ، وبارك لهم فيك ، فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، وبنى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتنا » أى فقد بنى بها نهارا .

وفى الصحاح : العامة تقول : بنى بأهله وهو خطأ ، وإنما يقال بنى على أهله ، قال الحافظ ابن حجر : ولا يغنى عن الخطأ كثرة استعمال الفصحاء له : أى كاستعمال عائشة له هنا . وفى الاستيعاب وأقره، عن عائشة رضى الله تعالى عنها «أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه قال : يا رسول الله ما يمنعك أن تبنى بأهلك ؟ قال : الصداق ، فأعطاه أبو بكر اثنتى عشرة أوقية ونشا ، فبعث بها إلينا وبنى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى هذا الذى أنا فيه ، وهو الذى توفى به ، ودفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وفيه أن سياق ما تقدم وما يأتى يدلّ على أنه إنما دخل بها فى بيت أبيها بالسنح .

ثم رأيت بعضهم صرح بذلك ، فقال « كان دخوله بها عليه الصلاة والسلام بالسنح نهارا » وهذا خلاف ما يعتاده الناس اليوم هذا كلامه . وفى رواية عنها « أتتنى أمى وإنى لفى أرجوحة مع صواحب لى فصرخت بى ، فأتيتها ما أدرى ما تريد منى ، فأخذت بيدى

حتى وقفت بى على باب الدار وأنا أنهج حتى سكن بعض نفسى ، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهى ورأسى ، ثم أدخلتنى الدار فإذا نسوة من الأنصار فى البيت فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتنى إليهن وأصلحن من شأنى ، فلم يرعنى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتنى إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » قال بعضهم : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة ولعبتها معها .

أى وعنها رضى الله تعالى عنها أنها كانت تلعب بالبنات أى اللعب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تأتيها جويريات يلعبن معها بذلك ، وربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيرهن إليها : أى يطلبهن لها ليلعبن معها . قالت « وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أو حنين ، فهبت ريح فكشفت ناحية من ستر على صفة فى البيت عن بنات لى ، فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قلت : بناتى ، ورأى بينهن فرسا لها جناحان من رقاع ، قال : وماهذا الذى أرى وسطهن ؟ قلت : فرس . قال : وماهذا الذى عليه ؟ قلت جناحان ، قال : جناحان ! قلت : أماسمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه » وفيه هلا أمرها بتغيير ذلك .

وأجيب بأن هذا مستثنى من عدم جواز تصوير ذى الروح ، وقولها « أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة » وإقراره صلى الله عليه وسلم لها على ذلك يدل على صحته .

ثم رأيت بعضهم أورد أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة ، وقد ذكرت ذلك عند الكلام على إسمعيل صلوات الله وسلامه عليه فى أوائل هذه السيرة .

وعنها رضى الله تعالى عنها أيضا أنها قالت : « وما نحرت علىّ جزور ولا ذبحت علىّ شاة ، أى عند بنائه بها صلى الله عليه وسلم حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنته التى كان يرسلها ، وأرسل بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى وفى كلام بعضهم : وروى « أنه صلى الله عليه وسلم ما أولم على عائشة رضى الله تعالى عنها بشىء غير أن قدحا من لبن أهدى من بيت سعد بن عبادة ، فشرب النبى صلى الله عليه وسلم بعضه وشربت عائشة رضى الله تعالى عنها باقيه » .

أقول : يجوز أن يكون سعد رضى الله تعالى عنه أرسل بالقدح من اللبن وبالجفنة ، وأن بعض الرواة اقتصر على أحدهما .

ثم لا يخفى أنه يجوز أن تكون الرواية الأولى واقعة بعد هذه الرواية الثانية ، وأنها

ذهبت إلى الأرجوحة ثانيا بعد أن أصلح النساء من شأنها ، وفعلت بها أمها ماذكر ، وأنه وقع الاقتصار فى الرواية الأولى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

باب ذكر مغازيه صلى الله عليه وسلم

ذكر أن مغازيه : أى وهى التى غزا فيها بنفسه كانت سبعا وعشرين ، أى وهى : غزوة بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة سفوان ، ثم غزوة بدر الكبرى ، ثم غزوة بنى سليم ، ثم غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة قريرة الكدر ، ثم غزوة غطفان وهى غزوة ذى أمر ، ثم غزوة نجران بالحجاز ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع وهى غزوة محارب وبنى تغلبة ، ثم غزوة بدر الآخرة وهى غزوة بدر الموعد ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة بنى المصطلق ويقال لها المريسيع ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة الحديبية ، ثم غزوة ذى قرد ويقال لها قرد بضمتين . وهو فى اللغة : الصوف الردىء ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة وادى القرى ، ثم غزوة عمرة القضاء ، ثم غزوة فتح مكة ، ثم غزوة حنين والطائف ، ثم غزوة تبوك .

والتى وقع فيها القتال من تلك الغزوات : أى وقع القتال فيها من أصحابه وهو المراد بقول بعضهم كالأصل التى قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع ، وهى : غزوة بدر الكبرى وأحد والمريسيع ؛ أعنى بنى المصطلق والخندق وقريظة وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف ، أى وبعضهم أسقط فتح مكة . قال النووى رحمه الله : ولعل مذهبه أنها فتحت صلحا كما قال إمامنا الشافعى وموافقوه ، أى فيصح بيع دورها وإجارتها ، واستدل لذلك بأنها لو كانت فتحت عنوة لقسمها بين الغانمين ، وسيأتى الجمع بأن أسفلها فتح عنوة ، أى لوقوع القتال فيه من خالد بن الوليد مع المشركين ؛ وأعلاها فتح صلحا لعدم وجود القتال فيه .

وفى الهدى : من تأمل الأحاديث الصحيحة وجدها كلها دالة على قول الجمهور إنها فتحت عنوة : أى لوقوع القتال بها .

ومما يدل على ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يصالح أهلها عليها ، وإلا لم يحتج إلى

قوله « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن إلى الخ » وإنما لم يقسمها لأنها دار المناسك ، فكل مسلم له فيها حق .

أقول : هذا واضح فى غير دورها ، وسيأتى الجواب عن ذلك ، وبما قررناه يعلم أن قول المواهب قاتل صلى الله عليه وسلم فى تسع بنفسه ، فيه نظر ظاهر ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقاتل بنفسه فى شيء من تلك الغزوات إلا فى أحد كما سيأتى ، وكأنه اغتر فى ذلك بقول بعضهم المتقدم قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت المراد منه والله أعلم .

ولا يخفى أنه صلى الله عليه وسلم مكث بضع عشرة سنة ينذر بالدعوة بغير قتال ، صابرا على شدة أذية العرب بمكة ، واليهود بالمدينة له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه لأمر الله تعالى له بذلك : أى بالإنذار والصبر على الأذى والكف بقوله (وأعرض عنهم) وبقوله (واصبر) ووعده بالفتح ، أى فكان يأتيه أصحابه بمكة مابين مضروب ومشجوج فيقول صلى الله عليه وسلم لهم « اصبروا ، فإنى لم أومر بالقتال » لأنهم كانوا بمكة شرذمة قليلة. ثم لما استقر أمره صلى الله عليه وسلم : أى بعد الهجرة وكثرت أتباعه ، وشأنهم أن يقدموا محبته على محبة آبائهم وأبنائهم وأزواجهم ، وأصر المشركون على الكفر والتكذيب أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أى ولأصحابه فى القتال ، أى وذلك فى صفر من السنة الثانية من الهجرة ، لكن لمن قاتلهم وابتدأهم به بقوله (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) قال بعضهم : ولم يوجبه بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) أى للمؤمنين أن يقاتلوا (بأنهم ظلموا) أى بسبب أنهم ظلموا (وإن الله على نصرهم لقدير) ، أى فكان ذلك القتال عوضا من العذاب الذى عوملت به الأمم السالفة لما كذبت رسلهم .

وذكر فى سبب نزول قوله تعالى (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية « أن جماعة منهم عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، وقدامة بن مظعون ، وسعد بن أبى وقاص ، وكانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا بمكة ، فقالوا : يا رسول الله كنا فى عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فأذن لنا فى قتال هؤلاء ، فيقول لهم : كفوا أيديكم عنهم ، فإنى لم أومر بقتالهم . فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمر بالقتال للمشركين كرهه بعضهم وشق عليه ذلك ، فأنزل الله تعالى الآية » .

لا يقال : يدل لما تقدم من أنه قاتل صلى الله عليه وسلم بنفسه فى تلك الغزوات ماجاء

عن بعض الصحابة «كنا إذا لقينا كتيبة أوجئنا أول من يضرب النبي صلى الله عليه وسلم» لأنى أقول لايبعد أن يكون المراد بالضرب السير فى الأرض : أى أول من يسير إلى تلقاء العدو . ويؤيده ما جاء عن علىّ رضى الله تعالى عنه «لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس بأسا ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه صلى الله تعالى عليه وسلم» .

وفى رواية «كنا إذا حمى البأس والتقى القوم بالقوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم» أى كان وقاية لنا من العدوّ .

وقد نقل إجماع المسلمين على أنه لم يرو أحد قط أنه صلى الله عليه وسلم انهزم بنفسه فى موطن من المواطن ، بل ثبتت الأحاديث الصحيحة بإقدامه صلى الله عليه وسلم وثباته فى جميع المواطن .

لا يقال : سيأتى فى غزوة بدر عن السيرة الهشامية غير معزوّ لأحد أنه قاتل بنفسه قتالا شديدا ، وكذلك أبو بكر رضى الله عنه وكانا فى العريش يجاهدان بالدعاء ، فقاتلا بأبدانهما جمعا بين المقامين وأيضا سيأتى فى خيبر ما قد يدل على أنه صلى الله عليه وسلم قاتل بنفسه .

لأنا نقول : سيأتى ما فى ذلك مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يباشر القتال إلا فى أحد كما سيأتى ، ولم تقاتل معه الملائكة إلا فى بدر وإلا فى حنين . قيل وأحد ، وسيأتى ما فى ذلك ، ولم يرم صلى الله عليه وسلم بالحصباء فى وجوه العدوّ فى شىء من الغزوات إلا فى هذه الثلاثة على خلاف فى الثلاثة ، أى ولم يجرح أى لم يصبه جراحة فى غزوة من الغزوات إلا فى أحد ، ولم ينصب المنجنيق فى غزوة من الغزوات إلا فى غزوة الطائف ، وفيه أنه نصبه على بعض حصون خيبر ، وسيأتى الجمع بينهما ، ولم يتحصن بالخندق فى غزوة إلا فى غزوة الأحزاب .

ثم لا يخفى أن الآية المذكورة : أى التى هى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال بعضهم : هى أول آية نزلت فى شأن القتال ، ولما نزلت أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» أى وفى لفظ «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى

دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى ، قيل : وما حقها ؟ قال زنا بعد إحصان وكفر بعد إسلام ، أو قتل نفس » .

أقول : وظاهر هذا السياق يقتضى أن الآية فيها الأمر له صلى الله عليه وسلم بالقتال المذكور . وقد يتوقف فى ذلك ، ولعله أمر بذلك بغير الآية المذكورة ، لأن الآية إنما هى ظاهرة فى الإباحة والمباح ليس مأمورا به ، وحينئذ يكون قوله فى الآية الأخرى وهى (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) للإباحة ، لأن صيغة أفعل تأتى لها وإن كان الأصل فيها الوجوب .

وعلى أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أمرت » وأن أمره كان بغير هذه الآية يحمل على أن المراد الندب ، لأن الأمر مشترك بين الوجوب والندب ، فلا ينافى ما تقدم من أنه لم يكن وجب عليهم القتال حينئذ ، والله أعلم .

ثم لما رمتهم العرب قاطبة عن قوس ، وتعرضوا لقتالهم من كل جانب كانوا لا يبيتون إلا فى السلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ويقولون ترى نعيش حتى نبيت مطمئنين لانخاف إلا الله عز وجل ؛ أنزل الله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) ثم أذن فى القتال ، أى أبيح الابتداء به حتى لمن لم يقاتل أى لكن فى غير الأشهر الحرم أى التى هى رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، أى بقوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) الآية ثم أمر به وجوبا أى بعد فتح مكة فى السنة الثانية مطلقا ، أى من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله (وقاتلوا المشركين كافة) أى جميعا فى أى زمن .

فعلم أن القتال كان قبل الهجرة وبعدها إلى صفر من السنة الثانية محرّما ، أى لأنه كان فى ذلك مأمورا بالتبليغ ، وكان إنذارا بلا قتال ، لأنه نهى عنه فى نيف وسبعين آية ثم صار مأذونا له فيه أى أبيح قتال من قاتل ثم أبيح قتال من لم يبدأ به فى غير الأشهر الحرم ، ثم أمر به مطلقا : أى لمن قاتل ومن لم يقاتل فى كل زمن ؛ أى فى الأشهر الحرم وغيرها .

وظاهر كلام الإمام الإسنوى أن القتال فى الحالة الثانية كان مأمورا به لا مباحا كالحالة الأولى . وعبارته : لما بعث صلى الله عليه وسلم أمر بالتبليغ والإنذار بلا قتال ، فقال (وأعرض عنهم) وقال (واصبر) ثم أذن له بعد الهجرة فى القتال إن ابتدءوا به فقال (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) ثم أمر بذلك ابتداء ولكن فى غير الأشهر الحرم فقال (فإذا انسلخ

الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) ثم أمر به مطلقا فقال (وقاتلوا المشركين كافة) هذا كلامه .

ولا يخفى أن الإسنوى ممن يرى أن «أمر» للوجوب، وهو يقتضى أن يكون الأمر به فى الحالة الثانية للوجوب. والراجح ماعلمت أن «أمر» مشترك بين الوجوب والندب ، وأنه فى الحاله الثانية مباح لامأمور به .

ثم استقر أمر الكفار معه صلى الله عليه وسلم بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام :

القسم الأول محاربون له صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء المحاربون إذا كانوا ببلادهم يجب قتالهم على الكفاية فى كل عام مرة أى يكفى ذلك فى إسقاط الحرج كإحياء الكعبة ، واستدل لذلك بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) أى فهلا نفر . وقيل كان فرض عين ، لقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك . ويحتاج إلى الجواب عـــن ذلك .

وقيل كان فرض كفاية فى حق الأنصار ، وفرض عين فى حق المهاجرين .

والقسم الثانى أهل عهد وهم المؤمنون من غير عقد الجزية : أى صالحهم ووادعهم على أن لايحاربوه ولايظاهروا عليه عدوّهم ، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم .

والقسم الثالث أهل ذمة : أى وهم من عقدت لهم الجزية .

وهناك قسم آخر، وهو من دخل فى الإسلام تقية من القتل وهم المنافقون كما تقدم. وأمر صلى الله عليه وسلم أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، فكان معرضا عنهم إلا فيما يتعلق بشعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة فلا يخالف مارواه الشيخان « لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلا فيصلى بالناس ، ثم أنطلق معى برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لايشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » فقد ذكر أئمتنا أن ذلك ورد فى قوم منافقين يتخلفون عن الجماعة ولايصلون : أى أصلا بدليل السياق ، أى لأن صدر الحديث « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر » أى جماعتهما « ولو يعلمون مافيهما لأتوهما ولو حبوا ، ولقد هممت الخ » .

وفى الخصائص الصغرى : وكان الجهاد فى عهده صلى الله عليه وسلم فرض عين فى أحد الوجهين عندنا ، وكان إذا غزا بنفسه صلى الله عليه وسلم يجب على كل أحد الخروج معه ، لقوله تعالى (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) ومن ثم وقع لمن تخلف عنه فى غزوة تبوك ماوقع .

وأما بعده صلى الله عليه وسلم فللكفار حالان مذكوران فى كتب الفقه . وعند الإذن له صلى الله عليه وسلم فى القتال خرج لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة : أى مكث بالمدينة باقى الشهر الذى قدم فيه وهو شهر ربيع الأول وباقى ذلك العام كله إلى صفر من السنة الثانية من الهجرة .

« فخرج صلى الله عليه وسلم غازيا حتى بلغ ودّان » بفتح الواو وتشديد الدال المهملة آخره نون : وهى قرية كبيرة ، بينها وبين الأبواء ستة أميال أو ثمانية . والأبواء بالمد : قرية كبيرة بين مكة والمدينة كما تقدم ؛ سميت بذلك لتبوىء السيول بها . وقيل لما كان فيها من الوباء فيكون على القلب ، وإلا لقيل الأوباء . وحينئذ لاتخالف بين تسمية ابن الحفاف لها بغزوة ودّان وبين تسمية البخارى لها بغزوة الأبواء لتقارب المكانين ، أى وفى الإمتاع : ودان جبل بين مكة والمدينة .

وأقول : قد يقال لامنافاة ، لأنه يجوز أن تكون تلك القرية كانت عند الجبل المذكور فسميت باسمه ، والله أعلم .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين ليس فيهم أنصارى يعترض عيرا لقريش ولبنى ضمرة أى وخرج صلى الله عليه وسلم لبنى ضمرة ، فكان خروجه للشيئين كما يفهم من الأصل . ويوافقه قول بعضهم : وخرج صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من أصحابه يريد قريشا وبنى ضمرة . والمفهوم من سيرة الشامى أن خروجه صلى الله عليه وسلم إنما كان لاعتراضه العير ، وإنه اتفق له موادعة بنى ضمرة ، ويوافقه قول الحافظ الدمياطى : خرج يعترض عيرا لقريش ، فلم يلق كيدا . وفى هذه الغزوة وادع بنى ضمرة هذا كلامه ، أى صالح سيدهم حينئذ ، وهو مجدى بن عمر .

وعبارة بعضهم : فلما بلغ الأبواء لقى سيد بنى ضمرة مجدى بن عمر الضمرى ، فصالحه ثم رجع إلى المدينة والمصالحة على أن لايغزوهم ولا يغزوه ولا يكثروا عليه صلى الله عليه وسلم جمعا ولا يعينوا عليه عدوّا ، قال : وكتب بينه وبينهم كتابا نسخته « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا الكتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصرة على من رامهم » أى قصدهم « إلا أن يحاربوا فى دين الله ، مابلّ بحر صوفة » أى مابقى فيه مايبل الصوفة « وأن النبى صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه عليهم ، بذلك ذمة الله وذمة رسوله » أى أمانهما انتهى

وكان لواؤه صلى الله عليه وسلم أبيض ، وكان مع عمه حمزة ؛ واستعمل على المدينة سعد بن عبادة ، وانصرف إلى المدينة راجعا ، فهى أوّل غزواته صلى الله عليه وسلم ، أى وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، والله أعلم .

غزوه بواط

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول ، أى وقيل الآخر : أى من السنة المذكورة ، يريد عيرا لقريش فيها أمية بن خلف ، ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير خرج فى مائتين من أصحابه : أى من المهاجرين خاصة ، وحمل اللواء وكان أبيض سعد بن أبى وقاص ، واللواء : هو العلم الذى يحمل فى الحرب يعرف به موضع أمير الجيش . وقد يحمله أمير الجيش ، وقد يجعل فى مقدم الجيش .

وأول من عقد الألوية إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم : بلغه أن قوما غاروا على لوط عليه السلام ، فعقد لواء وسار إليهم بعبيده ومواليه . قال بعضهم : صرح جماعة من أهل اللغة بترادف اللواء والراية ، أى فيطلق على كل اسم الآخر .

وعن ابن إسحاق وابن سعد أن اسم الراية إنما حدث بعد خيبر ، واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة سعد بن معاذ وقيل السائب بن مظعون : أى أخا عثمان بن مظعون . وقيل السائب بن عثمان حتى بلغ بواط - بضم الموحدة وفتحها وتخفيف الواو والطاء المهملة - أى وهو جبل الينبع ، أى ومن ثم قيل لها غزوة بواط .

قال بعضهم : ومن هذا الجبل تقلع أحجار المسانّ ، وهذا الجبل لجهينة من ناحية رضوى ، وهو أحد الأجبل التى بنى منها أساس الكعبة .

وفيه أنه لم يذكر رضوى فى تلك الأجبل الخمس التى كان منها أساس الكعبة المتقدم ذكرها على المشهور .

وقد جاء فى الحديث « رضوى رضى الله تعالى عنه » وتزعم الكيسانية وهم أصحاب كيسان مولى على رضى الله تعالى عنه أن محمد بن الحنفية مقيم برضوى حى يرزق وهو الإمام المنتظر عندهم .

أى وفى كلام بعضهم أن المنتظر هو محمد القاسم بن الحسن العسكرى الذى تزعم الشيعة أنه المنتظر وهو صاحب السرداب ، يزعمون أنه دخل السرداب فى دار أبيه وأمه

تنظر إليه فلم يخرج إليها ، وكان عمره تسع سنين ، وأنه يعمر إلى آخر الزمان كعيسى ، وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ، واختفاؤه الآن خوفا من أعدائه . قال : وهو زعم باطل لا أصل له ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلق كيدا أى حربا وأصل الكيد الاحتيال والاجتهاد ومن ثم يسمى الحرب كيدا ، والله أعلم .

غزوة العشيرة

أى وبها بدأ البخارى المغازى، ويدل له ما جاء عن زيد بن أسلم وقد قيل له : ما أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذات العشيرة . وأجيب عنه بأن المراد ما أول غزوة غزاها وأنت معه .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر جمادى الأولى . وفى سيرة الدمياطى الآخرة من تلك السنة .

أى وفى الإمتاع فى جمادى الآخرة : ويقال جمادى الأولى ، يريد عيرا لقريش متوجهة للشام. يقال إن قريشا جمعت جميع أموالها فى تلك العير لم يبق بمكة لا قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى تلك العير إلا حويطب بن عبد العزى ، يقال إن فى تلك العير خمسين ألف دينار أى وألف بعير . وكان فيها أبو سفيان ، أى قائدها . وكان معه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلا منهم مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص ، وهى العير التى خرج إليها حين رجعت من الشام . وكان سببا لوقعة بدر الكبرى كما سيأتى . خرج فى خمسين ومائة ؛ ويقال فى مائتين من المهاجرين خاصة حتى بلغ العشيرة بالمعجمة والتصغير آخره هاء ؛ أى ولم يختلف فيه أهل المغازى كما قال الحافظ ابن حجر . وفى البخارى آخرها همزة ، وفيه أيضا العسيرة بالسين المهملة آخره هاء أى بالتصغير . وأما التى بغير تصغير فهى غزوة تبوك كما سيأتى ، والتى بالتصغير فقال أيضا لموضع ببطن الينبع : أى وهو منزل الحاج المصرى ، وهى لبنى مدلج . واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وحمل اللواء — وكان أبيض — عمه حمزة بن عبد المطلب، خرجوا على ثلاثين بعيرا يعتقبونها، فوجدوا العير قد مضت قبل ذلك بأيام ، ورجع ولم يلق حربا . ووادع صلى الله عليه وسلم فيها بنى مدلج ، قال فى الأصل وحلفاءهم من بنى ضمرة .

وذكر فى المواهب هنا صورة الكتاب الذى كتبه صلى الله عليه وسلم لبنى ضمرة فى

غزوة ودّان الذى قدمناه ثم ، فليتأمل ذلك ؛ وكنى صلى الله عليه وسلم فيها عليا بأبى تراب حين وجده نائما هو وعمار بن ياسر وقد علق به التراب ، فأيقظه عليه الصلاة والسلام برجله وقال له « قم أبا تراب » لما يرى عليه من التراب : أى الذى سفته عليه الريح ؛ ولما قام قال له صلى الله عليه وسلم « ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين : عاقر الناقة والذى يضربك على هذا ووضع يده على قرن رأسه ، فيخضب هذه ووضع يده على لحيته » وفى رواية « أشقى الأولين عاقرناقة صالح ، وأشقى الآخرين قاتلك » . وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال يوما لعلىّ كرم الله وجهه من أشقى من الأولين ؟ فقال علىّ : الذى عقر الناقة يا رسول الله قال : فمن أشقى الآخرين ؟ قال علىّ : لا علم لى يا رسول الله قال : الذى يضربك على هذه وأشار إلى يافوخه » وكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، فهو من أعلام نبوته .

فإنه لما كان شهر رمضان سنة أربعين صار يفطر ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين وليلة عند عبد الله بن جعفر ، لا يزيد فى أكله على ثلاث لقم ويقول : أحب أن ألقى الله وأنا خميص ، فلما كانت الليلة التى ضرب صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء ، وجعل يقول : والله إنها الليلة التى وعدت ، فلما كان وقت السحر وأذن المؤذن بالصلاة خرج إلى المسجد فأقبل الأوز الذى فى داره يصحن فى وجهه فمنعهن بعض نساء أهل بيته ، فقال : دعوهن فإنهن نوائح ، فلما دخل المسجد أقبل ينادى « الصلاة الصلاة » فشد عليه عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله من طائفة الخوارج ، فضربه الضربة التى أخبر بها صلى الله عليه وسلم ، وعند ذلك شد عليه الناس من كل جانب فطرح عليه رجل قطيفة ثم طنبوه وأخذ السيف منه ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين خلّ بيننا وبين مراد ، يعنون قبيلة الرجل الذى ضربه ، فقال : لا ، ولكن احبسوا الرجل ، فإن أنا مت فاقتلوه ، وإن أعش فالجروح قصاص . فحبس .

فلما مات رضى الله تعالى عنه غسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، ومحمد بن الحنفية يصب الماء ، وكفن فى ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة ، وصلى عليه الحسن وكبر عليه سبعا ، ودفن ليلا ؛ قيل بدار الإمارة بالكوفة ، وقيل بغير ذلك ، وأخفى قبره لئلا تنبشه الخوارج . وقيل حملوه على بعير ليدفنوه مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فبينا هم فى مسيرهم ليلا إذ ندّ البعير الذى عليه فلم يدر أين ذهب . ومن الناس من يزعم أنه انتقل إلى السماء ، وأنه الآن فى السحاب .

ولما أصيب كرم الله وجهه دعا الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا ، ولا تبكيا على شى زوى منها عنكما ، وقولا الحق فلا تأخذ كما فى الله لومة لائم . ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ فقال نعم ، فقال : أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظم حقهما عليك ، ولا تزين أمرا دونهما ، ثم قال : أوصيكما به فإنه أخوكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه ، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله إلى أن قبض ، فلما قبض أخرج الحسن رضى الله تعالى عنه ابن ملجم من الحبس وقتله .

أقول : ذكر بعضهم عن المبرد قال ابن ملجم لعلىّ كرم الله تعالى وجهه : إنى اشتريت سيفى هذا بألف ، وسممته بألف ، وسألت الله تعالى أن يقتل به شر خلقه ، فقال علىّ : قد أجاب الله دعوتك ، يا حسن إذا أنامت فاقتله بسيفه ففعل به الحسن ذلك ثم أحرقت جثته . وقد ذكر أنه قطعت أطرافه وجعل فى قوصرة وأحرقوه بالنار .

وقد ذكر أن عليا قال يوما وهو مشير لابن ملجم : هذا والله قاتلى ، فقيل له ألا نقتله ؟ فقال : من يقتلنى ؟ وتبع الأصل فى كون تكنية علىّ بأبى تراب فى هذه الغزوة شيخه الدمياطى .

واعترضه فى الهدى بأنه صلى الله عليه وسلم إنما كناه بذلك بعد نكاحه فاطمة رضى الله تعالى عنها « فإنه صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما وقال أين ابن عمك ؟ قالت : خرج مغاضبا ، فجاء إلى المسجد فوجده مضطجعا فيه وقد لصق به التراب ، فجعل ينفضه عنه ويقول : اجلس أبا تراب » وقيل إنما كناه أبا تراب لأنه كان إذا غضب على فاطمة فى شىء لم يكلمها ولم يقل لها شيئا تكرهه ، إلا أنه يأخذ ترابا فيضعه على رأسه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى التراب على رأسه عرف أنه عاتب على فاطمة .

قال فى النور : يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم خاطبه بهذه الكنية مرتين ، أى ويكون سبب الكنية علوق التراب به ، وكونه يضعه على رأسه ، والله أعلم .

غزوة سفوان

ويقال لها غزوة بدر الأولى

وحين قدم صلى الله عليه وسلم من غزوة العشيرة لم يقم بالمدينة إلا ليالى لم تبلغ العشرة حتى غزا وخرج خلف كرز بن جابر الفهرى وقد أغار قبل أن يسلم على سرح المدينة : أى النعم والمواشى التى تسرح للمرعى بالغداة . خرج فى طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان بالمهملة والفاء ساكنة ، وقيل مفتوحة من ناحية بدر ، أى ولذا قيل لها غزوة بدر الأولى ، وفاته صلى الله عليه وسلم كرز ولم يدركه . وكان قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وحمل اللواء — وكان أبيض — على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وقد تبعت الأصل فى تقديم غزوة العشيرة على غزوة سفوان لما تقدم ، وهو عكس ما فى سيرة الشامى الموافق لسيرة الدمياطى ولما فى الإمتاع ، والله أعلم .

باب تحويل القبلة

وحولت القبلة فى شهر رجب من السنة المذكورة التى هى الثانية فى نصفه ، وقيل فى نصف شعبان . قال بعضهم : وعليه الجمهور الأعظم ، وقيل كان فى جمادى الآخرة ، أى فقد قيل « إنه صلى الله عليه وسلم صلى فى المدينة إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، وقيل سبعة عشر شهرا وقيل أربعة عشر شهرا ، وقيل غير ذلك، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم صلى فى مسجده بعد تمامه إلى بيت المقدس خمسة أشهر » .

والأكثرون على أن تحويلها كان فى صلاة الظهر ، وقيل العصر ، أى فنى الصحيحين عن البراء « إن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أى للكعبة صلاة العصر » .

وقد يقال : لا منافاة لجواز أن يكون المراد أول صلاة صلاها كلها للكعبة صلاة العصر ، لأن الظهر صلى نصفها الأول لبيت المقدس ونصفها الثانى للكعبة : ثم رأيت الحافظ ابن حجر فعل ذلك ، حيث قال : التحقيق أن أول صلاة صلاها بالمسجد النبوى صلاة العصر ، أو أن التحويل فى العصر كان فى محل آخر للأنصار أى وهم بنو حارثة . وقيل حولت فى صلاة الصبح وهو محمول على أن ذلك كان فى قباء ، لأن الخبر لم يبلغهم

إلا حينئذ كما سيأتى ، وإنما حولت لأنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه أن تكون قبلته الكعبة سيما لمابلغه أن اليهود قالوا يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا . أى وفى لفظ : قالوا للمسلمين : لو لم نكن على هدى ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها .

وفى لفظ « كان يحب أن يستقبل الكعبة محبة لموافقة إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام وكراهة لموافقة اليهود ، ولقول كفار قريش للمسلمين لم تقولون نحن على ملة إبراهيم وأنتم تتركون قبلته وتصلون إلى قبلة اليهود ؟ أى ولأنه لما هاجر صار إذا استقبل صخرة بيت المقدس يستدبر الكعبة ، فشق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم ، فقال لجبريل : وددت أن الله سبحانه وتعالى صرفنى عن قبلة اليهود ، فقال جبريل : إنما أنا عبد لا أملك لك شيئا إلا ما أمرت به ، فادع الله تعالى ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى ، يكثر إذا صلى إلى بيت المقدس من النظر إلى السماء ينتظر أمر الله تعالى » أى لأن السماء قبلة الدعاء ، وفى رواية، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : وددت أنك سألت الله تعالى أن يصرفنى إلى الكعبة ، فقال جبريل : لست أستطيع أن أبتدىء الله جل وعز بالمسألة ، ولكن إن سألنى أخبرته ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرا أم بشر بن البراء بن معرور فى بنى سلمة فصنعت له طعاما ، وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فى مسجد هناك، فلما صلى ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صل إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، أى فاستدار النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء » أى فقد تحول من مقدم المسجد إلى مؤخره ، لأن من استقبل الكعبة فى المدينة يلزم أن يستدبر بيت المقدس أى كما أن من يستقبل بيت المقدس يستدبر الكعبة ، وهو صلى الله عليه وسلم لو دار كما هو مكانه لم يكن خلفه مكان يسع الصفوف . قيل وكان ذلك وهم راكعون ، وفيه أن هذا يستدعى عملا كثيرا فى الصلاة وهو مفسد لها عندنا إذا توالى .

وقد يقال : لا مانع لجواز أن يكون ذلك قبل تحريم العمل الكثير فى الصلاة ، أو أن هذا العمل لم يكن على التوالى .

أقول : وبدخوله أى على أم بشر صلى الله عليه وسلم وعلى الربيع بنت معوذ ابن عفراء ، وعلى أم حرام بنت ملحان ، وعلى أختها أم سليم ، والخلوة بكل منهن ، فقد كانت

أم حرام بنت ملحان تفلى رأسه الشريفة وينام عندها ، استدل أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز النظر إلى الأجنبية والخلوة بها لأمنه الفتنة كما سيأتى ، والله أعلم .

وسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين ، وقيل كانت تلك الصلاة التى هى صلاة الظهر التى وقع التحول فيها فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، فخرج عباد بن بشر وكان صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومر على قوم من الأنصار يصلون العصر وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البيت يعنى الكعبة ثم بلغ أهل قباء ذلك وهم فى صلاة الصبح فى اليوم الثانى أى وهم ركوع ، وقد ركعوا ركعة فنادى مناد : ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة ، فتحولوا إليها .

أى وفى البخارى « بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، فاستداروا إلى الكعبة ، وفى مسلم بدل صلاة الصبح صلاة الغداة . قال الحافظ ابن حجر : وهو أحد أسمائها .

وقد نقل بعضهم كراهة تسميتها بذلك ، ولم ينقل أنهم أمروا بقضاء العصر والمغرب والعشاء ، ولا إعادة الركعة التى صلوها من الصبح ، وهو دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله . وعلى أنه يجوز ترك الأمر المقطوع به ، وهو استقبال بيت المقدس إلى أمر مظنون وهو خبر الواحد .

وأجيب عن هذا الثانى بأن الخبر المذكور احتفت به قرائن أفادت القطع عندهم بصدق المخبر ، فلم يتركوا الأمر المعلوم إلا لأمر معلوم أيضا . على أنه يجوز نسخ المتواتر بالآحاد ، لأن محل النسخ الحكم ، ودلالة المتواتر عليه ظنية كما تقرر فى محله . ويقال إن المبلغ لهم عباد ابن بشر أيضا فيكون عباد أتى بنى حارثة أولا فى صلاة العصر ثم توجه إلى أهل قباء فأعلمهم بذلك فى وقت الصبح ، والقرآن الذى نزل قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) الآيات أى وإلى هذا يشير بعضهم بقوله :

كم للنبى المصطفى من آية غراء حار الفكر فى معناها
لما رأى البارى تقلب وجهه ولاه أيمن قبلة يرضاها

وعن عمارة بن أوس الأنصارى ، قال : صلينا إحدى صلاتى العشى أى وهما الظهر والعصر ، فقام الرجل على باب المسجد ونحن فى الصلاة ، فنادى : إن الصلاة قد وجهت

نحو الكعبة فتحول إمامنا نحو الكعبة وقوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) أى متطلعا نحو الوحى ومتشوقا للأمر باستقبال الكعبة (فلنولينك) أى نحولنك (قبلة ترضاها) أى تحبها (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أى نحوه ، والمراد بالمسجد الحرام الكعبة (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق) أى الرجوع إلى الكعبة (من ربهم) أى لما فى كتبهم من نعته صلى الله عليه وسلم بأنه يتحول إلى الكعبة .

أقول : ولعل هذه القصة التى رواها عمارة هى التى رويت عن رافع بن خديج ، قال « أتانا آت ونحن نصلى فى بنى عبد الأشهل ، فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يتوجه إلى الكعبة فدار إمامنا إلى الكعبة ودرنا معه » والله أعلم .

« واجتمع قوم من كبار اليهود وجاءوا إليه صلى الله عليه وسلم وقالوا له : يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه أى وما كنت عليه قبلة إبراهيم » وهذا بناء على دعواهم أن بيت المقدس كان قبلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما سيأتى عنهم ، وسيأتى ما فيه ثم قالوا ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك « وإنما يريدون بذلك فتنته ليعلم الناس أنه صلى الله عليه وسلم فى حيرة من أمره » أى واختبارا لما يجدونه فى نعته صلى الله عليه وسلم من أنه يرجع عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة وأنه لا يرجع عن تلك القبلة ، وفى رواية أنهم قالوا للمسلمين : ماصرفكم عن قبلة موسى ويعقوب وقبلة الأنبياء » أى ويوافقه قول الزهرى « لم يبعث الله منذ هبط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض نبيا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس» ويوافق هذا ظاهر قول الإمام السبكى رحمه الله تعالى فى تائيته :

وصليت نحو القبلتين تفردا ... وكل نبى ماله غير قبلة

قال شارحها : يشير إلى أن كل نبى كانت قبلته بيت المقدس ، وهو صلى الله عليه وسلم قد شاركهم فيها ، أى واختص بالكعبة .

ومن ثم جاء فى التوراة فى وصفه صلى الله عليه وسلم «صاحب القبلتين »، وفيه أن قبلة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إنما هى الكعبة . فعن أبى العالية . كانت الكعبة قبلة الأنبياء ، وكان موسى يصلى إلى صخرة بيت المقدس ، وهى بينه وبين الكعبة ، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف ، أى ويقال بمثل هذا فيما تقدم عن اليهود وعن الزهرى ، على

تسليم صحته . أن صخرة بيت المقدس كانت قبلة لجميع الأنبياء أنهم كانوا يصلون إليها ويجعلونها بينهم وبين الكعبة ، فلا مخالفة .

لا يقال : هذا ليس أولى من العكس ، أى أن استقبال الأنبياء للكعبة إنما كانوا يجعلونها بينهم وبين صخرة بيت المقدس . لأنا نقول : قد ذكر فى الأصل فى تفسير قوله تعالى (ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك) أى يكتمون ماعلموا من أن الكعبة هى قبلة الأنبياء ، أى المقصودة بالاستقبال ، لا أنهم يستقبلونها لأجل صخرة بيت المقدس .

وذكر عن بعضهم أن اليهود لم تجد كون الصخرة قبلة فى التوراة ، وإنما كان تابوت السكينة على الصخرة ، فلما غضب الله على بنى إسرائيل رفعه فصلوا إلى الصخرة بمشاورة منهم ، أى وادعوا أنها قبلة الأنبياء — وما تقدم عن الزهرى تقدم الجواب عنه — ثم قالوا والله إن أنتم إلا قوم تفتنون ، فأنزل الله تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) أى الجهات كلها فيأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء لا اعتراض عليه (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى فكان أول مانسخ أمر القبلة .

فعن ابن عباس أول ما نسخ من القرآن فيما يذكر لنا والله أعلم شأن القبلة فاستقبل صلى الله عليه وسلم بيت المقدس — أى بمكة والمدينة — ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة .

أى وأما قوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) فمحمول على النفل فى السفر إذا صلى حيث توجه .

وما قيل إن سبب نزولها ما ذكره بعض الصحابة ، قال « كنا فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة ، فصلى كل منا على حياله ، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت » ففيه نظر لضعف الحديث ؛ أو هو محمول على ما إذا صلوا باجتهاد .

أى ولما توجه صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، قال المشركون من أهل مكة توجه محمد بقبلته إليكم ، وعلم أنكم كنتم أهدى منه ، ويوشك أى يقرب أن يدخل فى دينكم ومن ثم ارتد جماعة وقالوا مرة هاهنا ومرة هاهنا .

« ولما حولت القبلة إلى الكعبة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء فقدم جدار المسجد موضعه الآن ، وقالت الصحابة له : يارسول الله لقد ذهب منا قوم قبل التحول ، فهل يقبل منا ومنهم ؟ فأنزل الله تعالى قوله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى

صلاتكم إلى بيت المقدس » . وذكر فى الأصل « أن الصحابة قالوا : مات قبل أن تحول قبل البيت رجال وقتلوا ، أى وهم عشرون، ثمانية عشر من أهل مكة، واثنان من الأنصار وهما البراء بن معرور ، وأسعد بن زرارة [] فلم ندر مانقول فيهم؛ فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) الآية » ولفظة القتل وقعت فى البخارى .

وأنكرها الحافظ ابن حجر فقال : ذكر القتل لم أره إلا فى رواية زهير ، وباقى الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط ، ولم أجد فى شئ من الأخبار أن أحدا من المسلمين قتل قبل تحويل القبلة ، لكن لايلزم من عدم الذكر عدم الوقوع ، فإن كانت هــذه اللفظة محفوظة فتحمل على أن بعض المسلمين ممن لم يشتهر ، قتل فى تلك المدة فى غير الجهـــاد .

ثم قال : وذكر لى بعض الفضلاء أنه يجوز أن يراد من قتل بمكة من المستضعفين كأبوى عمار ، فقلت : يحتاج إلى ثبوت أن قتلهما كان بعد الإسراء ، هذا كلام الحافظ وفيه أن الركعتين اللتين كان يصليهما هو والمسلمون بالغداة وبالعشى قبل فرض الصلوات الخمس كانتا لبيت المقدس ، فقد تقدم أنه كان يصلى هو وأصحابه إلى الكعبة ووجوههم إلى بيت المقدس ، فكانوا يصلون بين الركنين اليمانى والذى عليه الحجر الأسود لأجل استقبال بيت المقدس ، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم لم يلتزم ذلك بل كان فى بعض الأوقات يصلى إلى الكعبة فى أى جهة أراد .

ثم لما قدم المدينة صار يستقبل بيت المقدس ويستدبر الكعبة إلى وقت التحويل ، ومن ثم قال فى الأصل « ولما كان صلى الله عليه وسلم يتحرى القبلتين جميعا أى يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس لم يتبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة » أى فإنه استدبر الكعبة واستقبل بيت المقدس .

فقول ابن عباس ؛ لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واليهود يستقبلون بيت المقدس ، أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، معناه أمره الله تعالى أن يستمر على استقبال بيت المقدس ، وهذا هو المراد بقوله الذى نقله بعضهم عنه ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة ، فلما هاجروا أمره الله تعالى أن يصلى نحو صخرة بيت المقدس ، أى يستمر على ذلك ويستدبر الكعبة ، ثم أمره الله باستقبال الكعبة واستدبار بيت المقدس ؛ فلم يقع النسخ مرتين كما قد يفهم من ظاهر السياق ومن

قول ابن جرير « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ماصلى إلى الكعبة ، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، فصلى صلاة ثلاث حجج ، ثم هاجر فصلى إليه ، ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة » هذا كلامه ، ومن ثم قال الحافظ ابن حجر : هذا ضعيف ، ويلزم منه دعوى النسخ مرتين . قيل وكان أمره بمداومة استقبال بيت المقدس ليتألف أهل الكتاب لأنه كان ابتداء الأمر يحب أن يتألف أهل الكتاب فيما لم ينه عنه ، فلا يخالف ماسبق من أنه كان يحب أن يستقبل الكعبة كراهة لموافقة اليهود فى استقبال بيت المقدس ولا يخالف هذا قول بعضهم ، كان صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه ، وبعد الفتح يحب مخالفتهم ، لجواز أن يكون ذلك أغلب أحواله

وقد يؤخذ من أن استدامة استقباله لبيت المقدس كان لتألف أهل الكتاب ، جواب عما يقال إذا كانت الكعبة قبلة الأنبياء كلهم ، فلم وفق إلى استقبال بيت المقدس وهو بمكة ؟ بناء على أن صلاته لبيت المقدس وهو بمكة كانت باجتهاد .

وحاصل الجواب أنه أمر بذلك أووفق إليه ، لأنه سيصير إلى قوم قبلتهم بيت المقدس ، ففيه تأليف لهم ، وقد يوافقه مافى الأصل عن محمد بن كعب القرظى قال : ماخالف نبى نبيا قط فى قبلة إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل بيت المقدس ، أى فهو مخالف لغيره من الأنبياء فى ذلك ، وهذا موافق لما تقدم عن أبى العالية : كانت الكعبة قبلة الأنبياء : أى ثم فى السنة المذكورة التى هى الثانية فرض صوم رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وطلبت الأضحية ، أى استحبابا .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه « فرض شهر رمضان بعد ماصرفت القبلة إلى الكعبة بشهر فى شعبان ، أى على ماتقدم « وكان صلى الله عليه وسلم يصوم هو وأصحابه قبل فرض رمضان ثلاثة أيام من كل شهر ، أى وهى الأيام البيض وهى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر » قيل وجوبا .

فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايفطر الأيام البيض فى حضر ولا سفر ، وكان يحث على صيامها » .

وقيل : كان الواجب عليه صلى الله عليه وسلم قبل فرض رمضان صوم عاشوراء ، ثم نسخ ذلك بوجوب رمضان .

وعاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم : ففى البخارى ، ثم عن ابن عمر رضى

الله عنهما « صام النبى صلى الله عليه وسلم عاشوراء ، فلما فرض رمضان ترك صوم عاشوراء ، هذا والمشهور من مذهبنا معاشر الشافعية أنه لم يجب على هذه الأمة صوم قبل رمضان.

وحديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لادلالة فيه على الوجوب ، لجواز أن يكون شأنه صلى الله عليه وسلم صيام تلك الأيام على الوجه المذكور حتى بعد فرض رمضان . وحديث البخارى أيضا لادلالة فيه ، لجواز أن يكون تركه لصوم يوم عاشوراء فى بعض الأحايين ، بعد فرض رمضان خشية اعتقاد وجوب صومه كرمضان .

ويجاب بمثل ذلك عما فى الترمذى ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « كان عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه موافقه لهم » أى ولم يأمر أحدا من أصحابه بصيامه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض رمضان كان رمضان هو الفريضة وترك عاشوراء ، فمن شاء صامه ، ومن شاء تركه » أى ترك صلى الله عليه وسلم صومه خوفا من توهم أنه فرض كرمضان ، وقولها رضى الله تعالى عنها فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه » أى لأنه صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : أى فى أيام قدومه للمدينة ، وذلك فى شهر ربيع الأول وجد اليهود تصومه وتعظمه ، فسألهم عن ذلك ، فقالوا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا فنحن نصومه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه » كما جاء ذلك عن ابن عباس رضى تعالى عنهما .

وفى كلام الحافظ ناصر الدين عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة يوم عاشوراء ، فإذا اليهود صيام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهذا ؟ قالوا : هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون وأنجى فيه موسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أولى بموسى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصومه » هذا حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم .

والمدينة يحتمل أن المراد بها قباء ، ويحتمل أن المراد بها باطنها ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « فلما فرض رمضان قال صلى الله عليه وسلم أى لأصحابه ، من شاء صامه ومن شاء تركه » أى قال ذلك لهم خشية اعتقادهم وجوب صومه كوجوب صوم رمضان .

وفى كونه صلى الله عليه وسلم وجدهم صائمين لذلك اليوم إشكال ، لأن يوم عاشوراء

هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم كما تقدم ، أو هو اليوم التاسع منه كما يقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فكيف يكون فى ربيع الأول .

وأجيب بأن السنة عند اليهود شمسية لاقمرية ، فيوم عاشوراء الذى كان عاشر المحرم واتفق فيه غرق فرعون لا يتقيد بكونه عاشر المحرم ، بل اتفق فى ذلك الزمن : أى زمن قدومه صلى الله عليه وسلم وجود ذلك اليوم ، بدليل سؤاله صلى الله عليه وسلم ، إذ لو كان ذلك اليوم يوم عاشوراء ماسأل .

ومما يدل على ذلك مافى المعجم الكبير للطبرانى عن خارجة بن زيد ، قال ليس يوم عاشوراء اليوم الذى تقوله الناس ؟ إنما كان يوم تستر فيه الكعبة ، وتلعب فيه الحبشة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدور فى السنة ، وكان الناس يأتون فلانا اليهودى فيسألونه ، فلما مات اليهود أتو زيد بن ثابت فسألوه ، فصام صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم وأمر بصيامه ، حتى إنه أرسل فى ذلك اليوم أسلم بن حارثة إلى قومه وهم أسلم وقال : مر قومك بصيام عاشوراء ، فقال : أرأيت إن وجدتهم قد طعموا ؟ قال : فليتموا أى يمسكوا تعظيما لذلك اليوم .

وفى دلائل النبوة للبيهقى عن بعض الصحابيات قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم يوم عاشوراء ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو يوم عاشوراء بالرضعاء فيتفل فى أفواههم ويقول للأمهات لاترضعنهن إلى الليل » .

والظاهر أن المراد بيوم عاشوراء هذا اليوم الذى هو عاشر المحرم الهلالى لاالشمسى ، وكذا يقال فى قوله وقيل سمى الخ فليتأمل .

وقيل : سمى يوم عاشوراء لأن عشرة من الأنبياء أكرمهم الله تعالى فيه بعشر كراماته تاب الله فيه على آدم واستوت فيه سفينة نوح على الجودى أى فصامه نوح ومن معه حتى الوحش شكرا لله ورفع الله فيه إدريس ، ونصر الله فيه موسى . ونجى فيه إبراهيم من النار وفيه أخرج يوسف من السجن ، أى وفيه ولد ، ورد فيه على والده يعقوب ، وأخرج فيه يونس من بطن الحوت ، أى وتاب الله على أهل مدينته ، وتاب الله فيه على داود ، وعوفى فيه أيوب .

وفى كلام الحافظ ابن ناصر الدين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل افترض على بنى إسرائيل صوم يوم فى السنة » وهو

يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من المحرم ، فصوموه ووسعوا على أهاليكم فيه فإنه من وسع على أهله من ماله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته ، فصوموه ، وهو اليوم الذى تاب الله فيه على آدم ، وذكر ماتقدم وزاد عليه ، « وأنه اليوم الذى أنزل الله فيه التوراة على موسى ، وفيه فدى الله إسمعيل من الذبح ، وهو اليوم الذى رد الله فيه على يعقوب بصره ، وهو اليوم الذى زد الله فيه على سليمان ملكه ، وهو اليوم الذى غفر الله فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ذنبه ماتقدم وما تأخر ، وأول يوم خلق من الدنيا يوم عاشوراء ، وأول مطر نزل من السماء يوم عاشوراء ، وأول رحمة نزلت من السماء يوم عاشوراء ، فمن صام يوم عاشوراء فكأنما صام الدهر كله ، وهو صوم الأنبياء ، الحديث بطوله ، ثم قال : هذا حديث حسن ، ورجاله ثقات .

وذكر الحافظ المذكور عن بعضهم قال : كنت أفت للنمل خبزا فى كل يوم ، فلما كان يوم عاشوراء لم تأكل ، وتقدم أن الصرد أول طير صام عاشوراء .

وفى كلام بعضهم : ماقيل فى يوم عاشوراء كانت توبة آدم إلى آخر ما تقدم من الأحاديث الموضوعة ، وفى كلام بعض آخر : ما يفعل فيه من إظهار الزينة بالخضاب والاكتحال ، ولبس الجديد ، وطبخ الحبوب والأطعمة والاغتسال والتطيب من وضع الكذابين .

والحاصل أن الرافضة اتخذوا ذلك مأتما يندبون وينوحون ويحزنون فيه ، والجهال اتخذوا ذلك موسما وكلاهما مخطىء مخالف للسنة ، وأما التوسعة فيه على العيال ، فحديثها وإن لم يكن صحيحا فهو حسن ، خلافا لقول ابن تيمية إن التوسعة على العيال لم يرد فيها شىء عنه صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم يصوم عاشوراء كما تصومه اليهود ، أى ويوم عاشوراء مختلف ، لأنه عند اليهود من السنة الشمسية ، وعند أهل الإسلام من السنة الهلالية .

وفى مسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قال له بعض الصحابة يارسول الله إنه يوم تعظمه اليهود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان العام المقبل صمنا اليوم التاسع قبله » أى مخالفة لليهود ، فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا الحديث إشكال ، فإن سياقه يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ماصام يوم عاشوراء ولا أمر بصيامه ، إلا فى السنة التى توفى فيها وهو مخالف لما سبق .

ويجاب عن هذا الإشكال بأن المراد بقوله حين صام : أى حين واظب على صومه . واتفق أن قول بعض الصحابة ذلك كان فى السنة التى توفى فيها ، وهو صلى الله عليه وسلم كان شأنه موافقة أهل الكتاب قبل فتح مكة ومخالفتهم بعده كما تقدم ، وبعض متأخرى فقهائنا ظن أن قوله صلى الله عليه وسلم « إذا كان العام المقبل إن شاء الله تعالى صمنا اليوم التاسع » من تتمة حديث « ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود تصومه فصامه وأمر بصيامه » فاستشكل .

وأجاب ، بأن المراد لما قدم من سفرة سافرها من المدينة بعد الهجرة . أى وكان قدومه من تلك السفرة فى السنة التى توفى فيها ، وقد علمت أنهما حديثان ؛ وقد علمت معنى الحديث الذى تتمته إذا كان العام المقبل . وفى كون إغراق فرعون ونجاة موسى كان يوم قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة يلزم عليه أن ذلك اليوم انتقل من ذلك الشهر إلى اليوم العاشر من المحرم الذى هو الشهر الهلالى من السنة الثانية ، واستمر كذلك كما هو ظاهر سياق الأحاديث أن الذى واظب على صيامه إنما هو ذلك اليوم ، وكونه وافق اليهود على صوم ذلك اليوم ، ثم خالفهم فى السنة الثانية وما بعدها من أبعد البعيد .

ثم رأيت أبا الريحان البيروتى نازع فى ذلك فى كتابة [الآثار الباقية عن القرون الخالية] حيث قال: رواية أن الله أغرق فرعون ونجى موسى وقومه يوم قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة الامتحان يشهد عليها بالبطلان ، وبين ذلك بما يطول . وحينئذ يكون من جملة ما يحكم عليها بالبطلان إقرارهم على ذلك ؛ وكونه صلى الله عليه وسلم صامه وأمر بصيامه وفرض الله عز وجل عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته صيام شهر رمضان أو الإطعام عن كل يوم مسكينا بقوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه) من الأصحاء المقيمين (فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا): أى زاد على إطعام المسكين (فهو خير له وأن تصوموا خير لكم) أى من الفطر والإطعام ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم عن كل يوم مداً

ثم إن الله تعالى نسخ هذا التخيير بإيجاب صوم رمضان عينا بقوله (فمن شهد منكم الشهر) أى علمه (فليصمه) إلا فى حق من لايستطيع صومه لكبر أو لمرض لايرجى زواله فيجزيه الإطعام ورخص فيه للمريض ، أى إذا كان بحيث تحصل له مشقة تبيح التيمم ،

وللمسافر أى الذى يباح له قصر الصلاة وإن لم يحصل له مشقة بالكلية مع وجوب القضاء إذا زال المرض والسفر بقوله تعالى (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) أى فأفطر فعليه صيام عدة ما أفطر من أيام أخر . وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا بعد الغروب أو يدخل وقت العشاء الآخرة، فإذا ناموا أو دخل وقت العشاء الآخرة امتنع عليهم ذلك إلى الليلة القابلة ، ثم نسخ الله ذلك، وأحل الأكل والشرب وإتيان النساء إلى طلوع الفجر ولو بعد النوم ودخول وقت العشاء بقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) ثم قال تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولما فهم بعض الصحابة أن المراد الخيط حقيقة حتى صار يجعل عند وسادته حبلا أبيض وحبلا أسود أنزل الله تعالى من الفجر إشارة إلى أن المراد بياض النهار وسواد الليل .

وذكر فى التفسير فى سبب نزول هذه الآية : « أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع أهله بعد ماصلى العشاء ، فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخاطئة، إنى رجعت إلى أهلى فوجدت رائحة طيبة فسولت لى نفسى ، فجامعت أهلى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ماكنت جديراً بذلك ياعمر . فقام رجال فاعترفوا بمثله ، فنزلت » وذكر له صلى الله عليه وسلم أن بعض أصحابه سقط مغشيا عليه بسبب الصوم، فسأله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأخبر أنه أهل حرث ، وأنه جاء لينظر ماتعمله له زوجته ليتعشى به فغلبته عينه فنام فلم يستيقظ إلا بعد الغروب ، فلم يتناول شيئا فأنزل الله تعالى (وكلوا واشربوا) الآية : وقوله تعالى (كما كتب على الذين من قبلكم) جاء فى بعض الروايات، أن المراد بهم أهل الكتاب : أى اليهود والنصارى ، وجاء فى بعضها أن المراد بهم النصارى خاصة ، وجاء فى بعض الروايات أن المراد بهم جميع الأمم السابقة : فقد جاء « مامن أمة إلا وجب عليها صوم رمضان إلا أنهم أخطئوه ولم يهتدوا له » وهذه الرواية تدل على أنه لم يصمه أحد من الأمم السابقة . فصومه من خصوصيات هذه الأمة .

وفى الأنساب لابن قتيبة « أول من صام رمضان نوح عليه الصلاة والسلام » هذا كلامه : وفى بعض الروايات مايفيد أن النصارى صامته ، واتفق أنه وقع فى بعض السنين فى شدة الحر فاقتضى رأيهم تأخيره بين الصيف والشتاء ، وأن يزيدوا فى مقابلة تأخيره

عشرين يوما ، وعلى هذا فصومه ليس من خصائص هذه الأمة ، وقيل التشبيه إنما هو فى مطلق الصوم لا فى خصوص صوم رمضان ، لأنه كان الواجب على جميع ما تقدم من الأمم صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام ذلك نوح فمن دونه حتى صامه النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وتقدم أن تلك الأيام التى صامها صلى الله عليه وسلم كانت البيض التى هى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، وتقدم أنه قيل: إن صوم ذلك كان واجبا عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته .

وقيل: كان الواجب عليه وعلى أصحابه قبل صوم رمضان عاشوراء ، وتقدم رده ، وكان فرض زكاة الفطر قبل العيد بيومين « وكان صلى الله عليه وسلم يخطب قبل العيد بيومين يعلم الناس زكاة الفطر ثم يأمر باخراج تلك الزكاة قبل الخروج إلى صلاة العيد » أى بعد أن شرعت ، لأن مشروعيتها تأخرت عن مشروعية صلاة عيد الأضحى ، وكان فرض زكاة الفطر قبل فرض زكاة الأموال ، وكان فرض زكاة الأموال فى تلك السنة التى هى الثانية ، ولم أقف على خصوص الشهر الذى وجبت فيه . قال بعضهم : ولعل هذا محمل قول بعض المتأخرين المطلعين على الفقه والحديث ، لم يتحرر لى وقت فرض الزكاة : أى زكاة المال ، ولعله عنى ببعض المتأخرين الإمام سراج الدين البلقينى رحمه الله ، لأن الإمام سراج الدين البلقينى سئل هل علمت السنة التى فرضت فيها زكاة المال ؟ فأجاب بقوله : لم يتعرض الحفاظ ولا أصحاب السير للسنة التى فرض فيها زكاة المال ، ووقع لى حديثان ظهر منهما تقريب ذلك ولم أسبق إليه . ثم قال : فقد ظهر أن زكاة المال بعد زكاة الفطر ، وقيل قدوم ضمام بن ثعلبة ، وقدومه كان فى السنة الخامسة هذا كلامه .

وقيل: فرضت زكاة الفطر قبل الهجرة ، وعليه يحمل ظاهر ما فى [سفر السعادة] كان صلى الله عليه وسلم يرسل مناديا ينادى فى الأسواق والمحلات والأزقة من مكة : ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ومسلمة الحديث .

ورد بأنه لم يفرض قبل الهجرة بعد الإيمان إلا الصلوات الخمس ، وكل الفروض فرضت بعد الهجرة . وفيه أنه فرض قيام الليل كما تقدم ، وصلاة الركعتين بالغداة والركعتين بالعشى على ما تقدم . إلا أن يقال المراد الفروض الموجودة الآن المستمر فرضها وما تقدم عن [سفر السعادة] يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم يرسل المنادى الذى ينادى فى مكة بوجود زكاة الفطر وهو بالمدينة بعد وجوبها بالمدينة « وأمر صلى الله عليه وسلم أن

تخرج زكاة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى صاع من تمر أوصاع من شعير أوصاع من زبيب أوصاع من بر ، فكان يصلي العيدين قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة » أى بل يقال : الصلاة جامعة ، لكن فى [سفر السعادة] « وكان صلى الله عليه وسلم إذا بلغ المصلى شرع فى الصلاة من وقته بلا أذان ولا إقامة ولا الصلاة جامعة » والسنة أن لا يكون شيء من هذا كله هذا كلامه «وكانت تحمل العنزة بين يديه ، فإذا وصل المصلى نصبت تجاهه» وهى عصا قدر نصف الرمح فى أسفلها زج من حديد «وكانت تلك العنزة للزبير بن العوام قدم بها من أرض الحبشة ، فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يصلى إليها » أى أخذها منه بعد وقعة بدر . وقد قتل بها الزبير عبيدة بفتح العين المهملة وبضمها ابن سعيد بن العاص الذى كان يقال له أبو ذات الكرش . قال الزبير : لقيته لا يرى منه إلا عيناه ، فقال لى أنا أبو ذات الكرش ، فحملت عليه بالعنزة فطعنته فى عينه فمات ، وأردت إخراجها فوضعت رجلى عليه ، ثم تمطيت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفها . ولما قبض صلى الله عليه وسلم أخذها الزبير ، ثم طلبها أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأعطاه إياها ، فلما قبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه أخذها الزبير ثم سألها عمر رضى الله تعالى عنه فأعطاه إياها ، فلما قبض عمر أخذها ، ثم طلبها عثمان فأعطاه إياها ، فلما قتل دفعت إلى على ، ثم أخذها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل .

« وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع من صلاة عيدالفطر وخطبته يقسم زكاة الفطر بين المساكين » ولعل المراد الزكاة المتعلقة به لأنه تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر الناس بإخراجها قبل الصلاة . إلا أن يقال المراد بإخراجها جمعها له صلى الله عليه وسلم ليفرقها .

« وإذا فرغ صلى الله عليه وسلم من صلاة الأضحى وخطبته يؤتى له بكبشين وهو قائم فى مصلاه فيذبح أحدهما بيده ويقول : هذا عن أمتى جميعا ، من شهد لك بالتوحيد ، وشهد لى بالبلاغ » .

وعند الحاكم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح كبشا أقرن بالمصلى ، أى بعد أن قال : بسم الله والله أكبر . وقال : اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى » .

واستدل بذلك على أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن يضحى عن غيره بغير

إذنه « ويذبح الآخر ويقول : هذا عن محمد وآل محمد ، فيأكل هو وأهله منهما ، ويطعم المساكين ، ولم يترك الأضحية قط » وهل كانت الأنبياء من بعد إبراهيم تضحى هم وأممهم أو هم خاصة ؟ [ ] وكان فى مسجده صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة قبل أن يوضع له المنبر يخطب ويسند ظهره إلى أسطوانة من جذوع النخل أو من الدوم وهو شجر المقل .

وعبارة بعضهم « كان يخطب الناس وهو مستند إلى جذع عند مصلاه فى الحائط القبلى ، فلما كثر الناس أى وقالوا له صلى الله عليه وسلم : لو اتخذت شيئا تقوم عليه إذا خطبت يراك الناس وتسمعهم خطبتك ، فقال : ابنوا لى منبرا فلما بنى له المنبر عتبتين ، أى ومحل الجلوس ، فكان ثلاث درجات ، وقام عليه فى يوم جمعة أى وخطب » وفى لفظ « لما عدل إلى المنبر ليخطب عليه وجاوز ذلك الجذع سمع لتلك الأسطوانة حنين كحنين الواله بصوت هائل سمعه أهل المسجد حتى ارتج » أى اضطرب « المسجد ، وكثر بكاء الناس لذلك ، ولا زالت تحن حتى تصدعت وانشقت » أى وفى رواية « سمع له صوت كصوت العشار » أى النوق التى أتى لحملها عشرة أشهر . وقيل التى أخذ ولدها . وفى بعض الروايات « كحنين الناقة الخاوج » وهي التى انتزع ولدها منها . وفى رواية « جأر » بفتح الجيم وبعدها همزة مفتوحة : أى صوت ، أو بالخاء المعجمة بلا همزة وهو بمعناه « كخوار الثور ، فنزل صلى الله عليه وسلم فالتزمها وحضنها » أى فجعلت تئن أنين الصبي الذى يسكت فيسكت .

أى وفى كلام بعضهم : وذكر الإسفراينى « أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاه إلى نفسه فجاءه يخرق الأرض ، فالتزمه فعاد إلى مكانه » وفى رواية « ووضع يده عليها ، وقال لها اسكنى واسكتى فسكنت » وفى رواية « أن هذا » أى الجذع « يبكى لما فقد من الذكر ، والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا » أى يحن إلى يوم القيامة . زاد فى رواية « حزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقوله لما فقد من الذكر هو واضح على الرواية الأولى . وأما على الثانية فالمراد لما يفقده من الذكر ، وإلى حنين الجذع أشار الإمام السبكى رحمه الله تعالى فى تائيته بقوله :

وحن إليك الجذع حين تركته ... حنين الثكالى عند فقد الأحبة

وعن بعضهم قال : قال لى الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : ما أعطى الله نبيا ما أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقلت أعطى عيسى إحياء الموتى ، فقال : أعطى

محمدا صلى الله عليه وسلم حنين الجذع ، فهذا أكبر من ذاك . وفى رواية « لا تلوموه » أى الجذع « على حنينه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفارق شيئا إلا وجد عليه » أى حزن . وفى رواية « أنه قال له : إن شئت أردك إلى الحائط » أى البستان الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك ويجدد لك خوص وثمرة ، وإن شئت أغرسك فى الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك . ثم أصغى له صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقول فقال بصوت سمعه من يليه : بل تغرسنى فى الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فعلت قد فعلت » وفى رواية « لما أصغى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل فقال : اختار أن أغرسه فى الجنة » أى وفى رواية « اختار دار البقاء على دار الفناء » ولا يخالف ما قبله ، لأنه يجوز أن يكون السائل من غير من سمع جوابه وأمر به فدفن تحت المنبر ، وقيل جعل فى السقف وأخذه عنده أبى رضى الله عنه بعد أن هدم المسجد وأزيل سقفه ، فكان عنده إلى أن أكلته الأرضة وعاد رفاتا أى متكسرا من شدة اليبس .

أقول : فى سيرة الحافظ الدمياطى قالوا « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة يخطب إلى جذع فى المسجد قائما ، فقال : إن القيام شق على ، فقال له تميم الدارى ألا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام ، أى تصنعه النصارى فى كنائسهم لأساقفتهم تسمى المرقاة يصعدون إليها عند تذكيرهم فتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذوه ، فقال العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنهما إن لى غلاما يقال له كلاب أعلم الناس أى بالنجارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مره أن يعمله ، فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عمل منها درجتين ومقعدا ، ثم جاء به فوضعه فى موضعه اليوم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام عليه » أى وقال « إن أتخذ منبرا فقد اتخذه أبى إبراهيم » أى ولعله صلى الله عليه وسلم عنى به المقام الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت وهو الحجر ، إلا إن ثبت أن إبراهيم كان له منبر يحدث عليه الناس .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم وهو عند المنبر يقول « يأخذ الجبار بسمواته وأرضه بيده ، ثم يقول : أنا الجبار أنا الجبار ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ويميل يعنى النبى صلى الله عليه وسلم عن يمينه وشماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك حتى إنى أقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم » وفى

رواية عنه « فقال المنبر هكذا وهكذا ، فجاء وذهب ثلاث مرات » . وفى رواية عن عائشة رضى الله تعالى عنها « فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم منبره حتى قلن ليخرن ، وقال : منبرى هذا على ترعة » بضم المثناة فوق وإسكان الراء وبالعين المهملة « من ترع الجنة ، أى أفواه جداول الجنة ، وقوائم منبرى رواتب أى ثوابت فى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم « منبرى على حوضى » وقال « إن حوضى كما بين عدن إلى عمان ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب رائحة من المسك ، أباريقه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، وأكثر الناس ورودا عليه يوم القيامة فقراء المهاجرين . قلنا : من هم يارسول الله ؟ قال : الشعثة رءوسهم ، الدنسة ثيابهم ، الذين لاينكحون المنعمات ، ولا تفتح لهم السدد ، أى الأبواب الذين يعطون الذى عليهم ولا يأخذون الذى لهم » وقال صلى الله عليه وسلم « مابين قبرى ومنبرى » . وفى رواية بدل قبرى « بيتى » وفى لفظ « حجرتى » والمراد قبره الشريف ، فإنه فى حجرته، وحجرته هى بيته صلى الله عليه وسلم « روضة من رياض الجنة » أى يكون بعينه فى الجنة بقعة من بقاعها أى ينقلها الله تعالى فتكون فى الجنة بعينها .

وقيل إن الصلاة والدعاء فيها يستحق بذلك من الثواب ما يكون موجبا لدخول الجنة ، كما قيل بذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت ظلال السيوف » مع أن تلك السيوف كانت بأرض الكفر . وقيل إنها لبركتها أضيفت إلى الجنة كما قيل فى الضأن إنها من دواب الجنة .

وقال ابن حزم : ليس على مايظنه أهل الجهل من أن تلك الروضة قطعة مقتطعة من الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على منبرى كاذبا ولو على سواك أراك فليتبوأ مقعده من النار » وفى رواية « إلا وجبت له النار » .

أقول : وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم كان على المنبر يعتمد على عصا من شوحط » وفى الهدى : لم يعتمد صلى الله عليه وسلم فى خطبته على سيف أبدا ، وقبل أن يتخذ له المنبر كان يعتمد على قوس أو عصا ، أى وقيل كان يعتمد على قوس إن خطب فى الحرب على عصا إن خطب فى غيره .

واختلف فيها ، يعنى تلك العصا ، هل هى العنزة التى كان يصلى إليها أو غيرها ، وما يظنه بعض الناس من أنه كان يعتمد على سيف ، وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام

بالسيف فمن فرط جهله هذا كلامه . وفيه أن بعض فقهائنا ذكر أن اعتماده فى خطبته كان على سيف روى ولم يثبت .

وذكر فقهاؤنا تلك الحكمة حيث قالوا : وحكمة اعتماده على العصا أو القوس أو السيف الإشارة إلى أن هذا الدين قام بالسلاح ، وقول صاحب الهدى : وكان قبل أن يتخذ المنبر يعتمد على قوس أو عصا ، يقتضى أن بعد اتخاذ المنبر لم يعتمد على شىء من ذلك ، أى وصرح به صاحب القاموس فى [سفر السعادة] حيث قال : لم يكن يأخذ السيف والحربة بيده ، بل كان يعتمد على القوس أو العصا ، وذا قبل اتخاذ المنبر ؛ وأما بعد اتخاذ المنبر فلم يحفظ أنه اعتمد على العصا ، ولا على القوس ، ولا على غير ذلك هذا كلامه ؛ فيكون الاعتماد على ذلك فوق المنبر بدعة ، وهو خلاف ما عليه أئمتنا من أنه يسن أن يشغل يمناه بحرف المنبر ويسراه بما يعتمد عليه من نحو العصا ، لكن قالوا : كعادة من يريد الضرب بالسيف والرمى بالقوس ، وهو لا يأتى فى العصا ولا يأتى فى السيف إذا كان فى غمده .

ووجود المرقى الذى يقرأ الآية والخبر المشهور بدعة ، لأنه حدث بعد الصدر الأول ولم أقف على أول زمان فعل فيه ذلك ، لكن ذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع أمر من يستنصت له الناس عند إرادة خطبته ، وعليه إن كان استنصتهم بالحديث فذكر المرقى للخبر ليس من البدعة . إلا أن يقال هو بالنسبة لخطبة الجمعة بدعة ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يذكر الحديث على المنبر ، فالسنة أن يذكره الخطيب كذلك .

ففى [سفر السعادة] : وكان صلى الله عليه وسلم فى أثناء الخطبة يأمر الناس بالإنصات ويقول « إن الرجل إذا قال لصاحبه أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذى يقول أنصت ليس له جمعة » .

وقول الحافظ الدمياطى : كان صلى الله عليه وسلم يخطب على جذع قائما ، وأنه قال : إن القيام شق علىّ ، يقتضى أن حنين الجذع كان عند قيامه على ذلك المنبر من الخشب ، وأنه لم يتخذ قبل ذلك المنبر من الطين الذى قدمناه ، وفيه نظر . وكذا فى قوله : وقال له تميم الدارى إلى آخره ، لأن تميما الدارى إنما أسلم فى السنة التاسعة ، وهذا المنبر الذى من الخشب إنما فعل فى السابعة أو الثامنة ، وعلى هذا اقتصر الأصل حيث قال فى الحوادث

وفيها : أى السنة الثامنة اتخاذ المنبر والخطبة عليه ، وحنين الجذع ، وهو أول منبر عمل فى الإسلام ، وهو فى ذلك موافق لما قدمه هو : أى الأصل من اتخاذ المنبر له من الطين قبل ذلك ، وأنه كان عنده حنين الجذع .

وعلى كون المنبر عمل فى الثامنة ، لا يشكل كون العباس رضى الله تعالى عنه أمر غلامه بعمله ، لأن العباس رضى الله عنه قدم المدينة فى السنة الثامنة ، لكن فى بعض الروايات « أنه صلى الله عليه وسلم دعا رجلا فقال : أتصنع لى المنبر ؟ قال نعم ، قال : ما اسمك ؟ قال فلان ، قال لست بصاحبه ، ثم دعا آخر فقال له مثل ذلك ، ثم دعا الثالث فقال له : ما اسمك ؟ قال إبراهيم ، قال خذ فى صنعته فصنعه » وفى رواية « عمله رجل رومى اسمه باقوم ، غلام سعيد بن العاص » أى ولعله هو الذى تقدم ذكره عند بناء قريش للكعبة .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى امرأة فقال لها : مرى غلامك يعمل لى أعوادا أكلم الناس عليها ، فعمل له صلى الله عليه وسلم درجات من طرفاء الغابة » ويجوز أن يكون غلام العباس رضى الله تعالى عنه انتقل إلى ملك تلك المرأة ، وأنه كان غلاما لسعيد بن العاص ، وأنه اشترك فى عمله مع إبراهيم المتقدم ذكره فنسب لكل منهما .

فعلم من كلام الأصل فى غير الحوادث ، أنه كان صلى الله عليه وسلم يخطب أولا على الجذع ، ثم على المنبر من الطين ، وأن حنين الجذع كان عند قيامه صلى الله عليه وسلم على ذلك المنبر من الطين ، وهو مخالف لكلامه فى الحوادث ، أن حنين الجذع كان عند اتخاذه صلى الله عليه وسلم المنبر من الخشب ، وأنه أول منبر عمل فى الإسلام . إلا أن يقال أول منبر عمل فى الإسلام من خشب ، ويكون ذكر حنين الجذع عند القيام عليه من تصرف بعض الرواة ، لأن حنين الجذع لم يتكرر حتى يقال جاز أن يكون كان عند قيامه صلى الله عليه وسلم على المنبر من الطين ، ثم عند قيامه على المنبر من الخشب .

ثم رأيته فى النور رجع كلام الأصل فى غير الحوادث إلى كلام الأصل فى الحوادث من أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن له منبر من طين حيث قال : قوله أى الأصل فبنوا له منبرا ، وهذا الكلام فيه تجوز ، يعنى اتخذوا له منبرا ، وذلك لأن المنبر كان من طرفاء الغابة وهو شجر معروف هذا كلامه ، وليته عكس ، لأن هذا منه يقتضى حينئذ أن يكون صلى الله عليه وسلم استمر من حين خطب فى المسجد إلى السنة الثامنة يخطب إلى الجذع ، لأن المنبر من الخشب اتخذ فى السنة الثامنة كما تقدم عن الأصل .

ويشكل عليه قول عائشة رضى الله تعالى عنها فى قصة الإفك : فثار الحيان ، الأوس والخزرج حتى كادوا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر » لأن قصة الإفك كانت فى سنة خمس .

ثم رأيت فى كتاب الشريعة للآجرى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه « كان صلى الله عليه وسلم يخطب مسندا ظهره إلى خشبة ، فلما كثر الناس قال : ابنوا لى منبرا فبنوا له عتبتين » أى غير المستراح « فلما قام على المنبر يخطب حنت الخشبة » الحديث .

وعن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه « لما كثر الناس وصار يجىء القوم ولا يكادون يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخطبة ، قال الناس : يارسول الله ، قد كثر الناس وكثير منهم لا يكاد يسمع كلامك ، فلو أنك اتخذت شيئا تخطب عليه مرتفعا من الأرض ويسمع الناس كلامك ؛ فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى غلام نجار لامرأة من الأنصار فاتخذ له مرقاتين من طرفاء الغابة ، فلما قام حنت الخشبة التى كان يخطب إليها » هذا كلامه ، وهو موافق لما تقدم عن الأصل فى الحوادث

والذى ينبغى الجمع بين الروايتين لأن ما علم من أن اتخاذ المنبر من طرفاء الغابة كان بعد اتخاذه من الطين ، لأنه أقوى فى الارتفاع من منبر الطين ، وكون حنين الجذع عند اتخاذ المنبر من الطرفاء من تصرف بعض الرواة ، لأن حنينه إنما كان عند اتخاذ المنبر من الطين ، ولم يتكرر حنينه كما تقدم .

ولما ولى معاوية الخلافة كسا ذلك المنبر قبطية ، ثم كتب إلى عامله بالمدينة وهو مروان ابن الحكم أن يرفع ذلك المنبر عن الأرض ، فدعا بالنجارين وفعل ست درج ، ورفع ذلك المنبر عليها فصارت تسع درجات . وهذا يدل على أن قوله فاتخذ له مرقاتين أى غير المستراح ، ومن ثم تقدم «فعمل له درجات» .

وقيل أمره بحمله إلى الشام ، فلما أرادوا قلعه أظلمت المدينة وكسفت الشمس حتى بدت النجوم ، وثارت ريح شديدة ، فخرج مروان إلى الناس فخطبهم ، وقال : ياأهل المدينة إنكم تزعمون أن أمير المؤمنين بعث إلىّ أن أبعث إليه بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين أعلم بالله من أن يغير منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما أمرنى أن أكرمه وأرفعه ففعل ماتقدم .

وقيل : إن معاوية لما حج أراد أن ينقل المنبر إلى الشام ، فحصل ماتقدم من كسوف

الشمس الخ ، فاعتذر معاوية للناس وقال : أردت أن أنظر إلى ماتحته وخشيت عليه من الأرضة ، وكساه يومئذ قبطية .

ولامانع من تعدد الواقعة ، وأن واقعة معاوية سابقة على واقعة مروان ، لقوله : لأنظر ماتحته ، و إلا فمروان رفعه عن الأرض .

ثم إن هذا المنبر أحرق بسبب الحريق الواقع فى المسجد أول مرة ، فأرسل صاحب اليمن منبرا فوضع موضعه مكث عشر سنين .

وفى الإمتاع : ثم تهافت المنبر النبوى على طول الزمان، فعمل بعض خلفاء بنى العباس منبرا واتخذ من أعواد المنبر النبوى أمشاطا يتبرك بها ، فاحترق هذا المنبر المجدد فى حريق المسجد ، فبعث المظفرملك اليمن منبرا هذا كلامه . ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس من مصر منبرا ، فرفع منبرصاحب اليمن ووضع منبرالملك الظاهر ، فمكث مائة سنة واثنتين وثلاثين سنة ، فبدأ فيه أكل الأرضة ، فأرسل الظاهر برقوق منبرا ، فرفع منبرالملك الظاهربيبرس ووضع منبر الملك الظاهر برقوق ، ومكث ثلاثا أو أربعا وعشرين سنة .

ثم إن السلطان المؤيد شيخ لما بنى مدرسته بالقاهرة التى يقال لها المؤيدية عمل أهل الشام له منبرا وأرسلوا به إليه ليجعله فى مدرسته ، فوجد أهل مصر قد صنعوا لها منبرا فسير المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة فمكث سبعا وستين سنة . ثم أحرق فى الحريق الواقع فى المسجد ثانى مرة ، ثم جعل موضعه منبر مبنى بالآجر مطلى بالنورة ، فمكث إحدى وعشرين سنة ثم جعل موضعه المنبر الرخام الموجود الآن .

قيل : وأعجب منبر فى الدنيا منبر جامع قرطبة قاعدة بلاد الأندلس بالمغرب . ذكر أن خشبه من ساج وأبنوس وعود قاقلى ، أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين ، وكان يعمل فيه سبع صناع ، لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال ذهب ، فكان جملة ماصرف على أجرته عشرة آلاف مثقال وخمسين مثقالا ، وبالجامع المذكور مصحف فيه أربع ورقات من مصحف عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه بخط يده ، وفيه نقط من دمه . وفى هذا المسجد ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على أحدها اسم محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الثانى صفة عيسى وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وأهل الكهف . وعلى الثالث صورة غراب نوح ، الجميع خلقة ربانية ولابدع .

فقد ذكر بعضهم رأيت بحمام القاهرة رخامة عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم مفسرا يقرؤه كل أحد خلقة .

وعن سهل قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم جلس على المنبر أى من الخشب كبّر ، فكبر الناس خلفه ، ثم ركع وهو على المنبر ، ثم رجع فنزل القهقرى ، ثم سجد فى أصل المنبر ، ثم عاد حتى إذا فرغ من الصلاة يصنع فيها كما يصنع فى الركعة الأولى. فلما فرغ أقبل على الناس وقال : أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بى ، ولتعلموا صلاتى » وقوله لتأتموا بى : أى تقتدوا بى فى مثل هذا الفعل من الإحرام والركوع على المحل المرتفع ثم النزول عنه والسجود تحته ثم الصعود إليه ، وهكذا إلى أن تتم الصلاة ، وهذا عند أئمتنا مخصوص جوازه بما إذا لم يلزم عليه استدبار القبلة أو توالى حركات ثلاث ، وقوله : « ولتعلموا صلاتى » هو واضح ، لو كان ذلك أول صلاة . إلا أن يقال المراد ولتعلموا جواز صلاتى هذه .

وفى كلام فقهائنا أنه صلى الله عليه وسلم كان ينزل من المنبر ، ويسجد للتلاوة أسفل المنبر ، وآخر الأمرين ترك ذلك . فعلم أن منبره صلى الله عليه وسلم كان ثلاث درجات بالمستراح. وحينئذ يشكل إن صح ، ماروى أن أبابكر نزل درجة عن موقفه صلى الله عليه وسلم ، وعمر نزل درجة أخرى ، وعثمان درجة أخرى . ومن ثم قال فى النور : وهذا يدل على أنه كان أكثر من ثلاث درجات . أى أربعة غير المستراح ، و إلا يلزم أن يكون عمر وعثمان كانا يخطبان على الأرض .

قال : ويمكن تأويله ، هذا كلامه ، ولينظر ماتأويله ، فإنه يلزم على كونه درجتين غير المستراح ، أن يكون الصدّيق كان يخطب على الدرجة الثانية ، وعمر يخطب على الأرض ، وأن عثمان فعل كفعل عمر . وحينئذ لايحسن قولهم وعثمان نزل درجة أخرى ، إذ لادرجة بعد الدرجة الثانية ينزل عنها . وحينئذ يشكل مافى الإمتاع وهو : كان منبره صلى الله عليه وسلم درجتين ومجلسا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس على المجلس ويضع رجليه إذا قعد على الدرجة الثانية ، فلما ولى أبو بكر رضى الله تعالى عنه قام على الدرجة الثانية ووضع رجليه على الدرجة السفلى ، فلما ولى عمر رضى الله تعالى عنه ، قام على الدرجة السفلى ووضع رجليه على الأرض إذا قعد ، فلما ولى عثمان رضى الله تعالى عنه فعل كذلك : أى كفعل عمر ست سنين من خلافته ثم علا إلى موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ، هذا كلامه ،

وكان ينبغى أن يقول : بدل قوله ، فلما ولى أبو بكر قام على الدرجة الثانية جلس على الدرجة الثانية ، وكذا قوله: فلما ولى عمر قام على الدرجة السفلى جلس على الدرجة السفلى ، أى فقد خطب على الأرض وكذا عثمان .

وذكر فقهاؤنا أن منبره صلى الله عليه وسلم كان ثلاث درج غير الدرجة التى تسمى المستراح وتسمى بالمقعد والمجلس ، فكان صلى الله عليه وسلم يقف على الثالثة : أى بالنسبة للسفلى ، وإذا جلس يجلس على المستراح ويجعل رجليه محل وقوفه إذا قام للخطبة ، وكذا الخلفاء الثلاثة كل يجعل رجليه محل وقوفه

ويذكر أن المتوكل قال يوما لجلسائه وفيهم عبادة : أتدرون ما الذى نقم على عثمان؟ نقم عليه أشياء ، منها أنه قام أبو بكر رضى الله تعالى عنه دون مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرقاة ، ثم قام عمر رضى الله تعالى عنه دونه بمرقاة ، فصعد عثمان رضى الله تعالى عنه ذروة المنبر ، فقال له عبادة : ماأحد أعظم منة عليك ياأمير المؤمنين من عثمان ، قال : وكيف ذاك . قال : لأنه صعد ذروة المنبر وإنه لو كان كلما قام خليفة نزل عمن تقدمه كنت أنت تخطبنا فى بئر عميق ، فضحك المتوكل ومن حوله ، وكون عثمان صعد ذروة المنبر إنما هو فى آخر الأمر كما علمت .

وفى كلام بعضهم: أول من اتخذ المنبر خمس عشرة درجة معاوية رضى الله تعالى عنه ، وأنه أول من اتخذ الخصيان فى الإسلام ، وأول من قيدت بين يديه الجنائب ، وعثمان أول من كسا المنبر قبطية .

وعن الواقدى أن امرأة سرقت كسوة عثمان للمنبر فأتى بها إليه ، فقال لها عثمان : هل سرقت ؟ قولى لا ، فاعترفت ، فقطعها ، ثم كساه معاوية كما تقدم ، ثم كساه عبد الله ابن الزبير ، فسرقتها امرأة فقطعها كما قطع عثمان ، ثم كساه الخلفاء من بعده .

باب غزوة بدر الكبرى

ويقال لها بدر العظمى ، ويقال لها بدر القتال ، ويقال بدر الفرقان: أى لأن الله تعالى فرق فيها بين الحق والباطل .

« ثم إن العير التى خرج صلى الله عليه وسلم فى طلبها حتى بلغ العشيرة ووجدها سبقته بأيام لم يزل مترقبا قفولها: أى رجوعها من الشأم ، فلما سمع بقفولها من الشأم ندب المسلمين »

أى دعاهم وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ، فانتدب ناس » ، أى أجابوا « وثقل آخرون أى لم يجيبوا لظنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلق حربا ، ولم يحتفل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى لم يهتم بها ، بل قال « من كان ظهره » : أى مايركبه « حاضرا فليركب معنا » ولم ينتظر من كان ظهره غائبا عنه » .

ولما خرج صلى الله عليه وسلم إلى بدر قالت له أمّ ورقة بنت نوفل : يارسول الله ائذن لى فى الغزو معك أمرّض مرضاكم ، لعل الله يرزقنى الشهادة ، فقال لها : قرى فى بيتك ، فإن الله يرزقك الشهادة ، وكانت قد قرأت القرآن ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ويسميها الشهيدة » فكان الناس يقولون لها الشهيدة . فلما كان زمن خلافة سيدنا عمر عدا عليها غلام وجارية كانت دبرتهما فغمياها بقطيفة إلى أن ماتت ، فجئ بهما إلى سيدنا عمر ، فأمر بصلبهما ، فكانا أوّل مصلوب بالمدينة ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « انطلقوا بنا نزور الشهيدة » .

فكان أبو سفيان حين دنا بالعير من أرض الحجاز يتجسس الأخبار : أى يبحث عنها ويسأل من لقى من الركبان تخوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استنفر أصحابه للعير ، أى ويقال : إنه لقى رجلا فأخبره أنه صلى الله عليه وسلم قد كان عرض لغيره فى بدايته وأنه تركه مقيما ينتظر رجوع العير [ ] فخاف خوفا شديداً ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى : أى استأجره بعشرين مثقالا ، ولا يعرف له إسلام ، والذى من الصحابة ضمضم بن عمر الخزاعى [ ] ليأتى مكة ، أى وأن يجدع بعيره وأن يحول رحله ويشق قميصه من قبله ومن دبره إذا دخل مكة ، ويستنفر قريشا ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لعيرهم هو وأصحابه . فخرج ضمضم سريعا إلى مكة ، وقبل أن يقدم بثلاث ليال رأت عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، اختلف فى إسلامه رؤيا أفزعتها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : ياأخى . والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى : أى اشتدت على وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ماأحدّثك .

قال : وفى رواية أنها قالت له : لن أحدثك حتّى تعاهدنى أن لاتذكرها ، فإنهم إن

سمعوها — تعنى كفار قريش — آذونا وأسمعونا مالا نحب ، فعاهدها العباس اه . فقال لها : مارأيت ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح : أى وهو مابين المحصب ومكة ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا فانفروا يا آل غدر : أى ياأصحاب الغدر وعدم الوفاء إلى مصارعكم فى ثلاث : أى بعد ثلاثة أيام .

وفى كلام السهيلى : يا آل غدر بضم الغين والدال جمع غدور ، أى إن تخلفتم فأنتم غدر لقومكم ، قالت : فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره : أى انتصب به على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ثم مثـل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت : أى تكسرت ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلها منه فلقة ، فقال لها العباس : والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد ، ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة ، أى وكان صديقا له فذكرها له أى واستكتمه ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، فتحدث بها [ ] ففشا الحديث . قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآنى أبو جهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم ، فقال أبو جهل لعنه الله : يابنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ قال : قلت : وما ذاك ؟ قال : ذاك الرؤيا التى رأت عاتكة ! فقلت : وما رأت ؟ قال : يابنى عبدالمطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم .

وفى رواية : مارضيتم يابنى هاشم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء اه . قال أبو جهل : قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث فسنتربص بكم هذه ، الثلاث ، فإن يك حقا ماتقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب . قال العباس : فوالله ما كان منى إليه كبير ، إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئا . وفى رواية أن العباس قال لأبى جهل هل أنت منته يامصفر استه : أى يامأبون ، أو ياجبان ، أو الذى يغير لون البرص الذى بمقعدته بالزعفران ، فإن الكذب فيك وفى أهل بيتك . فقال من حضرهما : ماكنت ياأبا الفضل جهولا ولا خرقا ، ولقى العباس رضى الله تعالى عنه من أخته عاتكة أذى شديداً حين أفشى من حديثها ، قال العباس : فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبدالمطلب

إلا أتتنى أقررتم ؟ أى قائلة ، أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت ؟

ثم قلت لهن : وايم الله لأتعرضن له ، وإن عاد قاتلته ، وغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا مغضب أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيته ، فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود إلى بعض ماقال فأوقع به ، إذ هو قد خرج نحو باب المسجد يشتد : أى يعدو ، فقلت فى نفسى ماله لعنه الله ؟ أكل هذا فرق ؟ أى خوف منى ، فإذا هو يسمع مالم أسمع ، سمع صوت ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره ، أى قطع أنفسه وأذناه، وحول رحله وشق قيصه، وهو يقول : يامعشر قريش ، الليطمة اللطيمة : أى أدركوا اللطيمة ، وهى العير التى تحمل الطيب والبز ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . وفى لفظ : إن أصابها محمد لم تفلحوا أبدا ، الغوث الغوث . قال العباس : فشغلنى عنه وشغله عنى ماجاء من الأمر ، فتجهز الناس سراعا ، أى وفزعوا أشد الفزع، وأشفقوا : أى خافوا من رؤيا عاتكة [ ] .

ويروى أنهم قالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ، والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا،أى وأعان قويهم ضعيفهم ؛ وقام أشراف قريش يحضون الناس على الخروج، وقال سهيل بن عمرو: يا آل غالب أتاركون أنتم محمدا والصباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مالى ، ومن أراد قوتا فهذا قوتى [ ] ولم يتخلف من أشراف قريش إلا أبو لهب ، أى خوفا من رؤيا عاتكة ، فإنه كان يقول رؤيا عاتكة كأخذ بيد ،أى صادقة لاتتخلف[ ] وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة : أى استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه دينا أفلس بها [ ] أى قال له اخرج ودينى لك ، أى ويقال إن ذلك الدين كان ربا . ومن ثم جاء فى لفظ : وكان لاطه بأربعة آلاف درهم ، قال أبو عبيد : وسمى الربا لياطا لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع .

وفى كلام البلاذرى، أنه قامر أبالهب على أن يطيعه فيما أراد، فقمره أبولهب فأسلمه إلى ضيق ، أى ضيق عليه بالطلب ، ثم قامره فقمره أبو لهب أيضا ، فأرسله مكانه إلى بدر

وهشام هذا قتله عمر بن الخطاب فى هذه الغزوة، حتى إن أمية بن خلف أراد القعود وكان شيخا جسيما ثقيلا ، فجاء إليه وهو جالس مع قومه عقبة بن أبى معيط بمجمرة فيها مجمر : أى بخور يحملها حتى وضعها بين يديه . ثم قال : يا أبا علىّ استجمر فإنما أنت من النساء ، فقال له : قبحك الله وقبح ماجئت به ، أى وكان عقبة كما فى فتح البارى سفيها . وكان أبو جهل سلط عقبة على ذلك . وفى لفظ أتاه أبو جهل ، فقال له : يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى،وفى لفظ: وأنت من اسراف الوادى تخلفوا معك ، فسر يوما أو يومين ، أى ولا مانع من وجود ذلك كله ، فتجهز مع الناس .

أى وسبب تخلفه أن سعد بن معاذ قدم مكة معتمرا فنزل عليه لأن أمية كان ينزل على سعد بالمدينة إذا ذهب إلى الشام فى تجارته . فقال سعد لأمية : انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت ، فقال أمية لسعد : انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفلت الناس انطلقت فطفت . وفى لفظ : فخرج أمية به قريبا من نصف النهار ، فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبوجهل فقال : من هذا الذى يطوف ؟ فقال له سعد: أناسعد بن معاذ. فقال له أبوجهل: أتطوف بالكعبة آمنا وقد آويتم محمدا وأصحابه ؟ وفى لفظ : آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما ، فتلاحيا : أى تخاصم ، وسعد يرفع صوته بقوله : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على المدينة ؟ فصار أمية يقول لسعد : لا ترفع صوتك على أبى الحكم فإنه سيد أهل الوادى وجعل يسكت سعدا . فقال سعد لأمية : إليك عنى ، فإنى سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك ، قال : إياى ؟ قال نعم ، قال : بمكة ؟ قال : لاأدرى ، قال: والله ما كذب محمد، فكاد يحدث أى يبول فى ثيابه فزعا ، فرجع إلى امرأته، فقال : ماتعلمين ماقال أخى اليثربى — يعنى سعد بن معاذ ؟ قالت: وما ذاك؟ قال زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى ، قالت : فوالله ما يكذب محمد . قال : فلما جاء الصريخ وأراد الخروج ، قالت له امرأته : أما علمت ما قال لك أخوك اليثربى ؟ قال : فإنى إذن لا أخرج ، فلما صمم على عدم الخروج بل أقسم بالله لا يخرج من مكة قيل له ما تقدم ، فخرج ناويا أن يرجع عنهم .

أى ومعنى كونه صلى الله عليه وسلم قاتله ، أنه كان سببا فى قتله ، وإلا فهو صلى الله عليه

وسلم لم يباشر إلا قتل أخيه . وهو أبىّ بن خلف فى أحد [ ] كما سيأتى . ومن ثم جاء فى رواية قال لأمية : إن أصحابه يعنى النبى صلى الله عليه وسلم يقتلونك .

ويحتمل أن سعد بن معاذ رضى الله عنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول « أنا أقتل أبىّ ابن خلف » ففهم رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم يريد أمية لا أبيا .

أى وفى الإمتاع : أن أمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وزمعة بن الأسود ، وحكيم ابن حزام استقسموا بالأزلام ، فخرج لهم القدح الناهى : أى المكتوب عليه لا تفعل ، فأجمعوا على المقام ، فجاءهم أبو جهل لعنه الله وأزعجهم ، وأعانه على ذلك عقبة ابن أبى معيط والنضر بن الحارث .

ويقال إن عداسا قال لسيديه عتبة وشيبة ابنى ربيعة بأبى وأمى أنتما ، والله ماتساقان إلا لمصارعكما ، فأرادا عدم الخروج ، فلم يزل بهما أبو جهل حتى خرجا عازمين على العود عن الجيش .

ولما فرغوا من جهازهم ، أى وكان ذلك فى ثلاثة أيام ، وقيل فى يومين وأجمعوا السير : أى عزموا عليه وكانوا خمسين وتسعمائة . وقيل كانوا ألفا وقادوا مائة فرس . أى عليها مائة درع سوى دروع المشاة . قال ابن إسحاق : وخرجوا على الصعب والذلول : أى لشدة إسراعهم ، والصعب : الذى لا ينقاد ، والذلول : الذى ينقاد ، معهم القيان : أى بفتح القاف وتخفيف المثناة تحت وفى آخره نون جمع قينة : وهى الأمة مطلقا . وقيل المغنية ، والمراد هنا الثانى ، لقوله فى الإمتاع : ومعهم القينات يضربن بالدفوف يغنين : أى بهجاء المسلمين .

وسيأتى فى أحد خروج جماعة من نساء قريش معهن الدفوف ، وعند خروجهم ذكروا مابينهم وبين كنانة من الحرب أى والدماء ، وقالوا : نخشى أن يأتونا من خلفنا : أى لأن قريشا كانت قتلت شخصا من كنانة ، وأن شخصا من قريش كان شابا وضيئاله ذؤابة وعليه حلة خرج فى طلب ضالة له ، فمر ببنى كنانة وفيهم سيدهم وهو عامر بن الخلوج فرآه فأعجبه ، فقال له : من أنت ياغلام ؟ فذكر أنه من قريش ، فلما ولى الغلام . قال عامر لقومه : أمالكم فى قريش من دم ؟ قالوا بلى ، فأغراهم به فقتلوه ، ثم قال بنو كنانة لقريش رجل برجل : فقالت قريش ، نعم رجل برجل . ثم إن أخا المقتول ظفر بعامر بمر الظهران فعلاه بالسيف حتى قتله ، ثم خاط بطنه بسيفه ، ثم جاء و علقه بأستار الكعبة من الليل

فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر عرفوه وعرفوا قاتله ، أى وكاد ذلك يثنيهم ، أى يصرفهم عن الخروج [] فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك المدلجى — وكان من أشراف بنى كنانة — وقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه ، فخرجوا سراعا وخرج معهم إبليس بعلمهم أن بنى كنانة وراءهم قد أقبلوا لنصرهم (وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) .

« ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عسكره ببئر أبى عتبة ، أى وأمر أصحابه أن يستقوا منها وشرب من مائها » .

وفى الإمتاع عسكر ببيوت السقيا ، وهى عين بينها وبين المدينة يومان كان يستقى له صلى الله عليه وسلم الماء منها .

وقد جاء أن عبده صلى الله عليه وسلم رباحا كان يستقى له من بئر غرس مرة ومن بيوت السقيا مرة . وقال صلى الله عليه وسلم « بئر غرس من عيون الجنة » ومن ثم غسل منها صلى الله عليه وسلم كما سيأتى . وغرس : اسم عبد كان يقوم عليها ، وقيل غير ذلك .

وأمر صلى الله عليه وسلم حين فصل من بيوت السقيا أن تعدّ المسلمون ، فوقف لهم عند بئر أبى عتبة فعدوا ، وهى على ميل من المدينة فعرض أصحابه وردّ من استصغر ، أى وكان ممن رده أسامة بن زيد، ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت رضى الله عنهم ، وردّ عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه ، وقتل وعمره ستة عشر عاما . وحينئذ يتوقف فى رده ، لأن الخمسة عشر بلوغ بالسن على ما عليه أئمتنا .

وخرج صلى الله عليه وسلم فى خمسة وثلثمائة رجل ، من المهاجرين أربعة وستون ، وباقيهم من الأنصار . وقيل كان المهاجرون نيفا وثمانين ، وكانت الأنصار نيفا وأربعين ومائتين .

وذكر الإمام الدوانى أنه سمع من مشايخ الحديث أن الدعاء عند ذكرهم يعنى أصحاب بدر مستجاب ، وقد جرب ذلك. وخلف عثمان على ابنته صلى الله عليه وسلم رقية وكانت مريضة ، أى وقيل لأنه كان مريضا بالجدرى : أى ولا مانع من وجود الأمرين، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن لك لأجر رجل وسهمه » أى وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصارى

أجمع الخروج إلى بدر وكانت أمه مريضة ، فأمره صلى الله عليه وسلم بالمقام على أمه ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر وقد توفيت ، فصلى على قبرها .

واستعمل صلى الله عليه وسلم أبا لبابة رضى الله عنه واليا على المدينة ورده من المحل المذكور ، أى من بئر أبى عتبة كذا فى الأصل . وقيل رده من الروحاء ، وهو المشهور : وهى قرية على ليلتين من المدينة كما تقدم .

واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس فى المدينة ، وخلف عاصم بن عدى على أهل قباء وأهل العالية ، أى لشىء بلغه عن أهل مسجد الضرار لينظر فى ذلك ، وكسر بالروحاء خوات بن جبير .

أى وفى كلام ابن عبد البر وقال موسى بن عقبة : خرج خوات بن جبير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغ الصفراء أصاب ساقه حجر ودميت رجله واعتلت فرجع ، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه . وأهـــل الأخبار يقولون إنه شهد بدرا .

وله فى الجاهلية قصة مشهورة مع ذات النحيين : التى تضرب العرب بها المثل فتقول « أشغل من ذات النحيين » وهى خولة « يروى أنه صلى الله عليه وسلم سأله عنها وتبسم ، فقال : يارسول الله قد رزقنى الله خيرا منها ، وأعوذ بالله من الحور بعد الكور » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم قال له : مافعل بعيرك الشارد » يعرّض بهذه القصة ، فقال : قيده الإسلام يارسول الله ، وقيل لم يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا القول لتلك القضية ، وإنما هو لقضية أخرى هى « أن خوّاتا مر بنسوة فى الجاهلية أعجبه حسنهن ، فسألهن أن يفتلن له قيدا لبعيره وزعم أنه شارد ، وجلس إليهن بهذه العلة ، فمر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث إليهن ، فأعرض عنه وعنهن ، فلما أسلم سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك البعير وهو يتبسم . وكسر أيضا الحارث بن الصمة .

وبعث له صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد رضى الله عنهم يتحسسان خبر العير . والتحسس للأخبار بالحاء المهملة : أن يفحص الشخص عن الأخبار بنفسه ، وبالجيم : أى يفحص عنها بغيره . وجاء « تحسسوا ولا تجسسوا » ولم يحضرا لهذا القتال ، بل رجعا بخبر العير إلى المدينة على ظن أنه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فلما علما أنه ببدر خرجا إليه فلقياه منصرفا من بدر ، وأسهم لكل وصار كل من أسهم له يقول « وأجرى

يارسول الله ؟ فيقول : وأجرك . ودفع صلى الله عليه وسلم اللواء وكان أبيض إلى مصعب ابن عمير ، وكان أمامه صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوتان : إحداهما مع على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أى ويقال لها العقاب ، وكانت من مرط لعائشة » .

وفى كلام بعضهم : كان أبو سفيان بن حرب من أشراف قريش وكانت إليه راية الرؤساء المعروفة بالعقاب ، وكان لايحملها فى الحرب إلا هو أو رئيس مثله ، وسيأتى أنه حملها فى هذه الغزوة الأب الخامس لإمامنا الشافعى وهو السائب بن يزيد « والأخرى مع بعض الأنصار » وابن قتيبة اقتصر على الأولى . وذكر بعضهم أن بعض الأنصار هذا قيل هو سعد بن معاذ ، وقيل الحباب بن المنذر ، وهذا يرد ماتقدم فى غزوة بواط عن ابن إسحاق ، وما سيأتى فى غزوة بنى قينقاع . عن ابن سعد أن الرايات لم تكن وجدت وإنما حدثت يوم خيبر .

ومما يؤيد الرد ماجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى عليا كرم الله وجهه الراية يوم بدر وهو ابن عشرين سنة » وفى الهدى أن لواء المهاجرين كان مع مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، ولم يذكر الرايتين .

وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم عقد الألوية وهى ثلاثة ، لواء يحمله مصعب ابن عمير ، ورايتان سوداوتان : إحداهما مع على ، والأخرى مع رجل من الأنصار وفيه إطلاق اللواء على الراية ، وقد تقدم أن جماعة من أهل اللغة صرحـــوا بترادف اللواء والراية .

وكان صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة على غير لواء معقود . وقال فى الأصل : والمعروف أن سعد بن معاذ كان على حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش أى كما سيأتى ، قال أى جوابا عما تقدم عن الأصل العريش كان ببدر ؛ أى وهذا كان عند خروجهم وفى الطريق ، فلا منافاة أى لأنه يجوز أن يكون فى بدر دفع الراية لغيره بإذنه صلى الله عليه وسلم ليكون معه فى العريش ولبس صلى الله عليه وسلم درعه ذات الفضول ، وتقلد صلى الله عليه وسلم سيفه العضب .

وحين فصل صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا قال : اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك ، فما رجع أحد منهم يريد

أن يركب إلا وجد ظهرا ، للرجل البعير والبعيران ، واكتسى من كان عاريا ، وأصابوا طعاما من أزوادهم ، وأصابوا فداء الأسارى ، فاغتنى به كل عائل .

وكان حبيب بن يساف ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم ، ولكنه خرج نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة ، ففرح المسلمون بخروجه معهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايصحبنا إلا من كان على ديننا » أي وفى رواية « ارجع فإنا لانستعين بمشرك » أي وسيأتي فى أحداثه صلى الله عليه وسلم قال « لاننتصر بأهل الشرك على أهل الشرك » لما رد حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول من يهود « وتكررت من حبيب المراجعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى الثالثة قال له : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال نعم ، فأسلم وقاتل قتالا شديداً » .

وفى الإمتاع وقدم حبيب بن يساف بالروحاء مسلما . ولا مخالفة ، لجواز أن يكون أسلم قبل الروحاء .

« ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم صام يوما أو يومين ، ثم نادى مناديه ، يامعشر العصاة إنى مفطر فأفطروا » .

وذلك « أنه صلى الله عليه وسلم كان قال لهم قبل ذلك أفطروا فلم يفطروا ، انتهى وسيأتي فى فتح مكة أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالفطر فلم يفعل جماعة منهم ذلك ، فقال أولئك العصاة ، وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي التى معهم يومئذ سبعين بعيرا ، فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيرا ، أي إلا ما كان من حمزة وزيد بن حارثة وأبي كبشة وأنيسة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هؤلاء الأربعة كانوا يعتقبون بعيرا » .

أي وعن عائشة رضى الله تعالى عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر » .

وفى الإمتاع : فكانوا يتعاقبون الإبل الاثنين والثلاثة والأربعة ، هذا كلامه « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبي طالب كرّم الله وجهه ومرثد يعتقبون بعيرا » وفى لفظ «كان أبو لبابة وعلى والنبى صلى الله عليه وسلم يعتقبون بعيرا » أي وذلك قبل أن يرد أبا لبابة للمدينة من الروحاء ، وبعد أن رده قام مقامه مرثد،وقيل زيد بن حارثة، وقيل زيد كان مع حمزة أي كما تقدم .

ويجوز أنه كان مع حمزة تارة ، ومع النبى صلى الله عليه وسلم أخرى ، فكان إذا كانت عقبة النبى صلى الله عليه وسلم قالا له : أى رفيقاه: اركب حتى نمشى معك ، فيقول «ما أنتما بأقوى منى على المشى، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما» ؛

«وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم يعتقبون بعـــيرا ، أى ورفاعة وخـــلاد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصارى يعتقبون بعيرا ، حتى إذا كانوا بالروحاء برك بعيرهم عيا ، فمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله برك علينا بكرنا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتمضمض وألقاه فى إناء» أى وفى الامتاع «فتمضمض وتوضأ فى إناء ، ثم قال : افتح فاه ، فصب منه فى فيه ثم صب باقى ذلك عليه ، ثم قال : اركبا ومضى فلحقاه ؛ وإنه لينفر بهم» أى وأمر صلى الله عليه وسلم بإحصاء من معه ، وهو محتمل لأن يكون أمر بذلك ثانيا بعد الروحاء بعد أن رد أبا لبابة «وبعد عدهم فى بئر أبى عتبة ، فإذا هم ثلثمائة وثلاثة عشر ، ففرح بذلك ، وقال عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر» وهذا قول عامة السلف كما قاله ابن جرير رحمه الله ، ومن زاد على ذلك عدّ منهم من رده صلى الله عليه وسلم من الروحاء ومن أسهم له ولم يحضر ومن نقص عن ذلك ، وعدهم ثلثمائة وخمس رجال أو ست رجال أو سبعة رجال ، فالجواب عنه لايخفى .

وكان فى الجيش خمسة أفراس : فرسان له صلى الله عليه وسلم وفرس لمرثد ، ويقال له السيل ، وفرس للمقداد بن الأسود نسب إليه لأنه تبناه فى الجاهلية كما تقدم ، ويقال لها سبحة ، وفرس للزبير ويقال له اليعسوب ، وقيل لم يكن فى الجيش إلا فرسان ، فرس المقداد وفرس الزبير .

وعن على رضى الله تعالى عنه : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد .

أقول : يجوز أن يكون المراد لم يقاتل يوم بدر فارسا إلا المقداد وغيره ممن له فرس قاتل راجلا ؛ ويؤيده مايأتى «أنه صلى الله عليه وسلم لما قسم الغنيمة لم يميز أحدا عن أحد الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس» لكن قد يخالفه قول الزمخشرى فى خصائص العشرة «كان الزبير رضى الله عنه صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وليس على الميمنة يومئذ فارس غيره» هذا كلامه . إلا أن يقال كون الزبير فارسا على الميمنة

لايخالف كون المقداد فارسا فى محل آخر مع الجماعة الذين فيهم سيدنا على كرّم الله وجهه فقول سيدنا على لم يكن فينا : أى فى الجماعة الملازمين لنا تأمل ، والله أعلم .

وفى أثناء الطريق بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له الناس: سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أفيكم رسول الله ؟ قالوا نعم ، فسلم عليه، ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرنى بما فى بطن ناقتى هذه ؟ فقال له سلامة بن سلامة بن وقش : لاتسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل علىّ أنا أخبرك عن ذلك ، نزوت عليها ففى بطنها منك سخلة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه أفحشت على الرجل ، ثم أعرض عن سلامة فلما نزلوا بواد يقال له « ذفران » بكسر الفاء : أى وهو واد قريب من الصفراء أتاه الخبر عن قريش ، بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وأخبرهم الخبر : أى قال لهم إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول أى مسرعين ، فما تقولون ؟ العير أحب إليكم من النفير ؟ فقالوا : بلى ، أى قالت ذلك طائفة منهم العير أحب إلينا من لقاء العدو . وفى رواية هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ، إنا خرجنا للعير وفى رواية « يارسول الله عليك بالعير ودع العدو ، فعند ذلك تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقد روى ذلك عن أبى أيوب رضى الله عنه فى سبب نزول قوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) وعند ذلك قام أبو بكر فقال وأحسن ، ثم قام عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد فقال : يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل : أى لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون مادامت منا عين تطرف ، فوالله الذى بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد — وهى مدينة بالحبشة — لجالدنا : أى ضربنا بالسيوف معك من دونه حتى نبلغه . وفى لفظ « نقاتل عن يمينك وعن يسارك . ومن بين يديك ومن خلفك ، قال ابن مسعود : فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرق لذلك وسر بذلك » .

وفى الكشاف « فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ثم دعا له بخير » .

هذا ، وفى العرائس روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه يوم الحديبية

حين صد عن البيت إنى ذاهب بالهدى ، فتأخر عند البيت واستشار أصحابه فى ذلك ، فقال المقداد بن الأسود أما والله لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكنا نقول إنا معكم مقاتلون ، والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك ومن بين يديك ، ولو خضت بحرا لخضناه معك ، ولو علوت جبلا لعلوناه معك ،ولو ذهبت بنا برك الغماد لتابعناك ، فلما سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تابعوه، فأشرق عند ذلك وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعدد ممكن لكنه بعيد ثم ثم قال أشيروا علىّ ، فقال عمر يارسول الله إنها قريش وعزها والله ماذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت والله لتقاتلنك ، فتأهب لذلك أهبته واعدد لذلك عدته ، أى ثم استشارهم ثالثا ، فقال أشيروا علىّ أيها الناس ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، وذلك لأنهم عدد الناس : أى أكثرهم عددا ومن ثم قيل : وإنما كرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشارة : أى فى ذلك المجلس ليعرف حال الأنصار ، فإنه تخوف أن لاتكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه أى جاءه على حين غفلة بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم عملا بظاهر قولهم له صلى الله عليه وسلم حين بايعوه عند العقبة «يارسول الله إناء برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع به أبناءنا ونساءنا ، ومن ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس . وقيل سعد ابن عبادة سيد الخزرج وإنما حكى بصيغة التمريض لأنه قد اختلف فى عده فى البدريين .
والصحيح أنه لم يشهد بدرا فإنه كان تهيأ للخروج فنهش بالمهملة أى لدغته الحية قبل أن يخرج فأقام أى وضرب له بسهم ، فقال : لعلك تريدنا معاشر الأنصار يارسول الله ، فقال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، زاد فى رواية ولعلك يارسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها أن لاينصروك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت . وفى لفظ وصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا

وإنا لصبر فى الحرب ، صدق اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك . وفى لفظ : بعض ماتقربه عينك فسر بنا على بركة الله تعالى ، فنحن عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك » فسر النبى صلى الله عليه وسلم لذلك ، أى وأشرق وجهه بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : سيروا وأبشروا فان الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، أى وهما عير قريش ومن خرج من مكة من قريش يريد حماية ذلك العير « فوالله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » أى فقد أعلمه الله تعالى بعد وعده بذلك بالظفر بالطائفة الثانية ، وأراه مصارعهم فعلم القوم أنهم ملاقون القتال وأن العير لاتحصل لهم .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب صلى الله عليه وسلم هو وأبوبكر رضى الله عنه ، أى وقيل بدل أبى بكر قتادة بن النعمان ، وقيل معاذ بن جبل حتى وقفا على شيخ من العرب أى يقال له سفيان قال فى النور : لاأعلم له إسلاما ، فسأله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه ومابلغه عنهم . فقال الشيخ ، لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخبرتنا أخبرناك فقال الشيخ ذاك بذاك قال نعم ، قال فإنه قد بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذى أخبرنى به فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى نزلت به قريش فلما فرغ من خبره قال من أنتما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء أى من ماء دافق وهو المنى ، ثم انصرفا عنه . فقال الشيخ من ماء من ماء العراق ؟ فهم أن المراد بالماء حقيقته .

أى لكن فى الإمتاع « فقال النبى صلى الله عليه وسلم نحن من ماء ، وأشار بيده إلى العراق . فقال : من ماء العراق » أى وأضيف الماء إلى العراق لكثرته به ، وفيه أن هذا من التورية ، وقد تقدم فى أوائل الهجرة أنه لا ينبغى لنبى أن يكذب ولو صورة ، ومنه التورية .

لكن فى كلام القاضى البيضاوى وما روى « أنه عليه الصلاة والسلام قال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ثلاث كذبات » تسمية للمعاريض كذبا لما شابهت صورتها صورته .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ودعا لهم فقال : اللهم إنهم حفاة فاحملهم

اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، ففتح الله لهم يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد زجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا » أخرجه أبو داود عن عمرو ابن العاص رضى الله تعالى عنه : أى شبعوا واكتسوا بما أصابوه من كسوة وأزواد قريش .

وفى الإمتاع أن دعاءه صلى الله عليه وسلم المذكور كان عند مفارقته محل معسكره بالمدينة وهو بيوت السقيا كما تقدم ، وتقدم فيه زيادة وعالة فأغنهم ، فأصابوا الأسرى فاغتنى بهم كل عائل ولا مانع أن يكون دعاؤه صلى الله عليه وسلم بذلك تكرر .

« فلما أمسى صلى الله عليه وسلم بعث عليّ بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه رضى الله تعالى عنهم إلى بدر يلتمسون الخبر ، فأصابوا راوية لقريش معها غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص ، فأتوا بهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فقالوا : لمن أنتما ؟ وظنوا أنهما لأبى سفيان ، فقالا : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء فضربوهما ، فلما أوجعوهما ضربا قالا : نحن لأبى سفيان فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته قال : إذا صدقاكم ضربتوهما وإذا كذبا كم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش ، أخبرانى عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب » أى التل من الرمل الذى يرى بالعدوة القصوى : أى جانب الوادى المرتفع « فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالا كثير » أى وفى لفظ هم والله كثير عددهم ، شديد بأسهم ، قال : ما عدتهم ؟ قالا لا ندرى ، أى وجهد النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبراه كم هم فأبيا . قال صلى الله عليه وسلم كم تنحرون ؟ أى من الجزر كل يوم ؟ قالا يوما تسعا ويوما عشرا ، فقال صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة والألف » أى لكل جزور مائة ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو العامرى أى رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك يوم الفتح ، وهو من أشراف قريش وخطبائهم ، وسيأتى أنه ممن أسر فى هذه الغزاة وعمرو بن عبدود فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس ، فقال : «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ - أى قطع - كبدها أى أشرافها وعظماءها » وذكر أن مسيرهم وإقامتهم كانت عشر

ليال حتى بلغوا الجحفة : أى وهى قرية بقرب رابغ كما تقدم ، نزلوا بها عشاء : أى وفى الإمتاع أنهم ردوا القيان من الجحفة .

أقول : هذا والذى فى مسلم وأبى داود عن أنس رضى الله تعالى عنه « فاذا هم بروايا قريش فيها رجل أسود لبنى الحجاج ، فجاءوا به ، فكانوا يسألونه عن أبى سفيان فيقول : مالى بأبى سفيان علم ، فإذا قال ذلك ضربوه ، وإذا قال هذا أبو سفيان تركوه » الحديث .

أى وفى الامتاع « وأخذ تلك الليلة يسار غلام عبيدة بن سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبه بن الحجاج وأبو رافع غلام أمية بن خلف ، فأتى بهم النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى » الحديث .

وقد يقال : لا منافاة ، لأن بعض الرواة ذكر الثلاثة ، وبعضهم اقتصر على اثنين ، وبعضهم اقتصر على واحد ، والله أعلم .

وكان مع قريش رجل من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له جهم بن الصلت رضى الله تعالى عنه » . فإنه أسلم فى عام خيبر « وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ثلاثين وسقا ، وقيل أسلم بعد الفتح فوضع رأسه فأغفى ، ثم قام فزعا ، فقال لأصحابه هل رأيتم الفارس الذى وقف علىّ فقالوا لا ، قال : قد وقف علىّ فارس فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البخترى وأمية بن خلف وفلان وفلان ، وعدّ رجالا من أشراف قريش ممن قتل يوم بدر ، أى وقال : أسر سهيل بن عمرو وفلان وفلان ، وعدّ رجالا ممن أسر ، قال : ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبة بعيره ، ثم أرسله فى العسكر ، فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه ، فقال له أصحابه : إنه لعب بك الشيطان ، ولما شاعت هذه الرؤيا فى العسكر وبلغت أبا جهل قال : قد جئتم بكذب بنى عبد المطلب مع كذب بنى هاشم سيرون غدا من يقتل » وفى لفظ « قال أبو جهل : هذا نبى آخر من بنى المطلب ، سيعلم غدا من المقتول ، نحن أو محمد وأصحابه ، وأول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل بن هشام عشر جزائر أى بمر الظهران ، وكانت جزور منها بعد أن نحرت بها حياة فجالت فى العسكر ، فما بقى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها » كذا فى الإمتاع .

ومن هذا المحل رجع بنو عدى أى تفاؤلا بذلك ، ثم نحر لهم سفيان بن أمية بعسفان تسع جزائر ، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشر جزائر ، وساروا من قديد فضلوا بهائم

ثم أصبحوا بالجحفة، فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشر جزائر ، فلما أصبحوا بالأبواء نحر لهم مقيس بن عمرو الجمحي تسع جزائر أى ويقال إن الذى نحر لهم بالأبواء نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشرا ، ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشر جزائر ، ونحر لهم الحارث بن عامر ابن نوفل تسعا ، ونحر لهم أبو البحترى على ماء بدر عشر جزائر ، ونحر لهم مقيس الجمحي على ماء بدر تسعا ، أى ثم شغلهم الحرب فأكلوا من أزوادهم ، ثم مضى رجلان من الصحابة أى قبل وصوله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، وكذا قبل وصول قريش إلى بدر كما يدل عليه الكلام الآتى خلاف ما يدل عليه هذا السياق إلى ماء بدر « فنزلا قريبا منه عند تل هناك ، ثم أخذا شنا لهما يستقيان فيه وشخص على الماء وإذا جاريتان يتلازمان : أى يتخاصمان ، وتمسك إحداهما الأخرى على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها إنما يأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم وأقضيك الذى لك ، فقال ذلك الرجل الذى على الماء صدقت ، ثم خلص بينهما ، وسمع ذلك الرجلان فجلسا على بعيرهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بما سمعا ثم إن أبا سفيان تقدم العير حذرا حتى ورد الماء ، فلقى ذلك الرجل ، فقال له : هل أحسست أحدا ؟ قال : ما رأيت أحدا أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ثم انطلقا » .

فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيرهما ففتته ، فإذا فيه النوى ، فقال : والله علائف يثرب ، فرجع إلى أصحابه سريعا فصوب عيره عن الطريق وترك بدرا بيسار ، وانطلق حتى أسرع ، فلما علم أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش ، أى وقد كان بلغه مجيئهم ليحرزوا العير وكانوا حينئذ بالجحفة إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله تعالى فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم عليه ثلاثة أيام ، فلا بد أن ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان أى تضرب بالمعازف : أى الملاهى ، وقيل الدفوف ، وقيل الطنابير وقيل نوع منها يتخذه أهل اليمن ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها وسيأتى فى غزاة بدر الموعد أن موسم بدر يكون عند هلال ذى القعدة فى كل عام يمكث ثمانية أيام ، ويبعد إرادة ذلك لأبى جهل أى إقامتهم ببدر بقية رمضان وتمام شوال .

قال « ولما أرسل أبو سفيان يقول لقريش ما تقدم، أى ورد عليه أبو جهل بما ذكر

قال : هذا بغى ، والبغى منقصة وشؤم وعند ذلك رجع منهم بنو زهرة وكانوا نحو المائة انتهى » أى وقيل ثلثمائة ، وقائدهم كان الأخنس بن شريق .

وفى كلام ابن الأثير « فلم يقتل منهم » أى من بنى زهرة أحد « ببدر » وفى كلام غيره « ولم يشهد بدرا أحد من بنى زهرة إلا رجلان قتلا كافرين ، فإن الأخنس قال لبنى زهرة يابنى زهرة قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، واجعلوا بى جبنها ، وارجعوا فإنه لاحاجة لكم بأن تخرجوا فى غير منفعة لاما يقول هذا » يعنى أبا جهل « وقال لأبى جهل أى وقد خلا به ، أترى محمدا يكذب؟ فقال : ماكذب قط ، كنا نسميه الأمين ، لكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ، ثم تكون فيهم النبوة فأى شىء يكون لنا ؟ فانخنس الأخنس ورجع ببنى زهرة » أى واسمه أبى وإنما لقب بالأخنس من حين رجع ببنى زهرة ، فقيل خنس بهم فسمى الأخنس ، كان حليفا لبنى زهرة ومقدما فيهم رضى الله تعالى عنه — فإنه أسلم يوم الفتح ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤلفة قلوبهم » .

ورأيت عن السهيلى « أنه قتل يوم بدر كافرا » وتبعه على ذلك التلمسانى فى حاشية الشفاء واستدل له بقول القاضى البيضاوى : أن قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) الآية نزلت فى الأخنس بن شريق . وفى الإصابة أنه كان من المؤلفة ، ومات فى خلافة عمر .

وعن السدى « أن الأخنس جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأظهر إسلامه وقال : الله يعلم إنى لصادق ثم هرب بعد ذلك ، فمر بقوم مسلمين فحرق زرعهم ، فنزلت (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) إلى قوله (وبئس المهاد) » .

قال ابن عطية ، ماثبت قط أن الأخنس أسلم ، قلت قد أثبته فى الصحابة جماعة ، ولا مانع أن يكون أسلم ثم ارتد ثم رجع إلى الإسلام ، هذا كلام الإصابة .

وفى كلام ابن قتيبة ، ولم يسلم الأخنس ، وفى كلام بعضهم : ثلاثة ابن وأبوه وجده شهدوا بدرا الأخنس وابنه يزيد وابنه معن فليتأمل ذلك .

« قال وأراد بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل وقال : لاتفارقنا هذه العصابة حتى نرجع » انتهى .

ثم لم يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من الماء ، ونزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم والمسلمون بعيدا من الماء ، بينهم وبين الماء رحلة ، فظمئ المسلمون وأصابهم ضيق شديد ، وأجنب غالبهم ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس إليهم ، تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وأنكم على الحق وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش ، وتصلون مجنبين ، أى وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ، ويذهب قواكم ، فيحكموا فيكم كيف شاءوا » .

وفى الكشاف « فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم ، فقتلوا من أحبوا ، وساقوا بقيتكم إلى مكة ، فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا ، وكان الوادى دهسا بالسين المهملة » أى لينا كثير التراب تسيخ فيه الأقدام ، فبعث الله السماء » أى المطر « فأطفأت الغبار ، ولبدت الأرض » أى شدتها للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، أى وطهرهم به وأذهب عنهم رجز الشيطان » أى وسوسته « وشربوا منه وملئوا الأسقية وسقوا الركائب ، واغتسلوا من الجنابة ، أى وطابت نفوسهم ، فذلك قوله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) » أى من الأحداث (ويذهب عنكم رجز الشيطان) » أى وسوسته «(وليربط على قلوبكم) » أى يشدها ويقويها « (ويثبت به الأقدام) » أى بتلبيد الأرض حتى لا تسوخ فى الرمل « وأصاب قريشا منها مالم يقدروا على أن يرتحلوا منه أى ويصلوا إلى الماء » أى فكان المطر نعمة وقوة للمؤمنين وبلاء ونقمة للمشركين .

وعن على رضى الله تعالى عنه « أصابنا من الليل طش من مطر ، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه » .

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه « ما كان فينا أى تلك الليلة قائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تحت شجرة ويكثر فى سجوده أن يقول ، يا حى ياقيوم يكرر ذلك حتى أصبح أى لأن المسلمين أصابهم تلك الليلة نعاس شديد يلقى الشخص على جنبه » .

أى وعن قتادة « كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين ، نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد » لأن النعاس هنا كان ليلا قبل القتال ؛ وفى أحد كان وقت القتال ، وكون النعاس أمنة وقت القتال أو وقت التأهب له وهو وقت المصافة واضح لاقبله .

هذا وذكر الشمس الشامى أنه لما نزلت الملائكة والناس بعد على مصافهم لم يحملوا على عدوهم ، وبشرهم صلى الله عليه وسلم بنزول الملائكة حصل لهم الطمأنينة والسكينة ، وقد حصل لهم النعاس الذى هو دليل على الطمأنينة ، وربما يقتضى أنه حصل لهم النعاس

عند المصافة ، وإلا فقد يقال إن قوله وقد حصل لهم النعاس جملة حالية ، أى والحال أنه حصل لهم قبل ذلك فى تلك الليلة ، لافى وقت المصافة .

ولا يبعد ذلك قوله بعد ذلك : ولهذا قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : النعاس فى المصاف من الإيمان والنعاس فى الصلاة من النفاق ، أى لأنه فى الأول يدل على ثبات الجنان ، وفى الثانى يدل على عدم الاهتمام بأمر الصلاة .

« فلما أن طلع الفجر نادى صلى الله عليه وسلم الصلاة عباد الله ، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرض على القتال » أى فى خطبة خطبها « فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد فإنى أحثكم على ماحثكم الله عليه ، إلى أن قال : وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله تعالى به الهم وينجى به من الغم » الحديث .

« ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم » أى يسابق قريشا إلى الماء « فسبقهم عليه ، حتى جاء أدنى ماء من بدر » أى أقرب ماء إلى بدر من بقية مياهها « فنزل به صلى الله عليه وسلم ، فقال له الحباب بن المنذر ، يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال: يارسول الله إن هذا ليس بمنزل ؛ فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم » أى إذا نزل القوم : يعنى قريشا كان ذلك الماء أقرب المياه ؛ أى محله أقرب المياه إليهم . قال الحباب : فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لاينزح ، فننزله ثم نغور ما عداه من القلب : أى وهى الآبار غير المبنية ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون ؛ لأن القلب كلها حينئذ تصير خلف ذلك القليب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى ، ونزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرأى ماأشار إليه الحباب ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم » أى من المحل الذى ينزل به القوم « فنزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت » بسكون الواو .

وقال السهيلى : لما كانت القلب عينا جعلها كعين الإنسان ، ويقال فى عين الإنسان غرتها فغارت ، ولا يقال غورتها أى بالتشديد « وبنى صلى الله عليه وسلم حوضا على القليب

الذى نزل به فملآه ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية ، ومن يومئذ قيل للحباب ذو الرأى » وظاهر كلام بعضهم أنه كان معروفا بذلك قبل هذه الغزاة .

وفيه أن ذلك القليب إذا كان خلف ظهورهم وسائر القلب خلفه ما المعنى فى تغويرها لأنها إذا لم تغورهم يشربون ولا يشرب القوم . إلا أن يقال : المعنى لئلا يأتوا إليها من خلفهم ، فالغرض قطع أطماعهم من الماء ، فليتأمل ، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « بل هو الرأى » على جواز الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم فى الحرب نظرا لصورة السبب أو مطلقا لأن صورة السبب لاتخصص ، وجواز الاجتهاد له مطلقا هو الراجح .

ومما استدل به على وقوع الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم فى الأحكام قوله « إلا الإذخر » عقب ما قيل له إلا الإذخر . قال السبكى : وليس قاطعا ، لاحتمال أن يكون أوحى إليه فى تلك اللحظة .

هذا ، وفى كلام بعضهم أنهم نزلوا على ذلك القليب نصف الليل فصنعوا الحوض وملئوه وقذفوا فيه الآنية بعد أن استقوا منه ، وسيأتى مايؤيده .

« وقال سعد بن معاذ : يانبى الله ألا نبنى عريشا » أى وهو شىء كالخيمة من جريد يستظل به « تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة فى الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ، أى وقال : أو يقضى الله خيرا من ذلك ياسعد أى وهو نصرهم وظهورهم على عدوهم ثم بنى » أى ذلك العريش « لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى فوق تل مشرف على المعركة [ ] كان فيه » .

أى وعن على رضى الله تعالى عنه « أنه قال لجمع من الصحابة ، أخبرونى عن أشجع الناس ؟ قالوا أنت ؛ قال : أشجع الناس أبو بكر ، لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشا فقلنا : من مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى من يكون معه « لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ، فو الله ، ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لايهوى إليه أحد إلا أهوى إليه » أى

ولذلك حكم على أنه أشجع الناس . وبه يرد قول الشيعة والرافضة إن الخلافة لايستحقها إلا على ، لأنه أشجع الناس ، أى وهذا كان قبل أن يلتحم القتال ، وإلا فبعد التحامه كان على على باب العريش الذى به صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وسعد بن معاذ قائمان على باب العريش فى نفر من الأنصار كما سيأتى .

ومما استدل على أن أبابكر أشجع من على أن عليا أخبره النبى صلى الله عليه وسلم أنه لايقتله إلا ابن ملجم ، فكان إذا دخل الحرب ولاقى الخصم علم أنه لاقدرة له على قتله ، فهو معه كالنائم على فراشه . وأما أبوبكر فلم يخبر بقاتله ، فكان إذا دخل الحرب لايدرى هل يقتل أولا ، ومن هذه حاله يقاسى من التعب مالا يقاسيه غيره .

ومما يدل على ذلك ما وقع له فى قتال أهل الردة ، وتصميمه العزم على مقاتلة مانعى الزكاة مع تثبيط سيدنا عمر له عن ذلك .

« فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكثيب » هذا يؤيد القول بأنه صلى الله عليه وسلم سار بأصحابه ليلا يبادرهم إلى الماء ، لأن ذلك بعد طلوع الفجر وصلاة الصبح كما تقدم ، لأن الظاهر من قول الراوى أقبلت : أى عليهم هم ماكثون .

ويؤيده أيضا مافى مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليلة بدر » أى بعد أن وصل إلى محل الوقعة « هذا مصرع فلان إن شاء الله غدا ووضع يده على الأرض ، وهذا مصرع فلان ههنا ، وهذا مصرع فلان ههنا . قال أنس : ماماط أحدهم عن موضع يده صلى الله عليه وسلم » أى ماتنحى فليتأمل الجمع .

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا وقد أقبلت بالدروع السابغة والجموع الوافرة والأسلحة الشاكية أى التامة قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها » أى أى كبرها وعجبها وفخرها « تجادلك : أى تعاديك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فنصرك » أى أنجز نصرك « الذى وعدتنى » أى وفى لفظ « اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتنى بالثبات ، ووعدتنى إحدى الطائفتين ، أى وقد فاتت إحداهما وهى العير وإنك لاتخلف الميعاد . اللهم أحنهم » أى أهلكهم « الغداة » وفى رواية « اللهم لاتفلتن أبا جهل فرعون هذه الأمة ، اللهم لاتفلتن زمعة بن الأسود ، اللهم واسحق عين أبى زمعة ، وأعم بصر أبى زمعة ، اللهم لاتفلتن سهيلا » الحديث .

« ولما اطمأنت قريش أرسلوا عمير بن وهب الجمحى — أى رضى الله تعالى عنه —

فإنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وشهد أحدا معه صلى الله عليه وسلم [ ] فقالوا : احزر لنا أصحاب محمد » أى انظر لنا عدتهم « فاستجال بفرسه حول عسكر النبى صلى الله عليه وسلم ثم رجع إليهم ، فقال : ثلثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمينا أو مددا ، فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا ثم رجع إليهم وقال : ما رأيت شيئا ، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا » أى وهى فى الأصل النوق تبرك على قبر صاحبها ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت « تحمل المنايا » أى الموت « أى نواضح يثرب تحمل الموت الناقع » أى البالغ .

زاد بعضهم : ألا ترونهم خرسا لايتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى ، لايريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم ، زرق العيون كأنهم الحصا تحت الحجف ، يعنى الأنصار قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله مانرى أن نقتل منهم رجلا حتى يقتل رجل منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم ؛ فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لاتزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك ياحكيم ؟ قال : ترجع بالناس ؛ فقام عتبة خطيبا فقال ، يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لايزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون ،أى ياقوم أعصبوها اليوم برأسى ، أى اجعلوا عارها متعلقا بى ، وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم [ ] .

أى وفى لفظ آخر « أن حكيم بن حزام قال لعتبة بن ربيعة : تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى » أى الذى قتله واقد بن عبد الله فى سرية عبد الله ابن جحش إلى نخلة ، وهو أول قتيل قتله المسلمون « وتحمل ما أصاب محمد من تلك العير أى الذى غنمه عبد الله بن جحش » كما سيأتى فى السرايا « فإنهم لايطلبون من محمد إلا ذلك ؟ فقال عتبة نعم قد فعلت ، أى هو حليفى فعلىّ عقله وما أصيب من المال ، ونعم ما قلت ، ونعم مادعوت إليه ، وركب عتبة جملا له وصار يجيله فى صفوف قريش

يقول : ياقوم أطيعونى فإنكم لاتطلبون غير دم ابن الحضرمى وما أخذ من العير ، وقد تحملت ذلك .

زاد بعضهم « أنه قال : يا معشر قريش أنشدكم الله فى هذه الوجوه التى تضىء ضياء المصابيح » يعنى قريشا «أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنها عيون الحيات » يعنى الأنصار ، وهذا كما ترى وما يأتى أيضا يضعف قول من قال إنه صلى الله عليه وسلم عقل ابن الحضرمى أى أعطى ديته .

« وقد كان صلى الله عليه وسلم لما رأى قريشا أقبلت من الكثيب وعتبة على جمل أحمر قال : إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر » .

أى وفى رواية « إن يكن أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم راكب الجمل الأحمر يجيله فى صفوف قريش ، قال : ياعلى ناد حمزة وكان أقربهم إلى المشركين ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صاحب الجمل الأحمر ، وماذا يقول لهم ؟ فقال : هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال » وحينئذ يكون قوله صلى الله عليه وسلم إن يكن فى أحد من القوم خير الخ من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم [ ] .

« ثم قال عتبة لحكيم بن حزام انطلق لابن الحنظلية » يعنى أبا جهل « قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد سل درعا له من جرابها » أى أخرجها منه ، فقلت له : « ياأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا للذى قال ، فقال : انتفخ والله سحره » أى رئته كلمة تقال للجبان .

وفى لفظ أنه قال لعتبة ، وقد جاء إليه ، أنت تقول هذا ؟ والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته أى قلت له اعضض على بظر أمك أن قد ملأت رئتك جوفك رعبا كلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وقال لحكيم : ما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور أى فى قلة بحيث يكفيهم الجزور وفيهم ابنه أى وهو أبو حذيفة رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان ممن أسلم قديما « فقد تخوفكم عليه .

أى وفى رواية أنه قال : يا معشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا ، لأن ابنه مع محمد ومحمد ابن عمه ، فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه ، فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال ، سيعلم أينا أفسد لقومه .

أى ومن غريب الاتفاق أن أم أبان بنت عتبة بن ربيعة المذكور كان لها أربعة إخوة وعمان،كل منهم حضر بدرا اثنان من إخوتها مسلمان ، واثنان مشركان ، وواحد من عميها مسلم ، والآخر كافر ، فالأخوان المسلمان : أبو حذيفة ومصعب بن عمير ولعله كان أخاها لأمها ، والكافران : الوليد بن عتبة وأبو عزيز ، والعم المسلم معمر بن الحارث ولعله كان أخا لعتبة لأمه ، والعم الكافر شيبة بن ربيعة ، وكان من حكمة الله تعالى أن الله جعل المسلمين قبل أن يلتحم القتال فى أعين المشركين قليلا استدراجا لهم ليقدموا ، ولما التحم القتال جعلهم الله فى أعين المشركين كثيرا ليحصل لهم الرعب والوهن ، وجعل الله المشركين عند التحام القتال فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم .

ومن ثم جاء عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل أتراهم سبعين ، قال : أراهم مائة ، وأنزل الله تعالى (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم) ، ومن ثم قال الله تعالى (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم) أى يرى أولئك الكفار المؤمنين (مثليهم رأى العين) .

أى وقد ذكر أن قباث بن أشيم رضى الله تعالى عنه — فانه أسلم بعد ذلك — قال فى نفسه يوم بدر : لو خرجت نساء قريش بأكمتها لردّت محمدا وأصحابه . وعنه أنه قال : لما كان بعد الخندق قدمت المدينة سألت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هو ذاك فى محل المسجد مع ملأ من أصحابه ، فأتيته وأنا لاأعرفه من بينهم ، فسلمت عليه فقال صلى الله عليه وسلم « ياقباث أنت القائل يوم بدر : لو خرجت نساء قريش بأكمتها ردت محمدا وأصحابه ، فقال قباث : والذى بعثك بالحق ما تحدث به لسانى ولا ترفرفت به شفتاى ولا سمعه منى أحد ، وما هو إلا شئ هجس فى قلبى » وحينئذ يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم له «أنت القائل: أى فى نفسك، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن ماجئت به الحق .

« ولما بلغ عتبة ما قاله أبو جهل قال : سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره أنا أم هو » وقد تقدم معنى مصفر استه .

وذكر السهيلى هنا أن هذه الكلمة لم يخترعها عتبة ولا هو أبو عذرتها ، فقد قيلت لبعض الملوك وكان مترفها لا يغزو فى الحروب يريدون صفرة الخلوق والطيب ، وسادة

العرب لا تستعمل الخلوق والطيب إلا فى الدعة وتعيبه فى الحرب أشد العيب . وأظن أن أبا جهل لما علم بسلامة العير استعمل الطيب والخلوق ، فلذلك قال له عتبة هذه الكلمة وإنما أراد مصفر بدنه ، ولكنه قصد المبالغة فى الذم ، فخص منه بالذكر ما يسوؤه أن يذكر هذا كلامه .

وذكر « أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إليهم يقول : ارجعوا فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم أحب إلىّ من أن تلوه منى ، فقال حكيم ابن حزام : قد عرض نصفا فأقبلوه ، فوالله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم . ثم إن أبا جهل بعث إلى عامر ابن الحضرمى أى أخو المقتول الذى هو عمرو ، وقال هذا حليفك : يعنى عتبة يريد أن يرجع بالناس ، وفى لفظ « يخذل الناس عن القتال ، وقد تحمل دية أخيك من ماله يزعم أنك قابلها ، ألاتستحى أن تقبل الدية من مال عتبة ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فاذكر مقتل أخيك ، وكان عامر كأخيه المقتول من حلفاء عتبة » وسيأتى ذلك « فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف أى كشف استه أى وحثا عليه التراب ، ثم صرخ وا عمراه وا عمراه ، فثارت النفوس » أى وعامر هذا لا يعرف له إسلام .

أى وفى الاستيعاب : عامر بن الحضرمى قتل يوم بدر كافرا ، وأما أخوهما العلاء فمن فضلاء الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، أى وقد كان يقال إنه مجاب الدعوة وأنه خاض البحر هو وسريته التى كان أميرا عليها ، وذلك فى زمن خلافة عمر رضى الله تعالى عنه ، ويقال ييبس حتى رىء الغبار من حوافر الخيل بكلمات قالها ودعا بها ، وهى « يا علىّ يا حكيم ، يا علىّ يا عظيم ، أنا عبيدك ، وفى سبيلك نقاتل عدوك ، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلا » .

وقد وقع نظير ذلك : أى دخول البحر لأبى مسلم الخولانى التابعى ، فإنه لما غزا الروم مع جيشه مروا بنهر عظيم بينهم وبين العدوّ ، فقال أبو مسلم : اللهم أجزت بنى إسرائيل البحر وإنا عبادك وفى سبيلك ، فأجزنا هذا النهر اليوم . ثم قال : اعبروا بسم الله فعبروا ، فلم يبلغ الماء بطون الخيل .

وكذا وقع نظير ذلك لأبى عبيد الثقفى التابعى أمير الجيوش فى أيام سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه فإن دجلة حالت بينه وبين العدو ، فتلا قوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت

إلا بإذن الله كتابا مؤجلا) ثم سمى الله تعالى ، واقتحم بفرسه الماء ، واقتحم الجيش وراءه ولما نظر إليهم الأعاجم صاروا يقولون ديوانا ديوانا : أى مجانين ثم ولوا مدبرين ، فقتلهم المسلمون وغنموا أموالهم » وله أخ يقال له ميمون وهو الذى حفر البئر التى بأعلى مكة التى يقال لها بئر ميمون ولم أقف على إسلامه .

وأما أختهم التى هى الصعبة وهى أم طلحة بن عبيد الله فصحابية رضى الله تعالى عنها كانت أولا تحت أبى سفيان بن حرب فطلقها ، فخلف عليها عبيد الله ، فولدت له طلحة الذى قال فى حقه صلى الله عليه وسلم « من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » .

ثم إن الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وهو أخو أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، وكان رجلا شرسا ، سيىء الخلق ، شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « وجاء أنه أول من يعطى كتابه بشماله ، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه بيمينه كما تقدم قال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه » أى أسرع قطعها « فطارت وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دما ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه أى وشرب منه وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه » فاتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض ، وأقبل نفر من قريش حتى وردوا ذلك الحوض منهم حكيم بن حزام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم ، فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل كافرا إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل ، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجانى يوم بدر » .

وعلى أن هذا الحوض كان وراء ظهره صلى الله عليه وسلم يكون مجيء هؤلاء للحوض من خلفه صلى الله عليه وسلم فليتأمل .

« ثم إن عتبة بن ربيعة التمس بيضة » أى خودة « ليدخلها فى رأسه ، فما وجد فى الجيش بيضة تسع رأسه لعظمها فاعتجر على رأسه ببردله » أى تعمم به ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئا ، وخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ، ثلاثة إخوة أشقاء : هم معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ، وقيل بدل عوف عبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ،

قالوا : مالنا بكم من حاجة» وفى رواية «أكفاء كرام ، إنما نريد قومنا» أى وفى لفظ «ولـكن أخرجوا إلينا من بنى عمنا» أى وفى لفظ «أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم ، وقال لهم خيرا» لأنه كره أن تـكون الشوكة لغير بنى عمه وقومه فى أول قتال «وعند ذلك نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال النبى صلى الله عليه سلم : قم يا عبيدة بن الحرث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على» وفى لفظ «قوموا يا بنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله ، قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا على ، فلما قاموا ودنوا قالوا لهم : من أنتم ، أى لأنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح» قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال على : على : قالوا نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة بن الحارث وكان أسن القوم ، كان أسن من النبى صلى الله عليه وسلم بعشر سنين عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد ، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة ، وأما على فلم يمهل أن قتل الوليد ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففاه» بالمهملة والمعجمة «واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه ، أى وأضجعوه إلى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم ، فأفرشه رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه الشريفة فوضع خده عليها ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أنك شهيد ، أى بعد أن قال له عبيدة : ألست شهيدا يا رسول الله ؟ فتوفى فى الصفراء ، ودفن بها عند مرجع المسلمين إلى المدينة» .

وقيل برز حمزة لعتبة وعبيدة لشيبة وعلى للوليد ، واختلف عبيدة وشيبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه وقعت الضربة فى ركبة عبيدة فأطاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال حمزة وعلى على شيبة فذففا عليه .

أى ويقال إن شيبة لما صرع من ضربة عبيدة قام ، فقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين فلم يصنع سيفهما شيئا فاعتنق كل واحد منهما صاحبه فأهوى عبيدة وهو صريع فضرب شيبة فقطع ساقه فذفف عليه حمزة .

وقيل بارز على شيبة وبارز عبيدة الوليد . فقد روى الطبرانى بإسناد حسن عن على أنه قال «أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على الوليد ، فلم يعب النبى صلى الله عليه وسلم علينا ذلك» .

وقال الحافظ ابن حجر : وهذا أصح الروايات ولكن المشهور أن عليا كرم الله وجهه إنما بارز الوليد ، وهذا هو اللائق بالمقام ، لأن عتبة وشيبة كانا شيخين كعبيدة وحمزة ، بخلاف علىّ والوليد فكانا شابين . وقتل حمزة طعيمة بن عدى أخا المطعم بن عدى وتقدم أن المطعم مات قبل هذه الغزاة بستة أشهر كافرا .

قيل وهذه المبارزة أول مبارزة وقعت فى الإسلام .

وفى الصحيحين عن أبى ذر « أنه كان يقسم قسما إن هذه الآية (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) نزلت فى حمزة وصاحبه وعتبة وصاحبه يوم بدر » .

وفى البخارى عن على رضى الله تعالى عنه أنه أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة .

وقيل أول من يقف بين يدى الله تعالى للخصومة على ومعاوية « ثم تزاحم الناس ودنا بعضهم من بعض . وقد كان عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوف أصحابه بقدح فى يده » أى بسهم لا نصل له ولا ريش « فمر بسواد » بتخفيف الواو لا بتشديدها كما زعمه ابن هشام بن غزية بفتح الغين المعجمة وكسر الزاى وتشديد الياء « أى حليف بنى النجار وهو خارج من الصف ، فطعنه صلى الله عليه وسلم فى بطنه بالقدح وقال استو ياسواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى » أى مكنى من القود أى القصاص « من نفسك ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال استقد » أى خذ القود أى القصاص « فاعتنقه فقبل بطنه الشريف ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ، فقال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير » .

وفيه أن هذا لا قود فيه ولا قصاص عندنا فليتأمل . وسواد هذا جعله صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر عاملا على خيبر كما سيأتى .

أى وفى حديث حسن عن عبد الرحمن بن عوف قال « صفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فبدرت منا بادرة أمام الصف ، فنظر إليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال معى معى » .

أقول : وقع له صلى الله عليه وسلم مع بعض الأنصار : أى وهو سواد بن عمرو مثل هذا الذى وقع له مع سواد بن غزية .

ففى أبى داود « أن رجلا من الأنصار كان فيه مزاح ، فبينما هو يحدث القوم يضحكهم إذ طعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خاصرته بعود كان فى يده » وفى لفظ «بعرجون» وفى آخر « بعصا ، فقال أصبرنى يا رسول الله » أى أقدنى « ومكنى من نفسك لأقتص منك ، فقال اصبر » أى اقتص « قال : إن عليك قيصا وليس علىّ قيص فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قيصه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه » .

أى ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه ما التصق ببدنه مسلم وتمسه النار كذا فى الخصائص الصغرى . وفيها فى محل آخر : ولا تأكل النار شيئا مس جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

« ثم لما عدّل الصفوف قال لهم : إن دنا القوم منكم فانضحوهم » أى ادفعوهم « عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم » أى لا ترموهم على بعد ، فإن الرمى مع البعد غالبا يخطىء فيضيع النبل بلا فائدة ، أى وقال لهم « لا تسلوا السيوف حتى يغشوكم . وخطبهم خطبة حثهم فيها على الجهاد وعلى المصابرة فيه . منها : وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله عز وجل به الهم وينجى به من الغم » وهذا السياق يدل على تكرر هذه الخطبة : أى وقوعها قبل مجيئهم إلى محل القتال وبعد مجيئهم إليه . ولا مانع منه .

« ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره . وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار ، يخافون على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرة العدوّ » أى والجنائب مهيأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن احتاج إليها ركبها . ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال : لا أفر إلا إن فرّ هذا الحجر ، وكان أول من خرج من المسلمين مهجع » بكسر الميم وإسكان الهاء فجيم مفتوحة فعين مهملة « مولى عمر بن الخطاب ، فقتله عامر ابن الحضرمى بسهم أرسله إليه » ونقل بعض المشايخ أنه أول من يدعى من شهداء هذه الأمة ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال يومئذ « مهجع سيد الشهداء » أى من هذه الأمة ، فلا ينافى ما جاء « أن سيد الشهداء يوم القيامة يحيى بن زكريا ، وقائدهم إلى الجنة وذابح الموت يوم القيامة ، يضجعه ويذبحه بشفرة فى يده والناس ينظرون إليه » لكن جاء « سيد الشهداء هابيل » إلا أن تجعل الأولية إضافية ، فيراد أول أولاد آدم لصلبه .

قيل وكون مهجع أول قتيل من المسلمين لا ينافى كون أول قتيل من المسلمين عمير بن

الحمام ، لأن ذاك أول قتيل من المهاجرين ، وعمير أول قتيل من الأنصار ، ولا ينافى ذلك أن أول قتيل من الأنصار حارثة بن قيس : أى قتل بسهم لم يدر راميه .

ففى البخارى عن حميد ، قال : سمعت أنسا يقول « أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام ، قتل بإرسال سهم إليه » ، أى فإنه أصابه سهم غرب : أى لا يعرف راميه ، وهو يشرب من الحوض .

وفى كلام ابن إسحاق : أول من قتل من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب ، ومن بعده حارثة بن سراقة . وقد جاءت أم حارثة وهى عمة أنس بن مالك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت « يا رسول الله حدّثنى عن حارثة ، فإن يكن فى الجنة لم أبك عليه ولكن أحزن ، وإن يكن فى النار بكيت ما عشت فى دار الدنيا » . وفى رواية « إن يكن فى الجنة صبرت ، وإن يكن غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، فقال : يا أم حارثة إنها ليست بجنة ولكنها جنات ، وحارثة فى الفردوس الأعلى ، فرجعت وهى تضحك وتقول بخ بخ لك ياحارثة » وهذا قد يخالف قول ابن القيم كالزمخشرى أن الجنة التى هى دار الثواب واحدة بالذات كثيرة بالأسماء والصفات ، وهذا الإسم الذى هو الجنة يجمعها من أسمائها : جنة عدن ، والفردوس ، والمأوى ، ودار السلام ، ودار الخلد ، ودار المقامة ودار النعيم ، ومقعد صدق ، وغير ذلك مما يزيد على عشرين إسما .

أى وعن الواقدى أنه بلغ أمه وأخته وهما بالمدينة مقتله ، فقالت أمه : والله لا أبكى عليه حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله ، فإن كان فى الجنة لم أبك عليه وفى رواية : « أصبر وأحتسب ، وإن كان ابنى فى النار بكيته » .

وفى رواية : « ترى ما أصنع ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر جاءت أمه فقالت : يا رسول الله قد عرفت موقع حارثة من قلبى فأردت أن أبكى عليه ، ثم قلت لا أفعل حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان فى الجنة لم أبك عليه ، وإن كان فى النار بكيته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هبلت » وفى رواية « ويحك أو هبلت ، أجنة واحدة إنها جنان كثيرة ، والذى نفسى بيده إنه لفى الفردوس الأعلى ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإناء من ماء فغمس يده فيه ومضمض فاه ثم ناوله أم حارثة فشربت ، ثم ناولت ابنتها فشربت ثم أمرهما ينضحان فى جيوبهما ففعلتا فرجعتا من عند النبى صلى الله عليه وسلم وما بالمدينة امرأتان أقر عينا منهما ولا أسر » .

وقد كان حارثة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بالشهادة ، فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحارثة يوما وقد استقبله « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة ، قال : يارسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها ، قال : أبصرت فالزم عبد : أى أنت عبد بذر الله الإيمان فى قلبه قال: فقلت ادع الله لى بالشهادة فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . وقال أبو جهل وأصحابه حين قتل عتبة وشيبة والوليد تصبرا ، لنا لعزى ولا عزى لكم ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله مولانا ولا مولى لكم ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار » .

أقول : سيأتى وقوع مثل ما قال أبو جهل وأصحابه من أبى سفيان وأنه أجيب بمثل هذا الجواب فى يوم أحد ، والله أعلم .

« وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر » أى وهذا العريش هو المراد بالقبة فى قول البخارى . عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قبة يوم بدر : اللهم أنشدك عهدك » الحديث ويقول « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد » أى وفى مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم قال: اللهم : إنك إن تشأ لا تعبد فى الأرض » قال ذلك فى هذا اليوم وفى يوم أحد .

قال العلماء : فيه التسليم لقدر الله تعالى ، والردّ على غلاة القدرية الذين يزعمون أن الشر غير مراد لله ولا مقدور له .

وذكر الإمام النووى أن كونه قال ما ذكر يوم بدر هو المشهور . وفى كتب التفسير والمغازى أنه يوم أحد ، ولا معارضة بينهما ، فقاله فى اليومين هذا كلامه .

أى يجوز أن يكون قال ذلك فى يوم بدر وفى يوم أحد. وفى رواية: « اللهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك ولا يقوم لك دين أى لأنه صلى الله عليه وسلم علم أنه آخر النبيين ، فإذا هلك هو ومن معه لا يبقى من يتعبد بهذه الشريعة » . وفى لفظ آخر « اللهم لا تودّع منى ولا تخذلنى ، أنشدك ما وعدتنى » لأنه كان وعده النصر وفى رواية « ما زال يدعو ربه مادّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فأخذ أبو بكر رداءه وألقاه على منكبه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يانبى الله كفاك تناشدك ربك فإنه سينجز

لك ما وعدك » أى وفى رواية « والله لينصرنك الله ، وليبيضن وجهك » أى وفى لفظ « قد ألححت على ربك » وكون وعد الله لا يتخلف لاينافى الإلحاح فى الدعاء لأن الله يحب الملحين فى الدعاء ، وإنما قال أبو بكر ما ذكر لأنه شق عليه تعب النبى صلى الله عليه وسلم فى إلحاحه بالدعاء ، لأنه رضى الله تعالى عنه رقيق القلب شديد الإشفاق على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل لأن الصديق كان فى تلك الساعة فى مقام الرجاء والنبى صلى الله عليه وسلم كان فى مقام الخوف ، لأن الله يفعل ما يشاء ، وكلا المقامين سواء فى الفضل ذكره السهيلى .

وحين رأى المسلمون القتال قد نشب عجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، فأنزل الله تعالى عند ذلك (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى متتابعين . وقيل ردفا لكم ومددا لكم . وقيل وراء كل ملك ملك آخر .

ويوافق ذلك ما جاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أمدّ الله نبيه يوم بدر بألف من الملائكة فكان جبريل فى خمسمائة وميكائيل فى خمسمائة ، فأمده الله تعالى بالملائكة ألف مع جبريل وألف مع ميكائيل؟ » وجاء « أمدّه الله بثلاثة آلاف : ألف مع جبريل ، وألف مع ميكائيل وألف مع إسرافيل » وهذا رواه البيهقى فى الدلائل عن على بإسناد فيه ضعف .

وقيل وعدهم الله تعالى أن يمدهم بألف ثم زيدوا فى الوعد بألفين ، ثم زيدوا فى الوعد بألفين أيضا .

وقيل أمدهم الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة ثم أكملهم بخمسة آلاف ، قال الله تعالى (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) أى ألف مع جبريل ، وألف مع ميكائيل ، وألف مع إسرافيل (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين) فإن ذلك كان يوم بدر على ما عليه الأكثر ، وقيل يوم أحد كان الإمداد فيه بذلك : أى بثلاثة آلاف ، ثم وقع الوعد بإكمالهم خمسة آلاف معلقا على شرط ، وهو التقوى ، والصبر عن حوز الغنائم فلم يصبروا ففات الإمداد بما زاد على الثلاثة آلاف .

وهذا الثانى هو الذى فى النهر لأبى حيان ، كان المدد يوم بدر بألف من الملائكة ، ويوم أحد بثلاثة آلاف ، ثم بخمسة لو صبروا عن أخذ الغنائم فلم يصبروا ، فلم تنزل ، هذا

كلامه ، وهو واضح لأن عدم صبرهم عن أخذ الغنائم وعدم امتثال أمره إنما كان فى أحد لا فى بدر .

وروى البيهقى عن حكيم بن حزام رضى الله عنه أن يوم بدر وقع نمل من السماء قد سدّ الأفق ، فإذا الوادى يسيل نملا ، أى نازلا من السماء فوقع فى نفسى أن هـذا شىء أيد به صلى الله عليه وسلم وهى الملائكة .

أى وروى بسند حسن عن جبير بن مطعم قال : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود مبثوث حتى امتلأ الوادى ، فلم أشك أنها الملائكة ، فلم يكن إلا هزيمة القوم . والبجاد : كساء مخطط من أكسية الأعراب ، وسيأتى وقوع مثل ذلك فى حنين .

قال : وإنما كانت الملائكة شركاء لهم فى بعض الفعل ليكون الفعل منسوبا للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، وإلا فجبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه كما فعل بمدائن قوم لوط ، وأهلك قوم صالح وثمود بصيحة واحدة ، وليهابهم العدّو بعد ذلك ، حيث يعلمون أن الملائكة تقاتل معهم .

وبهذا يرد ما قيل لم تقاتل الملائكة يوم بدر ، وإنما كانوا يكثرون السواد ، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا كلهم .

وجاء « لولا أن الله تعالى حال بيننا وبين الملائكة التى نزلت يوم بدر لمات أهل الأرض خوفا من شدة صعقاتهم وارتفاع أصواتهم » .

وجاء فى حديث مرسل « مارؤى الشيطان أحقر ولا أدحر ولا أصغر من يوم عرفة إلا ما رىء يوم بدر » أى وكذا سائر مواسم المغفرة والعتق من النـــار كأيام رمضان سيما ليلة القدر .

وجاء « إن إبليس جاء فى صورة سراقة بن مالك المدلجى الكنانى فى جند من الشياطين » أى مشركى الجنّ فى صور رجال من بنى مدلج من بنى كنانة معه رايته ، وقال للمشركين (لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) اهـ أى كما قال لهم ذلك عند ابتداء خروجهم وقد خافوا من بنى كنانة قوم سراقة ، وقد تقدم أنه كان وحده . ولا منافاة لجواز أن يكون جنده لحقوا به بعد « قال : فلما رأى جبريل والملائكة » وفى رواية : وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين أى وهو الحارث بن هشام أخو أبى جهل

انتزع يده من يد الرجل ، ثم نكص على عقبه وتبعه جنده ، فقال له الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال (إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب) وتشبث به الحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك وقال له : والله لا أرى إلا خفافيش يثرب ، فضربه إبليس فى صدره فسقط ، وعند ذلك قال أبو جهل : يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة أى والوليد فإنهم قد عجلوا ، واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالجبال ، وصار يقول : لا تقتلوهم خذوهم باليد .

وذكر السهيلى أنه يروى أن من بقى من قريش وهرب إلى مكة وجد سراقة بمكة ، فقالوا له : يا سراقة خرقت الصف ، وأوقعت فينا الهزيمة ، فقال : والله ما علمت بشىء من أمركم ، وما شهدت ، وما علمت ، فما صدقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله ، فعلموا أنه إبليس هذا كلامه .

قال قتادة : صدق إبليس فى قوله (إنى أرى مالا ترون) وكذب فى قوله (إنى أخاف الله) والله مابه مخافة من الله .

قال فى ينبوع الحياة : ولا يعجبنى هذا ، فإن إبليس عارف بالله ، ومن عرف الله خافه ، أى وإن لم يكن إبليس خافه حق الخوف .

قيل وإنما خاف أن يكون هذا اليوم هو اليوم الموعود الذى قال فيه سبحانه وتعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) .

ورأيت عن سيدى على الخواص أنه لا يلزم من قول إبليس ذلك أن يكون معتقدا له بالباطن كما هو شأن المنافقين .

ورأيت عن وهب أن اليوم المعلوم الذى أنظر فيه إبليس هو يوم بدر قتلته الملائكة فى ذلك اليوم . والمشهور أنه منظر إلى يوم القيامة ، ويدل لذلك ما روى أن إبليس لما ضرب الحارث فى صدره لم يزل ذاهبا حتى سقط فى البحر ورفع يديه وقال : يارب موعدك الذى وعدتنى ، اللهم إنى أسألك نظرتك إياى ، وخاف أن يخلص إليه القتل .

هذا ، وفى زوائد الجامع الصغير عن مسلم أن سيدنا عيسى عليه السلام يقتل إبليس بيده بعد نزوله وفراغه من صلاته ، ويرى المسلمين دمه فى حربته .

وفى كلام بعضهم : ولعل المراد بيوم القيامة الذى أنظر إليه إبليس ليس نفخة البعث

بل نفخة الصعق التى بها يكون موت من لم يمت من أهل السموات وأهل الأرض ، قيل إلا حملة العرش وجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وهؤلاء ممن استثنى الله تعالى فى قوله (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ثم يموت جبريل وميكائيل ثم حملة العرش ثم إسرافيل ثم ملك الموت فهو آخر من يموت .

وفى كلام بعضهم : الصعق أعم من الموت ، أى فالمراد ما يشمل الغشى وذهاب الشعور ، أى فمن مات قبل ذلك وصار حيا فى البرزخ كالأنبياء والشهداء لا يموت ، وإنما يحصل له غشى وذهاب شعور ، ويكون المستثنى من القسم الأول من تقدم ذكره من الملائكة ، ومن القسم الثانى موسى صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه جوزى بذلك : أى بعدم الغشى وذهاب الشعور بما حصل له من ذلك بسبب صعقة الطور .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لم يجزم بذلك بل تردد فى ذلك حيث قال « فأكون أوّل من رفع رأسه » أى أفاق من الغشى « فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه » أى أفاق « من الغشى قبلى ، أوكان ممن استثنى الله فلم يصعق » . وفى رواية « فإذا موسى متعلق بقائمة العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أم كان ممن استثنى الله؟ » ولعل بعض الرواة ضم هذا الخبر لخبر الشيخين « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فإذا موسى الخ » وفيه نظر لأن المراد بيوم القيامة عند نفخة البعث ونفخة الصعق سابقة عليها كما علمت .

ويلزم على هذا التردد مع كون الخبرين خبرا واحدا إشكال جزمه صلى الله عليه وسلم بأنه أوّل من تنشق عنه الأرض .

وأجاب شيخ الإسلام بما يفيد أنهما خبران لا خبر واحد حيث قال : التردد كان قبل أن يعلم أنه أوّل من تنشق عنه الأرض ، أى فهما حديثان لا حديث واحد .

فإن قيل قولهُ صلى الله عليه وسلم « لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أوّل من يفيق ، فإذا موسى » الحديث يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم ليس أفضل من موسى .

قلنا هو كقوله صلى الله عليه وسلم « من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » وذلك منه صلى الله عليه وسلم تواضع ، أو كان قبل أن يعلم أنه أفضل الخلق أجمعين . وقيل الوقت المعلوم خروج الدابة ، وإذا خرجت قتلته بوطئها .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبليس إذا مرّت عليه الدهور وحصل له الهرم عاد ابن ثلاثين سنة ، وهذه النفخة التى هى نفخة الصعق مسبوقة بنفخة الفزع التى تفزع بها أهل السموات والأرض فتكون الأرض كالسفينة فى البحر تضربها الأمواج ، وتسير الجبال كسير السحاب ، وتنشق السماء ، وتكسف الشمس ، ويخسف القمر وهى المعنية بقوله تعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وبقوله تعالى (إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها) الآية ، وقال تعالى (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) قيل وهم الشهداء .

فقد جاء « إن الأموات يومئذ لايعلمون بشىء من ذلك ،قلنا : يارسول الله فمن استثنى الله تعالى فى قوله (إلا من شاء الله) فقال : أولئك الشهداء ،وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمنهم منه » .

واقتصاره صلى الله عليه وسلم على ذكر الشهداء وسكوته عن الأنبياء لما هو معلوم من الأصل أن مقام الأنبياء أرقى من مقام الشهداء ، وإن كان قد يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل . ومن ثم قيل : الرزق خاص بالشهداء ، ومن ثم اختصوا بحرمة الصلاة عليهم .

ويقال إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمنى الجنّ سبعون ، أى لكن لم يثبت أنهم قاتلوا فكانوا مجرد مدد .

« ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خفق خفقة أى مالت رأسه من النعاس ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه » وفى لفظ « آخذ برأس فرسه يقوده على ثناياه النقع » أى الغبار « وهو يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته » .

أى وفى رواية « أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم بعد مافرغ من بدر على فرس حمراء معقودة الناصية قد خضب الغبار ثنيته ، عليه درعه وقال : يامحمد إن الله بعثنى إليك وأمرنى أن لاأفارقك حتى ترضى أرضيت » .

أى ولا مانع من تعدد رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه الصلاة والسلام ، وأن هذه بعد تلك ، وأن المرة الأولى مساقها يقتضى أنها كانت مناما ، وأن الغبار فى المرة الثانية كان أكثر منه فى المرة الأولى بحيث علا على ثناياه .

« ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من العريش إلى الناس فحرضهم وقال : والذى

نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام » بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم « وبيده تمرات يأكلهن بخ بخ » كلمة تقال لتعظيم الأمر والتعجب منه « مابيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل » أى وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فقال عمير ابن الحمام بخ بخ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : لم تبخبخ » أى مم تتعجب « فقال : رجاء أن أكون من أهلها » أى وفى رواية « مايحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، فأخذ تمرات فجعل يلوكهن ثم قال . والله إن بقيت حتى ألوكهن » وفى لفظ إن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فنبذهن وقاتل أى وهو يقول :

ركضنا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

ولا زال يقاتل حتى قتل رضى الله تعالى عنه وسيأتى فى غزاة أحد مثل هذا لبعض الصحابة أبهمه جابر رضى الله تعالى عنه فى إلقاء التمرات من يده ومقاتلته حتى قتل .

فعن جابر رضى الله تعالى عنه قال : « قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة ، قال : فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قتل » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى ، وسيأتى مافى ذلك .

وقال عوف بن الحارث بن عفراء « يارسول الله مايضحك الرب من عبده » أى ما يرضيه غاية الرضا « قال : غمسه يده فى العدو حاسرا » أى لا درع له ولا مغفر « فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رضى الله تعالى عنه » فالضحك فى حق الله كناية عن غاية رضاه .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال فى طلحة بن الغمر « اللهم الق طلحة يضحك إليك وتضحك إليه » أى القه لقاء كلقاء المتحابين المظهرين لما فى أنفسهما من غاية الرضا والمحبة فهى كلمة وجيزة تتضمن الرضا مع المحبة وإظهار البشر ، فهى من جوامع كلمه التى أوتيها صلى الله عليه وسلم .

وقاتل فى ذلك اليوم معبد بن وهب زوج هريرة بنت زمعة أخت سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها بسيفين « ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء » بالمد « أمره بذلك جبريل عليه الصلاة والسلام » كما جاء فى بعض الروايات : أى قال خذ قبضة من تراب وارمهم بها « فتناولها صلى الله عليه وسلم » .

وفى رواية « أنه قال لعلى كرم الله وجهه ناولنى فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : شاهت الوجوه » أى قبحت الوجوه أى وزاد بعضهم « اللهم أرعب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم ، ثم نفخهم » أى ضربهم بها « فلم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينه » وفى رواية « وأنفه وفمه لا يدرى أين يتوجه يعالج التراب لينزعه من عينيه » أى فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون .

هذا ، والمحفوظ المشهور أن ذلك إنما كان فى حنين ، لكن يوافق الأول ما نقله بعضهم أن قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) نزل يوم بدر ، هكذا قال عروة وعكرمة ومجاهد وقتادة ، قال هذا البعض ، وقد فعل عليه الصلاة والسلام مثل ذلك فى غزوة أحد هذا كلامه .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم وحصاة فى ميسرة القوم ؛ وحصاة بين أيديهم ، فقال : شاهت الوجوه ؛ فانهزم القوم » وهذه الحصيات الثلاث قال جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فى طست ، فأخذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بهن فى وجوه المشركين ، أى يمنة ويسرة وبين أيديهم وحين رمى صلى الله عليه وسلم بذلك قال لأصحابه : شدوا فكانت الهزيمة ، وأنزل الله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) » .

وقد يقال : لا مانع من اجتماع الأمرين ، وكل منهما مراد من الآية . قال ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بنفسه قتالا شديدا . وكذلك أبو بكر رضى الله تعالى عنه كما كان فى العريش يجاهدان بالدعاء قاتلا بأبدانهما جمعا بين المقامين انتهى .

أقول : كذا نقل بعضهم عن الأموى ، ويتأمل ذلك ، فإنى لم أقف عليه فى كلام أحد غيره ، وكأن قائل ذلك فهم مباشرته صلى الله عليه وسلم للقتال مما تقدم عن على رضى الله تعالى عنه « لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس بأسا » ولا دلالة فى ذلك ، والله أعلم .

نعم ذكر ابن سعد « أنه لما انهزم المشركون رؤى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثرهم مصلتا السيف يتلو هذه الآية (سيهزم الجمع ويولون الدبر) » وهذه الآية ذكر فى الإتقان أنها مما تأخر حكمه عن نزوله ، فإنها نزلت بمكة ، وكان ذلك يوم بدر .

فعن عمر رضى الله تعالى عنه : قلت أىّ جمع ، فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم مصلتا السيف يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكانت ليوم بدر ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، ولو قاتل صلى الله عليه وسلم لجرح أو قتل من قاتله ، ولو وقع ذلك لنقل لأنه مما تتوفر الدواعى على نقله .

وسيأتى فى أحد عن النور « أنه صلى الله عليه وسلم لم يقتل بيده الشريفة قط أحد إلا أبىّ بن خلف لا قبله ولا بعده » وإلى رميه بالحصا أشار صاحب الهمزية بقوله :

ورمى بالحصا فأقصد جيشا ما العصا عنـــده وما الإلقاء

أى ورمى صلى الله عليه وسلم بالحصا جيشا فأصابهم كلهم بها ، أى شىء إلقاء عصا موسى عليه الصلاة والسلام على حبال سحرة فرعون وعصيهم عند ذلك الحصى المرمىّ به لا يقاربه ذلك الإلقاء ولا يدانيه ، لأن ذاك وجد له نظير وهو إلقاء السحرة الحبال والعصى ، والرمى بالحصا لم يوجد له نظير .

أى وقال صلى الله عليه وسلم حينئذ « من قتل قتيلا فله سلبه ومن أسر أسيرا فهو له » كما فى الإمتاع « فلما وضع القوم أيديهم يأسرون نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد فوجد فى وجهه الكراهية لما يصنع القوم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل » أى الإكثار منه والمبالغة فيه أحب إلىّ من استبقاء الرجال .

وذكر بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إنكم قد عرفتم أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا إكراها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله » أى بل يأسره وذكر أبا البخترى بن هشام ، أى فقال « من لقى أبا البخترى فلا يقتله » أى لأنه كان ممن قام فى نقض الصحيفة ونص على العباس بن عبد المطلب ، فقال أبو حذيفة رضى الله تعالى عنه : أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ أى لأنه تقدم أن أباه عتبة وعمه شيبة وأخاه الوليد أول من قتل من الكفار

مبارزة وعشيرته وهى بنو عبد شمس قد قتل منها جماعة ، لئن لقيته يعنى العباس لألجمنه السيف هو بالمهملة والمعجمة ، فبلغت أى تلك المقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى حفص : يا رسول الله دعنى أضرب عنقه يعنى أبا حذيفة بالسيف ، فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلتها يومئذ ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا فى جملة من قتل فيها من الصحابة وهم أربعمائة وخمسون ، وقيل سبعمائة رضى الله تعالى عنهم .

ولقى المجذر رضى الله تعالى عنه أبا البحترى فقال له « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلى ؟ أى ورفيقى وكان معه زميل له خرج معه من مكة أى يقال له جنادة بن مليحة ، فقال له المجذر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بك وحدك ، قال : لا والله إذا لأموتن أنا وهو جميعا لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى ، أى يقتل حرصا على الحياة ، فقتله المجذر أى بعد أن قاتله ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى فقتلته » .

أقول : لعل المجذر فهم أن ما عدا من نهى عن قتله يقتل وإن استأسر حتى قال ما نحن بتاركى زميلك ، أى ولا بد من قتله وإن استأسر ، فكان ذلك حاملا لأبى البحترى على أن لا يستأسر ويترك زميله فيقتل خوف السبة والله أعلم .

أى وكان من جملة من خرج مع المشركين يوم بدر عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله تعالى عنهما وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة ، وقيل عبد العزى ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن وكان من أشجع قريش وأشدهم رماية ، وكان أسن ولد أبيه وكان صالحا وفيه دعابة ، فلما أسلم قال لأبيه لقد أهدفت لى أى ارتفعت لى يوم بدر مرارا فصدفت عنك أى أعرضت عنك ، فقال أبو بكر : لو هدفت لى لم أصدف أى أعرض عنك ، فالمراد بكونه أهدف له ارتفع وهو لايشعر بذلك ، فلاينافى ما قيل إن عبد الرحمن ابن أبى بكر يوم بدر دعا إلى البراز ، فقام إليه أبوه أبو بكر ليبارزه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما علمت أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى».

أى وفى بعض السير أن الصديق قال لولده عبد الرحمن يوم بدر وهو مع المشركين لم يسلم : أين مالى يا خبيث ؟ فقال له عبد الرحمن كلاما معناه : لم يبق إلا عدة الحرب التى هى السلاح وفرس سريعة الجرى وجنان يقاتل عليه شيوخ الضلال ، أى وهذا يدل على أن الصديق رضى الله تعالى عنه ترك مالا عند أهله لما هاجر ، وهو قد يخالف ما تقدم عن ابنته أسماء من قولها : إن أبا بكر أرسل ابنه عبدالله فحمل ماله وكان خمسة آلاف درهم إلى الغار ، فدخل علينا جدى أبو قحافة الحديث ، ولعل ماله الذى عناه الصديق ما كان من نحو أمتعة وبعض مواشى لا النقد فلا مخالفة .

ويروى عن ابن مسعود أن الصديق رضى الله تعالى عنه دعا ابنه يعنى عبد الرحمن يوم أحد إلى البراز ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « متعنا بنفسك ، أما علمت أنك منى بمنزلة سمعى وبصرى » فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ولا مانع من التعدد حتى فى نزول الآية ، لكن يبعد نزولها فى أحد أيضا كون أبى بكر يدعو للمبارزة بعد نزولها أولا فى بدر .

ثم رأيت ابن ظفر قال فى الينبوع : إنه لم يثبت أن أبا بكر دعا ابنه للمبارزة ، وإنما هو شىء ذكر فى كتب التفسير ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) فالآية مدنية لا مكية وبه يرد ما ذكر أن سببها أن أبا بكر سمع والده أبا قحافة يذكر النبى صلى الله عليه وسلم بشر فلطمه لطمة سقط منها ، فأخبر أبو بكر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له لا تعد لمثلها ، فقال : والله لو حضرنى السيف لقتلته به .

وفى كلام الزمخشرى أن عبد الرحمن أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر إلى المدينة ومات سنة ثلاث وخمسين بمحل بينه وبين مكة ستة أميال ، وحمل على أعناق الرجال إلى مكة ، وقدمت أخته عائشة رضى الله تعالى عنها من المدينة فأتت قبره فصلت عليه .

أى وفى هذا اليوم الذى هو يوم بدر قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وكان مشركا ، فإن أباه قصده ليقتله فولى عنه أبو عبيدة لينكف عنه فلم ينكف عنه ، فرجع عليه وقتله وأنزل الله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) الآية .

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه قال : لقد لقيت أمية بن خلف وكان

صديقا لى فى الجاهلية ومعه : أى مع أمية ابنه علىّ أى آخذ بيده وكان علىّ ممن أسلم والنبى صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يهاجر ، ففتنهم أقاربهم عن الإسلام ورجعوا عنه وماتوا على كفرهم ، وأنزل الله تعالى فيهم (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم) الآية ، أى وهم الحرث بن ربيعة ، وأبو قيس بن الفاكه ، وأبو قيس بن الوليد ، والعاص ابن منبه ، وعلى بن أمية المذكور .

وفى السيرة الهشامية : وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حبستهم آباؤهم وعشيرتهم بمكة ، وفتنوهم فافتتنوا : أى رجعوا عن الإسلام ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا جميعا ، وسياقه كما ترى يقتضى أنهم لم يرجعوا إلى الكفر إلا بعد الهجرة ، وسياق ماقبله ربما يقتضى أنهم رجعوا إلى الكفر قبل أن يهاجر صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الرحمن بن عوف : وكان معى أدراع استلبتها أى فأنا أحملها ، فلما رآنى أمية نادانى باسمى الأول ياعبد عمرو فلم أجبه ، لأنه كان قال لى لما سمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ، أترغب عن اسم سماك به أبوك ؟ فقلت : نعم . قال : الرحمن لا أعرفه ، ولكنى أسميك بعبد الإله كما تقدم فلما نادانى بعبد الإله ، قلت نعم .

أى وظاهر السياق يقتضى أنه عرف أنه المراد بذلك ، وأنه ترك إجابته قصدا ، حيث جعله عبدا للصنم . ويحتمل وهو الأقرب أنه لم يجبه لعدم معرفته أنه المراد بذلك الاسم ، لكونه هجر بالمرة ، فلما ناداه أمية بما ذكر عرفه وعرف أنه المراد بذلك لما ذكر « وعند ذلك قال له أمية : هل لك فىّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك ؟ قلت نعم ، فطرحت الأدراع من يدى وأخذت بيده وبيد ابنه علىّ وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط ، ثم قال لى : يا عبد الإله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ أى كانت فى درعه بحيال صدره . قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل وقيل قائل ذلك ابنه ثم خرجت أمشى بهما ، فو الله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى وكان هو الذى يعذب بلالا بمكة على أن يترك الإسلام أى كما تقدم ، فقال بلال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت إن نجا . فقلت : أى بلال ، أفبأسيرى ؟ أى تفعل ذلك بهما ، قال : لانجوت إن نجا وكررت وكرر ذلك ، ثم صرخ بأعلى صوته يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت إن نجا وكرر ذلك ، فأحاطوا بنا

فأصلت رجل السيف » أى سله من غمده « وذلك الرجل هو بلال فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة ماسمعت مثلها قط، فضربوهما بأسيافهم فهبروهما » .

أقول : الذى فى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف « أن بلالا لما استصرخ الأنصار ، قال : خشيت أن يلحقونا فخلفت لهم ابنه لأشغلهم به فقتلوه ثم أتونا حتى لحقوا بنا ، وكان أمية رجلا ثقيلا » أى كما تقدم « فقلت ابرك ، فألقيت نفسى عليه لأمنعه ، فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه ، فأصاب أحدهم رجلى بسيفه» أى ظهر قدمه .

وفى كلام ابن عبد البر . قال ابن هشام : قتل أمية بن خلف معاذ بن عفراء وخارجة ابن زيد وحبيب بن أساف اشتركوا فيه .

قال ابن إسحاق : وابنه على قتله عمار بن ياسر وحبيب بن أساف، هذا شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتزوّج بنت خارجة بعد أن توفى عنها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وهو جد حبيب شيخ مالك رضى الله تعالى عنه والله أعلم .

وكان عبدالرحمن بن عوف يقول: يرحم الله بلالا ، ذهبت أدراعى وفجعنى بأسيرى أى وفى رواية : لما كان يوم بدر حصل لى درعان ولقينى أمية ، فقال: خذنى وابنى فأنا خير لك من الدرعين ، فألقيت الدرعين فأخذتهما ، فلما قتلا صار يقول : يرحم الله بلالا فلا درعى ولا أسيرى ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم جعل فى هذه الغزاة أن كل من أسر أسيرا فهو له كما تقدم وسيأتى : أى فله فداؤه ، وهو يخالف ما عليه أئمتنا أن مال فداء الأسرى ورقابهم إذا استرقوا كسائر أموال الغنيمة ، إلا أن يقال ذاك كان فى صدر الإسلام ترغيبا فى الجهاد ، ثم استقر الأمر على ماقاله فقهاؤنا ، أى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من له علم بنوفل ابن خويلد ؟ فقال على كرّم الله وجهه : أنا قتلته ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه » أى فإنه لما التقى الصفان نادى نوفل بصوت رفيع : يا معاشر قريش اليوم يوم الرفعة والعلاء ، فقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اكفنى نوفل بن خويلد » وفى كلام بعضهم ما يفيد أن قتل على كرّم الله وجهه له كان بعد أن أسره جبار بن صخر ، فقد جاء «أن جبارا بينما هو يسوقه إذ رأى عليا ، فقال : يا أخا الأنصار من هذا واللات والعزى ؟ إنه ليريدنى ، فقال : هذا على بن أبى طالب ، فعمد له على كرم الله وجهه فقتله ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى وقال : إن خفى عليكم» أى بأن قطع

رأسه وأزيل عن جثته « انظروا إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت يوما أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان وكنت أسن منه : أى أكبر منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتية فجحش » أى خدش « على أحديهما جحشا لم يزل أثره به » .

أى ولعل هذا هو محمل قول بعضهم إنه صلى الله عليه وسلم صارع أبا جهل ، فإنه لم يصبح أنه صارعه ، ولعل هذا الأثر هو الذى عناه ابن مسعود رضى الله تعالى عنه بقوله: لما قتلت أبا جهل لعنه الله ، وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قتلت أبا جهل ، فقال لى عقيل وهو أسير عند النبى صلى الله عليه وسلم : كذبت ما قتلته ؛ فقلت له : بل أنت الكذاب الآثم ياعدو الله ، قد والله قتلته ، قال : فما علامته ؟ قلت : إن بفخذه حلقة كحلقة الجمل المحلق ، قال صدقت ، وكان أبو جهل ، قد استفتح أى طلب الحكم على نفسه ، لأنه لما دنا القوم بعضهم من بعض قال : اللهم أقطعنا للرحم وإتيانا بما لا نعرف فأحنه : أى أهلكه الغداة ، أى زاد بعضهم : اللهم من كان أحب إليك وأرضى عندك ، وفى لفظ : اللهم أولانا بالحق فانصره اليوم ، فأنزل الله تعالى (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) [ ] .

أقول : كون أبى جهل طلب الحكم على نفسه واضح لو سكت عن قوله وإتيانا بما لانعرف ، إذ هو نص فيه صلى الله عليه وسلم .

وفى تفسير سهل أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم انصر أفضل الدينين عندك وأرضاهما لك ، أى وفى رواية اللهم انصر خير الدينين ، اللهم ديننا القديم ودين محمد الحادث ، فنزل (إن تستفتحوا) يعنى تستنصروا (فقد جاءكم الفتح) .

وفى أسباب النزول للواحدى أن المشركين حين أرادوا الخروج من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين ، فأنزل الله تعالى الآية .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين» والله أعلم.

قال معاذ بن عمرو بن الجموح : رأيت أبا جهل وقد أحاطوا به وهم يقولون أبو الحكم لايخلص إليه ، فلما سمعتها عمدت نحوه وحملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه : أى أسرعت قطعه ، فو الله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى ، والمرضخة : بالخاء المعجمة وبالمهملة . وقيل الرضخ بالمعجمة : كسر الرطب ، وبالمهملة كسر اليابس ، وضربنى ابنه أى عكرمة رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك على عاتقى فطرح يدى ، فتعلقت بجلدة من جسمى ، وأجهضنى القتال : أى

شغلني عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى ، وإنى لأستحسبها خلنى ، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت عليها حتى طرحتها . وفى رواية «أنه جاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق عليها ، أى ولصقها فلصقت» وإلى ذلك يشير الإمام السبكى فى تائيته، لكن قال ابن عفراء : ولا منافاة لجواز أن يكون معاذ بن عمرو بن الجموح بن عفراء ، وسيأتى ما يدل على ذلك بقوله :

وبانت بها كف بن عفراء فاشتكى　　　إليك فعادت بعد أحسن عودة

إلا أن قوله بها يرجع لغزاة أحد ، وقد علمت أن ذلك إنما هوببدر ، واحتمال تكرر ذلك فى أحد وفى بدر لشخص واحد بعيد ، إلا أن يثبت النقل بذلك ، ثم مر بأبى جهل وهو عقير معوذ بضم الميم وتشديد الواو مفتوحة ومكسورة ابن عفراء ، فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق ، أى وما جاء فى بعض الروايات ضربه حتى برد بفتح الموحدة والراء والدال المهملة : أى مات لاينافيه ؛ لأنه يجوز أن يكون المراد صار فى حالة من مات بأن صار إلى حركة المذبوح ، ومن ثم جاء فى بعض الروايات حتى برك بالكاف بدل الدال أى سقط إلى الأرض : أى إلى جنبه ، وإلا فقطع قدمه مع نصف ساقه لايفضى غالبا أن يسقط إلى جنبه ، ومعوذ هذا لازال يقاتل حتى قتل . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ورأيت أبا جهل بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلى على عنقه ، ثم قلت له هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وبم أخزانى ؟ أعار على رجل قتلتموه : أى ليس بعار على رجل قتلتموه . وفى رواية : أعمد من رجل قتلتموه ، أى أنا سيد رجل قتلتموه ، لأن عميد القوم سيدهم : أى فلا عار على فى قتلكم إياى .

وجاء أنه قال : لو غير أكار قتلنى ، والأكار : الزراع يعنى الأنصار لأنهم كانوا أصحاب زرع : أى لو كان الذى قتلنى غير فلاح لكان أحب إلى وأعظم لشأنى، ولم يكن على فى ذلك نقص ، لقد ارتقيت يارويعى الغنم مرتقى صعبا ، أخبرنى لمن الدبرة ؟ أى النصرة والظفر اليوم . زاد فى رواية ، لنا أو علينا ؟ قلت لله ولرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى الصحاح فى دبر بالباء الموحدة ، والدبرة : الهزيمة فى القتال .

ومما يدل للأول ماتقدم من قول أبى جهل :أخبرنى على من كانت الدبرة لنا أو علينا؟ وفى مغازى ابن عقبة التى قال فيها مالك رضى الله تعالى عنه مغازى موسى بن عقبة أصح المغازى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على القتلى والتمس أباجهل فلم يجده حتى عرف ذلك فى وجهه ثم قال : اللهم لاتعجزنى فرعون هذه الأمة ، فسعى له الرجال حتى

وجده ابن مسعود الحديث . وفى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ينظر لنا ماصنع أبو جهل ؟ فانطلق ابن معسود رضى الله تعالى عنه فوجده قد ضربه ابن عفراء حتى برد » ولمسلم « برك » أى وهو المراد من الأول كما تقدم ، فأخذ بلحيته فقال : أنت أبوجهل» الحديث ، وأخذه بلحيته لا ينافى وضع رجله على رقبته ، لجواز أن يكون جمع بينهما . قال ابن مسعود : ثم احتززت رأسه .

وفى رواية رويت عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال « لما ضربته بسيفى لم يغن شيئا فبصق فى وجهى وقال خذ سيفى فاحتز به رأسى من عرشى ، ليكون أنهى للرقبة ، والعرش : عرق فى أصل الرقبة ، ففعلت كذلك، ثم جئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يارسول الله هذا رأس عدوّ الله أبى جهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله الذى لا إله غيره ، أى ورددها ثلاثا » وروى الطبرانى « آلله قتلت أبا جهل » بنصب الجلالة ، وهو بهذا اللفظ عندنا كناية يمين ، ومثل النصب الرفع والجر « قال : قلت نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى » أى ويقال إنه صلى الله عليه وسلم سجد خمس سجدات شكرا ، ويقال إنه قال «الله أكبر ، الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » وكون أبى جهل بصق فى وجه ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وقال له خذ سيفى الخ ، ينافى كونه وصل إلى حركة المذبوح ، إلا أن يقال يجوز أن يكون فى أول الأمر كان كذلك ثم تراجعت إليه روحه حتى قدر على ماذكر فليتأمل ، مع مايأتى .

قيل وبهذا أى بحمل رأس أبى جهل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ على الزهري قوله : لم يحمل إلى النبى صلى الله عليه وسلم رأس قط ولا يوم بدر وحمل رأس لأبى بكر رضى الله عنه فأنكره . ويجاب بأن البيهقى رحمه الله قال : ماروى من حمل رأس أبى جهل قد تكلم فى ثبوته وبتقدير صحته فهو من محل إلى محل لا من بلد إلى بلد، أى من بلد الكفر إلى دار الإسلام : أىْ الذى أنكره أبو بكر رضى الله عنه ، فإنه أنكر نقل الرأس من بلد الكفر إلى بلد الإسلام .

وقد جوّزه من أئمتنا الماوردى والغزالى إذا كان فى ذلك مكايدة للكفار . وفى النور : تحصلنا على جماعة حملت رؤوسهم إليه صلى الله عليه وسلم : أبو جهل ، وسفيان بن خالد ، وكعب بن الأشرف ، ومرحب اليهودى ، والأسود العنسى على ماروى ، وعصماء بنت

مروان ، ورفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة : أى ورأس عتبة بن أبى وقاص الذى كسر رباعيته صلى الله عليه وسلم وشق شفته السفلى يوم أحد كما سيأتى .

وفى وضع ابن مسعود رضى الله تعالى عنه رجله على عنق أبى جهل وقطع رأسه تصديق لتعبيره للرؤيا التى رآها لأبى جهل وقال له : إن صدقت رؤياى لأطأنّ رقبتك ولأذبحنك ذبح الشاه .

وفى رواية أن ابن مسعود رضى الله عنه وجده مقنعا فى الحديد وهو منكب لا يتحرك فرفع سابغة البيضة : أى الخودة عن قفاه لأن سابغة البيضة مايغطى بها العنق ، ومن ثم يقال بيضة لها سابغ ، فضربه فوقع رأسه بين يديه .

وعن ابن مسعود كما فى المعجم الكبير للطبرانى : انتهيت إلى أبى جهل وهو صريع وعليه بيضة ومعه سيف جيد ومعى سيف ردئ فجعلت ألقف رأسه وأذكر نقفا كان ينقف رأسى بمكة ، فأخذت سيفه فرفع رأسه فقال : على من كانت الدبرة ؟ ألست رويعينا بمكة؟ فقتله ثم سلبه ، فلما نظر إليه إذ هو ليس به جراح ، وإنما هى أحدار : أى أورام فى عنقه ويديه وكتفيه كهيئة آثار السياط : أى آثار سود كسمة النار : أى ليس به جراح من جراح الآدميين داخل بدنه ، فلا ينافى ماتقدم من قطع ابن الجموح لرجله .

ويجوز أن يكون ضرب ابن عفراء له حتى أثبته لم ينشأ عنه جراحة داخل بدنه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره به ، فقال : ذاك ضرب الملائكة ، أى فإن الملائكة عليهم السلام كانت لا تعلم كيف قتل الآدميين فعلمهم الله تعالى ذلك بقوله تعالى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أى مفصل ، فكانوا يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم بآثار سود كسمه النار . ولا ينافى ذلك وصفه بالخضرة فى بعض الروايات ، لأن الأخضر لشدة خضرته ربما قيل فيه أسود ، وتلك الآثار فى الأعناق ، والبنان الظاهر أن ذلك يكون موجودا حتى بعد مفارقة الرأس أو اليد ليستدل به على أن مفارقة الرأس أو اليد من فعل الملائكة ، وينبغى أن يكون هذا : أى ضربهم فوق الأعناق والبنان أكثر أحوالهم ، فلا ينافى وجود أثر ضربهم فى الكتفين كما تقدم وفى الوجه والأنف .

فعن بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنا ننظر إلى المشرك أمامنا مستلقياً فننظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق فى وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك الموضع . وفسر بعضهم الأعناق بالرءوس ، وهو غير مناسب لما ذكر هنا .

وروى عن سهل بن حنيف عن أبيه رضى الله عنه قال «لقد رأيتنا يوم بدر و إن أحدنا

ليشير بسيفه إلى المشرك» أى يرفعه عليه« فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف» ويمكن الجمع بين هذا وما قبله بأن ضرب الملائكة فى الأعناق تارة يفصلها وتارة لا ، وفى الحالتين يرى أثر ذلك أسود فى العنق ليستدل به على أنه من فعل الملائكة كما تقدم .

وفى رواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال« انتهيت إلى أبى جهل يوم بدر وقد قطعت رجله وهو صريع وهو يذب الناس عنه بسيف له ، فقلت: الحمد لله الذى أخزاك ياعدو الله ، قال : هل هو إلا رجل قتله قومه ،قال : فجعلت أتناوله بسيف لى غير طائل فأصبت يده ، فبدر » أى سقط سيفه « فأخذته فضربته حتى قتلته، ثم خرجت حتى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم كأنما أقل من الأرض » أى أحمل من شدة الفرح « فأخبرته ، فقال : الله الذى لا إله إلا هو » وفى لفظ تقدم « لا إله غيره ردده ثلاثا » وفى رواية عن ابن مسعود « فاستحلفنى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، ثم قال : الحمد لله الذى أعز الإسلام وأهله ثلاث مرات وخر ساجدا : أى خمس سجدات شكرا » كما تقدم .

وفى رواية : صلى ركعتين . قال ابن مسعود رضى الله عنه : ثم إنه صلى الله عليه وسلم خرج يمشى معى حتى قام عليه فقال : الحمد لله الذى أخزاك ياعدوا الله، هذا كان فرعون هذه الأمة » زاد فى لفظ « ورأس قاعدة الكفر ، ونفلنى سيفه أى وكان قصيرا عريضا فيه قبائع فضة وحلق فضة » ومع قصره كان أقصر من سيف ابن مسعود فلا منافاة .

أقول : يجوز أن يكون المضى إليه بعد إلقاء الرأس بين يديه صلى الله عليه وسلم استعظاما لقتله ، أى وأن ابن مسعود فى هذه الرواية سكت عن قطع رأسه والمجىء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا مخالفة ؛ وقد قال له النبى صلى الله عليه وسلم يوما وقد أخذ بمجامع ثوبه « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى» أى وعيد على وعيد « فقال : ماتستطيع أنت ولاربك بى شيئا، وإنى لأعز من مشى بين جبليها ، فأنزل الله تعالى (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى) وقيل نزلت كالتى قبلها فى عدى بن ربيعة لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة فأخبره به ، فقال : لو عاينت هذا اليوم لم أصدقك ، أويجمع الله هذه العظام ؟ فأنزل الله تعالى (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) الآيات ، والله أعلم .

وعن قتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن لكل أمة فرعونا وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله الله شر قتله » بكسر القاف الهيئة. قتلته الملائكة ، وفى لفظ قتله ابن عفراء وقتلته الملائكة ، وقد ذففه : أى أجهز عليه ابن مسعود .

وابن عفراء هذا يجوز أن يكون هو معاذ بن عمرو بن الجموح . ويجوز أن يكون أخاه معاذ بن الحارث ، وكونه قتله لأنه أزال منعته كما تقدم .

وفي مسلم عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : إني لواقف يوم بدر في الصف ، نظرت عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ، فغمزني أحدهما فقال ياعم هل تعرف أبا جهل بن هشام؟ قلت نعم ، وما حاجتك به؟ قال : بلغني أنه كان يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسي بيده لو رأيته لم يفارق سوادي سواده: أي شخصي شخصه حتى يموت الأعجل منا: أي الأقرب أجلا ، فغمزني الآخر فقال مثلها ، فعجبت لذلك ، أي لحرص كل منهما على ذلك وإخفائه عن صاحبه ليكون المختص به فلم أنشب : أي ألبث أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس : أي بالزاي يتحول من محل إلى محل آخر ، فقلت لهما ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه ، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه أي أشرفا به على القتل فصيراه إلى حركة مذبوح ، ثم انصرافا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، فقال أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما أنا قتلته ، قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ قال لا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في السيفين ، فقال كلاكما قتله ، وقضى بسلبه : أي ماعدا سيفه لهما ، فلا ينافي ماسبق من إعطائه لابن مسعود رضي الله عنه ، وهما معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء بن الحارث ، فهما : أي معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن الحرث ابنا عفراء ، غاية الأمر أن الأول اشتهر بأبيه عمرو بن الجموح ، والثاني اشتهر بأمه التي هي عفراء .

وقول الحافظ ابن حجر : إن معاذ بن عمرو بن الجموح ليس اسم أمه عفراء يجوز أن يكون مستنده في ذلك مقابلة ابن الجموح بابن عفراء في كلامهم المقتضي ذلك ، لأن يكون ابن الجموح ليس ابن عفراء .

ولا يشكل على ذلك مافي النور نقلا عن الإمام النووي ، أن عمرو بن الجموح وابني عفراء : أي معاذ ومعوذ اشتركوا في قتل أبي جهل ، لأن معاذا الثاني ابن الحرث ، فكل من عمرو بن الجموح والحرث تزوج عفراء ، وكل سمي ولده منها معاذ . ويدل لذلك مايأتي عن الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله ابني عفراء اشتركا في قتل فرعون هذه الأمة ، ولما قيل له : يارسول الله من قتله معهما ، قال الملائكة ، ولم يقل عمرو بن الجموح » لكن رأيت بعضهم ذكر أن عفراء شهد لها بدرا سبع بنين ثلاثة من الحارث بن رفاعة ،

وهم معوذ ومعاذ ، وعامر ، وأربعة من بكر بن عبد ياليل ، وهم خالد وأساس وعاقل وعامر ، واستشهد منهم ببدر معاذ ومعوذ وعاقل هذا كلامه ، وذكر عامر فى الأول تقدم بدله ذكر عوف وهو واضح ، فقد تقدم أن عوف بن الحارث بن عفراء قال « يارسول الله مايضحك الرب الخ » ولم يذكر هذا البعض أن من أولادها معاذ بن عمرو بن الجموح ، وهو يؤيد ماتقدم عن الحافظ ، وعن الإمام النووى ، فعليك بالتأمل . وقيل قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح .

أقول : أى لكونه هو الذى أزال منعته فاستحق سلبه ، ولا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لهما « كلاكما قتله » لجواز أن يكون أتى بذلك ملاطفة للثانى وترغيباله فى الجهاد ، لأن له مشاركة مافى قتله ، لأنه زاد فى إثخانه إلى أن صيره إلى آخر رمق .

ويرده كونه صلى الله عليه وسلم أشركهما فى سلبه ، ومن ثم قال فقهاؤنا : يعطى السلب لمن أثخن دون من قتل : أى بعد ذلك ، فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلب أبى جهل لمثخنيه ابنى عفراء دون قاتله ابن مسعود ، لكن هذا القيل قال به بعض آخر من فقهائنا ، وهو الموافق لما فى البخارى فى كتاب فرض الخمس : معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء قتلا أباجهل ثم تنازعا فيه ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى السيفين فرأى فيهما أثر الدم فقال : كلاكما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن الجموح ، قال الأصحاب لأنه أثخنه والآخر جرحه بعده ، وقوله : كلاكما قتله تطييب لقلب الآخر هذا كلامه فليتأمل ، فإن الذى أظنه أن كونه رأى أثر الدم فى سيفيهما خلط من الراوى لأن ذلك كان فى قتل بن الأشرف ، ويؤيد الخلط ماتقدم عن ابن مسعود أنه لم يرفيه أثر جراح داخل بدنه .

وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم قال « يرحم الله ابنى عفراء فإنهما قد اشتركا فى قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر ، فقيل : يارسول الله من قتله معهما ؟ قال : الملائكة ، وذففه ابن مسعود » وهذا السؤال يقتضى أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إنهماقد اشتركا فى قتل فرعون هذه الأمة » أن غيرهما شاركهما فى ذلك ، فليتأمل .

وفى شرح الروض وهو من أجل كتبنا أن عبد الله بن رواحة وابنى عفراء تقاتلا مع أبى جهل مبارزة وأنه صلى الله عليه وسلم علم ذلك وأقره ؛ وجعلوا ذلك دليلا على إباحة مبارزة القوى لكافر لم يطلب المبارزة .

أى وأما ماتقدم من أمره صلى الله عليه وسلم لحمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث بمبارزة عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة فذاك لكافر طلب المبارزة فقد تقدم أن عتبة خرج بين أخيه شيبة وولده الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة ، وأنه خرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء وهم : معاذ ومعوذ وعوف بنو عفراء ، وقيل بدل عوف عبد الله بن رواحة ، فلم يرضوا بمبارزتهم ، فعند ذلك أمر صلى الله عليه وسلم من ذكر بمبارزتهم ، وعندى أن ماذكره فى شرح الروض من مبارزة عبد الله بن رواحة وابنى عفراء لأبى جهل ، ذكر أبى جهل اشتباه ، وإنما هو لهؤلاء الثلاثة ولم تقع منهم مقاتلة ، وكيف يبارز ثلاثة واحدا ؟ فليتأمل .

وجاء فى الحديث « إن الله قتل فرعون هذه الأمة أبا جهل ، فالحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر دينه » والله أعلم .

وكان على الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها إلى ظهورهم ، أى إلا جبريل فإنه كان عليه عمامة صفراء ، أى وقيل حمراء .

قال بعضهم : وكان بعضهم بعمائم خضر وبعضهم بعمائم صفر ، وبعضهم بعمائم حمر أى وبعضهم بعمائم بيض ، وبعضهم بعمائم سود ، فلا منافاة .

وذكر أن عمامة جبريل عليه السلام يوم أغرق فرعون كانت سوداء ، قال وفى رواية « سيماهم عمائم سود » وعند ابن مسعود رضى الله عنه « كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضر وصفر وحمر » اه أى وبيض وسود .

وفى كلام بعضهم : نزلت الملائكة يوم بدر بعمائم صفر ، ورواية بيض وسود ضعيفة وفى كلام ابن إسحاق عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرخوها على ظهورهم إلا جبريل ، فإنه كان عليه عمامة صفراء من نور » أى وكانوا يوم أحد بعمائم حمر ويوم حنين كذلك » .

فى الجامع الصغير « كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ، ويوم أحد عمائم حمر » وماذكر لا ينافى ما قيل سيماهم ببدر عمائم صفر قد أرخوها بين أكتافهم . وما جاء « كان على الزبير رضى الله عنه ببدر عمامة صفراء معتجرا بها ، فقال صلى الله عليه وسلم : نزلت الملائكة علىّ بسيما أبى عبد الله » يعنى الزبير رضى الله عنه ، لجواز أن يكون أكثرهم كان بعمائم صفر .

وقد ذكر أن الزبير رضى الله عنه قاتل يوم بدر قتالا شديدا حتى كان الرجل يدخل يده فى الجراح فى ظهره وعاتقه .

وقد سئل الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى عن قوله تعالى (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ما السمة التى كانت عليهم ؟ فأجاب بأن ابن أبى حاتم ذكر فى تفسيره بأسانيد عن على كرم الله وجهه أنها الصوف الأبيض فى نواصىٰ خيولهم وأذنابها .

وعن مكحول وغيره أنها العمائم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عمائم بيض قد أرسلوها إلى ظهورهم ، وفى سنده رجل ضعيف . وعنه أيضا عمائم سود ، وفى سنده متروك، ثم قال : ورواية البيض والسود ضعيفة هذا كلامه ، أى وعلى تقدير صحتها يجاب بما قدمنا . وكان شعار الأنصار : أى علامتهم التى يتعارفون بها فى ذلك إذا جاء الليل أو وقع اختلاط «أحد أحد» أى وشعار المهاجرين يومئذ «يابنى عبد الرحمن» .

أى وعن زيد بن على قال : كان شعار النبى صلى الله عليه وسلم أى المهاجرين أو هو حتى لايشتبه بغيره « يامنصور أمت » ويقال « أحد أحد » وشعار الخزرج « يابنى عبد الله» وشعار الأوس « يابنى عبيد الله» .

وعن ابن سعد يقال كان شعار الجميع يومئذ « يامنصو أمت » .

أى وقد يقال : لا منافاة بين هذه الرواية وما قبلها من الروايات ، لأن المراد بالجميع المجموع ، لكن يحتاج إلى الجمع بين تلك الروايات السابقة على تقدير صحتها وكانت خيل الملائكة بلقا .

وعن على رضى الله تعالى عنه قال: كان سيما الملائكة :أى سيما خيلهم يوم بدرالصوف الأبيض ، أى وفى لفظ : بالعهن الأحمر فى نواصى الخيل وأذنابها .

أى ولا منافاة ، لجواز أن يكون بعضهم كذا ، وبعضهم كذا ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « سوّموا خيلكم فإن الملائكة قد سومت» فهو أول يوم وضع فيه الصوف أى فى نواصى الخيل وأذنابها ، ولم أقف على لون الصوف الذى وضع فى ذلك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهماقال«حدثنى رجل من بنى غفار قال:أقبلت أنا وابن عم لى حتى صعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة » أى الغلبة « فننهب مع من ينهب ، فبينا نحن فى الجبل إذ دنت منا سحابة ،فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلا يقول : اقدم حيزوم ، فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه »

أى غشاؤه « فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت » واقدم بضم الدال من التقدم: كلمة يزجر بها الخيل ، وحيزوم بالميم وربما قيل بالنون اسم فرس جبريل ، ولعلها هى الحياة وأحدهما اسم لها والآخر لقب ، وقيل لها الحياة لأنها مامسها شىء إلا صار حيا وهى التى قبض من أثرها أى من تراب حافرها السامرى، نسبة إلى سامر، قرية أوطائفة: ما ألقاه فى العجل الذى صاغه من حلى القبط فكان له خوار : أى صوت ، فكان إذا خار سجدوا وإذا سكت رفعوا ، قال فى النهر : الظاهر أنه قامت به الحياة .

وقيل لما صنعه السامرى أجوف تحيل لتصويته بأن جعل فى تجويفه أنابيب على شكل مخصوص وجعله فى مهب الرياح فتدخل فى تلك الأنابيب فيظهر له صوت يشبه الخوار . وفى كلام بعضهم: فرس جبريل التى هى حيزوم كان صهيله التسبيح والتقديس ، وإذا نزل عليها جبريل عليه السلام علمت الملائكة أن نزوله للرحمة ، وإذا نزل منشور الأجنحة علمت أن نزوله للعذاب ، أى وحينئذ فنزول جبريل عليه السلام عليها يوم بدر كان لرحمة المسلمين ، وإن كان عذابا على الكافرين ، ويكون نزوله لا عليها بل منشور الأجنحة اذا كان لمحض العذاب .

ويحتمل أن يكون حيزوم غير فرس الحياة ، وإليه ذهب السهيلى رحمه الله ، فقال : والحياة أيضا فرس لجبريل عليه السلام .

قال الحافظ ابن حجر : ومن الأخبار الواهية أن الموت كبش لايجد ريحه شىء إلا مات، والحياة فرس بلقاء أنثى ، أى خطوتها — كما فى العرائس — مدّ البصر، وهى التى كان جبريل عليه السلام والأنبياء عليهم السلام يركبونها أى كلهم كما فى العرائس، لا تمر بشىء ولا يجد ريحها شىء إلا حيى .

هذا ، وفى أثر مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل :من القائل يوم بدر من الملائكة اقدم حيزوم؟ فقال جبريل عليه السلام : يامحمد ما كل أهل السماء أعرف .

قال ابن كثير : وهذا الأثر يردّ قول من زعم أن حيزوم اسم فرس جبريل عليه السلام ، أى وفيه أنه لا يبعد أن يقول أحد من الملائكة لفرس جبريل اقدم حيزوم ، ولايعرف ذلك القائل ، وكأنّ الحافظ ابن كثير رحمه الله فهم من قوله صلى الله عليه وسلم من القائل الخ ، أن ذلك الفرس لذلك القائل ، نعم إن كان هذا الأثر وقع بعد الرواية التى تلى هذه وهى جاءت سحابة الخ ، أو أن ذلك الأثر سقط منه لفظة لفرسه ، والأصل من

القائل يوم بدر من الملائكة لفرسه ، اتجه مافهمه ابن كثير رحمه الله فليتأمل ، قال : وفى رواية « جاءت سحابة فسمعنا أصوات الرجال والسلاح ، وسمعنا رجلا يقول لفرسه : اقدم حيزوم ، فنزلوا على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءت سحابة أخرى نزل منها رجال كانوا على ميسرته ، فإذا هم على الضعف من قريش فمات ابن عمى ، وأما أنا فتماسكت وأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم وأسلمت » ومن ثم ذكر فى الصحابة .

وفى النور : هذا الرجل مذكور فى الصحابة ، وليس فى الحديث أى الرواية الأولى مايدل على إسلامه إلا أن تحديثه لابن عباس رضى الله تعالى عنهما بهذه المعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم يشعر بإسلامه هذا كلامه .

وفيه أن قوله ونحن مشركان يدل على أنه كان مسلما عند تحديثه لابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الغمام الذى ظلل بنى إسرائيل فى التيه هو الذى يأتى الله تعالى فيه يوم القيامة ، وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر .

أى وعن على رضى الله تعالى عنه « هبت ريح شديدة مارأيت مثلها قط ثم جاءت أخرى كذلك ، ثم جاءت أخرى كذلك ، ثم جاءت أخرى كذلك ، فكانت الأولى جبريل نزل فى ألف من الملائكة » أى لعلها أمامه أخذا من قوله « وكانت الثانية ميكائيل ، نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الثالثة إسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » وفى ذلك سكوت عن الرابعة ، أى زاد فى الإمتاع « وكان إسرافيل وسط الصف لا يقاتل كما يقاتل غيره من الملائكة » .

وظاهر هذا أن كلا من جبريل وميكائيل قاتل ، وتقدم أنهم فى هذه الغزاة التى هى غزاة بدر قيل لم يمدوا إلا بألف من الملائكة ، ورواية ألفين ضعيفة جاءت عن على رضى الله تعالى عنه ، فتكون هذه الرواية التى جاءت عن على أيضا كذلك ، ولا نظر لما تقدم عن بعضهم أن إمدادهم يوم بدر بثلاثة آلاف أولا ، وأنهم وعدوا أن يمدوا بخمسة آلاف إن ثبتوا وصبروا وهو ماعليه الأكثر ، لما علمت أن ذلك إنما كان فى أحد ، وسيأتى ذلك مع زيادة . قال بعضهم : ولم تقاتل الملائكة إلا فى يوم بدر ، أى وفى غيره يكونون مددا من غير مقاتلة ، وسيأتى أنهم قاتلوا يوم أحد ويوم حنين .

ففي مسلم عن سعد بن أبي وقاص « أنه رأى عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام ، يقاتلان كأشد القتال » .

قال الإمام النووي رحمه الله : فيه أن قتال الملائكة لم يختص بيوم بدر ، وهذا هو الصواب ، خلافا لمن زعم اختصاصه ، فإن هذا صريح في الرد عليه .

أقول : يمكن الجمع بأن المختص ببدر قتال الملائكة عنه وعن أصحابه ، وفي غيره كان عنه صلى الله عليه وسلم خاصة ، فلا منافاة ؛ ثم رأيتني ذكرت هذا الجمع في غزوة أحد عن البيهقي ، وتعقبته بما جاء أن الملائكة قاتلت في ذلك اليوم عن عبد الرحمن بن عوف . وعلى تسليم ورود ذلك فيه أنهم لو قاتلوا يوم أحد لظهر أثر قتلهم كما ظهر في يوم بدر .

وقد يقال : مرادهم بالمقاتلة يوم أحد المدافعة من غير أن يوقعوا فعلا ، وفي يوم بدر المراد بالمقاتلة إيقاع الفعل ، والله أعلم .

وانكسر سيف عكاشة ــ بتشديد الكاف أكثر من تخفيفها ــ ابن محصن وهو يقاتل به فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جذلا من حطب : أي أصلا من أصول الحطب وقال له قاتل بهذا ياعكاشة ، فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه فعاد في يده سيفا ، طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديد ، فقاتل به رضي الله عنه حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون .

ثم لم يزل عند عكاشة وشهد به المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم لم يزل متوارثا عند آل عكاشة . وعكاشة ، مأخوذ من عكش على القوم : إذا حمل عليهم ، والعكاشة : العنكبوت ، وسيأتي مثل ذلك في أحد لعبدالله بن جحش .

وانكسر سيف سلمة بن أسلم رضي الله عنه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيبا كان في يده : أي عرجونا من عراجين النخل وقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيد فلم يزل عنده .

قال : وعن خبيب بن عبد الرحمن قال « ضرب خبيب جدي يوم بدر فمال شقه ، فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمه ورده فانطبق » .

وعن رفاعة بن مالك رضي الله عنه قال « لما كان يوم بدر رميت بسهم ففقئت عيني ، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا لي ، فما آذاني منها شيء » اهـ .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى من المشركين أن ينقلوا من مصارعهم التى أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وجودها ؟ فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر يقول : هذا مصرع عتبة ابن ربيعة ، وهذا مصرع شيبة بن ربيعة ، وهذا مصرع أمية بن خلف ، وهذا مصرع أبى جهل بن هشام ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى ، أى ويضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة على الأرض ، فما تنحى أحدهم عن موضع يده » كما تقدم عن أنس ، وتقدم عنه أن ذلك كان ليلة بدر بعد أن وصل إلى محل الواقعة ، إذ لايتصور وضع يده على الأرض إلا إذا كان بمحل الوقعة .

وبه يعلم ماذكره بعضهم أن إخباره صلى الله عليه وسلم بمصارع القوم تكرر منه مرتين قبل الوقعة بيوم أو أكثر ويوم الوقعة ، هذا كلامه ، إلا أن يقال قوله يوم الوقعة هو بناء على أنه صلى الله عليه وسلم وصل بدرا فى النهار . والقول بأن ذلك كان ليلا بناء على أنه وصل بدرا ليلا . ومعلوم أنه إنما وضع يده فى محل الوقعة .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا فطرحوا فى القليب ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملأه فذهبوا ليحركوه فتزايل : أى تقطعت أوصاله فأقروه وألقوا عليه ماغيبه من التراب والحجارة .

وهذا دليل على أن الحربى لايجب دفنه ، وبه قال أئمتنا ، بل قالوا : يجوز إغراء الكلاب على جيفته .

وفى سنن الدارقطنى « كان من سنته صلى الله عليه وسلم فى مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بدفنه لايسأل عنه مؤمنا كان أو كافرا » أى ولكثرة جيف الكفار كره صلى الله عليه وسلم أن يشق على أصحابه أن يأمرهم بدفنهم فكان جرهم إلى القليب أيسر ، وكان الحافر لهذا القليب رجل من بنى النجار ، فكان فألا مقدما لهم ذكره السهيلى .

« ولما ألقى عتبة والد أبى حذيفة رضى الله عنه فى القليب تغير وجه أبى حذيفة ففطن » بفتح الطاء « له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : لعلك دخلك من شأن أبيك شىء ، فقال : لا والله ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام ، فلما رأيت مامات عليه أحزننى ذلك ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وقال له خيرا » .

أقول : وذكر فقهاؤنا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أبا حذيفة عن قتل أبيه فى هذه الغزاة وقد أراد ذلك ، والله أعلم .

« ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على شفير القليب » أى قيل بعد ثلاثة أيام من إلقائهم فى القليب وذلك ليلا ، أى وفى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه « كان صلى الله عليه وسلم إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان اليوم الثالث أمر صلى الله عليه وسلم براحلته فشدّ عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركى » أى وهو القليب « وجعل يقول : يافلان ابن فلان ويافلان ابن فلان هل وجدتم ماوعد الله ورسوله حقا ؟ فإنى وجدت ماوعدنى الله حقا » .

وجاء فى بعض الطرق نداؤهم بأسمائهم ، فقال : « ياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام » وهذا يقتضى أنه فى تلك الرواية نطق بلفظ يافلان ابن فلان ولا يخفى بعده فليتأمل .

واعترض بأن أمية بن خلف لم يكن من أهل القليب لما علمته . وأجيب بأنه كان قريبا من القليب « بئس عشيرة النبى ، كنتم كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها . وفى رواية أجسادا قد أجيفوا . وفى لفظ : قد جيفوا ، فقال : صلى الله عليه وسلم ما أنتم بأسمع ، وفى رواية : لأسمع لما أقول منهم ، وفى رواية : لقد سمعوا ماقلت غير أنهم لايستطيعون أن يردوا شيئا » .

وعن قتادة رضى الله عنه أحياهم الله تعالى حتى سمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم تو بيخا لهم وتصغيرا ونقمة وحسرة .

أقول : والمراد بإحيائهم شدة تعلق أرواحهم بأجسادهم حتى صاروا كالأحياء فى الدنيا للغرض المذكور ؛ لأن الروح بعد مفارقة جسدها يصير لها تعلق به ، أو بما يبقى منه ولو عجب الذنب فإنه لايفنى وإن اضمحل الجسم بأكل التراب ، أو بأكل السباع أو الطير أو النار ، وبواسطة ذلك التعلق يعرف الميت من يزوره ويأنس به ويردّ سلامه إذا سلم عليه كما ثبت فى الأحاديث . والغالب أن هذا التعلق لايصير الميت به حيا كحياته فى الدنيا ، بل يصير كالمتوسط بين الحى والميت الذى لاتعلق لروحه بجسده ، وقد يقوى حتى يصير كالحى فى الدنيا ، ولعله مع ذلك لايكون فيه القدرة على الأفعال الاختيارية ، فلا يخالف ماحكى

عن السعد اتفقوا على أنه تعالى لم يخلق فى الميت القدرة والأفعال الاختيارية هذا كلامه ، والكلام فى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والشهداء رضى الله عنهم : أى شهداء المعركة، أما هما فتتعلق أرواحهم بأجسادهم تصير به أجسادهم حية كحياتها فى الدنيا ويكون لهم القدرة والأفعال الاختيارية .

فقد روى البيهقى رحمه الله فى الجزء الذى ألفه فى حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى قبورهم عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون «وجاء» إن علمى بعد موتى كعلمى فى الحياة » .

وروى أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « لينزلن عيسى ابن مريم عليه السلام ، ثم إن قام على قبرى وقال : يامحمد لأجبته » ومن ثم قال الإمام السبكى : حياة الأنبياء والشهداء كحياتهم فى الدنيا ، ويشهد له صلاة موسى عليه السلام فى قبره ، فإن الصلاة تستدعى جسدا حيا ، وكذا الصفات المذكورة فى الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام .

ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت فى الدنيامن الاحتياج إلى الطعام والشراب ، وأما الادراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ولسائر الموتى ، هذا كلامه وسائر الموتى شامل للكفار ، أى وأكل الشهداء وشربهم فى البرزخ لا عن احتياج بل لمجرد الإكرام ، وكون الشهداء اختصوا بذلك دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا مانع منه ، لأن المفضول قد يختص بما لا يوجد فى الفاضل ، ألا ترى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرعت الصلاة عليهم وجوبا وحرمت على الشهداء ، وبهذا يرد قول بعضهم فى الاستدلال على حياة الأنبياء بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) والأنبياء أولى بذلك لأنهم أجل وأعظم ، وما من نبى إلا وقد جمع بين النبوة ووصف الشهادة ، فيدخلون فى عموم لفظ الآية ، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال فى مرض موته « لم أزل أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهرى من ذلك السم » فثبت كونه صلى الله عليه وسلم حيا فى قبره بنص القرآن ، إما من عزم اللفظ أو من مفهوم الموافقة .

ووجه رده أن الأولوية قد تمنع بل أصل القياس ، لما علمت أنه قد يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل ، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وإن جمعوا بين النبوة والشهادة ،

إلا أن المراد فى الآية شهداء المعركة لا مطلق الشهادة ، إذ شهادة المعركة لم تحصل لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ثم لا يخفى أن الذى ثبت حياة الأنبياء وصلاتهم فى قبورهم وحجهم ، وأما صومهم وأكلهم وشربهم فى ذلك فلم أقف على ما يدل على ذلك فى شيء من الأحاديث والآثار ، وقياسهم فى ذلك على الشهداء علمت أنه قد يمنع لما أنه قد يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل .

والذى يدل على أنهم يحجون ماجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة فمررنا بواد ، فقال : أىّ واد هذا ؟ فقالوا : وادى الأزرق ، فقال صلى الله عليه وسلم : كأنى أنظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام واضعا أصبعيه فى أذنيه له جؤار إلى الله تعالى بالتلبية مارا بهذا الوادى ، ثم سرنا حتى أتينا على ثنية ، فقال صلى الله عليه وسلم : كأنى أنظر إلى يونس عليه الصلاة والسلام على ناقة حمراء عليه جبة صوف مارا بهذا الوادى ملبيا » وقد جاء فى موسى عليه السلام « أنه كان على بعير » وفى رواية « على ثور » ولا منافاة لجواز أن يكون تكرر حجه أو ركب البعير مرة والثور أخرى . ولا يخفى أن رزق الشهداء يصدق على الجماع ، لأنه مما يتلذذ به كالأكل والشرب .

ثم رأيت سيدى أبا المواهب الشاذلى رحمه الله ونفعنا ببركاته ، قال فى كتابه المسمى [بعنوان أهل السر المصون فى كشف عورات أهل المجون] وأخبر سبحانه عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وحمله أهل العلم على الحقيقة وأنهم يأكلون ويشربون وينكحون حقيقة ، وقائل غير هذا أى أن الأكل والشرب عبارة عن لذة تحصل لهم كاللذة الناشئة عن الأكل والشرب والنكاح صرف هذه الآية عن ظاهرها من غير ضرورة تلجىء إلى ذلك ، ثم قاس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الشهداء فى ذلك ، لما تقدم من أنهم أجلّ وأعظم ، وما من نبى إلا وقد جمع بين النبوة والشهادة . وقد علمت جواب من منع القياس .

ثم رأيت عن إفتاء شيخنا الشمس الرملى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والشهداء رضى الله عنهم يأكلون فى قبورهم ويشربون ويصلون ويصومون ويحجون . ووقع الخلاف هل ينكحون ؟ فقيل نعم . وقيل لا ، وأنهم يثابون على صلاتهم وصومهم

وحجهم ، ولا تكليف عليهم فى ذلك لانقطاع التكليف بالموت ، بل من قبيل التكرمة ووقع الدرجات هذا كلامه ، ولعل مستنده فى إثبات ماعدا الصلاة والحج للأنبياء قياسهم على الشهداء ، وقد علمت ما فيه وإثبات الخلاف الذى ذكره شيخنا فى نكاح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا أدرى هل هو خلاف أهل عصره أو من تقدمهم .

على أن إثبات النكاح للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ربما يبعده ما ذكروه فى حكمة قوله صلى الله عليه وسلم « حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب » حيث لم يقل من دنياى ولا من الدنيا ، فإنه أشار بهذه الإضافة إلى أن النساء والطيب من دنيا الناس لأنهم يقصدونهما للاستلذاذ وحظوظ النفس ، وهو عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك .

وإنما حبب إليه النساء لينقلن عنه محاسنه ومعجزاته الباطنة والأحكام السرية التى لا يطلع عليها غالبا غيرهن وغير ذلك من الفوائد الدينية .

وحبب إليه الطيب لملاقاته للملائكة ، لأنهم يحبونه ويكرهون الريح الخبيث ، لأن حقيقة الإكرام أن يحصل له فى البرزخ ماكان يلتذ به فى الدنيا ، ليكون حاله فيه كحاله فى الدنيا .

وفيه أن الحكمة المذكورة لا تناسب قوله صلى الله عليه وسلم « فضلت على الناس بأربع وعدّ منها كثرة الجماع » وهم كغيرهم فى هذا التعلق متفاوتون بحسب مقاماتهم ، وإنه يعبر عن قوة هذا التعلق بعود الحياة ، ومنه ما ذكر عن قتادة وتعود الروح ، ومنه قول بعضهم : أرواح الأنبياء والشهداء بعد خروجها من أجسادها تعود إلى تلك الأجسام فى القبر ، وأذن لهم فى الخروج من قبورهم والتصرف فى الملكوت العلوى والسفلى .

ومن ثم قال ابن العربى رحمه الله تعالى : رؤية المصطفى عليه الصلاة والسلام بصفته العلوية إدراك له على الحقيقة ، وعلى غير صفته العلوية إدراك للمثال ويعبر عنه بردها .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله تعالى علىّ روحى حتى أرد عليه السلام » أى إلا قوى تعلق روحى ، وذلك إكراما لهذا المسلم حيث لا يردّ عليه سلامه إلا وقد قوى تعلق روحه الشريفة بجسده الشريف ، والروح بناء على أنها غير عرض مع كونها فى مقاماتها لها تعلق بجسدها وبما يبقى منه كما تقدم ، كالشمس فى السماء الرابعة ولها تعلق بالأرض ، وربما عبر عن ضعف هذا التعلق بصعودها وطلوعها ، وبناء على أنها عرض تزول ويعود مثلها ، وقد أوضحت ذلك فى [النفحة العلوية فى الأجوبة

الحلبية عن الأسئلة القروية] وهى أسئلة سئلت عنها من بعض أهل القرى المصرية ، وذكرت أن هذا أولى مما أطال به الجلال السيوطى من الأجوبة مع ما فيها مما لا يخفى .
ورأيت فى حديث عن عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لله ملكا أعطاه سمع العباد كلهم ، وإنه ما من أحد يصلى علىّ صلاة إلا بلغنيها ، وإنى سألت ربى عز وجل أن لا يصلى علىّ أحد صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرة أمثالها » وذكر الحافظ الذهبى أن راوى هذا الحديث تفرد به متنا وإسنادا والله أعلم .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها أنكرت قوله صلى الله عليه وسلم لقد سمعوا ما قلت وقالت ، إنما قال لقد علموا أن الذى كنت أقول حق ، وقالت : إنما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أى بقوله فى حق أهل القليب « ما أنتم بأسمع منهم » أنهم الآن ليعلمون أن الذى أقول لهم هو الحق ، أى لا أنهم يسمعون ماأقول بحاسة سمعهم التى كانت موجودة فى الدنيا ، ثم قرأت أى محتجة على ذلك قوله تعالى (إنك لا تسمع الموتى) الآية ، وبقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) .

ويجاب بأنه لا مانع من إبقاء السمع هنا على حقيقته ، لأنه إذا قوى تعلق أرواح هؤلاء الكفار بأجسادهم بحيث صاروا أحياء كحياتهم فى الدنيا للغرض المذكور لا مانع من سماعهم بحاسة سمعهم لبقاء محل تلك الحاسة منهم ، كما أن الجسد بذلك التعلق يقوى على الجلوس للسؤال فى القبر والسماع المنفى فى الآيتين بمعنى السماع النافع ، وقد أشار إلى ذلك الجلال السيوطى رحمه الله بقوله نظما :

سماع موتى كلام الخلق قاطبة ... جاءت عندنا الآثار فى الكتب
وآية النفى معناها سماع هدى ... لا يقبلون ولا يصغون للأدب

لأنه تعالى شبه الكفار الأحياء بالأموات فى القبور فى أنهم لا ينتفعون بالدعاء إلى الإسلام النافع .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه بشيرا لأهل العالية : أى وهى محل قريب من المدينة على عدة أميال ، وزيد بن حارثة بشيرا لأهل السافلة بها راكبا ناقته القصوى ، وقيل العضباء بما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فجعل عبد الله بن رواحة ينادى فى أهل العالية : يامعشر الأنصار أبشروا

بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المشركين وأسرهم ، ونادى زيد بن حارثة فى أهل السافلة بمثل ذلك ، أى ويقولان : قتل فلان وفلان ، أى وأسر فلان وفلان من أشراف قريش ، وصار عدو الله كعب بن الأشرف يكذبهما ويقول : إن كان محمد قتل هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها ، قال أسامة بن زيد رضى الله عنهما فأتانا الخبر حين سوّينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى ولما عزى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الحمد لله دفن البنات من المكرمات » وفى رواية « من المكرمات دفن البنات » ويعجبنى قول الباخرزى رحمه الله تعالى :

القبر أخفى سترة للبنات ودفنها يروى من المكرمات

أما رأيت الله عز اسمه قد وضع النعش بجنب البنات

وجاء عثمان رضى الله عنه من رقية هذه بولد يقال له عبد الله فاكتنى به ؛ وكان قبل ذلك يكنى أبا عمرو ، وتزوج بعدها أختها أم كلثوم بوحى .

فقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم رأى عثمان بن عفان مهموما بعد موت رقية رضى الله عنها ، فقال له : مالى أراك لهفانا مهموما ، فقال له : يارسول الله وهل دخل على أحد مادخل علىّ انقطع الصهر بينى وبينك ، فبينا هو يحاوره إذ قال صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل عليه السلام يأمرنى عن الله عز وجل أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها ، فزوجه إياها ، ولما تزوجها دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابنية أين أبو عمرو ؟ قالت : خرج لبعض حاجاته قال : كيف رأيت بعلك ؟ قالت : ياأبت خير بعل وأفضله ، فقال : يابنية كيف لايكون كذلك وهو أشبه الناس بجدك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، وأبيك محمد » وجاء « عثمان من أشبه أصحابى بى خلقا » وجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لى جبريل عليه السلام : إن أردت أن تنظر من أهل الأرض شبيه يوسف الصديق فانظر إلى عثمان بن عفان » ولتزوجه ببنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له ذو النورين ، ولم يجمع أحد منذ آدم إلى اليوم بين بنتى نبى غيره رضى الله عنه ،ومن ثم لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا عنه قال : ذاك امرؤ يدعى فى الملأ الأعلى ذا النورين .

ولما ماتت أم كلثوم تحته وذلك سنة تسع قال صلى الله عليه وسلم « زوجوا عثمان ، لو كان لى ثالثة لزوجته إياها ،وما زوجته إلا بوحى من الله » وجاء أنه صلى الله عليه وسلم

قال له « لو أن لى أربعين بنتا زوجتك واحـدة بعد واحـدة حتى لايبقى منهن واحدة » وأم عثمان بنت عمته صلى الله عليه وسلم أروى بنت عبد المطلب ، توأمة عبد الله أبى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال : وقال رجـل من المنافقين لأبى لبابة رضى الله عنه : قد تفرق أصحابكم تفرقا لايجتمعون بعده أبدا ، قد قتل محمد وغالب أصحابه ، وهـذه ناقته عليها زيد بن حارثة لايدرى مايقول من الرعب ، قال أسامة : فجئت حتّى خلوت بأبى لبابة وسألته عما أسره له الرجل ، فأخبرنى بما أخبره به ، فقلت : أحق ماتقول ، قال : أى والله حق ما أقول يابنى ، فقويت نفسى ورجعت إلى ذلك المنافق، فقلت : أنت المرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم لنقدمنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم فيضرب عنقك ، فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه ، انتهى . أى وهـذا كان قبل أن يجتمع أسامة بأبيه زيد بن حارثة .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة، فلما خرج من مضيق الصفراء قسم النفل ، أى الغنيمة ، وكانت مائة وخمسين من الإبل، وعشرة أفراس ومتاعا وسلاحا وأنطاعا وثيابا وأدما كثيرا حمله المشركون للتجارة ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له » أى كما تقدم ، ولعله تـكرر ذلك منه صلى الله عليه وسـلم مرتين : مرة للتحريض على القتال ، ومرة عند القسمة ، فالمقسوم مابقى بعد إخراج السلب وإخراج الأسرى قسم على المسلمين بالسوية بعد الاختلاف فيه ، فادّعى من قاتل العد وصده أنهم أحق به ، وادعى من جمعه أنهم أحق به ، وادعى من كان يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش أن غيرهم ليس بأحق به منهم ، أى لأن سعد بن معاذ رضى الله عنه قام على باب العريش الذى به صلى الله عليه وسـلم وأبو بكر رضى الله عنه فى نفر من الأنصار، وفى رواية عن عبادة بن الصامت « أن جماعة خرجت فى أثر العدّو عند انهزامه ، وجماعة أكبوا على جمع الغنيمة فجمعوها ، وجماعة عند انهزام العدو أحدقوا به صلى الله عليه وسلم فى العريش خوفا أن يصيب العدّو منه غرة ولعل هؤلاء كانوا زيادة عمن كان مع سعد بن معاذ على باب العريش ؛ فادعى من أكب على جمعها أنهم أحق بها، وادعى من عداهم أن أولئك ليسوا بأحق بها منهم» .

أى وكون جماعة أحدقوا به صلى الله عليه وسلم بعد انهزام العدوّ ، قد يقال : لاينافى

ذلك ماتقدم عن ابن سعد « أنه لما انهزم المشركون دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثرهم بالسيف مصلتا يتلو هـذه الآية (سيهزم الجمع ويولون الدبر) » لجواز أن يكون صلى الله عليه وسلم خرج فى أثرهم برهة من الزمان ، ثم عاد إلى العريش فأحدق به هؤلاء مع من تقدم ، فأنزل الله تعالى سورة الأنفال (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) .

فالنفل قد يطلق على الغنيمة كما هنا كما أشرنا إليه ، وسماها الله تعالى أنفالا لأنها زيادة فى أموال المسلمين ، وكذا الفىء المذكور فى سورة الحشر التى نزلت فى غزوة بنى النضير يطلق على الغنيمة وسمى فيئا لأن الله تعالى أفاءه على المؤمنين : أى رده عليهم من الكفار ، فإن الأصل أن الله تعالى إنما خلق الأموال إعانة على عبادته ، لأنه إنما خلق الخلق لعبادته ، فقد رد إليهم مايستحقونه كما يعاد ، ويرد على الرجل ماغصب من ميراثه وإن لم يقبضه قبل ذلك . ومنه قول بعضهم : كان أهل الفىء بمعزل عن أهل الصدقة ، وأهل الصدقة بمعزل عن أهل الفىء ، كان يعطى من الصدقة اليتيم والمسكين والضعيف ، فإذا احتلم اليتيم نقل إلى الفىء أى إلى الغنيمة ، وأخرج من الصدقة فنزعه الله من أيديهم ، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى يضعه حيث شاء فدلت الآية على أن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد من المقاتلة شىء منها ، ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) والأربعة أخماس الباقية للمقاتلة ، أى فكان ذلك الخمس يخمس خمسة أخماس : واحد له صلى الله عليه وسلم يفعل فيه ما أحب ، والأربعة من ذلك الخمس لمن ذكر فى الآية ، والأربعة الأخماس الباقية تكون للمقاتلة .

وسيأتى فى سرية عبد الله بن جحش لنخلة « أنه صلى الله عليه وسلم خمس العير الذى جاء به عبد الله كذلك ، فجعل خمس ذلك لله ، وأربعة أخماسه للجيش » وقيل عبد الله هو الذى خمسها كذلك ، وأقرّه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وهى أول غنيمة فى الإسلام وأوّل غنيمة خمست ، فكان تخميسها قبل نزول الآية ، لما علمت أن نزول تلك الآية كان بعد بدر فهى من الآيات التى تأخرت تلاوتها عن حكمها ، قال بعضهم : وكان ابتداء تحليل الغنائم لهذه الأمة فى وقعة بدر كما ثبت فى الصحيحين ، وذلك فى قوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) فأحل الغنيمة لهم .

أقول : وفيه أن هذا قد يعين القول بأنه صلى الله عليه وسلم وقف غنائم نخلة حتى رجع من بدر ، ويضعف ما سبق من أنه صلى الله عليه وسلم خمسها ، أو أن عبد الله هو الذى خمسها قبل بدر ، وأقرّه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وقد علمت أن ما أصابه من بدر قسمه بين المسلمين سواء أى لم يتميز فيه أحد عن أحد ، الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس سواء ، وفيه تفضيل الفارس على الراجل فى ذلك اليوم ، وسيأتى التصريح بذلك ، وهذا يؤيد القول بأن الجيش كان فيه خمسة أفراس أو فرسان ، دون القول بأنه لم يكن فيه إلافرس واحد على ماتقدم ، حتى هو صلى الله عليه وسلم كان سهمه كسهم واحد منهم ، أى كفارس منهم بناء على ما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان له فرسان إلا مااصطفاه وهو سيفه ذو الفقار كما سيأتى ، وحينئذ يكون قول سعدبن أبى وقاص رضى الله عنه « يا رسول الله أتعطى فارس القوم الذى يغيظهم مثل ما تعطى الضعيف » أراد بالفارس فيه القوى .

ففى مسند الإمام أحمد ، قال سعد بن أبى وقاص « قلت : يا رسول الله الرجل يكون حاجته للقوم يكون سهمه وسهم غيره سواء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثكلتك أمك ، وهل تنصرون إلا بضعفائكم » وما فى مسند الإمام أحمد يدل على أن مراد سعد بالفارس القوى لمقابلته فى هذه الرواية بالضعيف ، فلا ينافى أنه أعطى الفارس لفرسه سهمين وله سهم كالراجل .

وقد أسهم لمن لم يحضر ، كمن أمره صلى الله عليه وسلم بالتخلف لعذرمنعهمن الحضور كعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، فإنه صلى الله عليه وسلم خلفه لأجل مرض زوجته رقية بنت النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، أو لما كان به رضى الله تعالى عنه من الجدرى على ما تقدم ، ولهذا عدّ من البدريين ، وأبى لبابة لأنه صلى الله عليه وسلم خلفه على أهل المدينة ، وعاصم بن عدى فإنه خلفه على أهل قباء والعالية ، ولمن أرسله لكشف أمر العدوّ يتجسس خبره فلم يجئ إلا وقد انقضى القتال ، وهما طلحة بن عبيد الله وسعيد ابن زيد كما تقدم ، والحارث بن حاطب ، أمره بما مر فى بنى عمرو بن عوف وخوات ابن جبير والحارث بن الصمة لأن كلا منهما كسر بالروحاء كما تقدم .

وبهذا يظهر التوقف فى قول الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى : وضرب لعثمان رضى الله تعالى عنه يوم بدر بسهم ولم يضرب لأحد غاب غيره ، رواه أبو داود

عن ابن عمر قال الخطابي : هذا خاص بعثمان ، لأنه كان يمرّض ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا كلامه .

وأسهم صلى الله عليه وسلم لأربعة عشر رجلا قتلوا ببدر ، ولعلهم ماتوا بعد انقضاء الحرب ، فلا يشكل على ما قاله فقهاؤنا أن من مات قبل انقضاء الحرب لاحق له

وتنفل صلى الله عليه وسلم زيادة على سهمه سيفه ذا الفقار ؛ أى وكان لمنبه بن الحجاج أى وقيل لابنه العاص قتل أيضا يوم بدر ، وقيل كان لعمه نبيه ، وفى كلام أبى العباس ابن تيمية أنه كان لأبى جهل ، أى ويمكن أن يكون ذلك السيف كان فى الأصل لأبى جهل ، ثم أعطاه لمنبه بن الحجاج أو لغيره ممن ذكر لايقال أو بالعكس ، لأن سيف أبى جهل أخذه ابن مسعود كما تقدم فلا مخالفة .

وتنفل أيضا صلى الله عليه وسلم جمل أبى جهل وكان مهريا ، ولم يزل يغزو عليه حتى ساقه فى هدى الحديبية كما سيأتى ، وهذا الذى كان يأخذه زيادة على سهمه أى قبل قسمة الغنيمة إذا كان صلى الله عليه وسلم مع الجيش يقال له الصفى والصفية عبدا أو أمة أو دابة أو سيفا أو درعا ، لكن فى الإمتاع عن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما « كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صفى من المغنم حضر أو غاب » قال بعضهم : وهو محسوب من سهمه صلى الله عليه وسلم ، وقيل يكون زائدا عليه ، إلا أن يقال ذاك الذى وقع فيه الخلاف كان بعد نزوله آية التخميس ، وهذا كان قبل ذلك ، فلا يخالف ما سبق أن ما أخذه قبل القسمة كان زائدا على سهمه المساوى لسهام القوم ، أى وكان فى الجاهلية يقال للذى يأخذه الرئيس إذا غزا بالجيش المرباع وهو ربع الغنيمة ، ولم يسمع مرباع إلا فى الربع دون غيره من الخمس وما بعده . والصفايا أشياء كان يصطفيها الرئيس لنفسه من خيار مايغنم ، والنشيطة : ما أصابه الجيش فى طريقه قبل أن يصل إلى مقصده وكان للرئيس النقيعة أيضا ، وهو بعير ينحره قبل القسمة فيطعمه الناس ، كذا فى شرح الحماسة للتبريزى .

قال : وقد سقط فى الإسلام النقيعة والنشيطة ، وأمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه فقتل النضر بن الحارث بالصفراء .

أى وفى الإمتاع « أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى النضر وهو أسير ، فقال النضر للبسير الذى بجانبه : محمد والله قاتلى ، فإنه نظر إلىّ بعينين فيهما الموت ، فقال له : والله

ماهذا منك إلا رعب ، وقال النضر لمصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه : يا مصعب أنت أقرب من هذا إلىّ رحما فكلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى يعنى المأسورين ، هو والله قاتلى ، فقال مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا وكذا ، وتقول فى نبيه صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ، وكنت تعذب أصحابه .

وفى أسباب النزول للسيوطى وأقره ، وكان المقداد رضى الله تعالى عنه أسر النضر ، فلما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله ، قال المقداد : يا رسول الله أسيرى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول ، وقد رثته أخته ، وقيل بنته رضى الله تعالى عنها فانها أسلمت بعد ذلك يوم الفتح فقالت من أبيات :

* أمحمد ياخير ضنء كريمة *

والذى رأيته فى الحماسة :

أمحمد ولأنت ضنء نجيبة　　فى قومها والفحل فحل معرق

أى له عرق فى الكرم ، والضنء : الولد .

ما كان ضرك لومننت وربما　　منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

وحين سمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى حتى أخضل أى بلّ لحيته ،وقال لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه ، أى لقبول شفاعتها عندى بهذا الشعر ، وليس معناه الندم ، لأنه صلى الله عليه وسلم لايفعل إلا حقا .

أى وكان للنضر هذا أخ يقال له النضير بالتصغير وكان أسنّ المهاجرين ، وقيل كان من مسلمة الفتح ، وربما يدل له أنه صلى الله عليه وسلم أمر له بمائة بعير من غنائم حنين ، فجاءه شخص يبشره بذلك ، فقال : لا آخذها ، فإنى أحسب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعطنى ذلك إلا تألفا على الإسلام وما أريد أن أرتشى على الإسلام ، فقيل له إنها عطية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلها ، وأعطى المبشر منها عشرة أبعرة .

ثم قتل صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبى معيط بعرق الظبية بضم الظاء المعجمة وهى شجرة يستظل بها ، قال وحين قدم للقتل : من للصبية يامحمد ؟ ، قال النار .

وجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن عقبة لما قدم للقتل نادى : يامعشر قريش مالى أقتل من بينكم صبرا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بكفرك وافترائك على رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى وفى لفظ « ببزاقك فى وجهى » أى فإن عقبة كان يكثر مجالسته صلى الله عليه وسلم واتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبيّ بن خلف صديقه فعاتبه وقال صبأت يا عقبة ، قال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو فى بيتى فاستحييت منه ، فشهدت له الشهادة وليست فى نفسى ، فقال وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ قفاه وتبزق فى وجهه وتلطم عينه ، فوجده صلى الله عليه وسلم ساجدا فى دار الندوة ففعل به ذلك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ألقاك خارج مكة إلا علوت رأسك بالسيف » كذا فى الكشاف ، وفى لفظ آخر « بكفرك ، وفجورك ، وعتوّك على الله ورسوله ، وأنزل الله فيه (ويوم يعضّ الظالم على يديه) الآية » .

وذكر ابن قتيبة « أنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل عقبة ، أى وقد قال : يامعشر قريش مالى أقتل من بينكم ! أى وأنا واحد منكم ، قال له : يامحمد ناشدتك الله والرحم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنت إلا يهودى من أهل صفورية» وفى رواية « قال له : إنما أنت يهودى من أهل صفورية » أى فليس هو من قريش : أى لارحم بينى وبينك : أى لأن أمية جد أبيه خرج إلى الشام لما نافر عمه هاشم كما تقدم فأقام بصفورية ووقع على أمة يهودية ولها زوج يهودى من أهل صفورية فولدت له أبا عمرو الذى هو والد أبى معيط على فراش اليهودى فاستلحقه بحكم الجاهلية ، ثم قدم به مكة وكناه بأبى عمرو وسماه ذكوان مع أن الولد للفراش ، وقيل كان عبدا لأمية فتبناه . فلما مات أمية خلفه على زوجته .

ويدل لهذا الثانى ماذكره بعض المؤرخين أن معاوية رضى الله تعالى عنه سأل رجلا من علماء النسب وفد عليه : كم عمرك ؟ قال أربعون ومائتا سنة قال : كيف رأيت الزمان ؟ فقال سنيات بلاء ، وسنيات رخاء ، يهلك والد ، ويخلف مولود ، فلولا الهالك لامتلأت الدنيا ، ولولا المولود لم يبق أحد ، فقال له : هل رأيت عبد المطلب ؟ قال نعم ، أدركته شيخا وسيما منسما جسيما ، يحف به عشرة من بنيه كأنهم النجوم ، فقال له : هل رأيت أمية بن عبد شمس ؟ يعنى جده ، قال نعم : رأيته أخفش أزرق ذميما ، يقوده عبده ذكوان ، فقال : ويحك كف ، فقد جاء غير ماذكرت ذاك ابنه . فقال : أنتم تقولون ذلك.

والقاتل لعقبة عاصم بن ثابت ، وقيل على رضى الله تعالى عنهما ، أى وقيل صلب على الشجرة .

أقول : قال محمد بن حبيب الهاشمي : هو أول مصلوب فى الإسلام . ورده ابن ابن الجوزى بأن أول من صلب فى الإسلام خبيب بن عدى .

وقد يقال : لامخالفة ، لأن المراد بالثانى ، أول مصلوب من المسلمين ، وبالأول أول مصلوب من الكفار .

وذكر أن أول من استعمل الصلب فرعون ، ولعل المراد به فرعون موسى بن عمران لافرعون إبراهيم الخليل وهو أول الفراعنة ، ولا فرعون يوسف بن يعقوب وهو ثانى الفراعنة ، وفى قول إن فرعون يوسف هذا هو فرعون موسى بمعنى أنه بقى إلى زمن موسى عليه السلام ، وكان هلاكه على يده .

وفى كلام ابن قتيبة عن سعيد بن جبير ضم طعيمة بن عدى إلى عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، أي لأنه ممن قتل معهما صبرا ، وفيه نظر ، فقد تقدم أن القاتل له حمزة رضى الله عنه فى الحرب وسيأتى فى أحد أن قتل حمزة كان بسبب قتله لطعيمة المذكور.

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم. أى وروى عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: « لما قدمت إلى المدينة وكنت جائعا استقبلتنى امرأة يهودية على رأسها جفنة فيها جدى مشوى ، فقالت : الحمد لله يامحمد الذى سلمك الله كنت نذرت لله إن قدمت المدينة سالما لأذبحن هذا الجدى ولأشوينه ولأحملنه إليك لتأكل منه ، فأنطق الله الجدى فقال : يامحمد لاتأكلنى فإنى مسموم » أى بخلاف ماوقع له صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، فإنه لم يخبره الذراع بذلك إلابعد أكله منه كما سيأتى، وسيأتى أنه سأل المرأة عن سبب ذلك وهنا لم يسألها .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة أى قاربها خرج المسلمون للقائه وتهنئته بما فتح الله عليه فتلاقوا معه بالروحاء ، أى وقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش ماالذى تهنونا به ، فوالله إن لقينا أى مالقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقولة فنحرناها فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أولئك الملأ من قريش » أى الأشراف والرؤساء وتلقته الولائد عند دخوله المدينة بالدفوف والولائد جمع وليدة : وهى الصبية والأمة وتلك الولائد يقلن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وتلقاه أسيد بن الحضير ، فقال : الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك .

« ولما أقبلوا من بدر فقدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علىّ ، فقالوا : يارسول الله فقدناك ، فقال إن أبا الحسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفت عليه، ثم لما قدمت الأسارى فرّقهم بين الصحابة وقال: استوصوا بهم خيرا » .

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش ابن عبد عمرو رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، فقال : قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم وأمية وفلان وفلان من أشراف قريش ، أى وأسر فلان وفلان فقال صفوان بن أمية وكان يقال له سيد البطحاء ، وكان من أفصح قريش لسانا ، وكان جالسا فى الحجر : والله إن يعقل أى مايعقل هذا سلوه عنى ، فسألوه ، أى قالوا : مافعل صفوان ، فقال : هو ذاك الجالس فى الحجر ، وقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وعن عكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب » أى ثم وهبه العباس له صلى الله عليه وسلم وسيأتى الكلام عليه فى السرايا ، وكان العباس رضى الله تعالى عنه أسلم وأسلمت زوجته : أى أم الفضل ، قيل إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة كما تقدم ، وهى أم أولاده ، وهم : عبد الله ، وعبيد الله ، وعبد الرحمن ، والفضل ، وقثم ، ومعبد ، وأمّ حبيب .

قيل رآها صلى الله عليه وسلم وهى تدب بين يديه فقال : إن بلغت وأنا حى تزوجتها فقبض صلى الله عليه وسلم قبل أن تبلغ قال ابن الجوزى : فليس فى الصحابيات من كنيتها أم الفضل إلا زوج العباس ، قال أبو رافع : وأسلمت أنا وكنا نكتم الإسلام أى لأن العباس كان يكره خلاف قومه ، لأنه كان ذا مال كثير وأكثره متفرق فيهم ، أى وسيأتى الجواب عن كونه أسر وأخذ منه الفداء مع كونه مسلما ، وسيأتى أنه لم يظهر إسلامه إلا يوم الفتح .

فلما جاء الخبر عن مصاب قريش ببدر سرّنا ذلك، فوالله إنى لجالس إذ أقبل أبو لهب يجرّ رجليه بشر حتى جلس عندنا ، فبينا هو جالس إذ قدم أبو سفيان بن الحارث وكان مع قريش فى بدر ، فقال له أبو لهب : هلمّ إلى عندك الخبر ، فقال : والله ماهو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا ، وايم الله مالمت

الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله مايقوم لها شيء ، قال أبو رافع : فقلت والله تلك الملائكة ، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة وثاورته : أى واثبته : أى قام كل للآخر فاحتملنى وضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى ، فقامت أم الفضل إلى عمود وضربته به ضربة فى رأسه أثرت شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب سيده ، تعنى العباس ، فقام موليا ذليلا ، فوالله ماعاش إلا سبع ليال حتى رمى بالعدسة : أى ماعاش صحيحا قبل أن يرمى بالعدسة إلا سبع ليال : أى وهى بثرة تشبه العدسة من جنس الطاعون ، فقتلته ، فلم يحفروا له حفيرة ولكن أسندوه إلى الحائط وقذفوا عليه الحجارة خلف الحائط حتى واروه ، أى لأن العدسة قرحة كانت العرب تتشاءم بها ، ويرون أنها تعدى أشد العدوى ، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه وبقى بعد موته ثلاثة أيام لاتقرب جنازته ولا يحاول دفنه حتى أنتن ، فلما خافوا السبة : أى سب الناس لهم فى تركه فعلوا به ماذكر .

وفى رواية : حفروا له ، ثم دفعوه بعود فى حفيرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه . وعن عائشة رضى الله تعالى عنها «أنها كانت إذا مرت بموضع، ذلك غطت وجهها» .

أقول : قال فى النور : وهذا القبر الذى يرجم خارج باب شبيكة ، أى الآن ليس بقبر أبى لهب ، وإنما هو قبر رجلين لطخا الكعبة بالعذرة ، وذلك فى دولة بنى العباس ، فإن الناس أصبحوا وجدوا الكعبة ملطخة بالعذرة فرصدوا للفاعل فمسكوهما بعد أيام ، فصلبا فى ذلك الموضع ، فصارا يرجمان إلى الآن ، والله أعلم .

فلما ظهر الخبر ناحت قريش على قتلاهم أى شهرا ، وجز النساء شعورهن ، وكن يأتين بفرس الرجل أو راحلته وتستر بالستور وينحن حولها ويخرجن إلى الأزقة ، ثم أشير عليهم أن لاتفعلوا فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ولاتبكوا قتلانا حتى نأخذ بثأرهم ، وتواصوا على ذلك ، وكان الأسود بن زمعة بن المطلب أصيب له فى بدر ثلاثة ، ولداه وولد ولده ، وكان يحب أن يبكى عليهم ، وكان قد ذهب بصره أى بدعوة النبى صلى الله عليه وسلم عليه بذلك ، لأنه كما تقدم كان من المستهزئين بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، إذا رآهم يقول : قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على ملك كسرى وقيصر ، ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يشق عليه ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمى ، وتقدم ذلك ، وتقدم سبب عماه .

وفى كلام بعضهم كان صلى الله عليه وسلم دعا على الأسود هذا بأن يعمى الله تعالى بصره ويثكل ولده فاستجاب الله تعالى له سبق العمى إلى بصره أولا ، ثم أصيب يوم بدر بمن نعاه من ولده أى وهو زمعة وهو أحد الثلاثة الذين كان يقال لكل واحد منهم زاد الراكب كما تقدم ، وأخوه عقيل والحارث فإنهما قتلا كافرين ببدر ، فتمت إجابة الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا به قد سمع صوت باكية بالليل ، فقال لغلامه أنظر هل أحل النحب: أى البكاء ، هل بكت قريش على قتلاهم لعلى أبكى ، فإن جوفى قد احترق ، فلما رجع الغلام قال إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، فأنشد من أبيات :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

والسهود بضم السين المهملة : عدم النوم . والبكر : الفتى من الإبل . والجدود : بضم الجيم جمع جد بفتحها ، وهو الحظ والسعد ، وبعد هذين البيتين بيت آخر وهو :

ألا قد ساد بعدهمو رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

يعرض بأبى سفيان فإنه رأس قريش . قال : وقد جاء فى بعض الروايات اختلاف الصحابة فيما يفعل بالأسرى لما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماترون فى هؤلاء الأسرى إن الله قد مكنكم منهم ؟ أى وقد يخالف هذا ماسبق من قوله إن من أسر أسيرا فهو له .

وقد يقال : لامخالفة لأن معنى كونه له أنه مخير فيه بين قتله وأخذ فدائه ، ولعله لا يخالف ماتقدم أنه صلى الله عليه وسلم، لما أراد قتل النضر قال المقداد رضى الله تعالى عنه وكان أسره : يارسول الله أسيرى ، فقال له إنه كان يقول فى كتاب الله مايقول وفى رواية « استشار صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا » أى وفى رواية « أبا بكر وعمر وعبد الله بن جحش فيما هو الأصلح من الأمرين القتل وأخذ الفداء ؟ فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله أهلك وقومك » وفى رواية « هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ماأخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونون لنا عضدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماتقول ياابن الخطاب ؟ قال : يارسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، ماأرى مارأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكننى من فلان قريب »

وفى لفظ « نسيب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من أخيه عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه أى العباس رضى الله تعالى عنه فيضرب عنقه ، حتى يعلم أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم » أى وقال ابن رواحة رضى الله تعالى عنه « أنظروا واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس رضى الله تعالى عنه وهو يسمع : ثكلتك رحمك ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت أى ولم يرد عليهم ، فقال بعض الناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال بعض الناس يأخذ بقول ابن رواحة ، ولم يقل قائل يأخذ بقول عمر ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدن قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة » لعله لاينزل إلا بالرحمة ، فلا ينافى أن جبريل ينزل بالرحمة فى بعض الأحايين كما تقدم قريبا ، ومن ثم جاء فى الحديث « أرأف أمتى بأمتى أبو بكر » « ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم حيث يقول (فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ابن مريم إذ قال (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) » .

قيل إن قوله (فإنك أنت العزيز الحكيم) من مشكلات الفواصل ، إذ كان مقتضى الظاهر فإنك أنت الغفور الرحيم .

ورد بأن العزيز الذى لايغلبه أحد ولا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه . والحكيم : هو الذى يضع الشىء فى محله .

« ومثلك ياعمر فى الملائكة مثل جبريل ، نزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى » أى أغلب أحواله ذلك ، فلا ينافى أنه ينزل بالرحمة فى بعض الأوقات كما تقدم « ومثلك فى الأنبياء مثل نوح عليه الصلاة والسلام إذ قال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) ومثلك فى الأنبياء مثل موسى عليه الصلاة والسلام إذ قال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) » .

قال الجلال السيوطى رحمه الله تعالى فى الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أن من أصحابه من يشبه بجبريل وبإبراهيم وبنوح وبموسى وبعيسى وبيوسف وبلقمان الحكيم وبصاحب يس . هذا كلامه .

وقد علمت أن أبا بكر رضى الله عنه شبه بميكائيل ولم يذكر ميكائيل ، ولينظر من

شبه من أصحابه بيوسف، ثم رأيتنى ذكرت فيما تقدم قريبا أنه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، ولينظر من شبه من أصحابه بلقمان الحكيم وبصاحب يس .

ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر: « لو توافقتما ماخالفتكما ، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق » .

وقد وقع له صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل ذلك لهما . وقد اختلفا فى تولية شخصين أراد صلى الله عليه وسلم تولية أحدهما على بنى تميم ، فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمل فلانا ، وقال عمر : يا رسول استعمل فلانا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنكما لو اجتمعتما لأخذت برأيكما ولكنكما اختلفتما علىّ أحيانا ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) الآية ؛ واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم مثلك يا أبا بكر الخ على جواز ضرب المثل من القرآن ، وهو جائز فى غير المزح ولغو الحديث وإلا كره ، ونسبة الاختلاف فى أسارى بدر لأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما لا تخالف ما سبق من نسبته إلى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، لأنه يجوز أن يكونا هما المرادين بالصحابة ؛ وعدم ذكر علىّ رضى الله تعالى عنه مع إدخاله فى الاستشارة وكذا عبدالله بن جحش على ماتقدم، لأنه يجوز أن يكون وافق أحدهما ، أى فقد ذكر ابن رواحة مع عدم إدخاله فى الاستشارة .

وفى كلام الإمام أحمد رحمه الله « استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر ، فقال : إن الله قد مكنكم منهم ، قال : فقام عمر رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله إضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد فقال : يا أيها الناس إن الله قد مكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، قال : فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم وقبل الفداء ، فلما كان الغد غدا عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقال يارسول الله : مايبكيكما ؟ » وفى لفظ « ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كاد لمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، لو نزل عذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب » .

وفى مسلم والترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء» أى للعذاب الذى كاد أن يقع على أصحابك لأجل أخذهم الفداء : أى إرادة أخذه « لقد عرض علىّ عذابهم أدنى» أى أقرب «من هذه الشجرة» لشجرة قريبة منه صلى الله عليه وسلم « وأنزل الله تعالى (ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) الآيات » .

أقول : قال بعضهم : فى هذه الآيات دليل على أنه يجوز الاجتهاد للأنبياء ، لأن العتاب الذى فى الآيات لا يكون فيما صدر عن وحى ولا يكون فيما كان صوابا ، وإذا أخطئوا لا يتركون عليه بل ينبهون على الصواب .

وأجاب ابن السبكى رحمه الله بأن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، أى ما كان هذا لنبى غيرك ولا يخفى عليك ما فيه .

وفى كلام بعضهم ما يقتضى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير نبينا صلى الله عليه وسلم يجوز أن يقروا على الخطأ لأن من بعد من يخطئ منهم يبين خطأه بخلاف نبينا صلى الله عليه وسلم لا نبى بعده يبين خطأه فلا يقر على الخطأ . وفيه أن بعد نبينا عليه الصلاة والسلام عيسى عليه الصلاة والسلام وأنه يوحى إليه .

ونظر بعضهم فى وقوع الخطأ من الأنبياء واستمرارهم عليه بأنه غير لائق بمنصب النبوة ، لأن وجود من يستدرك الخطأ لا يدفع مقتضيه .

وفيه جواز وقوع الخطأ والعمل به قبل مجىء الإستدراك ، وتقدم جواز الاجتهاد له مطلقا لا فى خصوص الحرب ، واستثناء عمر ربما يفيد أن جميع الصحابة رضى الله تعالى عنهم وافقوا أبا بكر على أخذ الفداء ، وخالفوا عمر مع أنه تقدم قريبا أن سعد بن معاذ كره ذلك قبل عمر ، فقد تقدم أن المسلمين لما وضعوا أيديهم يأسرون رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ فوجد فى وجهه الكراهية لما يصنع القوم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال أجل والله يارسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من

استبقاء الرجال ، ومن ثم قال «لو نزل عذاب لم يفلت منه إلا ابن الخطاب وسعد بن معاذ» كما سيأتي . وفيه أن ابن رواحة كرهه بل أشار باحراقهم بالنار .

وفي الأصل « أن جبريل عليه الصلاة والسلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فقال : إن شئتم أخذتم منهم الفداء ويستشهد منكم سبعون بعد ذلك ، فنادى منادى النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه فجاءوا أو من جاء منهم أي وهم المعظم فقال : إن هذا جبريل يخبركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم ، وبين أن تفادوهم ويستشهد قابلا منكم بعدتهم ، فقالوا بل نفاديهم فنتقوى به عليهم ويدخل قابلا منا الجنة سبعون وفي لفظ ويستشهد مناعدتهم . فليس في ذلك مانكره وهو كما ترى ، يدل على أن الصحابة وافقوا أبا بكر رضي الله عنهم على أخذ الفداء ، ولعل هذا الإخبار بالتخيير كان بعد الإستشارة التي تكلم فيها أبو بكر وعمر ، وأن بكاءه صلى الله عليه وسلم كان بعد هذه الإستشارة الثانية ، وقول صاحب الهدى بكاؤه صلى الله عليه وسلم وبكاء الصديق رحمة وخشية أن العذاب يعم ولا يصيب من أراد ذلك خاصة يفيد أن الذى أشار بأخذ الفداء طائفة من الصحابة لا كلهم .

أقول : وفيه أن هذا يشكل عليه قوله « لو نزل عذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب أو إلا ابن الخطاب ، وسعد بن معاذ » فإن فيه تصريحا بأن العذاب لو وقع لا يعم وأنه لا يصيب إلا من أشار بالفداء . وفيه أن من أشار بالفداء غاية الأمر أنهم اختاروا غير الأصلح من الأمرين ، واختيار غير الأصلح لا يقتضى العذاب ، على أن حل أخذ الفداء علم من واقعة عبد الله بن جحش التى قتل فيها ابن الحضرمى ، فإنه أسر فيها عثمان بن المغيرة والحكم بن كيسان ولم ينكره الله تعالى ، وذلك قبل بدر بأزيد من عام ؛ إلا أن يقال أراد الله تعالى تعظيم أمر بدر لكثرة الأسارى فيها مع شدة تصلبهم في مقاتلته صلى الله عليه وسلم . وفي المواهب كلام في الآية المذكورة يتأمل فيه .

ورأيت فيها عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما « لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أقدم إليه الحجة لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

وعن الأعمش سبق منه أنه لا يعذب أحدا شهد بدرا ، ومن ثم جاء كما يأتي « أن رجلا قال : يارسول الله إن ابن عمي نافق ، أي ائذن لي أن أضرب عنقه ، فقال له : إنه شهد بدرا ، ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم » والله أعلم ، ولا ينافي

قتل سبعين منهم فى قابل : أى فى أحد كون بعض الأسارى فى بدر مات فى الأسر ولم يؤخذ فداؤه ، وهو مالك بن عبيد الله أخو طلحة بن عبيد الله ، وكون بعضهم أطلق من غير أخذ فداء ، لأن المنكر عدم قتل أولئك السبعين الذين أسروا .

قال بعضهم : اتفق أهل العلم بالسير على أن المخاطبين بقوله تعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) هم أهل أحد : أى قد أصبتم يوم بدر مثلى من استشهد منكم يوم أحد سبعين قتيلا وسبعين أسيرا ، والله أعلم .

وتواصت قريش على أن لا يعجلوا فى طلب فداء الأسرى لئلا يتغالى محمد وأصحابه فى الفداء ، فلم يلتفت لذلك المطلب بن أبى وداعة السهمى ، بل خرج من الليل خفية وقدم المدينة فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ، وقد كان صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه رضى الله تعالى عنهم لما رأى أبا وداعة أسيرا : إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، وكأنكم به قد جاء فى طلب فداء أبيه ، أى فكان أول أسير فدى ، واسم أبى وداعة الحارث وذكر فى الصحابة . قال الزبير بن بكار : زعموا أنه كان شريكا للنبى صلى الله عليه وسلم بمكة.

أى والمشهور أن شريكه صلى الله عليه وسلم إنما هو السائب بن أبى السائب الذى قال فى حقه ، وقد أسلم يوم الفتح وقد جعل الناس يثنون عليه « أنا أعلمكم به هذا شريكى نعم الشريك كان لا يدارى ، ولا يمارى » وفى رواية أنه لما قال صلى الله عليه وسلم « أنا أعلمكم به قال : صدقت بأبى أنت وأمى ، كنت شريكك فنعم الشريك ، لا تدارى ولا تمارى » وعند ذلك بعثت قريش فى فداء الأسارى ، وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم ، وكان من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألفين إلى ألف ، ومن لم يكن معه فداء أى وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة ، فإذا تعلموا كان ذلك فداءه .

وجاء جبير بن مطعم وهو كافر : أى إلى المدينة يسأل النبى صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر فقال له صلى الله عليه وسلم « لو كان شيخك أو الشيخ أبوك حيا فأتانا فيهم لشفعناه » وفى رواية « لو كان مطعم حيا وكلمنى فى هؤلاء النفر » وفى رواية « فى هؤلاء النتنى لتركتهم له » لأن المطعم كان أجار النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم من الطائف ، وكان ممن سعى فى نقض الصحيفة كما تقدم ذلك .

وكان من جملة الأسارى عمرو بن أبى سفيان بن حرب أخو معاوية : أى أسره على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه [ ] فقيل لأبى سفيان افد عمرا ابنك ، قال : أيجمع على دمى

ومالى ، قتلوا حنظلة يعنى ابنه ، وهو شقيق أم حبيبة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، وأفدى عمرا دعوه فى أيديهم يمسكونه مابدا لهم ، فبينما أبو سفيان إذ وجد سعد بن النعمان أخا بنى عمرو بن عوف أى قد وفد من المدينة معتمرا فعدا عليه أبو سفيان فحبسه بابنه عمرو ، فمضى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه خبر سعد ابن النعمان ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكون به صاحبهم ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد أى ولم يذكر عمرو هذا فيمن أسلم من الأسارى ، والظاهر أنه مات على شركه .

وكان فى الأسارى زوج بنت النبى صلى الله عليه وسلم زينب رضى الله عنها ، وهو أبو العاص بن الربيع بكسر الموحدة وتشديد الياء مفتوحة . قال فى الأصل : ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بناء على ما تقوله العامة أن ختن الرجل زوج ابنته والمعروف لغة أن ختن الرجل أقارب زوجته مثل أبيها وأخيها ، ومع ذلك لاينبغى أن يقال فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ختن أبى العاص ولا ختن علىّ لإبهامه النقص .

وفى حفظى أن عند المالكية من قال عنه صلى الله عليه وسلم يتيم أبى طالب وختن حيدرة كان مرتدا . وفى عبارة أو بدل الواو ، ورواية أو مبينة للمراد من رواية الواو وأن ما أفهمته من اعتبار الجمعية ليس مرادا ، وحيدرة : اسم علىّ رضى الله تعالى عنه ، وأبو العاص أسلم بعد ذلك كما سيأتى ، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وأبو ولدها علىّ الذى أردفه صلى الله عليه وسلم خلفه يوم فتح مكة ، ومات مراهقا وأبو بنتها أمامة التى كان يحملها صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، أى وكان يحبها حبا شديدا .

فعن عائشة رضى الله تعالى عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهديت له هدية فيها قلادة من جذع ، فقال : لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىّ ، فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامة بنت زينب فعلقها فى عنقها » وتزوجها علىّ بعد موت خالتها فاطمة رضى الله تعالى عنها بوصية من فاطمة ، زوجها له الزبير بن العوام ، وكان أبوها أوصى بها إلى الزبير ، ومات عنها فتزوجها المغيرة بن نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب فماتت عنده ، وكان تزويجها للمغيرة بوصية من علىّ رضى الله تعالى عنه ، فإنه لما حضرته الوفاة قال لها : إنى لا آمن أن يخطبك معاوية ، وفى لفظ هذا

الطاغية بعد موتى ، فإن كان لك فى الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيرا ، فلما انقضت عدتها أرسل معاوية إلى مروان أن يخطبها عليه ويبذل لها مائة ألف دينار ، فلما خطبها أرسلت إلى المغيرة بن نوفل : إن هذا الرجل أرسل يخطبنى ، فإن كان لك حاجة فىّ فاقبل ، فجاء وخطبها من الحسن بن على ، أى فزوجها منه .

أى ولا يخالف ما تقدم أن المزوج لها الزبير بن العوام، لأنه يجوز أن يكون الحسن كان هو السبب فى تزويج الزبير لها فبعثت زينب رضى الله تعالى عنها فى فداء زوجها أبى العاص قلادة لها كانت أمها خديجة رضى الله تعالى عنها أدخلتها بها عليه حين بنى بها أى والجائى بها أخوه عمرو بن الربيع ، ولا يعلم لعمرو هذا إسلام « فلما رأى تلك القلادة رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة ، وقال للصحابة : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا ، قالوا نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها القلادة ، وشرط عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلى سبيل زينب » أى أن تهاجر إلى المدينة .

أى وقد كان كفار قريش مشوا إليه أن يطلق زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما طلق ولدا أبى لهب بنتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل الدخول بهما رقية وأم كلثوم كما تقدم ، وقالوا له : نزوجك أىّ امرأة من قريش شئت ، فأبى ذلك ، وقال: والله لا أفارق صاحبتى ، وما أحبّ أن لى بها امرأة من قريش ، فشكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وأثنى عليه بذلك خيراً ، فلما وصل أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت .

وقد كان صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار قال لهما : تكونان بمحل كذا لمحل قريب من مكة حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها .

أى وذكر أن حماها كنانة بن الربيع أخا زوجها قدم لها بعيرا فركبته واتخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهارا يقودها فى هودج لها وكانت حاملا ، فتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار ابن الأسود رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، ونخس البعير بالرمح فوقعت وألقت حملها .

وفى رواية أنه سبق إليها هبار ورجل آخر يقال له نافع ، وقيل خالد بن عبد قيس .

ثم إن كنانة برك ونثر كنانته وأخذ قوسه وقال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما ، فجاء إليه أبو سفيان فى رجال من قريش ، وقال له : كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف ، ثم قال له : إنك لم تصب فى فعلك ، فإنك خرجت بالمرأة جهارا على رءوس الأشهاد وقد عرفت مصيبتنا التى كانت وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت زينب علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك من ذل أصابنا ، وأن ذلك منا من ضعف ووهن ، ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسر بها سرا فألحقها بأبيها ففعل ، وأقامت ليالى ثم خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال لزيد بن حارثة : ألا تنطلق فتجىء بزينب ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال فخذ خاتمى فأعطها فانطلق زيد ، فلم يزل يتلطف حتى لقى راعيا ، فقال : لمن ترعى ؟ قال لأبى العاص ، قال : فلمن هذه الغنم ؟ قال لزينب بنت محمد ، فتكلم معه ، ثم قال له : هل إن أعطيتك شيئا تعطها إياه ولا تذكره لأحد ؟ قال نعم ، فأعطاه الخاتم ، فانطلق الراعى إلى زينب وأدخل غنمه وأعطاها الخاتم فعرفته ، فقالت : من أعطاك هذا ؟ قال : رجل ، قالت : فأين تركته ؟ قال بمكان كذا وكذا ، فسكتت حتى إذا كان الليل خرجت إليه ، فلما جاءته قال لها زيد : اركبى بين يدى على بعيرى : قالت لا ، ولكن اركب أنت بين يدى ، فركب وركبت خلفه حتى أتت المدينة وذلك بعد شهرين من بدر . وكان صلى الله عليه وسلم يقول زينب أفضل بناتى أصيبت بى » أى بسببى .

ومن العجب أن هذه العبارة ساقها الإمام سراج الدين البلقينى فى فتاويه فى حق فاطمة رضى الله تعالى عنها حيث قال : وقد روى البزار فى مسنده من طريق عائشة رضى الله تعالى عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة : هى خير بناتى ، لأنها أصيبت فى » هذا كلامه ، ولينظر ما الذى أصيبت فاطمة بسببه صلى الله عليه وسلم . وقد يقال إصابتها بسبب موته صلى الله عليه وسلم فى حياتها .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر أجاب بذلك حيث قال لأنها رزئت بأبيها فكان فى صحيفتها أى فهو من أعلام نبوته ، أو أن قوله فى زينب ما ذكر كان قبل ما وهب الله لفاطمة من الكمالات .

وقد سئل الإمام البلقيني رحمه الله تعالى هل بقية بناته صلى الله عليه وسلم ، أى بعد فاطمة سواء فى الفضل أو يفضل بعضهن على بعض ولم يجب عن ذلك ، ولا مخالفة بين خروج زينب إلى زيد وخروج حميها بها إلى زيد . وبهذا : أى بتأخر هجرة زينب يظهر التوقف فى قول ابن إسحاق أما بناته صلى الله عليه وسلم فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن معه ، إلا أن يقال المراد اشتركن معه فى الهجرة ، وتقدم ما فى قوله وأسلمن ، وكون الجائى فى فداء أبى العاص أخوه عمرو يخالف ما جاء « أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله تعالى عنها أرسلت فى فداء أبى العاص وأخيه عمرو بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلادة » الحديث ولعلها تصحيف ، وأن الأصل بعثت فى فداء أبى العاص أخاه عمرو بن الربيع ، ويدل لذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الرواية « إن رأيتم أن تردوا لها أسيرها فأطلقوه » ولم يقل أسيريها ، وكان فى الأسارى سهيل بن عمرو العامرى.

وتقدم أنه كان من أشراف قريش وخطبائها ، فقد سئل سعد بن المسيب عن خطباء قريش فى الجاهلية ، فقال الأسود بن المطلب وسهيل بن عمرو ، وسئل عن خطبائهم فى الإسلام ، فقال معاوية بن أبى سفيان وابنه يعنى يزيد وسعيد بن العاص وابنه يعنى عمرو ابن سعيد وعبد الله بن الزبير.

ولعل هذا لا يخالف ما تقدم من قول الأصمعى : الخطباء من بنى مروان ، عتبة ابن أبى سفيان أخو معاوية ، وعبد الملك بن مروان: ومما يؤثر عن عتبة : ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم كما تقدم . وقال عمر رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع أى بالدال والعين المهملتين يخرج لسانه ، أى لأنه كان أعلم ، والأعلم إذا نزعت ثنيتاه لم يستطع الكلام فلا يقم عليك خطيبا فى موطن أبدا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أمثل به فيمثل الله تعالى بى . وإن كنت نبيا ؛ وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه فكان كذلك : فإنه لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أكثر أهل مكة الرجوع عن الإسلام حتى خافهم أمير مكة عتاب بن أسيد رضى الله عنه وتوارى ، فقام سهيل بن عمرو رضى الله عنه خطيبا ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ألم تعلموا أن الله تعالى قال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآيات ، وتلا آيات

آخر، ثم قال: والله إنى أعلم أن هذا سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها وغروبها فلا يغرنكم هذا من أنفسكم: يعنى أبا سفيان، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بنى هاشم، وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره ومقوّ دينه، وقد جمعكم الله على خيركم يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به.

وعند ذلك ظهر عتاب بن أسيد رضى الله عنه، وقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل، فلما ذكر قدرا أرضاهم به قالوا له هات، فقال اجعلوا رجلى مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزا، وكان فى الأسارى الوليد بن الوليد أخو خالد بن الوليد، افتكه أخواه هشام وخالد، فلما افتدى أسلم، فعاتبوه فى ذلك، فقال كرهت أن يظن بى أنى جزعت من الأسر، ولما أسلم وأراد الهجرة حبسه أخواه، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو له فى القنوت كما تقدم، ثم أفلت ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم فى عمرة القضاء كما سيأتى أى وكان فى الأسارى السائب وهو الأب الخامس لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه، وكان صاحب راية بنى هاشم فى ذلك اليوم: أى التى يقال لها فى الحرب العقاب، ويقال لها راية الرؤساء، ولا يحملها فى الحرب إلا رئيس القوم، وكانت لأبى سفيان أو لرئيس مثله، ولغيبة أبى سفيان فى العير حملها السائب لشرفه، وفدى نفسه.

وأما أبوه الرابع الذى هو شافع الذى ينسب إليه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه الذى هو ولد السائب لقى النبى صلى الله عليه وسلم وهو مترعرع فأسلم، وكان فى الأسارى وهب بن عمير رضى الله تعالى عنه فإن أسلم بعد ذلك، وأسره رفاعة بن رافع وكان أبوه عمير شيطانا من شياطين قريش، وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك فجلس يوما مع صفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وكان جلوسه معه فى الحجر فتذاكرا أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان ما فى العيش والله خير بعدهم، فقال عمير والله صدقت، أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى كنت آتى محمدا حتى أقتله، فإن لى فيهم علة ابنى أسير فى أيديهم، فاغتنمها صفوان، وقال له علىّ دينك أنا أقضيه

عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا ، قال عمير فاكتم عنى شأنى وشأنك ، قال افعل. ثم إن عميرا أخذ سيفه وشحذه ، بالمعجمة: أى سنه وسمه : أى جعل فيه السم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر إذ نظر إلى عمير حين أناخ راحلته على باب المسجد متوشحا السيف ، فقال : هذا الكلب عدوّ الله عمير ما جاء إلا بشر ، فدخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله ، هذا عدوّ الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحا سيفه ، قال صلى الله عليه وسلم : فأدخله علىّ ، فأقبل عمر رضى الله عنه حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، والحمالة بكسر الحاء المهملة : العلاقة فمسكه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده ، فإن هذا الخبيث غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر رضى الله عنه آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا ثم قال عمير : أنعموا صباحا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة ، ما جاء بك يا عمير ، قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكمّ يعنى ولده وهبا فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف ، قال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ، قال صلى الله عليه وسلم : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش . ثم قلت لولا دين علىّ وعيالى لخرجت حتى أقتل محمدا فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك ، قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذى هدانا للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا أسيره ففعلوا ذلك ، ثم قال : يا رسول الله إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، فأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله يهديهم وإلا آذيتهم

فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة وأسلم ولده وهب رضى الله عنه .

وكان صفوان حين خرج عمير يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن تنسيكم وقعة بدر . وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبدا وأن لا ينفعه بنفع أبدا .

أى ولما قدم عمير لم يبدأ بصفوان ، بل بدأ ببيته وأظهر الإسلام ودعا إليه ، فبلغ ذلك صفوان ، فقال : قد عرفت حيث لم يبدأ بى قبل منزله أنه قد نكس وصبأ ، ولا أكلمه أبدا . ولا أنفعه ولا عياله بنافعة .

ثم إن عميرا وقف على صفوان وناداه : أنت سيد من سادتنا ، رأيت الذى كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له أهذا دين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فلم يجبه صفوان بكلمة ، وعند فتح مكة هو الذى استأمنه صلى الله عليه وسلم لصفوان كما سيأتى .

وكان فى الأسارى أبوعزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه قال أبو عزيز : مر بى أخى مصعب فقال للذى أسرنى : شد يدك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، فقلت له يا أخى هذه وصايتك بى ، فبعثت أمه فى فدائه أربعة آلاف درهم ففدته بها .

وكان فى الأسارى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، أى وقد شدوا وثاقه فأن فلم يأخذه صلى الله عليه وسلم نوم فقيل ما سهرك يا رسول الله؟ قال : لأنين العباس ، فقام رجل وأرخى وثاقه ، وفعل ذلك بالأسارى كلهم ، والذى أسره أبو اليسر كعب بن عمرو ، وكان دميما أى بالمهملة : صغير الجثة والعباس جسيما طويلا فقيل للعباس رضى الله تعالى عنه : لو أخذته بكفك لوسعته كفك ، فقال ما هو إن لقيته فظهر فى عينى كالخدمة أى وهو جبل من جبال مكة ، أى وأبو اليسر هذا هو الذى انتزع راية المشركين ، وكانت بيد أبى عزيز بن عمير . قال : وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل كعبا وقال له :كيف أسرت العباس ؟ قال : يا رسول الله ، لقد أعاننى عليه ملك كريم ، أى وفى رواية « أن العباس رضى الله تعالى عنه لما قيل له ما تقدم قال : والله إن هذا ما أسرنى ، لقد أسرنى رجل أبلج من أحسن الناس وجها على فرس أبلق فما أراه فى القوم ، فقال الذى جاء به : والله أنا الذى أسرته يا رسول الله ، فقال : اسكت فقد أيدك الله بملك كريم .

وفى الكشاف أن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيرا يبدر لم يجدوا له قيصا وكان رجلا طوالا ، فكساه عبد الله بن أبى ابن سلول قميصه ، وجعل صلى الله عليه وسلم فداء العباس أربعمائة أوقية . وفى رواية مائة أوقية . وفى رواية أربعين أوقية من ذهب . وفى رواية جعل على العباس أيضا فداء عقيل ابن أخيه ثمانين أوقية ، أى وجعل عليه فداء ابن أخيه نوفل بن الحارث .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال له : افد نفسك ياعباس وابنى أخيك عقيل ابن أبى طالب ونوفل بن الحارث ابنى عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو ، ففدى نفسه بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية » وسيأتى ما يدل على أنه إنما فدى نفسه وابن أخيه عقيل فقط ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم « تركتنى فقير قريش ما بقيت » وفى لفظ « تركتنى أسأل الناس فى كفى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين المال الذى دفعته لأم الفضل ؟ يعنى زوجته وقلت لها إن أصبت فهذا لبنى الفضل وعبد الله وقثم » وفى كلام ابن قتيبة « فللفضل كذا ، ولعبد الله كذا ، وقثم كذا ، فقال : والله إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا شىء ماعلمه إلا أنا وأم الفضل » زاد فى رواية « وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله » .

وفى رواية « أن العباس قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لقد تركتنى فقير قريش مابقيت فقال له : كيف تكون فقير قريش ، وقد استودعت بنادق الذهب أم الفضل ، وقلت لها إن قتلت فقد تركتك غنية ما بقيت » .

وفى رواية « أين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقال : أشهد أن الذى تقوله قد كان ، وما اطلع عليه إلا الله » وتقدم عن أبى رافع مولى العباس أن العباس رضى الله تعالى عنه وزوجته أم الفضل كانا مسلمين ، بل تقدم أنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة رضى الله تعالى عنها ، وكانا يكتمان إسلامهما ، وأن أبا رافع كان كذلك .

ومما يؤيد إسلام العباس رضى الله تعالى عنه أنه جاء فى بعض الروايات « أن العباس رضى الله تعالى عنه قال : علام يأخذ منا الفداء وكنا مسلمين ؟ أى وفى رواية : كنت مسلما ، ولكن القوم استكرهونى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بماتقول إن يك حقا فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا . وقد أنزل الله تعالى (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا) أى إيمانا (يؤتكم

خيرا مما أخذ منكم) أى من الفداء الآيات ، فعند ذلك : أى عند نزول الآيات قال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم : لوددت أنك كنت أخذت منى أضعافا فقد آتانى الله خيرا منها مائة عبد » وفى لفظ « أربعين عبدا كل عبد فى يده مال يضرب به ، أى يتجر فيه ، وإنى لأرجو من الله المغفرة » أى وهذا القول من العباس رضى الله تعالى عنه يدل على تأخر نزول هذه الآيات .

وجاء « أن العباس رضى الله تعالى عنه خرج لبدر ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها المشركين ، فأخذت منه فى الحرب ، فكلم النبى صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه ، فأبى وقال : أما شىء خرجت تستعين به علينا فلا نتركه لك » وجاء فى بعض الروايات « أن العباس رضى الله تعالى عنه لما أسر تواعدت طائفة من الأنصار على قتله ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لعمر : لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، زعمت الأنصار أنهم قاتلوه ، فأتى عمر الأنصار فقال لهم أرسلوا العباس ، فقالوا والله لا نرسله ، فقال لهم عمر : فإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى ، فقالوا : إن كان رضى فخذه فأخذه عمر ، فلما صار فى يده قال له ياعباس أسلم ، فوالله لأن تسلم أحب إلىّ من أن يسلم الخطاب » .

أى وفى أسباب النزول للواحدى : لما أسر العباس يوم بدر أقبل المسلمون عليه يعيرونه بكفره بالله وقطيعة الرحم ، وأغلظ علىّ له من القول ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا ، فقال له علىّ : ألكم محاسن ؟ قال نعم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحاج ، ونفك العانى ، فأنزل الله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) الآية .

وجاء أنه قال للملسمين : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقى الحاج ، فأنزل الله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) الآية .

وذكر بعضهم أن العباس رضى الله تعالى عنه كان رئيسا فى قريش ، وإليه عمارة المسجد الحرام ، فكان لايدع أحدا يتشبب فيه ، ولا يقول فيه هجرا . والتشبيب : ترقيق الشعر بذكر النساء والهجر : الكلام الفاحش ، فكانت قريش اجتمعت وتعاقدت على تسليم ذلك للعباس ، وكانوا عونا له على ذلك .

ومن ثم قيل في العباس : هذا والله هو الشرف : يطعم الجائع ، ويؤدب السفيه ، فإن طعامه كان لفقراء بنى هاشم . وقيل وسوطه معد لسفهائهم ، وإذا كان ذلك لسفهاء بنى هاشم فلسفهاء غيرهم بطريق الأولى .

والظاهر أن ذلك لايختص بسكونهم فى المسجد كما قد يدل عليه الرواية الأولى ، ولاينافى هذا أى قول عمر له أسلم إلى آخره ، ما تقدم عن مولاه أبى رافع ، من أن العباس كان مسلما ، ومن قوله للنبى صلى الله عليه وسلم إنه كان مسلما ، ومن إتيانه بالشهادتين عنده صلى الله عليه وسلم ، لأن ذاك لم يظهره علانية بل أظهره له صلى الله عليه وسلم فقط ولم يعلم به عمر ولا غيره ، ولم يظهر النبى صلى الله عليه وسلم إسلام العباس رفقا به ، لما تقدم أن العباس كان له ديون متفرقة فى قريش ، وكان يخشى إن أظهر إسلامه ضاعت عندهم .

ومن ثم لما قهرهم الإسلام يوم فتح مكة أظهر إسلامه : أى فلم يظهر إسلامه إلا يوم الفتح ، وكان كثيرا ما يطلب الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكتب له مقامك بمكة خير لك .

أى وفى رواية «استأذن العباس رضى الله تعالى عنه النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فكتب إليه : ياعم أقم مكانك الذى أنت فيه ، فإن الله عز وجل يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوّة » فكان كذلك .

وفى رواية أنه قال لابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب « افد نفسك يانوفل ، قال : مالى شىء أفدى به نفسى ، قال : افد نفسك من مالك الذى بجدة » وفى لفظ « بأرماحك التى بجدة فقال : أشهد أنك رسول الله ، والله ما أحد يعلم أن لى بجدة أرماحا غير الله » أى وفدى نفسه ولم يفده العباس .

ويدل لذلك مارواه البخارى عن أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بمال من البحرين » أى من خراجهما « فقال انثروه فى المسجد ، فكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى كان مائة ألف « وكان أول خراج حمل إليه صلى الله عليه وسلم وكان يأتى فى كل سنة » .

وحينئذ لايعارض هذا قوله صلى الله عليه وسلم لجابر « لو قدجاءمال البحرين أعطيتك فلم يقدم مال البحرين حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأن المراد أنه لم يقدم

فى تلك السنة . ولما نثر ذلك المال فى المسجد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فكان لايرى أحدا إلا أعطاه ، فجاءه العباس ، فقال : يارسول الله أعطنى ، إنى فاديت نفسى وفاديت عقيلا ، أى ولم يقل نوفلا ولا حليفه عتبة بن عمرو ، فقال : خذ فحثى فى ثوبه ، ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال مر بعضهم يرفعه إلىّ ، قال لا قال : فارفعه أنت علىّ ، قال لا ، فنثر منه ، ولازال يفعل كذلك حتى بقى ما يقدر على رفعه على كاهله أى بين كتفيه ، ثم انطلق وهو يقول : إنما أخذت ماوعد الله فقد أنجز فما زال صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره عجبا من حرصه حتى خفى

ومنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر من الأسارى بغير فداء ، منهم أبو عزة عمرو الجمحى الشاعر كان يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بشعره ، فقال : يارسول الله إنى فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها فامنن علىّ ، فمنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وفى رواية قال له : إن لى خمس بنات ليس لهن شئ فتصدق بى عليهن ففعل وأعتقه ، وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحدا . أى ولما وصل إلى مكة قال سحرت محمدا.

ولما كان يوم أحد خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره ، فأسر وقتل صبرا وحملت رأسه إلى المدينة كما سيأتى .

أى فعلم أن أسرى بدر ؛ منهم من فدى ومنهم من خلى سبيله من غير فداء ، وهو أبو العاص ، وأبو عزة ، ووهب بن عمير ؛ ومنهم من مات ؛ ومنهم من قتل وهو النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط كما تقدم .

ولما بلغ النجاشى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر فرح فرحا شديدا . فعن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أن النجاشى أرسل إليه وإلى أصحابه الذين معه بالحبشة ذات يوم ، فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا خلقة ، فقالوا له : ما هذا أيها الملك ؟ فقال لهم : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه قد جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله عزوجل قد نصر نبيه ، وأهلك عدوه فلانا وفلانا وعدد جمعا التقوا بمحل يقال له بدر كثير الأراك كنت أرعى فيه غنما لسيدى من بنى ضمرة ، فقال له جعفر مالك جالس على التراب عليك هذه الأخلاق ؟ قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله عزوجل تواضعا عند ما أحدث لهم نعمة .

وفى رواية : كان عيسى صلوات الله وسلامه عليه إذا حدث له من الله نعمة ازداد تواضعا ، فلما أحدث الله تعالى نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم أحدثت هذا التواضع .

وفى رواية إنا نجد فى الإنجيل أن الله سبحانه وتعالى إذا أحدث بعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعا ، وإن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة الحديث .

قال : ولما أوقع الله تعالى بالمشركين يوم بدر واستأصل وجوههم ، قالوا إن ثأرنا بأرض الحبشة ، فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عنده من أتباع محمد فنقتلهم بمن قتل منا فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة رضى الله تعالى عنهما — فإنهما أسلما بعد ذلك — إلى النجاشى ليدفع إليهما من عنده من المسلمين ، فأرسلوا معهما هدايا وتحفا للنجاشى . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى بكتاب يوصيه فيه على المسلمين انتهى . وفى الأصل هنا ما يوافقه .

وفيه أن عمرو بن أمية الضمرى لم يكن أسلم بعد ، أى لأنه كما فى الأصل شهد بدرا وأحدا مع المشركين . وأول مشهد شهده مع المسلمين بئر معونة ، وأسر فى ذلك وجزت ناصيته وأعتق ، وكان ذلك فى سنة أربع كما سيأتى . قال : فلما وصل عمرو وعبد الله إلى النجاشى ردهما خائبين .

أى فعن عمرو بن العاص قال : دخلت على النجاشى فسجدت له ، فقال : مرحبا بصديقى أهديت لى من بلادك شيئا ؟ فقلت نعم أيها الملك ، أهديت لك أدما كثيرا ثم قربته إليه ، فأعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقته ، وأمر بسائره فأدخل فى موضع ، وأمر أن يكتب ويتحفظ به ، قال عمرو : فلما رأيت طيب نفسه قلت : أيها الملك إنى رأيت رجلا خرج من عندك يعنى عمرو بن أمية الضمرى . وهو رسول عدولنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ، فغضب ثم رفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه قد كسره ، فجعلت أتقى الدم بثيابى . وفى رواية : ثم رفع يده فضرب بها أنف نفسه ، ظننت أنه قد كسره . وقد يجمع بوقوع الأمرين منه ، وعند ذلك قال عمرو : فأصابنى من الذل مالو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقا منه ، ثم قلت : أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتكه ، فقال : يا عمرو ، تسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله ؟ قلت وتشهد أنت أيها الملك أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم أشهد أنه رسول الله صلى الله

عليه وسلم أشهد بذلك عند الله يا عمرو ، فأطعني واتبعه ، فوالله إنه لعلى الحق . قلت له : أفتبايعني له على الإسلام ، قال : نعم ، فمدّ يده فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي وقد كساني ، فلما رأوا كسوة الملك سروا بذلك وقالوا : هل من صاحبك قضاء لحاجتك ؟ يعنون قتل عمرو بن أمية الضمري ، فقلت لهم : كرهت أن أكلمه أول مرة وقلت أعود إليه ، قالوا : الرأى ما رأيت وفارقتهم . وهذا يدل على أنه كان معه ومع عبد الله جماعة آخرون من قريش . ويحتمل أنه عنى بأصحابه عبد الله بن ربيعة ، ويؤيد الأول ما يأتي فليتأمل .

وكأني أعمد إلى حاجة ، فعمدت إلى موضع السفن فوجدت سفينة قد شحنت ، فركبت معهم ودفعوها من ساعتهم حتى انتهوا إلى الشعبية ، وهو محلّ معروف كان موردة لجدة : أى كان ترسى به السفن قبل وجود جدة كما تقدم ، فخرجت من السفينة فابتعت بعيرا وتوجهت إلى المدينة حتى إذا كنت بالهداة : اسم محل ، إذا رجلان وهما خالد ابن الوليد وعثمان بن أبي طلحة ، فرحبا بي وإذا هما يريدان الذى أريد ، فتوجهنا إلى المدينة .

فقد علمت ما فى إرسال عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي عقب وقعة بدر من أنه كان فى ذلك الوقت كافرا ، لأنه شهد مع الكفار أحدا .

ومن ثم قال فى الأصل هنا : فلما كان شهر ربيع الأول ، وقيل المحرم سنة سبع ، أى وقيل سنة ست حكاه ابن عبد البر عن الواقدى من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث به عمرو بن أمية الضمرى ، فلما قرىء عليه الكتاب أسلم ، وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه أم حبيبة ففعل . وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه من بقى عنده من أصحابه ويحملهم ففعل ، وقد تقدم القول عند ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة أن توجه عمرو بكتابى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المحرم سنة سبع يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ، والثانى فى تزويجه عليه الصلاة والسلام أم حبيبة وقيل إرسال عمرو كان فى شهر ربيع الأول منها .

وسيأتى ذكر كتابى النبى صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي مع عمرو عند ذكر كتبه إلى الملوك . هذا كله كلام الأصل فليتأمل ما فيه .

ثم رأيت صاحب النور قال : قد رأيت غير واحد صرح بأن النجاشي أسلم فى السنة السابعة ؛ يعنون من الهجرة ، وهذا يعكر على تصديقه وإسلامه عند إرسال عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة : أى عقب بدر ، حيث قال أنا أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر ما تقدم هذا كلامه .

أي فكيف يكون إرسال عمرو بن أمية إلى النجاشي ليسلم . وقد يجاب بأن المراد إظهار إسلامه ، أى بعث له عمرو بن أمية لأجل أن يظهر إسلامه ويعلن به بين قومه ، أى لأنه كان يخفى إسلامه عن قومه . ولما بلغ قومه أنه اعترف بأن عيسى صلوات الله وسلامه عليه عبد الله ووافق جعفر بن أبي طالب على ذلك سخطوا وقالوا له : أنت فارقت ديننا ، وأظهروا له المخاصمة ، فأرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقال : اركبوا فيها ، وكونوا كما أنتم ، فان هربت فاذهبوا حيث شئتم ، وإن ظفرت فأقيموا . ثم عمد إلى كتاب فكتب : هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله فى ثيابه عند منكبه الأيمن وخرج إلى الحبشة وقد صفوا له ، فقال : يا معشر الحبشة ألست أرفق الناس بكم ؟ قالوا بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فما لكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبد ، قال : فماذا تقولون أنتم فى عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله ، فقال لهم النجاشي ووضع يده على صدره على قبائه وقال : هو يشهد أن عيسى ابن مريم ولم يزد على هذا ، وإنما يعنى ما كتب فرضوا منه ذلك .

ويذكر أن عليا رضى الله عنه وجد ابن النجاشي عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين ، وكان يقال له نيزر مولى على كرم الله وجهه .

ويقال إن الحبشه لما بلغهم خبره أرسلوا وفدا منهم إليه ليملكوه ويتوجوه ولم يختلفوا عليه فأبى وقال : ما كنت لأطلب الملك بعد أن من الله علىّ بالإسلام .

على أن ابن الجوزى رحمه الله ذكر أن ذهاب عمرو بن العاص إلى النجاشي كان عند منصرفه مع قريش فى غزوة الأحزاب ، أى لا عقب بدر .

فعن عمرو بن العاصى رضى الله تعالى عنه : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق ، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون مكانى ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو لأمور علوا منكرا ، وإنى قد رأيت رأيا فما ترون فيـه ؟ قالوا :

وما رأيت ؟ قال : أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن ممن قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، فقالوا : إن هذا هو الرأى ، فقلت: اجمعوا ما يهدى له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدما كثيرا ، ثم خرجنا إليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن جعفر وأصحابه الحديث .

وهذا لا يمنع أن يكون عمرو بن العاص وفد على النجاشي هو وعبد الله بن ربيعة عقب بدر ، فيكون وفود عمرو بن العاص على النجاشي كان ثلاث مرات : مرة مع عمارة عقب مهاجرة من هاجر إلى الحبشة ، ومرة مع عبد الله بن ربيعة عقب بدر ، وهذه المرة الثالثة التى كانت عقب الأحزاب ، وإن إرسال عمرو بن أمية وإسلام عمرو بن العاص على يد النجاشي كان فى هذه المرة الثالثة .

وحينئذ لا يشكل إرسال عمرو بن أمية للنجاشي ، لأنه كان مسلما حينئذ ، فيكون ذكر مجيء عمرو بن أمية إلى النجاشي فى المرة الثانية التى كانت عقب بدر اشتباه من بعض الرواة وكذا ذكر إسـلام عمرو بن العاص على يد النجاشي فى المرة الثانية من تخليط بعض الرواة .

ثم رأيته فى [الإمتاع] قال : وقد رويت قصة الهجرة إلى الحبشة وإسلام النجاشي من طرق عديدة مطولة ومختصرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل عمرو بن أمية الضمرى فى أموره لأنه كان من رجال النجدة ، أى ومعلوم أنه كان لا يرسله إلا بعد إسلامه ، وإسلامه قد علمت أنه كان سنة أربع . وفى الأصل أنه صلى الله عليه وسلم أرسله إلى مكة بهدية لأبى سفيان بن حرب .

أى ولعل المراد بذلك ما حكاه بعض الصحابة قال « دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد أن يبعثنى بمال إلى أبى سفيان يقسمه فى قريش بمكة بعد الفتح وقال لى : التمس صاحبا ، قال: فجاءنى عمرو بن أميـة ، فقال : بلغنى أنك تريد الخروج إلى مكة وتلتمس صاحبا ، قلت: أجل، قال : فأنا لك صاحب ، قال : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : وجدت صاحبا ، فقال : من ؟ قلت : عمرو بن أمية الضمرى ، فقال : إذا هبط بلاد قومه فاحذروه ، فإنه قد قال القائل : أخوك البكرى ولا تأمنه ،

وقد أسلم عبد الله ولده قبل أبيه عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما ، روى « أنه صلى الله عليه وسلم قال فيهما وفى أم عبد الله : نعم البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله» وكان صلى الله عليه وسلم يفضل عبد الله على أبيه ، لأنه كان من عباد الصحابة وزهادهم وفضلائهم وعلمائهم ، ومن أكثرهم رواية .

وذكر ابن مرزوق رحمه الله « أن ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما مر ببدر فإذا رجل يعذب ويئنّ ، فناداه يا عبد الله، قال : فالتفت إليه ، فقال : اسقنى ، فأردت أن أفعل فقال الأسود الموكل بتعذيبه : لا تفعل يا عبد الله ، فإن هذا من المشركين الذين قتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه الطبرانى فى الأوسط . زاد السيوطى فى الخصائص « فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال : أو قد رأيته ؟ قلت نعم ، قال : ذاك عدوّ الله أبو جهل ، وذاك عذابه إلى يوم القيامة » .

وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن الشعبى « أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة حديد » وفى لفظ «بعمود حديد حتى يغيب فى الأرض ، ثم يخرج فيفعل به مثل ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أبو جهل يعذب إلى يوم القيامة » .

ومما جاء فى فضل من شهد بدرا « أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها ، قال جبريل عليه السلام : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة » وفى رواية « إن للملائكة الذين شهدوا بدرا فى السماء لفضلا على من تخلف منهم » وجاء بعض الصحابة رضى الله تعالى عنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا رسول الله إن ابن عمى نافق ، أى وقد كان من أهل بدر ، أتأذن لى أن أضرب عنقه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا ، وعسى أن يكفر عنه » وفى رواية « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

قال : وفى الطبرانى بسند جيد عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلع الله على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، أو قال : فقد وجبت لكم الجنة » أى غفرت لكم ما مضى وما سيقع من الذنوب ، أى وهو يفيد أن ما يقع منهم من الكبائر لا يحتاجون إلى التوبة عنه ، لأنه إذا وقع يقع مغفورا ،

وعبر فيه بالماضي مبالغة فى تحققه ، وهذا كما لا يخفى بالنسبة للآخرة لا بالنسبة لأحكام الدنيا ، ومن ثم لما شرب قدامة بن مظعون الخمر فى أيام عمر جلده وكان بدريا .

أى وقد يقال : هذا يقتضى وجوب التوبة فى الدنيا، فإذا لم تقع لايؤاخذ بذلك فى الآخرة ، لأن وجوب التوبة من أحكام الدنيا .

لا يقال : إذا سلم أن الذنب إذا وقع منهم يقع مغفورا لامعنى لوجوب التوبة ، وإنما حد عمر رضى الله تعالى عنه قدامة زجرا عن شرب الخمر . لأنا نقول : بل لوجوب التوبة فى الدنيا معنى وإن كان الذنب إذا وقع يقع مغفورا ، لأن المراد بذلك عدم المؤاخذة فى الآخرة ، وذلك لا ينافى وجوب التوبة عنه فى الدنيا ، لأنه لا تلازم بين وجوب التوبة فى الدنيا وبين غفران الذنب فى الآخرة .

هـذا ، وفى الخصائص الصغرى نقلا عن شرح [جمع الجوامع] أن الصحابة كلهم لايفسقون بارتكاب مايفسق به غيرهم . وقدامة هذا كان متزوجا أخت عمر رضى الله تعالى عنه ، وكان عمر متزوجا بأخت قدامة وهى أم حفصة رضى الله عنها ، فكان خالا لحفصة ولأخيها عبد الله ، وكان عاملا لعمر فى بعض النواحى أى البحرين ، فقدم الجارود سعد بن عبد القيس على عمر من البحرين وكان قدامة واليا عليها ، فأخبر عمر أن قدامة سكر ، قال : وإنى رأيت حدا من حدود الله حقا علىّ أن أرفعه إليك ، فقال له عمر : من يشهد معك ؟ قال أبو هريرة : فشهد أبو هريرة رضى الله عنه أنه رآه سكران ، أى قال : لم أره يشرب ، ولكنى رأيته سكران يقىء، فأحضر قدامة ، فقال له الجارود : أقم عليه الحد ، فقال له عمر رضى الله عنه : أخصم أنت أم شاهد ؟ فصمت ثم عاوده ، فقال له عمر رضى الله عنه : لتمسكن أو لأسوءنك ، فقال : ليس فى الحق . وفى لفظ : أما والله ماذلك بالحق أن يشرب ابن عمك وتسوءنى ، فأرسل عمر رضى الله عنه إلى زوجة قدامة أى بعد أن قال له أبو هريرة رضى الله عنه : إن كنت تشك فى شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد يعنى زوجته ، فجاءت فشهدت على زوجها بأنه سكر ، فقال عمر لقدامة : أريد أن أحدك ، فقال : ليس لك ذلك ، لقول الله عز وجل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ، فقال له عمر : أخطأت التأويل ، فإن بقية الآية (إذا ماتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) فإنك إن اتقيت اجتنبت ماحرم الله تعالى عليك ، ثم أمر به فحد ، فغاضبه قدامة ثم حجا جميعا ، ففى يوم استيقظ عمر رضى الله تعالى عنه من نومه

فزعا ، فقال : عجلوا بقدامة ، أتانى آت ، فقال : صالح قدامة فإنه أخوك ، فاصطلحا .

أى وقد احتج بهذه الآية أيضا جمع من الصحابة شربوا الخمر ، وهم أبو جندل ، وضرار بن الخطاب ، وأبو الأزور ، فأراد أبو عبيدة رضى الله عنه وهو وال بالشام أن يحدهم ، فقال أبو جندل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، وقال : خصمنى أبو جندل بهذه الآية . فكتب عمر لأبى عبيدة : إن الذى زين لأبى جندل الخطيئة زين له الخصومة فاحددهم ، فلما أراد أبو عبيدة أن يحدهم ، قال أبو الأزور لأبى عبيدة : دعنا نلقى العدوّ غدا ، فإن قتلنا فذاك ، وإن رجعنا إليكم فحدونا ، فلقوا العدوّ فاستشهد أبو الأزور وحدّ الآخران .

وفى حواشى البخارى للحافظ الدمياطى « أن نعيمان كان ممن شهد بدرا وسائر المشاهد وأتى فى شربه الخمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحده أربعا أوخمسا أى من المرات ، فقال رجل من القوم اللهم العنه ، ما أكثر ما يشرب وأكثر مايحد ! فقال عليه الصلاة والسلام : لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله » ولعل هذا التعليل لاينظر لمفهومه .

وعند الإمام أحمد رحمه الله عن حفصة رضى الله تعالى عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى لأرجو أن لايدخل النار إن شاء الله تعالى أحد شهد بدرا والحديبية » ولعل الواو بمعنى أو . ويدل لذلك مافى بعض الروايات عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال « لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » .

ولا ينافى ما فى مسلم والترمذى عن جابر « أن عبدا لحاطب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطبا إليه ، فقال : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار ، فقال : كذبت ، لايدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية » لأنه يجوز أن يكون ذلك لكونه : أى الجمع بين بدر والحديبية هو الواقع لحاطب .

وفى الطبرانى عن رافع بن خديج رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر « والذى نفسى بيده لو أن مولودا ولد فى فقه أربعين سنة من أهل الدين يعمل بطاعة الله تعالى كلها ويجتنب معاصى الله كلها إلى أن يرد إلى أرذل العمر أو يردّ إلى أن لايعلم بعد علم شيئا لم يبلغ أحدكم هذه الليلة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم . ومن ثم جاء جماعة من أهل بدر للنبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى صفة ضيقة ومعه جماعة من أصحابه فوقفوا بعد أن سلموا ليفسح لهم القوم فلم يفعلوا ، فشق قيامهم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لمن لم يكن من أهل بدر من الجالسين : قم يا فلان ، قم يافلان بعدد الواقفين ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الكراهة فى وجه من أقامه ، فقال : «رحم الله رجلا يفسح لأخيه ، فنزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا) الآية فجعلوا يقومون لهم بعد ذلك » أى ولعل المراد يجلسونهم مكانهم .

وفى الخصائص الصغرى : وخص أهل بدر من أصحابه صلى الله عليه وسلم بأن يزادوا فى الجنازة على أربع تكبيرات تميزا لهم لفضلهم .

وقد ذكر أن عمر بن عبد العزيز بن مروان كان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله ليسمع منه ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص عليا رضى الله تعالى عنه ، فأتاه عمر فأعرض عبيد الله عنه وقام ليصلى ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلم أقبل عليه ، وقال له : متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ، ففهمها عمر وقال : معذرة إلى الله وإليك ، والله لأعود ، فما سمع بعد ذلك يذكر عليا كرّم الله وجهه إلا بخير .

غزوة بنى سليم

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من بدر لم يقم إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه ، يريد بنى سليم . واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى أو ابن أم مكتوم .

أى وفى رواية أبى داود أن استخلاف ابن أم مكتوم إنما كان على الصلاة بالمدينة دون القضايا والأحكام ، فإن الضرير لايجوز له أن يحكم بين الناس ، لأنه لايدرك الأشخاص ولا يثبت الأعيان ، ولا يدرى لمن يحكم ولا على من يحكم ، أى فأمر القضايا والأحكام يجوز أن يكون فرضه صلى الله عليه وسلم لسباع فلا مخالفة . فلما بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر ، أى وقيل لهذا الماء الكدر ، لأن به طيرا فى ألوانها كدرة ، فأقام صلى الله عليه وسلم على ذلك ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربا ، أى وكان لواؤه صلى الله عليه وسلم أبيض حمله على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان فى تلك السنة تزويج علىّ بفاطمة رضى الله تعالى عنهما : أى عقد عليها فى رمضان وقيل فى رجب، ودخل بها فى ذى الحجة . وقيل بعد أن تزوّجها بنى بها بعد سبعة أشهر ونصف ، أى فيكون عقد عليها فى أوّل جمادى الأولى . وكان عمرها خمس عشرة سنة ، وكان سن علىّ يومئذ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ، أى وأولم عليها بكبش من عند سعد وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار . ولما خطبها علىّ قال صلى الله عليه وسلم « إن عليا يخطبك فسكتت » أى وفى رواية قال لها « أى بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟ فبكت ، ثم قالت : كأنك ياأبت إنما ادخرتنى لفقير قريش، فقال صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق ماتكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء، فقالت فاطمة رضى الله عنها : رضيت بما رضى الله ورسوله » .

وقد كان خطبها أبو بكر ثم عمر فسكت صلى الله عليه وسلم . وفى رواية قال لكل انتظر بها القضاء ، فجاءا أى أبوبكر وعمر رضى الله عنهما إلى على كرم الله وجهه يأمرانه أن يخطبها ،قال على «فنبهانى لأمر كنت عنه غافلا فجئته صلى الله عليه وسلم فقلت: تزوّجنى فاطمة ، قال : وعندك شىء ؟ قلت فرسى وبدنى : أى درعى ، قال : أما فرسك فلابدّ لك منها ، وأما بدنك فبعها فبعتها بأربعمائة وثمانين درهما فجئته صلى الله عليه وسلم بها فوضعها فى حجره فقبض منها قبضة فقال : أى بلال ابتع لنا بها طيبا .

وفى رواية « لما خطبها قال له صلى الله عليه وسلم ماتصدقها » وفى لفظ « هل عندك شىء تستحلها به ؟ قال : ليس عندى شىء ، قال : فأين درعك الحطمية التى أعطيتك يوم كذا وكذا ؟ قال عندى ، فباعها من عثمان بن عفان بأربعمائة وثمانين درهما . ثم إن عثمان رضى الله عنه رد الدرع إلى على كرم الله وجهه فجاء علىّ بالدرع والدراهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا لعثمان بدعوات » .

وفى فتاوى الجلال السيوطى أنه سئل هل لصحة ماقيل إن عثمان بن عفان رأى درع على رضى الله تعالى عنهما يباع بأربعمائة درهم ليلة عرسه على فاطمة رضى الله عنها فقال عثمان : هذا درع على فارس الإسلام لايباع أبدا ، فدفع لغلام على أربعمائة درهم وأقسم أن لايخبره بذلك ورد الدرع معه ، فلما أصبح عثمان وجد فى داره أربعمائة كيس ، فى كل كيس أربعمائة درهم ، مكتوب على كل درهم : هذا ضرب الرحمن لعثمان بن عفان ، فأخبر جبريل النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : هنيئا لك ياعثمان .

وفيها أيضا أن عليا خرج ليبيع إزار فاطمة ليأكل بثمنه ، فباعه بستة دراهم ، فسأله سائل فأعطاه إياه، فجاء جبريل فى صورة أعرابى ومعه ناقة، فقال: ياأبا الحسن اشتر هذه الناقة ، قال: مامعى ثمنها ، قال : إلى أجل ، فاشتراها بمائة ثم عرض له ميكائيل فى صورة رجل فى طريقه، فقال: أتبيع هذه الناقة ؟ قال نعم ، قال: بكم اشتريتها ؟ قال : بمائة، قال : آخذها بمائة ولك من الربح ستون ، فباعها له ، فعرض له جبريل فقال : بعت الناقة ؟ قال نعم ، قال : ادفع إلىّ دينى ، فدفع له مائة ورجع بستين ، فقالت له فاطمة: من أين لك هذا ؟ قال : ضاربت مع الله بستة فأعطانى ستين ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، فقال : البائعُ جبريل والمشترى ميكائيل ، والناقة لفاطمة تركبها يوم القيامة له أصل أم لا ؟

فأجاب عن ذلك كله بأنه لم يصح ، أى وهى تصدق بأن ذلك لم يرد فهو من الكذب الموضوع .

ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يعقد خطب خطبة منها « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بحكمته ، ثم إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا وصهرا وكان ربك قديرا . ثم إن الله أمرنى أن أزوج فاطمة من علىّ على أربعمائة مثقال فضة ، أرضيت ياعلى ؟ قال رضيت » بعد أن خطب على كرّم الله وجهه أيضا خطبة منها : الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه ، وأشهد أن لاإله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه : أى وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال « ياعلىّ اخطب لنفسك ، فقال علىّ الحمد لله الذى لايموت ، وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجنى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم فاسمعوا مايقول واشهدوا . قالوا : ماتقول يارسول الله؟ قال : أشهدكم أنى قد زوّجته » كذا رواه ابن عساكر . قال الحافظ ابن كثير : وهذا خبر منكر . وقد ورد فى هذا الفصل أحاديث كثيرة منكرة وموضوعة أضربنا عنها .

ولما تمّ العقد دعا صلى الله عليه وسلم بطبق بسر فوضع بين يديه ثم قال للحاضرين انتهبوا.

وقول على كرم الله وجهه : نبهانى لأمر كنت عنه غافلا لاينافى ماروى عن أسماء بنت عميس أنها قالت : قيل لعلى : ألا تتزوج بنت رسول الله صلىّ الله عليه وسلم ، فقال مالى صفراء ولا بيضاء ولست بمأبور بالباء الموحدة : يعنى غير الصحيح الدين، ولا المتهم فى الإسلام : أى لاأخشى الفاحشة إذا لم أتزوج . وليلة بنى بها قال صلى الله عليه وسلم

لعلى : لاتحدث شيئا حتى تلقانى ، فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت فى جانب البيت وعلىّ فى جانب آخر ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لفاطمة ائتينى بماء ، فقامت تعثّر فى ثوبها . وفى لفظ فى مرطها من الحياء ، فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومج فيه ، ثم قال لها : تقدمى ، فتقدمت ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال : اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . ثم قال : ائتونى بماء ، فقال على كرم الله وجهه : فعلمت الذى يريد ، فقمت وملأت القعب فأتيته به ، فأخذه فمج فيه وصنع بى كما صنع بفاطمة ودعا لى بما دعا لها به ، ثم قال : اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى شملهما : أى الجماع ، وتلا : قل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم قال ادخل بأهلك باسم الله والبركة ، وكان فراشها إهاب كبش : أى جلده ، وكان لهما قطيفة إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما .

ثم مكث صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لايدخل على فاطمة . وفى اليوم الرابع دخل عليهما فى غداة باردة وهما فى تلك القطيفة ، فقال لهما : كما أنتما وجلس عند رأسهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما ، فأخذ على كرم الله وجهه إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفئها وأخذت فاطمة رضى الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك .

وقالت له فى بعض الأيام : يارسول الله مالنا فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، فقال لها صلى الله عليه وسلم يابنية اصبرى ، فإن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام أقام مع امرأته عشر سنين ليس لهم فراش إلا عباءة قطوانية : أى وهى نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة ، أى ولعل العباءة التى كانت تجب من ذلك الموضع كانت صفيقة . وعن على رضى الله تعالى عنه : لم يكن لى خادم غيرها .

وعنه رضى الله تعالى عنه « لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع ، وإن صدقتى اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار » ولعل المراد فى السنة .

قال الإمام أحمد بن حنبل : ماورد لأحد من الصحابة ماورد لعلى رضى الله تعالى عنه أى من ثنائه صلى الله عليه وسلم عليه .

وسبب ذلك أنه كثرت أعداؤه والطاعنون عليه من الخوارج وغيرهم ، فاضطر لذلك الصحابة أن يظهر كل منهم من فضله ماحفظه ردا على الخوارج وغيرهم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ما نزل فى أحد من الصحابة من كتاب الله ما نزل فى علىّ . نزل فى علىّ ثلثمائة آية .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كل ماتكلمت به فى التفسير فإنما أخذته عن على كرم الله وجهه .

ومن كلماته البديعة الوجيزة : لايخافنّ أحد إلا ذنبه ، ولايرجونّ إلا ربه ، ولايستحى من لايعلم أن يتعلم ، ولا من يعلم إذا سئل عما لايعلم أن يقول الله أعلم . ما أبردها على الكبد إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول الله أعلم .

ومن ذلك : العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف علمهم عملهم ، يجلسون حلقا فيباهى بعضهم بعضا ، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لاتصعد أعمالهم من مجالسهم تلك إلى الله .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى « يهلك فيك رجلان : محب مطر ، وكذاب مفتر مكره لك يأتى بالكذب المفترى » وقال له « ياعلى ستفترق أمتى فيك كما افترقت فى عيسى ابن مريم » وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا بنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لاآذن ، ثم لاآذن إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما هى بضعة منى ، يريبنى ماأرابها ، ويؤذينى ماآذاها » .

غزوة بنى قينقاع

بضم النون وقيل بكسرها أى وقيل بفتحها ، فهى مثلثة النون ، والضم أشهر : قوم من اليهود وكانوا أشجع يهود ، وكانوا صاغة ، وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت رضى الله عنه وعبد الله بن أبىّ ابن سلول . فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغى والحسد ، ونبذوا العهد أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان عاهدهم وعاهد بنى قريظة وبنى النضير أن لايحاربوه ، وأن لايظاهروا عليه عدوه .

وقيل على أن لايكونوا معه ولاعليه . وقيل على أن ينصروه صلى الله عليه وسلم على من

دهمه من عدوه أى كما تقدم ، فهم أول من غدر من يهود ؟ فإنه مع ماهم عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت امرأة من العرب بجلب لها : أى وهو مايجلب ليباع من إبل وغنم وغيرهما [ ] فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ منهم . أى وفى الإمتاع أن المرأة كانت زوجة لبعض الأنصار ، أى ومعلوم أن الأنصار كانوا بالمدينة ، أى وقد يقال : لامخالفة ، لجواز أن تكون زوجة بعض الأنصار من الأعراب وأنها جاءت بجلب لها ، فجعلوا أى جماعة منهم يراودونها عن كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها . قال وفى رواية : خله بشوكة وهى لاتشعر ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون أى وتقدم وقوع مثل ذلك ، وأنه كان سببا لوقوع حرب الفجار الأول .

ولما غضب المسلمون على بنى قينقاع أى وقال لهم صلى الله عليه وسلم « ماعلى هذا أقررناهم » تبرأ عبادة بن الصامت رضى الله عنه من حلفهم ، أى قال : يارسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار [ ] وتشبث به عبدالله بن أبى ابن سلول أى لم يتبرأ من حلفهم كما تبرأ منه عبادة بن الصامت ، أى وفيه نزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) إلى قوله (فإن حزب الله هم الغالبون) فجمعهم صلى الله عليه وسلم وقال لهم « يامعشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة » أى ببدر « وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله تعالى إليكم ، قالوا : يامحمد إنك ترى أنا قومك أى تظننا أنا مثل قومك ، ولا يغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » وفى لفظ « لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا » أى لأنهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا ، فأنزل الله تعالى (قل للذين كفروا ستغلبون) الآية . أى وأنزل الله (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) الآية ، فتحصنوا فى حصونهم ، فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولواؤه وكان أبيض بيد عمه حمزة بن عبدالمطلب رضى الله تعالى عنه . قال ابن سعد : ولم تكن الرايات يومئذ .

وقد قدمنا أن هذا يرده ماتقدم فى ضمن غزاة بدر من أنه كان أمامه رايتان سوداوان إحداهما مع على ويقال لها العقاب ، ولعلها سميت بذلك فى مقابلة الراية التى كانت فى الجاهلية

تسمى بهذا الاسم ، ويقال لها راية الرؤساء، لأنه كان لايحملها فى الحرب إلا رئيس ، وكانت فى زمنه صلى الله عليه وسلم مختصة بأبى سفيان رضى الله عنه ، لايحملها فى الحرب إلا هو أو رئيس مثله إذا غاب كما فى يوم بدر . والأخرى مع بعض الأنصار ، وسيأتى فى خيبر أن العقاب كان قطعة من برد لعائشة رضى الله عنها .

واستخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا لبابة ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار ، لأن خروجه صلى الله عليه وسلم كان فى نصف شوّال ، واستمر إلى هلال ذى القعدة الحرام ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب وكانوا أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلى سبيلهم ، وأن يجلوا من المدينة : أى يخرجوا منها ، وأن لهم نساءهم والذرية وله صلى الله عليه وسلم الأموال ، أى ومنها الحلقة التى هى السلاح. والظاهر من كلامهم أنه لم يكن لهم نخيل ولا أرض تزرع ، وخمست أموالهم أى مع كونها فيئاله صلى الله عليه وسلم لأنها لم تحصل بقتال ولا جلوا عنها قبل التقاء الصفين ، فكان له صلى الله عليه وسلم الخمس ولأصحابه الأربعة الأخماس .

أقول : ولا يخفى أن من جملة أموالهم دورهم ، ولم أقف على نقل صريح دال على مافعل بها ، وعلم أنه صلى الله عليه وسلم جعل هذا الفئ كالغنيمة . ومذهبنا معاشر الشافعية أن الفئ المقابل للغنيمة كالواقع فى هذه الغزوة وغزوة بنى النضير الآتية كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم يقسم خمسة أقسام ، له صلى الله عليه وسلم أربعة منها ، والقسم الخامس يقسم خمسة أقسام له صلى الله عليه وسلم منها قسم ، فيكون له أربعة أخماس وخمس الخمس والأربعة الأخماس الباقية من الخمس ، منها واحد لذوى القربى ، وآخر لليتامى ، وآخر للمساكين ، وآخر لابن السبيل ، فجميع مال الفئ مقسوم على خمسة وعشرين سهما منها أحد وعشرون سهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأربعة أسهم لأربعة أصناف ، هم : ذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ولعل إمامنا الشافعى رضى الله عنه رأى أن ذلك كان أكثر أحواله صلى الله عليه وسلم وإلا فهو هنا وفى بنى النضير كما سيأتى لم يفعل ذلك بل خمسه هنا ، ثم استقل به : أى لم يعط الجيش منه ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم أى وبنات هاشم وبنى أى وبنات المطلب دون بنى أخويهما عبد شمس ونوفل مع أن الأربعة أولاد عبد مناف كما تقدم .

ولما فعل ذلك جاء إليه صلى الله عليه وسلم جبير بن مطعم من بنى نوفل وعثمان بن عفان

من بني عبد شمس فقالا : يارسول الله ، هؤلاء إخواننا من بني هاشم لاننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم ، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا » وفي لفظ « ومنعتنا وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة » وفي رواية « أن بني هاشم شرفوا بمكانك منهم وبنو المطلب ، ونحن نلدي إليك بنسب واحد ودرجة واحدة فبم فضلتهم علينا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا ، وشبك بين أصابعه » زاد في رواية « أنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا في إسلام » أي لأن الصحيفة إنما كتبت على يد بني هاشم والمطلب ، لأنهم هم الذين قاموا دونه صلى الله عليه وسلم ودخلوا الشعب .

وبعده صلى الله عليه وسلم صار الفيء أربعة أخماس للمرتزقة المرصدة للجهاد ؟ وخمس الخمس الخامس لمصالح المسلمين ، والخمس الثاني منه لذوي القربى ، والخمس الثالث منه لليتامى ، والخمس الرابع منه للمساكين ، والخمس الباقي منه لابن السبيل .

ثم لايخفى أنه صلى الله عليه وسلم إذا كان مع الجيش وغنم شيء بقتال أو إيجاف خيل أو جلا عنه أهله بعد التقاء الصفين كان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن يختار من ذلك قبل قسمته ، ويقال لهذا الذي يختاره الصفي والصفية كما تقدم .

أقول : وتقدم عن الإمتاع عن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما خلافه ، وتقدم هل صفيه صلى الله عليه وسلم كان محسوبا عليه من سهمه أولا ؟ قيل نعم ، وقيل كان خارجا عنه وتقدم الجواب عن ذلك في غزاة بدر أن هذا الخلاف لاينافي الجزم ثم بأنه كان زائدا على سهمه صلى الله عليه وسلم ، لأن ذلك قبل نزول آية تخميس الغنيمة ، فكان سهمه صلى الله عليه وسلم كسهم واحد من الجيش ، فصفيه يكون زائدا على ذلك .

وأما سهمه صلى الله عليه وسلم بعد نزول آية التخميس للغنيمة فهو خمس الغنيمة ، فيجري فيما يأخذه قبل القسمة الخلاف ، هل يكون زائدا على ذلك الخمس أو يكون محسوبا منه ؟ فلا مخالفة بين إجراء الخلاف والجزم ، والله أعلم .

وقيل لما نزلت بنو قينقاع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتفوا فكتفوا فأراد قتلهم ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي ابن سلول وألح عليه ، أي فقال : يامحمد أحسن في موالي ، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلفه ، أي وتلك الدرع هي ذات الفضول ، فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ويحك أرسلني وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه سمرة لشدة غضبه ، ثم قال : ويحك أرسلني ، فقال : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ ، فإنهم عترتى وأنا امرؤ أخشى الدوائر ، فقال صلى الله عليه وسلم : خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم ، وتركهم من القتل ، أى وقال له : خذهم لابارك الله لك فيهم ، وأمر صلى الله عليه وسلم أن يجلوا من المدينة ؛ أى ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه وأمهلهم ثلاثة أيام فجلوا منها بعد ثلاث ، أى بعد أن سألوا عبادة بن الصامت أن يمهلهم فوق الثلاث ، فقال : لا ولا ساعة واحدة ، وتولى إخراجهم ، وذهبوا إلى أذرعات بلدة بالشام ، أى ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا أجمعون بدعوته صلى الله عليه وسلم فى قوله لابن أبىّ « لا بارك الله لك فيهم » .

ويذكر أن ابن أبىّ قبل خروجهم جاء إلى منزله صلى الله عليه وسلم يسأله فى إقرارهم فحجب عنه ، فأراد الدخول ، فدفعه بعض الصحابة فصدم وجهه الحائط فشجه ، فانصرف مغضبا ، فقال بنو قينقاع : لا نمكث فى بلد يفعل فيه بأبى الحباب هذا ولا ننتصر له وتأهبوا للجلاء . قال : وقيل الذى تولى إخراجهم محمد بن مسلمة رضى الله عنه ، أى ولا مانع أن يكونا : أى عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة اشتركا فى إخراجهم .

ووجد صلى الله عليه وسلم فى منازلهم سلاحا كثيرا ، أى لأنهم كما تقدم أكثر يهود أموالا وأشدهم بأسا ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاحهم ثلاث قسىّ ، قوسا يدعى الكتوم : أى لايسمع له صوت إذا رمى به ، وهو الذى رمى به صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى تشظى بالظاء المشالة كما سيأتى وسيأتى ما فيه ، وقوسا يدعى الروحاء ، وقوسا يدعى البيضاء ، وأخذ درعين : درعا يقال له السغدية أى بسين مهملة وغين معجمة ، ويقال إنها درع داود التى لبسها صلى الله عليه وسلم حين قتل جالوت ، والأخرى يقال لها فضة ، وثلاث أرماح ، وثلاثة أسياف : سيف يقال له قلعى ، وسيف يقال له بتار ، والآخر لم يسم انتهى أى وسماه بعضهم بالحيف ، ووهب صلى الله عليه وسلم درعا لمحمد بن مسلمة ، ودرعا لسعد بن معاذ رضى الله عنهما والله تعالى أعلم .

غزوة السويق

لما أصاب قريشا فى بدر ما أصابهم نذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه ماء من جنابة : أى لا يأتى النساء ، ولعل هذه العبارة وهى لا يمس رأسه ماء من جنابة وقعت من بعض الصحابة . مراده بها ما ذكر من أنه لا يأتى النساء . ويؤيده ما جاء فى بعض الروايات : لا يمس النساء والطيب حتى يغزو محمدا ؛ أو أن ذلك قاله أبو سفيان ، بناء على أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة .

ومن ثم ذكر الدميرى أن الحكمة فى عدم بيان الغسل فى آية الوضوء كون الغسل من الجنابة كان معلوما قبل الإسلام بقية من دين إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام ، فهو من الشرائع القديمة .

وفى كلام بعضهم : كانوا فى الجاهلية يغتسلون من الجنابة ، ويغسلون موتاهم ، ويكفنونهم ، ويصلون عليهم ؛ وهو أن يقوم وليه بعد أن يوضع على سريره ويذكر محاسنه ويثنى عليه ، ثم يقول : عليك رحمة الله ثم يدفن .

وما ذكره الدميرى تبع فيه السهيلى حيث قال : إن الغسل من الجنابة كان معمولا به فى الجاهلية بقية من دين إبراهيم وإسمعيل ، كما بقى فيهم الحج والنكاح ، فكان الحدث الأكبر معروفا عندهم ، ولذلك قال تعالى « وإن كنتم جنبا فاطهروا » فلم يحتاجوا إلى تفسيره . وأما الحدث الأصغر فلما لم يكن معروفا عندهم قبل الإسلام لم يقل وإن كنتم محدثين فتوضئوا ، بل قال فاغسلوا الآية .

فخرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد . ثم أتى لبنى النضير : أى وهم حى من يهود خيبر ينسبون إلى هارون أخى موسى بن عمران عليهما الصلاة والسلام تحت الليل ، فأتى حيى بن أخطب ، أى وهو من رؤساء بنى النضير وهو أبو صفية أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له ، لأنه خافه ، فانصرف عنه وجاء إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير أى وصاحب كنزهم : أى المال الذى كانوا يجمعونه ويدخرونه لنوائبهم وما يعرض لهم [ ] أى وكان خليا يعيرونه لأهل مكة ، فاستأذن عليه ، فأذن له واجتمع به ، ثم خرج إلى أصحابه ، فبعث رجالا من قريش فأتوا ناحية من المدينة فحرقوا نخلا منها ووجدوا رجلا

من الأنصار . قال فى الإمتاع : وهذا الأنصارى هو معبد بن عمرو وحليفا لهم فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ، فعلم بهم الناس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم فى مائتين من المهاجرين والأنصار : أى واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة بشير ابن عبد المنذر . وكان خروجه لخمس خلون من ذى الحجة .

وجعل أبو سفيان وأصحابه يخففون للهرب أى لأجله ، فجعلوا يلقون جرب السويق أى وهو قمح أوشعير يقلى ثم يطحن ليسف ، تارة بماء ، وتارة بسمن ، وتارة بعسل وسمن وهو عامة أزوادهم ، فيأخذه المسلمون ولم يلحقوا بهم ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة ، وكانت غيبته خمسة أيام .

غزوة قرقرة الكدر

ويقال قرقرة الكدرة ويقال قراقر . فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا من بنى سليم وغطفان بقرقرة الكدر : أى لعله بلغه أنهم يريدون الإغارة على المدينة بعد أن غزاهم صلى الله عليه وسلم كما تقدم . وقرقرة الكدر : أرض ملساء فيها طيور فى ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع ، كما تقدم أن الماء الذى بأرضهم الذى بلغه صلى الله عليه وسلم ولم يجد به أحدا منهم يسمى الكدر ، لوجود ذلك الطير به ، فسار إليهم فى مائتين من أصحابه ، وحمل لواءه علىّ بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم ، وتقدم فى تلك أنه استخلف على المدينة سباع بن عرفطة أو ابن أمّ مكتوم وتقدم ما فيه ، فلما سار إليه أى إلى ذلك الموضع لم يجد به أحدا ، وأرسل نفرا من أصحابه إلى أعلى الوادى واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد خمسمائة بعير مع رعاة ، منهم غلام يقال له يسار فحازوها وانحدروا بها إلى المدينة ، فلما كانوا بمحل على ثلاثة أميال من المدينة خمسها صلى الله عليه وسلم ، فأخرج خمسة وقسم الأربعة الأخماس على أصحابه ، فخص كل رجل منهم بعيران ، ووقع يسار فى سهمه صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه صلى الله عليه وسلم لأنه رآه يصلى أى وقد أسلم ، وتعلم الصلاة من المسلمين بعد أسره ، أى وفى كون هذا غنيمة حيث قسمه كذلك وقفة :

وكانت مدة غيبته صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، فعلم أنه صلى الله عليه وسلم

غزا بنى سليم ؛ وأنه وصل إلى ماء من مياههم يقال له الكدر لوجود ذلك الطير به ، وأنه استعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى أو ابن أمّ مكتوم . وهنا وقع الجزم بالثانى، وأن الأولى لم يذكر أنه وجد فيها شيئا من النعم .

وظاهر هذا يدل على التعدد ، وجرى عليه الأصل ، أى وحينئذ تكون تلك الطيور توجد فى ذلك الماء وفى تلك الأرض . فعلى هذا يكون صلى الله عليه وسلم غزا بنى سليم مرتين : مرة وصل فيها لذلك الماء ولم يجد شيئا من النعم ، ومرة وصل فيها لتلك الأرض ووجد بها تلك النعم ، ولم أقف على أن محل ذلك الماء سابق على تلك الأرض ، أو أن تلك الأرض سابقة على محل ذلك الماء .

وفى السيرة الشامية أن غزوة بنى سليم هى غزوة قرقرة الكدر ، فعليه يكون إنما غزا بنى سليم مرة واحدة ، أى وحينئذ يكون الماء الذى كان به ذلك الطير كان فى تلك الأرض الملساء أو قريبا منها ، فليتأمل . والحافظ الدمياطى جعل غزوة بنى سليم هى غزوة بحران الآتية ؛ وسنذكرها .

غزوة ذى أمرّ

بتشديد الراء : اسم ماء ، أى وسماها الحاكم غزوة أنمار ، ويقال إنها غزوة غطفان .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا يقال له دعثور بضم الدال وإسكان العين المهملتين ثم مثلثة مضمومة ابن الحارث : أى الغطفانى من بنى محارب جمع جمعا من ثعلبة ومحارب بذى أمر : أى وهو موضع من ديار غطفان ، أى ولعل به ذلك الماء المسمى بما ذكر كما تقدم ، يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربعمائة وخمسين رجلا لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ، وأصاب أصحابه رجلا منهم : أى يقال له جبار ، وقيل حباب بكسر الحاء المهملة وبالباء الموحدة من بنى ثعلبة ، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره من خبرهم ، أى وقال له : لن يلاقوك ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا فى رءوس الجبال ، وأنا سائر معك ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام فأسلم وضمه صلى الله عليه وسلم إلى بلال ، أى وأخذ به ذلك الرجل طريقا وهبط به عليهم ، فسمعوا بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم فهربوا فى رءوس الجبال : أى فبلغوا ماء

يقال له ذو أمر ، فعسكر به صلى الله عليه وسلم ، وأصابهم مطر أى كثير بل ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثياب أصحابه [ ] فنزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا ، واضطجع أى بمرأى من المشركين واشتغل المسلمون فى شئونهم ، فبعث المشركون دعثورا الذى هو سيد القوم وأشجعهم المجمع لهم : أى فقالوا له : قد انفرد محمد فعليك به [ ] أى وفى لفظ أنه لما رآه قال : قتلنى الله إن لم أقتل محمدا ، فجاء دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : من يمنعك منى اليوم ؟ وفى رواية الآن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله ، ودفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده ، أى بعد وقوعه على ظهره . فأخذ السيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : من يمنعك منى؟ قال لا أحد ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . وفى رواية وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ثم أتى قومه أى بعد أن أعطاه صلى الله عليه وسلم سيفه [ ] فجعل يدعوهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنه رأى رجلا طويلا دفع فى صدره فوقع على ظهره ، فقال : علمت أنه ملك فأسلمت ، ونزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم) الآية ، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلق حربا ، وكانت مدة غيبته إحدى عشرة ليلة .

غزوة بحران

بفتح الموحدة وتضم وسكون الحاء المهملة ، وعبر عنها الحافظ الدمياطى بغزوة بنى سليم كما تقدم .

لما بلغه صلى الله عليه وسلم أن ببحران : موضع بالحجاز معروف ، بينه وبين المدينة ثمانية برد جمعا كثيرا من بنى سليم ، خرج فى ثلثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الأولى ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، أى ولم يظهر وجها للسير [ ] وأحث السير حتى بلغ بحران ، فوجدهم قد تفرقوا فى مياههم ، أى وكان صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إلى ذلك بليلة لقى رجلا من بنى سليم ، فأخبره أن القوم تفرقوا ، فحبسه مع رجل وسار إلى أن وجدهم كذلك ، فأطلق الرجل ، وأقام بذلك المحل أياما ، ثم رجع ولم يلق حربا ، وكانت غيبته عشر ليال .

وعلى مقتضى هذا السياق تبعا للأصل يكون غزا بنى سليم ثلاث مرات : مرة عقب بدر ، وهذه الغزوة ، وعزوة ذى أمر كانتا فى السنة الثالثة من الهجرة .

وفى تلك السنة التى هى الثالثة عقد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه على أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أختها رقية ، وتقدم وقت موتها .

وعقد صلى الله عليه وسلم على حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما ، وذلك فى شعبان لما انقضت عدة وفاة زوجها خنيس بن حذيفة من شهداء بدر ، بعد أن عرضها عمر على أبى بكر فلم يجبه لشىء ، وعرضها على عثمان فلم يجبه لشىء ، فقال عمر : يا رسول الله قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عنى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قد زوّج عثمان خيرا من ابنتك ، وزوج ابنتك خيرا من عثمان » فتزوج عثمان أم كلثوم ، وتزوّج صلى الله عليه وسلم حفصة .

وتزوّج أيضا صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة فى رمضان . وتزوّج زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب فى تلك السنة .

وقيل تزوّجها فى السنة الرابعة ، وصححها فى الأصل . وقيل فى الخامسة ، وكان اسمها برة بفتح الموحدة ، واسم أمها برة بضمها ، فغير صلى الله عليه وسلم اسمها وسماها زينب ، وقال لها صلى الله عليه وسلم « لوكان أبوك مسلما لسميناه باسم رجل منا ، ولكن قد سميته جحشا » أى والجحش فى اللغة السيد .

وقدكان صلى الله عليه وسلم جاء إليها ليخطبها لمولاه زيد بن حارثة ، فقالت : لسته بناكحته ، قال : بل فانكحيه ، قالت : يا رسول الله أؤامر : أى أشاور نفسى فإنى خير منه حسبا ، فأنزل الله تعالى (وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الآية ، فقالت عند ذلك رضيت .

وفى وراية أنها وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فزوّجها من زيد ، فسخطت هى وأخوها ، وقالا: إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوّجها عبده فنزلت الآية .

أى وعن مقاتل « أن زيد بن حارثة لما أراد أن يتزوّج زينب جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله اخطب على ؟ قال له : من ؟ قال : زينب بنت جحش ، فقال له : لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نسبا ، فقال : يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس علىّ فعلت ، قال : إنها امرأة لسناء » أى فصيحة ، والمراد لسانها

طويل ، فذهب زيد إلى على رضى الله تعالى عنه ، فحمله على أن يكلم له النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلق معه علىّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فقال : إنى فاعل ذلك ومرسلك يا على إلى أهلها لتكلمهم ففعل ، ثم عاد فأخبره بكراهتها وكراهة أخيها لذلك فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم يقول : قد رضيته لكم ، وأقضى أن تنكحوه ، فانكحوه ، وساق إليهم عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من التمر أعطاه ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بعد ذلك جاء صلى الله عليه وسلم بيت زيد يطلبه فلم يجده ، فتقدمت إليه زينب ، فأعرض عنها ، فقالت له : ليس هو هنا يا رسول الله فادخل ، فأبى أن يدخل وأعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لأن الريح رفعت الستر فنظر إليها من غير قصد، فوقعت فى نفسه صلى الله عليه وسلم ، فرجع وهو يقول « سبحان مصرّف القلوب » وفى رواية « مقلب القلوب » وسمعته زينب يقول ذلك ، فلما جاء زيد أخبرته الخبر ، فجاء إليه صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها لك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك زوجك ، فما استطاع زيد إليها سبيلا بعد ذلك اليوم ، أى فلم يستطع أن يغشاها من حين رآها صلى الله عليه وسلم إلى أن طلقها .

فعنها رضى الله تعالى عنها : لما وقعت فى قلب النبي صلى الله عليه وسلم لم يستطعنى زيد وما امتنعت منه ، وصرف الله تعالى قلبه عنى ، وجاءه يوما وقال له : يا رسول الله إن زينب اشتدّ علىّ لسانها وأنا أريد أن أطلقها ، فقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك ، فقال : استطالت علىّ ، فقال له إذن طلقها فطلقها . فلما انقضت عدّتها أرسل زيدا لها فقال له اذهب فاذكرها علىّ فانطلق ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى ، فقلت : يا زينب أبشرى أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى : أى أستخيره . فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس يتحدّث مع عائشة إذ نزل عليه الوحى بأن الله زوّجه زينب ، فسرّى عنه وهو يبتسم ، وهو يقول : من يذهب إلى زينب فيبشرها أن الله زوجنيها من السماء ؟ وجاء إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، قالت : دخل علىّ وأنا مكشوفة الشعر ، فقلت : يا رسول الله بلا خطبة ولا إشهاد ؛ قال : الله المزوج ، وجبريل الشاهد ، أى وأنزل الله تعالى (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) الآية ، فهذه

الآية نزلت فى زيد رضى الله عنه وقد قالها صلى الله عليه وسلم فى حق ولده أسامة ، فقد جاء « أحب أهلى إلىّ من أنعم الله وأنعمت عليه أسامة بن زيد وعلى بن أبى طالب » فنعمة الله على زيد وعلى ولده أسامة الإسلام . ونعمة النبى صلى الله عليه وسلم عليهما العتق ، لأن عتق أبيه عتق له تأمل .

وإنما توجه هذا العتب أى لأن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه صلى الله عليه وسلم ، فلما شكا إليه زيد قال له (أمسك عليك زوجك واتق الله) وأخفى منه فى نفسه ما الله مبديه ومظهره ، وهو ما أعلمه الله به من أنك ستتزوّجها ، فالذى أخفاه ما كان الله أعلمه به (وتخشى الناس) أى اليهود والمنافقين أن يقولوا تزوج امرأة ابنه (والله أحق أن تخشاه) فى إمضاء ما أحبه ورضيه لك وأعطاك إياه .

وقد جعل الله تعالى طلاق زيد لها وتزوّج النبى صلى الله عليه وسلم إياها لإزالة حرمة التبنى . قال تعالى (لئلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم) . وأولم صلى الله عليه وسلم عليها بما لم يولم به على نسائه وذبح شاة وأطعم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدّثون فى البيت بعد الطعام ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ففى البخارى « فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون » وفى البخارى أيضا « فخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، فقالت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ، ثم دخل حجر نسائه كلهنّ يقول كما قال لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم فوجد القوم فى البيت يتحدثون قال أنس رضى الله تعالى عنه : وكان النبى صلى الله عليه وسلم شديد الحياء ، فخرج فطلبها إلى حجرة عائشة ، فأخبر أن القوم خرجوا ، فرجع حتى وضع رجله فى أسكفة البيت داخله وأخرى خارجه أرخى الستر بينى وبينه فنزلت آية الحجاب » . قال فى الكشاف وهى أدب أدب الله تعالى به الثقلاء .

وفى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « خرجت سودة بعد ما ضرب علينا الحجاب تقضى حاجتها أى بالمناصع : محل كان أزواجه صلى الله عليه وسلم يخرجن إليه بالليل للتبرز ، وكانت امرأة جسيمة ، فرآها عمر بن الخطاب ، فقال : ياسودة والله ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين ، فانكفأت راجعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم

فى بيتى ليتعشى وفى يده عرق ، فدخلت ، فقالت : يارسول الله إنى خرجت ، فقال لى عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله تعالى إليه ، ثم رفع عنه وإن العرق فى يده ماوضعه ، فقال : إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن » وكان قول عمر لسودة ماذكر حرصا على أن ينزل الحجاب . قالت عائشة رضى الله تعالى عنها ، فأنزل الله الحجاب ، وفيه أنه تقدم عنها أن قول عمر لسودة كان بعد أن ضرب .

وقد يقال المراد بالحجاب هنا عدم خروجهن للبراز فلا ترى أشخاصهن ، والحجاب المتقدم عدم رؤية شيء من أبدانهن فلا مخالفة فليتأمل .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « دخلت على زينب بنت جحش وعندى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليه ، فقالت له : ماكل واحدة منا عندك إلا على خلاء : أى على ما أردت ، ثم أقبلت على تسبنى فردعها النبى صلى الله عليه وسلم فلم تنته ، فقال لى سبيها فسببتها وكنت أطول لسانا منها حتى جف ريقها فى فمها ، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سرورا » أى وفى يوم غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على زينب لقولها فى صفية بنت حيي : تلك اليهودية ، فهجرها لذلك ذا الحجة والمحرم وبعض صفر ، ثم أتاها بعد وعاد إلى ماكان عليه معها .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت « أرسل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم تستأذن والنبى صلى الله عليه وسلم معى ، فأذن لها فدخلت عليه ، فقالت : يارسول الله إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة » أى أن تعدل بينهن وبينها « فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أى بنية ألست تحبين ما أحب ؟ فقالت بلى ، قال فأحبى هذه يعنينى ، فقامت فاطمة فخرجت فجاءت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فحدثتهن بما قالت وبما قال لها فقلن لها : ما أغنيت عنا من شيء ، فارجعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله لا أكلمه فيها أبدا . فأرسل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش فاستأذنت عليه وهو فى بيت عائشة فأذن لها ، فدخلت فقالت : يارسول الله أرسلنى أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، ثم وقعت : أى زينب بى تسمعنى ما أكره ، فطفقت أنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم حتى يأذن لى فيها ، فلم أزل حتى عرفت أن النبى صلى الله عليه وسلم لايكره

أن أنتصر ، فوقعت بها أسمعها ما تكره ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وقال لها : إنها ابنة أبى بكر » أى محل الفصاحة والشهامة .

وسبب ذلك أى طلبهن أن يعدل بينهن وبين عائشة أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

غزوة أحد

وكانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور . وشذ من قال سنة أربع . وأحد جبل من جبال المدينة ، قيل سمى بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال التى هناك ، وهذا الجبل يقصد لزيارة سيدنا حمزة ومن فيه من الشهداء . وهو على نحو ميلين ، وقيل على ثلاثة أميال من المدينة ؛ يقال إن فيه قبر هارون أخى موسى عليهما الصلاة والسلام ، وفيه قبض ، فواراه موسى فيه . وكانا قدما حاجين أو معتمرين .

وعن ابن دحية أن هذا باطل بيقين ، وأن نص التوراة أنه دفن بجبل من جبال بعض مدن الشام .

وقد يقال لا مخالفة ، لأنه يقال المدينة شامية ، وقيل دفن بالتيه هو وأخوه موسى عليهما الصلاة والسلام كما تقدم .

قال صلى الله عليه وسلم « إن أحدا هذا جبل يحبنا ونحبه ، إذا مررتم به فكلوا من شجره ولو من عضاهه » أى وهى كل شجرة عظيمة لها شوك . والقصد الحث على عدم إهمال الأكل من شجره تبركا به .

وقال صلى الله عليه وسلم « أحد ركن من أركان الجنة » أى جانب عظيم من جوانبها وفى رواية « على باب من أبواب الجنة » ولا يخالف ماقبله ، فإنه جاز أن يكون ركنا بجانب الباب . وفى رواية « جبل من جبال الجنة » ولا مانع أن تكون المحبة من الجبل على حقيقتها ، وضع الحب فيه كما وضع التسبيح فى الجبال المسبحة مع داود عليه السلام ، وكما وضعت الخشية فى الحجارة التى قال الله فيها (وإن منها لما يهبط من خشية الله) .

وقيل هو على حذف مضاف : أى يحبنا أهله وهم الأنصار . أو لأن اسمه مشتق من الأحدية ، وأخذ من هذا أنه أفضل الجبال . وقيل أفضلها عرفة . وقيل أبوقبيس وقيل الذى كلم الله عليه موسى . وقيل قاف .

ولما أصاب قريشا يوم بدر ما أصابها مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية رضي الله تعالى عنهم، فإنهم أسلموا بعد ذلك، ورجال أخر من أشراف قريش إلى أبي سفيان رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك أيضا، وإلى من كان له تجارة في تلك العير : أي التي كان سببها وقعة بدر، وكانت تلك العير موقوفة في دار الندوة لم تعط لأربابها، فقالوا : إن محمدا قد وتركم : أي قتل رجالكم ولم تدركوا دماءهم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً عمن أصاب منا : أي وقالوا نحن طيبو النفوس أن تجهزوا بربح هذه العير جيشا إلى محمد، فقال أبو سفيان : وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي فجعلوا لذلك ربح المال، فسلم لأهل العير رءوس أموالهم وكانت خمسين ألف دينار، وأخرجوا أرباحها وكان الربح لكل دينار دينارا أي فكان الذي أخرج خمسين ألف دينار. وقيل أخرجوا خمسة وعشرين ألف دينار، وأنزل الله تعالى في تلك (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون).

وتجهزت قريش ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة. وقال صفوان بن أمية لأبي عزة، يا أبا عزة إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك، ولك علي إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فقال : إن محمدا قد منّ عليّ أي وأخذ علي أن لا أظاهر عليه أحدا حين أطلقني وأنا أسير في أسارى بدر فلا أريد أن أظاهر عليه، قال بلى فأعنا بلسانك.

فخرج أبو عزة ومسافع يستنفران الناس بأشعارهما. فأما مسافع فلا يعلم له إسلام، لكن في كلام ابن عبد البر : مسافع بن عياض بن صخر القرشي التيمي له صحبة، وكان شاعرا لم يرو شيئا ولا أدري هل هو هذا أو غيره. وأما أبو عزة فظفر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الوقعة بحمراء الأسد : أي المكان المعروف الآتي بيانه قريبا، وتقدم استطرادا، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عاصم بن ثابت فضرب عنقه وحملت رأسه إلى المدينة كما سيأتي، وتقدم استطرادا.

ودعا جبير بن مطعم بن عدي رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك غلاما له حبشيا يقال له وحشي رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك، وكان يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطىء بها، فقال له : اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة

ابن عدي فأنت عتيق ، أي لأن حمزة هو القاتل له . وقيل وحشي كان غلاما لطعيمة ، وإن ابنة سيده طعيمة قالت له : إن قتلت محمدا أو حمزة أو عليا في أبي فإني لا أدري في القوم كفؤا له غيرهم فأنت عتيق ، وخرج معهم النساء بالدفوف .

وفي كلام سبط بن الجوزي : وساروا بالقيان والدفوف والمعازف والخمور والبغايا ، هذا كلامه . وخرج من نساء قريش خمس عشرة امرأة : أي مع أزواجهن . ومنهن هند زوج أبي سفيان رضي الله تعالى عنها ، فإنها أسلمت بعد ذلك . أي وأم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة رضي الله تعالى عنهما ، فإنهما أسلما بعد ذلك ، وسلافة مع زوجها طلحة ابن أبي طلحة ، وأم مصعب بن عمير يبكين قتلى بدر وينحن عليهم ، يحرضنهم على القتال ، وعدم الهزيمة والفرار . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أرسل به إليه عمه العباس ، أي بعد أن راودوه على الخروج معهم ، فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ولم يساعدهم بشيء ، وذلك في كتاب جاء إليه صلى الله عليه وسلم وهو بقباء ، أرسله العباس مع رجل استأجره من بني غفار وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل كذلك ، فلما جاءه الكتاب فك ختمه ودفعه لأبي فقرأه عليه أبي بن كعب واستكتم أبيا ، ونزل صلى الله عليه وسلم على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس ، أي فقال : والله إني لأرجو أن يكون خيرا . فاستكتمه إياه ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده قالت له امرأته : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لها : لا أم لك وأنت وذاك ؟ فقالت : قد سمعت ما قال وأخبرته بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاسترجع وأخذ بيدها ولحقه صلى الله عليه وسلم فأخبره خبرها وقال : يا رسول الله إني خفت أن يفشو الخبر فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إياه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنها [ ] .

وسارت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل . وقال بعض الحفاظ جمع أبو سفيان قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش ، وخرج معه أبو عامر الراهب في سبعين فارسا من الأوس . قال في الأصل : والأحابيش الذين حالفوا قريشا ، وهم : بنو المصطلق وبنو الهون ابن خزيمة ، اجتمعوا عند حبشي ، وهو جبل بأسفل مكة ، وتحالفوا على أنهم مع قريش يدا واحدة على غيرهم ماسجى ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشي مكانه ، فسموا أحابيش باسم الجبل . وقيل سموا بذلك لتحبشهم : أي تجمعهم ، وفيهم مائتا فارس أي وثلاثة

آلاف بعير وسبعمائة دارع حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة : أى وهـو ميقات أهل المدينة الذى يحرمون منه ، أى وأرجفت اليهود والمنافقون ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينين له : أى جاسوسين فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم .

ويقال إن عمرو بن سالم الخزاعى مع نفر من خزاعة فارقوا قريشا من ذى طوى وجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبرهم وانصرفوا . ولما وصلوا : أى كفار قريش ومن معهم للأبواء أرادوا نبش قبر أمه صلى الله عليه وسلم ، والمشير عليهم بذلك هند بنت عتبة زوج أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما ، فقالت : لو بحثتم قبر أم محمد فإن أسر منكم أحدا فديتم كل إنسان بأرب من آرابها : أى جزء من أجزائها ، فقال بعض قريش : لا يفتح هـذا الباب وإلا نبش بنو بكر موتانا عند مجيئهم ، وحرست المدينة ، وبات سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة وعليهم السلاح فى المسجد بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبحوا .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا قال : «رأيت البارحة فى منامى خيرا رأيت بقرا تذبح ، ورأيت فى ذبابة سيفى : أى وهو ذو الفقار «ثلما» بإسكان اللام . وفى لفظ «وكأن ظبة سيفى انكسرت» وفى لفظ «ورأيت سيفى ذا الفقار انفصم من عند ظبته فكرهته ، وهما مصيبتان . ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة» وفى رواية «ورأيت أنى فى درع حصينة أى وأنى مردف كبشا . قال صلى الله عليه وسـلم بعد أن قيل له ما أولتها ؟ قال : قال : فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون» وفى لفظ «أولت البقر بقرا يكون فينا . وأما الثلم الذى رأيت فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى» أى وفى رواية «من عترتى يقتل» وفى رواية «رأيت أن سيفى ذا الفقار فلّ ، فأولته فلا فيكم» أى وفلول السيف كسور فى حده ، وقد حصل فى حد سيفه كسور ، وحصل انفصام ظبته وذهابها فكان ذلك علامة على وجود الأمرين . وأما الدرع الحصينة فالمدينة : أى وأما الكبش فإنى أقتل كبش القوم : أى حاميهم وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها ، أى فأنا أعلم بها منهم وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، فهى كالحصن ، وكان ذلك رأى أكابر المهاجرين والأنصار . قال : ووافق على ذلك عبد الله ابن أبى سلول ، أى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل يستشيره ولم يستشره قبل

ذلك ، قال : يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهمْ ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا اهـ .

وهذا هو الظاهر خلافا لما ذكره بعضهم من أنه صلى الله عليه وسلم دعا عبدالله بن أبى ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره ، فقال : يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكالب ، إذ لايناسب ذلك ما يأتى عنه من رجوعه وقوله خالفنى الخ ، وإنما قال ذلك رجل من المسلمين ممن أكرمه الله بالشهادة يوم أحد . وقال رجال : أى غالبهم أحداث أحبوا لقاء العدوّ [ ] وغالبهم ممن أسف على ما فاته من مشهد بدر ، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرونا أنا جبنا عنهم وضعفنا ، أى فيكون ذلك جراءة منهم علينا ، والله لا نطيع العرب فى أن تدخل علينا منازلنا .

وفى لفظ أن الأنصار قالوا : يارسول الله ماغلبنا عدو لنا أتانا فى دارنا أى فى ناحيةمن نواحيها فكيف وأنت فينا ووافقهم على ذلك حمزة بن عبد المطلب . وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : والذى أنزل عليك الكتاب لاأطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم كاره للخروج ، فلم يزالوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافق على ذلك ، فصلى الجمعة بالناس ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصرة ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم ، ففرح الناس بذلك ، ثم صلىّ بالناس العصر وقد حشدوا : أى اجتمعوا ، وقد حضر أهل العوالى ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته ومعه أبوبكر وعمر رضى الله عنهما فعمماه وألبساه ، وصف الناس ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردّوا الأمر إليه ، أى فما أمركم به وما رأيتم له فيه هوى ورأيا فأطيعوه [] فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لبس لأمته [ ] وظاهر بين درعين [ ] أى لبس درعا فوق درع ، وهما : ذات الفضول ، وفضة التى أصابها من بنى قينقاع كما تقدم ، وذات الفضول هذه هى التى أرسلهاإليه صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة رضى الله عنه حين سار إلى بدر ، وهى التى مات صلى الله عليه وسلم عنها وهى مرهونة عند اليهودى ، وافتكها أبو بكر رضى الله عنه ، وأظهر الدرع وحزم

وسطها بمنطقة من أدم من حمائل سيفه صلى الله عليه وسلم : وأنكر الإمام أبو العباس ابن تيمية أنه صلى الله عليه وسلم تمنطق حيث قال : لم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم شد وسطه بمنطقة .

وقد يقال : مراد ابن تيمية المنطقة المعروفة وليس هذا منها . وفيه رد على بعضهم في قوله : كان له صلى الله عليه وسلم منطقة من أدم فيها ثلاث حلق من فضة ، والطرف من فضة .

وقد يقال : لايلزم من كونه له منطقة أن يكون تمنطق بها فليتأمل .

وتقلد صلى الله عليه وسلم السيف ، وألقى الترس في ظهره ، أي وفي رواية : فركب صلى الله عليه وسلم فرسه السكب ، وتقلد القوس ، وأخذ قناته بيده ، أي ولامانع أن يكون جمع بين ذلك ، فقالوا له : ماكان لنا أن نخالفك . ولا نستكرهك على الخروج فاصنع ما شئت . وفي رواية : فان شئت فاقعد ، أي وقال : قد دعوتكم إلى القعود فأبيتم وما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، أي وفي رواية : حتى يقاتل .

وأخذ منه أنه يحرم على النبي نزع لأمته إذا لبسها حتى يلحق العدو ويقاتل ، وبه قال أئمتنا : أي وقيل إنه مكروه واستبعد . وقوله صلى الله عليه وسلم «ومايبنغي لنبي» يقتضي أن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثله في ذلك ، أي لأن نزع ذلك يشعر بالجبن ، وذلك ممتنع على الأنبياء صلى الله وسلم عليهم قاله في النور .

وما اختص به من المحرمات فهو مكروه له ، لأن المحرم في المنهيات كالواجب في المأمورات .

وعقد صلى الله عليه وسلم ثلاثة ألوية : لواء للأوس وكان بيد أسيد بن حضير ، ولواء للمهاجرين وكان بيد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقيل بيد مصعب بن عمير ، أي لأنه كما قيل لما سئل عمن يحمل لواء المشركين ؟ فقيل طلحة بن أبي طلحة : أي من بني عبد الدار ، فأخذه صلى الله عليه وسلم من علي ودفعه لمصعب بن عمير ، أي لأن مصعب ابن عمير من بني عبد الدار وهم أصحاب اللواء في الجاهلية كما تقدم ؛ وسيأتي . ولواء للخزرج . كان بيد الحباب بن المنذر ، وقيل بيد سعد بن عبادة .

وخرج في ألف ، وقيل تسعمائة ، ولعله تصحيف عن سبعمائة لما سيأتي أن عبد الله

ابن أبي ابن سلول رجع معه ثلاثمائة ، فبقي سبعمائة من أصحابه صلى الله عليه وسلم منهم مائة دارع . وخرج السعدان أمامه صلى الله عليه وسلم يعدوان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة دارعين . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، أى وسار إلى أن وصل رأس الثنية ، أى وعندها وجد كتيبة كبيرة ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول من يهود ، فقال : أسلموا ؟ فقيل لا ، فقال : إنا لاننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك فردهم : أى وهؤلاء اليهود غير حلفائه من بنى قينقاع ، فلايقال هذا إنما يأتى على أن إجلاء بنى قينقاع كان بعد أحد ، لأنهم هم حلفاؤه من يهود كما تقدّم ؛ لأنا نمنع انحصار حلفائه من يهود فى بنى قينقاع .

وسار صلى الله عليه وسلم وعسكر بالشيخين ، وهما أطمان : أى جبلان [] وعند ذلك عرض قومه فردّ جمعا : أى شبابا لم يرهم بلغوا خمس عشرة سنة ، بل أربع عشرة سنة ، كذا نقل عن إمامنا الشافعى رضى الله عنه ، ونقل عنه بعضهم أنه قال : لم يرهم بلغوا أربع عشرة سنة : منهم عبدالله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، خلافا لمن أنكر صحبته ، وعرابة هذا هو القائل فيه الشماخ :

رأيت عرابة الأوسىّ يسمو   إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

وأوس والده هو القائل فى يوم الأحزاب : إن بيوتنا عورة كما سيأتى ، وأبو سعيد الخدرى ، وسعد بن خيثمة رضى الله تعالى عنهم ، أى وزيد بن حارثة الأنصارى كان أبوه حارثة من المنافقين من أصحاب مسجد الضرار ، ورافع بن خديج ، وسمرة بن جندب .

ثم أجاز صلى الله عليه وسلم رافع بن خديج لما قيل له إنه رام ، وأصيب فى ذلك اليوم بسهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أشهد له يوم القيامة ، ومات فى زمن عبد الملك بن مروان لما نقض عليه ذلك الجرح ، وعند ماأجازه قال سمرة بن جندب لزوج أمه : أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن خديج وردنى وأنا أصرعه ، فأعلم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال تصارعا ، فصرع سمرة بن جندب رافعا فأجازه .

وممن رده صلى الله عليه وسلم يوم أحد لصغر سنه سعد ابن حبتة ، عرف بأمه حبتة ؛

فلما كان يوم الخندق رآه صلى الله عليه وسلم يقاتل قتالا شديدا فدعاه ومسح على رأسه ودعاله بالبركة فى ولده ونسله ؛ فكان عما لأربعين ، وخالا لأربعين ، وأبا لعشرين ، ومن ولده أبو يوسف صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهم ، وتقدم فى بدرأنه صلى الله عليه وسلم رد زيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم . وأسيد بن ظهير ، فما فرغ العرض إلا وقد غابت الشمس، فأذن بلال بالمغرب، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء فصلى بهم وبات، واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة فى خمسين رجلا يطوفون بالعسكر ، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وذكوان بن عبد قيس يحرسه لم يفارقه لما قال صلى الله عليه وسلم: من يحفظنا الليلة حتى كان السحر .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « لقد رأيت » أى فى النوم « الملائكة تغسل حمزة رضى الله عنه ، وأدلج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السحر فحانت صلاة الصبح بالشوط » حائط بين المدينة وأحد ، ومن ذلك المكان رجع عبدالله بن أبى ابن سلول ومن معه من أهل النفاق وهم ثلثمائة رجل ، وهو يقول: عصانى وأطاع الولدان ومن لا أرى له سيعلم ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس فرجعوا ، فتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام وهو والد جابر رضى الله عنهما، وكان فى الخزرج كعبد الله بن أبى يقول: ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا بضم الذال المعجمة : قومكم ونبيكم : أى تتركوا نصرتهم وإعانتهم عند ما حضر من عدوهم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أنه يكون قتالا وأبوا إلا الانصراف ، فقال لهم : أبعدكم الله أى أهلككم الله أعداء الله ، فسيغنى الله تعالى عنكم نبيه . وفيه أن قوله المذكور يخالف قوله علام نقتل أنفسنا ، إلا أن يقال على فرض أنه يقع قتالا ، علام نقتل أنفسنا .

فلما رجع عبد الله بن أبى ابن سلول بمن معه ، قالت طائفة : نقتلهم ، وقالت طائفة أخرى : لا نقتلهم وهما أن يقتتلا ، والطائفتان هما بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج ، فأنزل الله تعالى (فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم) أى ردهم إلى كفرهم بما كسبوا .

وفى كلام سبط ابن الجوزى : ولما رأى بنو سلمة وبنو حارثة عبد الله بن أبى قد خذل ، هموا بالانصراف وكانوا جناحين من العسكر ثم عصمهما الله ، وأنزل قوله تعالى (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) الآية فبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعمائة رجل.

ومن هذا يعلم مافى المواهب من قوله : ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالانصراف لكفرهم ، بمكان يقال له الشوط ، لأن الذين ردهم صلى الله عليه وسلم لكفرهم حلفاء عبد الله بن أبيّ ابن سلول من يهود ، وكان رجوعهم قبل الشوط . والذين رجع بهم عبد الله كانوا منافقين ، ورجوعه بهم كان من الشوط ، ولم يكن مع المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرس لأبى بردة . وقيل لم يكن معهم فرس ، أى وهذا القيل نقله فى [فتح البارى] عن موسى بن عقبة وأقرّه . وقالت الأنصار أى لما رجع ابن أبى : يارسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود : أى يهود المدينة ، ولعلهم عنوا بهم بنى قريظة ، لأن بنى قريظة من حلفاء سعد بن معاذ وهو سيد الأوس .

وقال بعضهم : كان فى الأنصار كأبى بكر فى المهاجرين ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لنا فيهم .

أقول : وحينئذ يكون المراد قالت طائفة من الأنصار وهم الأوس ولم يكونوا سمعوا قوله صلى الله عليه وسلم « إنا لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك » والله أعلم .

وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : من يخرج بنا على القوم من كثيب : أى من طريق قريب لايمرّ بنا عليهم ، فقال أبو خيثمة : أنا يارسول الله ، فنفذ به من حرة بنى حارثة وبين أموالهم حتى دخل فى حائط للمربع بن قيظى الحارثى وكان رجلا منافقا ضريرا فقام يحثى التراب ، أى فى وجوههم ، ويقول : إن كنت رسول الله فإنى لا أحل لك أن تدخل حائطى ، وفى يده حفنة من تراب وقال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يامحمد لضربت بها وجهك ، فابتدر إليه سعد بن زيد فضربه بالقوس فى رأسه فشجه ، وأراد القوم قتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، أى وغضب له ناس من بنى حارثة كانوا على مثل رأيه : أى منافقين لم يرجعوا مع من رجع مع عبد الله بن أبيّ ، فهمّ بهم أسيد بن حضير حتى أومأ أى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك ذلك [ ] ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد . قال : واستقبل المدينة ، وصف المسلمين فى جبل أحد : أى بعد أن بات به تلك الليلة ، وحانت الصلاة صلاة الصبح والمسلمون يرون المشركين فأذن بلال وأقام ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صفوفا ، وخطب خطبة حثهم فيها على الجهاد .

ومن جملة ما ذكر فيها « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا » . وفى رواية « إلا امرأة أو مسافر أو عبد أو مريض » بالرفع ، وعليها فالمستثنى محذوف : أى إلا أربعة . وما ذكر بدل منها ، قال « ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد ، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نفث : أى أوحى وألقى « فى روعى » بضم الراء أى قلبى « الروح الأمين » أى الذى هو جبريل « إنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا » أى أحسنوا « فى طلب الرزق ، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده والسلام عليكم » انتهى .

أى ولما أقبل خالد بن الوليد رضى الله عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ومعه عكرمة ابن أبى جهل رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك كما تقدم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام وقال له : استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه ، وأمر بخيل أخرى فكانوا من جانب آخر ، ولعل المراد وأمر جماعة بأن يكونوا بإزاء خيل أخرى للمشركين ، لأنه تقدم أنه لم يكن معهم إلا فرس أو إلا فرسان .

أى وما وقع فى الهدى أن الفرسان من المسلمين يوم أحد كانوا خمسين رجلا سبق قلم وقال : لا تبرحوا حتى أوذنكم وقال ، لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال ، وكان الرماة خمسين رجلا ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال : انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا .

أى وفى رواية « إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » زاد فى رواية « وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا » . قال وفى رواية أنه قال : أى للرماة « الزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل فى عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا وارشقوهم بالنبل . فإن الخيل لا تقدم على النبل ، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللهم إنى أشهدك عليهم » انتهى .

وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا أى وكان مكتوبا فى إحدى صفحتيه .

في الجبن عار وفي الإقبال مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر .

وقال « من يأخذ هذا السيف بحقه ، فقام إليه رجال فأمسكه عنهم من جملتهم على رضى الله تعالى عنه قام ليأخذه ، فقال : اجلس ، وعمر رضى الله تعالى عنه فأعرض عنه والزبير رضى الله تعالى عنه ، أى وطلبه ثلاث مرات ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه [ ] حتى قام إليه أبو دجانة وقال : ما حقه يارسول الله ؟ قال تضرب به في وجه العدو حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه بحقه ، فدفعه إليه وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب » أى يمشى مشية المتكبر « وحين رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبختر بين الصفين قال : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » أى لأن فيها دليلا على عدم الاكتراث بالعدو .

وعند اصطفاف القوم نادى أبو سفيان بن حرب : يا معشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم ، فشتموه أقبح شتم ، ولعنوه أشد اللعن. قال : وخرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للبراز ، فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثا، فقام إليه الزبير ، فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه ، فاقتتلا فوق البعير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الذى يلى حضيض الأرض مقتول ، فوقع المشرك ، فوقع عليه الزبير فذبحه ، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لكل نبى حوارى ، وإن حوارى الزبير » وقال صلى الله عليه وسلم « لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه » لما رأى من إحجام الناس عنه انتهى .

وخرج رجل من المشركين بين الصفين ، أى وهو طلحة بن أبى طلحة ، وأبو طلحة والده اسمه عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، وكان بيده لواء المشركين لأن بنى عبد الدار كانوا أصحاب لواء المشركين ، لأن اللواء كان لوالدهم عبد الدار كما تقدم . وطلب طلحة المبارزة مرارا فلم يخرج إليه أحد . فقال : ياأصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار . وفى رواية قال : يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار ؟ أو أعجله بسيفى إلى الجنة كذبتم ، واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم ، فخرج إليه على بن أبى طالب فاختلفا ضربتين ، فقتله على رضى الله تعالى عنه .

أى وفى رواية : فالتقيا بين الصفين فبدره على فصرعه أى قطع رجله ووقع على

الأرض وبدت عورته . فقال : يابن عمي أنشدك الله والرحم ، فرجع عنه ولم يجهز عليه . فقال له بعض أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعورته فعطفني عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

وفي رواية قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنعك أن تجهز عليه؟ فقال: ناشدني الله والرحم ، فقال : اقتله ، فقتله» .

أي ووقع لسيدنا علي كرم الله وجهه مثل ذلك في يوم صفين مرتين : الأولى حمل على بسر بن أرطاة ، فلما رأى أنه مقتول كشف عن عورته ، فانصرف عنه . والثانية حمل على عمرو بن العاص ، فلما رأى أنه مقتول كشف عن عورته فانصرف عنه علي كرّم الله وجهه [ ] .

فأخذ لواء المشركين أخو طلحة وهو عثمان بن أبي طلحة ، وعثمان هذا هو أبو شيبة الذي ينسب إليه الشيبيون فيقال بني شيبة ، فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره ، فرجع حمزة وهو يقول : أنا ابن ساقي الحجيج يعني عبد المطلب ، فأخذه أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبي طلحة ؛ فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فقتله ، فحمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة الذي قتله علي رضي الله تعالى عنه ، فرماه عاصم ابن ثابت بن أبي الأفلح فقتله ، ثم حمله أخو مسافع وهو الحرث بن طلحة ، فرماه عاصم فقتله ، أي فكانت أمهما وهي سلافة معهما ، وكل واحد منهما بعد أن رماه عاصم يأتي أمه ويضع رأسه في حجرها فتقول له : يابني من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلا حين رماني يقول : خذها وأنا ابن أبي الأفلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وجعلت لمن جاء برأسه مائة من الإبل .

وسيأتي مقتل عاصم في سرية الرجيع ، فحمله أخو مسافع وأخو الحرث وهو كلاب ابن طلحة ، فقتله الزبير ، أي وقيل قزمان ، فحمله أخوهم وهو الجلاس بن طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله ، فكل من مسافع والحرث وكلاب والجلاس الأربعة أولاد طلحة بن أبي طلحة كل قتل كأبيهم طلحة ؛ وعميهم وهما عثمان وأبو سعيد .

وعند ذلك حمله أرطاة بن شرحبيل ، فقتله علي بن أبي طالب ، وقيل حمزة ، فحمله شريح بن قارظ ، فقتل أي ولم يعرف قاتله ، ثم حمله أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف

ابن هاشم بن عبد الدار ، فقتله قزمان ، فحمله ولد لشرحبيل بن هاشم ، فقتله قزمان أيضا ، ثم حمله صواب غلامهم : أى وكان حبشيا ، فقاتل حتى قطعت يده ثم برك عليه فأخذه لصدره وعنقه حتى قتل عليه : أى قتله قزمان . وقيل القاتل له سعد بن أبى وقاص وقيل على .

وقد كان أبو سفيان قال لأصحاب اللواء : أى لواء المشركين من بنى عبد الدار يحرضهم على القتال : يابنى عبد الدار ، إنكم تركتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ماقد رأيتم ، وإنما تؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟ وذلك الذى أراد أبو سفيان .

قال ابن قتيبة : ويقال إن هذه الآية نزلت فى بنى عبد الدار (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون) .

ولما صرع صاحب لواء المشركين : أى الذى هو طلحة بن أبى طلحة استبشر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه : أى لأنه كبش الكتيبة أى الجيش : أى حاميهم الذى رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى رؤياه المتقدمة أنه مردفا كبشا وقال : أوّلت ذلك أنى أقتل كبش الكتيبة ، فهذا كبش الكتيبة .

وعند وجود ماذكر من قتل أصحاب اللواء صاروا كتائب متفرقة ، فجاس المسلمون فيهم ضربا حتى أجهضوهم : أى أزالوهم عن أثقالهم ، أى وكان شعار المسلمين يومئذ : أمت أمت ، وشعار الكفار : ياللعزى ، وهى شجرة كانوا يعبدونها : يالهبل ، وهو صنم كان داخل الكعبة منصوبا على بئر هناك ، وسيأتى فى فتح مكة أنه كان خارجها بجانب الباب . وقد يقال : لامنافاة لأنه يجوز أن يكون فى أوّل الأمر كان داخل الكعبة ثم أخرج منها وجعل بجانبها [ ] .

أى ... خرج عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، فقال : من يبارز ؟ فنهض إليه أبو بكر شاهرا سيفه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم شم سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك ، وتقدم طلب عبد الرحمن للمبارزة أيضا فى يوم بدر ، وتقدم عن ابن مسعود أن الصديق دعا ابنه يعنى عبد الرحمن يوم أحد الى البراز *

وهو يخالف ماهنا إلا أن يقال إنه هنا يجوز وقوع كل من الأمرين : أى طلب المبارزة من الصدّيق لولده عبد الرحمن ، وطلب المبارزة من عبد الرحمن لوالده الصديق .

وقد وقع للصديق رضى الله تعالى عنه أن العرب لما ارتدت بعد موته صلى الله عليه وسلم خرج مع الجيش شاهرا سيفه ، فأخذ على رضى الله تعالى عنه بزمام راحلته وقال له : إلى أين ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أقول لك كما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : شم سيفك ، ولاتفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة ، فوالله لئن فجعنا بك لايكون للإسلام نظام أبدا ، فرجع وأمضى الجيش .

وفى أول الأمر حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات ، كل ذلك تنضح بالنبل فترجع مفلولة أى بالفاء متفرقة ، وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم : أى أضعفوهم قتلا ، فلما التقى الناس وحميت الحرب قامت هند فى النسوة اللاتى معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويقلن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

وويها : كلمة إغراء وتحريض ، كما تقول : دونك يافلان. والأدبار: الأعقاب ، أى الذين يحمون أعقاب الناس ، والبتار : السيف القاطع ، ويقلن :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
مشى القطا النوازق(١) والمسك فى المفارق
والدر فى المخانق إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

(١) (أى الخفاف)

والطارق : النجم ، قال تعالى (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) قيل هو زحل : أى نحن بنات من بلغ العلو وارتفاع القدر كالنجم. واعترض بأنها لو أرادت النجم لقالت : نحن بنات الطارق .

ثم رأيت أن هذا الرجز لهند بنت طارق ، وحينئذ فليس المراد بطارق النجم ، وإنما هو الرجل المعروف ، كأنها قالت نحن بنات طارق المعروف بالعلو والشرف .

وعن بعضهم قال : جلست بمكة وراء الضحاك ، فسئل عن قول هند يوم أحد :

نحن بنات طارق ، ما طارق ؟ فقلت : هو النجم ، فقال لى : كيف ذلك ؟ فقلت له : قال الله تعالى (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق) والنمارق : الوسائد الصغار .

والمراد نفرش ماتجعل عليه الوسائد مع جعلها عليه ، والوامق المحب ، أى فراق غير محب ، لأن غير المحب لايرجع إذا غضب ، بخلاف المحب . ومن ثم قيل : غضب المحب فى الظاهر مهابة سيف ، وفى الباطن كسحابة صيف .

قال : وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع ذلك : أى تحريض هند بما ذكر يقول « اللهم بك أحول » بالحاء المهملة ، أى أمنع « وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبى الله ونعم الوكيل » انتهى .

أى وفى رواية « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقى العدو قال : اللهم بك أصاول ؛ وبك أحاول » أى أطالب .

وقاتل أبو دجانة حتى أمعن فى الناس . فعن الزبير قال : وجدت ، أى غضبت « فى نفسى حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف : أى الذى قال فيه : من يأخذه بحقه ثلاث مرات وأنا ابن عمته ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، فقلت : والله لأنظرن مايصنع فاتبعته فأخذ عصابة حمراء : أى أخرجها من ساق خفه وكان مكتوبا على أحد طرفيها (نصر من الله وفتح قريب) وفى طرفها الآخر : الجبانة فى الحرب عار ، ومن فرّ لم ينج من النار ، فعصب بها رأسه فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، أى لأنهم كانوا يقولون ذلك إذا تعصب بها ، فجعل لايلقى أحدا إلا قتله أى وكان إذا كلّ ذلك السيف يشحذه : أى يحده بالحجارة ، ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل ، وكان رجل من المشركين لايدع لنا جريحا إلا ذفف عليه : أى أسرع قتله فدعوت الله أن يجمع بينه وبين أبى دجانة ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاها بدرقته فعضت الدرقة على سيفه وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند : أى بنت عتبة زوج أبى سفيان وقيل غيرها ثم رد السيف عنها .

قال أبو دجانة : رأيت إنسانا يحمس الناس : أى بالسين المهملة حمسا شديدا : أى يشجعهم ، وبالشين المعجمة : يوقد الحرب ويثيرها ، فعمدت إليه ، فلما حملت عليه بالسيف ولول : أى دعا بالويل : أى قال : ياويلاه ، فعلمت أنه امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالا شديدا ، ومرّ به سباع بن عبد العزى، فقال له حمزة: هلم أى أقبل ، يا ابن مقطعة البظور ، لأن أمه أم أنمار مولاة شريق والد الأخنس كانت ختانة بمكة .

. أى وفى البخارى « ياسباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور ، أتحادّ الله ورسوله ؟ » أى تحاربهما وتعاندهما .

وفيه أنهم لما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال : هل من مبارز ، فخرج إليه حمزة ، فشدّ عليه ، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله . وفى رواية : فكان كأمس الذاهب . أى وكان تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة .

وفيه أنه سيأتى عن الأصل : وقتل من كفار قريش يوم أحد ثلاثة وعشرين رجلا ، وأكب حمزة عليه ليأخذ درعه . قال وحشى غلام جبير بن مطعم : إنى لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه يهد بالدال المهملة : يهدم وبالذال المعجمة : يقطع . أى وقد عثر حمزة ، فانكشف الدرع عن بطنه فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته بالمثلثة : وهو موضع تحت السرة وفوق العانة . وفى لفظ : فندرته حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوى فغلب فوقع ، فأمهلته حتى إذا مات جئته فأخذت حربتى ، ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم يكن لى فى شىء حاجة غيره .

أى وفى لفظ آخر : كان حمزة يقاتل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيفين وهو يقول : أنا أسد الله ، فبينا هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره ، فانكشفت الدرع عن بطنه ، فطعنه وحشى الحبشى بحربته .

ثم لما قتل أصحاب لواء المشركين واحدا بعد واحد ، ولم يقدر أحد يدنو منه ، انهزم المشركون وولوا لايلوون على شىء ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد فرحهم وضربهم بالدفوف وألقين الدفوف ، وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن ثيابهنّ ، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم ، ففارقت الرماة محلهم الذى أمرهم صلى الله عليه وسلم أن لا يفارقوه ، ونهاهم أميرهم عبد الله بن جبير ، فقالوا له : انهزم المشركون فما مقامنا ههنا ؟ وانطلقوا ينتهبون . وثبت عبد الله بن جبير مكانه وثبت معه دون العشرة وقال : لا أجاوز أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل من الرماة وقلة من به منهم ، فكرّ بالخيل ومعه عكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنهما

فإنهما أسلما بعد ذلك ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير أى ومثلوا به . ومن كثرة طعنه بالرماح خرجت حشوته. وأحاطوا بالمسلمين . فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والأسر ، إذ دخلت خيول المشركين تنادى فرسانها [ ] بشعارها : ياللعزى ياهبل ، ووضعوا السيوف فى المسلمين وهم آمنون . وتفرقت المسلمون فى كل وجه وتركوا ما انتهبوا ، وخلوا من أسروا ، وانتقضت صفوف المسلمين ، واختلط المسلمون وصار يضرب بعضهم بعضا من غير شعار : أى من غير أن يأتوا بما كانوا ينادون به فى الحرب يتعارفون به فى ظلمة الليل ، وعند الاختلاط وهو : أمت أمت مما أصابهم من الدهش والحيرة ، ولم يزل لواء المشركين ملقى حتى أخذته عمرة بنت علقمة ورفعته لهم ، فلاثوا ، أى بالمثلثة : استداروا به واجتمعوا عنده ، ونادى ابن قمئة بفتح القاف وكسر الميم وبعدها همزة إن محمدا قد قتل . وقيل المنادى بذلك إبليس : أى متمثلا بصورة جعال أو جعيل ابن سراقة ، وكان رجلا صالحا ممن أسلم قديما ، وكان من أهل الصفة . قيل وهو الذى غير النبى صلى الله عليه وسلم اسمه يوم الخندق وسماه عمرا كما سيأتى ، وسيأتى مافيه .

ثم إن الناس وثبوا على جعال ليقتلوه فتبرأ من ذلك القول ، وشهد له خوات بن جبير وأبو بردة بأن جعالا كان عندهما وبجنبهما حين صرخ ذلك الصارخ . وقيل المنادى بذلك إزب العقبة ، قال ذلك ثلاث مرات ، أى لأنه لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صرخ الشيطان به قال : هذا إزب العقبة بكسر الهمزة وسكون الزاى ، والإزب : القصير كما تقدم .

وقد ذكر أن عبد الله بن الزبير رأى رجلا طوله شبران على رحله فقال : ما أنت ؟ قال إزب ، قال : ما إزب ؟ قال : رجل من الجن ، فضربه على رأسه بعود السوط حتى هرب ، أى ويجوز أن يكون ذلك صدر من الثلاثة ، وهم ابن قمئة ، وإبليس وإزب العقبة ، فرجعت الهزيمة على المسلمين ، أى وقال قائل : ياعباد الله أخراكم : أى احترزوا من جهة أخراكم ، فعطف المسلمون على أخراهم يقتل بعضهم بعضا وهم لا يشعرون ، وانهزمت طائفة منهم إلى جهة المدينة ولم يدخلوها . وقال رجال من المسلمين حيث قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم . وقال آخرون : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل أفلا تقاتلون على دين نبيكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء .

أى وفى [الإمتاع] أن ثابت بن الدحداح : قال يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن

الله حيّ لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم ، فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار رضى الله تعالى عنهم .

وكان من جملة من انهزم عثمان بن عفان والوليد بن عقبة وخارجة بن زيد ورفاعة ابن معلى ، فأقاموا ثلاثة أيام ، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهبتم فيها عريضة ، وأنزل الله تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم) قال : وقال جماعة : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبيّ ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان ، ياقوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم . وانهزمت طائفة منهم حتّى دخلت المدينة ، فلقيتهم أم أيمن رضى الله عنها فجعلت تحثو التراب فى وجوههم وتقول لبعضهم : هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك اه : أى أعطنى سيفك ، أى فالمنهزمون فى ذلك اليوم طائفتان : طائفة لم تدخل المدينة ، وأخرى دخلتها . وفيه أن أم أيمن كانت فى الجيش تسقى الجرحى .

أى فقد جاء « أن حباب بن العرقة رمى بسهم فأصاب أم أيمن وكانت تسقى الجرحى فوقعت وتكشفت فأغرق عدوّ الله فى الضحك ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفع إلى سعد سهما لا نصل له وقال ارم به ، فوقع السهم فى نحر حباب فوقع مستقليا حتّى بدت عورته فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقاد لها سعد » أجاب الله دعوته ، أى وفى رواية : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » فكان مجاب الدعوة . وقد يقال : لا منافاة بين كون أم أيمن كانت فى الجيش وبين كونها كانت فى المدينة لجواز أن تكون رجعت ذلك الوقت من الجيش إلى المدينة .

وقال رجال : أى من المنافقين لما قيل قد قتل محمد الذين بقوا ولم يذهبوا مع عبد الله ابن أبى ابن سلول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . أى وقال بعضهم لو كان نبيا ماقتل فارجعوا إلى دينكم الأول .

وفى النهر أن فرقة قالوا نلقى إليهم بأيدينا فإنهم قومنا وبنو عمنا . وهذا يدل على أن هذه الفرقة ليست من الأنصار بل من المهاجرين .

قال : وعن الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه . قال : لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتدّ علينا الخوف وأرسل علينا النوم ، فما منا أحد إلا وذقنه فى صدره ، فوالله إنى لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير . أى ويقال ابن بشير ، وكان ممن شهد العقبة : لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا ههنا فحفظتها ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا) الآية .

وعن كعب بن عمرو الأنصارى رضى الله تعالى عنه . قال: لقد رأيتنى يومئذ فى أربعة عشر من قومى إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابنا النعاس أمنة منه ، أى لأنه لاينعس إلا من يأمن ، ما منهم أحد إلا غط غطيطا ، حتى إن الحجف : أى الدرق تتناطح . ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور سقط من يده وما يشعر ، وإن المشركين لتحتنا اه وتقدم فى بدر أنه حصل لهم النعاس ليلة القتال لا فيه على ما تقدم . وتقدم أن النعاس فى الصف من الإيمان وفى الصلاة من الشيطان .

وثبت صلى الله عليه وسلم لما تفرقت عنه أصحابه ، وصار يقول : إلىّ يا فلان ، إلىّ يا فلان أنا رسول الله ، فما يعرّج إليه أحد والنبل يأتى إليه من كل ناحية والله يصرفه عنه .

أى وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم قال « أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب ، أنا ابن العواتك » فليتأمل . فإن المحفوظ أنه إنما قال ذلك فى حنين وإن كان لا مانع من التعدد .

وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة أى من أصحابه منهم أبو طلحة فإنه استمرّ بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم يحوز عنه بحجفته . وكان رجلا راميا شديد الرمى ، فنثر كنانته بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وصار يقول : نفسى لنفسك الفداء ، ووجهى لوجهك الوقاء ، فلم يزل يرمى بها . وكان الرجل يمرّ بالجعبة بضم الجيم من النبل فيقول صلى الله عليه وسلم انثرها لأبى طلحة ، أى وكسر ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرف : أى ينظر إلى القوم . وفى لفظ : ليرى مواضع النبل ، فيقول له أبو طلحة : يا نبى الله بأبى أنت وأمى لاتشرف يصبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك انتهى ، أى ويتطاول أبو طلحة بصدره يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واستدل بذلك على أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه يجب على كل مؤمن أن يؤثر حياته صلى الله عليه وسلم على حياته . قال : فلا خلاف أن هذا لا يجب لغيره ، وهذا المذكور عن أبي طلحة من قوله : نحرى دون نحرك نقله ابن المنير عن سعد بن أبي وقاص فقال ولهذا قال سعد يوم أحد : نحرى دون نحرك ، ولا زال صلى الله عليه وسلم يرمى عن قوسه أى المسماة بالكتوم لعدم تصويتها إذا رمى عنها حتى صارت شظايا : أى ذهب منها قطع .

وفى رواية : رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها ، والسية : ما انعطف من طرفى القوس اللذين هما محل الوتر . قال : وما زال صلى الله عليه وسلم يرمى عن قوسه حتى تقطع وتره وبقيت فى يده منه قطعة تكون شبرا فى سية القوس ، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له . فقال : يا رسول الله لا يبلغ الوتر ، فقال : مده يبلغ . قال عكاشة : فوالذى بعثه بالحق لمددته حتى بلغ وطويت منه لفتين أو ثلاثا على سية القوس ، ورمى صلى الله عليه وسلم بالحجارة وكان أقرب الناس إلى القوم اه .

أى وأنكر الإمام أبو العباس بن تيمية كونه صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه حتى صارت شظايا ، أى لأنه يبعد وجود رميه صلى الله عليه وسلم من غير إصابة ، ولو أصاب أحدا لذكر ، لأنه مما تتوفر الدواعى على نقله . وقاتل جماعة من أصحابه منهم سعد بن أبى وقاص ، فإنه كان من الرماة المذكورين رمى بقوسه . قال سعد : لقد رأيته : يعنى النبى صلى الله عليه وسلم يناولنى النبل ويقول « ارم فداك أبى وأمى » حتى إنه ليناولنى السهم ماله نصل فيقول ارم به . وقد تقدم أنه رمى بسهم من تلك السهام التى لا نصل لها لمن رمى أم أيمن .

قال : وفى رواية عن سعد قال « أجلسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه ، فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته ، حتى إذا فرغت من كنانتى نثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فى كنانته » اه أى فكان سعد مجاب الدعوة كما تقدم .

ولما سعى أهل الكوفة به إلى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ، أرسل جماعة للكوفة يسألون عن حاله من أهل الكوفة ، فصاروا كلما سألوا عنه أحدا قال خيرا وأثنى عليه

معروفا ، حتى سألوا رجلا يقال له أبو سعدة ذمه وقال : لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية . فلما بلغ سعدا ذلك قال : اللهم إن كان كاذباً فأطل عمره ، وأدم فقره ، وأعم بصره ، وعرضه للفتن ، فعمى ، وافتقر ، وكبر سنه ، وصار يتعرض للإماء فى سكك الكوفة ؛ فإذا قيل له : كيف أنت يا أبا سعدة ؟ يقول : شيخ كبير فقير مفتون أصابتنى دعوة سعد .

قيل لسعد : لم تستجاب دعوتك من دون الصحابة ؟ فقال : ما رفعت إلى فى لقمة إلا وأنا أعلم من أين جاءت ، ومن أين خرجت ؟ أى لأنه جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما « تليت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبى وقاص وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة . فقال : والذى نفس محمد بيده إن العبد ليعقد اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما » .

وقد جاء فى الحديث « من كان مأكله حراما ، ومشربه حراما ، وملبسه حراما فأنى يستجاب له » فليتأمل هذا الجواب .

وقد يقال : مراد سعد بقوله : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، أى ممن يأكل الحلال الطيب ويميز عند الأكل بين الحرام وبين غيره حتى أكون مستجاب الدعوة .

ولعل المراد بالأكل ما يشمل الشرب . ولعل السكوت عن اللبس لأنه نادر بالنسبة للأكل ، وجوابه صلى الله عليه وسلم بقوله « والذى نفس محمد بيده » تقرير لما فهمه سعد رضى الله عنه أن من يأكل غير الحلال لا يكون مستجاب الدعوة تأمل .

والحق أن سبب استجابة دعوة سعد دعاء النبى صلى الله عليه وسلم له بذلك ، ولعله إنما لم يجب بذلك لمن سأله بقوله لم تستجاب دعوتك من بين الصحابة ، لأنه يجوز أن يكون دعاء النبى صلى الله عليه وسلم له بذلك تأخر عن هذا فليتأمل .

وفى الشرف «أن سعدا رضى الله عنه رمى يوم أحد ألف سهم ما منها سهم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له ارم فداك أبى وأمى ، ففداه فى ذلك اليوم ألف مرة» .

وعن على كرم الله وجهه « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فداك أبى وأمى إلا لسعد رضى الله عنه » وفى رواية « فما جمع صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد إلا لسعد رضى الله تعالى عنه » .

قال فى النور : الرواية الأولى أصح ، لأنه أخبر فيها أنه لم يسمع ، أى لأنه حينئذ لا يخالف ما جاء عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم جمع لأبيه الزبير رضى الله عنه بين أبويه ، أى قال له فداك أبى وأمى كسعد » أى وذلك فى يوم الخندق حيث أتاه بخبر بنى قريظة ، وكذا الرواية الثانية لا تخالف ، لأنها محمولة على سماعه .

وعلى الأخذ بظاهرها ، وعدم حملها على ذلك يجاب بما قال فى النور : ظهر لى أن عليا كرم الله وجهه إنما أراد تفدية خاصة وهى ألف مرة أو فى خصوص أحد .

وكان صلى الله عليه وسلم يفتخر بسعده فيقول: «هذا سعد خالى ، فليرنى امرؤ خاله» لأن سعدا رضى الله عنه كان من بنى زهرة ، وكانت أم النبى صلى الله عليه وسلم منهم كما تقدم : أى « وكان رضى الله عنه إذا غاب يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالى لا أرى الصبيح المليح الفصيح ؟ » .

ولما كف بصره رضى الله عنه قيل له : لو دعوت الله سبحانه أن يرد عليك بصرك ، فقال : قضاء الله أحب إلىّ من بصرى .

(ولما حضرت الوفاة) سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه دعا بخلق جبة من صوف فقال: كفنونى فيها فإنى كنت لقيت فيها المشركين يوم بدر ، وإنما كنت أخبؤها لهذا .

وممن كان مشهورا بالرماية سهيل بن حنيف رضى الله عنه ، وكان ممن ثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم الذى هو يوم أحد . قال بعضهم : وكان بايعه صلى الله عليه وسلم يومئذ على الموت ، فثبت معه صلى الله عليه وسلم حتى انكشف الناس عنه ، وجعل ينضح بالنبل يومئذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم : نبلوا سهيلا : أى أعطوه النبل .

وجاء « أن خاله صلى الله عليه وسلم وهو الأسود بن وهب بن عبد مناف بن زهرة استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا خالى ادخل ، فدخل فبسط له صلى الله عليه وسلم رداءه وقال : اجلس عليه إن الخال والد ، يا خال من أسدى إليه معروف فلم يشكر فليذكر ، فإنه إذا ذكر فقد شكر » وقال له «ألا أنبئك بشىء عسى الله أن ينفعك به ؟ قال بلى ، قال : إن أربى الربا استطالة المرء فى عرض أخيه بغير حق » .

وعن أم عمارة المازنية رضى الله عنها : أى وهى نسيبة بالتصغير على المشهور ، زوج زيد بن عاصم رضى الله عنه قالت « خرجت يوم أحد لأنظر مايصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والربح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى حصلت الجراحة إلىّ ورؤى على عاتقها جرح أجوف له غور ، فقيل لها من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قمئة ، لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، فضربنى هذه الضربة وضربته ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان » .

قال : وفى كلام بعضهم خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد بن عاصم وابناهما خبيب وعبد الله رضى الله عنهم وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحمكم الله أهل البيت » . وفى رواية « بارك الله فيكم أهل بيت » قالت له أم عمارة رضى الله عنها : ادع الله أن نرافقك فى الجنة ، فقال : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة : أى وعند ذلك قالت رضى الله عنها: ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا » [ ] .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حقها « ماالتفت يمينا ولا شمالا يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دونى » اه أى وقد جرحت رضى الله عنها اثنى عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، وعبد الله ابنها رضى الله عنهما هو القاتل لمسيلمة الكذاب لعنه الله .

فعنها رضى الله عنها قالت : يوم اليمامة تقطعت يدى وأنا أريد قتل مسيلمة ، وماكان لى ناهية : أى مانعة حتى رأيت الخبيث مقتولا ، وإذا ابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلته ؟ فقال نعم ، فسجدت لله شكرا [ ] .

ولا ينافيه مااشتهر أن قاتله وحشى ، فعن وحشى رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أى بعد أن قدم عليه فى وفد ثقيف وأسلم كما سيأتى « ياوحشى اخرج فقاتل فى سبيل الله كما كنت تقاتل لتصد عن سبيل الله ، فلما كان خروج المسلمين لقتال مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة لما ولى الصديق رضى الله عنه الخلافة وارتدت العرب ، خرجت معهم فأخذت حربتى ، فلما رأيته تهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى ، كلانا يريده ، وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها فوقعت فيه ، وشد

عليه الأنصارى فضربه بالسيف فربك أعلم أينا قتله قال بعضهم : والأنصارى هو عبد الله ابن زيد أى كما تقدم ، وقيل غيره .

أى وفى كلام بعضهم : اشترك فى قتل مسيلمة الكذاب لعنه الله أبو دجانة ، وعبد الله بن زيد ، ووحشى رضى الله عنهم . وفى تاريخ ابن كثير رحمه الله الاقتصار على وحشى وأبى دجانة .

وقد يقال : لامخالفة ، لأن كلا من الرواة روى بحسب مارأى . وذكر ابن كثير أن مايروى عن أبى دجانة رضى الله عنه من ذكر الحرز المنسوب إليه إسناده ضعيف لايلتفت إليه .

وقد نقل عن وحشى رضى الله عنه أنه قال : قتلت بحربتى هذه خير الناس وشر الناس وكان عمر مسيلمة حين قتل مائة وخمسين سنة .

وذكر أن أبا دجانة رضى الله عنه تترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار يقع النبل على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه النبل .

وقاتل دونه صلى الله عليه وسلم زيادة ابن عمارة حتى أثبتته الجراحة : أى أصابت مقاتله ، فقال صلى الله عليه وسلم : أدنوه منى فوسده قدمه الشريف ، فمات رضى الله عنه وخده على قدمه الشريف صلى الله عليه وسلم .

وقاتل مصعب بن عمير رضى الله عنه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتله ابن قمئة لعنه الله وهو يظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمدا .

وقيل القاتل له رضى الله عنه أبى بن خلف لعنه الله، فإنه أقبل نحو النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول أين محمد لانجوت إن نجا ، فاستقبل مصعب بن عمير رضى الله عنه فقتل مصعبا ، فاعترضه رجال من المسلمين ؟ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلوا طريقه ، أى فأقبل وهو يقول ياكذاب أين تفر ، وتناول النبى صلى الله عليه وسلم الحربة من بعض أصحابه أى وهو الحارث بن الصمة أو الزبير بن العوام على ماسيأتى ، فخدشه بها فى عنقه خدشا غير كبير احتقن الدم : أى لم يخرج بسبب ذلك الخدش ، فقال قتلنى والله محمد ، فقالوا : ذهب والله فؤادك ، أى وفى لفظ : ذهب والله عقلك ، إنك لتأخذ السهام من أضلاعك فترمى بها ، فما هذا والله مابك من بأس ، ما أخدعك ، إنما

هو خدش ، ولو كان هذا الذى بك بعين أحدنا ماضره ، فقال : واللات والعزى لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز ؟ أى السوق المعروف من جملة أسواق الجاهلية كان عند عرفة كما تقدم . وفى لفظ : لو كان بربيعة ومضر أى وفى لفظ : بأهل الأرض لماتوا أجمعون .. إنه قد كان قال لى بمكة أنا أقتلك ، فوالله لو بصق علىّ لقتلنى أى فضلا عن هذه الضربة لأنه كان يقول للنبى صلى الله عليه وسلم فى مكة : يامحمد إن عندى العود يعنى فرسا له أعلفه فى كل يوم فرقا بفتح الراء : هو مكيال معروف يسع اثنى عشر مدا من ذرة أقتلك عليها فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أقتلك إن شاء الله ، فحقق الله تعالى قول نبيه صلى الله عليه وسلم .

هذا ، وعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أن أبى بن خلف قال حين افتدى : أى من الأسر ببدر : والله إن عندى لفرسا أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتل عليها محمدا ، فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل أنا أقتله إن شاء الله .

أقول : يمكن الجمع بأنه تكرر ذلك من أبى لعنه الله ومن النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم . وفى رواية « أبصر صلى الله عليه وسلم ترقوته » بالفتح لا بالضم « من فرجة من سابغة الدرع » وهى مايغطى به العنق من الدرع كما تقدم « فطعنه طعنة أى كسر فيها ضلعا » بكسر الضاد وفتح اللام وتسكينها « من أضلاعه » أى وهو المناسب لما فى بعض الروايات « أن النبى صلى الله عليه وسلم طعنه طعنة وقع فيها مرارا من على فرسه وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح ، وإنه صلى الله عليه وسلم لما أخذ الحربة من الحارث بن الصمة ، وقيل من الزبير بن العوام رضى الله عنه انتفض بها انتفاضة شديدة ثم استقبله فطعنه فى عنقه » .

أقول : ولا مخالفة بين كون الطعنة فى عنقه وكونها فى ترقوته ، لأن الترقوة فى أصل العنق .

ولا مخالفة أيضا بين كون الحاصل من الطعنة خدشا مع اعتنائه صلى الله عليه وسلم بالطعنة وناهيك بعزمه صلى الله عليه وسلم ، لأن كون الخدش فى الظاهر ، أى بحسب مايظهر للرائى والشدة فى الباطن أقوى فى النكاية . ودليل وجود الشدة فى الباطن وقوعه مرارا ، وكونه خار كالثور الذى يذبح ، وكون الطعن فى العنق يفضى إلى كسر الضلع من خوارق العادات ، لكن رأيت فى رواية أنه ضربه تحت إبطه فكسر ضلعا من أضلاعه .

وقد يقال يجوز أن تكون الحربة نفذت من المكان المذكور . قال فى النور : ولم يقتل

بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم قط أحدا إلا أبي بن خلف لاقبل ولا بعد ، ثم مات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة : أى بسرف بفتح السين المهملة وكسر الراء ، وهو المناسب لوصفه لأنه مسرف وقيل ببطن رابغ .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال « إنى لأسير ببطن رابغ بعد هدو من الليل إذا نار تأجج لى لهبها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذب بها يصيح العطش ، ونادانى : ياعبد الله ، فلا أدرى أعرف اسمى ، أو كما يقول الرجل لمن يجهل اسمه ياعبد الله ؟ فالتفت إليه ، فقال : اسقنى ، فأردت أن أفعل ، وإذا رجل وهو الموكل بعذابه يقول : لاتسقه هذا قتيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا أبى بن خلف لعنه الله » رواه البيهقى .

ويدل لهذا ماجاء فى الحديث « كل من قتله نبى أو قتل بأمر نبى فى زمنه يعذب من حين قتل إلى نفخ الصعقة » وجاء « أشد الناس عذابا من قتله نبى » أى وفى رواية « اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسحقا لأصحاب السعير » . وفى رواية « اشتد غضب الله عز وجل على رجل قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله » أى لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون باللطف والشفقة على عباد الله ، فما يحمل الواحد منهم على قتل شخص إلا أمر عظيم ورسول الله صلى الله عليه وسلم أكملهم لطفا ورفقا وسعة بعباد الله .

وفى شرح التقريب احترز بقوله فى سبيل الله عمن يقتله حدا أو قصاصا لأن من يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله كان قاصدا قتله صلى الله عليه وسلم ، وقد اتفق ذلك لأبى بن خلف لعنه الله ، وقد تقدم أن ابن مرزوق رحمه الله ذكر أن ابن عمر مر ببدر فإذا رجل يعذب ويئن ، فناداه يا عبد الله ، فالتفت إليه فقال اسقنى ، فأردت أن أفعل فقال الأسود الموكل بتعذيبه : لاتفعل يا عبد الله ، فإن هذا من المشركين الذين قتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أى أصحابه ، رواه الطبرانى فى الأوسط ، ولا بعد فى تعدد الواقعة .

ثم رأيت فى الخصائص الكبرى ما يقتضى التعدد فانه ذكر فيها أن ابن عمر رضى الله عنهما ذكر ذلك : أى مروره ببدر للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال له ذلك أبو جهل ، وذلك عذابه إلى يوم القيامة . وقد ذكرت ذلك فى الكلام على غزوة بدر .

ووقع صلى الله عليه وسلم فى حفرة من الحفر التى حفرت للمسلمين : أى التى حفرها أبو عامر الفاسق والد حنظلة غسيل الملائكة رضى الله عنه ، واسم أبى عامر عبد عمرو ، مات كافرا بأرض الروم ، فر إليها لما فتحت مكة ليقعوا فيها وهم لا يعلمون . فأغمى

عليه صلى الله عليه وسلم ، وجحشت : أى خدشت ركبتاه ، فأخذ على كرم الله وجهه بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما .

وكان سبب وقوعه صلى الله عليه وسلم أن ابن قمئة لعنه الله علاه صلى الله عليه وسلم بالسيف فلم يؤثر فيه السيف إلا أن ثقل السيف أثر فى عاتقه الشريف ، فشكا صلى الله عليه وسلم منه شهرا أو أكثر ، وقذف صلى الله عليه وسلم بالحجارة حتى وقع لشقه ، ورماه صلى الله عليه وسلم عتبة بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بحجر ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وشق شفته السفلى : أى ودعا عليه صلى الله عليه وسلم بقوله « اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافرا » . وقد استجاب الله تعالى ذلك ، وقتله فى ذلك اليوم حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه .

قال حاطب : لما رأيت ما فعل عتبة برسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أين توجه عتبة ؟ فأشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى حيث توجه فمضيت حتى ظفرت به ، فضربته بالسيف فطرحت رأسه ، فنزلت وأخذت فرسه وسيفه وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : رضى الله عنك رضى الله عنك مرتين : أى ولا يخالف هذا قول بعضهم فمات بعد بقليل ، لكن يخالف القول بأنه مات بعد أن أسلم بعد الفتح وأنه أثبت ولم يولد لعتبة ولد أو ولد ولد إلا وهو أهتم : أى ساقط مقدّم أسنانه أى التى هى الرباعيات أبخر يعرف ذلك فى عقبه ؛ وكسرت البيضة أى الخوذة على رأسه صلى الله عليه وسلم وشج وجهه الشريف ، شجه عبد الله بن شهاب الزهرى رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وهو جد الإمام الزهرى رحمه الله . ويجوز أن يكون من قبل أمه ، أى ويقال له عبد الله الأصغر ، أى ولعل هذا حصل منه قبل أو بعد قوله دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه منا ممنوع .

وجدّ الإمام الزهرى من قبل أبيه يقال له عبد الله بن شهاب ، ويقال له عبد الله الأكبر رضى الله عنه كان من مهاجرى الحبشة ، توفى بمكة قبل الهجرة . وأشار صاحب الهمزية رحمه الله إلى أن هذه الشجة لم تشنه صلى الله عليه وسلم بل زادته جمالا بقوله :

مظهر شجة الجبين على البر ء كما أظهر الهلال البراء
ستر الحسن منه بالحسن فاعجب لجمال له الجمال وقاء
فهو كالزهر لاح من سجف الأكـ ـمام والعود شق عنه اللحاء

أى مظهر وجهه الشريف أثر جرح جبينه : أى جبهته مع برئها ظهورا كظهور الهلال ليلة استهلاله ، ستر ذلك الوجه الحسن الأصلى بالحسن العارض بسبب ذلك الجرح ، فاعجب لجمال أصلى له الجمال العارض وقاية وساتر ، فهو : أى ما ظهر بذلك الجرح كالزهر إذا ظهر من ستره وكالعود الذى يتطيب به إذا أزيل عنه قشره ، وقال حسان رضى الله عنه فى وصف جبينه الشريف صلى الله عليه وسلم :

متى يبد فى الداجى البهيم جبينه   يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

وجرحت وجناته صلى الله عليه وسلم بسبب دخول حلقتين من المغفر فى وجنتيه بضربة من ابن قمئة لعنه الله ، وقال له لما ضربه : خذها وأنا ابن قمئة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقمأك الله عز وجل : أى صغرك وأذلك . وقد استجاب الله فيه دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة الجبل : أى أعلى الجبل ، فأخذ يعترضها فشد عليه كبشها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع . وفى رواية : فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة [ ] .

أقول : ويمكن الجمع بأنه لما نطحه ذلك الكبش ووقع من شاهق الجبل إلى أسفل سلط الله عليه عند ذلك تيس الجبل فنطحه حتى قطعه قطعا زيادة فى نكاله وخزيه ووباله ، لعنة الله عليه ، والله أعلم .

« ولما جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم صار الدم يسيل على وجهه الشريف ، وجعل صلى الله عليه وسلم يمسح الدم . وفى لفظ : ينشف دمه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » أى وفى رواية « اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) » أى وفى رواية « صار صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم العن فلانا وفلانا : أى اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية فأنزل الله تعالى الآية » .

فإن قيل كيف هذا مع قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) . أجيب بأن هذه الآية نزلت بعد أحد .

وعلى تسليم أنها نزلت قبله ، فالمراد عصمته من القتل . قال الشيخ محيى الدين ابن العربى رحمه الله : لا يخفى أن أجر كل نبى فى التبليغ يكون على قدر ما ناله من المشقة

الحاصلة له من المخالفين له ، وعلى قدر ما يقاسيه منهم . وله أجر الهداية لمن أطاعه ولا أحد أكثر أجرا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لم يتفق لنبى من الأنبياء ما اتفق له صلى الله عليه وسلم فى كثير من طائعى أمة أجابته ، ولا فى كثير عصاة أمة دعوته الخارجين عن الإجابة .

وامتص مالك بن سنان الخدرى وهو والد أبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما دم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مس دمى دمه لم تصبه النار » .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » وأشار إليه فاستشهد فى هذه الغزاة . وفى لفظ « من سره أن ينظر إلى من لا تمسه النار فلينظر إلى مالك بن سنان رضى الله عنه » ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم أمر هذا الذى امتص دمه بغسل فه ولا أنه غسل فه من ذلك ، كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضى الله عنها بغسل فيها ولا هى غسلته من ذلك لما شربت بوله صلى الله عليه وسلم .

فعنها رضى الله عنها أنها قالت « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل إلى فخارة أى تحت سريره فبال فيها فقمت وأنا عطشى فشربت ما فى الفخارة وأنا لا أشعر ، فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم قال : يا أم أيمن قومى إلى تلك الفخارة فأهريقى ما فيها ، فقالت : والله لقد شربت ما فيها ، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : لا يجفر » بالجيم والفاء « بطنك بعده أبدا » وفى لفظ « لا تلج النار بطنك » وفى أخرى « لا تشتكى بطنك » أى ويجوز أنه صلى الله عليه وسلم قال : هذه الألفاظ الثلاثة وكل روى بحسب ما سمع منها ، فتكون هذه الأمور الثلاثة تحصل لأم أيمن رضى الله عنها وفى رواية بدل فخارة « إناء من عيدان » بالفتح : الطوال من النخل ، فإن صحا حملا على التعدد لأم أيمن رضى الله عنها ، ولا مانع منه .

وقد شرب بوله صلى الله عليه وسلم أيضا امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة بن عمرو ، كانت تخدم أم حبيبة رضى الله عنها ؛ جاءت معها من الحبشة : أى ومن ثم قيل لها بركة الحبشية .

وفى كلام ابن الجوزى : بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان الحبشية خادمة أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا كلامه .

ولا مخالفة ، لأنه يجوز أن يكون يسار لقبه ثعلبة ، وكانت معها فى الحبشة ثم قدمت معها مكة ، كانت تكنى بأم يوسف ، فقال لها صلى الله عليه وسلم حين علم أنها شربت ذلك « صحة يا أم يوسف » فما مرضت قط حتى كان مرضها الذى ماتت فيه .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لها « لقد احتظرت من النار بحظار » وشرب دمه صلى الله عليه وسلم أيضا أبو طيبة الحجام ، وعلىّ كرم الله وجهه ، وكذا عبد الله ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما .

فعن عبد الله بن الزبير قال « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : ياعبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حتى لايراك أحد ، قال فشربته ، فلما رجعت قال : يا عبد الله ما صنعت ؟ قلت : جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ، قال : لعلك شربته ، قلت نعم ؛ قال : ويــل للناس منك وويل لك من الناس » وكان بسبب ذلك على غاية من الشجاعة .

ولما وفد أخوه شقيقه عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة من المدينة على عبد الملك ابن مروان قال له يوما : أريد أن تعطينى سيف أخى عبد الله ، فقال له عبد الملك : هو بين السيوف ولا أميزه ، فقال له عروة : إذا حضرت السيوف ميزته أنا ، فأمر عبدالملك باحضارها ، فلما أحضرت أخذ منها سيفا مفلل الحد ، وقال هذا سيف أخى ، فقال له عبد الملك : كنت تعرفه قبل الآن ؟ قال لا ، فقال كيف عرفته ؟ قال بقول النابغة الذبيانى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأخذ من ذلك بعض أئمتنا طهارة فضلاته صلى الله عليه وسلم ، حيث لم يأمره بغسل فمه ، ولم يغسل هو فمه ، وأن شربه جائز حيث أقر على شربه .

وما أورده فى الاستيعاب أن رجلا من الصحابة اسمه سالم حجمه صلى الله عليه وسلم ثم ازدرد دمه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أما علمت أن الدم كله حرام » أى شربه غير صحيح ، فقد قال بعضهم هو حديث لايعرف له إسناد فلا يعارض ما قبله . على أنه يمكن أن يكون ذلك سابقا على إقراره على ذلك والله أعلم .

ونزع أبو عبيدة عامر بن عبد الله الجراح رضى الله تعالى عنه إحدى الحلقتين من وجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنية أبى عبيدة ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى .

وقيل الذى نزعهما عقبة بن وهب بن كلدة . وقيل طلحة بن عبيد الله ، ولعل الثلاثة عالجوا إخراجها ، وكان أشدّهم لذلك أبوعبيدة رضى الله عنه .

قال بعضهم : ولما سقط مقدم أسنان أبى عبيدة صار أهتم ولم ير قط أهتم أحسن من أبى عبيدة ، لأن ذلك الهتم حسن فاه .

وكان أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وقول القائل قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك . قال : عرفت عينيه تزهران ، أى تضيئان وتتوقدان من تحت المغفر ، وهو ما يجعل على الرأس من الزرد ، فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلىّ أن أنصت.

وعن بعض الصحابة قال : لما صرخ الشيطان قتل محمد لم يشك فى أنه حق ، ومازلنا كذلك حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعديين فعرفناه بتكفيه إذا مشى ، ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به وتهض معهم نحو الشعب فيهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث ابن الصمة رضى الله عنهم .

وفى خصائص العشرة للزمخشرى ؛ وثبت يعنى الزبير رضى الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وبايعه على الموت ، هذا كلامه فليتأمل .

وقول بعض الرافضة انهزم الناس كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علىّ ابن أبى طالب كرم الله وجهه ممنوع ، وقوله : وتعجبت الملائكة من شأن علىّ ، وقول جبريل عليه السلام وهو يعرج إلى السماء « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علىّ » قوله : وقتل علىّ كرم الله وجهه أكثر المشركين فى هذه الغزوة ، فكان الفتح فيها على يديه وقال : أصابتنى يوم أحد ست عشرة ضربة سقطت إلى الأرض فى أربع منهنّ ، فجاءنى رجل حسن الوجه حسن اللحية طيب الريح وأخذ بضبعى فأقامنى ، ثم قال : أقبل عليهم فقاتل فى طاعة الله وطاعة رسول الله فإنهما عنك راضيان .

ولما أخبرت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا على أما تعرف الرجل ؟ فقلت : لا ، ولكن شبهته بدحية الكلبى ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا على أقرّ الله عينك فإنه جبريل عليه السلام ، جميعه رده الإمام أبو العباس بن تيمية بأنه كذب باتفاق الناس وبين ذلك بما يطول .

قال : وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة على فرس أبلق وعليه لامة كاملة قاصدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه للشعب ، وهو يقول : لا نجوت إن نجا ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فعثر بعثمان فرسه فى بعض تلك الحفر ومشى إليه الحارث بن الصمة رضى الله عنه ، فاضطربا ساعة بسيفهما ثم ضربه الحارث على رجله فبرك وذفف عليه وأخذ درعه ومغفره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذي أحانه » أى أهلكه .

وأقبل عبيد الله بن جابر العامرى يعدو فضرب الحارث على عاتقه فجرحه فاحتمله أصحابه . ووثب أبو دجانة رضى الله عنه إلى عبيد الله فذبحه بالسيف ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فم الشعب خرج علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حتى ملأ درقته ماء وغسل به صلى الله عليه وسلم عن وجهه الشريف الدم وهو يقول : « اشتدّ غضب الله على من أدمى وجه نبيه » أى والسياق يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا بعد قوله « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم » ونزول تلك الآية ، فإن ذلك كان قبل غسل وجهه الشريف .

قال : ثم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلو الصخرة التى فى الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع : أى لأنه صلى الله عليه وسلم ضعف لكثرة ما خرج من دم رأسه الشريف ووجهه مع كونه صلى الله عليه وسلم عليه درعان ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوجب طلحة » أى فعل شيئا استوجب به الجنة حين صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع انتهى .

أى وقيل إن طلحة رضى الله عنه كان فى مشيه اختلاف لعرج كان به ، فلما حمل النبى صلى الله عليه وسلم تكلف استقامة المشى لئلا يشق عليه صلى الله عليه وسلم فذهب عرجه ولم يعد إليه .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم انطلق حتى أتى أصحاب الصخرة : أى الجماعة الذين من الصحابة الذين علوا الصخرة : أى التى فى الشعب ، فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه وأراد أن يرميه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا رسول الله ، ففرحوا بذلك وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى وجد فى أصحابه من يمنع : أى ولعل هذا الذى أراد رميه صلى الله عليه وسلم لم يعرفه ولا من معه من الصحابة لارتفاع الصخرة .

قال : وعطش صلى الله عليه وسلم عطشا شديدا : أى ولم يشرب من الماء الذى جاء به على كرم الله وجهه فى درقته ، لأنه صلى الله عليه وسلم وجد له ريحا فعافه : أى كرهه فخرج محمد بن مسلمة رضى الله عنه يطلب له ماء فلم يجد ، فذهب إلى مياه فأتى منها بماء عذب ، فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير .

وفى بعض الروايات أن نساء المدينة خرجن وفيهن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته ، وعلى كرم الله وجهه يسكب الماء فتزايد الدم ، فلما رأت ذلك أخذت شيئا من حصير : أى معمول من البردى فأحرقته بالنار حتى صار رمادا ، فأخذت ذلك الرماد وكمدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم انتهى ، أى لأن البردى له فعل قوى فى حبس الدم لأن فيه تجفيفا قويا .

وفى حديث غريب أنه صلى الله عليه وسلم داوى جرحه بعظم بال أى محرق .

وقد يقال : يجوز أن يكون الراوى ظن ذلك البردى المحرق عظما محرقا بناء على صحة تلك الرواية . وعن وضع هـذا الرماد الحار عبر بعضهم بأنه صلى الله عليه وسلم اكتوى فى وجهه وجعله معارضا للحديث الصحيح فى وصف السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة من غير حساب بأنهم لايكتوون .

وعارضه أيضا بأنه صلى الله عليه وسلم كوى سعد بن معاذ مرتين ليرقأ : أى ينقطع الدم من جرحه ، وكوى أسعد بن زرارة رضى الله عنه لمرض الذبحة .

ففى كلام بعضهم : كان موت أسعد بن زرارة رضى الله عنه بمرض يقال له الذبحة فكواه النبى صلى الله عليه وسلم بيده وقال : بئس الميتة لليهود ؛ يقولون أفلا دفع عن صاحبه وما أملك له ولا لنفسى شيئا .

وأجيب بأن هذا الحديث محمول على من اكتوى خوفا من حدوث الداء ، أو لأنهم كانوا يعظمون أمره ويرون أنه يقطع الداء ، وإذا لم يكو العضو عطب وبطل ، وهو محمل قوله صلى الله عليه وسلم « لم يتوكل من اكتوى » أو على من يفعله مع قيام غيره من الأدوية مقامه .

ومما فى الخصائص الكبرى أن الملائكة كانت تصافح عمران بن حصين رضى الله عنه وتسلم عليه من جانب بيته ثلاثين سنة حتى اكتوى أى لبواسير كانت به فكان يصبر

على ألمها ، فلما ترك الكيّ عادت الملائكة إلى سلامها عليه ، لأن ذلك قادح فى التوكل .

وما فى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « الشفاء فى ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنا أنهى أمتى عن الكيّ » وفى راية « وما أحبّ أن أكتوى » أى فالنهى للتنزيه لا للتحريم وإلا لم يفعله عمران مع علمه بالنهى .

قال فى الهدى : وأراد صلى الله عليه وسلم بقوله : وأنا أنهى إلى آخره : أى أنه لا يؤتى بالكيّ إلا إذا لم ينجع الدواء فلا يأتى به أولا ومن ثم أخره .

قيل والفصد داخل فى شرطة المحجم . والحجامة فى البلاد الحارة أنفع من الفصد ، هذا كلامه .

وبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب مع أولئك النفر من أصحابه إذا علت طائفة من قريش الجبل معهم خالد بن الوليد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنهم لا ينبغى لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوّة لنا إلا بك » فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوا من الجبل ، أى ونزل قوله تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) أى لا تضعفوا عن الحرب ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر بالكفار .

ولعل هذا كان قبل أن يعلو صلى الله عليه وسلم الصخرة كما تقدم . أو لعل الجبل كان أعلى من تلك الصخرة .

قال : وفى بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم قال لسعد « ارددهم ، قال : كيف أردهم وحدى ؟ فقال له ارددهم » قال سعد رضى الله عنه : فأخذت سهما من كنانتى فرميت به رجلا منهم فقتلته ، ثم أخذت سهما فإذا هو سهمى الذى رميت به آخر فقتلته ثم أخذت سهما آخر فإذا هو سهمى الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذته سهما فإذا هو سهمى الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فكان عندى فى كنانتى لا يفارق كنانتى ، وكان بعده عند بنيه انتهى .

أى وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هذا : أى كون سعد ردهم وحده بهذا السهم . وما قبله الدال على أن الرادّ لهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجماعة من المهاجرين .

وروى عنه أنه قال « لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد فيرده علىّ رجل أبيض حسن

الوجه لا أعرفه حتى كان بعد » أى حتى بعد انقضاء الحرب لم أعرفه ، فظننت أنه ملك ، أى وفى رواية عنه أنه قال « رميت بسهم فرده علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهمى أعرفه حتى واليت بين ثمانية أو تسعة ، كل ذلك يرده علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : هذا سهم دم » أى يصيب « فجعلته فى كنانتى لا يفارقنى » .

أقول : ولا منافاة بين هذا وبين قوله ثم أخذت سهما ، لأن قوله المذكور لا ينافى أن يكون أخذه بمناولته صلى الله عليه وسلم لا من كنانته كما قد يتبادر ، ولا بين قوله فيرده علىّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه ، لأنه يجوز أن يكون ذلك الرجل كان يرد السهام التى كان يرمى بها حتى لا تفنى سهامه إلا هذا السهم فإنه لم يرده له ، بل يناوله له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرده عليه . ولا منافاة بين قوله : حتى واليت بين ثمانية أو تسعة وبين إخباره بقوله : ثم أخذت سهما إلى أن عدد خمس مرات ، لأنه يجوز أن تكون تلك الخمسة قتل فيها وفيما زاد لم يقتل بل جرح فليتأمل والله أعلم .

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهر ذلك اليوم وهو جالس من الجراحة التى أصابته . وصلى المسلمون خلفه قعودا : أى ولعلّ ذلك كان بعد انصراف عدوهم . وإنما صلى المسلمون خلفه صلى الله عليه وسلم قعودا موافقة له صلى الله عليه وسلم وقد نسخ ذلك .

أو أن من صلى قاعدا إنما هو لما أصابهم من الجراح وكانوا هم الأغلب ، فقيل صلى المسلمون خلفه قعودا ؛ فقد جاء أنه وجد بطلحة رضى الله عنه نيف وسبعون جراحة من طعنة وضربة ورمية وقطعت أصبعه . وفى رواية أنامله . وعند ذلك قال حس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة عليهم السلام والناس ينظرون إليك حتى تلج بك فى جوّ السماء » زاد فى لفظ « ولرأيت بناءك الذى بنى الله لك فى الجنة وأنت فى الدنيا » .

وفى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال « رأيت يد طلحة بن عبيد الله شلاء وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد » أى من سهم ، وقيل من حربة ونزف به الدم حتى غشى عليه ؛ ونضح أبو بكر رضى الله عنه الماء فى وجهه حتى أفاق ، فقال ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال له أبو بكر : هو بخير ، وهو أرسلنى إليك ، فقال : الحمد لله كل مصيبة بعده جلل أى قليلة .

وكان يقال لطلحة رضى الله عنه الفياض ، سماه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة العشيرة كما تقدم . وسماه طلحة الجود فى أحد ، لأنه أنفق فى أحد سبعمائة ألف درهم . وسماه فى أحد أيضا طلحة الخير .

وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أصيب فوه فهتم وجرح عشرين جراحة . قال وفى رواية عشرين جراحة فأكثر ، وجرح فى رجله فكان يعرج منها .

وأصاب كعب بن مالك رضى الله عنه سبعة عشر جراحة . وفى رواية عشرون جراحة، قال عاصم بن عمر بن قتادة : كان عندنا رجل غريب لاندرى ممن هو ، أى يظهر الإسلام يقال له قزمان ، وكان ذا بأس وقوة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر يقول إنه لمن أهل النار ، فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالا شديدا أى فكان أول من رمى من المسلمين بسهم ، وكان يرمى النبال كأنها الرماك ثم فعل بالسيف الأفاعيل فكان يكت كتيت الجمل . وقتل ثمانية أو تسعة من المشركين . ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال إنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، وأثبتته الجراحة فاحتمل إلى دار بنى ظفر ، لأنه كان حليفا لهم فجعل رجال من المسلمين يقولون : والله لقد ابتليت اليوم يا قزمان فأبشر ، فيقول بماذا أبشر ؟ فوالله : ما قاتلت إلا على أحساب قومى : أى على شرفهم ومفاخرهم : أى مناصرة لهم ، ولولا ذلك ما قاتلت : أى فلم يقاتل لإعلاء كلمة الله ورسوله وقهر أعدائهما .

أى وفى رواية أن قتادة رضى الله عنه قال له : هنيئا لك الشهادة يا أبا الغيداق ؟ فقال إنى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير إلينا قريش حتى تطأ أرضنا ، فلما اشتدت عليه الجراحة أخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه : أى قطع به عروقا فى باطن الذراع يقال لها الزواهق : أى وفى رواية : فجعل ذباب سيفه فى صدره أى بين ثدييه كما فى رواية ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه . قال فى النور : وهو الصحيح ، ولا مانع أن يكون فعل كلا من الأمرين ، أى وعند ذلك جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وما ذاك ؟ قال : الرجل الذى ذكرت آنفا أنه من أصحاب النار فعل كذا وكذا .

وقد جاء : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يقاتل

لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » فنص عليه ، وحينئذ قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » .

ففيه إشارة إلى أن باطن الأمر قد يكون بخلاف ظاهره . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » [ ] أى وقد أشار إلى هذا الإمام السبكى رحمه الله تعالى فى تائيته بقوله :

وقلت لشخص يدعى الدين إنه بنار فألقى نفسه للمنية

هذا وفى كلام ابن الجوزى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، فقال لرجل ممن يدّعى الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة فقيل : يارسول الله ، الرجل الذى قلت إنه من أهل النار ، فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم كما قال : إلى النار . ثم قيل إنه لم يمت ولكن به جراحة شديدة . فلما كان من الليل لم يصبر على الجراحة فقتل نفسه ، فأخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : الله أكبر ، أشهد أنى عبد الله ورسوله ، فأمر بلالا فنادى فى الناس : إنه لايدخل الجنة إلا نفس مسلم وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وهذا الرجل اسمه قزمان من المنافقين ، هذا كلامه فليتأمّل ، فإن تعدّد الشخص المسمى بهذا الاسم فيه بعد . ولعلّ ذكر خيبر بدل أحد اشتباه من الراوى . وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » عامّ فيدخل فيه كل من الملك والعالم الذى جعل تسليكه وتعليمه مصيدة للدنيا وأكل الحرام فإن الله يحيى بهما قلوبا ، ويهدى بهما إلى سواء السبيل مع أنهما فاجران .

وقتل الأصيرم أصيرم بنى عبد الأشهل . قال بعضهم : كان الأصيرم يأبى الإسلام على قومه بنى عبد الأشهل ، فلما كان يوم خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى أحد جاء إلى المدينة ، فسأل عن قومه ، فقيل له بأحد ، فبدا له فى الإسلام : أى رغب فيه فأسلم ، ثم أخذ سيفه ورمحه ولأمته ، وركب فرسه ، فغدا — بالغين المعجمة — حتى دخل فى عرض الناس أى بضم العين المهملة وبالضاد المعجمة : جانبهم وناحيتهم ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة أصابت مقاتله ، فبينما رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به ، فقالوا والله إن هذا الأصيرم ، فسألوه ماجاء بك مناصرة لقومك ، أم رغبة فى الإسلام ؟

فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم جئت وقاتلت حتى أصابنى ماأصابنى ، ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنه لمن أهل الجنة » وكان أبو هريرة يقول : حدثنى عن رجل دخل الجنة ولم يصل : يعنى الأصيرم. ويصدق على هذا قوله عليه الصلاة والسلام « وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار » الحديث .

أى وممن يدخل الجنة ولم يصلّ الأسود الراعى لبعض يهود خيبر ، الذى جاء للنبى صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله أعرض علىّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم . ثم تقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله وما صلى صلاة قط كما سيأتى فى غزاة خيبر .

وقتل حنظلة بن أبى عامر الفاسق رضى الله عنه ، وأبو عامر هذا هو الذى كان يسمى فى الجاهلية الراهب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق كما تقدم ، وكان هو وعبد الله بن أبى ابن سلول من رءوس أهل المدينة وعظمائها المتوّجين للرياسة على أهلها .

وكان أبو عامر من الأوس، ويقال له ابن صيفى، وكان عبدالله من الخزرج . فعبدالله ابن أبىّ أظهر الإسلام . وأما أبو عامر فأصرّ على الكفر إلى أن مات طريدا وحيدا إجابة لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دعا عليه بذلك . وإلى ذلك أشار الإمام السبكى رحمه الله فى تائيته بقوله :

ومات ابن صيفى على الصفة التى ذكرت وحيدا بعد طرد وغربة

وقد كان أبو عامر هذا خرج من المدينة مباعدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه خمسون غلاما ، وقيل خمسة عشر من قومه من الأوس ، فلحق بمكة وكان يعد قريشا أنه لو لقى قومه: أى الأوس لم يختلف عليه منهم رجلان . فلما جاء مع قريش نادى : يامعشر الأوس أنا أبو عامر ، وقالوا له : لاأنعم الله بك عينا يافاسق ، أى وفى لفظ قالوا له : لا مرحبا بك ولا أهلا يافاسق . ولا مانع من صدور الأمرين منهم ، فلما سمع ردّهم عليه قال لعنه الله : لقد أصاب قومى بعدى شرّ، ثم قاتل قتالا شديدا . وهو الذى حفر الحفائر ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون ، التى وقع فى إحداها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، أى وكان هو أوّل من أثار الحرب وضرب بأسهم فى وجوه المسلمين ، واستأذن ولده حنظلة رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله فنهاه عن قتله .

وسبب قتل حنظلة رضى الله تعالى عنه أن حنظلة ضرب فرس أبى سفيان فوقع على الأرض فصاح وعلاه حنظلة رضى الله عنه يريد ذبحه فرآه شدّاد بن الأوس كذا فى الأصل قيل وصوابه شدّاد بن الأسود ، فحمل عليه فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن صاحبكم ، يعنى حنظلة ، لتغسله الملائكة » أى وفى رواية « رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة فسئلت صاحبته أى زوجته وهى جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين أخت ولده عبد الله رضى الله عنهما ، فقالت : خرج جنبا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لذلك غسلته الملائكة » فإنه دخل عليها عروسا تلك الليلة التى صبيحتها أحد ، وقد كان استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : أى فى الدخول بها ، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلزمته ، فكان معها فأجنب منها ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى العدّو فعجل عن الغسل إجابة للداعى .

وفى رواية أنها قالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة : أى الصياح بالخروج للعدّو . وفى لفظ : الهائعة . وفى لفظ : الهيعة ، من الهياع : وهو الصياح الذى فيه فزع . وقد جاء فى الحديث « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه » فلما سمع هيعة طار إليها .

وفى رواية : وقد كان غسل أحد شقيه ، فخرج ولم يغسل الشق الآخر . وقد رأت هى تلك الليلة أن السماء قد فرجت فدخل فيها ثم أطبقت . وجاء أنها أشهدت أربعة من قومها عليه بالدخول بها خشية أن يكون فى ذلك نزاع ، قالت : لأنى رأيت السماء فرجت فدخل فيها ثم أطبقت ، فقلت هذه الشهادة ، وعلقت منه بعبد الله بن حنظلة رضى الله عنه فى تلك الليلة . وعبد الله هذا هو الذى ولاه أهل المدينة عليهم لما خلعوا يزيد بن معاوية . وكان ذلك سببا لوقعة الحرة ولم تمثل قريش بحنظلة رضى الله عنه لكون والده معهم الذى هو أبو عامر الراهب لعنه الله .

وفى الامتاع : وجعل أبو قتادة الأنصارى يريد التمثيل من قريش لما رأى من المثلة بالمسلمين ، فقال له صلى الله عليه وسلم « ياأبا قتادة إن قريشا أهل أمانة ، من بغاهم العواثر أكبه الله تعالى إلى فيه ، وعسى إن طالت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم وفعالك مع فعالهم . لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله . فقال أبو قتادة : والله يارسول الله ما غضبت إلا لله ولرسوله ، فقال : صدقت ، بئس القوم كانوا لنبيهم » قال : وجاء

« أنه صلى الله عليه وسلم هم أن يدعو عليهم ، فنزلت الآية المذكورة أى (ليس لك من الأمر شىء) فكف عن الدعاء عليهم » أى وفيه أنها نزلت بعد قوله « اللهم العن فلانا وفلانا » إلى آخر ما تقدم عن بعض الروايات ، إلا أن يقال أراد صلى الله عليه وسلم المداومة على الدعاء عليهم . وعن أبى سعيد الساعدى قال : ذهبنا إلى حنظلة رضى الله عنه فإذا رأسه يقطر ماء انتهى .

أى فعلم أنه لامنافاة بين كونه صلى الله عليه وسلم دعا عليهم وبين كونه هم بالدعاء عليهم ، لأنه يجوز أن يكون المراد هم بتكرير الدعاء عليهم . وفى البخارى ومسلم والنسائى عن جابر رضى الله عنه قال : « قال رجل يوم أحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن قتلت فأين أنا ؟ قال فى الجنة فألقى تمرات كن فى يده فقاتل حتى قتل » قال فى طرح التثريب ، قال الخطيب : كانت هذه القصة يوم بدر لا يوم أحد ، فأشار إلى تضعيف رواية الصحيحين التى فيها يوم أحد ، ولاتوجيه لذلك ، بل التضعيف تفسير هذه بهذه : أى جعلهما قصة واحدة وكل منهما صحيحة وهما قصتان لشخصين . هذا كلامه ، وقد تقدم فى غزاة بدر الحوالة على هذا فليتأمل ، أى وأقبل رجل من المشركين مقنعا بالحديد يقول أنا ابن عويف فتلقاه رشيد الأنصارى الفارسى فضربه على عاتقه فقطع الدرع وقال خذها وأنا الغلام الفارسى ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ذلك ويسمعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هلا قلت خذها وأنا الغلام الأنصارى » فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول بعد وكأنه كلب وهو يقول : أنا ابن عويف فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال : خذها وأنا الغلام الأنصارى ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أحسنت يا أبا عبد الله » وكان يومئذ لا ولد له .

وقتل عمرو بن الجموح رضى الله عنه ، وكان أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد . فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له : قد عذرك الله ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بنى يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك ، فوالله إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه الجنة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أنت فقد أعذرك الله فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة » فأخذ سلاحه وخرج وأقبل على القبلة وقال : اللهم ارزقنى الشهادة ولا تردنى خائبا إلى أهلى فقتل ، فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « والذى نفسى بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبرّه . منهم عمرو بن الجموح ولقد رأيته يطأ فى الجنة بعرجته » أى كشف له عن حاله يوم القيامة ، أى وفى رواية أنه قال « يا رسول الله أرأيت إن قاتلت فى سبيل الله حتى أقتل أمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة ؟ فمرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة » .

أقول : لكن يمكن الجمع بأنه فى أول دخوله الجنة يطؤها برجله غير صحيحة ثم تصير صحيحة . وعمرو بن الجموح رضى الله عنه كان فى الجاهلية على أصنامهم : أى سادنا لها ، وكان فى الإسلام يولم عنه صلى الله عليه وسلم إذا تزوج :

وقد وقع منه صلى الله عليه وسلم مثل ذلك لأنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبى صلى الله عليه وسلم « فإنه لما كسرت أخته الربيع ثنية جارية من الأنصار فطلب أهلها القصاص ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسر ثنية الربيع قال أخوها أنس المذكور والله لا تكسر ثنية الربيع ، وصار كلما يقول صلى الله عليه وسلم : كتاب الله القصاص ، يقول والله لا تكسر ثنية الربيع ، فرضى القوم بالأرش ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه » وقال صلى الله عليه وسلم ذلك فى حق البراء بن مالك أخى أنس بن مالك رضى الله عنهما . فعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ربّ أشعث أغبر لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبرّه منهم البراء بن مالك » ومصداق ذلك ما وقع له رضى الله عنه فى مقاتلة الفرس ، فإن الفرس غلبوا المسلمين فقالوا له : يابراء أقسم على ربك ، فقال : أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، فحمل رضى الله عنه وحمل المسلمون معه فقتل عظيم الفرس وانهزم الفرس ، ثم قتل البراء رضى الله عنه .

ومما وقع أنه كان مع أخيه أنس رضى الله عنه عند بعض حصون العدوّ بالعراق وكانوا يلقون كلاليب معلقة فى سلاسل محماة يخطفون بها الإنسان ، فكان من جملة من خطف أنس رضى الله عنه ، فأقبل البراء رضى الله عنه وصعد محلا عاليا وأمسك السلسلة بيده ولا زال حتى قطع السلسلة ، ثم نظر إلى يده فإذا عظمها يلوح ليس عليه لحم ، ونجى الله أنسا رضى الله عنه بذلك وقال صلى الله عليه وسلم ما تقدم فى حق أويس القرنى رضى الله عنه .

فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس بن عامر القرنى ، فمن لقيه منكم فروه أن يستغفر لكم » وفى رواية خطابا لعمر رضى الله عنه « يأتى عليك أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن كان به برص فبرىء منه إلا موضع درهم ، له أم هو بها بار لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » والله أعلم .

وقتل أيضا أحد بنى عمرو بن الجموح وهو خلاد رضى الله عنه . وقتل أخو زوجته هند بنت حزام وهو عبد الله والد جابر رضى الله عنه ، فحملتهم هند على بعير لها تريد أن تدفنهم فى المدينة ، فلقيتها عائشة رضى الله عنها وقد خرجت فى نسوة يستروحن الخبر فقالت لها عائشة رضى الله عنها : جاء خبر الجيش ، فقالت : أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء . ثم قالت لها : من هؤلاء ؟ قالت : أخى عبد الله وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح رضى الله عنهم ، فبرك بهم البعير وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك ، وإن وجه إلى أرض أحد نزع ، فرجعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبرته ، فقال : إن الجمل مأمور فقبرهم بأحد ، وقال صلى الله عليه وسلم لهند « يا هند مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن » ولعل هذا كان قبل أن ينادى برد القتلى إلى مضاجعهم . قال جابر رضى الله عنه : كان أبى أول قتيل للمسلمين ، قتله أبو الأعور السلمى .

وفى الصحيح أن عائشة رضى الله عنها وأم سليم كانا يسقيان الناس يفرغان من القرب فى أفواه القوم .

أى ولا مخالفة لأنه يجوز أن يكون ذلك شأن عائشة بعد وصولها لأحد ، أى وقد كان صلى الله عليه وسلم خلف اليمان والد حذيفة وثابت بن وقس فى الآطام مع النساء والصبيان لأنهما كانا شيخين كبيرين ، فقال أحدهما لصاحبه : لا أبالك ، ما ننتظر ؟ فوالله إن بقى لواحد منا فى عمره إلا ظمء حمار ، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقنا الشهادة ، فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا فى الناس من جهة المشركين ولم يعلم المسلمون بهما . فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ولم يعرفوه .

وذكر السهيلى أن فى تفسير ابن عباس رضى الله عنهما أن الذى قتله خطأ هو عتبة

ابن مسعود أخو عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، وعتبة هو أول من سمى المصحف مصحفا. وعند ذلك قال حذيفة أبي فقالوا ما عرفناه . فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يديه فتصدق حذيفة رضى الله عنه بديته على المسلمين فزاده ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا . واسم اليمان حسيل ، وقيل له اليمان لأنه نسب إلى جدّه اليمان بن الحارث وقيل إنما قيل له اليمان لأنه أصاب دما فى قومه ، فهرب إلى المدينة ، فحالف بنى الأشهل فسماه قومه اليمان لمحالفته اليمانية : أى وهم أهل المدينة .

ومما يؤثر عن حذيفة رضى الله عنه ، أنه قيل له : من ميت الأحياء ؟ قال : الذى لا ينكر المنكر بيديه ولا بلسانه ولا بقلبه .

وفى الكشاف : وعن حذيفة رضى الله عنه أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه وهو فى صف المشركين أى قبل أن يسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم له : دعه يليه غيرك . هذا كلامه ، ولم أقف على أى غزاة كان ذلك فيها وسياق ما قبله يدل على أنه كان من الأنصار ، كان حليفا لبنى عبد الأشهل ولم يحفظ أن أحدا من الأنصار قاتله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام فليتأمل .

ثم إن هندا زوج أبى سفيان والنسوة اللاتى خرجن معها صرن يمثلن بقتلى المسلمين يجدعن : أى يقطعن من آذانهم وأنوفهم ، واتخذن من ذلك قلائد ، وبقرت : أى شقت هند بطن سيدنا حمزة رضى الله عنه ، أخرجت كبده فلاكتها : أى مضغتها فلم تستطع أن تسيغها : أى تبتلعها ، فلفظتها أى ألقتها من فيها أى لأنها كانت نذرت إن قدرت على حمزة رضى الله عنه لتأكلن من كبده . ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها أخرجت كبد حمزة قال : هل أكلت منه شيئا ؟ قالوا لا قال : إن الله قد حرّم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئا أبدا أى ولو أكلت منه أى استقرّ فى جوفها لم تمسها النار .

وفى رواية « لو أدخل بطنها لم تمسها النار » لأن حمزة أكرم على الله من أن يدخل شىء من جسده النار .

أى ورأيت فى بعض السير أنها شوت منه ثم أكلت .

وقد يقال : لا منافاة ، لجواز حمل الأكل على مجرد المضغ من غير إساغة . قال وفى رواية أن وحشيا هو الذى بقر بطن حمزة رضى الله عنه وأخرج كبده وجاء بها إلى هند ، أى وقال لها ماذا لى إن قتلت قاتل أبيك ، قالت سلبى ، فقال : هذه كبد حمزة فأعطته

ثيابها وحليها ، ووعدته إذا وصلت إلى مكة تدفع له عشرة دنانير . وجاء بها إلى مصرع حمزة رضى الله عنه فجدعت أنفه وأذنيه ، أى وفى لفظ : فقطعت مذاكيره ، وجدعت أنفه وقطعت أذنيه ، ثم جعلت ذلك كالسوار فى يديها وقلائد فى عنقها ، واستمرّت كذلك حتى قدمت مكة .

وفى النهر لأبى حيان أن وحشيا جعل له على قتل حمزة أن يعتق فلم يوف له بذلك فندم على ماصنع .

ثم إن هندا علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وأنشدت أبياتا . ثم إن زوجها أبا سفيان أشرف على الجبل كذا فى البخارى أنه أشرف . وفى رواية كان بأسفل الجبل .

وقد يقال : لا مخالفة لجواز وقوع الأمرين معا ، ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت فعال ، إن الحرب سجال : أى ومعنى سجال : مرّة لنا ومرّة علينا ، يوم أحد بيوم بدر ، وأنعمت بكسر التاء خطابا لنفسه ، أو للأزلام ، لأنه استقسم بها عند خروجه إلى أحد ، فخرج الذى يحب وهو أفعل والفاء من فعال مفتوحة وليست من أبنية الكلمة وهى أمر : أى ارتفع عن لومها : أى النفس أو الأزلام يقال : عال عنى : أى ارتفع عنى ودعنى أى وزاد فى لفظ : يوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسرّ ، حنظلة بحنظلة وفلان بفلان .

أى وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : الحرب سجال ، وقد قال تعالى (إن يمسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) وقد نزل ذلك فى قصة أحد باتفاق .

ثم قال أبو سفيان : إنكم ستجدون فى القوم . وفى رواية فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسرنى . وفى رواية : والله مارضيت وما سخطت ، وما أمرت وما نهيت : وفى لفظ : ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءنى ولا سرنى أى وفى لفظ : أما إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلا ولم تكن عن رأى سراتنا ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : أما إنه إن كان كذلك لم نكرهه . ومر الحليس سيد الأحابيش بأبى سفيان وهو يضرب بزج الرمح فى شدق حمزة رضى الله عنه ويقول ذقه عقق : أى ذق طعم مخالفتك لنا وتركك الذى كنت عليه ياعاق قومه ، جعل إسلامه عقوقا ، فقال الحليس : يا بنى كنانة ، هذا سيد

قريش يفعل بابن عمه ماترون ، فقال أبوسفيان : اكتمها عنى فإنها زلة . وقال أبوسفيان : اعل هبل أى أظهر دينك ، أوازدد علوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قم يا عمر فأجبه ، فقل : الله أعلى وأجل ، لاسواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، فقال أبو سفيان إنكم تزعمون ذلك ، لقد خبنا إذاً وخسرنا ، وهبل هذا تقدم أنه صنم ، وتقدم الكلام عليه .

ورأيت فى كلام الشيخ محيي الدين بن العربى رحمه الله تعالى أنه الحجر الذى يطؤه الناس فى العتبة السفلى من باب بنى شيبة ، وباط الملوك فوقه البلاط . ثم قال أبو سفيان : إن لنا العزى ولاعزى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله مولانا ولامولى لكم» ثم قال أبو سفيان لعمر ، أى بعد أن قال له : هلم ياعمر . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائته فانظر ما شأنه فجاءه ، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا؟ قال عمر رضى الله عنه : لا وإنه ليسمع كلامك الآن . قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر : أى لأنه لما قتل مصعب بن عمير ظنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال قتلت محمدا كما تقدم .

وفى رواية أن أبا سفيان نادى : أفى القوم محمد ، أفى القوم محمد ، قال ذلك ثلاثا فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه . ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة قالها ثلاثا . ثم قال أفى القوم عمر قالها ثلاثا . وفى رواية : أين ابن أبى كبشة أين ابن أبى قحافة أين ابن الخطاب : ثم أقبل على أصحابه . فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم ، إذ لو كانوا أحياء لأجابوا فما ملك عمر رضى الله عنه نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذى عددت لأحياء كلهم ، وقد بقى لك مايسوؤك ، ثم نادى أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وقيل سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه . فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل : أى جعلوها منقادة بجانبهم وامتطوا الإبل : أى ركبوا مطاها : أى ظهورها لأن المطا الظهر فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها

ثم لأناجزهم . قال على كرم الله وجهه أو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة ، أى بعد أن تشاوروا فى نهب المدينة . فأشار عليهم صفوان بن أمية أن لاتفعلوا ، أى وقال لهم . فإنكم لا تدرون ما يغشاكم وفزع الناس لقتلاهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل من رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع : أفى الأحياء هو أم فى الأموات ، أى زاد فى رواية فإنى رأيت الأسنة قد أشرعت إليه . فقال رجل من الأنصار : أى وهو أبى بن كعب ، وقيل محمد بن مسلمة ، وقيل زيد بن حارثة ، وقيل غير ذلك . ويجوز أن يكون أرسلهم كلهم . قال : أنا أنظر لك يا رسول الله . أى وفى رواية : قال للمرسل : إن رأيت سعد ابن الربيع فأقره منى السلام وقل له : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجدك . فنظر فوجد جريحا وبه رمق أى بقيةروح. فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ فقال : أنا فى الأموات قد طعنت اثنتى عشرة طعنة ، وإنى قد أنفذت مقاتلى ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام ، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خيرا ما جزى نبيا عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام ، وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم : لاعذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف . وفى رواية : شفر يطرف أى يتحرك . قال : ثم لم أبرح حتى مات ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره ، أى وفى رواية أنه رأى الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم يدور بين القتلى فقال له : ما شأنك ؟ قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم لآتيه بخبرك . قال : فاذهب إليه الحديث .

وفى رواية إن محمد بن مسلمة رضى الله عنه نادى فى القتلى ياسعد بن الربيع مرة بعد أخرى ، فلم يجبه حتى قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى أنظر ماصنعت ، فأجابه بصوت ضعيف الحديث . أى وفى رواية : اقرأ على قومى منى السلام ، وقل لهم يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فوالله مالكم عند الله عذر الحديث . وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحمه الله نصح لله ولرسوله حيا وميتا » وخلف بنتين فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من ميراثه الثلثين فكان ذلك بيان المراد من الآية ، وهى قوله تعالى (فإن كن نساء فوق

اثنتين فلهن ثلثا ماترك) وفى ذلك نزلت : أى اثنتان فما فوقهما . أى وحينئذ لايحتاج إلى قياس البنتين على الأختين ، بجامع أن للواحدة منهما النصف .

ودخلت بنت له على أبى بكر رضى الله عنه فألقى لها رداءه لتجلس عليه ، فدخل عمر رضى الله عنه فسأله عنها . فقال : هذه ابنة من هو خير منى ومنك . قال : ومن هو يا خليفة رسول الله ؟ قال : رجل تبوأ مقعده من الجنة وبقيت أنا وأنت ، هذه ابنة سعد ابن الربيع رضى الله عنه .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه. فقال له رجل : رأيته بتلك الصخرات وهو يقول : أنا أسد الله وأسد رسوله : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء النفر أبو سفيان وأصحابه، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء بانهزامهم وهذا الدعاء نقل عن أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه غاب عن بدر فشق عليه ذلك، فلما كان يوم أحد ورأى انهزام المسلمين ، أى وكان قد قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله إنى غبت عن أول قتال وقع قاتلت فيه المشركين والله لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ماأصنع . فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء : يعنى أصحابه ، وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء : يعنى المشركين . ولما سمع قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ماتصنعون بالحياة بعده ، موتوا على مامات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم استقبل القوم . أى وقال لسعد بن معاذ : هذه الجنة ورب الكعبة أجد ريحها دون أحد ، وقاتل رضى الله عنه حتى قتل . أى ووجدوا فيه بضعا وثمانين جراحة ، مابين ضربة بسيف أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم . ولما قتل مثل به المشركون ، فما عرفته أخته الربيع إلا ببنانه .

قال ابن أخيه أنس بن مالك رضى الله عنه : لما نزل قوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية ، قلنا إن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه من المؤمنين رضى الله عنه .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو حمزة فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه ومثل به فجدع أنفه وأذناه ، أى وقطعت مذاكيره ، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى شىء لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه . أى وقال « لن أصاب بمثلك ، ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا ، وقال : رحمة الله عليك ، فإنك كنت ما علمتك ، فعولا للخيرات ، وصولا

للرحم ، أما والله لأمثلنّ بسبعين » وفى رواية « بثلاثين رجلا منهم مكانك » وفى رواية « لئن ظفرنى الله تعالى بقريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك » ولما رأى المسلمون جذع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه قالوا : لئن أظفرنا الله تعالى بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن الله تعالى أنزل فى ذلك (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله) الآية ، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر ، ونهى عن المثلة ، وكفر عن يمينه ، وكان نزول هذه الآيات بعد أن مثل صلى الله عليه وسلم بالعرنيين . وستأتى قصتهم فى السرايا .

واعترضه ابن كثير رحمه الله بأن هذه الآيات مكية وقصة أحد فى المدينة بعد الهجرة بثلاث سنوات ، فكيف يلتئم هذا مع هذا ، هذا كلامه .

وقد يقال : يجوز أن يكون ذلك مما تكرر نزوله فليتأمل . وعن ابن مسعود رضى الله عنه « ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيا أشد من بكائه على حمزة رضى الله عنه ، وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشق » أى شهق « حتى بلغ به الغشى يقول : يا عم رسول الله ، وأسد الله ، وأسد رسول الله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات ، يا حمزة يا كاشف الكربات ، يا حمزة يا ذابّ » أى بالذال المعجمة « يا مانع عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى قال ذلك لامع البكاء . فلا يقال هذا من الندب المحرم وهو تعديد محاسن الميت ، لأن ذلك مخصوص بما إذا قارنه البكاء ؛ وليس من نعى الجاهلية المكروه : وهو النداء بذكر محاسن الميت ؛ على أن النداء بذلك محل كراهته إذا كان على وجه التفاخر والتعاظم ، ولم يكن وصفا لنحو صالح للحث على سلوك طريقته .

وقال صلى الله عليه وسلم « جاءنى جبريل عليه السلام ، وأخبرنى بأن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله . وأمر صلى الله عليه وسلم الزبير رضى الله عنه أن يرجع أمه صفية أخت حمزة رضى الله عنها عن رؤيته ، فقال لها : يا أمه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعى ، فدفعت فى صدره وقالت : لم ؟ وقد بلغنى أنه مثل بأخى ، وذلك فى الله فما أرضانى بما كان فى الله من ذلك » أى أنا أشد رضا بذلك من غيرى « لأحتسبن ، ولأصبرنّ إن شاء الله تعالى ، فجاء الزبير

رضى الله عنه ، فأخبره صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : خل سبيلها ، فجاءت واسترجعت واستغفرت له » .

وفى رواية « إن صفية لقيت عليا والزبير رضى الله تعالى عنهما ، فقالت لها : مافعل حمزة : فأرياها أنهما لا يدريان » أى رحمة بها « فجاءت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أخاف على عقلها فوضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت » أى لما رأته ، أى وفى رواية « لما منعها على والزبير رضى الله عنهما قالت : لا أرجع حتى أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رأته قالت : يارسول الله أين ابن أمى حمزة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هو فى الناس . قالت : لا أرجع حتى أنظر إليه ، فجعل الزبير رضى الله عنه يحبسها،فقال صلى الله عليه وسلم : دعها فلما رأته بكت وصارت كلما بكت بكى صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر به فسجى ببرده » وفى رواية « قال ألا كفن ؟ فقام رجل من الأنصار فرمى بثوبه عليه ، ثم قام آخر فرمى بثوبه عليه . فقال صلى الله عليه وسلم : يا جابر هذا الثوب لأبيك وهذا لعمى » وهذا يدل على أن والد جابر رضى الله عنهما استمر لم يقبر إلى ذلك الوقت ، وهو خلاف ظاهر سياق ما تقدم .

وفى رواية « وجاءت صفية معها بثوبين لحمزة ، فكان أحدهما لحمزة ، والآخر لرجل من الأنصار » ولعله والد جابر رضى الله عنهما ، ولعله لما جاءت صفية بالثوبين جعل صلى الله عليه وسلم أحدهما لحمزة ، والآخر لوالد جابر ، وترك ثوبى الرجلين .

وفى رواية « كفن حمزة رضى الله عنه بنمرة ، كانوا إذا مدوها على رأسه انكشفت رجلاه ، وإن مدوها على رجليه انكشفت رأسه ، فمدوها على رأسه ، وجعلوا على رجليه الإذخر » وفى لفظ « الحرمل » أى ويحتاج إلى الجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتهما والمشهور حديث النمرة .

وقد يقال : إنما اختار صلى الله عليه وسلم النمرة على الثوب، لأنه كان بها دم الشهادة أو أراد صلى الله عليه وسلم أن لا يكون لأحد على حمزة رضى الله عنه منة . ويؤيد الأول ما يأتى « ولم يكفنوا إلا فى ثيابهم التى قتلوا فيها » فليتأمل ، فإن السياق يقتضى أن ذلك إنما هو عن احتياج ، وسيأتى ما يصرح به وسيأتى ما يعارضه فليتأمل .

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . قال : قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه يوم أحد ، وكفن فى وبرة إن غطى بها رأسه بدت رجلاه،وإن غطى بها رجلاه بدا رأسه .

وفى رواية « قتل مصعب بن عمير ، فلم يترك إلا نمرة إذا غطينا بها رجليه خرج رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غطوا بها رأسه ، واجعلوا على رجليه الإذخر » .

وكان مصعب بن عمير هذا قبل الإسلام فتى مكة شبابا وجمالا ولباسا وعطرا ولما أسلم رضى الله عنه تشعث .

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه كان صائما وقد جيء له بطعامه ، فقال : قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه وهو خير منى ، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه ، وقد بسط لنا من الدنيا مابسط ، وأعطينا من الدنيا ما أعطينا ، وخشيت أن أكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قلت الثياب ، وكثرت القتلى ، فكان الرجل والرجلان والثلاثة فى الثوب الواحد ، ثم يدفنون فى قبر واحد .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حق حمزة رضى الله عنه « لولا أن تجزع صفية ونساؤنا » أى يتطاول جزعهن ويدوم . وفى رواية « لولا تجد صفية فى نفسها » أى يطول ذلك « وتكون سنة من بعدى لتركنا حمزة ولم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسباع » وفى رواية « حتى تأكله العافية ويحشر من بطونها » ليشتد غضب الله على من فعل به ذلك ثم صلى عليه فكبر أربع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى يوضعون إلى جنب حمزة أى واحدا بعد واحد فيصلى على كل واحد منهم مع حمزة ، ثم يرفع ويؤتى بآخر فيصلى عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة » . وفى رواية « ثنتين وتسعين صلاة » وهذا غريب وسبعين ضعيف .

والرواية الأولى تقتضى أن جملة من قتل بأحد اثنان وسبعون . والرواية الثانية تقتضى أنهم كانوا اثنين وتسعين .

وقوله واحدا بعد واحد قد يخالف ما تقدم عن أنس رضى الله عنه ، من جعل الرجلين أو الثلاثة فى كفن واحد فليتأمل .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى على عشرة عشرة » أى يؤتى بتسعة وحمزة عاشرهم فيصلى عليهم . ثم ترفع التسعة وحمزة مكانه ، ويؤتى بتسعة أخرى فيوضعون إلى جنب حمزة فيصلى عليهم ، حتى فعل ذلك سبع مرات ، وحينئذ يكون جملة من قتل ثلاثة

وستين . وسيأتى الكلام على عدتهم ، وقيل كبر عليهم ، كبر تسعا وسبعا وخمسا أى بعد أن كبر على حمزة وحده أربعا فلا ينافى ما تقدم . ولم أقف على عدد المرات التى كبر فيها ماذكر .

وجاء أن قتلى أحد لم يغسلهم ، ولم يصل عليهم ولم يكفنهم إلا فى ثيابهم التى قتلوا فيها أى غير الجلود ، أخذا مما يأتى : أى ولا يضر تتميم ستر بعضهم بالإذخر . وحينئذ لا يكون تكفين حمزة بنمرته ، ومصعب ببردته وتتميم تكفينهما بالاذخر عن احتياج كما تقدم عن عبد الرحمن بن عوف . وعن أنس رضى الله عنهما أى وقال مغلطاى : وصلى على حمزة والشهداء من غير غسل ، وهذا أى دفنهم من غير غسل إجماع إلا ما شذ به بعض التابعين وفيه نظر ظاهر .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « لقد رأيت الملائكة تغسل حمزة » وتقدم أن هذا السياق يقتضى أن هذه رؤيا نوم . وحينئذ يظهر التوقف فيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قتل حمزة جنبا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذكر . ولعل الراوى عن ابن عباس ذكر حمزة بدل حنظلة غلطا .

أما الصلاة عليهم ؛ فقال إمامنا الشافعى رضى الله عنه : جاءت الأخبار كأنها عيان من وجوه متواترة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يصل على قتلى أحد .

وما روى أنه صلى عليهم وكبر على حمزة سبعين تكبيرة لم يصح ، وقد كان ينبغى لمن عارض بذلك : أى بما روى هذه الأحاديث الصحيحة أن يستحيى على نفسه ؛ أى فإن من رواة ذلك الحديث الدالة على أنه صلى عليهم سعيد بن ميسرة عن أنس رضى الله عنه . وقد قال فيه البخارى إنه يروى المناكير . وقال ابن حبان : يروى الموضوعات ، ومن جملة رواته : أى رواة ذلك الحديث مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقد قال فيه البخارى : منكر الحديث ، ومن ثم ذكر ابن كثير أن الذى فى البخارى « أمر صلى الله عليه وسلم بدفن شهداء أحد بدمائهم ولم يصلّ عليهم ولم يغسلوا » . وهو أثبت من صلاته عليهم .

وأما حديث عتبة بن عامر : أى الذى رواه الشيخان وأبو داود والنسائى وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين صلاته على الميت : أى دعا لهم كدعائه للميت كالمودع للأحياء والأموات أى حين علم قرب أجله ، أى فذلك

كان ثوديعا لهم بذلك . قال: قال السهيلى رحمه الله: لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى على شهيد فى شيء من مغازيه إلا فى هذه الرواية فى أحد، وكذلك لم يصل أحد من الأئمة بعده صلى الله عليه وسلم ا هـ .

وفى النور « أنه صلى الله عليه وسلم صلى على أعرابى فى غزوة أخرى » . وفى البخارى عن جابر رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر فى قتلى أحد بدفنهم بدمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم » بكسر اللام . وفى رواية « ولم يصل عليهم » بفتح اللام .

لا يقال: خبر جابر لا يحتج به لأنه نفى ، وشهادة النفى مردودة مع ماعارضها من خبر الأثبات. لأنا نقول : شهادة النفى إنما ترد إذا لم يحط بها علم الشاهد ولم تكن بحضوره وإلا فتقبل بالاتفاق . وهذه قضية معينة أحاط بها جابر وغيره علما .

واستدل أئمتنا على أن الشهيد لا يغسل ولو كان جنبا بقصة حنظلة رضى الله عنه ، لأن تغسيل الملائكة لا يكتفى به فى إسقاط الحرج عن المكلفين من الإنس لعدم تكليفهم ، بخلاف تغسيل الجن فإنهم مكلفون ودفنوا بثيابهم ، ونزع عنهم الحديد والجلود.

أى وأسلم وحشى رضى الله عنه بعد ذلك ، فإنه فى يوم فتح مكة فرّ إلى الطائف . ثم وفد مع أهل الطائف لما وفدوا ليسلموا . وقد قيل له بعد أن ضاقت عليه : ويحك والله إنه لا يقتل أحدا من الناس دخل دينه . قال وحشى : فلم يرعه صلى الله عليه وسلم إلا أنى قائم على رأسه أشهد شهادة الحق . فقال لى : أنت وحشى ؛ وسألنى كيف قتلت حمزة فأخبرته . ثم قال : ويحك ، غيب عنى وجهك فلا أراك . وفى رواية : لاترنى وجهك . وفى رواية : تفل فى وجهى ثلاث تفلات . وقيل تفل فى الأرض وهو جد مغضب : أى وحينئذ لحق بالشام . وكان وحشى لا يزال يحد فى الخمر فى زمن عمر رضى الله عنه حتى خلع من الديوان قال عمر رضى الله عنه : قد علمت أنه لم يكن الله ليدع قاتل حمزة رضى الله عنه : أى لم يكن ليتركه من الابتلاء . وهذا أى تكرر حدّه فى شرب الخمر . وإخراجه من ديوان المجاهدين من أقبح أنواع الابتلاء ، عافانا الله من ذلك .

وروى الدارقطنى فى صحيحه عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه كان يقول : عجبت لقاتل حمزة كيف ينجو ؛ أى من الابتلاء ، حتى بلغنى أنه مات غريقا فى الخمر . أى وذلك مع ما تقدم ابتلاء فظيع له رضى الله عنه .

وممن مثل به عبد الله بن جحش بدعوة دعاها على نفسه . فقال : أى قبل أحد بيوم :

اللهم ارزقنى غدا رجلا شديدا بأسه فيقتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى. فإذا لقيتك قلت: ياعبد الله فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك وفى رسولك . فيقول الله : صدقت ، قال : وليس هذا من تمنى الموت المنهى عنه انتهى ، أى لأن المنهى عنه أن يكون ذلك لضر نزل به فليتأمل .

وجاء أن عبد الله بن جحش انقطع سيفه يوم أحد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرجون نخلة ، فصار فى يده سيفا ، وكان يسمى العرجون . ودفن هو وخاله حمزة رضى الله عنهما فى قبر واحـــد ، أى وإنما كان حمزة خاله ، لأن أم عبد الله أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان القاتل له أبو الحكم بن الأخنس ابن شريق ، وأبو الحكم هذا قتل كافرا يوم أحد . وقال صلى الله عليه وسلم ادفنوا عبد الله بن عمرو أى وهو والد جابر رضى الله عنهما وعمرو بن الجموح وهو زوج عمة جابر رضى الله عنهم فى قبر واحد لمـــا بينهما من الصفاء . وعبد الله بن عمرو هذا قد أصابه جرح فى وجهه ومات ويده على جرحه ، فأميطت يده عن وجهه فانبعث الدم ، فردت يده إلى مكانها فسكن .

ويقال إن السيل حفر قبر عبدالله بن عمرو والد جابر رضى الله عنهما وعمرو بن الجموح فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس . وأنه أزيلت يد عمرو عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت . وكان ذلك بعد الواقعة لست وأربعين سنة .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال : استصرخنا إلى قتلانا بأحد ، وذلك حين أجرى معاوية رضى الله عنه العين فى وسط مقبرة شهداء أحد ، وأمر الناس بنقل موتاهم فأخرجناهم رطابا تنثنى أطرافهم ، وذلك على رأس أربعين سنة ، ولعله وما قبله لايخالف قول السهيلى وذلك بعد ثلاثين سنة ، وأصابت المسحاة قدم حمزة رضى الله عنه فانبعث دما.

وذكر أنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك . وفى لفظ نحو خمسين سنة مع أن أرض المدينة سبخة يتغير الميت فى قبره من ليلته : أى لأن الأرض لا تأكل لحوم شهداء المعركة كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . زاد بعضهم : قارىء القرآن ، والعالم ، ومحتسب الأذان . ويدل للأخير ما فى الطبرانى من حديث عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما : المؤذن المحتسب كالمتشحط فى دمه لا يدود فى قبره أى كشهيد المعركة لا يأكله الدود فى القبر . وقد نظم هؤلاء الشيخ التتائى المــالكى رحمه الله تعالى فقال :

لا تأكل الأرض جسما للنبى ولا لعـــالم وشهيد قتل معترك
ولا لقارئ قرآن ومحتسب أذانه لإله مجـــرى الفلك

ودفن خارجة بن زيد وسعد بن الربيع رضى الله عنهما فى قبر واحد، لأنه كان ابن عمه وولده خارجة وهو زيد بن خارجة الذى تـكلم بعد الموت .

ذكر أن خارجة أخذته الرماح فجرح بضعة عشر جرحا فمر به صفوان بن أمية بن خلف فعرفه فأجهز عليه ، وقال : الآن شفيت نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد . قتلت خارجة بن زيد ، وقتلت أوس بن أرقم ، وقتلت أبا نوفل ، ودفن النعمان ابن مالك وعبد بنى الحسحاس فى قبر واحد ، وربما دفنوا ثلاثة فى قبر ، وصار صلى الله عليه وسلم يقول «احفروا وأوسعوا وأعمقوا» وكان صلى الله عليه وسلم يقول « انظروا أكثر هؤلاء جمعا » أى حفظا للقرآن « فقدموه فى القبر » أى فى اللحد .

واحتمل ناس من المدينة قتلاهم إلى المدينة ، فردهم صلى الله عليه وسلم ليدفنوا حيث قتلوا وبه استدل أئمتنا رحمهم الله على حرمة نقل الميت قبل دفنه من محل موته إلى محل أبعد من مقبرة محل موته .

وفيه أنهم قالوا : إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة أو بيت المقدس ، نص على ذلك إمامنا الشافعى رحمه الله .

وقد يجاب بأن هذا مخصوص بغير الشهيد. أما هو فالأفضل دفنه بمحل موته ولو بقربه ما ذكر كما بحث ذلك بعض المتأخرين من أئمتنا . ويشهد له ما هنا .

ولا يشكل دفن اثنين أوثلاثة فى لحد على قول فقهائنا بحرمة جمع اثنين فى لحد ولو الوالد وولده ، لأن محل ذلك حيث لا ضرورة كـكثرة الموتى ومشقة الحفر لكل واحد كما هنا .

ثم رأيت فى بعض السير : وقد ثبت فى صحيح البخارى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين والثلاثة فى القبر الواحد» . وإنما أرخص لهم فى ذلك لما بالمسلمين من الجراح التى يشق معها أن يحفروا لـكل واحد واحد .

وفى رواية « فحملوهم إلى المدينة فدفنوهم فى نواحيها ، فجاء منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوا القتلى إلى مضاجعهم ، فأدرك المنادى واحدا لم يكن دفن فرد ومن دفن أبقوه .

ولما أشرف صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد قال « أنا شهيد على هؤلاء ، ومامن

جرح بجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك» .

وفى رواية «إنه ليس مكلوم يكلم فى الله تعالى إلا وهو يأتى يوم القيامة لونه» أى لون الكلم أى الجرح « لون الدم ، وريحه ريح مسك » أى وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا » أى يمتنعوا عن الحرب « فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء » الآية .

وقد بينت فى [النفحة العلوية] أن الأرواح فى البرزخ متفاوتة فى مستقرها أعظم تفاوت ، فلا تعارض بين الأدلة الدالة على تلك الأقوال المختلفة ، وحينئذ تكون أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع كونها فى الملأ الأعلى متفاوتة فيه ، وأرواح المؤمنين غير الشهداء أو غير الأطفال . منها ما هو سماوى . ومنها ما هو أرضى . وأرواح الأطفال فى حواصل عصافير الجنة عند جبال المسك . وأرواح الشهداء منهم من تكون روحه على باب الجنة . ومنهم من تكون داخلها ، وحينئذ إما أن تكون فى جوف طير أخضر أو طير أبيض . ومنهم من تكون روحه على صورة الطير .

وفى كلام القرطبى رحمه الله قال علماؤنا : أرواح الشهداء طبقات مختلفة ، ومنازل متباينة يجمعها أنهم يرزقون ، أى وتقدم الكلام على رزقهم .

أى ومن جملة من قتل من الصحابة يوم أحد أبو جابر أى كما تقدم فقال صلى الله عليه وسلم لجابر رضى الله عنه « يا جابر ألا أخبرك ما كلم الله تعالى أحدا قط » لعل المراد من هؤلاء الشهداء كما يرشد إليه السياق « إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحا ، فقال : سلنى أعطك ، فقال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق منى أنهم لا يرجعون إلى الدنيا . قال : أى رب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) » الآية . أى ولا مانع من تعدد النزول للآية فلا يخالف ما تقدم قريبا .

اى وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال « لما قتل أبي جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينهونى والنبى صلى الله عليه وسلم لم ينهنى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تبكيه أو لاتبكيه ، ما زالت الملائكة عليهم السلام مظلة له بأجنحتها حتى رفع »أى وسيأتى أن جابرا رضى الله عنه لم يحضر القتال.

وعن بشير بن عفراء رضى الله عنهما قال « أصيب أبي يوم أحد ، فمرّ بى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى ، فقال : أما ترضى أن تكون عائشة أمك، وأكون أنا أباك» . ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها وفى رواية : « وابنها يوم أحد ، فلما نعوا لها ، قالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ما فعل به ، قالوا : خيرا ياأم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته صلى الله عليه وسلم قالت : كل مصيبة بعدك جلل تريد صغيرة. والجلل كما يقال للشيء الصغير يقال للشيء الكبير ، فهو من الأضداد . وفى لفظ « أنها مرت بأخيها وأبيها وزوجها وابنها صرعى . وصارت كلما سألت عن واحد وقالت من هذا قيل لها هذا أخوك وابنك وزوجك وأبوك ، فلم تكترث بذلك ، بل صارت تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : أمامك حتى جاءته أخذت بناحية ثوبه ، ثم جعلت تقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله،لا أبالى إذ سلمت من عطب».

وأصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته. أى فأرادوا قطعها ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « لا فدعاه فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده » أى أخذها بيده الشريفة «وردها إلى موضعها» أى براحته الشريفة «وقال: اللهم اكسه جمالا فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظرا، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى » .

أي وجاء عن قتادة رضى الله عنه أنه قال « كنت يوم أحد أتقى السهام بوجهى عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان آخرها سهما ندرت منه حدقتى ، فأخذتها » أى رفعتها « بيدى أى وقلت : يارسول الله إن لى امرأة أحبها وأخشى أن ترانى تقذرنى أى وقال له صلى الله عليه وسلم إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت رددتها ودعوت الله تعالى لك ، فقال : يارسول الله إن الجنة لجزاء جزيل ، وعطاء جليل ، وإنى مغرم بحب النساء . وأخاف أن يقلن أعور فلا يردننى ، ولكن تردها وتسأل الله تعالى لى الجنة فردها ودعا لى بالجنة » .

وجاء عن قتادة رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم لما رآها فى كفى » أى مرفوعة دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم ق قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه ، فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظرا ، أى بعد أن ردها إلى موضعها براحته الشريفة » كما تقدم ، وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله فى وصف راحته الشريفة :

وأعادت على قتادة عينا فهى حتى مماته النجلاء

أى وأعادت تلك الراحة الشريفة على قتادة بن النعمان رضى الله تعالى عنه عينا له ذهبت ، فهى إلى مماته الواسعة : أى الكثيرة النظر .

قال الشيخ ابن حجر الهيتمى : ويجمع بين رواية العين الواحدة ورواية الثنتين : أى فقد جاء فى حديث غريب « أصيبت عيناى فسقطتا على وجنتى ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعادهما وبصق فيهما ، فعادتا تبرقان » بأن أحد الرواة ظن أن الساقطة واحدة وبعضهم أن الساقط ثنتان ، فأخبر كلّ بحسب علمه .

ومن قواعدهم أن زيادة الثقة مقبولة ، وبها تترجح رواية إحدى الثنتين ، هذا كلامه فليتأمل . وكون ذلك كان يوم أحد هو المشهور . وقيل يوم الخندق .

وقد حكى أبو عمر بن عبد البر أن رجلا من ولد قتادة قدم على عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ؛ فقال له : من الرجل ؟ فقال :

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر بن عبد العزيز :

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فوصله عمر وأحسن جائزته .

ورمى كلثوم بن الحصين بسهم فى نحره ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق عليه فبرأ . وحضرت الملائكة عليهم السلام يوم أحد ولم تقاتل .

قال : ويؤيده قول مجاهد رحمه الله : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، لكن جاء عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه قال « رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ؛ ومارأيناهما قبل ولا بعد ، أى وهما جبريل وميكائيل عليهما السلام » ولا منافاة ، فقد قال البيهقى

رحمه الله : لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم أى فلا ينافى أنهم قاتلوا عنه صلى الله عليه وسلم خاصة اه .

أقول : ويجوز أن يكون المراد بمقاتلتهما دفعهما عنه صلى الله عليه وسلم . وفيه أنه جاء عن الحارث بن الصمة رضى الله تعالى عنه قال « سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الشعب عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ، فقلت : رأيته فى جنب الجبل ، فقال : الملائكة تقاتل معه . قال الحارث : فرجعت إلى عبد الرحمن ، فإذا بين يديه سبعة صرعى فقلت : ظفرت يمينك أكل هؤلاء قتلت ؟ قال : أما هذا وهذا فأنا قتلتهما . وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره ، فقال صدق الله ورسوله » أى ومقاتلة الملائكة عن خصوص عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه لاينافى مقاتلتهم يوم بدر عن عموم القوم .

وفى الإمتاع ، كان قد نزل قبل أن يخرج صلى الله عليه وسلم إلى أحد قوله تعالى (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين) فلم يصبروا وانكشفوا فلم يمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بملك واحد يوم أحد ، فليتأمل والله أعلم .

ولما قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه وسقط اللواء أخذه ملك فى صورة مصعب : أى فإنه لما قطعت يده اليمنى أخذ اللواء بيده اليسرى ، أى وهو يقول (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية ، فلما قطعت جثى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية ، ولم تكن هذه الآية نزلت ، بل قالها لما سمع قول القائل قتل محمد ، وإنما نزلت : أى بعد قوله فى ذلك اليوم كما فى الدر فهو من القرآن الذى نزل على لسان بعض الصحابة ثم قتل ، أى وهذا لا ينافى ماتقدم ، من أنه قاتل دونه صلى الله عليه وسلم ، فقتله ابن قمئة لعنه الله وهو يظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قتله أبىّ بن خلف لعنه الله ، لأنه يجوز أن يكون قتله وهو على هذه الكيفية المذكورة .

ثم رأيت فى بعض الروايات أن ابن قمئة فعل به هذه الكيفية ، أى ثم قتله ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للملك الذى على صورة مصعب ، تقدم يامصعب ، فالتفت إليه الملك فقال : لست بمصعب ، فعرف صلى الله عليه وسلم أنه ملك أيد به .

وفى رواية أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه لما سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : أقدم مصعب ، قال : يا رسول الله ، ألم يقتل مصعب ؟ قال : بلى ولكن ملك قام مقامه وتسمى باسمه ، أى فلا ينافى ذلك قول الملك له صلى الله عليه وسلم لما قال له تقدم يامصعب : لست بمصعب ، لأن مراده لست بمصعب الذى هو صاحبكم .

ورأيت فى رواية أنه لما سقط اللواء أخذه أبو الروم أخو مصعب ، ولم يزل فى يده حتى دخل المدينة ، فليتأمل ، ووجود هذا الملك يخالف ما تقدم عن الإمتاع ، من أنه صلى الله عليه وسلم لم يمدّ بملك واحد .

ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إلى المدينة ركب فرسه ، وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى ، أى ومعه أربع عشرة امرأة ، فلما كانوا بأصل أحد قال صلى الله عليه وسلم : اصطفوا حتى أثنى علىّ ربى عز وجل ، فاصطف الرجال خلفه صفوفا ، وخلفهم النساء . فقال « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لاقابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولامانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما أبعدت ، ولا مبعد لما قربت » الحديث .

ثم توجه صلى الله عليه وسلم للمدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش بنت عمته صلى الله عليه وسلم أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها ، فقال لها صلى الله عليه وسلم احتسبى ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة ، قالت (إنا لله وإنا إليه راجعون) غفر الله له ، هنيئا له الشهادة . ثم قال لها : احتسبى ، قالت : من يارسول الله؟ قال : أخاك عبد الله بن جحش ، قالت (إنا لله وإنا إليه راجعون) غفر الله له ، هنيئا له الشهادة . ثم قال لها : احتسبى ، قالت : من يارسول الله ؟ قال : زوجك مصعب ابن عمير ، فقالت : واحزناه وصاحت وولولت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن زوج المرأة لبمكان ماهو لأحد ، لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها ثم قال لها : لم قلت هذا ؟ قالت : تذكرت يتم بنيه فراعنى ، فدعا لها صلى الله عليه وسلم ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوّجت طلحة بن عبيد الله ، فكان أوصل الناس لولدها ، وولدت له محمد بن طلحة .

قال : وجاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على فرسه وسعد بن معاذ آخذ بلجامها . فقال له سعد : يارسول الله أمى ؛ فقال صلى الله

عليه وسلم : مرحبا بها ، فوقف لها ، فدنت حتى تأملت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنها عمرو بن معاذ . فقالت : أما إذا رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة : أى استقليتها ؛ ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل من قتل بأحد : أى بعد أن قال لأم سعد : يا أم سعد أبشرى ، وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعا ، وقد شفعوا فى أهلهم جميعا ، قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟! . ثم قالت : يارسول الله ادع لمن خلفوا . فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا .

وسمع صلى الله عليه وسلم نساء الأنصار يبكين على أزواجهن ، أى وأبنائهن وإخوانهن . فقال : حمزة لابواكى له ، أى وبكى صلى الله عليه وسلم ، ولعله رضى الله عنه لم يكن له بالمدينة لا زوجة ولا بنت ، فأمر سعد بن معاذ نساءه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكين حمزة بين المغرب والعشاء . أى وكذلك أسيد ابن حضير أمر نسائه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكين حمزة.

أى ولما جاء صلى الله عليه وسلم بيته حمله السعدان وأنزلاه عن فرسه ثم اتكأ عليهما حتى دخل بيته ، ثم أذن بلال لصلاة المغرب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل تلك الحال يتوكأ على السعدين ، فصلى صلى الله عليه وسلم ، فلما رجع من المسجد من صلاة المغرب سمع البكا ، فقال : ما هذا ؟ فقيل نساء الأنصار يبكين حمزة ، فقال : رضى الله عنكن وعن أولادكن ، وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن .

وفى رواية : خرج عليهن ، أى بعد ثلث الليل لصلاة العشاء فإن بلالا أذن بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذهب ثلث الليل نادى بلال : الصلاة يارسول الله ، فقام من نومه وخرج وهن على باب المسجد يبكين حمزة رضى الله عنه . ولا يخالف ماسبق ، لأن بيت عائشة رضى الله عنها كان ملاصقا للمسجد ، فقال لهن : ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معى ، رحم الله الأنصار ، فإن المواساة فيهم كما علمت قديمة .

أى ولا منافاة ، لأنه يجوز أن يكون الأمر عند رجوعه من صلاة المغرب كان لطائفة وبعد ثلث الليل كان لطائفة أخرى ، وصارت الواحدة من نساء الأنصار بعد لا تبكى على ميتها إلا بدأت بالبكاء على حمزة رضى الله عنه ثم بكت على ميتها . ولعل المراد بالبكاء النوح ، وباتت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه صلى الله عليه وسلم بالمسجد يحرسونه خوفا من قريش أن تعود إلى المدينة .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم نهى نساء الأنصار عن النوح ، وقال له الأنصار : يارسول الله ، بلغنا أنك نهيت عن النوح ، وإنما هو شيء نندب به موتانا ، ونجد فيه بعض الراحة ، فائذن لنا فيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن فعلن ، فلا يخمشن ، ولا يلطمن ، ولا يحلقن شعرا ، ولا يشققن جيبا .

وجاء أنه فى يوم أحد دفع علىّ كرمّ الله وجهه سيفه لفاطمة رضى الله عنها وقال لها اغسليه غير ذميم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن تكن أحسنت فقد أحسن فلان وفلان وعدّد جماعة ، أى منهم سهل بن حنيف وأبو دجانة .

وما روى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم فى يوم أحد دفع سيفه ذا الفقار لابنته فاطمة رضى الله عنها وقال : اغسلى عنه دمه ، لقد صدقنى اليوم ، وناولها على كرم الله وجهه سيفه وقال : وهذا فاغسلى عنه دمه ،فوالله لقد صدقنى اليوم ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : لئن صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة .

وعن ابن عقبة لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف على كرم وجهه مختضبا دما ، قال : إن تكن أحسنت القتال فقد أحسن عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح والحارث ابن الصمة وسهل بن حنيف . وكونه صلى الله عليه وسلم دفع سيفه لابنته فاطمة رضى الله عنها رده الإمام أبو العباس بن تيمية ، بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقاتل فى ذلك اليوم بسيف ، لكن فى النور أن هذا الحديث لم يتعقبه الذهبى . قال : ففيه ردّ على ابن تيمية هذا كلامه فليتأمل .

والأكثر على أن الذين قتلوا يوم أحد من المسلمين سبعون : أربعة من المهاجرين ، وهم : حمزة ومصعب وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان ، وقيل ثمانون : أربعة وسبعون من الأنصار وستة من المهاجرين . قال الحافظ ابن حجر : لعل الخامس سعد مولى حاطب بن أبى بلتعة . والسادس ثقيف بن عمرو حليف بنى عبد شمس ، وعلهم فى الأصل ستة وتسعين ، وهذا لايناسب ما تقدم فى بدر من قوله صلى الله عليه وسلم : إن شئتم أخذتم منهم الفداء ، ويستشهد منكم سبعون بعد ذلك ، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون ، وقيل اثنان وعشرون .

أقول: انظر هذا مع ماتقدم من أن حمزة وحده قتل واحدا وثلاثين. ورأيت فى الطبقات

لمولانا الشيخ عبد الوهاب الشعرانى نفعنا الله ببركاته ، أن أويسا القرنى كان مشغولا بخدمة والدته ، فلذلك لم يجتمع بالنبىّ صلى الله عليه وسلم .

وقد روى أنه اجتمع به مرات وحضر معه وقعة أحد وقال : والله ما كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم حتى كسرت رباعيتى ولا شجّ وجهه الشريف حتى شجّ وجهى ، ولا وطئ ظهره حتى وطئ ظهرى ، قال : هكذا رأيت هذا الكلام فى بعض المؤلفات والله أعلم بالحال هذا كلامه ، ولم أقف على أنه عليه الصلاة والسلام وطئ ظهره فى غزوة أحد ، فإن مجموع مادلت عليه الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم شجّ وجهه ، وكسرت رباعيته ، وجرحت وجنتاه وشفته السفلى من باطنها ، ووهى منكبه ، وجحشت ركبته .

ثم رأيت بعض المؤرخين ذكر أن سيدنا عمر رضى الله عنه سمع بعد وفاة النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول وهو يبكى : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضلك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقد قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بذنبك ، فقال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) إلى أن قال : فلقد وطئ ظهرك ، وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

ومما يدل على أن أويسا لم يجتمع بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم « خير التابعين رجل يقال له أويس القرنى » وما أخرجه البيهقى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «سيكون فى التابعين رجل من قرن يقال له أويس بن عامر » وفى رواية أن عمر قال لأويس استغفر لى ، فقال : كيف أستغفر لك وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال له عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن خير التابعين رجل يقال له أويس » والمراد من خير التابعين كما فى بعض الروايات ، فلا ينافى ما نقل عن أحمد بن حنبل وغيره أن أفضل التابعين سعيد بن المسيب .

ومما يدل على أن أويسا لم يكن موجودا فى زمنه صلى الله عليه وسلم ما جاء فى الجامع الصغير « سيكون بعدى فى أمتى رجل يقال له أويس القرنى ، وإن شفاعته فى أمتى مثل ربيعة ومضر » .

وفى أسد الغابة أن أويسا أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره ، وسكن الكوفة وهو من كبار تابعى الكوفة ، وكان يسخر به .

ووفد رجل ممن كان يسخر به مع جماعة من أهل الكوفة على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال عمر : هل ههنا أحد من القرنيين ، فجاء ذلك الرجل ، فقال له عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال « إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس القرنى وقد كان به بياض ، فدعا الله تعالى فأذهب عنه إلا قدر الدينار أو الدرهم ، فمن لقيه منكم فروه أن يستغفر لكم » فأقبل ذلك الرجل لما قدم الكوفة إلى أويس قبل أن يأتى أهله ، فقال له أويس : ما هذا بعادتك ؟ قال : سمعت عمر رضى الله عنه يقول : كذا وكذا فاستغفر لى ، قال : لا أفعل حتى تجعل لى عليك أن لا تسخر بى ولا تذكر قول عمر لأحد فالتزم له ذلك فاستغفر له ، وقتل أويس يوم صفين مع على كرم الله وجهه .

ولما وصل صلى الله عليه وسلم المدينة أظهر المنافقون واليهود الشماتة والسرور ، وصاروا يظهرون أقبح القول ، أى ومنه : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب بمثل هذا نبى قط ؛ أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه ، ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل .

واستأذنه صلى الله عليه وسلم عمر فى قتل هؤلاء المنافقين ، فقال : أليس يظهرون شهادة أن لا إله الله وأنى رسول الله ؟ قال : بلى ، ولكن تعوذا من السيف ، فقد بان أمرهم وأبدى الله تعالى أضغانهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : نهيت عن قتل من أظهر ذلك ، وصار ابن أبى لعنه الله يوبخ ابنه عبد الله رضى الله عنه وقد أثبتته الجراحة فقال له ابنه : الذى صنع الله لرسوله والمسلمين خير .

قال : وكانت عادة عبد الله بن أبى ابن سلول إذا جلس صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر قام فقال : « أيها الناس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم أكرمكم الله تعالى به وأعزكم ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس » فبعد أحد أراد أن يفعل كذلك ، فلما قام أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه وقالو له : اجلس عدو الله ، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ماصنعت ، فخرج وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول : كأنى إنما قلت هجرا ، وقال له بعض الأنصار : ارجع يستغفرلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله ماأبتغى أن يستغفر لى ، وأنزل الله تعالى قصة أحد

فى آل عمـران ، وهى قوله تعالى (وإذ غدرت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال) الآية .

غزوة حمراء الأسد

لما كان صبيحة قدومه صلى الله عليه وسلم من أحد أذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا خلف قريش ، وأن لايخرج إلا من حضر أحدا ، وذلك إرهابا للعدو ، وليبلغهم أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى طلبهم ليظنوا به صلى الله عليه وسلم قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم : أى يضعفهم عن عدوهم .

قال : وقيل لأنه صلى الله عليه وسلم بلغه أن أبا سفيان يريد أن يرجع بقريش إلى المدينة ليستأصلوا من بقى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد بلغه أن المشركين قالوا له : لامحمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ماصنعتم ارجعوا .

أى وفى لفظ أنهم لما بلغوا بعض الطريق قدموا فقالوا بئس ماصنعتم ، إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم ، ارجعوا فاستأصلوهم قبل أن يجدوا قوة وشوكة ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب .

ويذكر أن عبد الله بن عوف جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم صبيحة قدومه صلى الله عليه وسلم من أحد وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بمحل كذا إذا قريش قد نزلوا به ؛ فسمع أبا سفيان وأصحابه يقولون : ماصنعتم شيئا قد بقى منهم رءوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول : ياقوم لاتفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف عن الخروج ، فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرشدهم صفوان ، وماكان يرشد فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وذكر لهما الخبر : أى ما أخبر به عبد الله بن عوف فقالا : يارسول الله اطلب العدو لايقتحمون على الذرية . فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح ندب الناس ، وأمر بلالا أن ينادى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج إلا من حضر القتال بالأمس ، انتهى .

وعند تهيئه صلى الله عليه وسلم للخروج جاء جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فقال :

يارسول الله إنما تخلف عن أحد ، لأن أبى خلفنى على أخوات لى سبع ، أى وقيل وهو الصحيح إنهن تسع ، وقال : يابنى إنه لاينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لارجل فيهن ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل الله يرزقنى الشهادة فتخاف على أخواتك فاستخلفت عليهن واستأثر على بالشهادة ، فأئذن لى يارسول الله معك ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيرى . واستأذنه رجال لم يحضروا القتال أى منهم عبد الله بن أبى قال له أنا راكب معك ، فأبى ذلك عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلوائه وهو معقود لم يحل ، فدفعه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويقال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه واستخلف على المدينة ابن أم . مكتوم . وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه : أى المسمى بالسكب ، ولم يكن مع أصحابه فرس سواه ، وعليه الدرع والمغفر وما يرى إلا عيناه [ ] وخرج الناس معه : أى جميع من كان معه صلى الله عليه وسلم فى أحد .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت فى قوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح) الآية ، قالت لعروة بن الزبير : يابن أختى كان أبوك الزبير رضى الله عنه وأبو بكر لما أصاب نبى الله ماأصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال : من يرجع فى أثرهم ، فانتدب منهم سبعون رجلا . قال ابن كثير وهذا السياق غريب جدا ، فإن المشهور عند أصحاب المغازى أن الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد كل من شهد أحدا وكانوا سبعمائة كما تقدم ، قتل منهم سبعون وبقى الباقى ، هذا كلامه فليتأمل مع ماتقدم .

قال : والظاهر أنه لاتخالف ، لأن معنى قولها يعنى عائشة : أنهم سبقوا غيرهم ، ثم تلاحق بهم الباقون وخرجوا وبهم الجراحات ولم يعرجوا على دواء جراحاتهم : أى لم يلتفتوا لذلك ، والمراد دواء غير تكميد جراحهم بالنار ، وهو أن تسخن خرقة وتوضع على العضو الوجع ، ويتابع ذلك مرة بعد أخرى ليسكن الوجع ، فلا يخالف أنهم فعلوا ذلك : أى أوقدوا النيران يكمدون بها جراحاتهم تلك الليلة .

فمنهم من كان به تسع جراحات وهو أسيد بن حضير رضى الله عنه ، وعقبة بن عامر رضى الله عنه . ومنهم من كان به عشر جراحات ، وهو خراش بن الصمة رضى الله عنه .

ومنهم من كان به بضع عشرة جراحة ، وهو كعب بن مالك رضى الله عنه . ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة ، وهو طلحة بن عبيد الله ، وقطعت أصبعه . قيل السبابة ، وقيل البنصر. فشلت بقية أصابع يده وهى اليسرى . وفى رواية أنامله كما تقدم . ومنهم من كان به عشرون جراحة ، وهو عبد الرحمن بن عوف كما تقدم : أى وجرح من بنى سلمة أربعون جريحا فقال صلى الله عليه وسلم لما رآهم « اللهم ارحم بنى سلمة » .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مجروح ، وفى وجهه أثر الحلقتين ، ومشجوج فى وجهه ، ومكسورة رباعيته وشفته السفلى قد جرحت من باطنها : أى وفى المنتقى : وشفته العليا قد كلمت من باطنها متوهن منكبه الأيمن لضربة ابن قمئة لعنه الله ، وركبتاه مجروحتان من وقعته فى الحفيرة، وتلقاه صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، فقال له ياطلحة أين سلاحك ؟ فقال : قريب ، فذهب وأتى بسلاحه وبصدره تسع جراحات من تلك الجراحات التى به ، وهى كما تقدم بضع وسبعون جراحة. يقول طلحة وأنا أهم بجراح رسول الله صلى الله عليه وسلم منى بجراحى. ثم أقبل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياطلحة أين ترى القوم ، فقلت : بالسفالة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك الذى ظننت ، أما إنهم ياطلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « يابن الخطاب : إن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن» اهـ .

وكان دليله صلى الله عليه وسلم فى السير ثابت بن الضحاك ، وليس هو أخا جبير ، وقيل أخوه ، ولا زالوا سائرين حتى عسكروا بحمراء الأسد : أى وهو محل بينه وبين المدينة ثمانية أميال ، أى وقيل عشرة أميال .

وعن رجل من الأنصار قال « شهدت أحد أنا وأخى ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدو، فقال لى أخى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » وفى لفظ « إن تركنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لفسق والله مالنا من دابة نركبها ، فخرجنا وكنت أيسر جراحا منه ، فكنت إذا غلب حملته عقبة ويمشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون من حمراء الأسد، أى وذلك عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فجاءتهما الحرس وكان على حرسه تلك الليلة عباد بن بشر مع طائفة، فلما أتى بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما ما حبسكما؟ فأخبراه بغلبتهما فدعا لهما

بخير وقال لهما : إن طالت بكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل وذلك ليس بخير لكم « إن وهذان الرجلان عبد الله ورافع ابنا سهيل بن رافع والذى ضعف عن المشى رافع ، والحامل له عبد الله .

وأقام المسلمون بذلك المحل ثلاث ليال ، وكانوا يوقدون فى كل ليلة من تلك الليالى خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد . وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه ، فكبت الله تعالى عدوّهم . قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : وكان عامة زادنا التمر .

وحمل سعد بن عبادة رضى الله عنه ثلاثين بعيرا حتى وافت حمراء الأسد وساق جزرا لتنحر ، فنحروا فى يوم اثنين وفى يوم ثلاثا . ولقى كفار قريش معبدا الخزاعى ، وكان يومئذ مشركا بالروحاء ، وكان رأى خروجه صلى الله عليه وسلم خلف قريش ، فأخبرهم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلبهم ، وقد كانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة فكسرهم خروجه فتمادوا إلى مكة . قال : لما كان صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد لقيه معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم تحبه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد والله لقد عزّ علينا ماأصابك فى نفسك وما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت لغيرك . ثم مضى معبد حتى كان بالروحاء . فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : هذا معبد وعنده الخبر ، ماوراءك يامعبد ؟ فقال : تركت محمدا وأصحابه قد خرجوا لطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا على أن لايرجعوا حتى يلقوكم فيثأروا : أى يأخذوا ثأرهم منكم ، وغضبوا لقومهم غضبا شديدا ، وندموا على مافعلوا فيهم من الحنق شىء لم أر مثله قط ، قال : ويلك ماتقول ؟ قال : والله ماأرى أن ترحل حتى ترى نواصى الخيل ، فقال : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، فانصرفوا سراعا اه .

أى وعند انصرافهم أرسل أبو سفيان مع نفر يريدون المدينة أن يخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم أجمعوا على الرجعة ، فلما بلغوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : صلى الله عليه وسلم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح) الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم « والذى

نفسي بيده لقد سومت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب » أى وأرسل معبد الخزاعي رجلا يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانصراف أبى سفيان ومن معه خائفين ، فانصرف إلى المدينة، وظفر صلى الله عليه وسلم فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى مع عليه وقد أسر ببدر من غير فداء لأجل بناته ؛ وأخذ عليه عهدا أن لايقاتله ولا يكثر عليه جمعا ولا يظاهر عليه أحدا كما تقدم ، فنقض العهد ، وخرج مع قريش لأحد، وصار يستنفر الناس ويحرضهم على قتاله صلى الله عليه وسلم بأشعاره كما تقدم . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لايفلت فأسر . ثم قيل : إن المشركين لما نزلوا بحمراء الأسد تركوه نائما ، فاستمر حتى ارتفع النهار ، وكان الذى أخذه عاصم بن ثابت،وماأسر أحد من المشركين غيره فى تلك الوقعة ، وقيل أسره عمير بن عبد الله .

وفى النور : لاأستحضر أحدا فى الصحابة اسمه عمير بن عبد الله ، فلما جيء به إليه صلى الله عليه وسلم قال : يامحمد أقلنى وامنن على ؛ ودعنى لبناتى ، وأعطيك عهدا أن لاأعود لمثل مافعلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا والله لاتمسح عارضيك بمكة . وفى لفظ : تمسح لحيتك تجلس بالحجر ، تقول خدعت محمدا . وفى لفظ : سحرت محمدا مرتين اضرب عنقه يازيد . وفى لفظ : ياعاصم بن ثابت. وفى لفظ :يازبير، وقال صلى الله عليه وسلم « لايلدغ » بالدال المهملة والغين المعجمة . وفى لفظ « لايلسع المؤمن من جحر مرتين » فضرب عنقه .

وذكر أن رأسه حمل إلى المدينة مشهورا على رمح . قال بعضهم : وهو أول رأس حمل فى الإسلام ، أى ولا ينافيه ماقيل إن أول رأس حمل فى الإسلام رأس كعب بن الأشرف كما سيأتى فى السرايا ، لإمكان أن يراد أن رأس أبى عزة أول رأس حمل إلى المدينة على رمح . ولعل هذا لاينافى ماحكاه بعضهم أن عمرو بن الجموح كان رابع الأربعة الذين دخلوا على سيدنا عثمان الدار ، وكان مع على كرم الله وجهه فى مشاهده . فلما ولى معاوية رضى الله عنه فر هاربا إلى العراق فنهشته حية فدخل غارا ومات ، فأخبر بذلك زياد والى العراق ، فأرسل من حز رأسه وأرسل به إلى معاوية ، فكان أول رأس نقل فى الإسلام من بلد إلى بلد .

قال بعضهم فى معنى هذا المثل : أى لايلدغ المؤمن من جحر مرتين : إنه ينبغى للمرء أن يستعمل الحزم ، وهذا المثل لم يسمع من غيره صلى الله عليه وسلم . ومورده أن شخصا

جرد سيفه وقصد النبي صلى الله عليه وسلم فضربه ليقتله فأخطأت الضربة ، فقال : كنت مازحا يامحمد فعفا عنه ، ثم عاد لمثل ذلك مرة أخرى وقال مثل ذلك ، فأمر صلى الله عليه وسلم بقتله وقال « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

وأمر صلى الله عليه وسلم فى ذلك المحل بقتل معاوية بن المغيرة بن أبى العاص وهو جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وقد كان لجأ إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضى الله عنه : أى فإنه لما رجع الكفار من أحد ذهب على وجهه ثم أتى باب عثمان فدقه ، فقالت أم كلثوم بنت النبي صلى الله عليه وسلم زوج عثمان من أنت ؟ قال : ابن عم عثمان ، فقالت : ليس هو ههنا ، فقال : أرسلى إليه . فله عندى ثمن بعير كنت اشتريته منه ، فجاء عثمان ، فلما نظر إليه قال : أهلكتنى وأهلكت نفسك ، فقال : يابن عم لم يكن أحد أمس بى رحما منك فأجرنى ، فأدخله عثمان رضى الله عنه منزله وصيره فى ناحية ، ثم خرج عثمان ليأخذ له أمانا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن معاوية بالمدينة فاطلبوه ، فدخلوا منزل عثمان ، فأشارت إليهم أم كلثوم رضى الله عنها بأنه فى ذلك المكان ، فأخرجوه وأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتله ، فقال عثمان رضى الله عنه : والذى بعثك بالحق ماجئت إلا لآخذ له أمانا ، فهبه لى ، فوهبه وأجله ثلاثا ، وأقسم صلى الله عليه وسلم إن وجده بعدها قتله .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد ، فأقام معاوية ثلاثا يستعلم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتى بها قريشا ، فلما كان فى اليوم الرابع عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فخرج معاوية هاربا ، فأدركه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر رضى الله عنهما ، فرمياه حتى قتلاه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم بعثهما إليه وقال لهما إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا : أى بموضع بينه وبين المدينة ثمانية أميال ، فوجداه به فقتلاه . وقيل تبعه على كرم الله وجهه فقتله ، وكان صلى الله عليه وسلم بعث ثلاثة نفر من أسلم طليعة فى آثار القوم ، فلحق اثنان منهم للقوم بحمراء الأسد فقتلوهما فوجدهما النبى صلى الله عليه وسلم قتيلين بحمراء الأسد فدفنهما فى قبر واحد . ولايأتى هنا الجواب المتقدم فى قتلى أحد .

وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام بعد رجوعه إلى المدينة ، بأن الحارث ابن سويد فى قباء فانهض إليه واقتص منه بمن قتله من المسلمين غدرا يوم أحد وهو المجذّر ،

وتقدم أنه بالذال المعجمة مشددة مفتوحة ابن ذياد ، وتقـدم أنه بكسر الذال المعجمة وفتحها وتخفيف المثناة تحت ، لأن سويدا كان قد قتل ذيادا أبا المجذر فى الجاهلية ، فظفر المجذر بسويد والد الحارث فقتله فى أبيه وذلك قبل الإسلام ، وكان ذلك سببا لوقعة بغاث ؛ فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم الحارث بن سويد ، وأسلم المجذر ابن ذياد وشهدا بدرا ، فجعل الحارث يطلب مجذرا يقتله بأبيه فلم يقدر عليه كما تقدم ، فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه ، قيل وقتل أيضا قيس بن زيد . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء فى وقت لم يكن يأتيهم فيه وهو شدة الحر فى يوم حار ، فخرج إليه الأنصار من أهل قباء رضى الله عنهم ومنهم الحارث بن سويد وعليه ثوب مورّس . وفى لفظ فى ملحفة مورسة . وفى لفظ فى ثوبين مضرّجين . وفى لفظ ممرّضين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمر ابن ساعدة بضرب عنقه ، أى فقال له : قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد واضرب عنقه ، وقيل أمر عثمان بن عفان بذلك ، فقدم ليضرب عنقه ، فقال الحارث : لم يارسول الله؟ فقال : بقتلك المجذر بن ذياد وقيس بن زيد ، فما راجعه الحارث بكلمة ، فضرب عنقه . قال : وفى رواية أن الحارث قال : والله قتلته : أى المجذر ، وما كان قتلى إياه رجوعا عن الإسلام ولا ارتيابا فيه ، ولـكن حمية من الشيطان ، وإنى أتوب إلى الله ورسوله مما عملت ، وأخرج ديته ، وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبة ، فلم يقبل منه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك انتهى . ولم يذكر قتل قيس بن زيد ، ولعله اكتفى بذلك فى قتله الحارث ، ويعلم استحقاقه القتل بقتل قيس بن زيد بطريق أولى .

أى وكان فى هذه السنة الثالثة مولد الحسن بن على رضى الله عنهما ، وسماه حربا ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم لما جاء قال : أرونى ابنى ، ماسميتموه ؟ قال علىّ حربا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هو حسن ، وحنكه صلى الله عليه وسلم بتمر .

وكان فى هذه السنة تحريم الخمر . وقيل كان تحريمها فى السنة الرابعة وهو محاصر بنى النضير . وقيل كان تحريمها بين الحديبية وخيبر . وقيل كان بخيبر قال صلى الله عليه وسلم « الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنبة » وفى رواية « الـكرمة والنخلة » وفى رواية « الـكرم والنخل » كذا فى مسلم . ولعل ذكر الـكرم كان قبل النهى

عنه ، وإلا فنى مسلم « لا يقولن أحدكم للعنب الكرم فان الكرم الرجل المسلم » وفى رواية « فإن الكرم قلب المؤمن » أو قيل ذلك بيانا للجواز إشارة إلى أن النهى للتنزيه .

وقد حرمت الخمر ثلاث مرات :

الأولى فى قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر) أى القمار (قل فيهما إثم كبير) فانه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهم يشربون الخمر ، ويأكلون القمار ، فسألوه عن ذلك فنزلت الآية . الثانية أن بعض الصحابة صلى بأصحابه صلاة المغرب وهو سكران فخلط فى القراءة ، فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) ثم أنزل الله تعالى(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) فكف الناس عن شربها .

وقد جاء أن حمزة رضى الله عنه لما شربها قال للنبى صلى الله عليه وسلم ومن معه هل أنتم إلا عبيد لأبى ؟ أى فنى البخارى « أن حمزة رضى الله عنه لما شرب الخمر خرج فوجد ناقتين لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فعلاهما بالسيف وبقر خواصرهما ، ثم أخذ من أكبادهما وجبّ سنامهما . قال على كرم الله وجهه : فنظرت إلى منظر أفظعنى ، فأتيت نبىّ الله صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة فأخبرته الخبر ، فخرج صلى الله عليه وسلم ومعه زيد ، فانطلقت معه فدخل على حمزة فتغيظ عليه ، فرفع حمزة رضى الله عنه بصره وقال : هل أنتم إلا عبيد لأبى ، فرجع النبى صلى الله عليه وسلم يقهقر حتى خرج وذلك قبل تحريم الخمر ، ولكون السكر كان مباحا لم يرتب على قول حمزة مقتضاه مع أن من قال لنبى أنت عبدى أو عبد أبى كفر .

واعترض القول بأنها فى السنة الرابعة ، بأن أنس بن مالك كان ساقيا لها ، فلما سمع المنادى بتحريمها أراقها .

وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه : وإنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلانا وفلانا : أى أبا أيوب وأبا دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبىّ بن كعب وأبا عبيدة ابن الجراح رضى الله عنهم ، إذ جاء رجل وقال : هل بلغكم الخبر ؟ قالوا : وما ذاك ؟ قال : حرمت الخمر ، قالوا: أهرق هذه القلال ياأنس فأهريقت . وفى لفظ قال أنس رضى الله عنه : فقمت إلى مهراس فضربتها بأسفله حتى تكسرت .

وفى مسلم عن أبى طارق رضى الله عنه أنه قال : يارسول الله إنما أصنعه: أى الخمر

للدواء ، فقال : إنه ليس بدواء ولكنه داء ، وإراقة الخمر حينئذ مع أنها كانت مباحة فهى محترمة تغليظ وتوكيد للتحريم وفطم للنفوس ، لأن إراقتها لم تكن بأمر منه صلى الله عليه وسلم .

وسئل الحافظ السيوطى رحمه الله عن حكمة رجوعه صلى الله عليه وسلم القهقرى ، فأجاب بأنه لعله كان من خوف الوثوب عليه إرشادا لمن يخاف الوثوب ، أو كان مقصوده صلى الله عليه وسلم مداومته لحظه ، أو أن الراوى أراد بالقهقرى مطلق الرجوع إلى المنزل لا بالظهر .

وأنس رضى الله عنه لم يكن خادما للنبى صلى الله عليه وسلم حينئذ : أى فى السنة الرابعة بل بعدها . وحينئذ يكون القول بأن كونه فى الثالثة أشكل .

وأشكل من هذا ماحكاه ابن هشام فى قصة الأعشى بن قيس أنه خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، فلما كان بمكة اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم ، فقال له : يا أبا بصير إنه يحرم الزنا . فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالى فيه من أرب ، فقال : إنه يحرم الخمر . فقال الأعشى : أما هذه إن فى النفس منها لغلالات ، ولكنى منصرف فأتروّى منها عامى هذا ، ثم آته فأسلم ، فانصرف فمات فى عامه ذلك ولم يعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا كلامه لما علمت أن الخمر لم تحرم بمكة وإنما حرمت بالمدينة فى السنة الثالثة أو الرابعة . وأجاب بعضهم بأن الأعشى أراد المدينة فاجتاز بمكة ، فعرض له بعض كفار قريش .

واعترض بأنه قيل إن القائل له ذلك أبو جهل لعنه الله وكان فى دار عتبة بن ربيعة وأبو جهل قتل ببدر فى السنة الثانية .

وأجيب بأنه على تسليم صحة ذلك بأنه يجوز أن يكون أبو جهل لعنه الله قصد صدّ الأعشى عن الإسلام بطريق التقول والافتراء ، لأنه كان يعرف ميل الأعشى إلى الخمر وعدم صبره على تركها ، فاختلق هذا القول من عنده ليمنعه بذلك عن الإسلام .

أقول : لما حرمت الخمر قال بعض القوم : قتل قوم وهى فى بطونهم أى لأن جماعة شربوها صبح يوم أحد قتلوا من يومهم شهداء ، فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) وكون أنس رضى الله عنه لم يكن خادما للنبى صلى

الله عليه وسلم إلا بعد السنة الرابعة يخالف ماسبق أن عند قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة جاءت به أمه ليخدمه صلى الله عليه وسلم .

وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال « قدم النبى صلى الله عيه وسلم المدينة ليس له خادم ، ثم أخذ أبو طلحة بيدى فانطلق بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك فخدمته صلى الله عليه وسلم فى السفر والحضر » وتقدم الجمع بين كون الآتى به أبا طلحة والآتى به أمه .

وفى البخارى أيضا عن أنس رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى طلحة : التمس لى غلاما من غلمانكم يخدمنى حين أخرج إلى خيبر ، فخرج بى أبو طلحة مردفى وأنا غلام راهقت الحلم ، فكنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل » .

وقد يقال : لا منافاة لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يأمر أنسا بالخروج معه إلى خيبر لظنه أن أمه لاتسمح له بذلك ، فلما قال لأبى طلحة ماذكر جاء إليه بأنس رضى الله تعالى عنه ، والله أعلم .

غزوة بنى النضير

وهم قوم من اليهود بالمدينة . وفى كلام بعضهم : بنو النضير هؤلاء حى من يهود خيبر ، أى وقريتهم كان يقال لها زهرة .

كانت تلك الغزاة فى ربيع الأول : أى من السنة الرابعة . وقيل كانت قبل وقعة أحد ، قال : وبه قال البخارى . قال ابن كثير : والصواب إيرادها بعد أحد كما ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره من أئمة المغازى انتهى .

أمر النبى صلى الله عليه وسلم الناس بالتهيؤ لحرب بنى النضير والسير إليهم .

واختلف فى سبب ذلك ؟ فمن جملة ماقيل : إنه ذهب إليهم ليسألهم كيف الدية فيهم ؟ أى لأنه كان بينهم وبين بنى عامر قبيلة الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى عند رجوعه من بئر معونة غيلة حلف وعقد .

وقيل ذهب إليهم ليستعين بهم فى دية الرجلين المذكورين ، أى وكان صلى الله عليه وسلم أخذ العهد على اليهود أن يعاونوه فى الديات .

وقيل لأخذ دية الرجلين منهم ، لأن بنى النضير كانوا حلفاء لقوم الرجلين المذكورين

وهم بنو عامر ،كذا فى الأصل فليتأمل . فإن فيه أخذ الدية من حلفاء المقتول وسار إليهم صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه : أى دون العشرة ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله تعالى عنهم ، فقالوا له : نعم ياأبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك ، وكان صلى الله عليه وسلم جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال أحد ساداتهم : أنا لذلك أى وهو عمرو بن جحاش ، وقال لهم سلام بن مشكم : لاتفعلوا والله ليخبرن بما هممتم به ، إنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه ، فلما صعد ذلك الرجل ليلقى الصخرة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مظهرا أنه يقضى حاجته ، وترك أصحابه فى مجالسهم ورجع مسرعا إلى المدينة ولم يعلم من كان معه من أصحابه ، فقاموا فى طلبه صلى الله عليه وسلم لما استبطئوه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه ، فقالوا : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أرادت بنو النضير . وقد أشار إلى ذلك الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

وجاءك وحى بالذى أضمرت بنو الن — ـنضير وقد هموا بإلقاء صخرة

أى وفى رواية لما رأوا قلة أصحابه صلى الله عليه وسلم قالوا نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة ، فنبيعهم من قريش . أى ولا مانع من وجود الأمرين :

وقيل السبب فى خروجه صلى الله عليه وسلم إليهم أنهم أرسلوا إليه أن اخرج إلينا فى ثلاثين من أصحابك ، وليخرج منا ثلاثون حبرا فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك ، فلما غدا عليهم فى ثلاثين من أصحابه قال بعضهم لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أنه يموت قبله ، فأرسلوا إليه أن اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل ، واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر فأرسلت امرأة من بنى النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك ، فأعلم أخوها النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فرجع ، ولا مانع من وجود ذلك مع ماتقدم ، لكن فى السيرة الهشامية أن خبر ذلك بلغه قبل وصوله إليهم فرجع ، فبينما بنو النضير على ذلك : أى على إرادة إلقاء الحجر والتهيؤ لإلقائه ، إذ جاء جاء من اليهود من المدينة فقال لهم : ما تريدون ؟ فذكروا له الأمر ، فقال لهم : أين محمد ؟ قالوا : هذا محمد ، فقال لهم : والله لقد تركت محمدا

داخل المدينة ، فأسقط فى أيديهم وقالوا : قد أخبر بأمرنا ، فأرسل إليهم محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه أن اخرجوا من بلدى يعنى المدينة لأن قريتهم من أعمالها ، فلاتساكنونى بهاء فقد هممتم بما هممتم به من الغدر . أى وأخبرهم بما هموا به من ظهور عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصخرة ، فسكتوا ولم يقولوا حرفا، قال : ويقول لكم : قد أجلتكم عشرا ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه ، واقتصاره صلى الله عيه وسلم على ذلك لا ينافى ماتقدم من إرادة قتله أيضا ، قيل وأنزل الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) ولا ينافى ذلك ما تقدم من نزولها فى حق دعثور فى غزوة ذى أمرّ ، لجواز تكرار النزول ، فأرسلوا فى إحضار الإبل ، فأرسل إليهم المنافقون أن لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم : إن قوتلتم فلكم علينا النصر ، وإن أخرجتم لن نتخلف عنكم ، خصوصا عبد الله بن أبى ابن سلول لعنه الله ، فإنه أرسل لهم : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فطمع بنو النضير فيما قال ابن أبىّ ، فأرسلوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لانخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ، فأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير وكبر المسلمون لتكبيره وقال: حاربت يهود . قال : والمتولى أمر ذلك سيد بنى النضير حيى بن أخطب والدصفية أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، وقد نهاه أحد سادات بنى النضير وهو سلام بن مشكم وقال له : منتك نفسك والله ياحيى الباطل ، فإن قول ابن أبى ليس بشىء ، وإنما يريد أن يورطك فى الملكة حتى تحارب محمدا فيجلس فى بيته ويتركك ؛ ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة أن تمدكم بنوقريظة . فقال له : لاينقض رجل واحد منا العهد فأيس من بنى قريظة ، وأيضا قد وعد حلفاءه من بنى قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم فى صياصيهم أى حصونهم ،وانتظروا ابن أبى فجلس فى بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه . فإذا كان ابن أبى لاينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس فى حروبهم . أى فانه إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج ، وخرجت بنو النضير وقريظة مع الأوس ، فكيف يقبل قوله ، فقال حيى : نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله . قال سلام : فهو والله جلاؤنا من

أرضنا ، وذهاب أموالنا وشرفنا ، وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا ، فأبى حيى إلا محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت له بنو النضير : أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك ؛ فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ذكر اه ، فتهيأ الناس لحربهم . فلما اجتمع الناس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل رايته على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسار بالناس حتى نزل وصلى بهم العصر بفنائهم ، وقد تحصنوا وقاموا على حصنهم يرمون بالنبل والحجارة .

أى وفى كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه رضى الله عنهم بالمسير إلى بنى النضير فسار بهم إليهم ، فوجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف أى الآتى قتله فى السرايا ، قالوا : يا محمد داعية إثر داعية وباكية إثر باكية ، ذرنا تبكى شجونا ثم ائتمر أمرك ، فقال صلى الله عليه وسلم لهم : اخرجوا من المدينة ، قالوا : الموت أهون من ذلك ثم تبادروا بالحرب ، هذا كلامه .

قال : ولما جاء وقت العشاء رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فى عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس ، واستعمل على العسكر على بن أبى طالب ويقال أبابكر. وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا ثم أذن بلال بالفجر ، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس ، وأمر بلالا فضرب القبة ، وهى قبة من خشب عليها مسوح ، فدخل صلى الله عليه وسلم فيها ، وكان رجل من يهود يقال له غزول ، وكان أعسر راميا يبلغ نبله مالا يبلغه نبل غيره ، فوصل نبله تلك القبة ، فأمر بها فحولت . وفى ليلة من الليالى فقد على رضى الله تعالى عنه قرب العشاء ، فقال الناس : يا رسول الله ما نرى عليا ، فقال : دعوه أى اتركوه ، فإنه فى بعض شأنكم ، فعن قليل جاء برأس الرجل الذى يقال له غزول الذى وصل نبله قبته صلى الله عليه وسلم ، كمن له علىّ حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة ، فشد عليه فقتله وفرّ من كان معه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علىّ أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة ، فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول وفروا من علىّ فقتلوهم انتهى .

وذكر بعضهم أن أولئك الجماعة كانوا عشرة ، وأنهم أتوا برءوسهم فطرحت فى بعض الآبار. وفى هذا ردّ على بعض الرافضة حيث ادعى أن عليا هو القاتل لأولئك العشرة ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل ، أى وبحرقها بعد أن حاصرهم ست ليالٍ

وقيل خمسة عشر يوما : أى وقيل عشرين ليلة ، وقيل ثلاثا وعشرين ليلة ، وقيل خمسة وعشرين ليلة . وكان سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه فى تلك المدة يحمل التمر للمسلمين: أى يجاء به من عنده . قال : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على قطع النخل أباليلى المازنى وعبد الله بن سلام . وكان أبوليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللين ويقال له اللون ، وهو ما عدا العجوة، والبرنى من أنواع التمر بالمدينـة ، ومن أنواع تمر المدينة الصيحانى .

وجاء عن على كرم الله تعالى وجهه . قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصاحت نخلة بأخرى : هذا النبى المصطفى وعلى المرتضى ، فقال صلى الله عليه وسلم يا على إنما سمى نخل المدينة أى هذا النوع صيحانيا ، لأنه صاح بفضلى ، وهو حديث مطعون فيه، قيل إنه كذب. والبرن بالفارسية : حمل مبارك أو جيد .

وفى شرح مسلم للنووى أنها مائة وعشرون نوعا . أى وفى تاريخ المدينة الكبير للسيد السمهودى أن أنواع التمر بالمدينة التى أمكن جمعها بلغت مائة وبضعا وثلاثين نوعا ، ويوافقه قول بعضهم اختبرناها فوجدناها أكثر مما ذكره النووى . قال : ولعل ما زاد على ما ذكره حدث بعد ذلك .

أى وأما أنواع التمر بغير المدينة كالمغرب فلا تكاد تنحصر. فقد نقل أن عالم فاس محمد بن غازى أرسل إلى عالم سلجماسة إبراهيم بن هلال يسأله عن حصر أنواع التمر بتلك البلدة ، فأرسل إليه حملا أو حملين من كل نوع تمرة واحدة ، وكتب إليه هذا ما تعلق به علم الفقير (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

ثم رأيت فى نشق الأزهار أن بهذه البلدة رطبا يسمى البتونى ، وهو أخضر اللون ، وأحلى من عسل النحل ، ونواه فى غاية الصغر ، وكانت العجوة خير أموال بنى النضير ، أى لأنهم كانوا يقتاتونها .

وفى الحديث « العجوة من الجنة ، وثمرها يغذى أحسن غذاء » أى وتقدم أن آدم نزل بالعجوة من الجنة .

وفى البخارى « من تصبح كل يوم على سبع تمرات عجوة لم يصبه فى ذلك اليوم سم ولا سحر » أى وقد جاء فى عجوة العالية شفاء وأنها ترياق أول البكرة ، من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر .

أى وفى كلام بعضهم : العجوة ضرب من التمر أكبر من الصيحانى تضرب إلى السواد وهو مما غرسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة بالمدينة . أى وقد علمت أنها فى نخل بنى النضير .

وفى العرائس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء: بالآسة ، وهى سيدة ريحان الدنيا . والسنبلة ، وهى سيدة طعام الدنيا . والعجوة ، وهى سيدة ثمار الدنيا » .

وروى عن ابن عباس وعائشة وأبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن العجوة من غرس الجنة وفيها شفاء ، وإنها ترياق أول البكرة ، وعليكم بالتمر البرنى فكلوه فإنه يسبح فى شجره ، ويستغفر لآكله » هذا كلام العرائس .

وفى حديث وفد عبد القيس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم ذلك ، وذكر البرنى أنه من خير تمركم ، وأنه دواء وليس بداء » وجاء « بيت لا تمر فيه جياع أهله » قال ذلك مرتين .

ولما قطعت العجوة شق النساء الجيوب ، وضربن الخدود ، ودعون بالويل ، أى وذلك البعض الذى حرق كان بمحل يعرف بالبويرة اه أى والبويرة تصغير بورة . وهى هنا الحفرة ، ويقال لها البولة باللام بدل الراء وعند ذلك نادوه أى يامحمد . وفى رواية : ياأبا القاسم . قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه؛ فما بال قطع النخل وتحريقها؟ أى وفى رواية : ماهذا الفساد؟ وفى لفظ قالوا : يامحمد زعمت أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟ وقالوا للمؤمنين : إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون . وحينئذ وقع فى نفوس بعض المسلمين من ذلك شىء ، فأنزل الله تعالى (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) أى فى قولهم إن ذلك من الفساد .

قال بعضهم: جميع ماقطعوا وحرقوا ست نخلات ، ولا زال عبد الله بن أبى ابن سلول يبعث لبنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم ، أى ومعه على ذلك جمع من قومه، فانتظروا ذلك ، فخذلهم ولم يحصل لهم منه شىء، أى وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيى أين نصر بن أبى الذى زعمت ؟ فيقول حيى : ماأصنع ، هى ملحمة كتبت علينا ، ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم

حصارهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة: أى آلة الحرب ففعل، فاحتملوا النساء والصبيان ، وحملوا من أموالهم غير الحلقة مااستقلت به الإبل وكانت ستمائة بعير ، فكان الرجل يهدم بيته عما استحسن من خشبه كبابه وكنجاف به إى أسكفته [ ] فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به .

أى وفى لفظ : صاروا ينقضون العمد والسقوف ، وينزعون الخشب حتى الأوتاد ، وينقضون الجدران حتى لايسكنها المسلمون حسدا وبغضا .

وفى رواية : جعل المسلمون يهدمون مايليهم من حصنهم ، ويهدم الآخرون مايليهم . قال : وفى رواية أنهم خرجوا مظهرين التجلد : خرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلى الذهب والفضة ، وخلفهم القيان بالدفوف والمزامير ، ومنهم سلمى أم وهب .

وقال ابن إسحاق أم عمرو صاحبة عروة بن الورد الذى قيل فيه : من قال إن حاتما أسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد . أغار عروة على قومها فسباها ثم اتخذها حليلة له فجاءت منه بأولاد .

ثم إن بعض بنى النضير اشتراها من عروة بعد أن سقاه الخمر ، ثم لما أفاق ندم . ثم اتفق هو ومن اشتراها على أن تكون عند من تختاره ، فخيرها فاختارت من اشترها.

وقيل إن قومها جاءوا إليه بفدائها ، فخيرها وكان لايظن أن تختار عليه أحدا ، فاختارت قومها فندم .

وعند مفارقتها له قالت له : والله ماأعلم امرأة من العرب أرخت سترا على بعل مثلك ، أغض طرفا ولا أندى كفا ، ولا أغنى غناء ، وإنك لرفيع العماد ، كثير الرماد ، خفيف على ظهور الخيل ، ثقيل على متون الأعداء ، وأحنى على الأهل والجار ، وماكنت لأوثر عليك أهلى لولا أنى كنت أسمع بنات عمك يقلن : قالت أم عروة وفعلت أم عروة فأجد من ذلك الموت ، والله لايجامع وجهى وجه أحد من أهلك فاستوص ببنياك خيرا ، ثم تزوجت فى بنى النضير ، وشقوا سوق المدينة وصف لهم الناس ، فجعلوا يمرون قطارا فى أثر قطار ، وإن سلام بن أبى الحقيق رافع جلد جمل أى أو ثور أو حمار مملوء

حليا ، وينادى بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلا ففى خيبر النخل ، وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن انتهى .

وهذا الحلى كانوا يعيرونه للعرب من أهل مكة وغيرهم ، وكان يكون عند آل أبى الحقيق ، وسيأتى فى غزوة خيبر أنه صلى الله عليه وسلم عبر عن هذا الحلى بالآنية والكنز وأنه كان سببا لقتل ولدى أبى الحقيق لما كتماه عنه صلى الله عليه وسلم .

فنهم من سار إلى خيبر ، أى ومن جملة هؤلاء أكابرهم حيى بن أخطب ، وسلام ابن أبى الحقيق ، وكنانة بن أبى الربيع بن أبى الحقيق . فلما نزلوا خيبر دان لهم أهلها .

ومنهم من سار إلى الشام : أى إلى أذرعات . وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار ، لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده ، فلما أجليت بنو النضير قال آباء أولئك : لاندع أبناءنا ، وأنزل الله تعالى (لا إكراه فى الدين) وهى مخصوصة بهؤلاء الذين تهودوا قبل الإسلام ، وإلا فإكراه الكفار الحربيين على الإسلام سائغ ، ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : وهما يامين بن عمير ، وأبو سعد ابن وهب . قال أحدهما لصاحبه : والله إنك لتعلم أنه رسول الله فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا ، فنزلا من الليل وأسلما [ ] فأحرزا أموالهما . أى وجعل يامين لرجل من قيس جعلا أى وهو عشرة دنانير ، وقيل خمسة أوثق من تمر على قتل عمرو بن جحاش الذى أراد أن يلقى الحجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتله غيلة أى بعد أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليامين : ألم تر مالقيت من ابن عمك وما همّ به من شأنى ؟ فسر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، ونزل فى أمر بنى النضير سورة الحشر ، ولذلك كان يسميها ابن عباس رضى الله تعالى عنهما سورة بنى النضير كما فى البخارى .

وفى كلام السبكى رحمه الله : لم يختلفوا أن سورة الحشر نزلت فى بنى النضير . وقد أشار لقصتهم صاحب الهمزية بقوله :

خدعوا بالمنافقين وهل ينـ ... ـفق إلا على السفيه الشقاء

ونهيتم وما انتهت عنه قوم ... فأبيد الأمار والنهاء

أسلموهم لأول الحشر لاميـ ... ـعادهم صادق ولا الإيلاء

سكن الرعب والخراب قلوبا ... وبيوتا منهم نعاها الجلاء

أى وخدعهم قول المنافقين إنهم يكونون معهم وينصرونهم على النبى صلى الله عليه وسلم ، وما يروج الشقاء إلا على السفيه .

والمراد بالمنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول ومن كان معه على النفاق ، لأنه كما تقدم لازال يرسل لهم أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم. ونهاهم عن موافقته سلام بن مشكم ، فلم ينتهوا أساءهم أولئك المنافقون لأول الحشر . وهو أى الحشر جلاؤهم وخروجهم من ديارهم ، فيعادهم لهم بأن ينصروهم على النبى صلى الله عليه وسلم غير صادق ، وكذا حلفهم لهم على ذلك غير صادق أيضا .

ذكر موسى بن عقبة أنهم كانوا من سبط لم يصبهم جلاء قبلها ، فلذلك قال لأول الحشر . والحشر : الجلاء .

وقيل المراد بالحشر أرض المحشر ، فإنهم قالوا إلى أين نخرج يا محمد ؟ قال : إلى الحشر ، يعنى أرض المحشر . والحشر الثانى : هو حشر النار التى تخرج من قعر عدن فتحشر الناس إلى الموقف .

وقيل الحشر الثانى لهم كان على يد سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ، أجلاهم من خيبر إلى تيماء وأريحاء ، وسيأتى ذكره . وسكن الرعب : وهو خشية انتقامه صلى الله عليه وسلم منهم قلوبهم ، وسكن الخراب بيوتهم . وقد أخبر تلك البيوت بموت أهلها خروجهم وجلاؤهم من أرضهم ، وأنزل الله تعالى (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) وهم بنو النضير (لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم) أى فى خذلانكم (أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون : لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم) مثلهم (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) ووجد صلى الله عليه وسلم من الحلقة : أى آلة السلاح خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلثمائة وأربعين سيفا ، ولم يخمس ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أى كما خمس أموال بنى قينقاع . قال : وقد قال له عمر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله ألا تخمس ما أصبت : أى كما فعلت فى بنى قينقاع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أجعل شيئا جعله الله لى دون المؤمنين بقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) الآية كهيئة ماوقع فيه السهمان [.] أى فكان أموال بنى النضير وعقارهم فيئا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

خاصة ، وتقدم التنبيه على ذلك فى غزوة بنى قينقاع ، وفسرت القرى بالصفراء ووادى القرى أى ثلث ذلك كما فى الإمتاع وينبع ، وفسرت القرى ببنى النضير وخيبر : أى بثلاث حصون منها . وهى الكتيبة والوطيح وسلالم كما فى الإمتاع ، وفدك : أى نصفها كما فى الإمتاع ، ذكره الرافعى فى شرح مسند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه .

أقول : قال بعضهم : وهذا أول فىء حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويرده ماتقدم فى غزوة بنى قينقاع ، إلا أن يقال : المراد أول فىء اختص به صلى الله عليه وسلم ولم يقسمه قسمة الغنيمة على ماتقدم .

ثم دعا الأنصار الأوس والخزرج فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين ، مع إنزالهم فى منازلهم ، وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم . ثم قال لهم : إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال : أى التى أفاء الله علىّ وخصنى بها مع أموالكم بينكم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة ، فقالوا : بل اقسم هذه فيهم ، واقسم لهم من أموالنا ماشئت .

وفى رواية : إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علىّ من بنى النضير ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى منازلكم وأموالكم : أى الأرض والنخل ، لأنه لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شئ ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار : أى النخل ، فآثروهم بمتاع من أشجارهم ، فمنهم من قبلها منيحة محضة ويكفونه العمل ، ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل فى الشجر والأرض وله نصف الثمار ، ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة ، لشرف نفوسهم وكراهتهم أن يكونوا كلا وإن أحببتم أعطيتهم أى وخرجوا من دوركم ، أى وأموالكم ، فتكلم سعد بن عبادة وسعد ابن معاذ . فقالا : يارسول الله بل تقسم بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا ، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا حبا لله ولرسوله ، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يارسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار . زاد فى رواية : وأبناء أبناء الأنصار . وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه جزاكم الله يامعشر الأنصار خيرا ، أى وأنزل الله تعالى فيهم ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ أى ولو كان بهم فاقة وحاجة إلى مايؤثرون به ، فقسم رسول الله

صلى الله عليه وسلم ذلك بين المهاجرين . أى وفى كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يعم المهاجرين ولم يعط أحدا من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين : أى وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة رضى الله تعالى عنهما ، وبعضهم ضم إليهما ثالثا وهو الحارث بن الصمة ونظر فيه بعضهم بأنه قتل فى بئر معونة .

وأعطى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق أحد سادات بنى النضير وكان سيفا له ذكر عندهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يزرع أرضهم التى تحت النخل ، فيدخر من ذلك قوت أهله سنة ، وما فضل يجعله فى الكراع : أى الخيل والسلاح عدة فى سبيل الله تعالى .

أقول : فيه تصريح بأنه لم يقسم الأرض ، ويحتمل أن المراد بقوله كان يزرع أرضهم التى تحت النخل : أى بعض أرضهم ، ويدل له ما يأتى ، ولم أقف على كيفية زرعه صلى الله عليه وسلم للأرض من مزارعة أو غيرها .

وفى الخصائص الكبرى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان نخل بنى النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، أعطاه الله تعالى إياه وخصه بها ، فأعطى أكثرها المهاجرين وقسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار .

وهذا السياق يدل على أن مراده بنخل بنى النضير أموالهم كما تقدم فى الروايات ، لا خصوص النخل .

ثم رأيت فى عبارة بعضهم : وأكثر الروايات على أن أموال بنى النضير : أى من مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم حق لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة له ، خصه الله تعالى بها ، لم يخمسها ولم يسهم منها لأحد ، وأعطى منها ما أراد ووهب العقار للناس . وأعطى أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وصهيبا وأبا سلمة بن عبد الأسد ضياعا معروفة من ضياع بنى النضير .

ولعل المراد بالضياع الأراضى ، ويدل لذلك ما فى البخارى « أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أرضا من أراضى بنى النضير » كما أن ذلك هو المراد بقول الإمتاع وكانت بنو النضير من صفايا رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها حبسا لنوائبه . وكان صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله منها وكانت صدقاته منها .

وقد يقال : لا منافاة ، لأنه يجوز أن يكون أعطى بعض أراض وأبقى بعضها يزرع

لله صلى الله عليه وسلم . ولما أعطى المهاجرين أمرهم بردّ ما كان للأنصار لا ستغنائهم عنهم ولأنهم لم يكونوا ملكوهم ذلك ، وإنما كانوا دفعوا لهم تلك النخيل لينتفعوا بثمرها ، وظنت أم أيمن أن ذلك ملك لها فامتنعت من رده ، أى لأن أم أنس كانت أعطته صلى الله عليه وسلم نخلات ، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن ولم ينكر عليها ذلك تطييبا لقلبها لكونها حاضنته ، وصار يعطيها وهى تمتنع من رده إلى أن أعطاها عشرة أمثاله أو قريبا من ذلك .

وذكر هذا فى بنى النضير يخالف ما فى مسلم أن ذلك كان عند فتح خيبر ، حيث ذكر أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارها ، وذكر قصة أم أيمن ، فليتأمل والله أعلم .

غزوة ذات الرقاع

أى وتسمى غزوة الأعاجيب : أى لما وقع فيها من الأمور العجيبة ، وغزوة محارب وغزوة بنى ثعلبة ، وغزوة بنى أنمار .

عن ابن إسحاق رحمه الله : ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بنى النضير شهر ربيع الأول . وقال غيره : شهرى ربيع وبعض جمادى . ثم غزا نجدا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة ، حين بلغه صلى الله عليه وسلم أنهم جمعوا الجموع : أى من غطفان لمحاربته ، فخرج صلى الله عليه وسلم فى أربعمائة من أصحابه رضى الله عنهم ، أى وقيل سبعمائة . وقيل ثمانمائة [ ] .

أى واحتج البخارى رحمه الله على أن هذه الغزاة كانت بعد خيبر بما رواه عن أبى موسى رضى الله عنه مما يدل على أن أبا موسى شهد غزاة ذات الرقاع ، وهو «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر بيننا بعير ، فنقبت أقدامنا ، نقبت قدماى وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق : فسميت غزاة ذات الرقاع » .

وإذا ثبت أن أبا موسى شهد غزاة ذات الرقاع ، وثبت أنه لم يجئ إليه صلى الله عليه وسلم من الحبشة إلا بخيبر لزم أن تكون غزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، إلا أن يدعى تعدد غزوة ذات الرقاع مرتين ، وأنها كانت قبل خيبر وبعدها ، والتى وجدت فيها صلاة

الخوف هى الثانية . أى والسبب فى تسميتها ذات الرقاع ما تقدم عن أبى موسى رضى الله عنه ،وحيث كانت بعد خيبر يلزم أن تكون بعد الخندق ، لقول الحافظ ابن حجر رحمه الله : صلاة الخوف فى غزوة الخندق لم تكن شرعت ، أى لأنها لو كانت شرعت لصلاها صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤخر الصلاة كما سيأتى ، وسيأتى الجواب عن ذلك .

وقد ذكرها الشمس الشامى رحمه الله تعالى بعد خيبر ، والأصل لم يذكر ما تقدم عن البخارى ، بل رواه بالمعنى ، فقال : روينا فى صحيح البخارى من حديث أبى موسى رضى الله عنه أنهم نقبت أقدامهم ، فلفوا عليها الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع . قال : وجعله : أى البخارى حديث أبى موسى هذا حجة على أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر ، لأن أبا موسى إنما قدم فى خيبر لادلالة فيه على ذلك ، أى لأنه يجوز أن يكون قول أبى موسى رضى الله عنه إنهم نقبت أقدامهم : يعنى الصحابة ، فيكون هذا مما رواه أبو موسى عمن شاهد الوقعة من الصحابة . وفيه أن هذا لا يأتى مع قول البخارى عن أبى موسى « فنقبت قدماى وسقطت أظفارى » إذ هو صريح فى أن أبا موسى رضى الله عنه حضرها ، والأصل تبع فى تقديمها على خيبر شيخه الدمياطى ، وتابعه أيضا فى رواية ما تقدم عن البخارى بالمعنى . ونظر الدمياطى فى رواية أبى موسى : أى التى فى البخارى التى رواها عنه بالمعنى ، بأنها مخالفة لما عليه أهل المغازى من تقديمها على خيبر .

قال الحافظ ابن حجر : وادعى الدمياطى غلط الحديث الصحيح ، وأن جميع أهل السير على خلافه ، والاعتماد على ما فى الصحيح أى من تأخيرها عن خيبر أولى ، لأن أصحاب المغازى مختلفون فى زمانها . قال : والبخارى مع روايته عن أبى موسى الصريحة فى تأخر غزوة ذات الرقاع عن غزوة خيبر ، قدم غزوة ذات الرقاع على خيبر . قال : ولا أدرى ، هل تعمد ذلك تسليما لأصحاب المغازى أنها كانت قبل خيبر ، أو أن ذلك من الرواة عنه ، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسما لغزوتين مختلفتين : أى واحدة قبل خيبر ، والثانية بعدها كما قدمناه . أى وقدمنا أن سبب التسمية فى الثانية ما ذكر عن أبى موسى رضى الله عنه ، وأما فى الأولى فأحد الأسباب الآتية .

قال فى الإمتاع : وقد قال بعض من أرخ : إن غزوة ذات الرقاع أكثر من مرة ، فواحدة كانت قبل الخندق ، وأخرى بعدها : أى وبعد خيبر .

ولما غزا صلى الله عليه وسلم استخلف على المدينة أبا ذر الغفارى . وقيل عثمان بن

عفان رضي الله عنه . قال ابن عبد البر : وعليه الأكثر . أى وقد نظر فى الأول ، بأن أبا ذر رضي الله عنه لما أسلم بمكة رجع إلى بلاد قومه ، فلم يجئ حتى مضت بدر وأحد والخندق .

أقول : وهذا النظر بناء على أنها كانت قبل الخندق ، وأما على أنها كانت بعد الخندق وبعد خيبر فلا يتأتى هذا النظر ، والله أعلم .

وسار صلى الله عليه وسلم حتى بلغ نجدا فلم يجد بها أحدا ووجد نسوة فأخذهن وفيهن جارية وضيئة . ثم لقى جمعا فتقارب الجمعان ولم يكن بينهما حرب .

وقد خاف بعضهم بعضا : أى خاف المسلمون أن تغير المشركون عليهم وهم غارون أى غافلون حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف ، وكانت أول صلاة للخوف صلاها .

قال وفى رواية « حانت صلاة الظهر فصلاها صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، فهم بهم المشركون ، فقال قائلهم : دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أبنائهم ، أى وهى صلاة العصر ، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فصلى صلاة العصر صلاة الخوف » اه .

أقول : سيأتى هذا كله بعينه فى غزوة الحديبية التى هى صلاة الخوف بعسفان . ولا مانع من تعدد ذلك . ويحتمل أنه من الاشتباه على بعض الرواة ، والله أعلم .

وكان العدو فى غير جهة القبلة ، ففرقهم فرقتين : فرقة وقفت فى وجه العدو ، وفرقة صلى بها ركعة ، ثم عند قيامه للثانية فارقته وأتمت بقية صلاتها ، ثم جاءت ووقفت فى وجه العدو ، وجاءت تلك الفرقة التى كانت فى وجه العدو واقتدت به فى ثانيته فصلى بها ركعة ، ثم قامت وهو فى جلوس التشهد ، وأتمت بقية صلاتها ولحقته فى جلوس التشهد وسلم بها . وهذه الكيفية فى ذات الرقاع رواها الشيخان ، ونزل بها القرآن ، وهو قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية .

أى وفى كلام بعضهم : فصلى بهم النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ، صلى بطائفة ركعتين ، وبالأخرى أخريين . وسيأتى أن هذه صلاته صلى الله عليه وسلم ببطن نخل .

وفى الخصائص الصغرى : وخص صلى الله عليه وسلم بصلاة الخوف فلم تشرع لأحد من الأمم قبلنا ، وبصلاة شدة الخوف عند التحام القتال .

أى وفى هذه الغزوة نزل صلى الله عليه وسلم ليلا ، وكانت تلك الليلة ذات ريح . وكان نزوله صلى الله عليه وسلم فى شعب استقبله فقال : من رجل يكلؤنا : أى يحفظنا هذه الليلة ، فقام عباد بن بشر رضى الله تعالى عنه وعمار بن ياسر رضى الله تعالى عنهما ، فقالا : نحن يارسول الله نكلؤكم ، فجلسا على فم الشعب ، فقال عباد بن بشر لعمار بن ياسر : أنا أكفيك أول الليل وتكفينى آخره ، فنام عمار رضى الله عنه وقام عباد رضى الله عنه يصلى ، وكان زوج بعض النسوة التى أصابهن رسول الله صلى الله عليه وسلم غائبا ، فلما جاء أخبر الخبر فتبع الجيش ، وحلف لاينتهى حتى يصيب محمدا أو يهريق فى أصحاب محمد دما ، فلما رأى سواد عباد قال : هذا ربيئة القوم ، ففوّق سهما فوضعه فيه ، فانتزعه عباد فرماه بآخر فوضعه فيه فانتزعه ، فرماه بآخر فانتزعه ، فلما غلبه الدم قال لعمار اجلس فقد أثبت ، فلما رأى ذلك الرجل عمار أجلس علم أنه قد نذر به ، فهرب ، فقال عمار : أى أخى ما منعك أن توقظنى له فى أول سهم رمى به ، فقال : كنت أقرأ فى سورة : أى فى سورة الكهف فكرهت أن أقطعها .

وفى لفظ : جعل صلى الله عليه وسلم شخصين من أصحابه يقال هما عباد بن بشر من الأنصار وعمار بن ياسر من المهاجرين فى مقابلة العدو ، فرمى أحدهما بسهم فأصابه ونزفه الدم وهو يصلى ، ولم يقطع صلاته بل ركع وسجد ومضى فى صلاته ، ثم رماه بثان وثالث وهو يصيبه ولم يقطع صلاته أى وهو عباد بن بشر كما تقدم . وقد قال عباد اعتذارا عن إيقاظ صاحبه : لولا أنى خشيت أن أضيع ثغرا أمرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انصرفت ولو أتى على نفسى .

أقول : وبهذه الواقعة استدل أئمتنا على أن النجاسة الحادثة من غير السبيلين لا تنقض الوضوء ، لأنه صلى الله عليه وسلم علم ذلك ولم ينكره .

وأما كونه صلى مع الدم فلعلّ ما أصاب ثوبه وبدنه منه قليل ؛ ولا ينافى ذلك ماتقدم فى الرواية قبل هذه «فلما غلبه الدم» إذ يجوز مع كونه كثيرا أنه لم يصب ثوبه ولا بدنه إلا القليل منه والله أعلم .

ويقال إن رجلا من القوم : أى وهو غورث بالغين المعجمة مكبرا على الأشهر .

وقيل غويرث بالتصغير والمهملة ابن الحارث ، قال لهم : ألا أقتل لكم محمدا ، قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به أى أجىء إليه على غفلة ، فجاء إليه صلى الله عليه وسلم وسيفه فى حجره ، فقال : يا محمد أرنى أنظر إلى سيفك هذا ؟ فأخذه من حجره فاستله ، ثم جعل يهزه ويهم فيكبته الله : أى يخزيه ، ثم قال : يامحمد ماتخافنى ؟ قال : لا بل يمنعنى الله تعالى منك ، ثم دفع السيف إليه صلى الله عليه وسلم فأخذه صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ ، قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، قال : أعاهدك على أنى لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، فجاء إلى قومه ، فقال : جئتكم من عند خير الناس ، وأسلم هذا بعد ، وكانت له صحبة .

وفى رواية : جاء إليه صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفه فى حجره ، فقال : يامحمد أنظر إلى سيفك هذا ؟ قال نعم ، فأخذه فاستله ، ثم جعل يهزه ، ثم قال : يامحمد أما تخافنى ؟ قال : لا ، وما أخاف منك ، قال : وفى يدى السيف ؟ قال : لا ، يمنعنى الله تعالى منك ، ثم غمد سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرده عليه .

وهذه واقعة غير واقعة دعثور المتقدمة فى غزوة ذى أمر ، فهما واقعتان : إحداهما مع دعثور ، والثانية مع غورث ، فقول أصله والظاهر أن الخبرين واحد فيه نظر ظاهر فليتأمل .

قال : وفى رواية : لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة أدركته القائلة يوما بواد كثير العضاه : أى الأشجار العظيمة التى لها شوك ، وتفرق الناس فى العضاه : أى الأشجار يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت ظل شجرة أى ظليلة . قال جابر رضى الله عنه : تركناها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فعلق صلى الله عليه وسلم سيفه فيها ، فنمنا نومة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا ، فجئنا إليه فوجدنا عنده أعرابيا جالسا ، فقال : إن هذا قد اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده مصلتا : أى مسلولا ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت الله ، قال ذلك ثلاث مرات ولم يعاقبه صلى الله عليه وسلم اه .

وهذه الرواية مع ما قبلها يقتضى سياقهما أنهما واقعتان لا واقعة واحدة . ويبعد أن يكون ذلك الأعرابى هو غورث صاحب الواقعة الأولى ، فيكون تعدد منه هذا الفعل

مرتين ، أى وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم) وتقدم أن سبب نزولها إرادة إلقاء الحجر عليه من بعض أهل بنى النضير لعنهم الله ، وتقدم أنه لامانع من تعدد النزول لتعدد الأسباب .

وفى الشفاء : قيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاف قريشا ، فلما نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم) الآية ، استلقى ثم قال : من شاء فليخذلنى .

أى وفيه أن هذا لا يحسن إلا عند نزول آية (والله يعصمك من الناس) إلا أن يقال : هو صلى الله عليه وسلم علم من ذلك أن الله مانع له ممن يريده بسوء وإن كان يجوز أن يمنعه من شخص دون آخر فليتأمل .

وإنما لم يعاقب صلى الله عليه وسلم ذلك الأعرابى حرصا على استئلاف قلوب الكفار ليدخلوا فى الإسلام .

وكانت مدة غيبته صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة . وبعث صلى الله عليه وسلم جعال بن سراقة إلى المدينة مبشرا بسلامته وسلامة المسلمين ، أى وكان رضى الله عنه من أهل الصفة ، وهو الذى تمثل به إبليس لعنه الله يوم أحد حين نادى إن محمدا قد قتل كما تقدم .

وأبطأ جمل جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما فنخسه صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ أنه حجنه بمحجنه فانطلق متقدما بين يدى الركب . وفى رواية : فلقد رأيتنى أكفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه لا يسبقه : أى وهو ينازعنى خطامه مع أنى كنت أرجو أن يستاق معنا . ثم قال له صلى الله عليه وسلم : أتبيعيه ؟ فابتاعه منه : أى بأوقية ، وقيل بأربع أواق وقيل بخمس أواق ، وقيل بخمسة دنانير ، وقيل بأربعة دنانير بعد أن أعطاه فيه أولا درهما ممازحا له ، فقال له جابر رضى الله عنه : تبيعنى يارسول الله؟ وفى رواية : لازال صلى الله عليه وسلم يزيده درهما درهما ، فيقول جابر : أخذته بكذا والله يغفر لك يارسول الله ، قال بعضهم : كأنه صلى الله عليه وسلم أراد باعطائه درهما درهما أن يكثر استغفاره له ، وقال له : لك ظهره إلى المدينة . وفى رواية وشرط لى ظهره إلى المدينة أى واستغفر لجابر رضى الله عنه فى تلك الليلة خمسا وعشرين مرة ، وقيل سبعين مرة ، فلما وصل صلى الله عليه وسلم المدينة أعطاه الثمن ووهب له الجمل .

أى وقيل إن هذه القصة : أى إبطاء جمل جابر رضى الله عنه إنما كانت فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . وقيل كانت فى رجوعه من غزوة تبوك .

أى والذى فى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما . قال «كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فكنت على جمل ثقال ، إنما هو فى آخر القوم ، فمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : من هذا ؟ فقلت : جابر بن عبد الله ، قال : فمالك ؟ قلت: إنى على جمل ثقال ، قال : أمعك قضيب ؟ قلت نعم ، قال : أعطنيه ، فضربه فزجره ، فكان من ذلك المكان من أول القوم ، قال : بعنيه ، قلت : بل هو لك يا رسول الله ، قال : بل بعنيه ، فقد أخذته بأربعة دنانير ولك ظهره إلى المدينة ، فلما قدمت المدينة قال: يابلال اقضه وزده فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطا ، قال جابر رضى الله عنه : وأعطانى الجمل وسهمى مع القوم» .

وفى لفظ عن جابر قال :دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد فدخلت إليه ، فعلقت الجمل فى ناحية البلاط ، فقلت : يارسول الله هذا جملك ، فخرج صلى الله عليه وسلم فجعل يطوف بالجمل . قال : الثمن والجمل لك ، وفى لفظ : إنما باعه له بوقية : أى ذهب ، وأنه استثنى حملانه إلى أهله ، فلما قدم المدينة وأنقده الثمن وانصرف أرسل على أثره وقال له : ماكنت لآخذ جملك فخذ جملك .

وعن جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم اشتراه بطريق تبوك بأربع أواق . وفى لفظ : بعشرين دينارا، فليتأمل الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها، فإن التعدد بعددها بعيد .

قيل وسميت ذات الرقاع باسم شجرة كانت فى ذلك المحل يقال لها ذات الرقاع ، أو لأنهم رقعوا راياتهم ؛ أو لأنهم لفوا على أقدامهم الخرق لما حصل لهم الحفاء كما تقدم ، أو لأن الصلاة رقعت فيها ، أو لأن الجبل الذى نزلوا به كانت أرضه ذات ألوان تشبه الرقاع فيه بقع حمر وسود وبيض ، واستغربه الحافظ ابن حجر .

قال الإمام النووى رحمه الله : ويحتمل أنها سميت بالمجموع ؛ قال : وفى هذه الغزوة جاءته صلى الله عليه وسلم امرأة بدوية بابن لها . فقالت : يارسول الله هذا ابنى ، قد غلبنى عليه الشيطان ، ففتح فاه فبزق فيه وقال : اخسأ عدو الله أنا رسول الله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : شأنك بابنك ، لن يعود إليه شىء مما كان يصيبه ، أى فكان كذلك .

وفيها أيضا: جاء رجل بفرخ طائر فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدى الذى أخذ فرخه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتعجبون من هـــذا الطائر ؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه ، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه .

وفيها أيضا : جيء له صلى الله عليه وسلم بثلاث بيضات من بيض النعام ، فقال لجابر دونك ياجابر فاعمل هذه البيضات ، قال جابر رضى الله عنه : فعملتهن ، ثم جئت بهن فى قصعة ، فجعلنا نطلب خبزا فلم نجد ، فجعل صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى كل إلى حاجته : أى إلى الشبع ؛ والبيض فى القصعة كما هو .

وفيها أيضا : جاء جمل يرفل : أى حتى وقف عنده صلى الله عليه وسلم وأرغى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ماقال هذا الجمل ؟ هذا جمل يستعيذ بى على سيده يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين وأنه أراد أن ينحره ، اذهب ياجابر إلى صاحبه فأت به ، قال جابر رضى الله عنه : فقلت لاأعرفه ، قال : إنه سيدلك عليه . قال جابر : فخرج بين يدى حتى وقف على صاحبه ، فجئته به ، فكلمه صلى الله عليه وسلم فى شأن الجمل اه .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل حائط رجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه ، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح عليه فسكن . ثم قال : من رب هذا الجمل ، فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هذا لى يارسول الله ، فقال : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه .

وفى رواية : كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعير أقبل حتى وقف على هامة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أيها البعير اسكن فإن تك صادقا فلك صدقك ، وإن تك كاذبا فعليك كذبك ، إن الله تعالى قد أمن عائذنا ولن يخيب لائذنا ، فقلنا : يارسول الله، مايقول هذا البعير ؟ قال : يريد أهله نحره وأكل لحمه ، فهرب منهم واستغاث بنبيكم ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل أصحابه يتعادون ، فلما نظر إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاذ بها ، فقالوا : يارسول الله هذا

بعيرنا هرب منذ ثلاثة أيام فلم نجده إلا بين يديك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه يشكو ، فقالوا : يارسول الله مايقول ؟ قال : يقول إنه ربى فيكم سنين وكنتم تحملون عليه فى الصيف إلى موضع الكلأ ، فإذا كان الشتاء حملتم عليه إلى موضع الدفء ، فلما كبر استفحلتموه فرزقكم الله إبلا سليمة . فلما أدركته هذه السنة الجدبة هممتم بنحره وأكل لحمه ، فقالوا : والله يارسول الله قد كان ذلك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهذا جزاء المملوك الصالح من مواليه ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لانتعبه ولا ننحره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم ، قد استغاث بكم فلم تغيثوه ، وأنا أولى بالرحمة منكم لأن الله قد نزع الرحمة من قلوب المنافقين ، وأسكنها فى قلوب المؤمنين فاشتراه صلى الله عليه وسلم منهم بمائة درهم ، وقال : أيها البعير انطلق حيث شئت ، فرغا البعير على هامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : آمين ، ثم رغا الثانية ، فقال له آمين . ثم رغا الثالثة ، فقال له آمين ، ثم رغا الرابعة ، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا يارسول الله مايقول هذا البعير ؟ فقال : قال جزاك الله خيرا أيها النبى عن الإسلام والقرآن قلت : آمين ، قال : سكن الله رعب أمتك كما سكنت قلبى ، قلت : آمين ، قال : حقن الله دماء أمتك كما حقنت دمى ، قلت آمين ، قال : لاجعل الله بأسهم بينهم شديدا ، فبكيت لأنى سألت ربى فيها : أى فى هذه الرابعة فمنعنى إعطاءها . وقوله صلى الله عليه وسلم للجمل اذهب كيف شئت ، لايناسب ماعليه أئمتنا من عدم جواز إرسال الدواب تقربا إلى الله تعالى لأنه فى معنى سوائب الجاهلية ، إلا أن يقال : المراد بقوله صلى الله عليه وسلم له اذهب كيف شئت ، أى أنت آمن فى سائر أحوالك مما شكوت منه .

ورأيت فى كلام ابن الجوزى رحمه الله مايؤيد ذلك ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمه سمة نعم الصدقة ثم بعث به . وعليه لا إشكال ، وإلى قصة الجمل أشار الإمام السبكى رحمه الله فى تائيته بقوله :

ورب بعير قد شكا لك حاله   فأذهبت عنه كل كل وثقلة

وفى هذه : أعنى السنة الرابعة تزوج صلى الله عليه وسلم أم سلمة هند رضى الله عنها بعد موت أبى سلمة بن عبد الأسد رضى الله عنه . وما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : تزوجها سنة اثنتين ليس بشئ ، قيل وفيها شرع التيمم .

غزوة بدر الآخرة

ويقال لها بدر الموعد : أى لموعد أبى سفيان رضى الله عنه ، حيث قال حين منصرفه من أحد : موعد مابيننا وبينكم بدر : أى موسمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : قل نعم إن شاء الله تعالى كما تقدم .

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة ذات الرقاع أقام بقية جمادى الأولى إلى آخر رجب ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان وعليه اقتصر الأصل ، وقيل خرج فى شوّال ، وقيل فى مستهل ذى القعدة كل ذلك فى سنة أربع . ومن الوهم قول موسى بن عقبة رحمه الله: إنها كانت فى شعبان سنة ثلاث لما علمت أنها بعد أحد، وأحد كانت فى شوّال سنة ثلاث ، والحافظ الدمياطى قدّم هذه الغزوة على غزوة ذات الرقاع، وتبعه الشمس الشامى وصاحب الإمتاع .

وكان وصوله صلى الله عليه وسلم إلى بدر هلال ذى القعدة، وهذا لايناسب إلا القول بأن خروجه صلى الله عليه وسلم كان فى شوّال ، وكان ذلك موسما لبدر فى كل سنة يحضره الناس ويقيمون به ثمانية أيام كما تقدمت الحوالة عليه. وحين خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة استخلف عليها عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول رضى الله تعالى عنه ، وقيل عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، وخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ، وكان الخيل عشرة أفراس .

وعند تهيؤ المسلمين للخروج قدم نعيم بن مسعود الأشجعى ، أى وكان ذلك قبل إسلامه رضى الله تعالى عنه ، وأخبر قريشا أن المسلمين تهيأوا للخروج لقتالهم ببدر ، فكره أبو سفيان الخروج لذلك ، وجعل لنعيم إن رجع إلى المدينة وخذل المسلمين عن الخروج لبدر عشرين بعيرا . وفى لفظ عشرة من الإبل وحمله على بعير ، أى وقال له أبو سفيان إنه بدالى أن لاأخرج ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا ، فيزيدهم ذلك جراءة ، ىلأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلىّ من أن يكون من قبلى فالحق بالمدينة ، وأعلمهم أنا فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ، ولك عندى من الإبل كذا وكذا أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو ، فجاء نعيم إلى سهيل بن عمرو ، فقال له : يا أبا يزيد تضمن لى هذه الإبل وأنطلق إلى محمـــد وأثبطه ؟ قال نعم ، فقدم نعيم المدينة وأرجف بكثرة جموع

أبي سفيان ، أى وصار يطوف فيهم حتى قذف الرعب فى قلوب المسلمين ، ولم يبق لهم نية فى الخروج ، واستبشر المنافقون أى واليهود ، وقالوا : محمد لايفلت من هذا الجمع ، فجاء أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد سمعا ما أرجف به المسلمون وقالا له : يارسول الله ، إن الله مظهر نبيه ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم موعدا لا نحب أن نتخلف عنه ، فيرون أن هذا جبن ، فسر لموعدهم ، فوالله إن فى ذلك لخيرة فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ثم قال : والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد ، فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون ، وحمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وخرج المسلمون معهم بتجارات إلى بدر ، فربحت الضعف .

ثم إن أبا سفيان قال لقريش : لقد بعثنا نعيما ليخذل أصحاب محمد عن الخروج ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنا ، لأنه إن لم يخرج كان هذا لنا عليه ، وإن خرج أظهرنا أن هـذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب ، قالوا : نعم مارأيت ، فخرج أبو سفيان فى قريش: أى وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا حتى انتهوا إلى مجنة ، أى بفتح الميم والجيم وتشديد النون : وهو سوق معروف من ناحية مرّ الظهران ، وقيل إلى عفان ، ثم قال : يامعشر قريش لا يصلحكم إلا عام خصب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه الماء ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا ، فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق ، يقولون : إنما خرجتم لتشربوا السويق .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدة الموسم التى هى ثمانية أيام ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم انتهى إلى بدر هلال ذى القعدة كما تقدم ، وقام السوق صبيحة الهلال ، فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة . أى وصار المسلمون كلما سألوا عن قريش وقيل لهم قد جمعوا لكم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتى قيل لهم لما قربوا من بدر: إنها قد امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان يرعبونهم ويرهبونهم ، فيقول المؤمنون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فلما قدموا بدرا وجدوا أسواقا لا ينازعهم فيها أحد ، فأنزل الله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فالمراد بالناس الأول: نعيم نزل منزلة الجماعة.

وعن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنـــه أن القائلين ذلك كانوا أربعة ، ولا مانع أن يكون هؤلاء الأربعة من المنافقين لعنهم الله ، وافقوا نعيا على ماقال حتى إن قائلهم قال للمسلمين : إنما أنتم لهم أكلة رأس ، وإن ذهبتم إليهم لا يرجع منكم أحد .

وقيل القائلون ركب من عبد القيس ، كانوا قاصدين المدينة للميرة ، فجعل لهم أبو سفيان حمل أبعرتهم زبيبا إن هم خذلوا المسلمين وأرجفوهم . ولا مانع من وجود ذلك كله .

هذا ، وقد نقل ابن عطية رحمه الله عن الجمهور أن هذه الآية الواقعة المذكورة إنما كانت بحمراء الأسد عند انصرافه من أحد فليتأمل .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أى وبلغ قريشا خروج المسلمين لبدر وكثرتهم ، وأنهم كانوا أصحاب الموسم : أى والمخبر لهم بذلك معبد بن أبى معبد الخزاعى ، فإنه بعد انقضاء الموسم خرج سريعا إلى مكة وأخبرهم بذلك . فقال صفوان ابن أمية لأبى سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم ، وقد اجترءوا علينا ورأوا أنا أخلفناهم ، وإنما خلفنا الضعف .

غزوة دومة الجندل

بضم الدال ويجوز فتحها ، واقتصر الحافظ الدمياطى على الأول : أى وأما دومة بالفتح لا غير فموضع آخر ، ومن ثم قال الجوهرى : الصواب الضم ، وأخطأ المحدثون فى الفتح . سميت بدومى بن إسمعيل عليه السلام ، لأنه كان نزلها : وهى بلدة بينها وبين دمشق خمس ليال ، وهى أقرب بلاد الشام إلى المدينة ، وبينها وبين المدينة خمس أوست عشرة ليلة : أى وهى بقرب تبوك ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بها جمعا كثيرا يظلمون من مر بهم ، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس لذلك ، فخرج فى ألف من المسلمين ، أى وذلك فى أواخر السنة الرابعة .

وذكر بعضهم أنها كانت فى ربيع الأول من السنة الخامسة ، ويوافقه قول الحافظ الدمياطى : إنها كانت على رأس تسعة وأربعين شهرا من مهاجرته صلى الله عليه وسلم : أى واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى [] فكان يسير الليل ويكمن النهار ، ومعه

دليل له من بنى عذرة : أى يقال له مذكور رضى الله تعالى عنه . فلما دنا منهم جاء إليهم الخبر فتفرقوا ، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم ، فلم يلق بها أحدا ، وبعث السرايا فرجعت ولم تلق منهم أحدا : أى ورجعت كل سرية بإبل، وأخذ محمد بن مسلمة رجلا منهم وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فقال : هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم ، فعرض عليه الإسلام فأسلم ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

وفى رجوعه وادع : أى صالح عيينة بن حصن واسمه حذيفة الفزارى أن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا ، أى لأن أرضه كانت أجدبت ، ولما سمن حافره وخفه ، وانتقل إلى أرضه غزا على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة كما سيأتى ، وقيل له بئس ماجزيت به محمدا صلى الله عليه وسلم ، أحلك أرضه حتى سمن حافرك وخفك ، وتفعل معه ذلك ، فقال : هو حافرى ، وقيل له عيينة لأنه أصابته لقوة فجحظت عيناه وسمى عيينة ، وعيينة هذا أسلم بعد الفتح وشهد حنينا والطائف ، وكان من المؤلفة كما سيأتى ، وكان يقال له الأحمق المطاع ،كان يتبعه عشرة آلاف فتى .

ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم بغير إذن وأساء الأدب ، فصبر النبي صلى الله عليه وسلم على جفوته ، وقال فيه صلى الله عليه وسلم « إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه » وقيل إن ذلك إنما قيل فى مخرمة بن نوفل : أى ولا مانع من تعدد ذلك، وقد ارتد عيينة بعد ذلك فى زمن الصديق رضى الله عنه : فإنه لحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ وآمن به . فلما هرب طليحة أسره خالد بن الوليد رضى الله عنه وأرسل به إلى الصديق فى وثاق فلما دخل المدينة صار أولاد المدينة ينخسونه بالحديد ويضربونه ، ويقولون : أى عدو الله كفرت بالله بعد إيمانك ، فيقول : والله ماكنت آمنت ، فمن عليه الصديق فأسلم ، ولم يزل مظهرا للإسلام .

وفى سنة أربع نزلت آية الحجاب لأزواجه صلى الله عليه وسلم ، وكان فيها قصر الصلاة ، وولادة الحسين رضى الله عنه . ووقع أنه لما ولد سماه على كرم الله وجهه حربا ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال « أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ قالوا : حربا ، قال : بل اسمه حسين » أى كما فعل ذلك بالحسن كما مر ، فلما ولد الثالث جاء النبي صلى الله عليه وسلم

فقال: «أرونى ابنى، ما سميتموه؟ قال على كرم الله وجهه: سميته حربا، فقال بل هو محسن ثم قال صلى الله عليه وسلم: إنى سميتهم بأسماء ولد هرون شبر وشبير ومشبر».

ومن المستظرف ما حكاه بعضهم، قال: وقع بين الحسن والحسين كلام فتهاجرا، فلما كان بعد ذلك أقبل الحسن على الحسين وأكب على رأسه يقبله، فقال له الحسين: إن الذى منعنى من ابتدائك بهذا أنك أحق بالفضل منى، فكرهت أن أنازعك ما أنت أحق به، ورجم اليهوديين الزانيين، وفرض الحج، وقيل فرض فى الخامسة، وقيل فى السادسة، وقيل فى السابعة، وقيل فى الثامنة، وقيل فى التاسعة، وقيل فى العاشرة.

قيل وفيها أى الرابعة شرع التيمم، أى كما تقدم. وقيل شرع فى الغزوة التى تلى هذه وهى غزوة بنى المصطلق. وقيل كان فى غزوة أخرى، أى وفى غيبته صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ماتت أم سعد بن عبادة، وكان ابنها رضى الله عنه معه صلى الله عليه وسلم، ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة صلى على قبرها، وذلك بعد شهر، وقال له سعد: يارسول الله أتصدق عنها؟ قال نعم، قال أىّ الصدقة أفضل؟ قال: الماء فحفر بئرا، وقال هذه لأم سعد رضى الله عنها.

غزوة بنى المصطلق

ويقال لها غزوة المريسيع، ويقال لها غزوة محارب، وقيل محارب غيرها. ويقال لها غزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأمور العجيبة، أى كما قيل بذلك كذلك فى غزوة ذات الرقاع كما تقدم.

وبنو المصطلق: بطن من خزاعة، وهم بنو جذيمة، وجذيمة هو المصطلق، من الصلق: وهو رفع الصوت. والمريسيع: إسم ماء من مياههم، أى من ماء خزاعة مأخوذة من قولهم: رسعت عين الرجل إذا دمعت من فساد، وذلك الماء فى ناحية قديد.

وسببها أنه صلى الله عليه وسلم بلغه أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق رضى الله عنه، فإنه أسلم بعد ذلك كما سيأتى، جمع لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قدر عليه من قومه ومن العرب، فأرسل صلى الله عليه وسلم بريدة بالتصغير ابن الحصيب بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين فى آخره موحدة كما تقدم، أى ليعلم علم ذلك.

قال: واستأذن بريدة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول مايتخلص به من

شرهم ، أى وإن كان خلاف الواقع فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج حتى ورد عليهم ورأى جمعهم ، فقالوا له: من الرجل؟ قال: رجل منكم قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل ، فأسير فى قومى ومن أطاعنى ، فتكون يدا واحدة حتى نستأصلهم ، فقال له الحارث: فنحن على ذلك ؛ فعجل علينا ، قال بريدة : أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومى ، فسروا بذلك منه ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبر القوم انتهى . فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليهم ، فأسرعوا الخروج ، وكان فى شعبان لليلتين خلتا منه سنة خمس من الهجرة ، وقيل أربع كما فى البخارى نقلا عن ابن عقبة ، وعليه جرى الإمام النووى فى الروضة . قال الحافظ ابن حجر : وكأنه سبق قلم أراد أن يكتب سنة خمس من الهجرة فكتب سنة أربع ، لأن الذى فى مغازى ابن عقبة من عدة طرق سنة خمس ، وقيل سنة ست ، وأن عليه أكثر المحدثين ، وقادوا الخيل وهى ثلاثون فرسا عشرة للمهاجرين : أى منها فرسان له صلى الله عليه وسلم اللزاز والظرب ، وعشرون للأنصار رضى الله عنهم : واستخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة زيد بن حارثة رضى الله عنهما . وقيل أباذر الغفارى رضى الله عنه . وقيل نميلة تصغير نملة ابن عبد الله الليثى رضى الله عنه ، وخرج معه صلى الله عليه وسلم من نسائه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما : أى وخرج معه صلى الله عليه وسلم ناس كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها منهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، وزيد بن الصلت ليس لهم رغبة فى الجهاد ، وإنما غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة ، وسار صلى الله عليه وسلم حتى بلغ محلا نزل به ، فأتى برجل من عبد القيس فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أين أهلك ؟ قال : بالروحاء ، قال أين تريد ؟ قال : إياك جئت لأومن بك ، وأشهد أن ما جئت به حق : وأقاتل معك عدوك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداك للإسلام . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة لأول وقتها . فكان بعد ذلك يصلى الصلاة لأول وقتها .

وأصاب صلى الله عليه وسلم عينا للمشركين كان وجهه الحارث ليأتيه بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فلم يذكر من شأنهم شيئا ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب

رضى الله عنه أن يضرب عنقه فضرب عنقه، فلما بلغ الحارث مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه قتل عينه سىء بذلك ومن معه ، وخافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنه جمع كثير ممن كان معه ، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المريسيع فضربت له صلى الله عليه وسلم قبة من أدم ، وكان معه فيها عائشة وأم سلمة رضى الله تعالى عنهما فتهيأ المسلمون للقتال ، ودفع صلى الله عليه وسلم راية المهاجرين إلى أبي بكر رضى الله عنه . وقيل لعمار بن ياسر ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة رضى الله عنه ، أى وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ففعل عمر ذلك فأبوا فتراموا بالنبل ساعة . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فحملوا حملة رجل واحد ، فما أفلت منهم إنسان ، وقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم : الرجال والنساء والذرية ، واستاق إبلهم وشياههم ، فكانت الإبل ألفى بعير ، والشاء خمسة آلاف شاة ، واستعمل صلى الله عليه وسلم على ذلك مولاه شقران ، أى بضم الشين المعجمة ، واسمه صالح ، وكان رضى الله عنه حبشيا ، وكان السبى مائتى أهل بيت . وفى كلام بعضهم كانوا أكثر من سبعمائة ، وكانت برة بنت الحارث الذى هو سيد بنى المصطلق فى السبى .

وقيل أغار عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم غافلون ، فقتل مقاتلتهم ، وسبى سبيهم ، أى وهذا القول هو الذى فى صحيح البخارى : أى ومسلم ، والأول هو الذى فى السيرة الهشامية .

وجمع بأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم لما أغار عليهم ثبتوا وصفوا للقتال ، ثم انهزموا ، ووقعت الغلبة عليهم ، أى وقتل منهم من قاتل ولم يستأسر . وكان شعار المسلمين : أى علامتهم التى يعرفون بها فى ظلمة الليل أو عند الاختلاط «يا منصور أمت» تفاؤلا بأن يحصل لهم النصر بعد موت عدوهم .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسارى فكتفوا ، واستعمل عليهم بريدة رضى الله عنه . ثم فرق صلى الله عليه وسلم السبى ، فصار فى أيدى الناس .

أى وفى هذا دليل لقول إمامنا الشافعى رضى الله عنه فى الجديد : يجوز استرقاق العرب ، لأن بنى المصطلق عرب من خزاعة خلافا لقوله فى القديم إنهم لا يسترقون

لشرفهم . وقد قال فى الأم : لولا أنا نأثم بالتمنى لتمنينا أن يكون هكذا : أى لا يجرى الرق على عربى .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا ثعلبة الطائى إلى المدينة بشيرا من المريسيع ، أى وجمع صلى الله عليه وسلم المتاع الذى وجده فى رحالهم والسلاح والنعم والشاء ، وعدلت الجزور بعشرة من الغنم ، ووقعت برة بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس ، وابن عم له ، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته من برة ، وكاتبها أى على تسع أواق من ذهب ، فدخلت عليه صلى الله عليه وسلم ، فقالت له : يا رسول الله إنى امرأة مسلمة : أى أسلمت لأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وإنى برة بنت الحارث سيد قومه ، أصابنا من الأمر ما قد علمت ، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات فى المدينة ، وكاتبنى على مالا طاقة لى به ، وإنى رجوتك فأعنى فى مكاتبتى ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو خير من ذلك ؟ قالت : ماهو ؟ قال : أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال ثابت رضى الله عنه : هى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، فأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان كاتبها عليه وأعتقها وتزوجها ، أى وهى ابنة عشرين سنة ، وسماها جويرية : أى وكان اسمها برة ، وكذلك ميمونة ، وزينب بنت جحش كان اسم كل منهما برة فغيره صلى الله عليه وسلم ، وكذا كان اسم بنت أم سلمة برة فسماها زينب . ويذكر أن عليا كرم الله وجهه هو الذى أسرها .

أقول : ولا مانع أن يكون على كرّم الله وجهه أسرها ثم وقعت فى سهم ثابت وابن عمه رضى الله عنهما عند القسمة ، لأنه لم يثبت فى هذه الغزوة أنه صلى الله عليه وسلم جعل الأسرى لمن أسرهم كما وقع فى بدر ، إلا ما يأتى من قول أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : ورغبنا فى الفداء وقد يقال : رغبوا فى الفداء بعد القسمة والله أعلم .

قال : وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كانت جويرية امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فبينما النبىّ صلى الله عليه وسلم عندى ونحن على الماء : أى الذى هو المريسيع ، إذ دخلت جويرية تسأله فى كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذى رأيت ، فقالت :

يا رسول الله إنى امرأة مسلمة الحديث » اه وإنما كرهت ذلك لما جبلت عليه النساء من الغيرة . ومن ثم جاء « أنه صلى الله عليه وسلم خطب امرأة فأرسل عائشة رضى الله تعالى عنها لتنظر إليها ، فلما رجعت إليه قالت : ما رأيت طائلا ، فقال : بلى لقد رأيت خالا فى خدّها فاقشعرت منه كل شعرة فى جسدك ، أى وفى لفظ آخر عن عائشة رضى الله عنها « فما هو إلا أن وقفت جويرية بباب الخباء لتستعين رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتابتها فنظرت إليها فرأيت على وجهها ملاحة وحسناء فأيقنت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآها أعجبته علما منها بموقع الجمال منه صلى الله عليه وسلم ، فما هو إلا أن كلمته صلى الله عليه وسلم ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : خير من ذلك ، أنا أؤدى كتابتك وأتزوجك ، فقضى عنها كتابتها وتزوجها » والملاح أبلغ المليح ، والمليح ، مستعار من قولهم طعام مليح : إذا كان فيه الملح بمقدار ما يصلحه .

قال الأصمعى رحمه الله : الحسن فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والملاحة فى الفم . وهذا السياق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم تزوجها وهم على الماء الذى هو المريسيع ، ويؤيده ما يأتى عنها رضى الله تعالى عنها .

قال الشمس الشامى رحمه الله : ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لجويرية حتى عرف من حسنها ما دعاه لتزوجها ، لأنها كانت أمة مملوكة : أى لأنها مكاتبة ، ولو كانت غير مملوكة : أى حرة ما ملأ صلى الله عليه وسلم عينه منها ، أو أنه صلى الله عليه وسلم نوى نكاحها ، أو أن ذلك كان قبل آية الحجاب .

أقول : تبع فى هذا السهيلى رحمه الله . وقد قدمنا أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز نظر الأجنبية والخلوة بها لأمنه صلى الله عليه وسلم من الفتنة ، فلا يحسن قوله ولو كانت حرة ما ملأ صلى الله عليه وسلم عينه منها .

ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم حرمة نكاح الأمة ، فلا يحسن قوله أو أنه نوى نكاحها ، وأن نزول آية الحجاب كان فى سنة ثلاث على الراجح .

ومذهب الشافعى رضى الله عنه : حرمة نظر سائر بدن الأمة الأجنبية كالحرة على الراجح عند الشافعية ومنهم الشمس الشامى ، فلا يحسن قوله لأنها كانت أمة مملوكة ، والله أعلم .

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه : قال « غزونا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم غزوة بنى المصطلق ، فسبينا كرائم العرب أى واقتسمناها وملكناها ، فطالت علينا العزبة ورغبنا فى الفداء ، فأردنا نستمتع ونعزل ، فقلنا نفعل ذلك » وفى لفظ «فأصبنا سبايا وبنا شهوة للنساء ، واشتدت علينا العزوبة ، وأحببنا الفداء ، وأردنا أن نستمتع ونعزل ، وقلنا : نعزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فسألناه عن ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا عليكم أن لا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة » أى نفسا « قدّرها هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » . وفى لفظ « ما عليكم أن لا تفعلوا فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة » وفى رواية « لا عليكم أن لا تفعلوا ذلك ، فإنما هو القدر » وفى رواية « ما من كل الماء يكون الولد ، وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه » أى ما عليكم حرج فى عدم فعل العزل : وهو الإنزال فى الفرج ، لأن العزل الإنزال خارج الفرج ، فيجامع حتى إذا قارب الإنزال نزع فأنزل خارج الفرج « ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة » أى عزلتم أم لا فلا فائدة فى عزلكم ، لأن الماء قد يسبق العزل إلى الرحم فيجىء الولد ، وقد ينزل فى الفرج ولا يجىء الولد .

وكون ذلك كان فى بنى المصطلق هو الصحيح ، خلافا لما نقل عن موسى بن عقبة رحمه الله تعالى أن ذلك كان فى غزوة أوطاس . وقول أبى سعيد رضي الله تعالى عنه : « قد طالت علينا العزبة واشتهينا النساء » أى لعل أبا سعيد الخدرىّ رضى الله عنه ومن تكلم على لسانه كان فى المدينة أعزب ، وإلا فأيام تلك الغزوة لم تطل ، فإنها كانت ثمانية وعشرين يوما . قال أبوسعيد رضى الله عنه : فقدم علينا وفدهم : أى بالمدينة . فنى الإمتاع وكانوا قدموا المدينة ببعض السبى ، فقدم عليهم أهلوهم فافتدوا الذرية والنساء ، كل واحد بست فرائض ، ورجعوا إلى بلادهم .

قال أبو سعيد رضى الله عنه : وخرجت بجارية أبيعها فى السوق : أى قبل أن يقدم وفدهم فى فدائهم فقال لى يهودى : يا أبا سعيد تريد بيعها وفى بطنها منك سخلة هى فى الأصل ولد الغنم ، فقلت : كلا ، إنى كنت أعزل عنها ، فقال : تلك الوأدة الصغرى : أى المرة من الوأد ، وهو أن يدفن الرجل بنته حية ، فالموءودة البنت تدفن فى القبر وهى حية ، كانت الجاهلية خصوصا كندة تفعل ذلك ، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبرته ، فقال : كذبت يهود ، كذبت يهود ، زاد فى رواية « لو أراد الله عز وجل أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه » وبهذا مع ما تقدم من نفى الحرج استدل أئمتنا رحمهم

الله على جواز العزل مع الكراهة فى كل امرأة سرية أوحرة فى كل حال ، سواء رضيت أم لا ؛ وقال جمع بحرمته ، قالوا لأنه طريق إلى قطع النسل ، وفى مسلم ما يوافق ما قالته يهود . ففى مسلم «سألوه صلى الله عليه وسلم عن العزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك الوأد الخفى» أى بمثابة دفن البنت حية الذى كان يفعله الجاهلية خوف الإملاق أو خوف حصول العار .

إلا أن يقال : هذا كان منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه بحل ذلك ثم نسخ فلا مخالفة . ويدل لذلك ما فى مسلم أيضا عن جابر رضى الله عنه : « كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل فلم ينهنا » . وفى رواية « أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن لى جارية هى خادمنا وساقيتنا فى النخل، وأنا أكره أن تحمل ، فقال صلى الله عليه وسلم : اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها ، فلبث الرجل ثم أتاه صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الجارية قد حبلت ، فقال : قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قدر لها » فقد أرشده صلى الله عليه وسلم إلى العزل الذى لا يكون معه الولد غالبا ، وأخبر بأن ذلك لا يمنع وجود ما قدر لها من حصول الولد .

وعن عبد الله بن زياد رضى الله عنه . قال « أفاء » أى غنم «رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة بنى المصطلق جويرية بنت الحارث ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأقبل أبوها فى فدائها ، فلما كان بالعقيق نظر إلى إبله التى يفدى بها ابنته فرغب فى بعيرين منها كانا من أفضلها ، فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق ، ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أصبتم ابنتى . وفى رواية قال : يارسول الله كريمة لا تسبى وهذا فداؤها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا ؟ فقال الحارث : أشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على ذلك إلا الله وأسلم» ولعله دخل بالأمان إلى المدينة . وفى رواية : أنه أسلم قبل ذلك وأسلم معه ابنان وناس من قومه وعليه فيكون قوله فأسلم : أى أظهر إسلامه ، وعند ذلك أمره صلى الله عليه وسلم بأن يخيرها ، فقالت : أحسنت وأجملت ، فقال لها أبوها : يابنية لا تفضحى قومك ، قالت اخترت الله ورسوله . وفيه كيف يأمره صلى الله عليه وسلم بتخييرها بعد أن تزوجها ، كما تقدم أن مقتضى السياق أنه تزوجها وهم على الماء .

ثم رأيت الإمام أبا العباس بن تيمية أنكر مجىء أبيها وتخييرها فليتأمل .

وفى الإستيعاب: أن عبد الله بن الحارث أخا جويرية بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى فداء أسارى بنى المصطلق وغيب فى الطريق ذودا وجارية سوداء ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء الأسارى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم فما جئت به ؟ قال : ماجئت بشىء قال : فأين الذود والجارية السوداء الذى غيبت فى موضع كذا؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، والله ما كان معى أحد ولا سبقنى إليك أحد فأسلم . وفيه ماتقدّم فى أبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك الهجرة حتى تبلغ برك الغماد ، هذا كلامه . والذود : من الإبل مابين الثلاث إلى العشر .

والمتبادر من هذا السياق أنه جاء بذلك الذود وتلك الجارية للفداء ، فعنّ له أن يسأل فى الفداء من غير شىء ، فغيب ذلك الذود وتلك الجارية طمعا فى أنه صلى الله عليه وسلم يجيبه لذلك لمكان أخته عنده . ويحتمل أن العبارة فيها اختصار ، وحينئذ يكون الأصل فى قوله صلى الله عليه وسلم فما جئت به المال الزائد على هذا الذى جئت به ، فيكون الذود والجارية بعض ماجاء به للفداء ، فقال : ماجئت بشىء : أى زائد على هذا الذى جئت به لأنه يبعد أن يطلب الفداء من غير شىء فليتأمل .

وفى لفظ أنه لما جاء أبوها فى فدائها دفعت إليه ابنته جويرية وأسلمت وحسن إسلامها فخطبها النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبيها ، فزوّجه إياها وأصدقها أربعمائة درهم .

وفى الإمتاع يقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم جعل صداقها عتق كل أسير من بنى المصطلق . ويقال جعل صداقها عتق أربعين من قومها ، ولا يخفى أن مجىء أبيها فى فدائها وتزويجها للنبى صلى الله عليه وسلم مخالف لسياق ماتقدم أنه تزوجها وهم على الماء ، ويحتاج للجمع بين ماذكر وبين ماروى أنه لما رأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية قال فى حق بنى المصطلق : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقوا مابأيديهم منهم .

وعبارة الإمتاع : ولما تزوّجها صلى الله عليه وسلم ، خرج الخبر إلى الناس وقد اقتسموا رجال بنى المصطلق وملكوهم ووطئوا نساءهم ، فقالوا أصهار النبى صلى الله عليه وسلم فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبى .

وعن جويرية رضى الله تعالى عنها قالت : لما أعتقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتزوّجنى ، والله ماكلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم ، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمى تخبرنى الخبر ، فحمدت الله سبحانه وتعالى .

أقول : وذكر بعضهم أن ليلة دخوله صلى الله عليه وسلم بها طلبتهم منه فوهبهم لها ويحتاج للجمع ، ويقال فى الجمع بين ماتقدم من فدائهم وإطلاقهم من غير فداء بأنه يجوز أن يكون الفداء وقع لبعضهم قبل عتق جويرية والتزوّج بها ، فلما تزوّجها صلى الله عليه وسلم أطلق بعضهم الآخر الباقى ، فالفداء وقع لبعضهم والإعتاق وقع لبعضهم الآخر ، فإن السبى كان لأهل مائتى بيت . ويؤيد ذلك قول بعضهم : كان السبى منهم من منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فداء ومنهم من افتدى . ويؤيد ذلك ما يأتى فى كلام عائشة رضى الله تعالى عنها أن الإعتاق كان لأهل مائة بيت ، أى فيكون الفداء لأهل مائة بيت والإطلاق فى الفداء لأهل المائة الأخرى ، ويكون مراد جويرية رضى الله عنها بقولها « ماكلمته فى قومى » أى فيمن بقى منهم .

ثم لايخفى أن مجىء أبيها أو أخيها ومجىء وفدهم لفدائهم مخالف لما تقدم من أنه أسر سائرهم : الرجال والنساء والذرية ، ولم يفلت منهم أحد ، ويبعد غياب هؤلاء خصوصا أباها الذى كان يجمع القوم ، فعليك أن تتنبه للجمع بين هـذه الروايات على تقدير صحتها والله أعلم . ثم بعد ذلك أسلم بنو المصطلق . وبعد بعامين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ الصدقة : أى وكان بينهم وبينه شحناء فى الجاهلية ، فخرجوا للقائه وهم متقلدون السيوف فرحا وسرورا بقدومه ، فتوهم أنهم خرجوا لقتاله ففر راجعا ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ارتدوا ، فهمّ عليه الصلاة والسلام بقتالهم : أى وأكثر المسلمون ذكر غزوهم ، فعند ذلك قدم وفدهم وأخبروا بأنهم خرجوا إليه ليكرموه ويؤدوا ماعليهم من الصدقة .

أى وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم خالد بن الوليد فأخبروه الخبر . وعند إرساله قال له صلى الله عليه وسلم ارمقهم عند الصلاة فإن كان القوم تركوا الصلاة فشأنك بهم ، فدنا منهم عند غروب الشمس ، فكمن حيث يسمع الصلاة ، فإذا هو بالمؤذن قد قام حين غربت الشمس فأذن ثم أقام الصلاة فصلوا المغرب ، ثم لما غاب الشفق أذن مؤذنهم ثم أقام الصلاة فصلوا العشاء ، ثم لما كان جوف الليل فإذا هم يتهجدون ثم عند طلوع الفجر أذن مؤذنهم وأقام الصلاة فصلوا ، فلما انصرفوا وأضاء النهار فإذا

هم بنواصى الخيل فى ديارهم . فقالوا ما هذا ؟ قيل خالد بن الوليد. فقالوا ياخالد ماشأنك؟ قال : أنتم والله شأنى ، أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له إنكم تركتم الصلاة وكفرتم بالله ، فجثوا يبكون وقالوا معاذ الله ، وهذا الوليد بيننا وبينه شحناء فى الجاهلية ، وإنما خرجنا بالسيوف خشية أن يكافئنا بالذى كان بيننا وبينه ، فرد الخيل عنهم ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) الآيتين .

قال ابن عبد البر رحمه الله : لاخلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله (إن جاءكم فاسق بنبأ) نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق لأخذ صدقاتهم : أى ونزل فيه وفى على بن أبى طالب كرم الله وجهه (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون) أى فكان يدعى الفاسق ، وبعثه لأخذ صدقات بنى المصطلق يرد قول من قال إنه ممن أسلم يوم الفتح ، وكان قد ناهز الحلم .

أى ويرد ماروى بعضهم عنه أنه قال : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رءوسهم ويدعو لهم بالبركة فأتى بى إليه وأنا مضمخ بالخلوق ، فلم يمسح على رأسى ، ولم يمنعه من ذلك إلا وجود الخلوق .

ويرد ذلك أيضا ماسيأتى أنه خرج هو وأخوه عمارة ليردا أختهما أم كلثوم عن الهجرة وكانت هجرتها فى الهدنة: هدنة الحديبية .

والوليد هذا كان أخا عثمان بن عفان لأمه وولاه الكوفة : أى وعزل عنها سعد بن أبى وقاص،فلما قدم الوليد الكوفة على سعد رضى الله عنه قال له: والله ما أدرى أصرت كيسا بعدنا أم حمقنا بعدك ، فقال له : لا تجزعن أبا إسحاق وإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون،فقال سعد: أراكم - يعنى بنى أمية - ستجعلونها والله -يعنى الخلافة- ملكا، وعند ذلك قال الناس : بئسما فعل عثمان رضى الله عنه ، عزل سعدا الهين اللين الورع المستجاب الدعوة ، وولى أخاه الخائن الفاسق كما تقدم .

ولقى الوليد ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : ما جاء بك ؟ فقال : جئت أميرا . فقال له ابن مسعود : ما أدرى أصلحت بعدنا أم فسد الناس ؟ وكان الوليد شاعرا ظريفا حليما شجاعا كريما، شرب الخمر ليلة من أول الليل إلى الفجر ،فلما أذن المؤذن لصلاة الفجر

خرج إلى المسجد وصلى بأهل الكوفة الصبح أربع ركعات ، وصار يقول فى ركوعه وسجوده اشرب واسقنى ، ثم قاء فى المحراب ، ثم سلم وقال : هل أزيدكم ؟ فقال له ابن مسعود رضى الله تعالى عنه لازادك الله خيرا ولا من بعثك إلينا ، وأخذ فردة خفه وضرب بها وجه الوليد ، وحصبه الناس ، فدخل القصر والحصباء تأخذه وهو مترنح ، وإلى ذلك يشير الحطيئة بقوله :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليـــد أحق بالعذر

نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم سكرا وما يدرى

ولما شهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان بن عفان رضى الله عنه استقدمه ، وأمر به فجلد : أى أمر عليا كرم الله وجهه أن يقيم عليه الحدّ فجلده . وقيل : فقال علىّ كرم الله وجهه لابن أخيه عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما : أقم عليه الحدّ أى بعد أن أمر ابنه الحسن رضى الله عنه بذلك فامتنع ، فأخذ عبد الله رضى الله عنه السوط وجلده وعلىّ كرم الله وجهه يعدّ عليه حتى بلغ أربعين . فقال لعبد الله : أمسك ، جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمر أربعين وجلد أبو بكر رضى الله عنه أربعين ، وجلد عمر رضى الله عنه ثمانين ، وكل سنة . وهذا : أى ما فعلته من جلده أربعين أحبّ إلىّ من جلد عمر ثمانين .

هذا ، وفى البخارى أن عبد الله جلده ثمانين . وأجيب عنه بأن السوط كان له رأسان وحينئذ يكون قوله « وكل سنة » أى طريقة ، فأربعون طريقته صلى الله عليه وسلم ، وطريقة الصديق رضى الله عنه ، والثمانون طريقة عمر رضى الله عنه رآها اجتهادا مع استشارته لبعض الصحابة فى ذلك ، لما رآه من كثرة شرب الناس للخمر .

وبعد أن جلده وعزله عن الكوفة أعاد سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

ولما أراد سعد أن يصعد المنبر قال : لا أصعد عليه حتى تغسلوه من آثار الوليد الفاسق فإنه نجس فغسلوه كما تقدم .

وإرسال الوليد بن عقبة لبنى المصطلق كان ينبغى أن يذكر فى السرايا ، وكذا إرسال خالد رضى الله عنه لهم .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية ، أعتق بتزويجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مائة بيت ، أى ومن المعلوم أن هذا

كان قبل سبايا أوطاس الذين أطلقوا بسبب أخته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة على ما سيأتى فى بعض الروايات وقيل فى حقها : ما عرفت امرأة هى أيمن على قومها منها .

وذكرت جويرية رضى الله عنها أنها قبل قدومه صلى الله عليه وسلم عليهم بثلاث ليال رأت كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرها . أى وعنها رضى الله عنها قالت : فكرهت أن أخبر بها أحدا من الناس ، فلما سبينا رجوت الرؤيا .

قال وعنها رضى الله عنها أنها قالت : لما أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن على المريسيع ، فأسمع أبى يقول : أتانا مالا قبل لنا به فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح مالا أصف من الكثرة ، فلما أن أسلمت وتزوّجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعنا جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى ، فعلمت أنه رعب من الله تعالى يلقيه فى قلوب المشركين ، أى وهذا مما يؤيد ما تقدّم من أنه صلى الله عليه وسلم تزوّجها وهم على الماء الذى هو المريسيع ، وكان رجل منهم ممن أسلم وحسن إسلامه يقول : لقد كنا نرى رجالا بيضا على خيل بلق ما كنا نراهم قبل ولا بعد انتهى . وهو يدل على أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانت مددا لهم فى هذه الغزوة .

ولم يقتل فى غزوة بنى المصطلق من المسلمين إلا رجل واحد قتله رجل من الأنصار خطأ يظنه من العدوّ ، والمقتول هشام بن صبابة رضى الله تعالى عنه .

أقول : وهذا مجمل قول الحافظ الدمياطى رحمه الله فى سيرته : إنه لم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد فاعتراض صاحب الهدى عليه بأن هذا وهم لأنهم لم يكن بينهم قتال ليس فى محله ، لأنه فهم أن الرجل قتله الكفار ، وقد علمت أنه إنما قتله شخص من الأنصار يظنه من العدوّ ، والله أعلم ، وقدم أخو هذا المقتول من مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر الإسلام وقال : جئت أطلب دية أخى ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه ، فأخذها مائة من الإبل ، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتدا ، ويوم فتح مكة أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، فقتل فى ذلك اليوم كما سيأتى .

وما هنا هو الصحيح خلافا لما يأتى عن الأصل فى فتح مكة أن قتل أخيه كان فى غزوة ذى قرد ثم بعد انقضاء الحرب وهم على الماء اختصم أجير لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أى كان يقود له فرسه يقال له جهجاه رضى الله عنه مع رجل من حلفاء الخزرج ، قيل

حليف عمرو بن عمرو ، وقيل حليف عبد الله بن أبي ابن سلول ، وهو سنان بن فروة رضى الله عنه ، أى فضرب أجير عمر رضى الله عنه حليف الخزرج فسال الدم ، وفى لفظ : كسعه ، أى دفعه ، فنادى حليف الخزرج ؛ يامعشر الأنصار ، أى وقيل قال : ياللخزرج ، ونادى أجير عمر : يامعشر المهاجرين ، وقيل قال : يالكنانة يالقريش ، فأقبل جمع من الجيشين ، وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبر بالحال . أى فقالوا رجل من المهاجرين ضرب رجلا من الأنصار . فقال صلى الله عليه وسلم : دعوها ، أى تلك الكلمة التى هى يالفلان فإنها منتنة ، أى مذمومة لأنها من دعوى الجاهلية ،وجاء « من دعا دعوى الجاهلية كان من محشى جهنم » أى مما يرمى به فيها « قيل : يارسول الله وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ، قال : وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم » وقال صلى الله عليه وسلم « لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما ، إن كان ظالما فلينهه فإنه ناصر ، أى له ، وإن كان مظلوما فلينصره » أى يزيل ظلامته ، ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه ، فسكنت الفتنة وانطفت ثائرة الحرب .

وجهجاه هذا روى عنه عطاء بن يسار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى معى واحد » وهو المراد بهذا الحديث فى كفره وإسلامه ، لأنه شرب حلاب سبع شياه قبل أن يسلم ثم أسلم ، فلم يستتم حلاب شاة واحدة ، أى وسيأتى نظير ذلك لثمامة الحنفى .

ونقل أبو عبيد أن الرجل الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المقالة هو أبو بصرة الغفارى ، أى ولا مانع أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك فى حق الرجل المذكور أيضا ، فقد تكرر منه صلى الله عليه وسلم ذلك ثلاث مرات لرجال ثلاثة أكل كل واحد منهم فى الكفر أكثر مما أكل فى الإسلام .

قال ابن عبد البر رحمه الله : وجهجاه هذا هو الذى تناول عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم من يد عثمان رضى الله عنه وهو يخطب فكسرها على ركبته ، فأخذته أكلة فى ركبته فمات منها ، هذا كلامه .

وفى كلام السهيلى رحمه الله أنه انتزع تلك العصا من عثمان حين أخرج من المسجد ومنع من الصلاة فيه ، وكان هو أحد المعينين عليه هذا كلامه .

وقد يقال : لامخالفة بين كونه أخذ العصا منه وهو يخطب وبين كونه أخذها حين أخرج من المسجد ، لأنه يجوز أن يكون أخرج من المسجد فى أثناء الخطبة وأخذت العصا منه حينئذ .

وعند تخاصم الرجلين غضب عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين ، وكان عندهم زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه وهو غلام حديث السن ، فقال عبد الله بن أبىّ لعنه الله : والله مارأيت كاليوم مذلة ، أو قدفعلوها؟ نافرونا ، أى غلبونا وكاثرونا فى بلادنا ، أى وأنكرونا ملتنا ، والله ما أعدّنا : أى أظننا يعنى معاشر الأنصار وقريش . وفى رواية : وجلابيب قريش ،هؤلاء يعنى معاشر المهاجرين إلا كما قال الأول ، أى الأقدمون فى أمثالهم : سمن كلبك يأكلك ،أى ويقولون : أجع كلبك يتبعك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، يعنى بالأعز نفسه ، وبالأذل النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى الاستيعاب أن عبد الله بن أبىّ قال ذلك فى غزوة تبوك ، هـــذا كلامه ، وفيه نظر ظاهر .

والجلابيب : جمع جليبب مايجلب من بلد إلى غيره يعنى أغراب . وقيل شبهوا بالجلابيب التى هى الأزر الغلاظ القليلة القيمة .

ثم أقبل على من حضر من قومه . فقال هـذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، أى ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا فقتلتم دونه ، يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم رضى الله عنه على ماهو الصحيح ، وقيل سفيان بن تيم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر وعنده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، أى ونفر من المهاجرين والأنصار .

وفى البخارى عن زيد بن أرقم رضى الله عنـــه « فذكرت ذلك لعمى أو لعمر ، فذكره للنبى صلى الله عليه وسلم ، فدعانى فحدثته ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وتغير وجهه ، وقال له : يا غلام لعلك غضبت عليه ، قال : والله يارسول الله لقد

سمعته منه ، قال : لعله أخطأ سمعك ، ولامه من حضر من الأنصار ، وقالوا : عمدت إلى سيد قومك تقول عليه مالم يقل » .

أى وفى البخارى « فكذبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، وجلست فى البيت » أى الخباء « فقال لى عمى : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك ، فقال زيد : والله لقد سمعت ماقال ، ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنى لأرجو أن ينزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ما يصدق حديثى » .

أى وقيل إن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال لابن أبى لما قال أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل : أنت والله الذليل المنقص فى قومك : ومحمد صلى الله عليه وسلم فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين ، فقال له ابن أبى لعنه الله : اسكت ، فإنما كنت ألعب ، فعند تخبروجه رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذنه عمر رضى الله عنه فى أن يقتل ابن أبى ، والتمس منه أن يأمر غيره بقتله إذا لم يأذن له فى ذلك .

أى فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان من أمر ابن أبى ما كان ، جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى فىء شجرة : أى ظلها ، عنده غليم أسود يغمز ظهره أى يكبسه . فقلت يارسول الله كأنك تشتكى ظهرك : فقال تقحمت بى الناقة : أى ألقتنى الليلة ، فقلت يارسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن أبى ، أو مر محمد بن مسلمة بقتله . أى وفى رواية مر به عباد بن بشر فيلقتله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه .

وفى لفظ أن عمر رضى الله عنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كرهت أن يقتله مهاجرى فأمر به أنصاريا ؛ فقال : ترعد له آنف كثيرة بيثرب يعنى المدينة ، ولعل تسميته صلى الله عليه وسلم لها بذلك إن كان بعد النهى لبيان الجواز .

ويبعد أن يكون ذلك كان قبل النهى عن ذلك ولكن أذن بالرحيل ، وكان ذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها .

أى وفى رواية : لما شاع الخبر ولم يكن للناس حديث فى ذلك اليوم . أى الوقت إلا ذلك ، أذن بالرحيل ، وكانت ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحل فيها ، أى لشدة الحر ، فارتحل الناس وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه أسيد بن حضير

رضى الله عنه فحياه بتحية النبوّة وسلم عليه ، أى قال : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، وقال : يانبى الله لقد رحلت فى ساعة منكرة ماكنت تروح فى مثلها ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم كان لايرحل إلا إن برد الوقت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بلغك ماقال صاحبكم ، فقال : أى صاحب يارسول الله؟ قال عبدالله بن أبى ابن سلول ، قال وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ، قال : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يارسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك . وفى رواية لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه ، مابقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا ، وقد تقدم الاعتذار عنه بذلك فى غير مامرة .

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس سيرا حثيثا أى صار يضرب راحلته بالسوط فى مراقها : أي مارق من جلد أسفل بطنها ، وسار يومهم ذلك وليلتهم ، وصدر ذلك اليوم الثانى حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما ، وإنما فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ليشتغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى ابن سلول .

قال وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبى صلى الله عليه وسلم ورده على الغلام إلى ابن أبى لعنه الله . فقال له : ياأبا الحباب إن كنت قلت مانقل عنك فأخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فليستغفر لك ، ولا تجحده فينزل فيك مايكذبك وإن كنت لم تقله فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذر له واحلف له ماقلته ، فحلف بالله العظيم ماقال من ذلك شيئا ، ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ياابن أبيّ إن كانت سبقت منك مقالة فتب ، فجعل يحلف بالله ماقلت ماقال زيد ، وما تكلمت به انتهى .

أي وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم أرسل الى ابن أبى فأتاه ، فقال له : أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى عنك ؟ فقال : والذى أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئا من ذلك ، وإن زيدا لكاذب ، فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ماقال الرجل .

أى ، وفى لفظ أنهم قالوا : يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لايصدق عليه كلام غلام .

ثم إن عبد الله رضي الله عنه ولد عبد الله بن أبي ابن سلول ، أي وكان اسمه الحباب ، فسماه صلى الله عليه وسلم يوم موت أبيه عبد الله لما بلغه مقالة عمر رضى الله عنه من قتل أبيه ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي يعني والده فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرني أن أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ونحسن صحبته مابقي معنا .

قال وفي رواية ، فمرني ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وإني لأخشى يارسول الله أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأدخل النار ، فعفوك أفضل ، ومنتك أعظم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأردت قتله ، ولا أمرت به ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا ، فقال عبد الله : يارسول الله إن أبي كانت أهل هذه البحيرة أي المدينة ، اتفقوا على أن يتوجوه عليهم ، فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنا بك ، أي زاد في رواية : ومعه قوم أي من المنافقين يطيفون به ويذكرونه أمورا قد غلب الله عليها ، وتقدم أنه وقع لعبد الله رضى الله عنه مثل ذلك مع أبيه .

روى الدار قطني مسندا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على جماعة فيهم عبد الله ابن أبي ، فسلم عليهم ثم ولى ، فقال عبد الله : لقد عثا ابن أبي كبشة في هذه البلاد ، فسمعها ابنه عبد الله ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يأتيه برأس أبيه ، فقال لا ولكن بر أباك ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرب المدينة هاجت ريح شديدة تخوفوها كادت تدفن الراكب » أي خافوا أن تكون لأمر حدث بالمدينة على أهلهم ، فإن مدة الموادعة التي كانت بينه صلى الله عليه وسلم وبين عيينة بن حصن كان ذلك حين انقضائها ، فخافوا على المدينة منه « فقال صلى الله عليه وسلم : ليس عليكم منه » يعني من عيينة بن حصن « بأس ، ما بالمدينة من نقب » أي باب « إلا وملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكن تعصف هذه الريح لموت عظيم من الكفار » وفي رواية « لموت منافق » وفي لفظ « مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة » فكان كما قال صلى الله عليه وسلم مات في ذلك اليوم زيد بن رفاعة بن التابوت وكان كهفا للمنافقين ،

كان من عظماء يهود بنى قينقاع وكان ممن أسلم ظاهرا ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى رحمه الله تعالى فى تائيته بقوله :

وقد عصفت ريح فأخبرت أنها لموت عظيم فى اليهود بطيبة

قال : وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بموته ، فقد جاء أن عبادة ابن الصامت قال لابن أبى : يا أبا حباب مات خليلك قال : أىّ خليل ؟ قال : من موته فتح للإسلام وأهله ، قال : من ؟ قال : زيد بن رفاعة . قال : واويلاه من أخبرك يا أبا الوليد بموته ؟ قال ، قلت : رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنه مات هذه الساعة ، فحزن حزنا شديدا . انتهى وذكر أهل المدينة أن هذه الريح وجدت بالمدينة ، وأنه لما دفن عدوّ الله سكنت .

أقول لكن فى كلام ابن الجوزى رفاعة بن زيد بن التابوت ، وهو عمّ قتادة ابن النعمان . قد ذكر عنه قتادة رضى الله تعالى عنه مايدل على صحة إسلامه .

أى وقد يقال : جاز أن يكون أظهر ذلك لقتادة ليظن به ما ظنه من صحة إسلامه .

قال ابن الجوزى : ولهم رفاعة بن التابوت فى الصحابة ذكره فى الإصابة . قال : جاء ذكره فى حديث مرسل ، كانوا فى الجاهلية إذا أحرموا لم يأتوا بيتا من قبل بابه ، ولكن من قبل ظهره ، إلا الحمس فإنها كانت تأتى البيوت من أبوابها ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا ثم خرج من بابه ، فأتبعه رجل يقال له رفاعة بن التابوت ولم يكن من الحمس . فقالوا : يا رسول الله نافق رفاعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماحملك على ما صنعت ولم تكن من الحمس ؟ قال : فإن ديننا واحد ، فنزلت (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) وسيأتى نحو هذه القصة لقطبة بن عامر ولعلها وقعت لهما .

وأما الحديث الذى أخرجه مسلم « إن ريحا عظيمة هبت فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنها هبت لموت منافق عظيم النفاق » وهورفاعة بن التابوت ، فهو آخر غير هذا . فقد جاء من وجه آخر « رافع بن التابوت » أى فذكر رفاعة بدل رافع من تصرف بعض الرواة .

وذكر فى الإصابة أن رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان رضى الله عنه لم يوصف بأنه ابن التابوت كما ذكره ابن الجوزى ، أى فوصفه بابن التابوت من تصرف بعض الرواة ، فليتأمل والله أعلم .

وعن جابر رضي الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ». فهاجت ريح منتنة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن ناسا من المنافقين اغتابوا ناسا من المؤمنين فلذلك هاجت هذه الريح » ولم يعين جابر السفرة ، فيحتمل أن تكون هى هذه الغزوة وهو ظاهر سياقها فيها .

ويحتمل أن تكون غيرها ، وفقدت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء من بين الإبل : أي ليلا . فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه ، فقال زيد بن الصلت وكان منافقا كما علمت من بنى قينقاع وكان بمجمع من الأنصار : أين يذهب هؤلاء فى كل وجه ، قالوا يطلبون ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضلت ، قال : أفلا يخبره الله بمكانها ، أى وفى لفظ : كيف يدعى أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ولا يخبره الذى يأتيه بالوحى ، فأنكر عليه القوم ، وقالوا قاتلك الله يا عدو الله نافقت ، وأرادوا قتله فعمد هاربا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متعوذا به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذلك الرجل يسمع : إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ألا يخبره الله بمكانها ، والله قد أخبرنى بمكانها ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، وإنها فى الشعب مقابلكم ، قد مسك زمامها بشجرة ، فاعمدوا نحوها ، فذهبوا فأتوا بها من حيث قال صلى الله عليه وسلم ، فقام ذلك الرجل سريعا إلى رفقائه ، فقالوا له حين دنا لاتدن منا ، فقال لهم : أنشدكم الله ، هل أتى أحد منكم محمدا فأخبره خبرى ، قالوا : لا والله ، ولا قمنا من مجلسنا ، فقال : إنى وجدت ما تكلمت به عنده ، فأشهد أن محمدا رسول الله كأنى لم أسلم إلا اليوم فقالوا له : فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فذهب إليه واعترف بذنبه واستغفر له ، قال : ويقال إنه لم يزل فشلا أى جبانا حتى مات ووقع مثل هذا أى هبوب الريح وإضلال ناقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك .

وأوقع صلى الله عليه وسلم السباق بين الإبل ، فسابق بلال رضى الله عنه على ناقته صلى الله عليه وسلم القصواء فسبقت غيرها من الإبل ، وسابق أبو سعيد الساعدى رضى الله عنه على فرسه صلى الله عليه وسلم الذى يقال له الظراب فسبق غيره من الخيل اﻫ .

أى وجاء أن ناقته صلى الله عليه وسلم العضباء كانت لا تسبق » فجاء أعرابى على قعود فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين ، فقال صلى الله عليه وسلم « حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه » اﻫ .

أقول في الإمتاع : أنه صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة تسابق مع عائشة رضى الله عنها فتحزمت بقبائها ، وفعل كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استبقا فسبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : هذه بتلك التى كنت سبقتنى ، يشير صلى الله عليه وسلم إلى أنه جاء إلى بيت أبى بكر رضى الله عنه فوجد مع عائشة شيئا فطلبه منها فأبت وسعت ، وسعى صلى الله عليه وسلم خلفها فسبقته .

هذا . وفى كلام ابن الجوزى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ، فقال للناس : تقدموا فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت عنى حتى حملت اللحم وخرجت معه فى سفرة أخرى . فقال للناس : تقدموا ، فتقدموا . ثم قال لى تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقنى فجعل يضحك وهو يقول : هذه بتلك» فليتأمل .

قال : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادى العقيق تقدم عبدالله رضى الله عنه ابن عبدالله بن أبى ابن سلول وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه ، فأناخ به ثم وطئ على يد راحلته ، فقال أبوه ما تريد يالكع ، فقال : والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ، حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتعلم أيضا الأعز من الأذل ، أنت أو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فصار يقول لأنا أزل من الصبيان، لأنا أزل من النساء، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خل عن أبيك ، فخلى عنه .

أى وفى لفظ أنه لما جاء قال له ابنه : وراءك قال : مالك ويلك قال : والله لا تدخلها يعنى المدينة حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم اليوم من الأعز من الأذل : وفى لفظ : حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز وأنت الأذل ، فقال له : أنت من بين الناس، فقال : نعم أنا من بين الناس ، وانصرف إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وشكا له ما صنع ابنه رضى الله عنه ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى ابنه أن خل عنه . وفى لفظ قال له ابنه رضى الله عنه : لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك، فقال : ويحك أفاعل أنت؟ قال نعم، ولما رأى منه الجد قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنه : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا .

وأنزل الله تعالى سورة المنافقين . قال زيد بن أرقم رضى الله عنه : رأيت رسول الله

الله صلى الله عليه وسلم تأخذه البرحاء، ويعرق جبينه الشريف ، وتثقل يدا راحلته ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، ورجوت أن ينزل الله تصديقى . فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بأذنى وأنا على راحلتى يرفعها إلى السماء حتى ارتفعت عن مقعدى وهو يقول : وعت أذنك يا غلام ، وصدق الله حديثك ، وكذب المنافقين . وفى رواية « هذا الذى أوفى الله بأذنه ، ونزل (وتعيها أذن واعية) فكان يقال لزيد بن أرقم رضى الله عنه ذو الأذن الواعية » .

وذكر بعض الرافضة أن قوله تعالى (وتعيها أذن واعية) جاء فى الحديث أنها نزلت فى على كرم الله وجهه . قال الإمام ابن تيمية : وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم : أى وعلى تقدير صحته لا مانع من التعدد .

وصار قوم عبد الله بن أبىّ عند نزول سورة المنافقين يعاتبونه ويعنفونه ، ولما بلغه صلى الله عليه وسلم أى بغض قومه له ومعاتبتهم له ، قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : كيف ترى يا عمر ، إنى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر رضى الله عنه : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى اه .

وجاء « أنه لما نزلت سورة المنافقين وفيها تكذيب ابن أبىّ ، قال له أصحابه : اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم) الآية » .

وفى تفسير القرطبى عند قوله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر) قال السدى : نزلت فى عبد الله ابن أبىّ ، جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : بالله يارسول الله ، أما أبقيت فضلة من شرابك أسقها أبى لعل الله يطهر بها قلبه ، فأفضل له فأتاه بها ؟ فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال هى فضلة من شراب النبى صلى الله عليه وسلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها ، فقال له أبوه ، فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها ، فغضب وجاء إلى النبى صلى الله عليه

وسلم وقال : يا رسول الله بالله أما أذنت لى فى قتل أبى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل ترفق به وتحسن إليه .

وقد جاء أن ابنه رضى الله عنه قال : يا رسول الله ذرنى أمتى والذى من وضوئك لعل قلبه أن يلين ، فتوضأ صلى الله عليه وسلم وأعطاه فذهب به إلى أبيه ، فسقاه وقال له هل تدرى ما سقيتك ؟ قال : نعم ، سقيتنى بول أمك ، قال : لا والله لكن سقيتك بول رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة هلال رمضان ، فكانت غيبته ثمانية وعشرين ليلة .

قال : وفى هذه الغزوة جاءت امرأة بابن لها وقالت يا رسول الله هذا ابنى غلبنى عليه الشيطان ، ففتح صلى الله عليه وسلم فم الولد وبزق فيه وقال : اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله ، قال ذلك ثلاثا . ثم قال للمرأة : شأنك بابنك ، لن يعود إليه شىء مما كان يصيبه » .

وفى هذه الغزوة « جاء شخص بثلاث بيضات له صلى الله عليه وسلم من بيض النعام فقال صلى الله عليه وسلم لجابر رضى الله عنه دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات . قال جابر : فعملتهن ثم جئت بهن ، فجعلنا نطلب خبزا فلم نجد ، فجعل كل من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكل من ذلك بغير خبز حتى انتهى كل إلى حاجته والبيض كما هو » .

وفى هذه الغزوة « جاء جمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفل » أى يختال فى مشيه « وصوت ، فقال صلى الله عليه وسلم : تدرون ما يقول هذا الجمل ؟ هذا يستعيذنى على سيده ، يقول : إنه كان يحرث عليه ، وإنه أراد أن ينحره ، اذهب يا جابر إلى صاحبه فأت به ، فقلت : لا أعرفه ، قال : إنه سيدلك عليه ، فخرج بين يدى حتى وقف على صاحبه فجئت به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فى شأن الجمل » اه .

أقول : قد تقدمت هذه الأمور الثلاثة التى هى قصة ابن المرأة ، وقصة البيض ، وقصة الجمل فى ذات الرقاع ، والتعدد فيهما حتى لأجل هذه الأمور سميت كل منهما بغزوة الأعاجيب بعيد . والذى أراه أنه اشتباه من بعض الرواة فليتأمل .

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك : أى الكذب على عائشة الصديقة المبرأة المطهرة رضى الله عنها قالت « لما دنونا من المدينة قافلين » أى راجعين « أذن ليلة بالرحيل ، فقمت

وذهبت لأقضي حاجتي حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فإذا عقد لي من جزع أظفار » كذا بالألف عند البخاري . وفي رواية « ظفار » بغير ألف . قال القرطبي : ومن قيده بالألف فقد أخطأ ، أي ولعل المراد خالف الرواية ، وفي لفظ « ظفاريّ » أي بياء النسبة . وفي لفظ « الجزع الظفري » .

وقد يقال : لا مانع من وقوع هذه الألفاظ من الصديقة في أوقات مختلفة . قال بعضهم : الجزع بفتح الجيم وإسكان الزاي وآخره عين مهملة خرز « وظفار » بالظاء المعجمة كوبار مبنية على الكسر : قرية من قرى اليمن كان ثمنه يسيرا . وفي كلام بعضهم : كان يساوي اثني عشر درهما «قد انقطع ، فالتمست عقدي » أي ذهبت إلى التماسه في المحل الذي قضيت فيه حاجتي وحبسني التماسه « أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي» هو بتخفيف الحاء : أي يجعلون هودجها على الرحل ، « فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لقلة أكلهنّ » أي لأن السمن وكثرة اللحم غالبا تنشأ عن كثرة الأكل « وساروا » . أي وعن عائشة رضي الله عنها أن الذي كان يرحل هودجها ويقود بعيرها أبو مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رجلا صالحا. ولايخالف هذا قولها وأقبل الرهط إلى آخره. وقولها في بعض الروايات « ولم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه » لأنه يجوز أن جماعة كانوا يعاونون أبا مويهبة في ذلك « فوجدت عقدي ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، وأممت بمنزلي الذي كنت فيه ، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان السلمي خلف الجيش» : أي لأنه كان على ساقة الجيش يتخلف عن الجيش ليلتقط ما يسقط من المتاع . وقيل كان ثقيل النوم لا يستيقظ حتى يرتحل الناس .

وقد جاء « أن زوجته شكته إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت له : إنه لايصلي الصبح ، فقال : يا رسول الله إني امرؤ ثقيل النوم لا أستيقظ حتى تطلع الشمس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استيقظت فصلّ » أي وفي رواية « شكته إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه يضربها ، فقال : إنها تصوم بغير إذني ، فقال لها لاتصومي إلا باذنه قالت : إنه ينام عن الصلاة ، أي صلاة الصبح ، قال إنه شيء ابتلاه الله به ، فإذا استيقظ فليصلّ » وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم من حاله أنه ينام عن صلاة

الصبح « قالت إنه إذا سمعنى أقرأ يضربنى فقال : إن معى سورة ليس معى غيرها هى تقرؤها ، قال : لا تضربها ، فإن هذه السورة لو قسمت فى الناس لو سعتهم » أى وهذا الجواب منه صلى الله عليه وسلم يدل على أن صفوان ظنّ أن امرأته إذا قرأت تلك السورة شاركته فى ثوابها فليتأمل .

« فأدلج : أى سار ليلا فأصبح عند منزلى » أى على خلاف عادته « فرأى سوادا » أى شخص إنسان نائم « فأتانى فعرفنى ، فاستيقظت باسترجاعه » أى بقوله : (إنا لله وإنا إليه راجعون) أى لأن تخلف أمّ المؤمنين عن الرفقة فى مضيعة : مصيبة أى مصيبة ، قالت : فخمرت وجهى بجلبابى » وهو ثوب أقصر من الخمار ، ويقال له المقنعة تغطى بها المرأة رأسها : أى لأن ذلك كان بعد نزول آية الحجاب أى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) الآية أى لأنه تقدم أن ذلك كان فى سنة ثلاث على الراجح عند الأصل .

وفى الإمتاع وذكر بعض علماء الأخبار أن تزوجه صلى الله عليه وسلم زينب التى نزلت آية الحجاب بسببها كان فى ذى القعدة سنة خمس ، ولا يخفى أن هذا القول ينافيه ما يأتى عن عائشة رضى الله عنها من قولها « إن زينب هى التى كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم » إذ هو صريح فى أنها كانت زوجة له صلى الله عليه وسلم قبل هذه الغزوة بناء على أن هذه الغزوة كانت سنة ست .

« قالت والله ما كلمنى » وفى لفظ « والله ما يكلمنى كلمة ، وما سمعت منه كلمة» أى فلا كلمها ولا كلم نفسه ، قيل استعمل الصمت أدبا لهول هذا الأمر الذى هو فيه ، فلم يقع منه غير الاسترجاع حين أناخ ناقته فوطىء على يدها فركبتها . وفى رواية « ثم قرب البعير ، فقال اركبى أى وفى لفظ قال أمه قومى فاركبى ، وأخذ برأس البعير » وجاء « أنها لما ركبت ، قالت حسبى الله ونعم الوكيل » .

وفى سيرة ابن هشام « أنه لما قال لها ما خلفك يرحمك الله ؟ قالت فما كلمته » أى ويحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات الثلاث وما قبلها على تقدير صحتها .

وقد يقال إنها لم تسمع منه غير استرجاعه ولا كلمها ولا تكلم قبل أن يقرب إليها البعير كما علمت ، فلما قرب البعير إليها ، قال لها : يا أمه قومى فاركبى » لأن إناخة البعير وتقريبه ليس صريحا فى الإذن لها فى الركوب . فأتى بذلك اللفظ الدالّ على مزيد احترامها وإجلالها وتعظيمها . وبعض الرواة اقتصر على قولها اركبي « وبعد أن ركبت ، أى

وحصلت الطمأنينة ، واندفعت الريبة ، قال لها متعجبا لا مستفهما : ماخلفك ؟ قالت : فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا ، وذلك فى نحر الظهيرة » أى وسطها « وهو بلوغ الشمس منتهاها من الارتفاع » .

وبهذه الواقعة استدل فقهاؤنا على أنه يجوز الخلوة بالمرأة الأجنبية إذا وجدها منقطعة ببرية أو نحوها . بل يجب استصحابها إذا خاف عليها لو تركها .

هذا ، وفى الخصائص الصغرى ، وفى معانى الآثار للطحاوى رحمه الله . قال أبوحنيفة كان الناس لعائشة رضى الله عنها محرما ، فمع أيهم سافرت فقد سافرت مع محرم وليس غيرها من النساء كذلك .

أى وقوله وليس غيرها من النساء كذلك يشمل بقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فليتأمل الفرق بينها وبين بقية أمهات المؤمنين فيما ذكر . وفيما سيأتى عن بعضهم أن من قذف عائشة يقتل ، ويحدّ فى غيرها من أزواجه صلى الله عليه وسلم حدين

« قالت عائشة رضى الله عنها : فلما نزلنا هلك من هلك بقول البهتان والافتراء ، والذى تولى كبره » أى معظمه عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، أى فإنه كان أول من أشاعه فى العسكر ، أى فإنه كان ينزل مع جماعة المنافقين مبتعدين من الناس « فمرت عليهم . فقال من هذه ؟ قالوا : عائشة وصفوان . فقال : فجربها ورب الكعبة ، وفى لفظ « مابرئت منه ومابرىء منها » وفى لفظ « والله مانجت منه ولا نجا منها » ، وصار يقول : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت . ثم أشاع ذلك فى المدينة بعد دخولهم لها لشدّة عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم » أى والذى فى البخارى « كان يتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه » أى يستخرجه بالبحث عنه .

وقد يقال : لامنافاة لأنه يجوز أن يكون هو أول من أشاعه عند دخول المدينة ، ثم صار يستخرجه بالبحث عنه ليكثر إشاعته « قالت : فقدمنا المدينة ، فاشتكيت » أى مرضت « حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك » أى ووصل الخبر إلى النبى صلى الله عليه وسلم وإلى أبوىّ ولا أشعر بشىء من ذلك ، وكان يريبنى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى أى حين أمرض ، واللطف بضم اللام وسكون الطاء . وقيل بفتح اللام والطاء ، وهو من

الإنسان الرفق ، ومن الله التوفيق « إنما يدخل علىّ فيسلم » أى وعندى أمى تمرضنى ، ثم يقول : كيف تيكم » أى لا يزيد على ذلك « ثم ينصرف ، فذاك الذى يريبنى حتى خرجت بعد مانقهت » بكسر القاف وفتحها « أى أول ما أفقت من المرض ، فخرجت معى أمّ مسطح وهى بنت خالة أبى بكر » أى وما فى لفظ « وكان مسطح ابن خالة أبى بكر هو على ضرب من التجوز والمسامحة « وكان مسطح يتيما فى حجر أبى بكر » وكان فقيرا ينفق عليه أبو بكر ، قالت : وخروجنا كان إلى المحل الذى تخرج إليه النساء ليلا ، أى لقضاء حاجة الإنسان ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف » أى فإن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن نحو المنصع : وهو محل متسع . قالت : فلما فرغنا من شأننا وأقبلت عثرت أم مسطح فى مرطها » أى إزارها « فقالت : تعس مسطح » بفتح العين وكسرها : هلك مسطح تعنى ولدها ، ومسطح فى الأصل عمود الخيمة : قلت لها : بئس ماقلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ قالت : ياهنتاه » بفتح الهاء الأولى وسكون النون وضم الهاء الثانية : أى ياهذه « أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك : فازددت مرضا على مرضى » أى عاودنى المرض وازددت عليه » أى وفى لفظ « فخررت مغشيا عليها » .

وفى رواية « خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح قد حملت السطل وفيه ماء فعثرت ووقع السطل منها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أى أم تسبين ابنك ، فسكتت ثم عثرت الثانية ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة ، فقالت: تعس مسطح فنهرتها، فقالت: والله ما أسبه إلا فيك، فقلت: فى أى شأنى ؟ فبقرت » أى كشفت لى الحديث ، فقلت: وقد كان هذا ؟ قالت : نعم ، فأخذتنى حمى نافضة ورجعت إلى بيتى ، فلما رجعت إلى بيتى مكثت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى ، ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعد أن سلم : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لى أن آتى بيت أبوىّ ؟ وأنا أريد أن أتثبت الخبر من قبلهما ، أى لأن أمها فارقتها لما نقهت من المرض ، وذهبت إلى بيتها ، فلا ينافى ما سبق من قولها : وعندى أمى تمرّضنى « قالت : فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوىّ ، أى وأرسل معى الغلام ، فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل

وأبا بكر فوق يقرأ ، فقالت أمى : ما جاء بك ؟ فأخبرتها ، فذهابها إلى أبويها كما علمت كان بعد أن صحت من المرض وبعد إخبار أم مسطح لها بالقصة .

والذى فى السيرة الهشامية يفيد أنه كان قبل ذلك ، وهو أنها رضى الله عنها قالت : «كان صلى الله عليه وسلم كلما يدخل يقول : «كيف تيكم» لا يزيد على ذلك حتى وجدته فى نفسى ، فقلت : يارسول الله حين رأيت ما رأيت من جفائه : لو أذنت لى ؟ قال : لا عليك ، قالت : فانتقلت إلى أمى تمرضنى ولا علم لى بشىء مما كان حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوما عربا لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم» أى بيوت الأخلية «نعافها ونكرهها ، إنما كنا نذهب فى فسح المدينة ، فخرجت ليلة ومعى أم مسطح بنت خالة أبى بكر ، إذ عثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، قلت : بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدرا ، قالت : أو ما بلغك الخبر يا ابنة أبى بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك. قلت : أو قد كان هذا ، قالت : نعم ، والله لقد كان ، فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى» فليتأمل الجمع بين مافى السيرة الهشامية وما فى غيرها على تقدير صحتهما .

«قالت : وقلت لأمى يغفر الله لك ، تحدّث الناس بما تحدّثوا به لا تذكرين لى من ذلك شيئا» الحديث . وفى رواية «فقلت لأمى يا أماه ما يتحدّث الناس» وفى لفظ «قلت لأمى يغفر الله لك ، تحدّث الناس بما تحدثوا ألا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟ قالت : يا بنية هوّنى عليك» وفى لفظ «خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما ما كانت امرأة قط وضيئة» أى جميلة «عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها» أى القول فى تنقيصها .

وفيه أن ضرائرها أمهات المؤمنين لم يكنّ السبب فى إشاعة ذلك ولم ينقصنها به ، إلا أن يقال ظنت أمها ذلك على ما هو العادة فى ذلك «وعند ذلك قالت : فقلت : سبحان الله ولقد تحدّث الناس بهذا ؟ أى وقلت قد علم به أبى ؟ قالت نعم ، قلت : ورسول الله ؟ قالت : نعم ، فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتى ، فنزل فقال لأمى : ماشأنها ؟ فقالت : بلغها الذى ذكر من شأنها ، ففاضت عيناه ، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع» أى لا يرتفع «ولا اكتحلت بنوم فى الليلة الثانية كذلك ، ولما أصبحت أصبح أبواى عندى يظنان أن البكاء فالق كبدى . فبينماهما جالسان عندى وأنا أبكى أى وهما

يبكيان وأهل الدار يبكون ، فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكى معى » وسمعت من بعض الشيوخ أن هرة كانت بالبيت جالسة تبكى أيضا « فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث صلى الله عليه وسلم شهرا لايوحى إليه فى شأنى ، فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس . ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه » .

قال بعضهم : دعاها إلى الاعتراف ولم يأمرها بالستر ، أى مع أنه المطلوب ممن أتى ذنبا لم يطلع عليه .

وفى لفظ . « قال يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتق الله ، فإن كنت قارفت » أى اكتسبت « سوءا مما يقول الناس ، فتوبى إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده . قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى » أى ارتفع « حتى ما أحس منه بقطرة . فقلت لأبى : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال . قال : فوالله لا أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ » وفى لفظ « قلت لأبوى: ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : والله لا ندرى بماذا نجيبه ؟ فقلت : لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم إنى بريئة لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فوالله لا أجد لى ولكم » وفى لفظ « لا أجد لى مثلا إلا أقول أبى يوسف عليهما السلام ، أى والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه ، إذ يقول : « فصبر جميل والله المستعان » .

أى وفى رواية كما فى البخارى « مثلى ومثلكم كيعقوب وبنيه (والله المستعان على ما تصفون) » وفى لفظ (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) وبذلك استدل على جواز ضرب المثل من القرآن أيضا « ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، وماكنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى » ، وفى لفظ « قرآنا يقرأ به فى المسجد ويصلى به ، ولشأنى فى نفسى

كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى . وكنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى النوم يبرئنى الله بها ، أى وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل علىّ ، والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله ، فيقال لنا فى الإسلام . وأقبل على عائشة مغضبا ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يأخذه عند نزول الوحى » أى من شدة الكرب « فسجى أى غطى ، بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه » وفى لفظ «قالت عائشة رضى الله عنها : فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت ، لأنى قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى » وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ماسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أى وأخبر بما أخبر حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا» أى خوفا « من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس . فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سرى عنه وهو يضحك ، وإنه لينحدر منه العرق كالجمان » وهى حبوب مد حرجة تجعل من الفضة أمثال اللؤلؤ « فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم ، فكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة أما إن الله قد برأك ، فقالت أمى : قومى إليه صلى الله عليه وسلم ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله » وفى لفظ «قال أبشرى ياعائشة فقد أنزل الله تعالى براءتك ، قلت : نحمد الله لا نحمد أحدا . قالت عائشة رضى الله عنها : نزلت تلك الآيات فى يوم شات . قالت : وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم درعى ، فقلت بيده هكذا : أى أدفع يده عن درعى « فأخذ أبو بكر النعل ليعلونى بها فمنعته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أقسمت عليك لا تفعل » وفى رواية : « لما أنزل الله براءتها قام إليها أبو بكر رضى الله عنه فقبل رأسها ، فقالت له : هلا كنت عذرتنى . فقال : أى بنية أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟ » ولا مخالفة بين هذه الرواية وما قبلها ، لجواز أن يكون ما قبلها بعدها ، وأنزل الله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك) الآيات العشر أى وفى تفسير البيضاوى الثمانية عشر .

... السهيلى : وكان نزول براءة عائشة رضى الله عنها بعد قدومهم المدينة : أى من الغزوة المذكورة لسبع وثلاثين ليلة فى قول بعض المفسرين ، فمن نسبها رضى الله عنها إلى الزنا كغلاة الرافضة كان كافرا لأن فى ذلك تكذيبا للنصوص القرآنية ومكذبها كافر .

وفى حياة الحيوان عن عائشة رضى الله عنها « لما تكلم الناس فى الافك رأيت فى منامى

فتى فقال لى : مالك ؟ قلت : حزينة مما ذكر الناس فقال : ادعى بهذه يفرج الله عنك . قلت : وما هى ؟ قال : قولى : يا سابغ النعم ، ويادافع النقم ، ويافارج الغمم ، ويا كاشف الظلم ، ويا أعدل من حكم ، وياحسيب من ظلم ، ويا أول بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية ، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا . قالت : فقلت ذلك فانتبهت وقد أنزل الله فرجى » .

قال بعضهم : برأ الله تعالى أربعة بأربعة . برّأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهل زليخة . وبرّأ موسى عليه السلام من قول اليهود فيه إن له أدرة بالحجر الذى فرّ بثوبه . وبرّأ مريم بإنطاق ولدها . وبرأ عائشة بهذه الآيات .

« وكان أبوبكر رضى الله عنه ينفق على مسطح لقرابته منه أى كما تقدم ولفقره ، فحلف لا ينفق عليه ، أى فإنه قال : والله لا أنفق على مسطح أبدا ولا أنفعه بنفع أبدا بعد ما قال لعائشة وأدخل علينا » .

وفى لفظ « أخرجه من منزله وقال له : لا وصلتك بدرهم أبدا ، ولا عطفت عليك بخير أبدا ، فأنزل الله تعالى (ولايأتل أولوا الفضل) أى الفضيلة والإفضال (منكم والسعة) أى فى الرزق (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وعند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : أما تحب أن يغفر الله لك . قال أبوبكر رضى الله عنه : والله إنى لأحب أن يغفر لى ، فرجع إلى مسطح بالنفقة التى كان ينفق عليه . وقال : والله إنى لا أنزعها عنه أبدا » .

وفى معجم الطبرانى الكبير والنسائى « أنه أضعف له فى النفقة التى كان يعطيه إياها قبل القذف » أى أعطاه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك « أى وكفر عن يمينه » .

وبهذا وبما فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » .

استدّل فقهاؤنا على أن الأفضل فى حق من حلف على ترك مندوب أو فعل مكروه أن يحنث ويكفر عن يمينه .

وهنا لطيفة ، وهى : أن ابن المقرى رحمه الله منع عن ولده النفقة تأديبا له على أمر وقع منه ، فكتب إلى والده رحمه الله تعالى هذه الأبيات :

لا تقطعنّ عادة برّ ولا تجعل عقاب المرء فى رزقه
فان أمر الإفك من مسطح يحط قدر النجم من أفقه
وقد جرى منه الذى قد جرى وعوتب الصدّيق فى حقه

فكتب إليه والده رحمه الله تعالى هذه الأبيات :

قد يمنع المضطر من ميتة إذا عصى بالسير فى طرقه
لأنه يقوى على توبة تكون إيصالا إلى رزقه
لولم يتب مسطح من ذنبه ما عوتب الصديق فى حقه

ووصف الله تعالى الصديق بأولى الفضل موافق لوصفه صلى الله عليه وسلم له بذلك ، فقد جاء أن عليا كرّم الله وجهه دخل على النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصدّيق رضى الله عنه جالس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنحى أبو بكر عن مكانه وأجلس عليا كرّم الله وجهه بينه وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحا وسرورا. وقال «لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أولو الفضل».

وعنها رضى الله عنها «أنها قالت : لما استلبث الوحى عنه صلى الله عليه وسلم» أى أبطأ عليه ولم ينزل «استشار الصحابة ، فقال له عمر رضى الله عنه : من زوّجها لك يا رسول الله ؟ قال : الله تعالى ، قال : أفتظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، فنزلت ، ودعا على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأسامة بن زيد رضى الله عنهما ليستأمرها فى فراق أهله» أى تعنى نفسها «فأما أسامة بن زيد ، فقال : أهلك» أى الزم أهلك «يا رسول الله ، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإنك لتقدر أن تستخلف» وفى لفظ «قد أحل الله لك فطلقها وانكح غيرها ، وإن تسأل الجارية تصدقك» يعنى بريرة رضى الله عنها ، أى لأنها كانت تخدم عائشة إما قبل شرائها لها أو بعده وقبل عتقها لها كان بعد الفتح «فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك ؟ قالت بريرة : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه» بالغين المعجمة والصاد المهملة بينهما ميم مكسورة : أى أعيبه «عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن وهى الدابة التى تألف البيوت ولا تخرج للمرعى ، وهى هنا الشاة «فتأكله» .

وفى لفظ « فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فسألها، فقام إليها علىّ كرم الله وجهه فضربها ضربا شديدا ، وجعل يقول لها : أصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول: والله ما أعلم إلاخيرا ، وماكنت أعيب على عائشة شيئا إلا أنى كنت أعجن عجينى ، فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله » أى وضربها كما قال السهيلى ولم تستوجب ضربا، ولا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضربها ، لأنه اتهمها فى أنها خانت الله ورسوله ، فكتمت من الحديث مالا يسعها كتمه ، هذا كلامه .

والذى فى البخارى « وانتهرها بعض الصحابة . فقال : أصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : سبحان الله ، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصانع على تبر الذهب الأحمر » .

وفى الإمتاع « جاء رسول الله صلى الله عليه لبريرة وسألها . فقالت : هى أطيب من طيب الذهب ، والله لا أعلم عليها إلا خيرا ، والله يا رسول الله لئن كانت على غير ذلك ليخبرك الله بذلك » .

أى وبريرة هذه روى عنها عبد الملك بن مروان . فقد ذكر أنه قال : كنت أجالس بريرة رضى الله عنها بالمدينة قبل أن آتى إلى هذا الأمر يعنى الخلافة ، فكانت تقول لى : يا عبد الملك إنى أرى فيك خصالا ، وإنك لخليق أن تلى هذا الأمر يعنى الخلافة ، فإن وليته فاحذر الدماء ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق » .

« قالت عائشة رضى الله عنها : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش أم المؤمنين عن أمرى ، يقول : ماذا علمت أو رأيت ، فتقول : يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى » أى أصون سمعى من أن أقول سمعت ولم أسمع ، وأصون بصرى من أن أقول أبصرت ولم أبصر « ما علمت إلا خيرا » أى وفى رواية « حاشا سمعى وبصرى ، ما علمت إلا خيرا ، والله ما أكلمها ، وإنى لمهاجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق . قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفى لفظ « تناصيني » أى تعادلنى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى المنزلة والمحبة عنده صلى الله عليه وسلم « فعصمها الله تعالى » أى ولهذا جعلها فى النور أفضل نسائه صلى الله عليه وسلم

بعد عائشة وخديجة حيث قال : والذى يظهر أن أفضلهن : أى زوجاته صلى الله عليه وسلم بعد خديجة وعائشة زينب بنت جحش .

« وقالت عائشة رضى الله عنها فى وصفها: لم أر امرأة قط خيرا من زينب فى الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتقرب به إلى الله ، ماعدا سورة » أى حدة « تسرع فيها الفيئة » أى ترجع عنها سريعا « قالت عائشة رضى الله عنها : وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عند استلباث الوحى وتأخره فى الناس وخطبهم فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق » وفى رواية «فاستعذر من عبدالله بن أبى ابن سلول ، فقال وهو على المنبر : من يعذرنى أن ينصفنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا — يعنى صفوان — ماعلمت عليه إلا خيرا ، أى وزاد فى رواية « ولا يدخل بيتى » . وفى لفظ « بيتا من بيوتى إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى يقولون عليه غير الحق . فقام سعد بن معاذ : أى سيد الأوس فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وقد احتملته الحمية » وفى لفظ « أجهلته الحمية . وكان قبل ذلك رجلا صالحا » : أى لما ذكر سعد بن معاذ الخزرج الذين هم قوم سعد بن عبادة غضب سعد بن عبادة لأجلهم وحملته الحمية لهم على أن يجهل » أى قال قول الجهل « فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ كما تقدم . فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه وأنفك راغم ، فانك منافق تجادل عن المنافقين » أى والمراد بكونه منافقا أنه يفعل فعل المنافقين ، ومن ثم لم ينكر صلى الله عليه وسلم ذلك إن كان سمعه ، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، لأنه كان بين الحيين قبل الإسلام مشاحنة ومحاربة كما تقدم ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، « فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا ، قالت: وأنا لا أعلم بشئ من ذلك » .

أقول فيه أن سعد بن معاذ لم يقل إنه إن كان من الخزرج نقتله ، بل قال نفعل فيه ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا يحسن رد سعد بن عبادة عليه بما ذكر .

ثم رأيت بعضهم ذكر أن الأظهر عندى أن ابن عبادة لم يقل ذلك حمية لقومه ، وإنما أراد الانكار على ابن معاذ فى كونه يقتل شخصا من قومه الذين هم الأوس مع أنه يظهر الإسلام لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقتل من يظهر الإسلام ، فكأنه قال لا تقل ما لا تفعل ولا تقدر على فعله حيث لم يأمرك بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما انتصر أسيد بن حضير لسعد بن معاذ نصرة للنبى صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الحالة العظيمة التى طلب النبى صلى الله عليه وسلم فيها من يعذره من ذلك القائل ، وإنكاره على سعد ابن عبادة إنما هو إنكار ظاهر لفظه وإن كان لباطنه مخلص حسن، وكم من لفظ ينكر إطلاقه على قائله وإن كان فى الباطن له مخلص هذا كلامه .

ثم رأيت فى السيرة الهشامية أن المتكلم أسيد بن حضير ، وأنه قال يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فرنا أمرك ، فوالله إنهم لأهل لأن نضرب أعناقهم ، فقام سعد بن عبادة فقال : كذبت لعمر الله ، والله ما تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك يعنى الأوس ما قلت هذا : أى لأن عبد الله بن أبىّ ابن سلول من الخزرج ، وكذا حسان بن ثابت رضى الله عنه ، بناء على أنه كان من أصحاب الإفك .

وفى البخارى « أن سعد بن معاذ قال : ائذن لى يا رسول الله أن أضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان من رهط ذلك الرجل » أى من الخزرج « فقال : كذبت ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم » وعلى هذه الرواية فلا إشكال .

وقول البخارى « وكانت أم حسان إلى آخره » يشعر بأن حسان لم يكن من الخزرج ، وهو يخالف ما تقدم وما سيأتى أنه من الخزرج ، إلا أن يقال وصفه بذلك على المسامحة لكون أمه منهم فليتأمل ، ولا يخفى أن ذكر المنبر يخالف ما فى الأصل من أن اتخاذ المنبر كان فى السنة الثامنة ، وقصة الإفك كانت فى السنة الخامسة أو السادسة . وفى النور : المراد بالمنبر شىء مرتفع ، قال : وإلا فالمنبر إنما اتخذ فى السنة الثامنة ، أى فيكون المراد المنبر الذى اتخذ فى السنة الثانية كان من الطين ، والذى كان من خشب إنما اتخذ فى السنة الثامنة، وقد بينا ذلك مبسوطا والله أعلم .

ثم بعد نزول آيات الإفك أى وهى (إن الذين جاءوا بالافك عصبة) إلى قوله (أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) خرج صلى الله عليه وسلم إلى الناس

وخطبهم وتلا عليهم تلك الآيات وأمر بجلد أصحاب الإفك ، أى وهم : عبد الله بن أبىّ ، ومسطح ، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وأخوها عبيد الله بالتصغير ابن جحش ويقال له أبو أحمد ، كان ضريرا . أى وكان يدور مكة أعلاها وأدناها فى أىّ محل من غير قائد ، وكان شاعرا وهو ابن عمة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم . وأما أخوها عبدالله مكبرا فقد قتل يوم أحد كما تقدم ، وزاد بعضهم خامسا وهو زيد بن رفاعة . وفيه أنه تقدم أنهم لما قدموا المدينة وجدوه قد مات ، إلا أن يقال . إن لهم زيد بن رفاعة غيره فيجوز أن يكون هو ذلك ، ويقال وحسان بن ثابت « فجلدوا الحد وهو ثمانون » .

وقال بعضهم : وذكر سعد بن معاذ فى هذه الرواية ، أى أنه القائل أنا أعذرك وهم من بعض الرواة ، وإنما المتكلم بذلك أسيد بن حضير أى كما تقدم عن السيرة الهشامية ؛ لأن سعد بن معاذ مات بعد بنى قريظة .

قال فى الأصل : لو اتفق أهل المغازى على أن غزوة الخندق وبنى قريظة متقدمة على غزوة بنى المصطلق لكان الوهم لازما ولكنهم مختلفون .

أقول : أى فالوهم لايلزم إلا من جعل هذه الغزوة التى هى غزوة بنى المصطلق متأخرة عن بنى قريظة ، ويذكر فيها سعد بن معاذ كالأصل . ومن ثم قال ابن إسحاق بأنها بعد بنى قريظة . روى عن عائشة بدل سعد بن معاذ أسيد بن حضير . قال فى الإمتاع : وهذا هو الصحيح ، والوهم لم يسلم منه أحد من بنى آدم .

وفيه أن مما يدل على تقدمها ، وأن ذكر سعد بن معاذ ليس من الوهم فى شىء ماذكره فى الكتاب المذكور الذى هو فى الإمتاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث أياما . ثم أخذ بيد سعد بن معاذ فى نفر حتى دخل على سعد بن عبادة فتحدثوا ساعة وقرّب لهم سعد بن عبادة طعاما فأصابوا منه ثم انصرفوا ، فمكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن عبادة فى نفر فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ فتحدثوا ساعة وقرّب لهم سعد بن معاذ طعاما فأصابوا منه ، ثم خرجوا ، فذهب من أنفسهم ماكان ، وأن ذكر سعد بن معاذ وقع فى الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

وذكر أن صفوان بن المعطل رضى الله عنه الذى كان الإفك بسببه ظهر أنه كان حصورا لايأتى النساء ، أى إنما معه مثل الهدبة : أى عنين .

وقد قال الشيخ محيي الدين : الحصور عندنا العنين ، أى ويدل له مافى البخارى « أنه رضى الله عنه ماكشف كنيف امرأة قط » أى سترها ، لأن الكنيف الساتر .

وقد جاء فى تفسير وصف يحيي بن زكريا بحصورا أنه صلى الله عليه وسلم أهوى إلى الأرض وأخذ قذاة . وقال : كان ذكره — يعنى يحيى عليه السلام مثل هذه القذاة ، ولعل المراد التشبيه فى الارتخاء وعدم الشدة ، فلا يخالف ما قبله ، لكن فى النهر : الحصور الذى لا يأتى النساء مع القدرة على ذلك ، أى وربما يؤيد ذلك ما جاء « أربعة لعنوا فى الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة . رجل جعله الله ذكرا فأنث نفسه وتشبه بالنساء . وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال . والذى يضل الأعمى . ورجل حصور ، ولم يجعل الله حصورا إلا يحيي بن زكريا عليهما الصلاة والسلام » فالحصور وصف مذموم إلا فى يحيي عليه السلام خصوصية له دون غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإلا فقد امتن سبحانه على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) ، قيل وهذا الوصف جاء ليحيي من أثر همة والده زكريا عليهما السلام ، فإنه لما شهد مريم منقطعة عن الأزواج أحب أن يرزقه الله ولدا : مثلها أى منقطعا عن الزوجات ، فجاء يحيي عليه السلام حصورا ، ويؤيد ذلك ما فى [أنس الجليل] وكان يحيي عليه السلام لا يأتى النساء لأنه لم يكن له ما للرجال ، كذا قيل ، وهو غير مرضى .

وقد تكلم القاضى عياض رحمه الله فى الشفاء على معنى كون يحيي حصورا بما حاصله ، أن هذا الذى قيل نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب لا يأتيها ، فكأنه حصر عنها ، وأنه حصر نفسه عن الشهوات قمعا لها ، هذا كلامه فليتأمل .

أى وعلى الأول لا ينافى ذلك كون صفوان كان متزوجا ، لما تقدم أن زوجته شكته للنبى صلى الله عليه وسلم : أى على أن ابن الجوزى نقل عن شيخه ابن ناصر الدين رحمه الله تعالى أن صفوان رضى الله عنه إنما تزوج بعد حديث الإفك .

ومما يدل على أن حسان رضى الله عنه لم يكن من أصحاب الإفك تبرؤه مما نسب إليه فى أبيات مدح بها عائشة رضى الله عنها منها :

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قلت الذى قد زعمتم ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى

وكيف وودى ماحييت ونصرتى لآل رسول الله زين المحافل

ومن ثم قال ابن عبدالبر : وقد أنكر قوم كون حسان رضى الله عنه خاض فى الإفك ، وأنه جلد .

وجاء أن عائشة رضى الله عنها برأته من ذلك. أى فقد ذكر الزبير بن بكار ، أنه قيل لعائشة رضى الله عنها وقد قالت فى حق حسان رضى الله عنه : إنى لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس هو ممن لعنه الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئا ولكنه القائل :

فإن كان ما قد قيل عنى قلته فلا رفعت سوطى إلىّ أناملى

وقد قال مثل هذا البيت أنس بن زنيم ، وقد بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم أهدر دمه لما بلغه صلى الله عليه وسلم أنه هجاه ، فجاء إليه صلى الله عليه وسلم معتذرا وأنشده أبياتا منها :

ونبى رسول الله إنى هجوته فلا رفعت سوطى إلىّ إذن يدى

ولكن فى رواية أنها كانت تأذن لحسان بن ثابت وتلقى له الوسادة وتقول : لاتقولوا لحسان إلا خيرا ، فإنه كان يردّ عن النبى صلى الله عليه وسلم بلسانه . وقد قال تعالى (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) وقد عمى ، والعمى عذاب عظيم ، والله قادر على أن يحيل ذلك ويغفر لحسان ويدخله الجنة .

وفيه أنه سيأتى عن عائشة وغيرها أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ابن سلول كما تقدم إلا أن يقال كبره مقول بالتشكيك ، والذى بلغ فيه الغاية عبد الله بن أبى ابن سلول فليتأمل .

وعن الزهرى قال : كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالى وهو يقرأ سورة النور مستلقيا على سريره ، فلما بلغ (والذى تولى كبره) جلس ثم قال : يا أبا بكر من تولى كبره ، أليس على بن أبى طالب ؟ قال الزهرى : فقلت فى نفسى : ماذا أقول ؟ إن قلت لا ، لا آمن أن ألقى منه شرا ، وإن قلت نعم جئت بأمر عظيم . ثم قلت لنفسى : لقد عوّدنى الله على الصدق خيرا ، فقلت لا ، فضرب بقضيبه السرير . قال : فمن؟ يكرر ذلك مرارا ، قلت : لكن عبد الله بن أبىّ ابن سلول .

ووقع لسليمان بن يسار مع هشام بن عبد الملك نحو ذلك ؛ فان سليمان بن يسار رحمه الله

دخل على هشام بن عبد الملك . فقال له : يا أبا سليمان الذى تولى كبره من هو ؟ قال : عبد الله بن أبى . قال : كذبت هو على ، قال : أنا أكذب ، لا أبالك ، لو نادى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت . حدثنى عروة وسعيد وعبد الله وعلقمة رحمهم الله ، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: الذى تولى كبره عبد الله بن أبى .

وعن عائشة رضى الله عنها « أنه ذكر عندها حسان بسوء فنهتهم ، وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق » وفى البخارى « كانت عائشة رضى الله عنها تنكر أن يسب عندها حسان وتقول : إنه الذى قال :

فإن أبى ووالدتى وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

فهذا البيت يغفر الله تعالى له » .

وذكر بعضهم أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان ابن عمه صلى الله عليه وسلم ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الحارث .

ولما أراد حسان رضى الله عنه أن يهجوهم ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان ابن عمى؟ فقال له : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فقال له صلى الله عليه وسلم ائت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك ، فكان يجىء إلى أبى بكر ليوقفه على أنسابهم ، فجعل حسان يهجوهم ، فلما سمعوا هجوه . قالوا : إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبى قحافة : وعاش حسان رضى الله عنه مائة وعشرين سنة ، نصفها فى الجاهلية ، ونصفها فى الإسلام ، وعاش والده مائة وعشرين سنة ، وكذا جده ووالد جده .

قال بعضهم : ولا يعرف أربعة تناسلوا وتساوت أعمارهم غيرهم ، ولم يشهد حسان مع النبى صلى الله عليه وسلم مشهدا ، لأنه كان يخشى الموت ، فكان ينسب للجبن . ومن ثم جعل يوم الخندق مع النساء والذرارى فى الآطام . وما وقع له مع صفية عمته صلى الله عليه وسلم فى أمر اليهودى الذى قتلته فى ذلك المكان، وما قاله لها يدل على أنه كان جبانا شديد الجبن .

ويرد إنكار بعض العلماء كونه جبانا قال : إذ لو صح ذلك لهجى به ، فإنه كان

يهاجي الشعراء ، وكانوا يردون عليه ، فما عيره أحد منهم به ولا وسمه به ، ولعله كان به علة اقتضت جعله مع الذرارى فى الآطام منعته من شهود القتال ، هذا كلامه .

وقد يقال : على تسليم أنه لم يهج بالجبن يجوز أن يكون لكونه كان لا يتأثر بوصفه بذلك .

وذكر بعضهم أن حسان رضى الله عنه شلت يداه بضربة ضربها له صفوان بسيف لما هجاه فذكر ذلك حسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا حسان وصفوان ، أىّ وأظهر التغيظ على صفوان بسبب إظهاره السلاح على حسان وضربه به ، فقال صفوان : يارسول الله آذانى وهجانى ، فاحتملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : يا حسان أحسن فيما أصابك ، قال : هى لك . وفى رواية قال : كل حق لى قبل صفوان فهو لك ، فقال له صلى الله عليه وسلم : قد أحسنت وقبلت ذلك منك ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوضا منها حديقة له ، يقال لها بئرحا بفتح الراء فى الأحوال الثلاثة مع قصرحا . قيل لها ذلك لأن الإبل يقال لها إذا وردت وزجرت عن الماء حا ، حا .

وفيه أنه كان القياس أن يقال بئرحا بضم الراء فى حالة الرفع وحدها ، إلا أن يقال المجموع اسم مركب ، وكانت هذه البئر لأبى طلحة رضى الله عنه فتصدق بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضعها حيث شاء ، ثم باعها حسان من معاوية بمال عظيم .

أقول : الذى فى البخارى : « كان أبو طلحة رضى الله عنه أكثر أنصارى بالمدينة مالا ؛ وكان أحب أمواله إليه بئرحا ، وهى حديقة كانت مستقبلة المسجد . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويستظل بها ويشرب من ماء فيها طيب . فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة رضى اللهُ عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالى إلىّ بئرحا ، وإنه صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يارسول الله حيث شئت ، فقال صلى الله عليه وسلم : بخ بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، قد سمعت ما قلت فيها ، قد قبلناها منك ، ورددناها عليك ، وأرى أن تجعلها فى الأقربين . قال : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه » وفى لفظ آخر فى البخارى « قال صلى الله عليه وسلم لأبى طلحة : اجعله لفقراء أقاربك . فجعلها لحسان وأبىّ بن كعب » .

وفيه أن أبيّ بن كعب كان غنيا ، ويبين فى البخارى وجه قرابتهما من أبى طلحة ، فذكر أن حسان يجتمع مع أبى طلحة فى الأب السادس وأبى يجتمع معه فى الأب السادس، وذكر بعضهم أن أبيّ بن كعب كان ابن عمة أبى طلحة .

وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى حسان تلك الحديقة وأعطاه سيرين جاريته أخت مارية أمّ ولده صلى الله عليه وسلم إبراهيم ، فجاءت منه بابنه عبد الرحمن ، وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد روت سيرين هذه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديثا قالت «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خللا فى قبر ابنه إبراهيم فأصلحه وقال : إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه » وأعطاه سعد بن عبادة رضى الله عنه بستانا كان يتحصل منه مال كثير .

وحاصل ما فى الإمتاع فيما وقع بين حسان وصفوان : أن حسان رضى الله عنه لما قال :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كبروا ⁂ وابن القريعة أمسى بيضة البلد

قال صفوان : ما أراه إلا عنانى أى بالجلابيب ، وتقدم أن ابن أبيّ ابن سلول قد قالها فى حق المهاجرين ، والقريعة بالقاف : جدة حسان رضى الله عنه ، وقيل أمه . وقريعة الشيء : خياره ، وقريعة القبيلة لسيدها ، واستعمل بيضة البلد فى الذم بقرينة المقام ، وإلا فكما تستعمل فى الذم تستعمل فى المدح . ويقال : فلان بيضة البلد : أى واحد فى قومه عظيم فيهم . فعند ذلك خرج صفوان مصلتا السيف وجاء إلى حسان وهو فى نادى قومه الخزرج وضربه ، فلقى بيده فوقع السيف فيها ، فقام قومه وأوثقوا صفوان رباطا ، ثم إنه حلّ وجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال حسان رضى الله عنه : يا رسول الله شهر علىّ السيف فى نادى قومى ثم ضربنى ولا أرانى إلا ميتا من جراحتى ، فقال صلى الله عليه وسلم لصفوان : ولم ضربته وحملت السلاح عليه؟ وتغيظ لحسان ، فقال صفوان ما تقدم . ثم قال لقوم حسان : احبسوا صفوان ، فان مات حسان فاقتلوه به ، فحبسوه ، فبلغ ذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة ، فأقبل على قومه ولامهم على حبسه ، فقالوا : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبسه وقال لنا : إن مات صاحبكم فاقتلوه . فقال سعد : والله إن أحبّ الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العفو عنه ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالحق ، والله لا أبرح حتى يطلق ، فاستحيا القوم

وأطلقوه ، وأخذه سعد وانطلق به إلى منزله وكساه حلة ، وجاء به إلى المسجد ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : صفوان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من كساه ؟ قالوا سعد بن عبادة . قال : كساه الله من ثياب الجنة . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم حسان رضي الله عنه فى العفو عن صفوان . فقال : يا رسول الله كل حق لى قبل صفوان فهولك . فقال صلى الله عليه وسلم : قد أحسنت وقبلت ذلك . ثم أعطاه صلى الله عليه وسلم أرضا له وسيرين جاريته أخت مارية أم ولده ابراهيم وأعطاه أيضا سعد ابن عبادة رضى الله عنه حائطا كان يتحصل منه مال كثير بما عفا عن حقه .

وقيل إنما أعطاه سيرين لذبه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره . فقد قال ابن عبد البر رحمه الله : إعطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرين أخت مارية لحسان ابن ثابت يروى من وجوه ، أكثرها أن ذلك ليس بسبب ضرب صفوان له بل لذبه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قيل وكان لسان حسان يصل لجبهته وإلى نحره . وكذلك كان أبوه وجده ، وكان حسان رضى الله عنه يقول على لسانه : والله لو وضعته على صخر لفلقه أو شعر لحلقه . وقد عمى مسطح أيضا .

أى وقد روى أصحاب السنن الأربعة عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم . قال الترمذى حسن غريب . أى والمرأة حمنة بنت جحش ، والرجلان أخوها عبيد الله أبو أحمد بن جحش ومسطح .

ولم يحدّ الخبيث عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، لأن الحدّ كفارة وليس من أهلها . وقيل لأنه لم تقم عليه البينة بذلك بخلاف أولئك . وقيل لأنه كان لا يأتى بذلك على أنه من عنده بل على لسان غيره .

وفى الطبرانى ومعجم النسائى عن عائشة رضى الله عنها أن عبدالله بن أبيّ ابن سلول جلد مائة وستين أى حدّ حدّين . قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : وهكذا يفعل بكل من قذف زوجة نبيّ . أى ولعل المراد أنه يجوز أن يفعل به ذلك فلا ينافى ماتقدم من أن الحدّ كان ثمانين جلدة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما « مازنت » . وفى لفظ « لم تبغ امرأة نبيّ قط» . وأما

قوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط (فخانتاهما) فالمراد آذتاهما . قالت امرأة نوح عليه السلام فى حقه إنه لمجنون . وامرأة لوط عليه السلام دلت على أضيافه .

قيل : إنما جاز أن تكون امرأة النبى كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما السلام ، ولم يجز أن تكون فاجرة ، أى زانية لأن النبى مبعوث إلى الكفار ليدعوهم ، فيجب أن لا يكون معه منقص ينفرهم عنه والكفر غير منقص عندهم . وأما الفجور فمن أعظم النقصان .

وفى الخصائص الصغرى : ومن قذف أزواجه صلى الله عليه وسلم فلا توبة له ألبتة ، كما قاله ابن عباس وغيره ، ويقتل كما نقله القاضى عياض وغيره . وقيل يختص القتل بمن قذف عائشة ، ويحد فى غيرها حدين .

وقد وقع أن الحسن بن يزيد الراعى من أهل طبرستان . وكان من العظماء ، كان يلبس الصوف ويأمر بالمعروف ، وكان يرسل فى كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرق على أولاد الصحابة ، فحضر عنده رجل من أشياع العلويين ، فذكر عائشة رضى الله عنها بالقبيح . فقال الحسن لغلامه : يا غلام اضرب عنق هذا ، فنهض إليه العلويون وقالوا : هذا رجل من شيعتنا . فقال : معاذ الله ، هذا طعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) فإن كانت عائشة رضى الله عنها خبيثة فان زوجها يكون خبيثا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك ، بل هو الطيب الطاهر ، وهى الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء ، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر ، فضرب عنقه .

وفى كتاب [الإشارات] للفخر الرازى أنه صلى الله عليه وسلم فى تلك الأيام التى تكلم فيها بالإفك كان أكثر أوقاته فى البيت ، فدخل عليه عمر رضى الله عنه ، فاستشاره صلى الله عليه وسلم فى تلك الواقعة ، فقال : يا رسول الله أنا أقطع بكذب المنافقين ، وأخذت براءة عائشة رضى الله عنها من الذباب ، لأن الذباب لا يقرب بدنك ؛ فإذا كان الله تعالى صان بدنك أن يخالطه الذباب لمخالطته للقاذورات فكيف أهلك ؟ .

ودخل عليه صلى الله عليه وسلم عثمان رضى الله عنه فاستشاره، فقال له عثمان : يارسول الله أخذت براءة عائشة رضى الله عنها من ظلك ، إنى رأيت الله تعالى صان ظلك أن يقع على الأرض : أى لأن شخصه الشريف كان لا يظهر فى شمس ولا قمر ، لئلا يوطأ

بالأقدام . فإذا صان الله ظلك فكيف بأهلك . أى وقد أشار إلى ذلك الإمام السبكى رحمه الله فى تائيته بقوله :

لقد نزه الرحمن ظلك أن يرى　　　على الأرض ملقى فانطوى لمزية

وهنا لطيفة لا بأس بها: وهى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان مسافرا وكان يسايره يهودى ، فلما أراد المفارقة قال عبد الله رضى الله عنه لليهودى : بلغنى أنكم تدينون بإيذاء المسلمين ، فهلا قدرت على شىء من ذلك معى وأقسم عليه ، فقال : إن أمنتنى أخبرتك ، فأمنه ، فقال : لم أقدر عليك فى شىء أكثر من أنى كنت إذا رأيت ظلك وطئته بقدمى وفاء بأمر ديننا .

ودخل عليه صلى الله عليه وسلم على كرم الله وجهه فاستشاره ، فقال له على كرم الله وجهه : أخذت براءة عائشة من شىء هو أنا صلينا خلفك وأنت تصلى بنعليك ، ثم إنك خلعت إحدى نعليك فقلنا ليكون ذلك سنة لنا ، قلت لا ، إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن فى تلك النعل نجاسة ، فإذا كان لا تكون النجاسة بنعليك فكيف تكون بأهلك ؟ فسر صلى الله عليه وسلم بذلك ، أى ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن خلع إحدى نعليه فى أثناء الصلاة لنجاسة بها واستمر فى الصلاة .

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لزوجته أم أيوب : ألا ترين مايقال : أى من الإفك ؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعائشة خير منى وصفوان خير منك .

وفى السيرة الشامية أن أبا أيوب رضى الله عنه قالت له زوجته أم أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال بلى ، وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلة ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك .

وجاء أن ابن عباس رضى الله عنهما دخل على عائشة رضى الله عنها فى مرض موتها فوجدها وجلة من القدوم على الله، فقال لها : لا تخافى ، فانك لاتقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم ، فغشى عليها من الفرح بذلك ، لأنها كانت تقول متحدثة بنعمة الله عليها : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة . لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله أن يتزوجنى . ولقد تزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى . ولقد توفى وإن رأسه

فى حجرى. ولقد قبر فى بيتى وإن الوحى ينزل عليه فى أهله فيفرقون منه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحاف واحد، وأبى رضى الله عنه خليفته وصديقه . ولقد نزلت براءتى من السماء ، ولقد خلقت طيبة عن طيب . ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما » .

قيل وفى هذه الغزوة فقدت عائشة رضى الله عنها عقدها أيضا فاحتبسوا على طلبه ، أى فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه رجلين من المسلمين أى أحدهما أسيد ابن حضير ، فحضرت الصلاة أى صلاة الصبح وكانوا على غير ماء . زاد فى رواية : وليس معهم ماء فنزلت آية التيمم . وهذا القيل نقله إمامنا الشافعى رضى الله عنه عن عدة من أهل المغازى . أى وعليه يكون سقط عقدها فى تلك الغزوة مرتين لاختلاف القضيتين باختلاف سياقهما .

والصحيح أن ذلك كان فى غزوة أخرى أى متأخرة عن هذه الغزوة . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما كان من أمر عقدى ما كان وقال أهل الإفك ما قالوا ، فخرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أخرى فسقط أيضا عقدى حتى حبس التماسه الناس ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم بعث رجالا فى طلبه ، وهو لا يخالف ما سبق أنه صلى الله عليه وسلم أرسل فى طلبه رجلين ، وطلع الفجر ، فلقيت من أبى بكر رضى الله عنه ماشاء الله ، أى لأن الناس جاءوا لأبى بكر رضى الله عنه وشكوا إليه ما نزل بهم ، فجاء إليها ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه الشريف على فخذها قد نام ، فقال لها : حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجعل يطعن بيده فى خاصرتها ويقول : يابنية فى كل سفرة تكونين عناء وبلاء وليس مع الناس ماء : قالت : فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى : أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نام لا يوقظه أحد حتى يكون هو يستيقظ ، لأنهم لا يدرون ما يحدث له فى نومه ، فقال حين أصبح . وفى لفظ : فاستيقظ وحضرت الصلاة فالتمس الماء فلم يجد فأنزل الله تعالى الرخصة بالتيمم . وفى لفظ : فأنزل الله تعالى آية التيمم أى التى فى المائدة . ففى بعض الروايات فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) الآية .

وقيل المراد بالآية آية النساء ، لأن آية المائدة تسمى آية الوضوء ، وآية النساء لا ذكر للوضوء فيها ، فيتجه تسميتها بآية التيمم ، وكلام الواحدى رحمه الله فى أسباب النزول يدل

عليه. فقال أبو بكر عندذلك: والله يابنية إنك كما علمت مباركة، أى وقال لها صلى الله عليه وسلم ما أعظم بركة قلادتك، وقال أسيد بن حضير: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبى بكر. أى وفى رواية إنه قال لها جزاك الله خيرا، فما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله منه مخرجا وللمسلمين فيه خير، أى وهذا ربما يفيد تكرر وقوع ما تكرهه، وأن فى ذلك خيرا للمسلمين فليتأمل.

وفى لفظ قال أسيد بن حضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبى بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وإنما قال أسيد بن حضير ما قال دون غيره، لأنه كان رأس من بعث فى طلب العقد، أى بل تقدم فى بعض الروايات الاقتصار على بعثه لطلب ذلك. قالت: فبعثنا البعير الذى كنت عليه، أى أقمناه من مبركه فوجدنا العقد تحته.

أقول فى النور: اعلم أن العقد سقط مرتين: مرة كان لها ومرة كان لأختها أسماء استعارته. وبهذا يجمع بين الأحاديث التى فى المسألة، هذا كلامه فليتأمل وينظر تلك الأحاديث، وما هى أى وكون هذا العقد لأسماء أختها لايخالف ذلك قولها عقدى، لأن الإضافة تأتى لأدنى ملابسة، أى فعقد أسماء كان فى المرة الثانية. وفى البخارى أيضا أنه آية التيمم نزلت بعد أن صلوا بلا وضوء.

فعن عائشة رضى الله عنها. «أنها استعارت من أسماء رضى الله عنها قلادة فهلكت: أى ضاعت، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فوجدها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى آية التيمم». وقد ترجم البخارى عن تلك بقوله باب إذا لم يجد ماء ولا ترابا، وقوله «فبعث رجلا فوجدها» يجوز أن يكون هذا الرجل هو الذى أقام البعير أو من جملة من أقامه، فلا يخالف ماسبق مما يدل أن الذين بعثهم فى طلبه لم يجدوه.

ثم رأيت الحافظ ابن حجر رحمه الله قال: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن أسيدا كان رأس من بعث لذلك، فلذلك سمى فى بعض الروايات دون غيره، ولذا أسند الفعل إلى واحد منهم، وكأنهم لم يجدوا العقد أولا. فلما رجعوا ونزلت آية التيمم، وأرادوا الرحيل وأثاروا البعير وجده أسيد رضى الله عنه هذا كلامه.

قيل وفى هذه الغزوة خرجوا عن الطريق ، وأدركهم الليل بقرب واد وعر ، فهبط جبريل عليه السلام وأخبره صلى الله عليه وسلم أن طائفة من كفار الجن بهذا الوادى يريدون كيده صلى الله عليه وسلم وإيقاع الشر بأصحابه ، فدعا صلى الله عليه وسلم بعلى كرّم الله وجهه وعوذه وأمره بنزول الوادى فقتلهم .

قال الإمام ابن تيمية : وهذا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى علىّ كرم الله وجهه . قال ابن تيمية : ومن هذا ما روى فى عام الحديبية أنه قاتل الجن فى بئر ذات العلم ، وهى بئر فى الجحفة ، وهو حديث موضوع عند أهل المغازى .

أى وجاء فى سبب مشروعية التيمم غير ما ذكر . ففى الطبرانى عن أسلع ، قال : «كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرحل له ناقته ، فقال لى ذات يوم : يا أسلع قوم فارحل ، فقلت : يارسول الله أصابتنى جنابة أى ولا ماء ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه جبريل بآية الصعيد : أى التراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا أسلع فيتمم ، فأرانى التيمم : ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى المرفقين ، فقمت فتيممت ، ثم رحلت له حتى مر بماء ، فقال : يا أسلع أمسّ هذا جلدك» .

وفى الإمتاع : نزلت آية التيمم طلوع الفجر ، فمسح المسلمون أيديهم بالأرض ، ثم مسحوا بأيديهم إلى المناكب ، أى ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن هذه الرواية .

وفى هذه السنة الخامسة خسف القمر ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخسوف حتى انجلى القمر ، وصارت اليهود تضرب بالطساس ويقولون سحر القمر .

غزوة الخندق

ويقال لها غزوة الأحزاب : أى وهى الغزوة التى ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين وثبت الإيمان فى قلوب أوليائه المتقين : أى وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق والمعاندين .

وسببها أنه لما وقع إجلاء بنى النضير من أماكنهم كما تقدم سار منهم جمع من كبرائهم ، منهم سيدهم حيي بن أخطب أبو صفية أم المؤمنين رضى الله عنها ، وعظيمهم سلام ابن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبى الحقيق ، وهوذة بن قيس ، وأبو عامر الفاسق ، إلى

أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرّضونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . أى ونكون معكم على عداوته . فقال أبو سفيان : مرحبا وأهلا . وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

زاد فى رواية : فقال لهم : لكن لاتأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا . فقالت قريش لأولئك اليهود : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دين محمد ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . وفى رواية : نحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ فقالوا : أنتم أهدى سبيلا ، أى لأنكم تعظمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ؛ وتنحرون البدن ، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم ، أى فأنتم أولى بالحق منه ، فأنزل الله تعالى فيهم (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآيات ، فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطهم لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا ، وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها ، أن لايخذل بعضهم بعضا ، ويكونون كلهم يدا واحدة على محمد صلى الله عليه وسلم مابقى منهم رجل ، وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية رحمه الله بأبيات ذم فيها اليهود لعنهم الله بأمور بقوله :

لاتكذب أن اليهود وقد زا ... غوا عن الحق معشر لؤماء
جحدوا المصطفى وآمن بالطا ... غوت قوم هم عندهم شرفاء
قتلوا الأنبياء واتخذوا العج ... ل ألا إنهم هم السفهاء
وسفيه من ساءه المن والسل ... وى وأرضاه الفوم والقثاء
ملئت بالخبيث منهم بطون ... فهى نار طباقها الأمعاء
لو أريدوا فى حال سبت بخير ... كان سبتا لديهم الأربعاء
هو يوم مبارك قيل للتصر ... يف فيه من اليهود اعتداء
فبظلم منهم وكفر عدتهم ... طيبات فى تركهن ابتلاء

أى لاتكذب أن اليهود والحال أنهم قد مالوا عن الحق قوم لؤماء ، واللئيم : الدنى الأصل ، الشحيح النفس . ومن عظيم لؤمهم أنهم جحدوا نبوته صلى الله عليه وسلم ورسالته

والحال أنه قد آمن بالطاغوت ، وهو كل ماعبد من دون الله ؟ مأخوذ من الطغيان قوم هم عندهم شرفاء وهم كفار قريش .

ورد أن اليهود قتلوا فى يوم واحد سبعين نبيا ، ومن جملة من قتلوا زكريا ويحيى ، واتخذوا العجل إلها يعبدونه ، ومن يفعل ذلك لاسفيه غيره ، ومن أرضاه الفوم والقثاء بدل المنّ وهو نوع من الحلواء ، والسلوى : نوع من الطير ، سفيه بلا شك ، ملئت بالحرام كالربا بطون منهم ، فبطونهم نار لاشتمالها على مايؤدى إلى تلك النار ، طباق تلك النار المصارين ، ولو أراد الله لليهود فى حال سبتهم الذى اختاروا تعظيمه على ماتقدم خيراً لكان يوم الأربعاء يوم سبتهم لأنه يوم خلق فيه النور ؛ فاختيار يوم السبت دون يوم الأربعاء لسبتهم : أى سكوتهم عما عدا العبادة دليل على أنه تعالى لم يرد بهم الخير ، ويوم السبت ابتدأ الله فيه خلق العالم ، خلافا لهم حيث قالوا إن ذلك أى ابتداء الخلق كان يوم الأحد ، وفرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت . قالوا : فنحن نستريح فيه كما استراح الرب تعالى فيه . قالوا : فإن الله لايقضى يوم السبت شيئا من خلق ولا رزق ولا رحمة ولا عذاب ولا إحياء ولا إماتة ، ومن مات يوم السبت يكون محى اسمه من اللوح المحفوظ قبل ذلك ، وقد كذبهم الله تعالى بقوله (كل يوم هو فى شأن) فكان فيه منهم ظلم وعدوان لأجل التصريف فيه بغير العبادة ، فبسبب ظلم وكفر حاصل منهم فيه فاتتهم طيبات كانت حلالا لهم ، فحرمها الله تعالى عليهم ، فكان فى ذلك ابتلاء لهم .

ونقل عن ابن حجر الهيتمى رحمه الله ، أنه بحث استحباب صوم يوم الأربعاء ، لما ذكر من أنه خلق فيه النور فليتأمل .

ثم جاء أولئك إلى غطفان ودعوهم وحرضوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم ، وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم عليه ، فتجهزت قريش ، أى وأتباعها من القبائل ، وغطفان أى وأتباعها ، وقائد قريش أبو سفيان بن حرب وكانوا أربعة آلاف ، ومعهم ثلثمائة فرس أى وألف أو خمسمائة بعير ، وعقد اللواء فى دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبى طلحة المقتول والده الذى هو طلحة يوم أحد ، وكذا عماه : أى عما عثمان بن طلحة وهما عثمان ابن أبى طلحة وأبو سعيد بن أبى طلحة وعثمان بن أبى طلحة هو أبو شيبة كما تقدم ، فشيبة ابن عم عثمان بن طلحة ، وقتل يوم أحد أخوه عثمان بن طلحة الأربعة ، وهم : مسافع

ابن طلحة ، والحارث بن طلحة ، وكلاب بن طلحة ؟ والجلاس بن طلحة ، وعثمان ابن طلحة هذا ، أى الحامل لواء قريش أسلم بعد ذلك ، ويقال له الحجبى لأنه كان من بنى عبد الدار وهم سدنة الكعبة ، وبنو عبد الدار كان لهم ولأبيهم حمل لواء قريش عند الحرب دون غيرهم كما تقدم .

وقائد غطفان عيينة بن حصن الفزارى فى بنى فزارة أى وهم ألف ، وتقدم أن عيينة أسلم بعد ذلك ، ثم ارتد بعد إسلامه وأخذ أسيرا فى زمن خلافة الصديق رضى الله عنه ، ثم أسلم وكان قبل إسلامه يتبعه عشرة آلاف قناة . وكان عنده جفوة وغلظة ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم فى حقه « إنه الأحمق المطاع » وقال فيه « إن شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره » .

وقائد بنى مرة أى وهم أربعمائة الحارث بن عوف المرى ، وأسلم بعد ذلك: أى وقيل لم تحضر بنو مرة .

وقائد بنى أشجع أبو مسعود بن رخيلة ، بضم الراء وفتح الخاء المعجمة ، وأسلم بعد ذلك .

أى وقائد بنى سليم وهم سبعمائة سفيان بن عبد شمس لايعلم إسلامه .

أى وقائد بنى أسد طليحة بن خويلد الأسدى ، وأسلم بعد ذلك :أى بعد أن كان ارتد بعد إسلامه ، ثم حسن إسلامه ، وكانت أشجع وبنو أسد تتمة العشرة آلاف . فقد قال بعضهم : كانت الأحزاب عشرة آلاف ، وهم ثلاث عساكر ، وملاك أمرها لأبى سفيان: أى المدبر لأمرها والقائم بشأنها .

ولما تهيأت قريش للخروج أتى ركب من خزاعة فى أربع ليال حتى أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أجمعوا عليه ندب الناس : أى دعاهم ، وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم فى أمرهم ، أى قال لهم : هل نبرز من المدينة أو نكون فيها ؟ فأشير عليه بالخندق ،أى أشار عليه بذلك سلمان الفارسى رضى الله عنه . فقال : يارسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، أى فإن ذلك كان من مكايد الفرس ، وأول من فعله من ملوك الفرس ملك كان فى زمن موسى ابن عمران صلوات الله وسلامه عليه ، فأعجبهم ذلك ، فضرب على المدينة الخندق .

أى وعند ذلك ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا له ومعه عدة من المهاجرين

والأنصار ، فارتاد موضعا ينزل له ، وجعل سلعا خلف ظهره ، وأمرهم بالجد ووعدهم بالنصر إن هم صبروا . فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين ، أى وحمل التراب على ظهره الشريف ، ودأب المسلمون يبادرون قدوم العدو . قال : واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرازين ومكاتل ، وكان من جملة من يعمل فى الخندق جعال أو جعيل بن سراقة ؛ وكان رجلا دميما قبيح الوجه ، صالحا من أصحاب الصفة . وهو الذى تمثل به الشيطان يوم أحد ، وقال إن محمدا قد قتل كما تقدم ، فغير صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه عمرا ، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جعيل عمرا   وكان للبائس يوما ظهرا

وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قالوا عمرا قال عمرا ، وإذا قالوا ظهرا قال ظهرا انتهى ، أى وسياق أسد الغابة يدل على أن هذا الذى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه عمرا غير جعيل المذكور ، وحصل للصحابة رضى الله عنهم تعب وجوع لأنه كان فى زمن عسرة وعام مجاعة .

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابأصحابه من النصب والجوع قال متمثلا بقول ابن رواحة رضى الله عنه :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجره

قيل : وإنما قال ابن رواحة لاهم إن العيش من غير ألف ولام فقد غيره صلى الله عليه وسلم على ماهو عادته كما تقدم ، وفى لفظ :

اللهم لاخير إلا خير الآخره   فبارك فى الأنصار والمهاجره

وفى لفظ « فأكرم الأنصار والمهاجرة » وتقدم فى بناء المسجد :

اللهم إن الأجر أجر الآخره   فارحم الأنصار والمهاجره

زاد فى الإمتاع :

اللهم العن عضلا والقاره   هم كلفونى أنقل الحجاره

وفى لفظ : هم كلفونا ننقل الحجارة ، قال الحافظ ابن حجر ولعله كان « والعن إلهى عضلا والقارة » أى والتغيير منه صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ :

اللهم لاخير إلا خير الآخره   فارحم المهاجرين والأناصره

وفى لفظ « فانصر الأنصار والمهاجره » وأجابوه رضى الله تعالى عنهم بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمدا　　　على الجهاد مابقينا أبدا

وقال صلى الله عليه وسلم متمثلا بقول ابن رواحة وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا　　　ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا　　　وثبت الأقدام إذ لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا　　　وإن أرادوا فتنة أبينا

يمدبها صوته مكررا لها : أبينا أبينا . ولما بدأ صلى الله عليه وسلم بالحفر فى الخندق قال : بسم الإله وبه بدينا ، بكسر الدال :

ولو عبدنا غيره شقينا　　　ياحبذا ربا وحب دينا

وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم قال ماتقدم عنه فى بناء المسجد وهو :

هذا الحمال لاحمال خيبر　　　هذا أبرّ ربنا وأطهر

وتقدم الكلام عليه وعلى إنشاده الشعر فى الكلام على بناء المسجد .

أى ورأيت « أن عمار بن ياسر رضى الله عنه حين كان يحفر فى الخندق جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح رأسه ويقول : ابن سمية تقتلك الفئة الباغية » أى كما تقدم له فى بناء المسجد ، وصار الشخص منهم إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد له منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه فى اللحوق بها ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان عليه من عمله رغبة فى الخير ، وتباطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعف ، وصار الواحد منهم يتسلل إلى أهله من غير استئذان له صلى الله عليه وسلم ، أى وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه « أما إنه نعم الغلام » وغلبته عينه فنام فى الخندق ، فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم . فلما قام فزع على سلاحه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابار قد نمت حتى ذهب سلاحك : ثم قال : من له علم بسلاح هذا الغلام ؟ فقال عمارة : أنا يارسول الله وهو عندى . فقال : ردّه عليه ، ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا » وإليه استند أئمتنا فى تحريم أخذ متاع الغير مع عدم علمه بذلك .

واشتد على الصحابة رضى الله عنهم فى حفر الخندق كدية ، أى محل صلب ، فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ المعول وضرب فصارت كثيبا أهيل أو أهيم :

أى رملا سائلا . وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم دعا بماء ثم تفل عليه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء أى رشه على تلك الكدية » قال بعض الحاضرين : فوالذى بعثه بالحق لانهالت حتى عادت كالكثيب : أى الرمل ، ماترد فأسا ولامسحاة ، وهى المجرفة من الحديد .

أى وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ينقلان التراب فى ثيابهما إذا لم يجدا مكاتل من العجلة .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت علىّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب منى . فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان علىّ نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى ، فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، ماهذا الذى رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أوقد رأيت ذلك ياسلمان ؟ قال : قلت نعم . قال أما الأولى ، فإن الله تعالى فتح علىّ بها اليمن . وأما الثانية ، فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب . وأما الثالثة ، فإن الله فتح علىّ بها المشرق.

قال : وقد ذكر أن سلمان الفارسى رضى الله عنه تنافس فيه المهاجرون والأنصار . فقال المهاجرون : سلمان منا . وقالت الأنصار : سلمان منا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلمان منا أهل البيت » ولذلك يشير بعضهم بقوله :

لقد رقى سلمان بعد رقه ... منزلة شامخة البنيان
وكيف لا والمصطفى قدعده ... من أهل بيته العظيم الشان

وإنما وقع التنافس فى سلمان رضى الله عنه ، لأنه كان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال فى الخندق ، أى فكان يحفر فى كل يوم خمسة أذرع فى عمق خمسة أذرع حتى أصيب بالعين ، أصابه بالعين قيس بن صعصعة فلبط به : أى بلام مضمومة فموحدة مكسورة فطاء مهملة : صرع فجأة ، وتعطل عن العمل ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم « مروه فليتوضأ وليغتسل ، ويكفىء الإناء خلفه ففعل ، فكأنما نشط » أى حل « من عقال » وفى لفظ « فأمر أن يتوضأ قيس لسلمان ويجمع وضوءه فى ظرف ويغتسل سلمان بتلك الغسالة ، ويكفىء الإناء خلف ظهره » .

وذكر « أنه لما اشتدت تلك الكدية على سلمان أخذ صلى الله عليه وسلم المعول من

سلمان ، وقال : بسم الله ، وضرب ضربة فكسر ثلثها ، وبرقت برقة ، فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح فى جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أعطيت مفاتيح اليمن ، إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب . ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فخرج نور من قبل الروم ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال:أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها » أى زاد فى رواية « الحمر . ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر ، وبرق برقة فكبر : وقال : أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فى مكانى هذا » أى وفى رواية « إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، وجعل صلى الله عليه وسلم يصف لسلمان أماكن فارس ، ويقول سلمان : صدقت يارسول الله ، هذه صفتها ، أشهد أنك رسول الله : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه فتوح يفتحها الله بعدى ياسلمان » اه .

أى وعند ذلك قال جمع من المنافقين . منهم معتب بن قشير : ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق : أى الخوف ، لا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل الله تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) الآية .

وقيل فى سبب نزولها أنه صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ وهم أعز وأمنع من ذلك .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش ومن معها ، وكانوا عشرة آلاف كما تقدم ، فنزلت قريش بمجمع الأسيال وغطفان ومن معهم إلى جانب أحد ، وكان المسلمون ثلاثة آلاف .

أى وقد قال ابن إسحاق : سبعمائة ، ووهم فى ذلك . وقال ابن حزم: إنه الصحيح الذى لاشك فيه ولا وهم ، وعسكر بهم صلى الله عليه وسلم إلى سفح سلع : وهو جبل فوق المدينة ، أى فجعل ظهر عسكره إلى سلع كما تقدم ، والخندق بينه وبين القوم ، أى وضربت له صلى الله عليه وسلم قبة من أدم .

قال : وكان صلى الله عليه وسلم يعقب فيها بين ثلاثة من نسائه عائشة وأم سلمة وزينب

بنت جحش ، فتكون عائشة عنده أياما . أى فانه مكث فى عمل الخندق بضع عشرة ليلة ، وقيل أربعا وعشرين ليلة ، أى وقيل عشرين ليلة ، وقيل قريبا من شهر ، وقيل شهرا .

قال بعضهم : وكونه قريبا من شهر هو أثبت الأقاويل . وقيل أثبت الأقاويل أنها كانت خمسة عشر يوما ، وبه جزم النووى رحمه الله فى الروضة ، وسائر نسائه صلى الله عليه وسلم فى بنى حارثة ، وجعل النساء والذرارى فى الآطام ، وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه ، فلما التحم الأمر أمر من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله ، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة ه

فمن أجازه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدرى ، والبراء بن عازب رضى الله تعالى عنهم اه ، وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، فصارت كالحصن .

وفى كلام بعضهم : كان أحد جوانب المدينة عورة ، وسائر جوانبها مشتبكة بالبنيان والنخيل لايتمكن العدوّ منه ، فاختار ذلك الجانب للخندق .

واستخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه . وأرسل سليطا وسفيان بن عوف طليعة للأحزاب فقتلوهما ، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفنهما فى قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان . وأعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد بن عبادة ، وبعث مسلمة بن أسلم فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلثمائة رجل يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير تخوفا على الذرارى من بنى قريظة ، أى لما بلغه صلى الله عليه وسلم أنهم نقضوا مابينه وبينهم من العهد كما سيأتى ، أى وأنهم يريدون الإغارة على المدينة ، فإن حيى بن أخطب أرسل إلى قريش أن يأتيه منهم ألف رجل ، وإلى غطفان أن يأتيه منهم ألف رجل أخرى ليغيروا على المدينة ، وجاء الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعظم البلاء ، وصار الخوف على الذرارى أشدّ من الخوف على أهل الخندق .

ولما نظر المشركون إلى الخندق قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، وصار المشركون يتناوبون ، فيغدو أبو سفيان فى أصحابه يوما ، ويغدو خالد ابن الوليد يوما ، ويغدو عمرو بن العاص يوما ، ويغدو جبيرة بن وهب يوما ، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوما ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوما ، فلا يزالون يجيلون خيلهم

ويفترقون مرة ، ويجتمعون أخرى ، ويناوشون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى يقربون منهم ، ويقدمون رجالهم فيرمون ، ومكثوا على ذلك المدة المتقدمة ، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل و الحصى .

وفى تلك المدّة أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ليوثبه الخندق فوقع فى الخندق فقتله الله : أى اندقت عنقه. أى وفى لفظ : وأما نوفل بن عبد الله ، فضرب فرسه ليدخل الخندق فوقع فيه مع فرسه فتحطما جميعاً . وقيل رمى بالحجارة ، فجعل يقول : قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب ؟ فنزل إليه على كرم الله وجهه فقتله : أى ضربه بالسيف فقطعه نصفين ، وكبر ذلك على المشركين ؛ فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نعطيك الدية على أن تدفعه إلينا فندفنه . فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خبيث الدية ، فلعنه الله ولعن ديته ، ولا نمنعكم أن تدفنوه ، ولا أرب : أى غرض لنا فى ديته .

وقيل أعطوا فى جثته عشرة آلاف ، أى وفى رواية أنهم أرسلوا إليه صلى الله عليه وسلم : أن أرسل إلنا بجسده ونعطيك اثنى عشر ألفا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا خير فى جثته ولا فى ثمنه ، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد خبيث الدية . وفى لفظ : إنما هى جيفة حمار .

ثم إن عدوّ الله حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، كان يقول لقريش فى مسيره معهم إن قومى بنى قريظة معكم وهم أهل حلقة وافرة ، وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا ؛ فقال له أبو سفيان : ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، فعند ذلك خرج حيى لعنه الله حتى أتى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وولى عهدهم الذى عاهدهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى المتقدّم ذكره ، فدق عليه باب حصنه ، فأبى أن يفتح له وألح عليه فى ذلك . فقال له : ويحك ياحيى إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا . فقال له : ويحك افتح لى أكلمك ، فقال : ما أنا بفاعل ، فغاظه ، فقال له : والله ما أغلقت دونى إلا تخوّفا على جشيشتك ، أى بالجيم المفتوحة والشين المعجمة — وهى البر يطحن غليظا ؛ ويقال له الدشيش — أن آكل معك منها ففتح له . فقال له : ويحك ياكعب ، جئت بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال ، وبغطفان حتى

أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه . فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، وكل مايخشى ، فإنى لم أر فى محمد إلا صدقا ووفاء . وفى لفظ : جئتنى بجهام : أى سحاب قد هراق ماء : أى لا ماء فيه ، يرعد ويبرق ، وليس فيه شىء ، ويحك ياحيى ، دعنى وما أنا عليه . فلم يزل حيى بكعب حتى أعطاه عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمدا أن يكون معه فى حصنه ويصيبه ما أصابه ، فعند ذلك نقض كعب العهد ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومزقوا الصحيفة التى كان فيها العقد ، وجمع رؤساء قومه وهم الزبير بن مطا ، وشاس بن قيس ، وعزال بن ميمون ، وعقبة بن زيد ، وأعلمهم بما صنع من نقض العهد وشق الكتاب الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلجم الأمر لما أراد الله من هلاكهم . وكان حيى بن أخطب فى اليهود يشبه بأبى جهل فى قريش .

فلما انتهى الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أخبره بذلك عمرو ابن الخطاب رضى الله عنه . فقال : يا رسول الله بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت ، فاشتد الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشق عليه ذلك . وأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وأرسل معهما ابن رواحة وخوات بن جبير . وأسقطهما فى الإمتاع وذكر بدلهما أسيد بن حضير . وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم ، فإن كان حقا فالحنوا إلى لحنا أعرفه دون القوم ، أي ورّوا وكنوا فى كلامكم بما لم يفهمه القوم ، أى لئلا يحصل لهم الوهن والضعف ، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس . فإن اللحن العدول بالكلام عن الوجه المعروف عند الناس إلى وجه لا يعرفه إلا صاحبه ؛ كما أن اللحن الذى هو الخطأ عدول عن الصواب المعروف ، ومنه قول القائل : وخير الحديث ماكان لحنا ، فخرجوا حتى أتوا بنى قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى قالوا من رسول الله ؟ وتبرءوا من عقده وعهده ، وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد ، فشتمهم سعد بن معاذ وهم حلفاؤه ، أى وقيل سعد بن عبادة أى وكان فيه حدة وشاتموه أى ولا مانع من وجود الأمرين . وقال سعد بن معاذ لسعد بن عبادة : أو بالعكس ؟ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى ، أى أقوى من المشاتمة . ثم أقبل السعدان ومن

معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنوا له عن نقضهم العهد ، أى قالوا عضل والقارة : غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، وسيأتى خبر ذلك فى السرايا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أى وقال : : أبشروا يامعاشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه ، وتقنع صلى الله عليه وسلم بثوبه واضطجع ومكث طويلا ، فاشتدّ على الناس البلاء والخوف حين رأوه صلى الله عليه وسلم اضطجع ثم رفع رأسه ، فقال : أبشروا بفتح الله ونصره ، أى ولعل هـذا : أى إرسال السعدين ومن معهما كان بعد إرساله صلى الله عليه وسلم الزبير إليهم ليأتى بخبرهم ، هل نقضوا العهد استثباتا للأمر .

فعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما . قال : كنت يوم الأحزاب أنا عمرو بن أبى سلمة مع النساء فى أطم حسان بن ثابت . أى وكان حسان مع النساء ، ومن جملتهم صفية بنت عبد المطلب ، واتفق أن يهوديا جعل يطوف بذلك الحصن . فقالت صفية لحسان : ياحسان لا آمن هـذا اليهودى أن يدلهم على عورة الحصن فيأتوا إلينا ، فانزل فاقتله . قال حسان رضى الله عنه : يا بنت عبد المطلب قد عرفت ما أنا بصاحب هـذا . قالت : فلما أيست منه أخـذت عمودا ونزلت ففتحت باب الحصن وأتيته من خلفه فضربته بالعمود حتى قتلته ، وصعدت الحصن فقلت : ياحسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل. فقال : يا ابنة عبد المطلب مالى بسلبه حاجة . أى وهذا يدل على ماقيل إن حسان بن ثابت كان من أجبن الناس كما تقدم . قال عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما : فنظرت فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا . فلما رجعت ، قلت يا أبت رأيتك تختلف إلى بنى قريظة. قال : رأيتنى يابنى ؟ قلت نعم . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه . فقال : فداك أبى وأمى أخرجه الشيخان .

أى وفى كلام ابن عبد البر رحمه الله ثبت عن الزبير رضى الله عنه أنه قال : جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه مرتين : يوم أحد ، ويوم بنى قريظة ، فقال : ارم فداك أبى وأمى . وقال : ولعل ذلك كان فى أحد « إن لكل نبى حواريا ، وإن حوارى الزبير » وقال « الزبير ابن عمتى وحوارى من أمتى » ويذكر أن الزبير رضى الله عنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج . وكان يتصدق بذلك كله ولا يدخل بيته من ذلك درهما واحدا

وذلك من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم . فقد جاء أنه لما نزل قوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال له الزبير : يا رسول الله أى نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : أما إنه سيكون ، وقد جعله سبعة من الصحابة وصيا على أولادهم ، فكان يحفظ على أولادهم مالهم وينفق عليهم من ماله ، وهؤلاء السبعة : منهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، والمقداد ، وابن مسعود .

وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين لما وصل إليهم الخبر : أى خبر نقض بنى قريظة العهد . ولا منافاة بين بلوغهم الخبر وما تقدم من عدم الإفصاح به ، لأنهم جاءهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المسلمون كل الظن ، وأنزل الله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) وظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، فأنزل الله تعالى (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الأمر بعث إلى عيينة بن حصن الفزارى وإلى الحارث بن عوف المرى فى أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه . فجاآ مستخفيين من أبى سفيان فوافقاه على ذلك ، أى بعد أن طلبا النصف فأبى عليهما إلا الثلث ، فرضيا وكتبا بذلك صحيفة .

أى وفى رواية : أحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضى الله عنه الصلح . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقع الصلح على ذلك ، بعث إلى سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة رضى الله عنهما ، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله أمرا تحبه فتصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ أى وفى لفظ : إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أمرنى الله ماشاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم : أى غطفان على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا

إلاقرى أو بيعا، أى وإن كانوا ليأكلون العلهز فى الجاهلية من الجهد ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا . أى وفى لفظ : نعطى الدنية مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك . فأخذ سعد الصحيفة فمحى ما فيها من الكتابة . أى وهذا إنما يناسب الرواية الأولى ، وكذا ما جاء فى لفظ . « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شق الكتاب ، فشقه سعد ، وقال لعيينة والحارث : ارجعا بيننا وبينكم السيف رافعا صوته. ثم قال لسعد ليجهدوا علينا» .

ثم إن طائفة من المشركين أقبلوا : أى وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق من مضيق به [ ] وفيهم عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه ، فانه أسلم بعد ذلك . وفيهم هبيرة بن أبى وهب أى وهو زوج أم هانئ أخت على كرم الله وجهه رضى الله عنها، وأبو أولادها ، مات على كفره . وضرار بن الخطاب وعمرو بن عبد ود . أى قيل ونوفل بن عبد الله، وكان عمرو بن عبدود عمره إذ ذاك تسعين سنة، فقال : من يبارز ، فقام على كرم الله وجهه وقال: أنا له يا نبى الله. فقال صلى الله عليه وسلم له اجلس إنه عمرو بن عبدود . ثم كرر عمرو النداء وجعل يوبخ المسلمين ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزن لى رجلا وأنشد أبياتا منها :

ولقد بححت من الندا ء بجمعكم هل من مبارز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

فقام على كرم الله وجهه ، فقال : أنا له يا رسول الله ، فقال : اجلس إنه عمرو بن عبد ود. ثم نادى الثالثة ، فقام على كرم الله وجهه فقال : أنا له يا رسول الله، فقال: إنه عمرو فقال وإن كان عمرا ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشد سيدنا على أبياتا منها :

لا تعجلن فقد أتا ك مجيب قولك غير عاجز
ذو نيـــة وبصـــيرة والصدق منجى كل فائز

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته . وقال « اللهم أعنه عليه ، أى وفى لفظ : اللهم هذا أخى وابن عمى ، فلا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » .

زاد فى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم رفع عمامته إلى السماء . وقال : إلهى أخذت عبيدة

منى يوم بدر وحمزة يوم أحد ، وهذا علىّ أخى وابن عمى» الحديث، فمشى إليه على كرّم الله وجهه ، فقال له : يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين : أى خصلتين إلا أخذتها منه . قال له أجل: أى نعم، فقال له على كرّم الله وجهه : فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام ، فقال : لا حاجة لى بذلك . قال له علىّ : فإنى أدعوك إلى البراز .

قال وفى رواية : إنك كنت تقول لا يدعونى أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها . قال : أجل ، فقال علىّ : فإنى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتسلم لرب العالمين ، فقال : ياابن أخى أخرعنى هذه . قال : وأخرى ، ترجع إلى بلادك ، فان يك محمد صلى الله عليه وسلم صادقا كنت أسعد الناس به ، وإن يك كاذبا كان الذى تريد . قال : هذا مالا تتحدث به نساء قريش أبدا، كيف وقد قدرت على استيفاء ما نذرت ، أى فإنه نذر لما أفلت هاربا يوم بدر وقد جرح أن لا يمس رأسه دهنا حتى يقتل محمدا صلى الله عليه وسلم . قال : فالثالثة ما هى ؟ قال البراز ، فضحك عمرو وقال : إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروّعنى بها اه ثم قال له عند طلب المبارزة : لم يا ابن أخى ؟ فوالله ماأحب أن أقتلك ، فقال على كرّم الله وجهه : ولكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك : أى أخذته الحمية .

وفى رواية أن عمرا قال له : من أنت أى لأن عليا كرّم الله وجهه كان مقنعا بالحديد ، قال: علىّ ، قال ابن عبد مناف ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ، فقال : غيرك يا ابن أخى من أعمامك منْ هو أشد منك ، فإنى أكره أن أهريق : أى أسيل دمك ، أى وزاد فى رواية : فإن أباك كان لى صديقا ، أى وفى لفظ : كنت له نديما ، فقال على : وأنا والله ما أكره أن أهريق دمك، فغضب ، فقال له على كرّم الله وجهه : كيف أقاتلك وأنت على فرسك ولكن انزل معى ، فاقتحم عن فرسه وسلّ سيفه كأنه شعلة نار ، فعقر فرسه وضرب وجهه ، وأقبل على علىّ كرّم الله وجهه ، فاستقبله على بدرقته فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه ، فضربه على كرم الله وجهه على حبل عاتقه أى وهو موضع الرداء من العنق فسقط وكبر المسلمون ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير عرف أن عليا كرم الله وجهه قتل عمرا لعنه الله .

أى وذكر بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم عند ذلك قال «قتل على لعمرو بن عبد ود

أفضل من عبادة الثقلين» قال الإمام أبو العباس بن تيمية : وهذا من الأحاديث الموضوعة التي لم ترد في شيء من الكتب التي يعتمد عليها ولابسند ضعيف ، وكيف يكون قتل كافر أفضل من عبادة الثقلين الإنس والجن ومنهم الأنبياء . قال : بل إن عمرو بن عبدود هذا لم يعرف له ذكر إلا فى هذه الغزوة .

أقول : ويرد قوله إن عمرو بن عبدود هذا لم يعرف له ذكر إلا فى هذه الغزوة قول الأصل . وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلما : أى جعل له علامة يعرف بها ليرى مكانه ، أى ويرده أيضا ماتقدم من أنه نذر أن لا يمس رأسه دهنا حتى يقتل محمدا صلى الله عليه وسلم ، واستدلاله بقوله وكيف يكون إلى آخره فيه نظر ، لأن قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين .

وفى تفسير الفخر أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه بعد قتله لعمرو بن عبدود «كيف وجدت نفسك معه يا على؟ قال: وجدته لو كان أهل المدينة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم » .

وفى كلام السهيلى رحمه الله: ولما أقبل على كرم الله وجهه بعد قتله لعمر بن عبدود على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متهلل ، قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هلا سلبته درعه ، فإنه ليس فى العرب درع خيرمنها ؟ قال : إنى حين ضربته استقبلنى بسوءته فاستحيت يا ابن عمى أن أسلبه، هذا كلامه .

وعندى أن هذا اشتباه من بعض الرواة ، لأن هذه الواقعة لعلى كرم الله وجهه إنما كانت فى يوم أحد مع طلحة بن أبى طلحة كما تقدم وعمرو بن عبد ود لم يشهد أحدا كما تقدم عن الأصل فليتأمل .

قال : وذكر ابن إسحق أن المشركين بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى، وحين قتل عمرو رجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هاربين ،فتبعهم الزبير رضى الله عنه وضرب نوفل بن عبد الله بالسيف فشقه نصفين ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك ، فقال والله ما هو السيف ولكنها الساعد ، أى وفيه أنه تقدم أن نوفل بن عبد الله وقع فى الخندق فاندقت عنقه إلى آخر

ما تقدم ، لكنى رأيت بعضهم قال : إن وقوع نوفل فى الخندق ورميه بالحجارة وقتل علىّ كرم الله وجهه له فى الخندق غريب من وجهين فليتأمل .

وحمل الزبير رضى الله عنه على هبيرة بن أبى وهب وهو زوج أم هانئ أخت على بن أبى طالب كما تقدم ، فضرب ثغر فرسه فقطعه ، وسقطت درع كان محقبها الفرس : أى جعلها على مؤخر ظهرها ، فأخذها الزبير ، وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه وهو منهزم انتهى .

أى وفى رواية : ثم حمل ضرار بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهبيرة ابن أبى وهب على على كرم الله وجهه فأقبل علىّ عليهما فأما ضرار فولى هاربا ولم يثبت ، وأما هبيرة فثبت ثم ألقى درعه وهرب وكان فارس قريش وشاعرها .

وذكر أن ضرار بن الخطاب لما هرب تبعه أخوه عمربن الخطاب وصار يشتد فى أثره ، فكرّ ضرار راجعا وحمل على عمر رضى الله عنه بالرمح ليطعنه ثم أمسك وقال : يا عمر هذه نعمة مشكورة أثبتها عليك ويدلى عندك غير مجزىّ بها فاحفظها .

أى ووقع له مع عمر رضى الله عنه مثل ذلك فى أحد ، فانه التقى معه ، فضرب عمر رضى الله عنه بالقناة ثم رفعها عنه وقال له : ما كنت لأقتلك يا ابن الخطاب، ثم منّ الله على ضرار فأسلم وحسن إسلامه ، وكان شعار المسلمين « حمّ لا ينصرون » أى ولعل المراد بالمسلمين الأنصار ، فلا يخالف ما فى الإمتاع ، وكان شعار المهاجرين « يا خيل الله » .

وفيه خرجت طائفتان للمسلمين ليلا لا يشعر بعضهم ببعض ، ولا يظنون إلا أنهم العدوّ فكانت بينهم جراحة وقتل ثم نادوا بشعار الإسلام «حمّ لاينصرون» فكف بعضهم عن بعض .

وقد يقال : يجوز أن تكون الطائفتان كانتا من الأنصار وجاءوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جراحكم فى سبيل الله ، ومن قتل فهو شهيد » وبهذا استدل أئمتنا على أن من قتله مسلم خطأ فى الحرب يكون شهيدا .

ورمى سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله : وهو عرق فى الذراع تتشعب منه عروق البدن ، ولعله محل الفصد الذى يقال له المشترك ، أى ويقال لهذا العرق عرق الحياة . أى رماه ابن العرقة اسم جدّته ، سميت بذلك لطيب عرقها، وقال خذها وأنا ابن العرقة، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال: عرّق الله وجهه فى النار ،وقيل قائل ذلك سعد

رضى الله عنه ، وعند ذلك قال سعد : اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم يعنى قريشا فاجعلها لى شهادة ولا تمتنى حتى تقرّ عينى . وفى لفظ : حتى تشفينى من بنى قريظة ، وفى لفظ : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، فإنه لا قوم أحب إلىّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه .

وفى يوم استمرت المقاتلة ، قيل من سائر جوانب الخندق إلى الليل ولم يصلّ صلى الله عليه وسلم ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء . أى وصار المسلمون يقولون : ما صلينا ، فيقول صلى الله عليه وسلم : ولا أنا ، فلما انكشف القتال جاء صلى الله عليه وسلم إلى قبته وأمر بلالا فأذن وأقام الظهر فصلى ثم أقام بعد كل صلاة إقامة وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلى العصر ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء » .

أقول : فى الرواية الأولى ما يشهد لقول إمامنا الشافعى : يندب أن يؤذن للأولى من الفوائت ويقيم لما عداها إذا قضاها متوالية ، وكونه يؤذن للأولى من الفوائت هو ماذهب إليه فى القديم وهو المفتى به .

وفى الرواية الثانية دليل على أنه يؤذن لكل من الفوائت إذا قضاها متوالية ، ولم يقل به إمامنا ، فإنه جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه مرسلا لأنه رواه عنه ابنه أبو عبيدة ولم يسمع منه لصغر سنه .

وروى إمامنا الشافعى رضى الله عنه باسناد صحيح ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوىّ » أى طائفة « من الليل حتى كفينا القتال ، وذلك قوله تعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا فأمره فأقام الظهر فصلاها كما كان يصلى ، ثم أقام العصر فصلاها كذلك ، ثم أقام المغرب فصلاها كذلك ، ثم أقام العشاء فصلاها كذلك » أى وفى لفظ « فصلى كل صلاة كأحسن ما كان يصليها فى وقتها » ، وهو دليل لعدم ندب الأذان للفائتة ، وهو ماذهب إليه إمامنا الشافعى رضى الله عنه فى الجديد وهو مرجوح .

وجمع الإمام النووى فى شرح المهذب بين رواية إلى الليل ورواية حتى ذهب هوىّ

من الليل بأنهما قضيتان جرتا فى أيام الخندق ، قال : فإنها كانت خمسة عشر يوما ، أى على ما تقدّم .

وفيه أن كونهما قضيتين أمر واضح لاخفاء فيه ، لأن فى الأولى وفى يوم استمرت المقاتلة إلى الليل ، وفى الثانية حتى كفينا القتال ، فمع ذلك كيف يظن أنهما قضية واحدة حتى يحتاج إلى الجمع ، وظاهر سياق هذه الروايات أنه صلى الأربع صلوات بوضوء واحد وبه صرّح البغوى فى تفسير سورة المائدة ، وحينئذ يحتاج للجمع بينه وبين مايأتى فى فتح مكة .

وروى الطحاوى ، واستدل به مكحول والأوزاعى على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال أن الشمس ردت له صلى الله عليه وسلم بعد ماغربت حين شغل عن صلاة العصر حتى صلى العصر ، وذكر الإمام النووى فى شرح مسلم أن رواته ثقات .

وفى البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أنه جاء يوم الخندق بعد ما كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ماصليتها — يعنى العصر — فنزلنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ماغربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب » وهذه الرواية تقتضى أنه لم يفته إلا العصر . وأنه صلاها بعد الغروب .

قال الإمام النووى رحمه الله : وطريق الجمع أن هذا كان فى بعض أيام الخندق ، وكون صلاة العصر هى الوسطى قد جاء فى بعض الروايات « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر حتى غابت الشمس ، ملأ الله أجوافهم » وفى لفظ « بطونهم وقبورهم نارا » والذى فى البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح « ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس » وكون الوسطى هى صلاة العصر هو قول من تسعة عشر قولا ذكرها الحافظ الدمياطى فى مؤلف له سماه [كشف الغطا عن الصلاة الوسطى] وفى الينبوع أن كون الصلاة الوسطى هى العصر هو الذى أعتقده والله أعلم .

قال وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم صلى المغرب ، فلما فرغ قال : أحد منكم علم أنى صليت العصر ؟ قالوا : يا رسول الله ماصلينا » أى لانحن ولا أنت « فأمر المؤذن فأقام

الصلاة فصلى العصر ثم أعاد المغرب » قيل وكان ذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف (فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) » اه .

أقول : يحتاج إلى الجواب عن إعادة المغرب . وقد يقال : أعادها مع الجماعة ، وأن قوله (فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) يرشد إلى أن المراد بصلاة الخوف صلاة شدته لا صلاة ذات الرقاع التي نزل فيها قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية كما تقدم ، فلا ينافى ماتقدم من صلاته فى الرقاع بناء على تقدمها على هـذه الغزوة التى هى غزوة الخندق .

وحينئذ يندفع الاستدلال على أن ذات الرقاع متأخرة عن الخندق بقولهم ولم تكن شرعت صلاة الخوف : أى صلاة ذات الرقاع ، وإلا لصلاها فى الخندق ، ولم يخرج الصلاة عن وقتها لما علمت أن المراد بصلاة الخوف التى لم تشرع زمن الخندق صلاة شدته لا صلاة ذات الرقاع . وسقط القول بأن الآية التى نزلت فى صلاة ذات الرقاع منسوخة ، فتركه صلى الله عليه وسلم تلك الصلاة فى الخندق ، لأن الخندق وإن لم يلتحم فيه القتال إلا أنهم لا يأمنون هجوم العدوّ عليهم ، فلو صلوها لكانت تلك الصلاة صلاة شدة الخوف لا صلاة ذات الرقاع ، لأن شرطها أمن هجوم العدو ، وصلاة شدة الخوف إما أن يلتحم فيها القتال أو يخافوا هجوم العدو .

وقول بعضهم أن ابن إسحاق وهو إمام أهل المغازى ذكر أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الخوف بعسفان ، وذكر أنها قبل الخندق ، فتكون صلاة عسفان منسوخة أيضا فيه نظر ظاهر ، لأن صلاة عسفان إنما كانت فى الحديبية كما سيأتى . وعلى تسليم أن صلاة عسفان كانت قبل الخندق ، فتلك يشترط فيها الأمن من هجوم العدوّ والله أعلم .

قال : ثم إن طائفة من الأنصار خرجوا ليدفنوا ميتا منهم بالمدينة فصادفوا عشرين بعيرا لقريش محملة شعيرا وتمرا وتبنا ، حملها ذلك حيى بن أخطب شدادا وتقوية لقريش فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوسع بها أهل الخندق .

ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال : إن حييا لمشئوم ، قطع بنا مانجد مانحمل عليه إذا رجعنا .

ثم إن خالد بن الوليد كرّ بطائفة من المشركين يطلب غرّة للمسلمين : أى غفلتهم ، فصادف أسيد بن حضير على الخندق فى مائتين من المسلمين فناوشوهم : أى تقاربوا منهم

ساعة ، وكان فى أولئك المشركين وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه ، فزرق الطفيل بن النعمان فقتله ، ثم بعد ذلك صاروا يرسلون الطلائع بالليل يطمعون فى الغارة : أى الإغارة ، فأقام المسلمون فى شدة من الخوف .

أى وفى الصحيحين « ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب . فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم ، وزلزلهم » أى وقام فى الناس فقال « ياأيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية فإن لقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » أى السبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيف فى سبيل الله تعالى . ودعا صلى الله عليه وسلم بقوله « ياصريخ المكروبين ، يامجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فإنك ترى مانزل بى وبأصحابى . وقال له المسلمون رضى الله عنهم : هل من شئ نقوله ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، فأتاه جبريل عليه السلام فبشره أن الله يرسل عليهم ريحا وجنودا ، وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وصار يرفع يديه قائلا شكرا شكرا » .

وجاء أن دعاءه صلى الله عليه وسلم عليهم كان يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء واستجيب له ذلك اليوم الذى هو يوم الأربعاء بين الظهر والعصر ، فعرف السرور فى وجهه صلى الله عليه وسلم أى ومن ثم كان جابر رضى الله عنه يدعو فى مهماته فى ذلك اليوم فى ذلك الوقت ، ويتحرى ذلك .

والأحاديث والآثار التى جاءت بذم يوم الأربعاء محمولة على آخر أربعاء فى الشهر ، فإن فى ذلك اليوم ولد فرعون وادعى الربوبية وأهلكه الله فيه ، وهو اليوم الذى أصيب فيه أيوب عليه الصلاة والسلام بالبلاء .

قال : وكان صلى الله عليه وسلم يختلف إلى ثلمة فى الخندق . والثلمة : الخلل فى الحائط فعن عائشة رضى الله عنها قالت : وكان صلى الله عليه وسلم يذهب إلى تلك الثلمة ، فإذا أخذه البرد جاء فأدفأته فى حضنى ، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة ويقول : ماأخشى أن تؤتى المسلمون إلا منها ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حضنى صار يقول « ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلمة الليلة ، فسمع صوت السلاح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقال سعد بن أبى وقاص : سعد ، يارسول الله أتيتك أحرسك ،

فقال عليك هذه الثلمة فاحرسها ، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غط ، وقام صلى الله عليه وسلم فى قبته يصلى لأنه صلى ا - عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ومن ثم لما نعى لابن عباس أخوه قثم وهو فى سفر استرجع وتنحى عن الطريق وصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس وتلا (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

ثم خرج صلى الله عليه وسلم من قبته ، فقال : هذه خيل المشركين تطيف بالخندق ، ثم نادى صلى الله عليه وسلم : ياعباد بن بشر ، قال : لبيك ؛ قال هل معك أحد ، قال : نعم أنا فى نفر حول قبتك يارسول الله ، وكان ألزم الناس لقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسها ، فبعثه صلى الله عليه وسلم يطيف بالخندق ، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف بهم . ثم قال : اللهم ادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم ، واغلبهم لايغلبهم غيرك . وإذا أبو سفيان فى خيل يطوفون بمضيق من الخندق ، فرماهم المسلمون حتى رجعوا .

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ليلا ، فقال : يا رسول الله إنى أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بما شئت . قال وفى رواية أن نعيما لما سارت الأحزاب سار مع قومه : أى غطفان وهو على دينهم ، فقذف الله فى قلبه الإسلام ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء فوجده يصلى ، فلما رآه جلس . ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ماجاء بك يانعيم ؟ قال : جئت أصدقك ، وأشهد أن ماجئت به حق فأسلم انتهى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد فخذل عنا مااستطعت ، فإن الحرب خدعة بفتح الخاء وسكون الدال المهملة : أى ينقضى أمرها بالمخادعة . فقال له نعيم : يارسول الله إنى أقول : أى مايقتضيه الحال وإن كان خلاف الواقع . قال : قل مابدا لك فأنت فى حل [ ] .

فخرج نعيم رضى الله عنه حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديما . قال : فلما رأونى رحبوا بى وعرضوا على الطعام والشراب . فقلت : إنى لم آت لشىء من هذا ، إنما جئتكم تخوفا عليكم لأشير عليكم برأى ، يابنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم . فقال لهم : اكتموا عنى ، قالوا : نفعل . قال : لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع ولبنى النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم ، وبها أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم ، لاتقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم : أى عاونتموهم عليه ،

وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة : أى فرصة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين بلدكم، والرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، أى سبعين رجلا يكونون بأيديكم ثقة لكم ، على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى يناجزوه : أى يقاتلوه . قالوا له : لقد أشرت بالرأى والنصح ، ودعوا له وشكروا ، وقالوا : نحن فاعلون . قال : ولكن اكتموا عنى ، قالوا : نفعل .

ثم خرج رضى الله عنه حتى أتى قريشا ، فقال لأبى سفيان ومن معه من أشراف قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى لمحمد ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا . قالوا : نفعل ، قال : تعلمون أن معشر يهود : يعنى بنى قريظة قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد : أى من نقض عهده . وقد أرسلوا إليه ، أى وأنا عندهم أنا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، أى سبعين رجلا فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ؟ أى وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم : يعنون بنى النضير ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا ، واحذروهم على أسراركم ، ولكن اكتموا عنى ولا تذكروا من هذا حرفا . قالوا : لا نذكر .

ثم خرج رضى الله عنه حتى أتى غطفان . فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ولا أراكم تتهموننى ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكتموا على ، قالوا نعم ، فقال لهم ، مثل ماقال لقريش وحذرهم .

فلما كان ليلة السبت ، أرسل أبوسفيان ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان . فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز : أى نقاتل محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إن اليوم : أى الذى يلى هذه الليلة يوم السبت ، وقد علمتم مانال منا من تعدى فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا ، أى سبعين رجلا ، فقالوا : صدق والله نعم .

وفى رواية أن بنى قريظة أرسلت لقريش قبل مجىء رسل قريش إليهم رسولا يقول لهم : ما هذا التوانى ، والرأى أن تتواعدوا على يوم يكونون معكم فيه لكنهم لا يخرجون

حتى ترسلوا إليهم رهنا سبعين رجلا من أشرافكم ، فإنهم يخافون إن أصابكم ماتكرهون رجعتم وتركتموهم ، فلم ترد لهم قريش جوابا . وجاءهم نعيم وقال لهم : كنت عند أبي سفيان ، وقد جاءه رسولكم . فقال لو طلبوا مني عناقا مادفعتها لهم ، فاختلفت كلمتهم ، أي وجاء حيي بن أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة له وقالوا : لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلا من قريش وغطفان رهنا عندنا ، وبعث الله تعالى ريحا عاصفا ، أي وهى بريح الصبا فى ليال شديدة البرد ، فنقلت بيوتهم ، وقطعت أطنابها ، وكفأت قدورهم على أفواهها ، وصارت الريح تلقى الرجال على أمتعتهم .

وفى رواية : دفنت الرجال وأطفأت نيرانهم . أى وأرسل الله إليهم الملائكة زلزلتهم . قال تعالى (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) ولم تقاتل الملائكة بل نفثت فى روعهم الرعب . وقال صلى الله عليه وسلم « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » وفى لفظ « نصر الله المسلمين بالريح ، وكانت ريحا صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم » .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه اختلاف كلمتهم ، وكانت تلك الليلة شديدة البرد والريح فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وسيأتى أنها لم تجاوز عسكر المشركين ، وشديدة الظلمة بحيث لايرى الشخص أصبعه إذا مدها .

فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون إن بيوتنا عورة : أى من العدو ، لأنها خارج المدينة ، وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة ، فائذن لنا أن نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا فيأذن صلى الله عليه وسلم لهم .

قيل ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم تلك الليلة إلا ثلثمائة ، وقال : من يأتينا بخبر القوم : فقال الزبير رضى الله عنه : أنا . قال صلى الله عليه وسلم ذلك ثلاثا والزبير يجيبه بماذكر . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لكل نبي حوارى » أى ناصر « وإن حوارى الزبير » أى وهذا قاله صلى الله عليه وسلم له أيضا عند إرساله لكشف خبر بنى قريظة ، هل نقضوا العهد أولا ؟ كما تقدم . وسيأتى قول ذلك له أيضا فى خيبر . وفى الحديث « حوارى الزبير من الرجال وحوارى من النساء عائشة » وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال ألا رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع ؟ أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة » وفى لفظ « يكون معى يوم القيامة » وفى لفظ « يكون رفيق إبراهيم يوم القيامة » قال ذلك ثلاثا فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد ، فدعا صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان . قال : فلم أجد بدا من القيام حيث فوه باسمى ،

فجئته صلى الله عليه وسلم فقال : تسمع كلامى منذ الليلة ولاتقوم ؟ فقلت:لا ، والذى بعثك بالحق إن قدرت . أى ماقدرت على مابى من الجوع والبرد والخوف ، فقال: اذهب حفظك الله من أمامك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك حتى ترجع إلينا. قال حذيفة: فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى . وقال : ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم ، فقمت مستبشرا بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنى احتملت احتمالا ، وذهب عنى ماكنت أجد من الخوف والبرد ، وعهد صلى الله عليه وسلم إلىّ أن لا أحدث حدثا . وفى رواية « أما سمعت صوتى؟ قلت نعم . قال : فا منعك أن تجيبنى ؟ قلت البرد . قال : لابرد عليك حتى ترجع » كما يدل على ذلك الرواية الآتية « فقال له: إن فى القوم خبرا فائتنى بخبر القوم » قال : وفى رواية « إنه صلى الله عليه وسلم لما كرر قوله: ألا رجل يأتينى بخبرالقوم يكون معى يوم القيامة ؟ ولم يجبه أحد . قال أبو بكررضى الله عنه : يارسول الله حذيفة . قال حذيفة : فمر علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وماعلىّ جنة من العدو والبرد إلا مرطا لامرأتى مايجاوز ركبتى ،وأنا جاث على ركبتى. فقال: من هذا؟ قلت:حذيفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حذيفة ، قال حذيفة رضى الله عنه : فتقاصرت بالأرض . قلت: بلى يارسول الله . قال : قم ، فقمت . فقال : إنه كائن فى القوم خبر فائتنى بخبر القوم . فقلت : والذى بعثك بالحق ماقمت إلا حياء منك من البرد . قال : لابأس عليك من حر ولابرد حتى ترجع إلىّ . فقلت : والله مابى أن أقتل ، ولـكن أخشى أن أوسر . فقال : إنك لن تؤسر . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته ، فمضيت كأنى أمشى فى حمام » مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار وهو عربى « قال حذيفة : فلما وليت دعانى ، فقال لى : لاتحدثن شيئا » وفى رواية،لاترم بسهم ولاحجر، ولاتضربن بسيف حتى تأتينى . فجئت إليهم ودخلت فى غمارهم، فسمعت أبا سفيان يقول: يا معشر قريش ليتعرف كل امرئ منكم جليسه ، واحذروا الجواسيس والعيون ، فأخذت بيد جليسى على يمينى وقلت من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبى سفيان ، وقبضت يد من على يسارى . وقلت : من أنت ، قال عمرو بن العاص،فعلت ذلك خشية أن يفطن بى . فقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، والله إنكم لستم بدار مقام . ولقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ووثب على جمله فما حل عقال يده إلا وهوقائم ، أى فإنه لما ركبه كان معقولا ،

فلما ضربه وثب على ثلاثة قوائم ، ثم حل عقاله . فقال له عكرمة بن أبى جهل : إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ، فاستحيا أبوسفيان وأناخ جمله وأخذ بزمامه وهو يقوده. وقال ارحلوا ، فجعل الناس يرحلون وهو قائم . ثم قال لعمرو بن العاص : يا أبا عبدالله نقيم فى جريدة من الخيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنا لانأمن أن نطلب ، فقال عمرو: أناأقيم، وقال لخالد بن الوليد : ماترى أباسليمان ؟ فقال : أنا أيضا أقيم،فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار جميع العسكر . قال حذيفة رضى الله عنه : ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىّ حين بعثنى أن لاأحدث شيئا لقتلته ؟ يعنى أبا سفيان بسهم ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاشتدوا راجعين إلى بلادهم » .

وفى رواية «فدخلت العسكر،فإذا الناس فى عسكرهم يقولون الرحيل الرحيل لامقام لكم والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم ، وتضربهم بالحجارة ، والريح لا تجاوز عسكرهم، فلما انتصفت الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارسا معتمين ، فخرج إلىّ منهم فارسان وقالا : أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم . قال حذيفة : ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته قائما يصلى فخبرته ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه » أى وفى رواية « فأخبرته الخبر فضحك حتى بدت ثناياه فى سواد الليل ، وعاودنى البرد ، فجعلت أقرقف ، فأومأ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فدنوت منه ، فسدل علىّ من فضل شملته فنمت ولم أزل نائما حتى الصبح» أى طلوع الفجر « فلما أن أصبحت » أى دخل وقت صلاة الصبح « وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يانومان : أى ياكثير النوم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما قال له : لابأس عليك من برد حتى ترجع إلىّ » .

أى ومن هذا أى إرسال حذيفة رضى الله عنه وما تقدّم : أى من إرسال الزبير رضى الله عنه تعلم أن ذلك كان فى الخندق ، ولا مانع منه ، لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم عدل عن إرسال الزبير ، واختار حذيفة لأمر قام عنده صلى الله عليه وسلم ،من جملة ذلك كون الزبير رضى الله عنه كان عنده حدة وشدة لايملك نفسه أن يحدث بالقوم مانهى عنه حذيفة رضى الله عنه ، وحينئذ يرد قول بعضهم إن الزبير إنما أرسل لكشف أمر بنى قريظة هل نقضوا العهد أم لا ؟ لا لكشف أمر قريش ، وحذيفة رضى الله عنه ذهب لكشف أمر قريش هل ارتحلوا أولا ، وقد اشتبه الأمر على بعض الناس فظنهما قضية واحدة فليتأمل ذلك . ...

وكان يقال لحذيفة رضى الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا يعلمه غيره . فقد قال حذيفة رضى الله عنه « لقد حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان وبما يكون حتى تقوم الساعة » أى وتقدم أن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقال له أيضا صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقدذكر ابن ظفرفى [ينبوع الحياة] فى تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) وهبت ريح الصبا ليلا ، فقلعت الأوتاد ، وألقت عليهم الأبنية ، وكفأت القدور ، وسفت عليهم التراب ، ورمتهم بالحصا ، وسمعوا فى أرجاء : أى نواحى معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح : أى من الملائكة ، فصار سيد كل حى يقول لقومه : يابنى فلان هلموا إلىّ ، فاذا اجتمعوا قال : النجاء النجاء ، فارتحلوا هرابا فى ليلتهم ، وتركوا مااستثقلوه من متاعهم . أى والصبا هى الريح الشرقية .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قالت الصبا للشمال : اذهبى بنا ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن الحرائر لاتهب بالليل ، فغضب الله عليها فجعلها عقيما ، ويقال لها الدبور . فكان نصره صلى الله عليه وسلم بالصبا . وكان إهلاك عاد بالدبور ، وهى الريح الغربية . وحين انجلاء الأحزاب قال صلى الله عليه وسلم « الآن نغزوهم ولا يغزونا » وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبع ليال من ذى القعدة ، أى بناء على أنها كانت فى القعدة وهو قول ابن سعد . وقيل كانت فى شوال وكان ذلك سنة خمس ، أى كما قاله الجمهور . قال الذهبى : وهو المقطوع به ، وقال ابن القيم : إنه الأصح . وقال الحافظ ابن حجر : هو المعتمد . وقيل سنة أربع ، وصححه الإمام النوى فى الروضة . قال بعضهم : وهوعجيب ، فإنه صحح أن غزوة بنى قريظة كانت فى الخامسة ، ومعلوم أنها كانت عقب الخندق .

أى وفيه أنه يجوز أن تكون بنو قريظة أوائل الخامسة ، والخندق أواخر الرابعة ، فتكون فى ذى الحجة . واستدل من قال إن الخندق كانت سنة أربع بما صح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه ، فيكون بينهما سنة واحدة ، أى وكانت سنة ثلاث ، فيكون الخندق سنة أربع .

قال الحافظ ابن حجر : ولا حجة فيه لاحتمال أن يكون ابن عمر رضى الله عنهما

فى أحد كان أول ماطعن فى الرابعة عشرة ، وكان فى الأحزاب قد استكمل الخمسة عشر ، وسبقه إلى ذلك البيهقى . وحينئذ يكون بين أحد والخندق سنتان كما هو الواقع لاسنة واحدة .

ومما وقع من الآيات فى هذه الغزوة فى مدة حفر الخندق غير ماتقدم : أن بنت بشير بن سعد جاءت لأبيها وخالها : أى عبدالله بن رواحة بجفنة من التمر ليتغذيا بها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاتيه ، فصبته فى كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأهما ، ثم أمر بثوب فبسطت له ، ثم قال لإنسان عنده : اصرخ فى أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه . وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب ؛ أى فإن أهل الخندق أصابهم مجاعة . قال بعض الصحابة : « لبثنا ثلاثة أيام لانذوق زادا ، وربط صلى الله عليه وسلم الحجر على بطنه من الجوع » .

أقول : أورد ابن حبان فى صحيحه لما أورد الحديث الذى فيه نهيه صلى الله عليه وسلم عن الوصال ، وقالوا له مالك تواصل يا رسول الله : قال « إنى لست مثلكم ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى » .

قال : يستدل بهذا الحديث على بطلان ماورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الحجر على بطنه من الجوع ، لأنه كان يطعم ويسقى من ربه إذا واصل ، فكيف يترك جائعا مع عدم الوصال حتى يحتاج إلى شد الحجر على بطنه . قال : وإنما لفظ الحديث الحجز بالزاى ، وهو طرف الإزار فصحفوا وزادوا لفظ « من الجوع » .

وأجيب بأنه لامنافاة ، كان صلى الله عليه وسلم يطعم ويسقى إذا واصل فى الصوم : أى يصير كالطاعم والساقى تكرمة له ، ولا يحصل له ذلك دائما ، بل يحصل له الجوع فى بعض الأحايين على وجه الابتلاء الذى يحصل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعظيما لثوابهم والله أعلم .

وإن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما لما علم مابه صلى الله عليه وسلم من شدة الجوع صنع شويهة وصاعا من شعير . قال جابر : وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده . فلما قلت له أمر صارخا ، فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبدالله . قال جابر : فقلت (إنا لله وإنا إليه راجعون) فأقبل الناس معه : أى بعضهم ، فجلس صلى الله عليه وسلم فأخرجناها إليه ، فبرك ثم سمى الله تعالى ، ثم أكل ، وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا ، أى وذهبوا إلى الخندق وجاء

آخرون ، حتى صدر أهل الخندق عنها وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو .

قال : وفى رواية « أن جابرا رضى الله تعالى عنه لما رأى مابه صلى الله عليه وسلم من الجوع استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الانصراف إلى بيته ، فأذن له . قال جابر : فجئت لامرأتى وقلت لها : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا أفعندك شئ ؟ قالت : عندى صاع من شعير وعناق ، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير وجعلت اللحم فى برمة ، فلما أمسينا ، جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررته وقلت له : طعيم لى ، فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان ، فشبك صلى الله عليه وسلم أصابعه فى أصابعى ، وقال : كم هو ؟ فذكرت له ، قال : كثير طيب ، لاتنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجىء ، وصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سؤارا » أى ضيافة « فحيهلا بكم : أى سيروا مسرعين ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس . قال جابر رضى الله عنه : فلقيت من الحياء مالا يعلمه إلا الله ، والله إنها لفضيحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادخلوا عشرة عشرة ، أى بعد أن أخرجت له عجيننا فبصق فيه وبارك ، ثم عمد صلى الله عليه وسلم إلى برمتنا وبصق فيها وبارك» الحديث . أى ومجىء القوم كان على الوجه المتقدم «وإن أم عامر الأشهلية أرسلت بقصعة فيها حيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى القبة عنده أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، فأكلت أم سلمة حاجتها ، ثم خرج بالقصعة ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلموا إلى عشائه ، فأكل أهل الخندق حتى نهلوا منها وهى كما هى » .

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله ونفعنا ببركاته أنه قدم لأربعة عشر رجلا من الفلاحين رغيفا واحدا ، فأكلوا منه كلهم وشبعوا ، قال: وقدمت مرة الطاجن الذى نعمله فى القرن إلى سبعة عشر نفسا فأكلوا منه وشبعوا . وذكر أنه شاهد شيخه الشيخ محمدا الشناوى رحمه الله ونفعنا ببركاته ، وقد جاء من الريف ومعه نحو خمسين رجلا ونزل بزاوية شيخه الشيخ محمد السروى ، فتسامع مجاورو الجامع الأزهر بمجيئه ، فأتوا لزيارته ، فامتلأت الزاوية ، وفرشوا الحصر فى الزقاق . ثم قال لنقيب شيخه : هل عندك طبيخ ؟ قال نعم ، الطبيخ الذى أفعله لى ولزوجتى ، فقال له : لاتغرف شيئا حتى

أحضر ، ثم غطى الشيخ الدست بردائه وأخذ المغرفة وصار يغرف إلى أن كفى من فى الزاوية ومن فى الزقاق ، وهذا شىء رأيته بعينى هذا كلامه .

ولا بدع . فقد ذكر غير واحد من العلماء كالحافظ ابن كثير أن كرامات الأولياء معجزات للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأن الولى إنما نال ذلك ببركة متابعته لنبيه وثواب إيمانه به ، وهذا كلامه .

قال : وأرسل أبو سفيان كتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : باسمك اللهم ، فإنى أحلف باللات والعزى أى وأساف ونائلة وهبل كما فى لفظ : لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبدا حتى أستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بالخندق : أى وفى لفظ ، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلا فرارا من سيوفنا ولقائنا ، ولك منى يوم كيوم أحد ، فأرسل له صلى الله عليه وسلم جوابه فيه : أما بعد ، أى بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب ، كذا فى كلام سبط بن الجوزى ، فقد أتانى كتابك ، وقديما غرك بالله الغرور . أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافا ونائلة وهبل ، حتى أذكرك ذلك ياسفيه بنى غالب انتهى .

غزوة بنى قريظة

وهم قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس ، وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ رضى الله عنه كما تقدم .

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وكان وقت الظهيرة ، أى وقد صلى الظهر ، ودخل بيت عائشة رضى الله عنها ، وقيل زينب بنت جحش رضى الله عنها ودعا بماء ، فبينما هو صلى الله عليه وسلم يغتسل : أى غسل شق رأسه الشريف ، وفى رواية بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغسل يرجل رأسه قد رجل أحد شقيه . أى وفى رواية : غسل رأسه واغتسل ودعا بالمجمرة ليتبخر أتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم معتجرا بعمامة : أى سوداء من استبرق ، وهو نوع من الديباج ، مرخيا منها بين كتفيه ، وفى رواية عليه لامته .

ولا معارضة ، لأنه يجوز أن يكون الاعتجار بالعمامة على تلك اللامة وهو على بغلة أى شهباء ، عليها قطيفة : وهى كساء له وبر من ديباج أى أحمر .

وفى رواية : جاءه على فرس أبلق ، فقال : أو قد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال : نعم ، قال جبريل عليه السلام : ماوضعت السلاح . وفى رواية : ماوضعت ملائكة الله السلاح بعد. قال: وفى رواية أنه قال: يارسول الله ما أسرع ماحللتم ، عذيرك من محارب. عفا الله عنك : أى من يعذرك . وفى لفظ : غفر الله لك ، أو قد وضعتم السلاح قبل أن تضعه الملائكة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال : فو الله ما وضعناه . وفى لفظ : ما وضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو ؛ ومارجعنا الآن إلا من طلب القوم يعنى الأحزاب حتى بلغنا الأسد انتهى : أى حمراء الأسد ، إن الله يأمرك يامحمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم ، زاد فى رواية : بمن معى من الملائكة ، فمزلزل بهم الحصون ، زاد فى رواية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فى أصحابى جهدا فلو نظرتهم أياما ، فقال جبريل عليه السلام : إنهض إليهم ، فو الله لأدقنهم كدق البيض على الصفا ، ولأدخلن فرسى هذا عليهم فى حصونهم ثم لأضعضعنها ، فأدبر جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار فى زقاق بنى غنم ، وهم طائفة من الأنصار .

وفى البخارى عن أنس ، قال : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعا فى زقاق بنى غنم ، موكب جبريل عليه السلام حين سار لبنى قريظة ، والموكب بكسر الكاف ؛ اسم لنوع من السير .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، بينا هو عندى إذ دق الباب ، أى وفى رواية : نادى مناد : أى فى موضع الجنائز : عذيرك من محارب [ ] أى من يعذرك ، فارتاع لذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أى فزع ، ووثب وثبة منكرة ، وخرج فخرجت فى أثره ، فإذا رجل على دابة والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم متكىء على معرفة الدابة يكلمه فرجعت ، فلما دخل قلت : من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟ قال : ورأيته ؟ قلت نعم ، قال : بمن تشبهينه ؟ قلت : بدحية الكلبى ، قال : ذاك بكسر الكاف جبريل عليه السلام ، أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة ، أى وهذا يؤيد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان عند منصرفه من الخندق

فى بيت عائشة ، وأبرز رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذنا : أى وهو بلال كما فى سيرة الحافظ الدمياطى ، فأذن فى الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر ، أى وفى رواية : الظهر إلا ببنى قريظة .

قال فى النور : والجمع بينهما أن الأمر بعد دخول وقت الظهر بالمدينة وقد صلى بعضهم دون بعض ، فقيل للذين لم يصلوا الظهر لا تصلوا الظهر إلا فى بنى قريظة ، وقيل للذين صلوها لاتصلوا العصر إلا فى بنى قريظة .

وفى رواية : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ مناديا ياخيل الله؟ أى يافرسان خيل الله اركبى . ثم سار إليهم قال ، وقد لبس صلى الله عليه وسلم السلاح الدرع والمغفر والبيضة ، وأخذ قناة بيده الشريفة ، وتقلد السيف ، وركب فرسه اللحيف بالضم ، وقيل ركب حماراً وهو اليعفور عريانا ، والناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل ، وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ستة وثلاثون فرسا ، له صلى الله عليه وسلم منها ثلاثة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه . وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه برايته إلى بنى قريظة .

أى وفى رواية دفع إليه لواءه ، وكان اللواء على حاله لم يحل من مرجعه من الخندق ، ومر صلى الله عليه وسلم بنفر من بنى النجار قد لبسوا السلاح . فقال : هل مرّ بكم أحد قالوا : نعم ، دحية الكلبى مرّ على بغلة بيضاء .

أى وفى رواية : على فرس أبيض عليه اللامة ، وأمرنا بحمل السلاح ، وقال لنا : رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع عليكم الآن فلبسنا سلاحنا وصففنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك جبريل عليه السلام ، بعث إلى بنى قريظة ليزلزل حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم .

فلما دنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه من الحصن ، أى ومعه نفر من المهاجرين والأنصار ، وغرز اللواء عند أصل الحصن ، سمع من بنى قريظة مقالة قبيحة فى حقه صلى الله عليه وسلم أى وحق أزواجه ، أى فسكت المسلمون وقالوا : السيف بيننا وبينكم ، فلما رأى على كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا أمر أبا قتادة الأنصارى رضى الله عنه أن يلزم اللواء ، ورجع إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله لاعليك أن لاتدنو من هؤلاء الأخابث . قال : لعلك سمعت منهم لى أذى ، قال نعم يا رسول الله. قال لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم : قال يا إخوان القردة هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته ؟ قال : وفى رواية نادى بأعلى صوته نفرا من أشرافهم حتى أسمعهم وقال : أجيبوا يا إخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت : أى وهو ماعبد من دون الله كما تقدم ، هل أخزاكم الله ، وأنزل بكم نقمته ؟ أتشتموني ، فجعلوا يحلفون ويقولون ماقلنا ويقولون : يا أبا القاسم ماكنت جهولا ، أى وفى لفظ : ماكنت فاحشا . وفى رواية : تقدمه صلى الله عليه وسلم إلى يهود أسيد بن حضير رضى الله عنه ، فقال لهم : يا أعداء الله لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر ، فقالوا : يا ابن الحضير نحن مواليك وخاروا : أى خافوا ، قال : لاعهد بينى وبينكم . وتقدم أسيد إلى بنى قريظة يجوز أن يكون قبل مقدم على لهم ، ويجوز أن يكون بعده .

وإنما قال لهم : يا إخوان القردة والخنازير ، لأن اليهود مسخ شبانهم قردة وشيوخهم خنازير عند اعتدائهم يوم السبت بصيد السمك ، وقد حرم عليهم ذلك كسائر الأعمال . وقد أمرهم أن يتفرغوا لعبادة ربهم فى ذلك اليوم ، وكان ذلك فى زمن داود عليه السلام فلما مسخوا خرجوا من تلك القرية هائمين على وجوههم متحيرين ، فمشوا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون ، ثم ماتوا ، وهذا دليل لمن يقول إن الممسوخ لايعيش أكثر من ثلاثة أيام ولم يحصل منه توالد ولا تناسل .

وفى الكشاف : قيل إن أهل أيلة : أى وهى قرية بين مصر ومدين لما اعتدوا فى السبت قال داود عليه الصلاة والسلام : اللهم العنهم واجعلهم للناس آية ، فمسخوا قردة .

ولما كفر أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام بعد المائدة ، قال عيسى : اللهم عذب من كفر بعد ماأكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت ، فأصبحوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل مافيهم امرأة ولا صبى . هـذا كلامه فليتأمل ، فمكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون فماتوا .

ثم إن جماعة من الصحابة شغلهم مالم يكن لهم منه بد عن المسير لبنى قريظة ليصلوا بها العصر ، فأخروا صلاة العصر إلى أن جاءوا بعد عشاء الآخرة ، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « لا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » فصلوا العصر بها بعد عشاء الآخرة . أى وبعضهم قال : نصلى ، ما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها ، وإنما أراد الحث على الإسراع فصلوها فى أماكنهم ، ثم ساروا [ ] فما عابهم الله فى كتابه ولا عنفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لأن كلا من الفريقين تأول .

قال فى الهدى : كل من الفريقين مأجور بقصده ، إلا أن من صلى حاز الفضيلتين ولم يعنف الذين أخروها لقيام عذرهم فى التمسك بظاهر الأمر ، وهو دليل على أن كل مختلفين فى الفروع من المجتهدين مصيب .

وادعى ابن التين رحمه الله أن الذين صلوا العصر صلوها على ظهور دوابهم . قال لأنهم لو صلوا نزولا لكان مضادة لما أمروا به من الإسراع ، ولا يظن ذلك مع تقرب أفهامهم .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وفيه نظر ، لأنه لم يأمرهم بترك النزول ، ولم أر أنهم صلوا ركبانا فى شئ من طرق القصة . والتعليل بالإسراع يقتضى أنهم صلوا على ظهور دوابهم سائرة لا واقفة .

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة . وقيل خمسة عشر يوما ، أى وقيل شهرا ، وكان طعام الصحابة التمر يرســل به إليهم سعد بن عبادة رضى الله عنه : أى يجاء به من عنده . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ « نعم الطعام التمر » [ ] حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وكان حيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة حصنهم حين رجعت الأحزاب وفاء لكعب بما كان عاهده عليه ، أى كما تقدم ، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم أى يقاتلهم . قال كبيرهم كعب بن أسيد : يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا أيها شئتم ، قالوا وما هى ؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم وأبنائكم . قال : وزاد فى لفظ آخر : وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بنى إسرائيل ، ولقد كنت كارها لنقض العهد ، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس ، يعنى حيى بن أخطب ، أتذكرون ماقال لكم ابن خراش حين قدم عليكم ؟ إنه يخرج بهذه القرية نبى فاتبعوه وكونوا له أنصارا ، وتكونوا آمنتم بالكتابين الأول والآخر اه أى التوراة والقرآن .

أى وكانت يهود بنى قريظة يدرسون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ويعلمون الولدان صفته ، وأن مهاجره المدينة .

وفيه عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : كانت يهود بنى قريظة وبنى النضير وفدك

وخيبر يجدون صفة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وأن دار هجرته المدينة ، ولما قال لهم كعب ذلك ، قالوا : لانفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره . قال كعب : فإذا أبيتم على هذه ، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ، ولم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا : أى ولدا يخشى عليه ، وإن نظفر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟ قال فإن أبيتم على هـذه ، فإن الليلة ليلة السبت وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة : أى غفلة ، فقالوا : نفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت وأصابه مالم يخف عليك من المسخ . قال : وقال لهم عمرو بن سعد: قد خالفتم محمدا فيما حالفتموه : أى عاهدتموه عليه . ولم أشرككم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية ، وأعطوا الجزية ، فوالله ماأدرى يقبلها أم لا ؟ قالوا : نحن لانقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك . قال فإنى برىء منكم ، وخرج فى تلك الليلة ، فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مسلمة ، فقال محمد بن مسلمة : من هذا ؟ قال عمرو بن سعدى ، قال مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام وخلى سبيله ، وبعد ذلك لم يدر أين هو ؟ وقيل وجدت رمته ؟ وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ، فقال : ذلك رجل نجاه الله بوفاته .

وفى لفظ أنه قال لهم قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم لحصارهم : يا بنى قريظة لقد رأيت عبرا ، رأيت دار إخواننا يعنى بنى النضير خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف والرأى الفاضل والعقل ، تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل ، لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط ولله بهم حاجة . وقد أوقع ببنى قينقاع ، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكلم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب ، يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدا فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى ، وقد بشرنا به علماؤنا . ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبى والجلاء ، ثم أقبل على كعب بن أسيد ، وقال : والتوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام يوم طورسيناء إنه للعز والشرف فى الدنيا .

فبينما هم على ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبي صلى الله عليه وسلم قد حلت بساحتهم ،

فقال : هذا الذى قلت لكم ، أى وبعد الحصار قيل أرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية . فأرسلوه ثانيا بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاد نباش إليهم بذلك اهـ . ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث إلينا أبا لبابة أى وهو رفاعة بن المنذر لنستشيره فى أمرنا ، أى لأنه كان من حلفاء الأوس وبنو قريظة منهم .

وفى لفظ : وكان أبو لبابة مناصحا لهم ، لأن ماله وولده وعياله كانت فى بنى قريظة فأرسله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش : أى أسرع إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه من شدة المحاصرة وتشتيت مالهم ، فرّق لهم وقال : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : أى إنه الذبح .

أى وفى لفظ : ما ترى ، إن محمدا قد أبى أن لا ننزل إلا على حكمه ، قال . فانزلوا وأومأ إلى حلقه .

ويروى أنهم قالوا له : ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ ، فأومأ أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا . قالوا أبو لبابة رضى الله عنه فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ، أى لأن فى ذلك تنفيرا لهم عن الانقياد له صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم أنزل الله فيه (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) الآية : أى وقيل نزل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) الآية ، وهذا أثبت من الأوّل ، وقد يقال : كلاهما نزل فيه تلك الآية فى توجه اللوم عليه ، وهذه فى توبته .

لا يقال : هى ليست نصا فى توبة الله عليه . لأنا نقول : الترجى فى حقه تعالى أمر محقق .

وعن أبى لبابة رضى الله عنه : لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يرسلنى إليهم ، دعانى قال : اذهب إلى حلفائك ، فإنهم أرسلوا إليك من بين

الأوس ، فذهبت إليهم ، فقام كعب بن أسيد فقال : يا أبا بشير قد عرفت ما بيننا . وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ، ومحمد لايفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ، ولم نطأ له أرضا ، ولم نكثر عليه جمعا أبدا ، أما ترى قد اخترناك على غيرك ، أننزل على حكم محمد ؟ قال أبو لبابة نعم فانزلوا ، وأومأ إلى حلقه بالذبح . قال : فندمت واسترجعت ، فقال لى كعب : مالك يا أبا لبابة ؟ فقلت : خنت الله ورسوله ، فنزلت وإن عينى لتسيل من الدموع . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، فلم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده : أى وهى السارية ، ويقال لها الأسطوانة : وهى التى كانت عند باب أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فى حر شديد ، وقيل الأسطوانة المخلقة التى يقال لها أسطوانة التوبة ، والأول أثبت ، وكانت تلك الأسطوانة أكثر تنفله صلى الله عليه وسلم عندها ، وكان ينصرف إليها من صلاة الصبح ، فكان يستبق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجىء إليهم صلى الله عليه وسلم ويتلو عليهم ما أنزل من ليلته ويحدثهم ويحدثونه ، وكان ارتباطه بسلسلة ربوض أى ثقيلة . وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ مما صنعت ، وعاهد الله أن لا يطأ بنى قريظة أبدا ، ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله فيه أبدا ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وكان استبطأه . قال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل مافعل ، فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه .

هذا ، وفى كلام البيهقى وأورده فى الدر أن ارتباطه إنما كان لتخلفه عن تبوك . فقد ذكر أنه لما أشار بيده إلى حلقه وأخبر عنه صلى الله عليه وسلم بذلك ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسبت أن الله غفل عن يدك حيث تشير إليهم بها إلى حلقك ، فلبث حينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عاتب عليه . ثم لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك كان أبو لبابة فيمن تخلف ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رجع جاءه أبو لبابة يسلم عليه ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففزع أبو لبابة وارتبط بالسارية .

واستغرب ذلك بعضهم ، فقال : وأغرب من ادعى أن أبا لبابة إنما فعل ذلك لتخلفه عن غزوة تبوك .

ثم إن بنى قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بهم فكتفوا

وجعلوا ناحية ، وكانوا ستمائة ، وقيل سبعمائة وخمسين مقاتلا ، وهو الذى تقدم عن حيى ابن خطب .

ولا يخالف هذا ما قيل إنهم كانوا بين الثمانمائة والسبعمائة . وقيل كانوا أربعمائة مقاتل .

ولا يخالف ما قبله ، لأنه يجوز أن يكون ما زاد على ذلك كانوا أتباعا لايعدون ، وأخرج النساء والذرارى من الحصون وجعلوا ناحية : أى وكانوا ألفا . واستعمل عليهم عبد الله بن سلام فتواثب الأوس ، وقالوا : يارسول الله موالينا وحلفاؤنا ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد فعلت ، يعنون بنى قينقاع ، لأنهم كانوا حلفاء الخزرج ، ومن الخزرج عبد الله بن أبىّ ابن سلول . وقد نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كلمه فيهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، فوهبهم له على أن يجلوا كما تقدم ، أى فظنت الأوس من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهب لهم بنى قريظة كما وهب بنى قينقاع للخزرج ، فلما كلمته الأوس أبى أن يفعل ببنى قريظة ما فعل ببنى قينقاع . ثم قال لهم : أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؛ قالوا بلى ، فقال : فذلك إلى سعد بن معاذ ، أى وقيل إنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : اختاروا من شئتم من أصحابى ، فاختاروا سعد بن معاذ ، أى وهو رضى الله عنه سيد الأوس حينئذ كما تقدم . وقيل إنهم قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فرضى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وكان سعد بن معاذ رضى الله عنه يومئذ فى المسجد فى خيمة رفيدة رضى الله عنها ، وقد كان صلى الله عليه وسلم قال لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم بالخندق ، اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قرب ، أى لأن رفيدة رضى الله عنها كان لها خيمة فى المسجد تداوى فيها الجرحى من الصحابة ممن لم يكن له من يقوم عليه ، فأتاه قومه فحملوه على حمار ؛ ثم أقبلوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون له : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فأحسن فيهم ، فقد رأيت ابن أبىّ وماصنع فى حلفائه ، وهو ساكت ، فلما أكثروا عليه ، قال رضى الله عنه لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فقال بعضهم واقوماه .

فلما انتهى سعد رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين وهم حوله جلوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا إلى سيدكم » أى زاد فى رواية

« فانزلوه » فقال عمر رضى الله عنه : السيد هو الله . وفى رواية « إلى خيركم » أى معاشر المسلمين من المهاجرين والأنصار » أو معاشر الأنصار ، فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم . وفى رواية : فقمنا صفين يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحكم فيهم يا سعد ، فقال : الله ورسوله أحق بالحكم . قال قد أمرك الله أن تحكم فيهم ، فقال سعد : أى لمن فى الناحية التى ليس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت . قالوا نعم . قال : وعلى من ههنا مثل ذلك ، وأشار إلى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أى وفى لفظ : فقال سعد لبنى قريظة : أترضون بحكمى ، قالوا نعم . فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وفى لفظ : أن يقتل كل من جرت عليه الموسى ، وتغنم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، زاد بعضهم : وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار ، إخواننا يعنون المهاجرين لنا معهم ، فقال : إنى أحببت أن يستغنوا عنكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » أى السموات السبع ، قيل سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .

وجاء فى الصحيح « من فوق سبع سموات» والمراد أن شأن هذا الحكم العلوّ والرفعة « قد طرقنى بذلك الملك سحرا » .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يجمع ما وجد فى حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع ، فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلثمائة درع ، وألفى رمح ، وخمسمائة ترس وحجفة ووجد أثاثا كثيرا ، وآنية كثيرة ، وأجمالا نواضح : أى يستقى عليها الماء ، وماشية وشياها كثيرة ، وخمس ذلك : أى مع النخل والسبى حتى الرثة : وهو السقط من أمتعة البيت خمسة أجزاء ، ففضّ أربعة أسهم على الناس . فجعل للفارس ثلاثة أسهم ، أى سهم له وسهمان لفرسه ، والراجل سهما . قال بعضهم : وهو أوّل فىء وقعت فيه السهام . ورضخ للنساء اللاتى حضرن القتال ، وهنّ صفية عمته صلى الله عليه وسلم ، وأم عمارة ، وأم سليط ، وأم العلاء ، والسميراء بنت قيس ، وأم سعد بن معاذ ، وكبشة بنت رافع

ولم يسهم لمن ، وأخذ هو صلى الله عليه وسلم جزءا وهو الخمس . وعبارة بعضهم : وهو أول فىء وقعت فيه السهمان ، وخمس : أى جزئ خمسة أجزاء ، وكتب فى سهم لله ، ثم أخذ ذلك السهم للذى خرج عليه وعلى سنته مضت قسمة الغنائم .

وفى كون هذا أول فىء جرت فيه السهمان نظر ، إنما كان ذلك فى بنى قينقاع ، فان الفىء الحاصل منهم خمس خمسة أخماس ، أخذ صلى الله عليه وسلم واحدا ، والأربعة لأصحابه : أى ووجد جرار خمر فأهريق ولم يخمس ، وهذا يدل على أن الخمر كانت محرمة قبل ذلك .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأسارى أن يكونوا فى دار أسامة بن زيد رضى الله عنهما ، والنساء والذرية فى دار ابنة الحرث النجارية ، أى لأن تلك الدار كانت معدودة لنزول الوفود من العرب .

وقيل فى دار كيشة بنت الحرث بن كريز ، كانت تحت مسيلمة الكذاب ثم خلف عليها عبد الله بن عامر بن كريز ، وهذه إنما نزل فى دارها وفد بنى حنيفة كما سيأتى وبالمتاع أن يحمل ، وترك المواشى هناك ترعى الشجر .

ثم غدا صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم خرج إلى سوق المدينة فخندق فيها خنادق : أى حفر فيها حفائر . ثم أمر بقتل كل من أنبت ، فبعث إليهم فجاءوا إليه أرسالا ، تضرب أعناقهم ويلقون فى تلك الخنادق . وقد قال بعضهم لسيدهم كعب بن أسيد : يا كعب ماتراه يصنع بنا ؟ قال : فى كل موطن لا تعقلون ، أما ترون أن من ذهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم على قالوا ليس حين عتاب ، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أى وذلك ليلا على شعل السعف .

ثم رد عليهم التراب فى تلك الخنادق ، وعند قتلهم صاحت نساؤهم ، وشقت جيوبها ، ونشرت شعورها ، وضربت خدودها ، وملأت المدينة نواحا .

وكان من جملة من أتى معهم عدو الله حيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟ قال بل ، أبى الله إلا تمكينك منى ، أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذله الله يخذل .

وفى كلام السهيلى رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم لما قال له : ألم يمكن الله منك . فقال بلى ، ولقد قلقنا كل مقلقل ، ولكنه من يخذلك يخذل . فقوله يخذلك كقول الآخر فى البيت : * ولكنه من يخذل الله يخذل * لأنه إنما نظم فى البيت كلام حيى .

ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة . أى قتال كتب الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . قال : ولما أتى بكعب ابن أسد سيد بنى قريظة ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياكعب ، قال نعم يا أبا القاسم ، قال: ما انتفعتم بنصح بن خراش لكم ، وكان مصدقا بى، أما أمركم باتباعى وإن رأيتمونى تقرءونى منه السلام . قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيرنى يهود بالجزع من السيف لاتبعتك ، ولكنه على دين يهود . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقدم فيضرب عنقه ففعل به ذلك . أى وكان المتولى لقتلهم علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، والزبير بن العوام رضى الله عنه .

أقول : فى الإمتاع : وجاء سعد بن عبادة ، والحباب بن المنذر . فقالا : يارسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم ، فقال سعد بن معاذ رضى الله عنه : ما كرهه أحد من الأوس فيه خير ، فمن كرهه فلا أرضاه الله ، فقام أسيد بن حضير ، فقال : يا رسول الله لا تبق دارا من دور الأوس إلا فرقتهم فيها ، ففرقهم فى دور الأنصار فقتلوهم هذا كلامه . والضمير فى قتلوهم ظاهر فى رجوعه للأوس ، وأنهم المراد بالأنصار .

وقد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون المراد بالأوس الذين كرهوا ذلك طائفة منهم ، وأن تلك الطائفة قتلوا من بعث به إلى دورهم ، وما عدا ذلك تعاطى قتله علىّ والزبير والله أعلم .

ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة أخرجت من بين النساء يقال لها نباتة ، وقيل مزنة ، كانت طرحت رحى على خلاد بن سويد رضى الله عنه فقتلته بارشاد زوجها ، لأنه أحب أن لا تبقى بعده فيتزوجها غيره .

وقد أسهم صلى الله عليه وسلم لخلاد بن سويد هذا ، وقال : إن له أجر شهيدين ، وأسهم لسنان بن محصن ، وقد مات فى زمن الحصار .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يقتل من نسائهم يعنى بنى قريظة إلا امرأة

واحدة ، قالت : والله إنها لعندى تتحدث معى وتضحك ظهرا وبطنا ، أى وكانت جارية حلوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجلها فى السوق ، أى لأنها دخلت على عائشة ، وبنو قريظة يقتلون . إذ هتف هاتف باسمها أين نباتة ، قالت : أنا والله ؛ قالت عائشة : فقلت لها ، ويلك مالك ؟ قالت : أقتل قلت : ولم؟ قالت: لحدث أحدثته ، أى وفى لفظ قتلنى زوجى . فقالت لها عائشة : كيف قتلك زوجك ، قالت : أمرنى أن ألقى رحى على أصحاب محمد كانوا تحت الحصن مستظلين فى فيئة ، فأدركت خلاد بن سويد فشدخت رأسه فمات وأنا أقتل به .

وفى لفظ آخر : إنى كنت زوجة رجل من بنى قريظة،وكان بينى وبينه كأشد مايتحاب الزوجان ، فلما اشتد أمر المحاصرة ، قلت لزوجى : ياحسرتى على أيام الوصال ، كادت أن تنقضى وتتبدل بليالى الفراق وماأصنع بالحياة بعدك ؟ فقال زوجى : إنك صادقة فى دعوى المحبة ، تعالى فإن جماعة من المسلمين جالسون فى ظل حصن . قال الزبير بن بطا وهو بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة فألقى عليهم حجر الرحا لعله يصيب واحدا منهم فيقتله ، فإن ظفروا بنا فإنهم يقتلونك بذلك ففعلت ، قالت : فانطلق بها فضرب عنقها فكانت عائشة رضى الله عنها تقول : والله ماألقى عجبا منها ، طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .

وكان فى بنى قريظة الزبير بن بطا ، وهو جد الزبير بن ابنه عبد الرحمن ، وهو بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة كإسم جده . وقيل بضم الزاى وفتح المثناة ، وهو قول البخارى فى التاريخ ، وكان شيخا كبيرا ، وكان قد من على ثابت بن قيس فى الجاهلية يوم بغاث ، وهى حرب التى كانت بين الأوس والخزرج قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان الظفر فيها للأوس على الخزرج آخرا كما تقدم أخذه فجز ناصيته ، ثم خلى سبيله ، فجاء ثابت رضى الله عنه للزبير ، فقال له : ياأبا عبد الرحمن هل تعرفنى ؟ قال : فهل يجهل مثلى مثلك ، قال : إنى أردت أن أجزيك بيدك عندى ، قال : إن الكريم يجزى الكريم ، وأحوج ما كنت إليك اليوم . وعبد الرحمن هذا هو الذى تزوج امرأة رفاعة وشكته للنبى صلى الله عليه وسلم بأن الذى معه كهدبة الثوب وأحبت طلاقه لها .

ثم أتى ثابت رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنه كان للزبير على منة ، وقد أحببت أن أجزيه بها ، فهب لى دمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : هولك فأتاه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دمك فهولك فقال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ قال ثابت : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يارسول الله بأبى أنت وأمى امرأته وولده ، فقال : هم لك ، قال: فأتيته ، فقلت : قد وهب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك ، فقال : أهل بيت بالحجاز لامال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك ؟ قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ماله ، قال : هو لك ، فأتيته فقلت له : قد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك فهو لك ، فقال : أى ثابت ، أما أنت فقد كافأتنى ، وقد قضيت الذى عليك ، مافعل بالذى كان وجهه مرآة مضيئة تتراءى منها عذارى الحى كعب بن أسد؟ أى سيد بنى قريظة ، قلت قتل ، قال : فما فعل بسيد الحاضر والبادى : أى من يحملهم فى الجدب ، ويطعمهم فى المحل حيى بن أخطب؟ قلت قتل. قال : فما فعل بمقدمتنا ، بكسر الدال مشددة ، إذا شددنا ، وحامينا إذا فررنا عزال بالعين المهملة وتشديد الزاى ابن سموأل بالسين المهملة مفتوحة ومكسورة ؟ قلت قتل ، قال : فما فعل المجلسان بكسر اللام : محل الجلوس وبفتحها المصدر ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ، قلت قتلا ، وفى لفظ قتلوا . قال : فإنى أسألك ياثابت بيدك عندى إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله مابالعيش بعد هؤلاء من خير ، أأرجع إلى دار قد كانوا حلولا فيها فأخلد فيها بعدهم ، لاحاجة لى ، فما أنا بصابر ، لله إفراغة دلو ناضح : أى مقدار الزمن الذى يفرغ فيه ماء الدلو. وفى رواية: فتلة دلو ناضح بالفاء والتاء المثناة فوق ، وقيل بالقاف والباء الموحدة : أى مقدار ما يتناول المستسقى للدلو حتى ألتى الأحبة . قال ثابت : فقدمته فضربت عنقه .

أى وقيل إن ثابتا رضى الله عنه قال له ماكنت لأقتلك ، فقال : لا أبالى من قتلنى ، فقتله الزبير بن العوام رضى الله عنه .

ولما بلغ أبا بكر رضى الله عنه مقالته : ألتى الأحبة ، قال : يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا .

قال فى الأصل : وذكر أبو عبيدة هذا الخبر ، وفيه « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك أهله وماله إن أسلم » أى ولم يسلم ، فكان أهله وماله من جملة الفىء ، وكان القتل لكل من أنبت ومن لم ينبت يكون فى السبى .

قال عطية القرظى رضى الله عنه كنت غلاما فوجدنى لم أنبت فخلوا سبيلى ، أى عن

القتل ، وكان رفاعة قد أنبت فأرادوا قتله ، فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر ، وكانت إحدى خالاته صلى الله عليه وسلم : أى خالات جده عبد المطلب ، لأنها من بنى النجار ، فقالت بأبى وأمى يا رسول الله هب لى رفاعة ، فوهبه لها ، أى فأسلم .

وقرت عين سعد بن معاذ رضى الله عنه بقتل بنى قريظة حيث استجاب الله دعوته ، فإنه سأل الله تعالى لما أصيب بالسهم فى الخندق ، وقال : لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة كما تقدم .

أي وفى بعض الروايات أن دعاءه رضى الله عنه بذلك ، كان فى الليلة التى فى صبيحتها نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما تقدم عن بعض الروايات .

أى ويجوز أن يكون رضى الله عنه دعا بذلك مرتين ، وفى لفظ فدعا الله أن لا يميته حتى يشفى صدره من بنى قريظة .

ويمكن أن يكون صاحب الهمزية رحمه الله أشار إلى سب بنى قريظة له صلى الله عليه وسلم ، ونهى بعض أشرافهم لهم عن نقضهم العهد الذى كان بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم ، الذى سببه حيى بن خطب لعنه الله ، واغترارهم بالأحزاب بقوله :

وتعدوا إلى النبى حدودا ... كان فيها عليهم العدواء
واطمأنوا بقول الأحزاب إخوا ... نهم إننا لكم أولياء
وبيوم الأحزاب إذ زاغت الـ ... أبصار فيه وضلت الآراء
وتعاطوا فى أحمد منكر القو ... ل ونطق الأراذل العوراء
كل رجس يزيده الخلق السو ... ء سفاها والملة العوجاء
فانظروا كيف كان عاقبة القو ... م وما ساق للبذىّ البذاء
وجد السب فيه سما ولم يد ... ر إذ الميم فى مواضع باء
كان من فيه قتله بيديه ... فهو من سوء فعله الزباء
أو هو النحل قرصها يجلب الحتـ ... ف إليها وماله إنكاء

أى ولما انقضى شأن بنى قريظة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم » فكان كذلك وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك بعد انقضاء الأحزاب . وانفجر جرح سعد بن معاذ ، أى الذى فى يده وسال الدم واحتضنه صلى الله عليه وسلم فجعلت الدماء تسيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فمات منه وحمل إلى منزله ولم يعلم صلى الله عليه وسلم بموته ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم من الليل معتجرا بعمامة من إستبرق ، فقال : يا محمد من هذا العبد الصالح ، وفي لفظ : من هذا الميت التي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ وفي رواية عرش الرحمن : أي فتحت أبواب السماء لصعود روحه ، واهتز العرش : أي تحرك فرحا بذلك . وقال النووي : اهتزاز العرش هو فرح الملائكة بقدوم روحه .

وفيه أن هذا لايحتاج إليه إلا لو كان تحرك العرش مستحيلا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا يجرثو به إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات .

وعن سلمة بن أسلم بن حريش رضي الله عنه . قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في البيت أحد إلا سعدا مسجىً ، فرأيته يتخطى وأومأ صلى الله عليه وسلم إلى قف ، فوقفت ورددت من ورائي وجلس صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم خرج فقلت : يارسول الله ما رأيت أحدا ورأيتك تتخطى ، فقال : ما قدرت على مجلس حتى قبض لي ملك من الملائكة أحد جناحيه » .

أقول : قد وقع له صلى الله عليه وسلم نظير ذلك عند تشييعه لجنازة ثعلبة بن عبدالرحمن الأنصاري رضي الله عنه ، فإنه صار يمشي على أطراف أنامله ، فلما دفن قيل : يارسول الله رأيناك تمشي على أطراف أناملك ، قال : والذي بعثني بالحق ما قدرت أن أضع قدمي من كثرة ما نزل من الملائكة لتشييعه ، وقصته مذكورة في السيرة الشامية .

ولما حملوا نعش سعد رضي الله عنه ، وكان جسيما وجدوا له خفة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن له حملة غيركم ؛ أي من الملائكة ؛ لقد نزل سبعون ألف ملك شهدوا سعدا : أي جنازته ؛ ومنهم جملة ماوطئوا الأرض إلا يومهم هذا .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . قال : كنت ممن حفر لسعد رضي الله عنه قبره ؛ فكان يفوح علينا المسك ؛ كلما حفرنا قبره من تراب .

وجاء « لو كان أحد ناجيا من ضمة القبر لنجا منها سعد ضم ضمة ؛ ثم فرج الله عنه » وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ قال « لما دفن سعد رضي الله عنه ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبح الناس معه ؛ ثم كبر فكبر الناس معه ؛ فقالوا : يارسول الله لم سبحت ؛ أي وكبرت ؟ قال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه » .

وجاء « إن بعض أهل سعد رضى الله عنه سئل : مابلغكم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى فى سبب تضايق القبر على سعد كما يرشد إليه جوابهم بقولهم، فقالوا : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك ، فقال : كان يقصر فى بعض الطهور من البول بعض التقصير » وهذا قد يخالف مافى الخصائص الصغرى : وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لايضغط فى قبره وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يسلم من الضغطة صالح ولا غيره سواهم ، وكذا مافى التذكرة للقرطبى إلا فاطمة بنت أسد ببركته صلى الله عليه وسلم ، أى حيث اضطجع صلى الله عليه وسلم فى قبرها . ويحتاج للجمع بينه وبين مافى الخصائص .

وجاء عن عائشة رضى الله عنها « أنها قالت : يارسول الله ماانتفعت بشىء منذ سمعتك تذكر ضغطة القبر وضمته ، فقال : ياعائشة إن ضغطة القبر على المؤمن كضمة الأم الشفيقة يديها على رأس ابنها يشكو إليها الصداع ، وضرب منكر ونكير عليه كالكحل فى العين ، ولكن ياعائشة ويل للشاكين الكافرين ، أولئك الذين يضغطون فى قبورهم ضغطا يقبض على الصخر » أى وحينئذ يكون المراد بالمؤمن الذى هذا شأنه الذى لم يحصل منه تقصير . فلا فلا ينافى ما تقدم عن سعد فليتأمل . وقد روى البيهقى رحمه الله « أنه صلى الله عليه وسلم حمل جنازة سعد بن معاذ رضى الله عنه بين العمودين » وبه استدل أئمتنا على أن ذلك أفضل من حمل الجنازة بالتربيع الذى اعتاده الناس الآن « ومشى صلى الله عليه وسلم أمام جنازته ، ثم صلى عليه . وجاءت أمه رضى الله عنها ونظرت إليه فى اللحد ، وقالت : أحتسبك عند الله ؛ وعزاها رسول الله وهو واقف على قدميه على القبر ، فلما سوى التراب على قبره رش عليه الماء ، ثم وقف صلى الله عليه وسلم ودعا ثم انصرف وناحت عليه أمه ، فقال صلى الله عليه وسلم : كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ رضى الله عنه » . أى فإنه رضى الله عنه موصوف بكل ما يقال فيه من الأوصاف الحسنة ، بخلاف غيره .

وبعث صاحب دومة الجندل إلى رسول الله بجبة من سندس كما سيأتى ، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم يعجبون من تلك الجبة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن » يعنى من هذا ، ومن المعلوم أن المنديل أدنى الثياب ، لأنه معد للامتهان ، فثيابه رضى الله عنه فى الجنة أعلى وأغلى . وقد

وهب صلى الله عليه وسلم تلك الجبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ونزلت توبة أبي لبابة رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة رضى الله عنها . قالت أم سلمة : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السحر يضحك . قالت : فقلت مم تضحك يارسول الله أضحك الله سنك؟ قال : تيب على أبي لبابة . قالت : قلت أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال بلى إن شئت ، فقامت على باب حجرتها . قيل وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب وهو لا يناسب ما تقدم فى قصة الإفك ، فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، قال : فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده الشريفة .

وقيل المبشر له عائشة رضى الله تعالى عنها ، فلما مر صلى الله عليه وسلم على أبي لبابة خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وجاء أن فاطمة رضى الله عنها أرادت إطلاقه فأبى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فاطمة بضعة منى » أى وظاهر هذا أنه رضى الله عنه كان يبر بإطلاق سيدتنا فاطمة رضى الله عنها له فليتأمل .

وقد أقام مربوطا ست ليالى أى أو سبع ليال . وقيل سبع عشرة ليلة . وقيل خمس عشرة ليلة ، وعليه اقتصر فى الإمتاع ، وكانت تأتيه امرأته أو بنته فى وقت كل صلاة فتحله للصلاة وكذا إذا أراد حاجة الإنسان ، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره ، ولا مانع أن امرأته وبنته كانتا تتناوبان فى ذلك .

أى وجاء أنه رضى الله عنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم « من تمام توبتى أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب » وفيه أنه تقدم أنه عاهد الله على ذلك « قال : وأن انخلع من مالى ، فقال له عليه الصلاة والسلام : يجزيك الثلث أن تتصدق به » أى ولم يأمره صلى الله عليه وسلم أن يهجر تلك الدار . والجمع بينه وبين ما تقدم من أنه عاهد الله أن لا يطأ تلك الدار ممكن .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصارى بسبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع لهم بهم خيلا وسلاحا . قال : وفى لفظ بعث سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا يبيعهم ويشترى بهم سلاحا وخيلا . أى فاشترى بذلك خيلا كثيرا قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، واشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما

جملة من السبايا ، فجعلت تلك الجملة من السبايا قسمين ، جعلت الشوابّ على حدة ، وجعلت العجائز على حدة ثم خير عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفان ، فأخذ العجائز ، وأخذ عبد الرحمن الشواب ، وجعل عثمان رضى الله عنه على كل واحدة منهن شيئا إن أتت به عتقت ، فكان المال يوجد عند العجائز ولا يوجد عند الشواب فربح عثمان مالا كثيرا.
أقول : ويحتاج إلى الجمع .

وقد يقال: إن كان المراد بالسبايا فى قصة سعد بن عبادة وعثمان وعبد الرحمن سبايا بنى قريظة ، فيكون قسموا ثلاثة أقسام : قسم أعطى لسعد بن زيد ، وقسم أعطى لسعد بن عبادة ، وقسم اشتراه عثمان وعبد الرحمن ، ووقع الفداء فى سبايا بنى قريظة . وحينئذ يكون المراد بقول القائل : وبعث سعد بن زيد بسبايا بنى قريظة : أى بجملة منهم . وبعث سعد بن عبادة بسبايا أى بسبايا بنى قريظة : أى بجملة منهم وإن كان المراد بالسبايا فى قصة سعد بن عبادة غير سبايا بنى قريظة فالأمر ظاهر ، ويدل لهذا الثانى إسقاط بنى قريظة منه .

ثم رأيته فى الإمتاع أسقط قصة سعد بن زيد الأنصارى واقتصر على سعد بن عبادة حيث قال : ولما سبيت السبايا والذرية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بطائفة إلى الشام مع سعد بن عبادة رضى الله عنه يبيعهم ويشترى سلاحا هذا كلامه، والله أعلم .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفرق بين الأم وولدها ، أى فى السبايا الأعم من قريظة ، وقال « لا يفرق بين أم وولدها حتى يبلغ ، قيل : يا رسول الله وما بلوغه ؟ قال : تحيض الجارية ويحتلم الغلام » وكان إذا وجد الولد الصغير ليس له أم لم يبع من المشركين ، أى مشركى العرب ولا من يهود ، وإنما يباع من المسلمين ، أى وكانت أم الولد الصغير تباع من المشركين هى وولدها من العرب ومن يهود المدينة . [ ]
قال فى الإمتاع : وكان يفرق بين الأختين إذا بلغتا ، ومقتضاه أنهما إذا لم يبلغا لا يفرق بينهما . وأئمتنا معاشر الشافعية لم يحرموا إلا التفرقة بين الأصول والفروع إذا لم يميزوا . وهو محمل قوله صلى الله عليه وسلم « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » ولعله لم تصح تلك الرواية عند إمامنا الشافعى رضى الله عنه .

واصطفى صلى الله عليه وسلم لنفسه منهم ريحانة بنت عمرو وهو شمعون مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى النضير ، وكانت متزوّجة فى بنى قريظة ، ولعله مراد من

قال إنها كانت من بني قريظة ، أى وكانت جميلة ، وأسلمت بعد أن أبت الإسلام ووجد صلى الله عليه وسلم فى نفسه : أى غضب بسبب ذلك ، أى بسبب عدم إسلامها ، ولم يظهر ذلك ، ثم لما أسلمت سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

فقد جاء « لما أبت ريحانة الإسلام عزلها صلى الله عليه وسلم ووجد فى نفسه لذلك ، وأرسل إلى ثعلبة بن شعبة وكان ممن نزل من حصون بنى قريظة فى الليلة التى صبيحتها نزلت بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ ، أى على ما فى بعض الروايات «وأسلم هو وإخوته أسيد وأسيد وأسد وابن عمه ، وأحرزوا دماءهم وأموالهم ، وليسوا من بنى قريظة ، وإنما هم من بنى هذيل » فذكر له صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال سعد : فداك أبى وأمى هى مسلمة » أى ظنا منه أنها تسلم « فخرج حتى جاءها ولا زال يقول لها أسلمى يصطفيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ، فأجابت إلى ذلك وأسلمت ، فبينما هو صلى الله عليه وسلم فى مجلس من أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه ، فقال : إن هاتين لنعلا مبشرى باسلام ريحانة فكان كذلك ، وأخبره أنها أسلمت ، فسر صلى الله عليه وسلم بذلك ، واستمرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى فى ملكه ، اختارت بقاءها فى ملكه على العتق والنكاح ، أى فقد خيرها صلى الله عليه وسلم بين أن يعتقها ويتزوجها أو تكون فى ملكه يطؤها بالملك ؟ فاختارت أن تكون فى ملكه» .

قال بعضهم : والأثبت عند أهل العلم أنه أعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا ، وأعرس بها فى المحرم سنة ست بعد أن حاضت حيضة ، وضرب عليها الحجاب ، فغارت عليه ، فطلقها تطليقة ، فأكثرت من البكاء ، فراجعها ، ولم تزل عنده صلى الله عليه وسلم حتى ماتت مرجعه من حجة الوداع سنة عشر ، فدفنها بالبقيع . ووجوب استبرائها بحيضة يدل لما قاله فقهاؤنا أن من ملك أمة وطئها غيره وطئا غير محرم لا يحل له تزوجها قبل استبرائها وإن أعتقها .

وتقدم أن قريظة والنضير أخوان من أولاد هرون على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والسلام .

غزوة بنى لحيان

بناحية عسفان، ولحيان بكسر اللام وفتحها : قبيلة من هذيل .

لا يخفى أن بعد مضى ستة أشهر من غزوة بنى قريظة غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى لحيان يطلبهم بأصحاب الرجيع ، أى وهم خبيب وأصحابه رضى الله عنهم الذين قتلوا ببئر معونة كما سيأتى ذكر ذلك فى السرايا . أى لأنه صلى الله عليه وسلم وجد: أى حزن وجدا شديدا على أصحابه المقتولين بالرجيع ، وأراد أن ينتقم من هذيل فأمر أصحابه بالتهيؤ ، وأظهر أنه يريد الشام : أى ليدرك من القوم غرة : أى غفلة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه ، وخرج فى مائتى رجل ومعهم عشرون فرسا ، ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى المحل الذى قتل فيه أهل الرجيع ترحم عليهم ودعا لهم بالمغفرة ، فسمعت به بنو لحيان ، فهربوا إلى رءوس الجبال [:] أى وأرسل السرايا فى كل ناحية فلم يجدوا أحدا [ ] أى وأقام على ذلك يومين ، فلما رأى صلى الله عليه وسلم أنه فاته ما أراده من غرتهم . قال : لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة ، فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، وهذا يدل على أن أصحابه كانوا أكثر من مائتين ، وهو يخالف ما تقدم أنه خرج فى مائتى رجل . إلا أن يقال زادوا على المائتين بعد خروجه .

ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ثم كرا راجعين . وفى لفظ آخر فبعث أبا بكر رضى الله عنه فى عشرة فوارس القصة . أى وقد يقال : لامنافاة بين اللفظين :

ثم توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . قال جابر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين وجه أى توجه إلى المدينة «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون» أى وفى رواية «لربنا عابدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر» أى مشقة السفر «وكآبة» أى حزن «المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال» قال وزاد بعضهم «اللهم بلغنا بلاغا صالحا يبلغ إلى خير مغفرتك ورضوانك» قيل ولم يسمع هذا الدعاء منه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، وكانت غيبته عن المدينة أربع عشرة ليلة اهـ :

وذكر بعضهم «أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من بنى لحيان وقف على الأبواء فنظر

يميناوشمالا ، فرأى قبر أمه آمنة ، فتوضأ ثم صلى ركعتين فبكى وبكى الناس لبكائه ثم قام فصلى ركعتين ثم انصرف إلى الناس وقال لهم صلى الله عليه وسلم : ما الذى أبكاكم ؟ قالوا : بكيت فبكينا يارسول الله ، قال : ماظننتم ؟ قالوا ، ظننا أن العذاب نازل علينا ، قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالوا : ظننا أن أمتك كلفت من الأعمال مالاتطيق ، قال : لم يكن من ذلك شيء ولكنى مررت بقبر أمى فصليت ركعتين ثم استأذنت ربى عز وجل أن أستغفرلها فزجرت زجرا» أى منعت عن ذلك منعا شديدا «فأبكانى» وفى لفظ « فعلى بكائى هذا » أى فعلى هذا بكائى .

والذى فى الوفاء «أنه صلى الله عليه وسلم وقف على عسفان ، فنظر يمينا وشمالا ، فأبصر قبر أمه فورد الماء ، فتوضأ ثم صلى ركعتين ، قال بريدة : فلم يفجأنا إلا ببكائه ، فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف فقال : ما الذى أبكاكم ؟ » الحديث .

«ثم دعا براحلته فركبها ، فسار يسيرا فأنزل الله تعالى (ماكان للنبى) صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) إلى آخر الآيتين ، فلما سرى عنه الوحى قال : أشهدكم أنى برىء من آمنة كما تبرأ إبراهيم من أبيه » .

أى وهذا السياق يدل على أن هاتين الآيتين غير مازجر به عن الاستغفار لها المتقدم فى قوله «فزجرت زجرا» فليتأمل .

وفى مسلم عن أبى أيوب رضى الله عنه قال « زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال : استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى واستأذنته فى أن أزورها » أى بعد ذلك « فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » .

وسيأتى عن عائشة رضى الله عنها «أن فى حجة الوداع مر صلى الله عليه وسلم على عقبة الحجون فنزل وقال لها : وقفت على قبر أمى» وسيأتى أن ذلك يدل على أن قبر أمه بمكة لا بالأبواء، وتقدم الجمع بين كونه بالأبواء، وكونه بمكة ، وسيأتى بالحديبية أنه صلى الله عليه وسلم زار قبرها وفى فتح مكة أيضا ، وسيأتى الكلام على ذلك وأن ذلك كان قبل إحيائها له وإيمانها به صلى الله عليه وسلم .

غزوة ذى قرد

بفتح القاف والراء، وقيل بضمهما، أى وقيل بضم الأول وفتح الثانى: اسم ماء . والقرد فى الأصل : الصوف الردىء ، ويقال لها غزوة الغابة ، والغابة : الشجر الملتف .

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من غزوة بنى لحيان لم يقم بها إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن فى خيل من غطفان على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، أى وكانت اللقاح عشرين لقحة وهى ذات اللبن القريبة من الولادة: أى لها ثلاثة أشهر ، ثم هى لبون ، وفيها رجل من بنى غفار هو ولد أبى ذر الغفارى وزوجة لأبى ذر ، فقوله وامرأة له ، أى لأبى ذرّ رضى الله عنه لا لولده كما يعلم مما يأتى، وكان راعيها يثوب : أى يرجع بلبنها كل ليلة عند المغرب إلى المدينة ، أى فإن المسافة بينها وبين المدينة يوم أو نحو يوم ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة مع اللقاح .

وعند ابن سعد : كان فيها أبو ذرّ وولده أى وزوجة أبى ذر ، فقتلوا ولده ، أى واحتملوا المرأة . قال : «جاء أن أباذرّ الغفارى رضى الله عنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فى اللقاح ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا تأمن عيينة بن حصن وذويه أن يغيروا عليك ، فألح عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكأنى بك قد قتل ابنك وأخذت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك ، فكان أبو ذرّ رضى الله عنه يقول : عجبا لى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لكأنى بك وأنا ألح عليه ، فكان والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى والله لفى منزلنا ولقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم قد روّحت وحلبت عتمتها ونمنا ، فلما كان الليل أحدق بنا عيينة بن حصن فى أربعين فارسا فصاحوا بنا وهم قيام على رءوسنا ، فأشرف لهم ابنى فقتلوه وكان معه ثلاثة نفر فنجوا ، وتنحيت عنهم ، وشغلهم عنى إطلاق عقل اللقاح ، ثم صاحوا فى أدبارها ، فكان آخر العهد بها . ولما قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته تبسم» اه أى وروى بدل عيينة بن حصن ابنه عبد الرحمن بن عيينة بن حصن . قال بعضهم : ولا منافاة ، لأن كلا من عيينة بن حصن وعبد الرحمن بن عيينة كانا فى القوم ، وكان أوّل من علم بهم سلمة بن الأكوع رضى الله عنه فإنه غدا يريد الغابة متوشحا قوسه ومعه غلام

لطلحةبن عبيد الله معه فرس له : أى لطلحة يقوده ، فلقى غلاما لعبد الرحمن بن عوف ، فأخبره أن عيينة بن حصن قد أغار على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربعين فارسا من غطفان . قال سلمة : فقلت : يا رباح اقعد على هذا الفرس ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد أغير على سرحه .

أى وهذا السياق يدل على أن رباحا غلامه صلى الله عليه وسلم كان مع سلمة أسقط الراوى ذكره ولم يقل ومعه رباح غلامه صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن رباحا هذا هو غلام عبد الرحمن الذى أخبر سلمة خبر اللقاح . ولا منافاة بين كون رباح غلامه صلى الله عليه وسلم وغلام عبد الرحمن ، لجواز أن يكون كان لعبد الرحمن ثم وهبه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فهو غلام عبد الرحمن بحسب ما كان .

ثم رأيت ما يؤيد الأول وهو ما فى بعض الروايات عن سلمة قال : خرجت أنا ورباح عبد النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤذن بالأولى يعنى لصلاة الصبح نحو الغابة وأنا راكب على فرس أبى طلحة الأنصارى ، فلقينى عبد لعبد الرحمن بن عوف قال : أخذت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : من أخذها ؟ قال : غطفان وفزارة ، وقد طوى فى هذه الرواية ذكر غلام طلحة .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر ذكر أنه لم يقف على اسم غلام عبد الرحمن بن عوف هذا : أى الذى أخبر سلمة بأمر اللقاح .

قال : ويحتمل أن يكون هو رباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملك أحدهما وكان يخدم الآخر ، فنسب تارة إلى هذا وتارة إلى هذا ، هذا كلامه ، ولا يخفى بعده للتصريح بأن رباحا غير غلام عبد الرحمن ، وأن رباحا كان مع سلمة ، وأن غلام عبد الرحمن هو الذى أخبر سلمة خبر اللقاح . ولا منافاة بين كون الفرس لطلحة ، ولا بين كونها لأبى طلحة ، ولا بين كون عبد طلحة كان قائدا لها وبين كون سلمة راكبا لها لأنه يجوز أن يكون ركبها أثناء الطريق فليتأمل [ ] .

وفى تسمية غلامه صلى الله عليه وسلم رباحا مع نهيه صلى الله عليه وسلم أن الشخص يسمى رقيقه بأحد أربعة أسماء أفلح ورباح ويسار ونافع . وزاد فى رواية خامسا وهو نجيح فهلا غير صلى الله عليه وسلم اسمه إن كانت وقعت التسمية من غيره صلى الله عليه وسلم . ويقال لم يغير صلى الله عليه وسلم ذلك الاسم إشارة إلى أن النهى للتنزيه .

ثم إن سلمة رجع إلى المدينة وعلا ثنية الوداع فنظر إلى بعض خيولهم ، فصرخ بأعلى صوته واصباحاه: أى قال ذلك ثلاث مرات. أى وقيل نادى: الفزع الفزع ثلاثا ، ولامانع أن يكون جمع بين ذلك . وفى لفظ : وقفت على تلّ بناحية سلع ، أى وفى لفظ : على أكمة ، وفى لفظ آخر : فصعدت فى سلع ولا مخالفة كما لا يخفى ، فجعلت وجهى من قبل المدينة . ثم ناديت ثلاث مرات : يا صباحاه أسمع ما بين لابتيها ، أى لسعة صوته ، أو أن ذلك وقع خرقا للعادة ، ويا صباحاه : كلمة تقال عند استنفار من كان غافلا عن عدوه ، لأنهم يسمون يوم الغارة يوم الصباح .

ثم خرج يشتدّ فى أثر القوم كالسبع ، وقد كان يسبق الفرس جريا حتى لحق بهم ، فجعل يردهم بالنبل ويقول : إذا رمى خذها وأنا ابن الأكوع ، واليوم يوم الرضع : أى يوم هلاك اللئام ، فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا ، وهكذا يفعل قال : كنت ألحق الرجل منهم فأرميه بسهم فى رجله فيعقره ، فإذا رجع إلىّ فارس منهم أتيت شجرة فجلست فى أصلها . ثم أرميه فأعقره فيولى عنى ، فإذا دخلت الخيل فى بعض مضايق الجبل علوت الجبل ورميتهم بالحجارة ، قال : ولم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحا وأكثر من ثلاثين بردة يستخفون بها ، ولايلقون شيئا من ذلك إلا جعلت عليه حجارة وجمعته على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ومازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهرى وخلوا بينهم وبينه .

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكوع صرخ بالمدينة : الفزع ، يا خيل الله اركبى . قيل وكان أول ما نودى بها وفيه كما فى الأصل أنه نودى بها فى بنى قريظة كما تقدم .

وأوّل من انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفرسان المقداد بن عمرو ويقال له ابن الأسود ، وتقدم أنه قيل له ذلك ، لأنه كان فى حجر الأسود بن عبد يغوث وتبناه فنسب إليه . ثم عباد بن بشر وسعيد بن زيد ، ثم تلاحقت به الفرسان ، وأمر عليهم سعيد ابن زيد . وقيل المقداد وجزم به الدمياطى رحمه الله ، أى ويدل له قول حسان رضى الله عنه فى وصف هذه الغزوة : * غداة فوارس المقداد *

لكن فى السيرة الشامية أن سعيد بن زيد رضى الله عنه غضب على حسان وحلف

لا يكلّمه أبدا وقال انطلق إلى خيلى فجعلها للمقداد ، وإن حسان رضى الله عنه اعتذر إلى سعد بأن الروى وافق فى اسم المقداد وذكر أبياتا يرضى بها سعيد بن زيد فلم يقبل منه سعيد ذلك ، وهذا يدل للأول .

وعقد صلى الله عليه وسلم لذلك الأمير لواء فى رمحه . ثم قال له: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك بالناس ، فخرج الفرسان فى طلب القوم حتى تلاحقوا بهم وكان شعارهم يومئذ « أمت أمت » ، وأول فارس لحق بهم محرز بن نضلة ، ويقال له الأخرم الأسدى ، ووقف لهم بين أيديهم ، وقال لهم : يا معشر بنى اللكيعة : أى اللئيمة قفوا حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار ، فحمل عليه شخص من المشركين فقتله .

وعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أنه قال: ثم إن القوم جلسوا يتغدون وجلست على رأس قرن جبل ، فقال لهم رجل أتاهم: من هذا ؟ قالوا لقينا من هذا البرح حتى انتزع كل شىء فى أيدينا. قال: فليقم إلىّ منكم أربعة فتوجهوا إلىّ فهددتهم ، أى فقد جاء عنه رضى الله عنه أنه قال لهم : هل تعرفوننى ؟ قالوا لا ومن أنت ؟ قلت أنا سلمة بن الأكوع ، والذى كرّم وجه محمد صلى الله عليه وسلم لا أطلب رجلا منكم إلا أدركته ، ولا يطلبنى فيدركنى ، قال بعضهم إنا نظن ذلك فرجعوا .

قال : فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمهم الأخرم الأسدى . فلما رأيت الأخرم الأسدى وأوّل الفرسان ، نزلت من الجبل وأخذت بعنان فرسه ، وقلت له : احذر القوم لا يقتطفوك حتى يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال : يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق وأن النار حق ، فلا تحل بينى وبين الشهادة ، فخليت عنه ، فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة فعقر فرس عبد الرحمن وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه ، فلحق عبد الرحمن أبو قتادة رضى الله عنه ، فعقر عبد الرحمن فرس أبى قتادة فقتله أبو قتادة وتحول أبو قتادة رضى الله عنه إلى الفرس .

أقول : ولعل عبد الرحمن هذا هو حبيب بفتح الحاء المهملة وكسر الموحدة ابن عيينة ، فإنى لم أقف على ذكر عبد الرحمن هذا فيمن قتل من المشركين فى هذه الغزوة ، وإن أبا قتادة رضى الله عنه قتل حبيبا وغشاه ببرده كما سيأتى ، إلا أن يقال جاز أن يكون له اسمان عبد الرحمن وحبيب ، ثم رأيت الحافظ ابن حجر أشار إلى ذلك . وقيل قاتل محرز مسعدة

الفزارى ، وبه جزم الحافظ الدمياطى ، وذكر أن قاتل حبيب المقداد بن عمرو ، فقال : وقتل أبو قتادة مسعدة ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه وسلاحه . وقتل المقداد بن عمرو حبيب بن عيينة بن حصن والله أعلم ، ولم يقتل من المسلمين إلا محرز بن نضلة الذى هو الأخرم الأسدى ، وكان رأى قبل ذلك بيوم أن سماء الدنيا فرجت ومابعدها حتى انتهى إلى السماء السابعة ، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى ، فقيل له : هذا منزلك ، فعرضها على أبى بكر رضى الله عنه وكان من أعلم الناس بالتعبير كما تقدم، فقال له : أبشر بالشهادة ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين . وقد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه . أى واستعمل على حرس المدينة سعد بن عبادة رضى الله عنه فى ثلثمائة من قومه يحرسون المدينة ، فإذا حبيب بفتح الحاء المهملة وكسر الموحدة مسجى: أى مغطى ببرد أبى قتادة ، فاسترجع المسلمون ، أى قالوا (إنا لله وإنا إليه راجعون) وقالوا : قتل أبو قتادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأبى قتادة ، ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده ليعرف أنه صاحبه أى القاتل له .

قال وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال «والذى أكرمنى بما أكرمنى به إن أبا قتادة على آثار القوم يرتجز ، فخرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى كشف البرد عن وجهه المسجى فإذا وجه حبيب ، فقال : الله أكبر ، صدق الله ورسوله ، يا رسول الله غير أبى قتادة» .

وفى لفظ «فخرج أبو بكر وعمر رضى الله عنهما حتى كشفا البرد» الحديث . وقيل الذى قتله أبو قتادة وغشاه ببرده هو مسعدة قاتل محرز رضى الله عنه لا حبيب على ماتقدم .

ففى رواية أن أبا قتادة رضى الله عنه اشترى فرسا فلقيه مسعدة الفزارى فتفاوض معه، فقال له أبو قتادة : أما إنى أسأل الله أن ألقاك وأنا عليها ، قال : آمين ، فلما أخذت اللقاح ركب تلك الفرس وسار ، فلقى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : امض يا أبا قتادة صحبك الله ، قال : فسرت حتى هجمت على القوم ، فرميت بسهم فى جبهتى ، فنزعت قدحه وأنا أظن أنى نزعت الحديدة ، فطلع على فارس وقال : لقد ألقانيك الله يا أبا قتادة ، وكشف عن وجهه فإذا هو مسعدة الفزارى . فقال : أيما أحب إليك : مجالدة ، أو مطاعنة ، أو مصارعة ؟ فقلت : ذاك إليك ، فقال : صراع فنزل وعلق بسيفه فى شجرة ونزلت وعلقت سيفى فى شجرة وتواثبنا فرزقنى الله الظفر

عليه ، فإذا أنا على صدره وإذا شيء مس رأسي ، فإذا سيف مسعدة قد وصلت إليه في المعالجة ، فضربت بيدى إلى سيفه وجردت السيف ، فلما رأى أن السيف وقع بيدى قال: يا أبا قتادة استحيني ، قلت : لاوالله ، قال : فمن للصبية ؟ قلت: النار ، ثم قتلته وأدرجته في بردى ، ثم أخذت ثيابه فلبستها ، ثم استويت على فرسه ، فإن فرسي نفرت حيث تعالجنا ، وذهبت للقوم فعرقبوها ، ثم ذهبت خلف القوم فحملت على ابن أخيه فدققت صلبه ، فانكشف من معه عن اللقاح ، فحبست اللقاح برمحي وجئت أحرسها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح وجهك يا أبا قتادة ، أى فقلت : ووجهك يارسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أبو قتادة سيد الفرسان، بارك الله فيك ياأبا قتادة وفى ولدك وولد ولدك » وفى لفظ «وفى ولد ولدك » اه « أى وقال له صلى الله عليه وسلم ماهذا الذى بوجهك ؟ قلت سهم أصابنى ، فقال ادن منى فنزع السهم نزعا رفيقا ، ثم بزق فيه ووضع راحته عليه ، فوالذى أكرمه بالنبوة ما ضرب علىّ ساعة قط ولا قرح علىّ ، وفى رواية « ولاقاح » وفى لفظ « قال لى : قتلت مسعدة ؟ قلت نعم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم يدعو لأبى قتادة : اللهم بارك له فى شعره وبشره » فمات أبوقتادة رضى الله عنه وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة سنة « أى وأعطاه صلى الله عليه وسلم فرس مسعدة وسلاحه أى كما تقدم ، وقال بارك الله لك فيه » وهذا السياق يدل على أن أبا قتادة رضى الله عنه انفرد عن الصحابة وتقدمهم ، وتخلف مسعدة عن قومه مدة مصارعة أبى قتادة له وقتله ، ولا مانع من ذلك ، وقيل استنقذوا نصف اللقاح ، أى عشرة وفيها جمل أبى جهل الذى غنمه صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وأفلت القوم بالعشرة الأخرى.

أى ولا ينافيه ما تقدم من قول أبى قتادة : فانكشفوا عن اللقاح وجئت أحرسها ، لأن المراد جملة من اللقاح ، لكنه يخالف لما تقدم عن سلمة رضى الله عنه من قوله : مازلت أرشقهم ؟ يعنى القوم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهرى وخلوا بينهم وبينه فليتأمل ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالجبل من ذى قرد بناحية خيبر وتلاحق به الناس، أى وقال له سلمة بن الأكوع يارسول الله إن القوم عطاش فلو بعثتنى فى مائة رجل استنقذت مابقى فى أيديهم من السرح وأخذت بأعناق القوم .

أى وقد يقال لا يخالف هذا ما تقدم من قوله حتى ما خلق الله من بعير من ظهر

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهرى وخلوا بينهم وبينه ، لجواز أن يكون صدر عنه ما تقدم لظنه أن ذلك هو جميع اللقاح التى أخذت ، ثم تحقق أن الذى استنقذه هو وأبو قتاده جملة منها ، وما فى البخارى من قوله « واستنقذوا اللقاح كلها » يجوز أن يكون قائل ذلك ظن أن الذى استنقذ من أيدى القوم هو جميع ماأخذوه من اللقاح ، كما أن سلمة رضى الله عنه اعتقد أن جميع اللقاح التى أخذت هى التى جعلها خلف ظهره كما تقدم فكل من سلمة وأبى قتادة خلف نصف اللقــاح التى هى العشرة التى خلصت من أيدى القوم .

وفى رواية عن سلمة قال «قلت يارسول الله ابعث معى فوارس لندرك القوم،فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ضحك صلى الله عليه وسلم : ملكت فأسجح » أى فارفق ، والمعنى قدرت فاعف ، وإنما كانوا عطاشا لأن سلمة رضى الله عنه ذكر أنه تبعهم إلى قبيل غروب الشمس ، إلى أن عدلوا إلى شعب فيه ماء يقال له ذو قرد ، فنحاهم : أى طردهم عنه ومنعهم الشرب منه ، وتركوا فرسين وجاء بهما سلمة رضى الله عنه يسوقهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل هذا كان من سلمة رضى الله عنه بعد أن رجعت الصحابة عنهم واستمر يتبعهم ، وقال له صلى الله عليه وسلم شخص : يارسول الله القوم الآن يغبقون بأرض غطفان ، أى يشربون اللبن بالعشى الذى هو الغبوق ، فجاء رجل من غطفان فقال : مروا على فلان الغطفانى فنحر لهم جزورا ، فلما أخذوا يكشطون جلدها رأوا غبرة فتركوها وخرجوا هرابا ، ولما نزل صلى الله عليه وسلم بالمحل المذكور لم تزل الخيل تأتى والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكث يوما وليلة ، أى وعن سلمة رضى الله عنه : وأتانى عمى عامر بن الأكوع بسطيحة فيها ماء وسطيحة فيها لبن فتوضأت وشربت ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الماء الذى أجليتهم عنه ، فإذا هو صلى الله عليه وسلم قد أخذ كل شىء استنقذته منهم ، ونحر لهم بلال رضى الله عنه ناقته .

ولا مخالفة ، لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الماء بعد أن كان مكثه بالجبل المذكور ، وصلى صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف ، أى لخوف أن العدو يجىء إليهم ، ولعل هذه هى صلاة بطن نخل ، وهى على ما رواه الشيخان «أنه جعل القوم فرقتين ، وصلاها مرتين كل مرة بفرقة والأخرى تحرس » أى تكون فى وجه العدو ، أى

فى المحل الذى يظن مجيئهم منه ، وذلك كان لغير جهة القبلة ، وإلا فالعدو لم يكن يمر أحد منهم وهذه الصلاة لم ينزل بها القرآن .

أقول : لكن رأيت فى الإمتاع « وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ صلاة الخوف ، فقام إلى القبلة ، وصف طائفةخلفه وطائفة مواجهة العدو ، وصلى بالطائفة التى خلفه ركعة وسجد سجدتين ، ثم انصرفوا فقاموا مقام أصحابهم ، وأقبل الآخرون ، فصلى بهم ركعة وسجد سجدتين وسلم ، فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتان ولكل رجل من الطائفتين ركعة » ولا يخفى أن هذه الكيفية هى صلاة عسفان ، والله أعـــلم .

ولما أصبح صلى الله عليه وسلم قال « خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة رضى الله عنهما » .

وعند خروجه صلى الله عليه وسلم وتلاحق بعض الفرسان به ؛ قال لأبى عياش « لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك للحق بالناس ، قال أبو عياش : فقلت : يا رسول الله إنى أفرس الناس ، قال أبو عياش : فو الله ماجرى بى خمسين ذراعا حتى طرحنى فعجبت لذلك ، وقسم صلى الله عليه وسلم فى كل مائة من أصحابه جزورا ينحرونها وكانوا خمسمائة ، وقيل سبعمائة . وبعث سعد بن عبادة رضى الله عنه بأحمال تمر وبعشر جزائر ، فوافت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى قرد، أى وقال صلى الله عليه وسلم: اللهم ارحم سعدا وآل سعد ، نعم المرء سعد بن عبادة ، فقالت الأنصار : هو سيدنا وابن سيدنا ، من بيت يطعمون فى المحل ، ويحملون الكل ، ويحملون عن العشيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا فى الدين » وأقبلت امرأة أبى ذر رضى الله عنهما على ناقة من إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى من جملة اللقاح وهى القصوى ، أفلتت من القوم فطلبوها فأعجزتهم ، وفى لفظ : وانفلتت المرأة من الوثاق ليلا فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى انتهت إلى العضباء ، فلم ترغ فقعدت على عجزها ثم زجرتها وعلموا بها فطلبوها فأعجزتهم ، ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرنها ، فلما أخبرت النبى صلى الله عليه وسلم الخبر ، قالت : يارسول الله قد نذرت أن أنحرها إن نجانى الله عليها ، أى وآكل من كبدها وسنامها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : بئسما جزيتها

أن حملك : أى لأجل أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها « لانذر فى معصية الله ولا فيما لاتملكين » وفى لفظ « لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لايملك ابن آدم ، إنما هى ناقة من إبلى،ارجعى إلى أهلك على بركة الله تعالى ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة » أى وهذا السياق يدل على أن المرأة قدمت عليه صلى الله عليه وسلم بتلك الناقة قبل قدومه المدينة .

وفى السيرة الهشامية « أنها قدمت عليه صلى الله عليه وسلم المدينة فأخبرته الخبر ، ثم قالت : يارسول الله إنى نذرت لله » الحديث ، وهو يخالف ما يأتى من قوله : ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته العضباء .

أى ولعل ما فى الأوسط للطبرانى بسند ضعيف عن النواس بن سمعان رضى الله عنه « أن ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرقت ، فقال : لئن ردّها الله علىّ لأشكرن ربى ، وقد وقعت فى حىّ من أحياء العرب فيهم امرأة مسلمة ، فرأت من القوم غفلة فقعدت عليها فصبحت المدينة » إلى آخره لاينافى ما هنا لجواز تعدد الواقعة .

« ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على ناقته العضباء مردفا سلمة بن الأكوع رضى الله عنه ، وقد غاب عنها خمس ليال ، وأعطى صلى الله عليه وسلم سلمة بن الأكوع سهم الراجل والفارس جميعا » أى مع كونه كان راجلا .

وهذا استدل به من يقول إن للإمام أن يفاضل فى الغنيمة ، وهو مذهب أبى حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد . وعند مالك وإمامنا الشافعى رضى الله عنهما لايجوز ، ولعله لعدم صحة ذلك عندهما ، وتبعت فى تقديم هذه الغزوة على غزوة الحديبية الأصل ، وهو الموافق لقول بعضهم : أجمع أهل السير على أن غزوة الغابة قبل الحديبية ، ولقول أبى العباس شيخ القرطبى صاحب التذكرة والتفسير : لايختلف أهل السير أن غزوة ذى قرد كانت قبل الحديبية ، والشمس الشامى ذكرها بعد الحديبية تبعا لما فى صحيح البخارى أنها بعد الحديبية وقبل خيبر بثلاثة أيام ، وفى مسلم نحوه . ففيه عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه « فرجعنا : أى من غزوة ذى قرد إلى المدينة ، فلم نلبث إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر » .

ويؤيده قول الحافظ شمس الدين بن إمام الجوزية : قد وهم جماعة من أصحاب المغازى

والسير فذكروا غزوة الغابة قبل الحديبية ؛ قال الحافظ ابن حجر : مافى البخارى أصح مما ذكره أهل السير .

قال : ويحتمل فى طريق الجمع أن تكون إغارة عيينة بن حصن على اللقاح ، أى فى الغابة وقعت مرتين ، مرة قبل الحديبية ، ومرة بعد الحديبية قبل الخروج إلى خيبر ، أى ويلزم أن يكون فى كل كان خروجه صلى الله عليه وسلم ، وأن أوّل من علم بأخذ اللقاح سلمة بن الأكوع . ووقع له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ماتقدم،هذا حقيقة التكرار وإلا فهل الذى خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع فيها لسلمة ولغيره من الصحابة ماوقع كانت أولا أو ثانيا ؟ فليتأمل، ثم رأيت عن الحاكم رحمه الله تعالى أنه ذكر فى الإكليل أن الخروج إلى ذى قرد تكرر أى ثلاث مرات ؛ ففى الأولى خرج إليها زيد بن حارثة قبل أحد ، وفى الثانية خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة خمس ، والثالثة هى المختلف فيها ، أى ومعلوم أن هذه المختلف فيها خرج إليها صلى الله عليه وسلم فليتأمل ، والله تعالى أعلم .

غزوة الحديبية

بالتخفيف تصغير حدباء وعلى التشديد عامة الفقهاء والمحدثين ؛ وأشار بعضهم إلى أنه لم يسمع من فصيح ، ومن ثم قال النحاس : سألت كل من لقيت ممن أثق بعلمه عن الحديبية ، فلم يختلفوا فى أنها بالتخفيف .

وفى كلام بعضهم : أهل الحديث يشددون ، وأهل العربية يخففون . وفى كلام بعض آخر :أهل العراق يشددون ؛ وأهل الحجاز يخففون ، وهى بئر ، وقيل شجرة سمى المكان باسمها ، وقيل قرية قريبة من مكة أكثرها فى الحرم .

قال : وسببها أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، أى بعضهم محلق وبعضهم مقصر ؛ وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وعرّف مع المعرفين انتهى ، أى وطاف هو وأصحابه ؛ واعتمر وأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، ثم أخبر أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فتجهزوا للسفر ، فخرج صلى الله عليه وسلم معتمرا ليأمن الناس : أى أهل مكة ومن حولهم من حربه ، وليعلموا أنه صلى الله عليه وسلم إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له »

وكان إحرامه صلى الله عليه وسلم بالعمرة من ذى الحليفة ، أى بعد أن صلى بالمسجد الذى بها ركعتين وركب من باب المسجد وانبعثت به راحلته مستقبل القبلة ؛ أحرم وأحرم معه غالب أصحابه ، ومنهم من لم يحرم إلا بالجحفة ، أى وكان خروجه فى ذى القعدة ، وقيل كان خروجه فى رمضان وهو غريب ، ولفظ تلبيته صلى الله عليه وسلم « لبيك اللهم لبيك ، لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك » .

واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة الشريفة نميلة بن عبد الله الليثى ،أى وقيل ابن أم مكتوم ، وقيل أبا رهم كلثوم بن الحصين . أى وقيل استخلف أبا رهم مع ابن أم مكتوم جميعا ، فكان ابن أم مكتوم على الصلاة ، وكان أبو رهم حافظا للمدينة ، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم بعد أن استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ، ممن أسلم غفار ومزينة وجهينة وأسلم - القبيلة المعروفة - خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدّوه عن البيت كما صنعوا فتثاقل كثير منهم وقالوا أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ، واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ، وأنه ليس لهم من يقوم بذلك ، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فى اعتذارهم بقوله (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) .

وخرج صلى الله عليه وسلم بعد أن اغتسل ببيته ،ولبس ثوبين ، وركب راحلته القصوى من عند بابه ، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر الأشهلية رضى الله عنهن ، ومعه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وأبطأ عليه كثير منهم كما تقدم ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، أى وقد جللها ، أى فى ذى الحليفة بعد أن صلى بها الظهر ، ثم أشعر منها عدة وهى موجهات للقبلة فى الشق الأيمن : أى من سنامها . ثم أمر صلى الله عليه وسلم ناجية بن جندب وكان اسمه ذكوان فغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه ناجية لما أنه نجا من قريش ، فأشعر مابقى وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم وقلدوها . والإشعار جرح بصفحة سنامها . والتقليد أن تقلد فى عنقها قطعة جلد أو نعل بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه ، وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنه عن عشرة ، وقيل كانوا أربع عشرة مائة ، وقيل خمس عشرة وقيل ست عشرة ، وقيل كانوا ألفا وثلاثمائة ، وقيل وأربعمائة ، وقيل وخمسمائة وخمسة وعشرين ، أى وقيل ألف وسبعمائة أى وليس معهم سلاح إلا السيوف فى القرب ، وقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أتخشى يارسول الله من

ولم تأخذ للحرب عدتها ؟ فقال : لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا وكان معهم مائتا فرس فأقبلوا نحوه صلى الله عليه وسلم أى فى بعض المحال ، وكان بين يديه صلى الله عليه وسلم ركوة يتوضأ منها ، فقال : مالكم ؟ قالوا : يارسول الله ليس عندنا ماء نشربه ولا ماء نتوضأ منه إلا مافى ركوتك ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة أمثال العيون ، أى وفى لفظ : فجعل الماء ينبع من بين أصابعه الشريفة . وفى لفظ آخر : فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه » وفى لفظ آخر « فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه » واستدل به بعضهم على أن الماء خرج من نفس بشرته الشريفة صلى الله عليه وسلم ، قال أبو نعيم فى الحلية : وهو أعجب من نبع الماء لموسى عليه الصلاة والسلام من الحجر ، فإن نبعه من الحجر متعارف معهود ، وأما من بين اللحم والدم فلم يعهد . قال بعضهم : وإنما لم يخرجه صلى الله عليه وسلم بغير ملابسة ماء فى إناء تأدبا مع الله تعالى ، لأنه المنفرد بابتداع المعدومات من غير أصل. قال جابر رضى الله عنه : فشربنا وتوضأنا ولو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة .

فلما كانوا بعسفان جاء إليه صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان العتكى ، أى وقد كان صلى الله عليه وسلم أرسله إلى مكة عينا له ، فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش ، وأجلبت ثقيف معهم ومعهم النساء والصبيان. وفى لفظ : يخرجون ومعهم العوذ المطافيل ، أى النياق ذوات اللبن التى معها أولادها ليتزودوا بذلك ، ولا يرجعون خوف الجوع .

قال السهيلى : أو العوذ جمع عائذ وهى الناقة التى معها ولدها وإنما قيل للناقة عائذ وإن كان الولد هو الذى يعوذ بها ، لأنها عاطف عليه كما قالوا تجارة رابحة وإن كانت مربوحا فيها لأنها فى معنى نامية وزاكية ، هذا كلامه : أو العوذ المطافيل النساء معهن أطفالهن ، أى أنهم خرجوا بنسائهم معهن أولادهن ليكون أدعى لعدم الفرار .

أى ويجوز أن يكونوا خرجوا بذلك جميعه وقد لبسوا جلود النمر : أى أظهروا العداوة والحقد ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله أن لايدخلها عليهم عنوة أبدا ، وهذا خالد ابن الوليد — أى رضى الله عنه لأنه أسلم بعد ذلك — فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم ، أى وكانت مائتى فرس ، أى وقد صفت إلى جهة القبلة ، فأمر صلى الله عليه وسلم عباد ابن بشر رضى الله عنه فتقدم فى خيله ، فقام بازاء خالد وصف أصحابه رضى الله عنهم ، أى وحانت صلاة الظهر ، فأذن بلال رضى الله عنه وأقام ، فاستقبل رسول الله صلى الله

عليه وسلم القبلة وصف الناس خلفه فركع بهم وسجد ثم سلم ، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلا شددتم عليهم ؟

وفى لفظ قال خالد بن الوليد رضى الله عنه : قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم : أى التى هى صلاة العصر ، وبهذا استدل على أنها الصلاة الوسطى ، واستدل له أيضا بأنه كان فى أول ما أنزل (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) ثم نسخ ذلك أى تلاوته بقوله تعالى (والصلاة الوسطى) فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر لقوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك) الآيات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم صلى بهم جميعا حتى عباد بن بشر وأصحابه جميعا الذين قاموا بإزاء خالد رضى الله عنهم ، وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخوف : أى على ماذكره الله تعالى ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم ، قال المشركون : لقد أخبروا بما أردناه بهم ، ولعل الصلاة هى صلاة عسفان ، لأن كراع الغميم بالقرب منه كما تقدم ، وهى على مارواه مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم صفهم صفين وأنه أحرم بهم وركع واعتدل بهم جميعا ثم لما سجد سجد معه الصف الأول سجدتيه وتخلف الصف الثانى فى اعتداله للحراسة ، فلما قام وقام معه من سجد سجد الصف الثانى ولحقه فى القيام وتقدم الصف الثانى وتأخر الصف الأول ثم ركع واعتدل بهم جميعا ثم سجد وسجد معه الصف الثانى الذى تقدم ، واستمر الصف الأول الذى تأخر على الحراسة فى اعتداله ، فلما جلس للتشهد أتموا بقية صلاتهم وجلسوا معه للتشهد ، فتشهد وسلم بهم جميعا » وعلى هذه الصلاة حمل أئمتنا ماجاء : « فرضت الصلاة فى الخوف ركعة » أى أنها ركعة مع الإمام ويضم إليها أخرى .

ثم رأيت فى الدر المنثور التصريح بأن هذه الصلاة هى صلاة عسفان . عن ابن عياش الزرقى قال « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد ابن الوليد رضى الله عنه وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا النبى صلى الله عليه وسلم الظهر ، فقالوا : قد كانوا على حال غرة » الحديث المتقدم .

واشترط أئمتنا فى هذه الصلاة ، وهى إذا كان العدو فى جهة القبلة ولا ساتر أن يكون كل صف مقاوما للعدو وأن كل واحد لاثنين وإلا لم تصح الصلاة لما فيه من التغرير بالمسلمين ولعل صلاته صلى الله عليه وسلم بالصفين كانت كذلك ، وهذه الصلاة لم ينزل بها القرآن

كصلاة بطن نخل، فعلم أن القرآن لم ينزل إلا بصلاة ذات الرقاع وبصلاة شدة الخوف، ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة شدة الخوف وهى أن يلتحم القتال أو لم يأمنوا هجوم العدو .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قريشا تريد منعه عن البيت قال : أشيروا علىّ أيها الناس ، أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟ فقال أبوبكر : يارسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل أحد ولا حربا ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، أى وفى الإمتاع : فقال المقداد رضى الله عنه يارسول الله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والله يارسول الله لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك مابقى منا رجل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فامضوا على اسم الله فساروا ؛ ثم قال : ياويح قريش نهكتهم الحرب: أى أضعفتهم . وفى لفظ : أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإســلام وافرين : أى كاملين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفر هذه السالفة : أى وهى صفحة العنق ، فهو كناية عن القتل . ثم قال صلى الله عليه وسلم : هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟ فقال رجل من أسلم: أنا يارسول الله ، أى ويقال إنه ناجية بن جندب رضى الله عنه ، فسلك بهم طريقا وعرا . فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه ، فقالوا ذلك، فقال: والله إنها: أى قول أستغفر الله للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

ثم إن خالدا رضى الله عنه لم يشعر بهم إلاوقد نزلوا بذلك المحل، فانطلق نذيرا لقريش.

وقد جاء فى تفسير الحطة أنها المغفرة : أى طلب المغفرة : أى اللهم حط عنا ذنوبنا، وهذا هو المناسب لقوله صلى الله عليه وسلم « قولوا نستغفر الله » إلى آخره .

وجاء فى تفسيرها أيضا أنها لاإله إلا الله ، فلم يقولوا حطة ؛ بل قالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة سوداء استهزاء وجراءة على الله تعالى .

وفى البخارى : فقيل لبنى إسرائيل (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم) فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم ، أى أطيازهم وقولوا حبة فى شعيرة، وقد

جاء « أهل بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى إسرائيل ، من دخله غفر له الذنوب » أى المذكورة فى قوله تعالى (وادخلوا الباب) أى باب أريحاء بلد الجبارين (سجدا) : أى خاضعين متواضعين (وقولوا حطة) أى حط عنا خطايانا .

قال بعضهم : فكما جعل الله لبنى إسرائيل دخولهم الباب على الوجه المذكور سببا للغفران ، فكذا حبّ أهل البيت سبب للغفران .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق ، فلما كانوا به : أى بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت ناقته صلى الله عليه وسلم ، أى القصوى ، فقال الناس : حل حل ، فألحت : أى تمادت واستمرت على عدم القيام ، فقالوا : خلأت القصوى : أى حرنت ، يقال خلأت الناقة وألخ الجمل بالخاء المعجمة فيهما ، وحرن الفرس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما خلأت وما هو لها بخلق » وفى لفظ : «ما ذاك لها بعادة ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة : أى منعها الله عن دخول مكة : أى علم صلى الله عليه وسلم أن ذلك صدّ له من الله عن مكة أن يدخلها قهرا ، « والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة» أى خصلة « يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » أى وفى رواية « فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » أى من ترك القتال فى الحرم ، والكفّ عن إراقة الدم « ثم زجرها صلى الله عليه وسلم فقامت » فولى راجعا عوده على بدئه ، ثم قال للناس : انزلوا فقالوا : يا رسول الله ما بالوادى ماء ينزل عليه ، فأخرج صلى الله عليه وسلم سهما من كنانته فأعطاه ناجية بن جندب رضى الله عنه سائق بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو البراء بن عازب رضى الله عنه ، أو خالد بن عبادة الغفارى فنزل فى قليب فغرزه فى جوفه ، فجاش : أى علا وارتفع بالرواء : أى الماء العذب حتى ضرب الناس عليه بعطن» وفى لفظ «حتى صدروا عنها بعطن» : أى حتى رووا ورويت إبلهم حتى بركت حول الماء لأن عطن الإبل مباركها .

قال : ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى الحديبية على ثمد : وهو حفرة فيها ماء من ثمادها قليل الماء يتربضه الناس تربضا أى يأخذونه قليلا قليلا ، ثم لم يلبث الناس حتى نزحوه فاشتكى الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلة الماء . وفى لفظ : العطش أى وكان الحر شديدا ، فنزع صلى الله عليه وسلم سهما من كنانته ودفعه للبراء فقال : اغرز هذا السهم فى بعض قليب الحديبية ففعل ، والقليب جافّ ، فجاش الماء ، وقيل دفعه لناجية بن الأعجم .

فعنه رضى الله عنه ، قال : « دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين شكى إليه قلة الماء فأخرج سهما من كنانته ودفعه إلىّ ، ودعا بدلو من ماء البئر فجئت به ، فتوضأ فضمض ثم مج الماء فى الدلو . ثم قال : انزل بالدلو فى البئر وأثر ماءها بالسهم ففعلت ، فوالذى بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى يغمرنى الماء ، وفارت كما يفور القدر حتى طمت واستوت بشفيرها ، يغترفون من جوانبها حتى نهلوا عن آخرهم ، وعلى البئر نفر من المنافقين منهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، فقال له أوس بن خولى رضى الله عنه : ويحك يا أبا الحباب ، ما آن لك تبصر ما أنت عليه؟ أبعد هذا شىء؟ فقال : إنى رأيت مثل هذا فقال له أوس رضى الله عنه : قبحك الله وقبح رأيك ، ثم أقبل : أى عبدالله المذكور إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا الحباب أنى رأيت؟ أى كيف رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ قال : ما رأيت مثله قط ، قال : فلم قلت ما قلت ؟ فقال : يارسول الله استغفر لى ، وقال ابنه عبد الله : يارسول الله استغفر له فاستغفر له . وفى لفظ : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية أربع عشرة مائة والحديبية بئر نتبرضها ، من البرض : وهو الماء الذى يقطر قليلا قليلا ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ماشيتنا وركابنا . وفى لفظ : فرفعت إليه الدلو فغمس يده فيها فقال ما شاء الله أن يقول : ثم صب الدلو فيها ، فلقد لقيت آخرنا أخرج بثوب خشية الغرق ثم ساحت نهرا ، فليتأمل الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها .

وقد يقال : لامانع من وقوع جميع ذلك ، لكن يبعد أن يكون ذلك فى قليب واحد ، قال بعضهم : فلما ارتحلوا أخذ البراء رضى الله عنه السهم فجف الماء كأن لم يكن هناك شىء .

وفى كلام هذا البعض : أن أبا سفيان قال لسهيل بن عمرو رضى الله عنهما : قد بلغنا أنه ظهر بالحديبية قليب فيه ماء فقم بنا ننظر إلى ما فعل محمد ، فأشرفنا على القليب والعين تنبع تحت السهم ، فقال : ما رأينا كاليوم قط ، وهذا من سحر محمد قليل .

وفيه أن أبا سفيان رضى الله عنه لم يكن حاضرا فى الحديبية ، وحمل ذلك على أن ذلك كان من أبى سفيان بعد ارتحاله صلى الله عليه وسلم من الحديبية ينافيه ما قدمه هذا البعض أن عند ارتحالهم من الحديبية رفع السهم وجف القليب ، فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أتاه بديل بن ورقاء وكان سيد قومه رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك يوم الفتح ، فكان من كبار مسلمة الفتح فى رجال من خزاعة ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها لايخفون عليه صلى الله عليه وسلم شيئا كان بمكة ، بل يخبرونه به وهو بالمدينة ، وكانت قريش ربما تفطن لذلك ، فسألوه ماالذى جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ؛ وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته .

وفى المواهب أنه صلى الله عليه وسلم قال لبديل ماتقدم من قوله « وإن قريشا قدنهكتهم الحرب إلى آخره » وإن بديلا رضى الله عنه قال له سأبلغهم ماتقول ، فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنا جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم : لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء . وقال ذو الرأى منهم : هات ماسمعته يقول : قال سمعته يقول كذا وكذا : فحدثهم بما قال ، هذا كلامه .

والرواية المشهورة أن بديلا ومن معه خزاعة لما رجعوا إلى قريش فقالوا : يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد وإن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم : أى قابلوهم بما يكرهون ، وقالوا إن كان جاء ولايريد قتالا فوالله لايدخلها علينا عنوة : أى قهرا أبدا ، ولا تتحدث بذلك عنا العرب .

أى وفى لفظ أنهم قالوا : أيريد محمد أن يدخلها علينا فى جنوده معتمرا تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب مابيننا ، والله لاكان هذا أبدا ومنا عين تطرف ، ثم بعثوا إليه صلى الله عليه وسلم مكرز بن حفص أخا بنى عامر فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، قال : هذا الرجل غادر ، أى وفى رواية فاجر ، فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا مما قال لبديل فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم بعثوا إليه صلى الله عليه وسلم الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش يومئذ ، وتقدم عن الأصل أن الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة ، وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة ، وبنو المصطلق بن خزيمة ، أى وأنه قبل لهم ذلك ، لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبشى هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ماسجا ليل ، ووضح نهار ، وماسار حبشى ، فسموا [أحابيش قريش] .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألهون ، أى يتعبدون

ويعظمون أمر الإله . وفى لفظ: يعظمون البدن. وفى لفظ : يعظمون الهدى ، ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه بقلائده من عرض الوادى بضم المهملة أى ناحيته ، وأما ضد الطول فبفتح المهملة ؛ قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله بكسر الحاء المهملة ، موضعه الذى ينحر فيه من الحرم : أى يرجع الحنين ، واستقبله الناس يلبون قد شعثوا ؛ صاح وقال : سبحان الله ماينبغى لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت أبى الله أن يحج لخم وجذام ونهد وحمير ويمنع ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة ، إنما القوم أتوا عمارا أى معتمرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أجل يا أخا بنى كنانة [ ] .

وقيل إنه بمجرد أن رأى هذا الأمر رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى ، فقال لهم فى ذلك ، أى قال إنى رأيت ما لايحل منعه ، رأيت الهدى فى قلائده ، قد أكل أوباره ، أى معكوفا عن محله ، والرجال قد شعثوا وقلوا ، فقالوا له : اجلس، إنما أنت أعرابى ولاعلم لك، أى فما رأيت من محمد مكيدة، فعند ذلك غضب الحليس وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاءه معظما ، والذى نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وماجاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : مه : أى كفّ ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفى رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وهذا هو الذى شبهه صلى الله عليه وسلم بعيسى ابن مريم عليه السلام، ولما قتله قومه قال صلى الله عليه وسلم « مثله فى قومه كصاحب يس » كما سيأتى ذلك ، فقال : يامعشر قريش إنى رأيت ما يلقّى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ، فقالوا صدقت . وهذا يدل على أن ذهاب عروة بن مسعود رضى الله تعالى عنه إنما كان بعد تكرر الرسل من قريش إليه صلى الله عليه وسلم .

وبه يعلم مافى المواهب أن عروة لما سمع قريشا توبيخ بديلا ومن معه من خزاعة ،قال : أى قوم ، ألستم بالوالد إلى آخره . وفى لفظ : ألستم كالوالد ، أى كل واحد منكم كالوالد لى وأنا كالولد له ، وقيل أنتم حى قد ولدنى ، لأن أمه سبيعة بنت عبد شمس ، قالوا بلى

قال: أو لست بالولد؟ قالوا بلى،قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ، ثم قال: يا محمد جمعت أوباش: أى أخلاط الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك ، أى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم ، إنها قريش ، قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله أن لاتدخلها عليهم عنوة أبدا ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك ؛ أى انهزموا غدا . وفى لفظ والله لا أرى وجوها أى عظماء ، وإنى أرى أسرابا من الناس ، خليقا أى حقيقا أن يفرو ويدعوك ، وأبو بكر رضى الله تعالى عنه جالس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : اعضض بظر اللات . والبظر : قطعة تبقى فى فرج المرأة بعد الختان ، وقيل التى تقطعها الخاتنة ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هذا ابن أبى قحافة ، فقال : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ، أى على هذه الكلمة التى خاطبتنى بها ولكن هذه بها . وفى رواية : والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجبتك بها ، وتلك اليد التى كانت لأبى بكر رضى الله تعالى عنه عند عروة ، هى أن عروة استعان فى حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثنين ، وأعانه أبو بكر رضى الله عنه بعشرة إبل شواب ، ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه ، أى وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه خصوصا عند الملاطفة ، وفى الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير ، لكن كأنه صلى الله عليه وسلم إنما لم يمنعه من ذلك استمالة وتأليفا له ، والمغيرة بضم الميم وكسرها ابن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديد وعليه المغفر ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي بنعل السيف : وهومايكون أسفل القراب من فضة أو غيرها ، ويقول : اكفف يدك عن وجه ؛ وفى رواية : عن مس لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لاتصل إليك فإنه لاينبغى لمشرك ذلك ؛ وإنما فعل ذلك المغيرة رضى الله عنه إجلالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينظر لما هو عادة العرب ، فيقول للمغيرة : ويحك ما أفظك وما أغلظك ، أى وما أشدّ قولك.

وفى رواية : فلما أكثر عليه غضب عروة وقال : ويحك ما أفظك وما أغلظك ، ليت شعرى من هذا الذى آذانى من بين أصحابك ، والله إنى لا أحسب فيكم ألأم منه ولا شرّ منزلة ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ،

أى لأن عروة كان عم والد المغيرة ، فالمغيرة يقول له ياعم ، لأن كل قريب من جهة الأب يقال له عم ، وليس فى الصحيح لفظ ابن أخيك فقال : أى غدر : أى ياغادر ، وهل غسلت غدرتك . وفى لفظ سوأتك وفى لفظ : ألست أسعى فى غدرتك إلا بالأمس ، وفى لفظ : ياغدر ،والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس ، وقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر .

قيل أراد عروة بذلك أنه الذى ستر غدر المغيرة بالأمس ، لأن المغيرة رضى الله عنه قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف ، وفد هو وإياهم مصر على المقوقس بهدايا قال وكنا سدنة اللات : أى خدامها ، واستشرت عمى عروة فى مرافقتهم فأشار علىّ بعدم ذلك ، قال : فلم أطع رأيه ، فأنزلنا المقوقس فى كنيسة للضيافة ثم أدخلنا عليه ، فقدموا الهدية له ، فاستخبر كبير القوم عنى ، فقال ليس منا ، بل من الأحلاف فكنت أهون القوم عليه ، فأكرمهم وقصر فى حقى ، فلما خرجوا لم يعرض علىّ أحد منهم مواساة فكرهت أن يخبروا أهلنا بإكرامهم وازدراء الملك بى ، فأجمعت قتلهم ، ونزلنا محلا فعصبت رأسى ، فعرضوا علىّ الخمر فقلت رأسى تصدع ، ولكن أسقيكم فسقيتهم وأكثرت لهم بغير مزج حتى همدوا ، فوثبت عليهم فقتلتهم جميعا ، وأخذت كل ما معهم ، وقدمت على النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجده ، فسلمت عليه وقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداك للإسلام يامغيرة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : من مصر قدمت ؟ قلت نعم ، قال : فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟ لأنهم من بنى مالك ، فقلت : كان بينى وبينهم ما يكون بين العرب وقتلتهم ، وجئت بأسلابهم ليخمسها النبى صلى الله عليه وسلم أو يرى فيها رأيه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما إسلامك فقبلته ولا آخذ من أموالهم شيئا ولا أخمسه ، فإنه غدر والغدر لاخير فيه ، فقلت : يا رسول الله إنما قتلتهم وأنا على دين قومى ثم أسلمت ، فقال صلى الله عليه وسلم « الإسلام يجب ماقبله » .

قال : وبلغ ذلك ثقيفا ، فتداعوا للقتال واصطلحوا على أن يحمل عمى عروة ثلاث عشرة دية .

وفى رواية لما وردوا على المقوقس أعطى كل واحد منهم جائزة ولم يعط المغيرة شيئا فحقد عليهم ، فلما رجعوا نزلوا منزلا وشربوا خمرا ، ولما سكروا وناموا وثب عليهم

المغيرة فقتلهم وأخذ أموالهم وجاء وأسلم ، فاختصم بنو مالك مع رهط المغيرة ، وشرعوا فى المحاربة ، فسعى عروة فى إطفاء نار الحرب وصالح بنى مالك على ثلاث عشرة دية ودفعها عروة .

ولما أسلم المغيرة قال له النبى صلى الله عليه وسلم « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شىء » وفيه أن هذا مال حربى قصد أخذه والتغلب عليهم ، إلا أن يقال هؤلاء مؤمّنون منه ، لأنهم اطمأنوا إليه .

أى ويذكر أن المغيرة بن شعبة هذا رضى الله عنه كان من دهاة العرب ، وأحصن فى الإسلام ثمانين امرأة ، ويقال ثلثمائة امرأة ، وقيل ألف امرأة .

قيل لإحدى نساء المغيرة إنه لدميم أعور ، فقالت : هو والله عسيلة يمانية فى ظرف سوء .

ولما ولى رضى الله عنه الكوفة أرسل يخطب بنت النعمان بن المنذر ، فقالت لرسوله : قل له ما قصدت إلا أن يقال تزوّج المغيرة الثقفى بنت النعمان بن المنذر ، وإلا فأىّ حظ لشيخ أعور فى عجوز عمياء ، وهذه هى القائلة لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما وفدت عليه وهو والى الكوفة وأكرمها فى دعائها له : ملكتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة ، ولا أزال عن كريم نعمة إلا جعلك السبب فى عودها إليه ، إنما يكرم الكريم الكريم . والمغيرة بن شعبة رضى الله عنه أوّل من حيا سيدنا عمر رضى الله عنه بأمير المؤمنين .

وعند مجىء عروة أخبر صلى الله عليه وسلم عروة بما أخبر به من تقدّم من أنه لم يأت لحرب ، فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه . لا يتوضأ : أى يغسل يديه إلا ابتدروا وضوءه ؛ أى كادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه : أى يدلك به من وقع فى يده وجهه وجلده ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه أى وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدّون النظر إليه تعظيما له صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإنى لكم ناصح ، مع أنى أخاف أن لا تنصروا عليه ، فقالت له قريش : لا تتكلم بهذا

يا أبا يعفور ، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل ، فقال : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة ، ثم انصرف هو ومن معه إلى الطائف .

وعروة هذا هو ابن مسعود الثقفي ، وهو عظيم القريتين الذى عنته قريش بقولها (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقيل المعنيّ بذلك الوليد بن المغيرة ؛

ويقال إن عروة هذا كان جدا للحجاج لأمه . ويدل لذلك كما يدل للأوّل ما حكى عن الشعبي أنه سأل الحجاج وهو والى العراق حاجة فاعتل عليه فيها ، فكتب إليه : والله لا أعذرك وأنت والى العراقين وابن عظيم القريتين .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خراش بن أمية الخزاعي رضى الله عنه ، فبعثه إلى قريش ، وحمله صلى الله عليه وسلم على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى عقره عكرمة بن أبى جهل ، وأسلم بعد ذلك رضى الله عنه ، وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما لقى . ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله إنما أخاف قريشا على نفسى ، وما بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أى فإن بنى عمه يمنعونه . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ، أى ولعل ذكر أبى سفيان من غلط بعض الرواة ، لما تقدّم أنه لم يكن حاضرا بالحديبية : أى صلحها ، وأمر صلى الله عليه وسلم عثمان أن يأتى رجالا مسلمين بمكة ونساء مسلمات ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله وشيك : أى قريب أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم بعث عثمان رضى الله عنه بكتاب لقريش : أى قيل فيه إنه ما جاء لحرب أحد ، وإنما جاء معتمرا بدليل ما يأتى فى ردّهم عليه . وقيل فيه ما وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمر ، وليقع الصلح بينهم على أن يرجع فى هذه السنة الحديث ، وأنهم لما احتبسوه أمسك صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو عنده كذا فى شرح الهمزية لابن حجر ، وقدمه على الأوّل فليتأمل .

فخرج عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى مكة ، ودخل مكة من الصحابة عشرة أيضا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى ليزوروا أهاليهم لم أقف على أسمائهم ، ولم أقف على أنهم هل دخلوا مع عثمان أم لا فلقيه قبل أن يدخل مكة أبان بن سعيد بن العاص رضى الله عنه فإنه أسـلم بعد ذلك قبل خيبر ، فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعله بين يديه ؛ فجاء إلى أبى سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به ، أى وهم يردّون عليه إن محمدا لا يدخلها علينا أبدا ، فلما فرغ عثمان من تبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف [ ] . وفى رواية : قال له أبان إن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وقال المسلمون : قد خاص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ، وقال : وما يمنعه يارسول الله وقد خلص إليه ، قال : ذلك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف ، فلما رجع عثمان وقالوا له فى ذلك : أى قالوا له طفت بالبيت ، قال بئسما ظننتم بى ، دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ، والذى نفسى بيده لو مكث بها معتمرا سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيما بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ .

وكانت قريش قد احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان رضى الله عنه قد قتل ، أى وكذا قتل معه العشرة رجال الذين دخلوا مكة أيضا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم عند بلوغه ذلك : لا نبرح حتى نناجز القوم : أى نقاتلهم ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة ، أى بعد أن قال لهم : إن الله أمرنى بالبيعة .فعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : بينما نحن جلوس قائلون إذنادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وهو عمر بن الخطاب : أيها الناس البيعة البيعة ، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله ؛ فسرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة فبايعناه ، أى وبايعه الناس على عدم الفرار ، وأنه إما الفتح وإما الشهادة ، وهذا هو المراد بما جاء فى بعض الروايات ، فبايعناه على الموت ولم يتخلف منا أحد إلا الجدّ بن قيس ، قال : لـكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته يستتر بها من الناس . وقد قيل

إنه كان يرمى بالنفاق ، وقد نزل فى حقه فى غزوة : أى غزوة تبوك من الآيات ما يدله على ذلك كما سيأتى ، وهو ابن عمة البراء بن معرور رضى الله عنه ، وكان سيد بنى سلمة بكسر اللام فى الجاهلية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لبنى سلمة : «من سيدكم ؟ قالوا الجدّ بن قيس : أى على بخل فيه قال : وأىّ داء أدوأ من البخل ؛ ثم قال صلى الله عليه وسلم : بل سيدكم عمرو بن الجموح . وقيل قالوا : يا رسول الله من سيدنا ؟ قال : سيدكم بشر بن البراء بن معرور » وهذا قال ابن عبد البر إن النفس إليه أميل .

ومما يدل للأوّل ما أنشده شاعر الأنصار رضى الله عنهم من قوله :

وقال رسول الله والحق قوله ... لمن قال منا من تسموه سيدا
فقالوا له جد بن قيس على التى ... نبخله فيها وإن كان أسودا
فتى ما يخطى خطوة لدنيئة ... ولا مد يوما ما إلى سوأة يدا
فسود عمرو بن الجموح لجوده ... وحق لعمرو بالندى أن يسودا
إذا جاءه السؤال أنهب ماله ... وقال خذوه إنه عائد غدا
ولو كنت يا جد بن قيس على التى ... على مثلها عمرو لكنت المسوّدا

أى وبايع صلى الله عليه وسلم عن عثمان فوضع يده على يده : أى وضع يده اليمنى على يده اليسرى ، وقال : اللهم إن هذه عن عثمان فانه فى حاجتك وحاجة رسولك . أى وفى لفظ قال : اللهم إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله فأنا أبايع عنه ، فضرب بيمينه شماله ، وما ذاك إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم بعدم صحة القول بأن عثمان قد قتل ، أو أن ذلك كان بعد مجىء الخبر له صلى الله عليه وسلم بأن القول بقتل عثمان رضى الله عنه باطل [ ] .

وفيه أنه حيث علم صلى الله عليه وسلم أن عثمان لم يقتل لا معنى للبيعة ، لأن سببها كما علمت بلوغه الخبر أن عثمان قد قتل .

إلا أن يقال : سببها ما ذكر ، وقتل العشرة من الصحابة ، ويدل لذلك ما يأتى قريبا أن عثمان رضى الله عنه بايع بعد مجيئه من مكة فليتأمل ، أى وبهذا يرد ما تمسك به بعض الشيعة فى تفضيل على كرم الله وجهه على عثمان رضى الله عنه ، لأن عليا كان من جملة من بايع تحت الشجرة ، وقد خوطبوا بقوله صلى الله عليه وسلم « أنتم خير أهل الأرض» فإنه صريح فى تفضيل أهل الشجرة على غيرهم .

وأيضا علىّ حضر بدرا دون عثمان ، وقد جاء مرفوعا « لا يدخل النار من شهد بدرا والحديبية » .

وحاصل الرد أن النبى صلى الله عليه وسلم بايع عن عثمان مع الاعتذار عنه بأنه فى حاجة الله وحاجة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان رضى الله عنه عن بدر لتمريض بنته صلى الله عليه وسلم ، وأسهم له كما تقدم ، فهو فى حكم من حضرها ، على أنه سيأتى أنه رضى الله عنه بايع تحت تلك الشجرة بعد مجيئه من مكة ، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « أنتم خير أهل الأرض » على عدم حياة الخضر عليه الصلاة والسلام حينئذ ، لأنه يلزم أن يكون غير النبى أفضل منه ، وقد قامت الأدلة الواضحة على ثبوت نبوته كما قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ، وقد أشار إلى امتناع عثمان رضى الله تعالى عنه من الطواف وإلى عدم صحة القول بأن عثمان قتل وإلى مبايعته صلى الله عليه وسلم عنه صاحب الهمزية بقوله رحمه الله :

وأبى أن يطوف بالبيت إذ لم ... يدن منه إلى النبى فناء
فجزته عنها ببيعة رضوا ... ن يد من نبيه بيضاء
أدب عنده تضاعفت الأع ... مال بالترك حبذا الأدباء

أى وامتنع رضى الله عنه أن يطوف بالبيت لأجل أنه لم يقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم من البيت جانب ، فجزته عن تلك الفعلة ، وهى ذهابه إليهم وامتناعه من الطواف يد من نبيه عليه الصلاة والسلام تلك اليد البالغة فى الكرم ، وذلك فى بيعة الرضوان ، وذلك أدب عظيم عند عثمان رضى الله تعالى عنه حصل منه أمر عظيم مستغرب هو تضاعف ثواب الأعمال التى تركها بسبب تركها ، وهى الطواف .

وذكر أن قريشا بعثت إلى عبد الله بن أبى ابن سلول إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل ، فقال له ابنه عبد الله رضى الله عنه : يا أبت أذكرك الله أن لا تفضحنا فى كل موطن ، تطوف ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى حينئذ ، وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى لفظ قال : إن لى فى رسول الله أسوة حسنة ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم امتناعه رضى الله عنه أثنى عليه بذلك .

وكانت البيعة تحت شجرة هناك ، أى من أشجار السمر . أى ولما جاء عثمان رضى الله

تعالى عنه بايع تحت تلك الشجرة ، وقيل لها بيعة الرضوان ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » رواه مسلم [] وكانوا ألفا وأربعمائة على الصحيح .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « يا أيها الناس إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية » وتقدم أن الواو بمعنى أو فى حديث « لا يدخل النار من شهد بدراً والحديبية » بدليل رواية مسلم هذه .

ومن ثم قال ابن عبد البر رحمه الله : ليس فى غزواته صلى الله عليه وسلم مايعدل بدرا أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية . والراجح تقديم غزوة أحد على غزوة الحديبية ، وأنها التى تلى بدرا فى الفضيلة . وأول من بايعه صلى الله عليه وسلم سنان بن أبى سنان الأسدى ، كذا فى الأصل أنه الصواب بعد أن حكى أن أول من بايع أبو سنان ، أى وهو ماذهب إليه فى الاستيعاب حيث قال : الأكثر الأشهر أن أبا سنان أول من بايع بيعة الرضوان ، أى لا ابنه سنان ، وأبو سنان هذا هو أخو عكاشة بن محصن رضى الله عنه ، وكان أكبر من أخيه عكاشة بعشرين سنة . وضعفه فى الأصل بأن أبا سنان رضى الله عنه مات فى حصار بنى قريظة ودفن بمقبرتهم ، أى كما تقدم .

ولما بايعه سنان قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أبايعك على مافى نفسك ، قال : وما فى نفسى ؟ قال : أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل ، وصار الناس يقولون له صلى الله عليه وسلم : نبايعك على مابايعك عليه سنان .

وقيل أول من بايع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وقيل سلمة بن الأكوع.

قال : وذكر أن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بايع ثلاث مرات : أول الناس ، ووسط الناس ، وآخر الناس بأمره له صلى الله عليه وسلم فى الثانية والثالثة بعد قول سلمة له : قد بايعت ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأيضا ، وذلك ليكون له فى ذلك فضيلة ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يؤكد بيعته لعلمه بشجاعته وعنايته بالإسلام وشهرته فى الثبات ، أى بدليل ماوقع له رضى الله عنه فى غزوة ذى قرد بناء على تقدمها على ماهنا أو تفرس فيه صلى الله عليه وسلم ذلك بناء على تأخرها وبايع عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما مرتين .

أى وقد قيل فى سبب نزول قوله تعالى (لا تحلوا شعائر الله) الآية أن المسلمين لما

صدوا عن البيت بالحديبية ، مر بهم ناس من المشركين يريدون العمرة ، فقال المسلمون : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فأنزل الله تعالى الآية : أى لاتصـــدوا هؤلاء العمار أن صدكم أصحابهم .

قال: وكان محمد بن مسلمة رضى الله عنه على حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثت قريش أربعين ، وقيل خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص ، أى وهو الذى بعثته قريش له صلى الله عليه وسلم ليسأله فيما جاء ، وقال صلى الله عليه وسلم فى حقه : هذا رجل غادر ، وفى لفظ : رجل فاجر ، ليطوفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا رجاء أن يصيبوا منهم أحدا أو يجدوا منهم غرة : أى غفلة ، فأخذهم محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلا مكرزا فإنه أفلت ، وصدق فيه قول النبى صلى الله عليه وسلم إنه رجل فاجر أو غادر كما تقدم ، وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسوا ، وبلغ قريشا حبس أصحابهم ، فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة ، وقتـــل من المسلمين ابن زنيم رضى الله عنه ، رمى بسهم . فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا .

وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعا ،منهم سهيل بن عمرو ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : سهل أمركم ،فقال سهيل: يامحمد إن الذى كان من حبس أصحابك ، أى عثمان والعشرة رجال وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولا وثانيا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى ، فقالوا ننعل ، فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك ، فبعثوا بمن كان عندهم وهو عثمان والعشرة رجال ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابهم انتهى .

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا ، وأشار أهل الرأى بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل ، فيقيم ثلاثا معه ســـلاح الراكب السيوف فى القرب والقوس ، فبعثوا سهيل ابن عمرو أى ثانيا ومعه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصالحوه على أن يرجع فى عامه هذا ، لئلا تتحدث العرب بأنه دخل عنوة أي وأنه يعود من قابل ، فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل ، أى ثانيا . فلما انتهى سهيل إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم جثا على ركبتيه بين يديه صلى الله عليه وسلم والمسلمون حوله جلوس وتكلم فأطال ، ثم تراجعا ، أى ومن جملة ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال له سهيل : والله لاتتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضغطة بالضم : أى بالشدة والإكراه ، ولكن ذلك من العام القابل ، ثم التأم الأمر بينهما على الصلح على ترك القتال إلى آخر ما يأتى ، ولم يبق إلا الكتاب بذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى أبا بكر رضى الله عنه ، فقال له يا أبا بكر أليس هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية بفتح الدال وكسر النون وتشديد الياء : النقيصة والخصلة المذمومة فى ديننا ؛ فقال له أبو بكر رضى الله عنه : يا عمر الزم غرزه : أى ركابه ، وفى رواية أنه قال له : أيها الرجل إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه وهو ناصره ، استمسك بغرزه حتى تموت ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر رضى الله عنه : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى عمر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ما قال لأبى بكر ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولم يضيعنى .

ولقى عمر رضى الله عنه من ذلك الشروط الآتى ذكرها أمرا عظيما ، وجعل يردّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما يقول ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر إنى رضيت وتأبى ؟ فكان عمر رضى الله عنه يقول : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون هذا خيرا .

هذا ، والذى فى الإمتاع عكس ما هنا : أى أنه قال ما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، ثم لأبى بكر ثانيا ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أى بعد أن كان أمر أوس بن خولة أن يكتب ، فقال له سهيل : لا يكتب إلا ابن عمك علىّ أو عثمان بن عفان ، فأمر عليا كرم الله وجهه ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا : أى الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فكتبها لأن قريشا كانت تقولها . وأول من كتبها أمية بن أبى الصلت ، ومنه

تعلموها ، وتعلمها هو من رجل من الجن فى خبر ذكره المسعودى ، أى وإنما كتبها بعد أن قال المسلمون : والله لا يكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فضج المسلمون .

وعن الشعبى رحمه الله : كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فكتب النبى أول ما كتب باسمك اللهم ، وتقدم أنه كتب ذلك فى أربع كتب حتى نزلت (بسم الله مجريها ومرساها) فكتب باسم الله ، ثم نزلت (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) فكتب (بسم الله الرحمن) ثم نزلت (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) أى فكتبها وهذا السياق يدل على تأخر نزول الفاتحة عن هذه الآيات ، لأن البسملة نزلت أولها ، وتقدم الخلاف فى وقت نزولها فليتأمل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل بن عمرو : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك » أى وفى لفظ « لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ، واتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : امحه » وفى لفظ « امح رسول الله ، فقال على كرم الله وجهه : ما أنا بالذى أمحاه ، وفى لفظ : لا أمحوك ، وفى لفظ : والله لا أمحوك أبدا ، فقال : أرنيه ، فأراه إياه ، فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة ، وقال اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، وقال : أنا والله رسول الله وإن كذبتمونى ، وأنا محمد بن عبد الله » وفى لفظ « فجعل علىّ يتلكأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » : أى مقهور .

وهو إشارة منه صلى الله عليه وسلم لما سيقع بين علىّ ومعاوية رضى الله تعالى عنهما فإنهما فى حرب صفين وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول . وكان القتال فى صفر دام مائة يوم وعشرة أيام ، قتل فيه سبعون ألفا خمسة وعشرون ألفا من جيش على كرم الله وجهه من جملة تسعين ألفا وخمسة وأربعون ألفا من جيش معاوية من جملة مائة وعشرين ألفا .

فلما كتب الكاتب فى الصلح : هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ، قال عمرو بن العاص رضى الله عنهما الذى هو أحد الحكمين : اكتب اسمه واسم أبيه ، وأرسل معاوية يقول لعمرو :

لا تـكتب أن عليا أمير المؤمنين ، لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين ما قاتلته ، فبئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم أقاتله ، ولـكن اكتب علىّ بن أبى طالب وامح أمير المؤمنين ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لا تمح إمارة اسم أمير المؤمنين ، فإنك إن محوتها لا تعود إليك ، فلما سمع على كرم الله وجهه ذلك ، وأمره بمحوها ، وقال امحها تذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم له فى الحديبية ما تقدم ، ومن ثم قال : الله أكبر مثلا بمثل، والله إنى لـكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية إذ قالوا لست برسول الله ولا نشهد لك بذلك ، اكتب اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ، فقال عمرو بن العاص رضى الله عنه : سبحان الله أنتشبه بالـكفار ؟ فقال له على كرم الله وجهه : يا ابن النابغة : أى العاهرة ، ومتى كنت عدوا للمسلمين هل تشبه إلا أمك التى وقعت بك ، فقال عمرو : لا يجمع بينى وبينك مجلس أبدا ، فقال علىّ كرم الله وجهه : إنى لأرجو الله أن يطهر مجلسى منك ومن أشباهك .

وذكر أن أسيد بن حضير وسعد بن عبادة رضى الله عنهما أخذا بيد علىّ كرم الله وجهه ، ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، وضجت المسلمون وارتفعت الأصوات ، وجعلوا يقولون : لم نعط هذه الدنية فى ديننا ؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم ويومئ بيده إليهم أن اسكتوا ، ثم قال : أرنيه الحديث ، وكان الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، وقيل سنتين ، وقيل أربع سنين ، أى وصححه الحاكم — تأمن فيه الناس ويكفّ بعضهم عن بعض . أى ويقال لهذا العقد هدنة ومهادنة وموادعة ومسالمة . وقال زيادة على اشتراط الـكف عن الحرب على أنه من أتى محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش ممن هو على دين محمد بغير إذن وليه رده إليه ذكرا كان أو أنثى .

قال السهيلى رحمه الله: وفى رد المسلم إلى مكة عمارة للبيت وزيادة خير له فى الصلاة بالمسجد الحرام والطواف بالبيت ، فـكان هذا من تعظيم حرمات الله ، هذا كلامه . ومن أتى قريشا ممن كان مع محمد : أى مرتدا ذكرا كان أو أنثى لم تردّه إليه .

وهذا الثانى يوافق قول أئمتنا معاشر الشافعية يجوز شرط أن لا يردوا من جاءهم مرتدا والأول يخالف قولهم: لايجوز شرط رد مسلمة تأتينا منهم ،فإن شرط فسد الشرط والعقد، إلا أن يقال هذا ماوقع عليه الأمر أولا ثم نسخ كماسيأتى ، وشرطوا أنه من أحب أن يدخل

فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأن بيننا وبينكم عيبة مكفوفة : أى صدورا منطوية على ما فيها لا تبدى عداوة ؛ وقيل صدورا نقية من الغلّ والخداع منطوية على الوفاء بالصلح ؛ وأنه لا إسلال ولا إغلال : أى لا سرقة ولا خيانة ، قال سهيل : وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة ؛ وأنه إذا كان عام قابل خرج منها قريش فتدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة ؛ أى ثلاثة أيام معك سلاح الراكب ، السيوف فى القرب والقوس لا تدخلها بغيرها .

ويقال إنه صلى الله عليه وسلم هو الذى كتب الكتاب بيده الشريفة ، وهو ماوقع فى البخارى أى أطلق الله يده صلى الله عليه وسلم بالكتابة فى تلك الساعة خاصة وعد معجزة له .

قال بعضهم : لم يعتبره أى القول بذلك أهل العلم ، ومعنى كتب أمر بالكتابة. وفى النور : وفى كون هذا أى أنه كتب بيده فى البخارى فيه نظر ، والذى فىالبخارى : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب ليكتب فكتب : هذا ماقاضى عليه محمد الحديث، أى فلفظة بيده ليست فى البخارى ، ومع إسقاطها التأويل ممكن . وتمسك بظاهر قوله : فكتب أبو الوليد الباجى المالكى رحمه الله على أنه صلى الله عليه وسلم كتب بيده ، فشنع عليه علماء الأندلس فى زمانه ، بأن هذا مخالف للقرآن ،فناظرهم واستظهر عليهم بأن هذا لا ينافى القرآن وهو قوله تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ لأن هذا النفى مقيد بما قبل ورود القرآن ، وبعد أن تحققت أميته صلى الله عليه وسلم وتقررت بذلك معجزته ، لامانع من أن يعرف الكتابة من غير معلم فتكون معجزة أخرى ولا يخرجه ذلك عن كونه أميا .

أى ويقال إن الذى كتب هذا الكتاب محمد بن مسلمة رضى الله عنه ، وعده الحافظ ابن حجر رحمه الله من الأوهام .

وجمع بأن أصل هذا الكتاب كتبه على كرم الله وجهه ، ونسخ مثله محمد بن مسلمة رضى الله عنه لسهيل بن عمرو ، أى فإن سهيلا قال : يكون هذا الكتاب عندى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل عندى ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كتب لسهيل نسخة أخذها عنده . وعند كتابته اشترط أن يردّ إليهم من جاء مسلما ، قال المسلمون : سبحان الله كيف نردّ للمشركين من جاء مسلما ؟ وعسر عليهم شرط

ذلك ، وقالوا : يارسول الله أتكتب هذا ؟ قال نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا . وفى لفظ قال عمر : يارسول الله أترضى بهذا ؟ فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا ، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه فى شىء ، وليس منا بل هو أولى بهم .

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب بالشروط المذكورة ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف فى الحديد: أى يمشى فى قيوده متوشحا سيفه ، قد أفلت إلى أن جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فجعل المسلمون يرحبون به ويهنئونه ، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه ، وفى لفظ : أخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبى جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا وأخذ بتلبيبته، وقال : يامحمد هذا أول ماأقاضيك عليه أن ترده إلى ، لقد لجت القضية بينى وبينك ، أى وجبت وتمت قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت، فجعل ينتره بتلبيبته ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل رضى الله عنه يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى ؟ ألا ترون مالقيت ، فإنه رضى الله عنه كان عذب عذابا شديدا على أن يرجع عن الإسلام فزاد الناس ذلك إلى مابهم ، أى فإنهم كانوا لا يشكون فى دخولهم مكة وطوافهم بالبيت للرؤيا التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما رأوا الصلح وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه داخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، خصوصا من اشترط أن يرد إلى المشركين من جاء مسلما منهم ، أى ورد أبى جندل إليهم بعد ضربه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله أن لا نغدر بهم .

وبهذا استدل أئمتنا على أنه يجوز شرط رد من جاءنا منهم مسلما إليهم ولا نرده إليهم إلا إذا كان حرا ذكرا غير صبى ومجنون وطلبته عشيرته .

وفى لفظ آخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لسهيل : إنا لم نفض الكتاب بعد ، فقال : بلى لقد لجت القضية بينى وبينك ، أى تم العقد فرده . فقال النبى صلى الله عليه

وسلم فأجره لى ، فقال : ما أنا مجير ذلك لك ، قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل ، فقال مكرز وحويطب : قد أجرناه لك لا نعذبه .

أى وهذا وما تقدم يخالف قول ابن حجر الهيتمى رحمه الله إن مجىء أبى جندل كان قبل عقد الهدنة معهم رواه البخارى . وعند ذلك قال حويطب لمكرز : ما رأيت قوما قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد ، أما إنى أقول لك : لا تأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة ، فقال مكرز : وأنا أرى ذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومشى إلى جنب أبى جندل ، أى وأبوه سهيل بجنبه يدفعه ، وصار عمر رضى الله عنه يقول لأبى جندل : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم كدم كلب ، أى ومعك السيف ، يعرض له بقتل أبيه ، أى وفى رواية إن دم الكافر عند الله كدم الكلب ويدنى قائم السيف منه ، أى وفى لفظ : وجعل يقول : يا أبا جندل إن الرجل يقتل أباه فى الله ، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم فى الله ، فقال له أبو جندل : مالك لا تقتله أنت ، فقال عمر : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله وقتل غيره ، فقال أبو جندل رضى الله عنه : ما أنت أحق بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم منى ، فقال عمر رضى الله عنه : وددت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضن الرجل بأبيه .

وفيه كيف يظن عمر حينئذ جواز قتله لأبيه حتى يعرض له به ، إلا أن يقال ظن ذلك لكونه يريد أن يفتنه عن دينه ويرجع إلى الكفر وإن كان صلى الله عليه وسلم قال له : يا أبا جندل اصبر واحتسب .

ورجع أبو جندل إلى مكة فى جوار مكرز بن حفص أى وحويطب ، فأدخلاه مكانا وكف عنه أبوه .

وأبو جندل اسمه العاص ، وهو أخو عبد الله بن سهيل بن عمرو ، وإسلام عبد الله سابق على إسلام أبى جندل ، لأن عبد الله شهد بدرا ، أى فإنه خرج مع المشركين لبدر ، ثم انحاز من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه بدرا والمشاهد كلها وأبو جندل رضى الله عنه أول مشاهده الفتح .

ودخلت خزاعة فى عقده صلى الله عليه وسلم وعهده ، أى وفى لفظ : ووثب من هناك من خزاعة . فقالوا : نحن ندخل فى عهد محمد وعقده ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، ودخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم .

ويذكر أن حويطبا قال لسهيل : بادأنا أخوالك يعنى خزاعة بالعداوة ، وكانوا يستترون منا فدخلوا فى عهد محمد وعقده ، فقال له سهيل : ماهم إلا كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد ، قوم اختاروا لأنفسهم أمرافأ نصنع بهم ، قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر ، قال سهيل إياك أن يسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة ، فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه .

ومن هذا التقرير يعلم أن بيعة الرضوان كانت قبل الصلح ، وأنها السبب الباعث لقريش عليه .

ووقع فى المواهب ما يقتضى أن البيعة كانت بعد الصلح ، وأن الكتاب الذى ذهب به عثمان كان متضمنا للصلح الذى وقع بينه صلى الله عليه وسلم وبين سهيل بن عمرو ، فحبست قريش عثمان ، فحبس صلى الله عليه وسلم سهيلا ، ولا يخفى عليك ما فيه .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح وأشهد عليه رجالا من المسلمين: أى أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ، أى ورجالا من قريش حويطبا ومكرزا قام إلى هديه فنحره ، ومن جملته جمل لأبى جهل وكان نجيبا مهريا ، وكان يضرب فى لقاحه صلى الله عليه وسلم فى رأسه برة ، أى حلقة من فضة ، وقيل من ذهب ليغيظ بذلك المشركين ، غنمه صلى الله عليه وسلم يوم بدر كما تقدم .

قال : وقد كان فر من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبى جهل ، وخرج فى أثره عمرو بن غنمة الأنصارى ، فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ، ودفعوا فيه عدة ثياب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أنا سميناه فى الهدى فعلنا انتهى .

وفى لفظ قال لهم سهيل بن عمرو : إن تريدوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل ، فإن قبلها فأمسكوا هذا الجمل وإلا فلا تتعرضوا له : أى فعرضوا عليه صلى الله عليه وسلم ذلك فأبى ، وقال : لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقبلت المائة ، وفرق صلى الله عليه وسلم لحم الهدى على الفقراء الذين حضروا الحديبية.

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى مكة عشرين بدنة مع ناجية حتى نحرت

بالمروة وقسموا لحمها على فقراء مكة ، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه وكان الحالق لرأسه خراش بن أمية الخزاعى الذى بعثه إلى قريش فعقروا جمله وأرادوا قتله كما تقدم .

فلما رأى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون ، وقصر بعضهم كعثمان وأبى قتادة .

وفى كلام بعضهم أى وهو السهيلى أنه لم يقصر غيرهما ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة واحدة فقال « اللهم ارحم المحلقين » وفى لفظ « يرحم الله المحلقين » وفى لفظ « اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : والمقصرين ؟ فقال : يرحم الله المحلقين أو قال : اللهم ارحم المحلقين أو اللهم اغفر للمحلقين قالوا : والمقصرين فقال : يرحم الله المحلقين والمقصرين » وفى رواية قال « والمقصرين فى الرابعة ، وقد قالوا له يارسول الله لم ظاهرت؟ أى أظهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال لأنهم لم يشكوا: أى لم يرجوا أن يطوفوا بالبيت ، بخلاف المقصرين » أى لأن الظاهر من حالهم أنهم أخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت .

وأرسل الله سبحانه وتعالى ريحا عاصفة احتملت شعورهم فألقتها فى الحرم ، وفيه أنه تقدم أن الحديبية أكثرها فى الحرم ، فاستبشروا بقبول عمرتهم .

وفى رواية « وأنه صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من الكتاب أمرهم بالنحر والحلق قال ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم منهم أحد ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة رضى الله عنها ، أى وهو شديد الغضب فاضطجع . فقالت : مالك يارسول الله مرارا وهو لايجيبها ، ثم ذكر لها مالقى من الناس وقال لها : هلك المسلمون ؛ أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا ، وفى لفظ قال : عجبا ياأم سلمة ، ألا ترين إلى الناس؟ آمرهم بالأمر فلايفعلونه ، قلت لهم : انحروا واحلقوا وحلوا مرارا فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى ، فقالت : يارسول الله لاتلمهم ، فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ، ثم أشارت عليه صلى الله عليه وسلم أن يخرج ولا يكلم أحدا منهم وينحر بدنه ويحلق رأسه ، ففعل كذلك : أى أخذ الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدن رافعا صوته : بسم الله والله أكبر ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم قبة له من أدم أحمر ودعا بخراش فحلق رأسه ورمى شعره على شجرة فأخذه الناس وتحاصوه ، وأخذت أم عمارة رضى الله عنها طاقات منه ، فكانت تغسلها للمريض وتسقيه فيبرأ . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ثم انصرف صلى الله

عليه وسلم قافلا إلى المدينة أى بعد أن أقام بالحديبية تسعة عشر يوما؛ وقيل عشرين يوما» .

فلما كان صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة أى بكراع الغميم أنزلت عليه سورة الفتح أى وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنزلت علىّ سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، وحصل للناس مجاعة ، فقالوا : يا رسول الله جهدنا : أى أصابنا الجهد وهو المشقة من الجوع وفى الناس ظهر : أى إبل فانحره لنأكل من لحمه ، ولندهن من شحمه ، ولنحتذى من جلوده ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تفعل يا رسول الله ، فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمثل ، كيف بنا إذا لاقينا العدو غدا جياعا ورجالا، أى ثم قال: ولكن إن رأيت أن تدعو الناس إلى أن يجمعوا بقايا أزوادهم ثم تدعو فيها بالبركة ، فإن الله سيبلغها بدعوتك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابسطوا أنطاعكم وعباءكم ففعلوا ، ثم قال : من كان عنده بقية من زاد أو طعام فلينثره ، ودعا لهم ، ثم قال : قربوا أوعيتكم ، فأخذوا ما شاء الله ، أى وحشوا أوعيتهم وأكلوا حتى شبعوا وبقى مثله .

وفى مسلم « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأخذنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا ،فأمرنا النبى صلى الله عليه وسلم فجمعنا من أزوادنا فبسطنا له نطعا ، فاجتمع زاد القوم على النطع ، فكان كربضة العنز » أى كقدر العنز وهى رابضة أى باركة « وكنا أربع عشرة مائة » وقال الراوى « فأكلنا حتى شبعنا ثم حشونا جربنا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، والله لا يلقى الله عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار ، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : هل من وضوء » بفتح الواو :وهو ما يتوضأ به « فجاء رجل بإداوة » وهى الركوة « فيها نطفة من ماء » أى قليل من ماء ، وقيل للماء نطفة لأنه ينطف أى يصب « فأفرغها فى قدح ، أى ووضع راحته الشريفة فى ذلك الماء » قال الراوى « فتوضأنا كلنا ، أى الأربع عشرة مائة ندغفقه دغفقة » أى نصبه صبا شديدا « ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا : هل من طهور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرغ الوضوء» وإلى تكثير الطعام والماء أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله فى وصف راحته الشريفة :

أحييت المرملين من موت جهد　　أعوز القوم فيه زاد وماء

أى حفظت على المحتاجين للزاد والماء حياتهم ، فسلموا من موت قحط شديد ، أعوز القوم فى ذلك القحط زاد وماء . وقال الإمام السبكى فى تائيته فى تكثير الماء :

وعندى يمين لا يمين يأنّ فى　　يمينك وكفا حيثما السحب ضنت

ولما أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم سورة الفتح ، قال له جبريل عليه السلام نهنئك يا رسول الله ، وهنأه المسلمون وتكلم بعض الصحابة وقال : ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت وصدّ هدينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك : بئس الكلام بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم ، وسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله عليهم ، وردكم الله تعالى سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح ، أنسيتم يوم أحد (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) وأنا أدعوكم فى أخراكم ونسيتم يوم الأحزاب (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا ، وقال له بعض الصحابة : أى وهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكة آمنا ؟ قال : بلى ، أفقلت لكم من عامى هذا ؟ قالوا لا ، قال : فهو كما قال جبريل عليه السلام ، فإنكم تأتونه وتطوفون به .

أقول : فيه أنه تقدم أن ذلك كان عن رؤيا لا عن وحى ، إلا أن يقال : يجوز أن يكون جاءه صلى الله عليه وسلم الوحى بمثل ما رأى ثم أخبرهم بذلك والله أعلم .

وفى لفظ : لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين وأخبرهم بذلك ؛ فلما صدوا قالوا له : أين رؤياك يا رسول الله؟ فأنزل الله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) الآية .

أقول : ولا يخالف هذا ما تقدّم أن الرؤيا المذكورة كانت بالمدينة ، وأنها السبب الحامل على الإحرام بالعمرة ، لجواز تكرر الرؤيا ، وأن الأولى اقترن بها الوحى .

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة عام القضية وحلق رأسه ، قال : هذا الذى وعدتكم ، فلما كان يوم الفتح وأخذ المفتاح قال : ادعوا لى عمر بن الخطاب فقال : هذا الذى قلت لكم .

ولما كان فى حجة الوداع ووقف صلى الله عليه وسلم بعرفة فقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : هذا الذى قلت لكم ، وفيه أنه لم يتقدم فى الرؤيا أنه صلى الله عليه وسلم يأخذ المفتاح ، ولا أن يقف بعرفة . إلا أن يقال : يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك بعد الرؤيا ، وأن المراد من ذلك مجرد دخول مكة ؛ والله أعلم .

وأصابهم مطر فى الحديبية لم يبل أسفل نعالهم ، أى ليلا ، فنادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن صلوا فى رحالكم .

أى ووقع مثل ذلك فى حنين أنه أصابهم مثله ، فأمر صلى الله عليه وسلم مناديه ، أن ينادى : ألا صلوا فى رحالكم .

وقال صلى الله عليه وسلم صبيحة ليلة الحديبية لما صلى بهم « أتدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : قال الله عز وجل : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بالله وكافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بنجم كذا ؛ وفى رواية : بنوء كذا وكذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بى » وهذا عند أئمتنا مكروه لاحرام ، أى لأن المراد بالإيمان شكر نعمة الله حيث نسبها إلى الله ، والكفر كفران النعمة حيث نسبها لغيره ، فإن اعتقد أن النجم هو الفاعل كان الكفر فيه على حقيقته وهو ضد الإيمان ، والأول إنما نهى عنه لأنه كان من أمر الجاهلية ، وإلا فهذا التركيب لايقتضى أن يكون نوء كذا فاعلا ، ومن ثم لو قال مطرنا فى نوء كذا : أى فى وقت نوء كذا لم يكره . وكان ابن أبى ابن سلول قال : هذا نوء الخريف ، مطرنا بالشعرى ، أى وسمى الخريف خريفا ، لأنه تخترف فيه الثمار : أى تقطع . والنوء : سقوط نجم ينزل فى الغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق من أنجم المنازل ، وذلك يحصل فى كل ثلاثة عشر يوما إلا الجبهة النجم المعروف ، فإن لها أربعة عشر يوما ، قال بعضهم : والأنواء ثمانية وعشرون نوءاً : أى نجما ، كان العرب يعتقدون أن من ذلك يحدث المطر أو الريح .

وفى الحديث « لو حبس الله القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله أصبح طائفة منهم به كافرين ، يقولون مطرنا بنوء المجدح » بكسر الميم : نجم يقال هو الدبران .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه « إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها ، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا » .

ونقل عن عمر رضي الله عنه « أنه قال : مطرنا بنوء كذا » ولعله لم يبلغه النهى عن ذلك حيث قال .

قال العارف بالله ابن عطاء الله : لعل هذا يكون ناهيا لك أيها المؤمن عن التعرّض إلى علم الكواكب واقتراناتها ، ومانعا لك أن تدّعى وجود تأثيراتها . واعلم أن لله فيك قضاء لابد أن ينفذه وحكما لابدّ أن يظهره ، فما فائدة التجسس على غيب علام الغيوب ، وقد نهانا سبحانه أن نتجسس على غيبه .

وصارت تلك الشجرة التي وقعت عندها البيعة يقال لها شجرة الرضوان ، وبلغ عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أى فى خلافته أن ناسا يصلون عندها ، فتوعدهم وأمر بها فقطعت : أى خوف ظهور البدعة .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط فى تلك المدّة ، وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أوّل من هاجر من النساء بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وإنها خرجت من مكة وحدها وصاحبت رجلا من خزاعة حتى قدمت المدينـــة .

وفى الاستيعاب : يقولون إنها مشت على قدميها من مكة إلى المدينة ولا يعرف لها اسم إلا هذه الكنية ، وهى أخت عثمان بن عفان رضى الله عنه لأمه .

ولما قدمت المدينة دخلت على أم سلمة رضى الله تعالى عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوّفت أن يردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل صلى الله عليه وسلم على أم سلمة أعلمته بها ، فرحب بأم كلثوم رضى الله تعالى عنها ، فخرج أخواها عمارة والوليد فى ردها بالعهد ، فقالا : يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه . فلم يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، أى بعد أن قالت له : يارسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف ، فتردنى إلى الكفار يفتنونى عن دينى ولا صبر لى ، فنزل القرآن بنقض ذلك العهد بالنسبة للنساء لمن جاء منهن مؤمنا لكن بشرط امتحانهن بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات) أى فى مدة هذا العهد والصلح (مهاجرات فامتحنوهن) قال السهيلى رحمه الله: وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزة ، ولا هاجرت إلا لله ولرسوله ، وفى لفظ : كانت المرأة إذا جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم حلفها عمر رضى

الله عنه بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ماخرجت من بغض زوج ، وبالله ماخرجت لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله ، فإذا حلفت لم ترد ورد صداقها إلى بعلها .

أى ولما قدم الوليد وعمارة مكة أخبرا قريشا بذلك ، فرضوا أن تحبس النساء ، ولم يكن لأم كلثوم رضى الله عنها زوج بمكة ، فلما قدمت المدينة زوّجها زيد بن حارثة .

وفى رواية : لما كان صلى الله عليه وسلم بالحديبية جاءته جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة ، من جملتهن سبيعة بنت الحارث ، فأقبل زوجها وهو مسافر المخزومى طالبا لها ، وأراد مشركو مكة أن يردّوهن إلى مكة ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ) فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة فحلفت ، فأعطى صلى الله عليه وسلم زوجها مسافرا ما أنفق عليها ، فتزوّجها عمر رضى الله عنه . وهذا السياق يدل على أن الآية الكريمة نزلت بالحديبية ، وما قبله يدل على أنها نزلت بالمدينة . وقد يقال : لامانع من تكرر نزول الآية .

وأما فى غير مدة هذا العهد ، أى بعد نسخه بفتح مكة فلم تستحلف امرأة جاءت إلى المدينة ولا يرد صداقها إلى بعلها ، ومن ثم ذهب أئمتنا إلى أنه إذا شرط رد المسلمة إليهم فسدت الهدنة كما تقدم ، ولايجب دفع المهرللزوج لو جاءت مسلمة ، وقوله تعالى (وآتوهم) أى الأزواج (ما أنفقوا) أى من المهور محمول على الندب ، والصارف له عن الوجوب كون الأصل براءة الذمة ، لأن البضع ليس بمال للكافر .

وفيه أن طلب رد المهور للأزواج كان واجبا فى مدة العهد خاصة كما علمت ، وأنزل الله تعالى (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) أى نهى المؤمنين عن البقاء على نكاح المشركات فطلق الصحابة رضى الله عنهم كل امرأة كافرة فى نكاحهم ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان له امرأتان فطلقهما يومئذ ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان والأخرى صفوان بن أمية ، فكان صلى الله عليه وسلم فى مدة العهد يرد الرجال ولا يرد النساء ، أى بعد امتحانهنّ . فقد جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة أبو بصير رضى الله عنه ، وكان ممن حبس بمكة ، وكتب فى رده أزهر بن عوف رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك وهو من الطلقاء ، وهو عم عبد الرحمن بن عوف والأخنس بن شريق رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك كتابا ، وبعث به رجلا من بنى عامر يقال له خنيس ومعه مولى

يهديه الطريق ، فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب ، فقرأه أبيّ رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا ، فابعث إلينا بصاحبنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ماعلمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك ، قال : يارسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى عن دينى ، قال صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير انطلق فان الله سيجعل لك ولمن حولك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق معهما ، أى وصار المسلمون رضى الله عنهم يقولون له : الرجل يكون خيرا من ألف رجل يغرونه بالذين معه حتى إذا كانوا بذى الحليفة جلس رضى الله عنه إلى جدار ومعه صاحباه ، فقال أبو بصير رضى الله عنه لأحد صاحبيه ومعه سيفه : أصارم سيفك هذا يا أخا بنى عامر ؟ قال : نعم انظر إليه إن شئت ، فاستله أبو بصير رضى الله عنه ، ثم علاه به حتى قتله .

وفى لفظ : إن الرجل هو الذى سل سيفه ثم هزه فقال : لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل ؛ فقال له أبو بصير : أو صارم سيفك هذا ؟ قال: نعم فقال : ناولنيه أنظر إليه فناوله ؛ فلما قبض عليه ضربه به حتى برد ؛ وقيل تناوله بفيه وصاحبه نائم فقطع إساره أى كتافه ؛ ثم ضربه به حتى برد ؛ فطلب المولى فخرج المولى سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم والحصى يطنّ تحت قدميه . وفى لفظ : والحصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه ، أى وأبو بصير فى أثره حتى أزعجه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : إن هذا الرجل قد رأى فزعا ؛ وفى لفظ قد رأى هذا ذعرا ؛ فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد ، قال له : ويحك مالك ؟ قال قتل صاحبكم صاحبى وأفلت منه ولم أكد وإنى لمقتول واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه ؛ فإذا أبو بصير رضى الله عنه أناخ بعير العامرى بباب المسجد؛ ودخل متوشحا السيف ، ووثب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك ، أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يفتن بى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب حيث شئت ، فقال : يا رسول الله هذا سلب العامرى : أى الذى قتلته رحله وسيفه فخمسه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : إذا خمسته رأونى لم أوف لهم

بالذى عاهدتهم عليه ، ولكن شأنك بسلب صاحبك ، ومن ثم قال فقهاؤنا : يجوز رد المسلم إلى الطالب له من غير عشيرته إذا قدر على قهر الطالب والهرب منه .

وعند ذلك ذهب أبو بصير رضى الله عنه إلى محل من طريق الشام تمر به عيرات قريش ؛ واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة ؛ أى إنهم لما بلغهم خبره رضى الله عنه ؛ أى وأنه صلى الله عليه وسلم قال فى حقه : ويل امه مسعر حرب ؛ أى لو كان معه رجال صاروا يتسللون إليه وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو رضى الله عنهما الذى رده يوم الحديبية وخرج من مكة فى سبعين فارسا أسلموا فلحقوا بأبى بصير وكرهوا أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المدة التى هى زمن الهدنة أى خوف أن يردهم إلى أهليهم ، وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلثمائة مقاتل ، فقطعوا مادة قريش لايظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير إلا أخذوها ، حتى كتبت قريش له صلى الله عليه وسلم تسأله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لهم بهم .

وفى رواية أن قريشا أرسلت أبا سفيان بن حرب رضى الله عنه فى ذلك وأن قريشا قالوا إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاء منهم إليك فأمسكه فى غير حرج ، أى وفى لفظ : من أتاه فهو آمن ، فإنا أسقطنا هذا الشرط ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى جندل وإلى أبى بصير رضى الله عنهما أن يقدما عليه وأن من معهما من المسلمين يلحقوا ببلادهم وأهليهم ، ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش ولا لعيراتهم ، فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وأبو بصير رضى الله عنه يموت ، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده يقرؤه ، فدفنه أبو جندل رضى الله عنه مكانه ، وجعل عند قبره مسجدا .

وقدم أبو جندل رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ناس من أصحابه ، ورجع باقيهم إلى أهليهم . وأمنت قريش على عيراتهم وعلمت أصحابه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم الذين عسر عليهم رد أبى جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مما أحبوه وأن رأيه صلى الله عليه وسلم أفضل من رأيهم ، وعلموا بعد ذلك أن مصالحته صلى الله عليه وسلم كانت أولى ، لأنها كانت

سببا لكثرة المسلمين ، فإن الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام ، فأسلم كثير منهم .

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين أسلموا في سنتي الفتح بناء على أن المدة كانت سنتين أو المعنى سنتين من الصلح : أى من مدته يعدلون الذين أسلموا قبلهما .

قال : وعن بعضهم : أى وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقول : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد صلى الله عليه وسلم وربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . لقد رأيت سهيل بن عمرو رضي الله عنه بعد إسلامه في حجة الوداع قائما عند المنحر يقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينحرها بيده ، ودعا الحلاق لحلق رأسه فأنظر إلى سهيل كلما يلقط من شعره صلى الله عليه وسلم يضعه على عينيه ، وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) أى وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمدت الله وشكرته الذى هداه للإسلام .

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ونحن محرمون قد حصرنا المشركون ، وكان لى وفرة فجعلت الهوام : أى القمل تتساقط على وجهى ، فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم » وفى رواية «ملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى » وفى رواية «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادنه ، فدنوت يقول ذلك مرتين أو ثلاثا » وفى رواية « أتى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية وأنا أوقد تحت برمة » وفى لفظ « قدر لى ، فقال : كأنك تؤذيك هوامّ رأسك ؟ قال أجل ، قال : احلق واهد هديا ، فقال : ما أجد هديا ، فقال صم ثلاثة أيام » وفى لفظ « فقال : أيؤذيك هوام رأسك » وفى لفظ « لعلك آذاك هوام رأسك ، قلت : نعم يا رسول الله ، قال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا ، فأمرنى أن أحلق » أى وفى رواية «أصابتنى هوام فى رأسى وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، حتى تخوفت على بصرى ، وأنزل الله تعالى هذه الآية (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) أى فحلق (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صم ثلاثة أيام ، أو تصدق بفرق » أى زاد فى رواية «من زبيب

بين ستة مساكين » والفرق بفتح الفاء والراء : ثلاثة آصع ، أى زاد فى رواية « من تمر ، لكل مسكين نصف صاع ، أو انسك » أى اذبح « ما تيسر لك» انتهى . زاد فى رواية : «أى ذلك فعلت أجزأ عنك فحلقت، ثم نسكت» .

أى وفى رواية الشيخين « انسك شاة ، أوصم ثلاثة أيام ، أو أطعم فرقا من الطعام على ستة مساكين » .

قال ابن عبد البر عامة الآثار عن كعب بن عجرة وردت بلفظ التخيير ، وهو نص القرآن ، وعليه عمل العلماء فى كل الأمصار وفتواهم ، وما ورد من الترتيب فى بعض الأحاديث لو صح كان معناه الاختيار أولا فأولا .

قال الزمخشرى فى [سفر السعادة] : أمر صلى الله عليه وسلم فى علاج القمل بحلق الرأس لتنفتح المسام ، وتتصاعد الأبخرة ، وتضعف المادة الفاسدة التى يتولد القمل منها .

وذكر فى الهدى أن أصول الطب ثلاثة : الحمية ، وحفظ الصحة ، والاستفراغ ، فإلى الأول شرع التيمم خوفا من استعمال الماء . وإلى الثانى شرع الفطر فى رمضان فى السفر لئلا تتوالى مشقة السفر ومشقة الصوم . وإلى الثالث بحلق رأس المحرم إذا كان به أذى من قمل ليستفرغ المادة الفاسدة والأبخرة الرديئة .

وعند أئمتنا لابد أن يكون ما يذبحه مجزئا فى الأضحية وبعد الحديبية قبل خيبر ، وقيل بعد خيبر نزلت آية الظهار (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) .

وسبب ذلك : أن أوس بن الصامت لاعبادة بن الصامت كما قيل أى وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، وفى لفظ : كان به لمم : أى نوع من الجنون . وكان فاقد البصر ، قال لزوجته خولة بنت ثعلبة ، وفى لفظ : بنت خويلد ، وكانت بنت عمه وقد راجعته فى شىء فغضب ، فقال لها : أنت على كظهر أمى ، وكان ذلك فى زمن الجاهلية طلاقا : أى كالطلاق فى تحريم النساء ثم راودها عن نفسها ، فقالت كلا لاتصل إلى وقد قلت ما قلت حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ : أنه لما قال لها أنت على كظهر أمى أسقط فى يده ، وقال ما أراك إلا قد حرمت على ، انطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأليه ، فدخلت عليه صلى الله عليه وسلم وهو يمشط رأسه الشريف ، أى عنده ماشطة ، أى وهى عائشة رضى الله عنها تمشط رأسه .

وفى لفظ كان الظهار أشد الطلاق وأحرم الحرام إذا ظاهر الرجل من امرأته لم ترجع

إليه أبدا ، فأخبرته ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : ما أمرنا بشىء من أمرك ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدى،وأحب الناس إلىّ ، فقال : حرمت عليه ، فقالت أشكو إلى الله فاقتى وتركى إلى غير أحد وقد كبر سنى ودق عظمى .

وفى لفظ أنها قالت: اللهم إنى أشكو إليك شدّةوحدتى وما شق علىّ من فراقه وما نزل بى وبصبيتى ، قالت عائشة رضى الله عنها : فلقد بكيت ويبكى من كان فى البيت رحمة لها ورقة عليها . وفى لفظ قالت : يا رسول الله إن زوجى أوس بن الصامت تزوّجنى وأنا ذات مال وأهل ، فلما أكل مالى وذهب شبابى ونفضت بطنى وتفرق أهلى ظاهر منى ، فقال لها رسول الله صلى الله عليهوسلم : ما أراك إلاقد حرمت عليه فبكت وصاحت وقالت : أشكو إلى الله فقرى ووحدتى وصبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وصارت ترفع رأسها إلى السماء ، فبينما هو صلى الله عليه وسلم قد فرغ من شق رأسه وأخذ فى الشق الآخر أنزل الله عليه الآية فسرّى عنه وهو يتبسم ، فقال صلى الله عليه وسلم لها مريه فليحرر رقبة ، فقالت : والله ماله خادم غيرى ، قال مريه فليصم شهرين متتابعين ، فقالت : والله إنه لشيخ كبير إنه إن لم يأكل فى اليوم مرتين يندر بصره : أى لو كان مبصرا ، فلا ينافى ما تقدم أنه كان فاقد البصر ، قال : فليطعم ستين مسكينا ، فقالت : والله مالنا اليوم وقية ، فقال : مريه فلينطلق إلى فلان يعنى شخصا من الأنصار أخبرنى أن عنده شطر وسق من تمر يريد أن يتصدق به فليأخذه منه .

وفى رواية : مريه فليأت أم المنذر بنت قيس فليأخذ منها شطر وسق من تمر فليتصدق به على ستين مسكينا وليراجعك ، ثم أتته فقصت عليه القصة فانطلق ففعل .

أى وفى لفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا سأعينه بفرق من تمر فبكت ، وقالت : وأنا يا رسول الله سأعينه بفرق آخر ، قال : قد أصبت وأحسنت ، فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيرا .

وفى روايه : لما قال لها صلى الله عليه وسلم : ما أعلم إلا قد حرمت عليه ، قالت لها عائشة رضى الله عنها : وراءك ، فتنحت ، فلما نزل عليه صلى الله عليه وسلم الوحى وسرى عنه قال : يا عائشة أين المرأة ؟ قالت : ها هى هذه ، قال : ادعيها فدعتها ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : اذهبى فجيئى بزوجك ، فذهبت فجاءت به ، وأدخلته على النبى صلى الله عليه وسلم

فإذا هو ضرير البصر ، فقير ، سيء الخلق فقال له صلى الله عليه وسلم أتجد رقبة ، قال لا . وفي لفظ قال : مالى بهذا من قدرة ، قال : أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال : والذى بعثك بالحق إنى إذا لم آكل المرة والمرتين والثلاث يغشى علىّ . وفى لفظ إنى إذا لم آكل فى اليوم مرتين كلّ بصرى : أى لو كان موجودا ، قال : أفتستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ قال لا ، إلا أن تعيننى بها ، فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكفر عنه . وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه مكتلا يأخذ خمسة عشر صاعا ، فقال : أطعمه ستين مسكينا ، قال بعضهم : وكانوا يرون أن عند أوس رضى الله عنه مثلها حتى يكون لكل مسكين نصف صاع . وفيه أنه خلاف الروايات من أنه لا يملك شيئا . فقال : على أفقر منى ، فوالذى بعثك بالحق ما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منى ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اذهب به إلى أهلك ، وهذا أوّل ظهار وقع فى الإسلام .

ومر عمر رضى الله تعالى عنه بخولة هذه فى أيام خلافته ، فقالت له : قف يا عمر ، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ، وأطالت الوقوف ، وأغلظت له القول : أى قالت له هيهات يا عمر ، عهدتك وأنت تسمى عميرا وأنت فى سوق عكاظ ترعى القيان بعصاك ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشى الفوت ، فقال لها الجارود : قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين ، فقال عمر رضى الله عنه : دعها . وفى رواية فقال له قائل : حبست الناس لأجل هذه العجوز ، قال : ويحك ، وتدرى من هذه ؟ قال لا ، قال : هذه امرأة قد سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عنى إلى الليل ماانصرفت حتى تنقضى حاجتها .

قيل وفى هذه السنة التى هى سنة ست حرمت الخمر ، وبه جزم الحافظ الدمياطى ، وقيل حرمت سنة أربع ، أى ويدل له ماتقدم من إراقة الخمر وكسر جررها فى بنى قريظة ، وقيل فى السنة الثالثة ، وقيل إنما حرمت فى عام الفتح قبل الفتح .

قال بعضهم : حرمت ثلاث مرات : أى نزل تحريمها ثلاث مرات كان المسلمون يشربونها حلالا ، أى لغيره صلى الله عليه وسلم ، أما هو فحرمت عليه قبل البعثة بعشرين سنة ، فلم تبح له قط .

وقد جاء « أول مانهانى عنه ربى بعد عبادة الأصنام شرب الخمر » وتقدم أن جماعة

حرّموها على أنفسهم وامتنعوا من شربها ، ولا زالت حلالا للناس حتى نزل قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) فعند ذلك اجتنبها قوم لوجود الإثم وتعاطاها آخرون لوجود النفع ، أى وكانوا ربما شربوها وصلوا ، فلما نزل قوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) امتنع من كان يشربها لأجل النفع من شربها فى أوقات الصلاة ، ورجع قوم منهم عن شربها حتى فى غير أوقات الصلاة ، وقالوا : لاخير فى شىء يحول بيننا وبين الصلاة .

وسبب نزول هذه الآية ماجاء عن على كرم الله وجهه ، قال : صنع لنا عبد الرحمن ابن عوف طعاما : أى وشرابا من الخمر ، فأكلنا وشربنا ، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة : أى الجهرية ، وقدمونى فقرأت (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ونحن نعبد ما تعبدون ، إلى أن قلت : وليس لى دين وليس لكم دين. ثم نزلت الآية الأخرى الدالة على تحريمها مطلقا وهى (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) إلى قوله (فهل أنتم منتهون) أى ولعل هذه الآية الأخيرة هى التى عناها أنس رضى الله عنه بقوله كما فى البخارى : كنت ساقى القوم الخمر بمنزل أبى طلحة ، أى وهو زوج أمه رضى الله عنهم ، ونزل تحريم الخمر ، فمرّ مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت ، فقال أبو طلحة اخرج فانظر ماهذا الصوت ؟ قال : فخرجت ، فقلت : هذا مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت ، فقال لى : اذهب فأهرقها ، فقال بعض القوم : قتل قوم : أى فى أحد وهى فى بطونهم . وفى رواية قالوا : يا رسول الله كيف بمن مات من أصحابنا ، وكان شربها ، فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) أى لأن ذلك كان قبل تحريمها مطلقا .

وقد جىء لعمر رضى الله عنه بشخص من المهاجرين الأوّلين قد سكر ، فأراد عمر جلده فاستدل على عمر بهذه الآية ، فقال عمر لمن حضره ألا تردون عليه ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : هذه الآية نزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين ، ثم استشار عمر رضى الله عنه عليا كرّم الله وجهه ، فأشار عليه أن يجلده ثمانين جلدة : ولعل هذا الشخص هو قدامة بن مظعون ، وتقدمت قصته فى بدر وتقدّم فى ذلك أن الذى ردّ عليه بذلك عمر لا ابن عباس رضى الله عنهم وكذا وقع لأبى جندل رضى الله عنه مثل ذلك ، وأنه أشفق : أى خاف من ذلك ، فلما بلغ عمر رضى الله عنه كتب إليه :

إن الذى زين إليك الخطيئة هو الذى حظر : أى منع عليك التوبة (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب) الآية .

غزوة خيبر

على وزن جعفر ، سميت باسم رجل من العماليق نزلها يقال له خيبر وهو أخو يثرب : أى الذى سميت باسمه المدينة كما تقدم . وفى كلام بعضهم : الخيبر بلسان اليهود الحصن ومن ثم قيل لها خيابر لاشتمالها على الحصون ، وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثيرة ، بينها وبين المدينة الشريفة ثمانية برد كما فى سيرة الحافظ الدمياطى ، ومعلوم أن البريد أربعة فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال .

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية أقام شهرا وبعض شهر : أى ذا الحجة ختام سنة ست . وأقام من المحرم افتتاح سنة سبع أياما ؛قيل عشرين يوما أو قريبا من ذلك ، ثم خرج إلى خيبر ، أى وهذا ما ذهب إليه الجمهور .

ونقل عن الإمام مالك رضى الله عنه أن خيبر كانت سنة ست ؛ وإليه ذهب الإمام ابن حزم . وفى التعليقة للشيخ أبى حامد أنها كانت سنة خمس . قال الحافظ ابن حجر : وهو وهم ، ولعله انتقل من الخندق إلى خيبر .

قال : وقد استنفر صلى الله عليه وسلم من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ، وجاءه المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقال : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا : أى لاتعطوا منها شيئا ، ثم أمر مناديا ينادى بذلك فنادى به . قال أنس رضى الله عنه : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طلحة وهو زوج أم أنس كما تقدم حين أراد الخروج إلى خيبر التمسوا غلاما من غلمانكم يخدمنى ، فخرج أبو طلحة مردفى وأنا غلام قد راهقت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل خدمته فسمعته كثيرا مايقول : اللهم إنى أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال اه .

أقول : وهذا السياق يدل على أن أوّل خدمة أنس رضى الله عنه له صلى الله عليه وسلم حينئذ ، وهو يخالف ماسبق أن عند قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة جاءت به أمه

وقالت : هذا ابنى ، وهو غلام كيس ، وكان عمره عشر سنين ، وقيل تسع سنين ، وقيل ثمان سنين .

ففى مسلم عن أنس قال « جاءت بى أمى أم أنس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أزرتنى بنصف خمارها وردتنى بنصفه، فقالت : يارسول الله هذا أنيس ابنىّ أتيتك به ليخدمك فادع الله له فقال : اللهم أكثر ماله وولده » .

وقد يقال : لامخالفة ، لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم إنما قال لأبى طلحة ماذكر رجاء أن يأتى له بمن هو أقوى من أنس على السفر شفقة على أنس ، ومن ثم لم يخرجه صلى الله عليه وسلم معه .

وفيه أنه خرج معه فى بدر ، فقد جاء « أنه قيل لأنس رضى الله عنه : أشهدت بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لاأم لك ، وأين غبت عن بدر ؟ » .

وقد يقال : جاز أن يكون عرض لأنس رضى الله عنه حين خروجه صلى الله عليه وسلم إلى خيبر مايقتضى الشفقة عليه فى عدم إخراجه معه والله أعلم .

واستخلف صلى الله عليه وسلم على المدينة نميلة ، وقيل سباع بن عرفطة ، أى وصحح وكان الله وعده وهو بالحديبية : أى عند منصرفه منها فى سورة الفتح بمغانم بقوله تعالى (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) [ ] أى مغانم خيبر ، وخرج معه صلى الله عليه وسلم من نسائه أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، وقال صلى الله عليه وسلم فى سيره لعامر بن الأكوع عم سلمة ابن الأكوع رضى الله تعالى عنهما : انزل فحدثنا من هناتك ، وفى رواية : من هنيهاتك ، وفى لفظ : من هنياتك بقلب الهاء الثانية ياء ، أى من أراجيزك وأشعارك . وفى لفظ : انزل فحرك بنا الركاب ، فقال : يارسول الله قد تولى قولى : أى الشعر ، فقال له عمر رضى الله عنه : اسمع وأطع ، فنزل يرتجز بقوله رضى الله تعالى عنه :

والله لولا الله مااهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا الأبيات

وفى مسلم « اللهم لولا أنت ما اهتدينا » قيل ، صوابه فى الوزن لاهم ، أو يا ألله ، أو والله لكن فى تلك الأبيات فاغفر فداء لك مااقتفينا : أى فاغفر ما اكتسبنا ، وأصل الاقتفاء الاتباع .

وفى خطاب البارى عز وجل بفداء لك مالا ينبغى لأنه لايقال للبارى عز وجل فديتك لأن ذلك إنما يستعمل فى مكروه متوقع حلوله بالمفدى بالفتح ، فيجعل المفدى بالكسر نفسه فداء له من ذلك ، فيبذل نفسه عن نفسه .

وأجيب عن ذلك بأن الشاعر لم يرد ذلك ، بل أراد أن يبذل نفسه رضاه سبحانه وتعالى .

وعند إنشاده الأبيات المذكورة قال له النبي صلى الله عليه وسلم يرحمك ربك ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله وجبت ، أي الشهادة يارسول الله ، لولا : أي هلا أمتعتنا به ؟ أي أبقيته لنا لنتمتع به، ومنه أمتعني الله ببقائك : أي هلا أخرت الدعاء له بذلك إلى وقت آخر ، لأنه صلى الله عليه وسلم ماقال ذلك لأحد فى مثل هذا الموطن إلا واستشهد .

وفى لفظ أن القائل له أسمعنا رجل من القوم . قال الحافظ ابن حجر : لم أقف على اسمه صريحا ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعه قال : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر ، قال صلى الله عليه وسلم : يرحمه الله ، فقتل فى هذه الغزاة رجع إليه سيفه فقتله، فإنه أراد أن يضرب به ساق يهودى فجاءت ذبابته فى ركبته فمات من ذلك رضى الله عنه فقال الناس : قتله سلاحه ، وفى رواية : قتل نفسه أى فليس بشهيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه لشهيد وصلى عليه صلى الله عليه وسلم والمسلمون . وفى رواية قال سلمة بن الأكوع : يارسول الله فداك أبي وأمى ، زعموا أن أخى عامرا حبط عمله . وفى لفظ : يزعم أسيد بن حضير وجماعة من أصحابك أن عامرا حبط عمله إذ قتل بسيفه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب من قال : أى أخطأ فى قوله ، وإن له أجرين وجمع بين أصبعيه . وفى رواية إنه لشهيد. وفى لفظ إنه لجاهد مجاهد . وفى لفظ مات جاهدا مجاهدا والجاهد الجادّ فى أمره ، فلما قام بوصفين كان له أجران ، وقيل هو من باب : جاد مجد ، وشعر شاعر ، فهو تأكيد ، وكون عامر أخا سلمة هو خلاف ماتقدم أنه عمه وهو الصحيح المشهور .

قال فى النور: ويمكن الجمع بأن يكون عمه من النسب وأخاه من الرضاعة، أى وحينئذ يكون هذا محمل قول ابن الجوزى رحمه الله: من الإخوة الذين حدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامر وسلمة ابنا الأكوع .

وفى فتح البارى عن بعض الصحابة : فلما وصلنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجرب
إذ الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عامر رضى الله عنه يقول :

قد علمت خيبر أنى عامر   شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى ترس عامر رضى الله عنه ، فذهب عامر يسفل لمرحب ، أى يضربه من أسفل فعاد سيفه على نفسه : أى أصاب عين ركبة عامر فمات من ذلك ، الحديث .

وكون عامر ارتجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى حدابه لاينافى ماجاء أن البراء ابن مالك كان حسن الصوت وكان يرتجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره ، لأن المراد فى غالب أو فى بعض أسفاره كما صرح به بعض الروايات .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال له : أى للبراء: إياك والقوارير ، وهو يدل على أنه كان يرتجز لنسائه صلى الله عليه وسلم ، وهو يخالف أن البراء كان حادى الرجال وأنجشة حادى النساء ، إلا أن يقال : جاز أن يكون البراء حدا للنساء فى بعض الأسفار أو فى بعض الأحيان ، وأنجشة كان فى الغالب .

قال بعضهم : كان أنجشة رضى الله تعالى عنه عبدا أسود ، وكان حسن الصوت بالحداء إذا حدا أعنقت الإبل ، أى سارت العنق وأسرعت ، فلما حدا بأمهات المؤمنين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنجشة رويدك ، رفقا بالقوارير .

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر وكان وقت الصبح قال لأصحابه رضى الله عنهم قفوا ، ثم قال ، أى وفى لفظ قال لهم : قولوا «اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير مافيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها ، اقدموا بسم الله » أى وفى لفظ «ادخلوا على بركته تعالى» وكان صلى الله عليه وسلم يقولها لكل قرية دخلها .

أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم لما توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر ، لاإله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اربعوا على أنفسكم » أى ارفقوا بأنفسكم ، لاتبالغوا فى رفع أصواتكم « فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » قال عبد الله بن قيس رضى الله عنه : «وكنت خلف دابته صلى الله عليه وسلم فسمعنى أقول : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ،

فقال ياعبد الله بن قيس ، قلت : لبيك يارسول الله، قال: ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ؟ قلت بلى يارسول الله فداك أبى وأمى ، قال لاحول ولا قوة إلا بالله» .

ويحتاج إلى الجمع بين هذا وبين أمره صلى الله عليه وسلم بأن أصحابه يرفعون أصواتهم بالتلبية . وقد يقال : المنهى عنه هنا الرفع الخارج عن العادة الذى ربما آذى بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « اربعوا على أنفسكم » أى ارفقوا بها كما تقدم ، فلا منافاة .

ولما أبصر صلى الله عليه وسلم عمالها وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم قالوا : محمد والخميس: أى الجيش العظيم معه، قيل له الخميس لأنه خمسة أقسام التقدمة والساقة والميمنة والميسرة وهما الجناحين والقلب ، وأدبروا هرابا .

قال : وذكر أنه كان بها عشرة آلاف مقاتل ، وأنهم كانوا لايظنون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم حين بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم وهم يخرجون ويصطفون صفوفا ثم يقولون محمد يغزونا هيهات هيهات .

وذكر أن عبد الله بن أبى ابن سلول أرسل إليهم يخبرهم بأن محمدا سائر إليكم ، فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم ، واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لاسلاح معهم إلا قليل .

فلما كانت الليلة التى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحتها بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس، فأصبحوا: أى قاموا من نومهم وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم الفؤوس ويقال لها الكرازين والمساحى ومعهم المكاتل ، أى وهى القفف الكثيرة، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوا هاربين إلى حصونهم اه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ، أى وبذلك استدل على جواز الاقتباس من القرآن ، وإنما قال صلى الله عليه وسلم خربت خيبر ، لأنه لما رأى آلة الهدم التى هى الفؤوس والمساحى تفاءل صلى الله عليه وسلم بأن حصونهم ستخرب ، أو أخذ ذلك من اسمها، أو أن ذلك دعاء بلفظ الخبر، قال الإمام النووى رحمه الله : والأصح أنه أعلمه الله بذلك ويوافقه مافى فتح البارى .

ويحتمل أن يكون قال ذلك بطريق الوحى ويؤيده قوله « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » أى لأنه نزل بساحتهم ، وهى فى الأصل الفضاء بين الأبنية .

وابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم بحصون النطاة قبل حصون الشق وقيل بحصون الكثيبة ، أى لأنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصون الكثيبة ، وجمعوا المقاتلة فى حصون النطاة ، وكان نزل قريبا من حصون النطاة ، فجاءه صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر رضى الله تعالى عنه فقال : يارسول الله إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم ، وإن كان الرأى تكلمنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الرأى ، فقال : يارسول الله إن أهل النطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، ولا نأمن من بياتهم يدخلون فى خمرة النخل . أى النخل المجتمع بعضه على بعض ، تحول يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : أشرت بالرأى إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا ؛ ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة رضى الله عنه فقال : انظر لنا منزلا بعيدا ، فطاف محمد رضى الله عنه ، وقال : يارسول الله وجدت لك منزلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على بركة الله وتحول لما أمسى ، وأمر الناس بالتحول .

أى وفى لفظ : إن راحلته صلى الله عليه وسلم قامت تجر زمامها فأدركت لترد ، فقال دعوها فإنها مأمورة ، فلما انتهت إلى موضع من الصخرة بركت عندها ، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصخرة وتحول الناس إليها واتخذوا ذلك الموضع معسكرا . وفى الأصل أنه نزل بذلك ليحول بين أهل خيبر وبين غطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقال : لامخالفة بين هذه الروايات الثلاث فليتأمل . وابتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك مسجدا صلى به طول مقامه بخيبر ، أى وأمر صلى الله عليه وسلم بقطع نخيل أهل حصون النطاة فوقع المسلمون فى قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ثم نهاهم عن القطع ، فما قطع من نخيل خيبر غيرها . قال : قيل وقاتل صلى الله عليه وسلم يومه ذلك أشد القتال وعليه درعان وبيضة ومغفر وهو على فرس يقال له الظرب ، وفى يده قناة وترس .

وما قيل إنه صلى الله عليه وسلم يوم خيبر كان على حمار مخطوم برسن من ليف وتحته إكاف من ليف . أى ففى مسلم عن ابن عمر رضى الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وهو متوجه إلى خيبر ، جاز أن يكون ركب ذلك الحمار فى الطريق وحال القتال ركب ذلك الفرس انتهى .

أقول : يرشد إلى هذا الجمع قوله متوجه إلى خيبر ، وظاهر هذا الكلام أنه صلى الله عليه وسلم باشر القتال بنفسه ، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم لم يباشر القتال بنفسه إلا فى أحد .

ويبعد أن يكون باشر القتال بنفسه ولم يقتل أحدا ، إذ لو قتل أحدا لذكر لأنه مما تتوفر الدواعى إلى نقله . وقد يكون المراد بقولهم وقاتل صلى الله عليه وسلم بنفسه : أى قاتل جيشه ، ويدل لذلك ما فى الإمتاع : وألح على حصن ناعم ، أى وهو من حصون النطاة بالرمى ، ويهود تقاتل ورسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس يقال له الظرب وعليه درعان ومغفر وبيضة وفى يده قناة وترس .

وقد دفع صلى الله عليه وسلم لواءه لرجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئا ، فدفعه إلى آخر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئا ، وخرجت كتائب اليهود يقدمهم ياسر ، فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقفه ، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسى مهموما والله أعلم .

وفى ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة رضى الله عنهما برحى ألقيت عليه من ذلك الحصن ، ألقاها عليه مرحب ، وقيل كنانة بن الربيع . وقد يجمع بأنهما اجتمعا على ذلك ، وسيأتى ما يدل على أن قاتله غيرهما .

وقد يقال : لا مانع من أن يكونوا : أى الثلاثة تجمعوا على قتله ، أى فإن محمود بن مسلمة رضى الله عنه كان قد حارب حتى أعياه الحرب وثقل السلاح وكان الحر شديدا ، فانحاز إلى ظل ذلك الحصن فألقى عليه حجر الرحى فهشم البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه أى وندرت عينه ، فأدركه المسلمون ، فأتوا به النبى صلى الله عليه وسلم فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقة فمات رضى الله عنه من شدة الجراحة ، وجاء أخوه محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن اليهود قتلوا أخى محمود بن مسلمة فقال صلى الله عليه وسلم « لا تمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموه فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت ، ثم الزموا الأرض جلوسا ، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا » .

أى وفى سياق بعضهم ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مكث سبعة أيام يقاتل أهل حصون النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة رضى الله عنه للقتال ويخلف على محل

العسكر عثمان بن عفان ، فإذا أمسى رجع صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المحل ، ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه ، وكان صلى الله عليه وسلم يناوب بين أصحابه فى حراسة الليل ، فلما كانت الليلة السادسة من السبع استعمل صلى الله عليه وسلم عمر رضى الله عنه فطاف عمر رضى الله عنه بأصحابه حول العسكر وفرقهم ، فأتى برجل من يهود خيبر فى جوف الليل ، فأمر به عمر رضى الله عنه أن يضرب عنقه فقال : اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه ، فأمسك عنه وانتهى به إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده يصلى فسمع صلى الله عليه وسلم كلام عمر فسلم وأدخله عليه ، فدخل باليهودى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى : ماوراءك ؟ فقال : تؤمننى ياأبا القاسم ؟ فقال : نعم ، قال خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة قال : فأين يذهبون؟ قال : إلى الشق يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ، ولعل المراد ماأبقوه من ذراريهم ، فلا ينافى ماتقدم من أنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصون الكتيبة ، أوأن ذلك المخبر أخبر بحسب مافهم أنهم يجعلون ذراريهم فى الشق والحال أنهم إنما يذهبون ليجعلوا ذراريهم فى حصون الكتيبة فليتأمل .

وفى هذا الحصن الذى هو الحصن الصعب من حصون النطاة فى بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف ، فإذا دخلت الحصن غدا وأنت تدخله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ، قال اليهودى إن شاء الله أوقفتك عليه فإنه لايعرفه غيرى . وأخرى ، قيل : ماهى ؟ قال يستخرج المنجنيق ، وينصب على الشق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات ، فيحفروا الحصن ، فتفتحه من يومك ، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة ، ثم قال : ياأبا القاسم احقن دمى ، قال : أنت آمن ، قال : ولى زوجة فهبها لى ، قال هى لك ، ثم دعاه صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقال أنظرنى أياما ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة رضى الله عنه « لأعطين الراية » إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبانه » وفى لفظ قال صلى الله عليه وسلم « لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله لايولى الدبر ؛ يفتح الله عز وجل على يده فيمكنه الله من قاتل أخيك » وعند ذلك لم يكن من الصحابة رضى الله عنهم أحد له منزلة عند النبى صلى الله عليه وسلم إلا يرجو أن يعطاها .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم ، ولعل ذلك لاينافى ماجاء « أن وفد ثقيف لما جاءوه صلى الله عليه وسلم قال لهم لتسلمن

أو لأبعثن إليكم رجلا منى ، وفى رواية : مثل نفسى فليضرب أعناقكم وليسبين ذراريكم ، وليأخذن أموالكم ، قال عمر رضى الله عنه فوالله ماتمنيت الإمارة إلا يومئذ ، وجعلت أنصب صدرى له صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول هو هذا ، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى على كرم الله وجهه فأخذ بيده وقال : هو هذا ، هو هذا » .

وقد يقال : لايلزم من محبة الشىء تمنيه بخلاف العكس . ففى هذه الغزاة أحب الإمارة وما تمناها ، وفى وفد ثقيف المتأخر عن هذه الغزاة تمناها لأن الوصف فى ذلك أبلغ من الوصف هنا فليتأمل .

ويروى « أن عليا كرم الله وجهه لما بلغه مقالته صلى الله عليه و سلم : أى فى خيبر ، قال : اللهم لامعطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، فبعث صلى الله عليه وسلم إلى على كرم الله وجهه وكان أرمد شديد الرمد » : أى وكان قد تخلف فى المدينة ثم لحق بالقوم « أى فقيل له : إنه يشتكى عينيه ، فقال صلى الله عليه وسلم من يأتينى به ؟ فذهب إليه سلمة ابن الأكوع رضى الله عنه وأخذ بيده يقوده حتى أتى به النبى صلى الله عليه وسلم قدعصب عينيه فعقد له صلى الله عليه وسلم اللواء : أى لواءه الأبيض .

فعن ابن إسحاق وابن سعد : لم تكن الرايات إلا يوم خيبر ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم فرق الرايات يومئذ بين أبى بكر وعمر والحباب بن المنذر وسعد بن عبادة رضى الله عنهم ، وإنما كانت الألوية ، وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء من برد لعائشة رضى الله عنها تدعى العقاب .

وفى كلام المقريزى : لما ذكر رتب الرياسة فى الجاهلية ذكر أن العقاب كان فى الجاهلية راية تكون لرئيس الحرب وجاء الإسلام وهى عند أبى سفيان ، وجاء الإسلام والسدانة واللواء عند عثمان بن أبى طلحة من بنى عبد الدار .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى رحمه الله : وكانت له صلى الله عليه وسلم راية سوداء مربعة من نمرة مخملة يقال لها العقاب ، وكان له راية صفراء ، ولواؤه أبيض دفعه إلى على كرم الله وجهه وفيه أن ذلك اللواء يقال له العقاب .

وفى سيرة الدمياطى رحمه الله ، وكانت ألويته صلى الله عليه وسلم بيضاء وربما جعل فيها الأسود ولعل السواد كان كتابة فى ذلك العلم ، ولعل هذا اللواء الذى فيه الأسود هو المعنى بما جاء فى بعض الروايات «كان له صلى الله عليه وسلم لواء أبيض مكتوب فيه : لاإله

الله محمد رسول الله » أى بالسواد ، ولعله محمل قول بعضهم: كان له صلى الله عليه وسلم لواء أغبر ، وربما كان من خز بعض نسائه [ ] «فقال على كرم الله وجهه: يارسول الله إنى أرمد كما ترى ، لا أبصر موضع قدمى ، فتفل صلى الله عليه وسلم ، وفى لفظ : بصق فى عينيه ، أى بعد أن وضع رأسه فى حجره » وفى لفظ «فتفل فى كفه وفتح له عينيه فدلكهما فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع » قال على رضى الله عنه فما رمدت بعد يومئذ : وفى لفظ فما رمدت ولا صدعت ، وفى لفظ : فما اشتكيتهما حتى الساعة .

وفى هذا السياق لطيفة وهى : أن من طلب شيئا أو تعرض لطلبه يحرمه غالبا وأن من لم يطلب شيئا ولم يتعرض لطلبه ربما وصل إليه ، وقد أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله « رحم الله أخى يوسف ، لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكن لأجل سؤاله إياه ذلك أخر عنه سنة » أى وبعد السنة دعاه الملك وتوجه ورداه وقلده بسيفه وأمر له بسرير من ذهب مكلل بالدر والياقوت ، وضرب له عليه حلة من إستبرق وفوض إليه أمر مصر .

وقد قيل : لو وقعت قلنسوة من السماء لاتقع إلا على رأس من لايريدها. زاد فى رواية عن على كرم الله وجهه « أنه صلى الله عليه وسلم دعا له بقوله : اللهم اكفه الحر والبرد ، قال على كرم الله وجهه : فما وجدت بعد ذلك اليوم لاحرا ولا بردا » ، أى فكان يلبس فى الحر الشديد القباء المحشو الثخين ، ويلبس فى البرد الشديد الثوبين الخفيفين. وفى لفظ: الثوب الخفيف فلا يبالى بالبرد .

وقد يخالف ذلك ماحكاه بعضهم ، قال : دخل رجل على على ّ كرم الله وجهه وهو يرعد تحت سمل قطيفة : أى قطيفة خلقة ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك فى هذا المال نصيبا وأنت تصنع بنفسك هكذا ؟ فقال : والله لاأرزؤكم من مالكم ، وإنها لقطيفتى التى خرجت بها من المدينة .

وقد يقال : لا مخالفة ، لأنه يجوز أن تكون رعدته رضى الله عنه ليست من البرد خلاف ما ظنه السائل لجواز أن تكون لحمى أصابته فى ذلك الوقت ، وقد أشار إلى التفل صاحب الهمزية رضى الله تعالى عنه بقوله :

وعلىّ لما تفلت بعينيـ ـه وكلتاهما معا رمداء

فغدا ناظرا بعينى عقاب فى غزاة لها العقاب لواء

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : لأدفعن الراية ، إطلاق الراية على اللواء ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعلىّ كرّم الله وجهه : خذ هذه الراية ، وتقدم أن الراية قد يطلق عليها لواء .

هذا ، وفى كلام بعضهم أن أبا سفيان رضى الله عنه كانت إليه الراية المعروفة بالعقاب التى كانت لا يحبسها إلا رئيس إذا حميت الحرب ، هذا كلامه ، فلعل تسمية رايته صلى الله عليه وسلم بالعقاب لكونها كذلك « فقال علىّ كرم الله وجهه : علام أقاتلهم يارسول الله؟ قال : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم » .

وفى رواية « لما أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية قال له : امش ولا تلتفت ، فسار شيئا ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ : يارسول الله علام أقاتل الناس ؟ قال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى » أى حساب بواطنهم وسرائرهم على الله ، لأنه المطلع وحده على ما فيها من إيمان خالص أو نفاق وكفر . زاد فى رواية « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » أى تتصدق بها فى سبيل الله ، فقد جعل صلى الله عليه وسلم عصمة الدم بالنطق بالشهادتين ، لكنه لا يقرّ من نطق بهما على ترك الصلاة ولا على ترك الزكاة ، ومن ثم قال له صلى الله عليه وسلم « وأخبرهم بما يجب عليهم » وفى لفظ « قال له : امش ولاتلتفت حتى يفتح الله عليك » .

أى وعن حذيفة رضى الله عنه « لما تهيأ علىّ كرم الله وجهه يوم خيبر للحملة ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعلى والذى نفسى بيده إنّ معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عليه السلام عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فاستبشر بالرضوان والجنة ، يا علىّ إنك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم » .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطى الراية كل يوم واحدا من أصحابه ويبعثه ، فبعث أبابكر رضى الله عنه ، فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من الغد : أى برايته ، فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث رجلا من الأنصار فقاتل ورجع ولم يكن فتح ، فقال عليه الصلاة والسلام : لأعطين الراية

أى اللواء غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ، ليس بفار" . وفى لفظ: كرار غير فرار ، فدعا عليا كرم الله وجهه وهو أرمد فتفل فى عينيه ، ثم قال : خذ هذه الراية نامض بها حتى يفتح الله عليك ، أى ودعا له ولمن معه بالنصر .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم ألبسه درعه الحديد ، وشد" ذا الفقار ، أى الذى هو سيفه فى وسطه وأعطاه الراية ووجهه إلى الحصن ، فخرج على" كرم الله وجهه بها يهرول حتى ركزها تحت الحصن فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن ، فقال : من أنت ؟ قال : على بن أبى طالب ، فقال اليهودى : علوتم وحق ما أنزل على موسى ، ثم خرج إليه أهل الحصن ، وكان أو"ل من خرج منهم إليه الحارث أخو مرحب وكان معروفا بالشجاعة ، فانكشف المسلمون وثبت على كرم الله وجهه فتضاربا ، فقتله على وانهزم اليهود إلى الحصن ، ثم خرج إليه مرحب ، فحمل مرحب عليه وضربه فطرح ترسه من يده ، فتناول على كرم الله وجهه بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن ، ثم ألقاه من يده : أى وراء ظهره ثمانين شبرا » . قال الراوى : فجهدت أنا وسبعة نفر على أن نقلب ذلك الباب فلم نقدر . قال بعضهم : فى هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر ، قال : وقيل ولم يقدر على حمله أربعون رجلا ، وقيل سبعون .

وفى رواية أن عليا كرم الله وجهه لما انتهى إلى باب الحصن اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض ، فاجتمع عليه بعده سبعون رجلا فكان جهدا أن أعادوه مكانه ، وقيل حمل الباب على ظهره حتى صعد المسلمون عليه ودخلوا الحصن .

قال بعضهم : وطرق حديث الباب كلها واهية ، وفى بعضها قال الذهبى : إنه منكر ، وفى الإمتاع : وزعم بعضهم أن حمل على" كرم الله وجهه الباب لا أصل له ، وإنما يروى عن رعاع الناس . وليس كذلك ، ثم ذكر جملة ممن خر"جه من الحفاظ .

وجاء أن مرحبا لما رأى أن أخاه قد قتل خرج سريعا من الحصن فى سلاحه ، أى وقد كان لبس درعين وتقلد بسيفين واعتم" بعمامتين ولبس فوقهما مغفرا وحجرا قد ثقبه قدر البيضة ومعه رمح لسانه ثلاثة أسنان وهو يرتجز ويقول من أبيات :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

ومعنى شاكى السلاح : تام السلاح ، ومعنى مجرب : أى معروف بالشجاعة وقهر

الفرسان ، ثم صار يقول : هل من مبارز ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لهذا ؟ قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : أنا له يا رسول الله ، أنا الموتور : أى الذى قتل له قتيل فلم يؤخذ بثأره الثائر ، قتل أخى بالأمس ، قال صلى الله عليه وسلم : فقم إليه ، اللهم أعنه عليه ، فقتله محمد بن مسلمة رضى الله عنه ، أى : فإن مرحبا حمل على محمد بن مسلمة فاتقاه بدرقته فوقع سيف مرحب فيها فعضت به وأمسكته ، فضربه محمد رضى الله عنه فقتله . ويدل لذلك قول الإمام المزنى رحمه الله فى المختصر : إن النبى صلى الله عليه وسلم يوم خيبر نفل محمد بن مسلمة سلب مرحب : سيفه ورمحه ومغفره وبيضته ، ووجد على سيفه مكتوب : هذا سيف مرحب ، من يصبه يعطب .

وقيل القاتل له علىّ كرم الله وجهه ، وبه جزم مسلم رحمه الله فى صحيحه . قال بعضهم : والأخبار متواترة به . وقال ابن الأثير : الصحيح الذى عليه أهل السير والحديث أن عليا كرم الله وجهه قاتله . وفى الاستيعاب : والصحيح الذى عليه أكثر أهل السير والحديث أن عليا قاتله . ويروى أن عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه لما خرج إليه ارتجز بقوله :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره ضرغام آجام وليث قسوره

وقيل بدله : * كليث غابات كريه المنظره *

أى فإن أم على كرم الله وجهه سمته أسدا باسم أبيها وكان أبوه أبو طالب غائبا ، فلما قدم كره ذلك وسماه عليا ، أى ومن أسماء الأسد حيدرة ، والحيدرة : الغليظ القوى . وقيل لقب بذلك فى صغره لأنه كان عظيم البطن ممتلئا لحما ، ومن كان كذلك يقال له حيدرة .

ويقال إن ذلك كان كشفا من على كرم الله وجهه ، فإن مرحبا كان رأى فى تلك الليلة فى المنام أن أسدا افترسه فذكره علىّ كرم الله وجهه بذلك ليخيفه ويضعف نفسه .

ويروى أن عليا كرم الله وجهه ضرب مرحبا فتترس فوقع السيف على الترس فقدّه وشق المغفر والحجر الذى تحته والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ السيف فى الأضراس ، وإلى ذلك يشير بعضهم ، وقد أجاد بقوله :

وسادن أبصرته مقبلا فقلت من وجدى به مرحبا
قدّ فؤادى فى الهوى قدة قدّ علىّ فى الوغى مرحبا

أى وقد يجمع بين كون القاتل لمرحب عليا كرم الله وجهه ، وكون القاتل له محمد ابن مسلمة بأن محمد بن مسلمة أثبته ، أى بعد أن شق على كرم الله وجهه هامته ، لجواز أن يكون شق هامته ولم يثبته فأثبته محمدبن‌مسلمة ، ثم إن عليا كرم الله وجهه وقف عليه .

أى ويدل لذلك مافى بعض السير عن الواقدى رحمه الله لما قطع محمد بن مسلمة ساقى مرحب قال له مرحب : أجهز علىّ ، فقال : لا،ذق الموت كما ذاقه أخى . ومرّ به على كرم الله وجهه فضرب عنقه وأخذ سلبه ، فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سلبه ، فقال محمد : يارسول الله ماقطعت رجليه وتركته إلا ليذوق الموت ، وكنت قادرا أن أجهز عليه ، فقال على كرم الله وجهه صدق ، فأعطى سلبه لمحمد بن مسلمة رضى الله عنه ، ولعل هذا كان بعد مبارزة عامر بن الأكوع لمرحب فلا ينافى مامر عن فتح البارى، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر أى وهو يرتجز بقوله :

قد علمت خيبر أنى ياسر شاكى السلاح بطل مغادر

وكان أيضا من مشاهير فرسان يهود وشجعانهم ، وهو يقول : من يبارز ؟ فخرج له الزبير رضى الله عنه ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول‌الله صلى الله‌عليه‌وسلم يارسول الله إنه يقتل ابنى ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :بل ابنك يقتله إن شاء الله، فقتله الزبير رضى الله عنه ، أى وعند ذلك قال له صلى الله عليه وسلم « فداك عمّ وخال لكل نبى حوارى ، وحوارى الزبير » .

وذكر الزمخشرى أن هذه الواقعة للزبير كانت فى بنى قريظة ، حيث قال : إنه يعنى الزبير رضى الله عنه أول من استحق السلب ، وكان ذلك فى بنى قريظة برز رجل من العدو ، فقال رجل ورجل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قم يازبير ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : واحدى يارسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيهما علا صاحبه فقتله ، فعلاه الزبير رضى الله عنه فقتله،فنفله رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبه وقال « السلب للقاتل » هذا كلامه فليتأمل ، فإنى لم أقف فى كلام أحد على أن بنى قريظة وقعت منهم مقاتلة بالمبارزة .

وفى رواية أن القاتل لياسر على بن أبى طالب كرم الله وجهه . أى ويمكن الجمع بمثل ماتقدم ، وكان شعار المسلمين « أمت أمت » وفى رواية « يامنصور أمت أمت » .

ومن جملة من قتل من المسلمين الأسود الراعي ، كان أجيرا لرجل من اليهود يرعى غنمه ، وكان عبدا حبشيا يسمى أسلم ، أى وفى الإمتاع اسمه يسار ، فجاء إليه صلى الله عليه وسلم وهو محاصر خيبر ، وقال : يارسول الله اعرض علىّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم .

وفى رواية أنه قال : إن أسلمت فماذا لى ؟ قال : الجنة ، فأسلم ، فلما أسلم قال : يارسول الله إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها ؟ وفى لفظ إنها أمانة وهى للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم له : اضرب فى وجهها فإنها سترجع إلى ربها ، فقام الأسود فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها فى وجهها وقال ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك ، فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم رضى الله عنه إلى ذلك الحصن فقاتل مع المسلمين فأصابه حجر . وفى رواية : سهم غرب بفتح الراء والإضافة ، وبتسكين الراء بلا إضافة وهو ما لا يعرف راميه فقتله ، ولم يسجد لله سجدة ، فأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا : يارسول الله لم أعرضت عنه ؟ فقال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه وتقولان له : ترب الله وجه من ترب وجهك وقتل من قتلك ، زاد فى لفظ : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، قد كان الإسلام من نفسه حقا .

وفتح الله ذلك الحصن الذى هو حصن ناعم ، وهو أول حصن فتح من حصون النطاة على يد على كرم الله وجهه .

أى وعن عائشة رضى الله عنها : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بنى قمة ، أى وهى أول دار فتحت بخيبر وهى بالنطاة ، وهى منزل ياسر أخى مرحب ، وظاهر السياق أنها حصن ناعم .

ويروى أن عليا كرم الله وجهه لما فتح الحصن أخذ الرجل الذى قتل أخا محمد بن مسلمة وسلمه إليه فقتله ، وتقدم أن محمد بن مسلمة رضى الله عنه قتل مرحبا لكونه قاتل أخيه على ماتقدم ، وسيأتى أنه صلى الله عليه وسلم دفع كنانة لمحمد بن مسلمة ليقتله بأخيه ،

وهذا يؤيد ماتقدّم من أن الثلاثة : أى مرحب وكنانة وذلك الرجل الذى سلمه علىّ له اشتركوا فى قتل أخى محمد بن مسلمة .

قال : وأصاب المسلمين رضى الله عنهم مجاعة وأرسلت أسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بن حارثة ، وأمرته أن يقول له صلى الله عليه وسلم : إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون أجهدنا الجوع ، فلامهم رجل وقال : من بين العرب تصنعون هـذا ؟ فقال زيد بن حارثة أخو أسماء : والله إنى لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الخير ، فجاءه صلى الله عليه وسلم أسماء وبلغه ماقالت أسلم ، فدعا لهم فقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليس بهم قوة ، وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه ، وقال : اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا ، ودفع اللواء للحباب بن المنذر رضى الله تعالى عنه وندب الناس ، وكان من سلم من يهود حصن ناعم انتقل إلى حصن الصعب من حصون النطاة ، ففتح الله حصن الصعب قبل ماغابت الشمس من ذلك اليوم بعد أن أقاموا على محاصرته يومين ، وما بخيبر حصن أكثر طعاما منه : أى من شعير وتمر وودك ، أى من سمن وزيت وشحم وماشية ، ومتاعا منه ، ولا يخالف هـذا ماتقدم عن عائشة فى وصف حصن ناعم من قولها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخره ولا ما تقدّم من أنهم أدخلوا أموالهم حصون الكتيبة ، لأنه يجوز أن يكون المراد بأموالهم النقود ونحوها دون ماذكر هنا ، وكان فى هذا الحصن الذى هو حصن الصعب خمسمائة مقاتل ، وقبل فتحه خرج منه رجل يقال له يوشع مبارزا ، فخرج له الحباب بن المنذر رضى الله تعالى عنه فقتله ، وخرج آخر مبارزا يقال له الديال فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى رضى الله تعالى عنه فضربه على هامته فقتله ، وقال له : خذها وأنا الغلام الغفارى ، فقال الناس حبط جهاده ، فقال صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك : يؤجر ويحمد ، أى وحملت يهود حملة منكرة . فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحباب بن المنذر رضى الله تعالى عنه ، فحرض صلى الله عليه وسلم المسلمين على الجهاد ، فأقبلوا وزحف بهم الحباب رضى الله تعالى عنه فانهزمت يهود وأغلقت الحصون عليهم .

ثم إن المسلمين اقتحموا الحصن يقتلون ويأسرون ، فوجدوا فى ذلك الحصن من

الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئا كثيرا ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلوا واعلفوا ولا تحملوا : أى لا تخرجوا به إلى بلادكم .

وهذا دليل لما ذهب إليه إمامنا رضى الله تعالى عنه من أن للغانمين أخذ ما تعم الحاجة إليه من الطعام ومايؤكل غالبا من الفواكه وعلف الدواب من الغنيمة بدار الحرب إذا كان الجهاد بدار الحرب إلى أن يصلوا إلى غير دار الحرب مما يباع ذلك فيه ، وليس لهم أخذ ما تندر الحاجة إليه كالفانيد والسكر ، ولا ينافى ذلك ما ذكر هنا ، لأنه يجوز أن يكون الإذن فى أكل مجموع ما ذكر .

وفى السيرة الهشامية عن عبد الله بن مغفل رضى الله تعالى عنه ، قال : أصبت من فىء خيبر ، أى من غنيمتها جراب شحم فاحتملته على عنقى أريد رحلى فلقينى صاحب المغانم الذى جعل عليها ، أى وهو أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى رضى الله تعالى عنه فأخذ بناصيته ، وقال : هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين ، فقلت : والله لا أعطيكه ، فجعل يجاذبنى الجراب فرآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصنع ذلك ، فتبسم ضاحكا ، ثم قال لصاحب المغانم : لا أبا لك خل بينه وبينه ، فأرسله ، فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى فأكلناه .

وفى الإمتاع أنهم وجدوا فى هذا الحصن الذى هو حصن الصعب آلة حرب : دبابات ومنجنيقا ، أى وذلك موافق لما تقدم عن ذلك المخبر له صلى الله عليه وسلم بأن فى حصن فى بيت منه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف ، ولعل وجود ذلك كان بدلالة ذلك الرجل عليه .

ولما فتح ذلك الحصن تحول من سلم من أهله إلى حصن قلة وهو حصن بقلة جبل ، أى ويعبر عن هذا بقلة الزبير رضى الله تعالى عنه ، أى الذى صار فى سهم الزبير بعد ذلك وهو آخر حصون النطاة ، أى فحصون النطاة ثلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة .

فأقام المسلمون على حصار هذا الحصن الذى هو حصن قلة ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود وقال له صلى الله عليه وسلم : يا أبا القاسم تؤمنى على أن أدلك على ماتستريح به ، فإنك لو مكثت شهرا لا تقدر على فتح هذا الحصن ، فإن به دبولا وهى الأنهر الصغيرة تحت الأرض يخرجون ليلا فيشربون منها ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم ، فأمنه

صلى الله عليه وسلم وسار إلى دبولهم فقطعها ، فعند ذلك خرجوا وقاتلوا أشدّ القتال وفتح ذلك الحصن ، ثم سار المسلمون إلى حصار حصون الشق بفتح الشين المعجمة وكسرها ، والفتح أعرف عند أهل اللغة ، فكان أوّل حصن بدأ به من حصنى الشق حصن أبىّ فقاتل أهله قتالا شديدا ، خرج رجل منهم يقال له غزوال يدعو إلى البراز ، فبرز له الحباب رضى الله تعالى عنه ، وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف الذراع ، فبادر راجعا منهزما إلى الحصن فتبعه الحباب فقطع عرقوبه فوقع فذفف عليه ، فخرج آخر مبارزا فخرج له رجل من المسلمين فقتل ذلك الرجل وقام مكانه يدعو للبراز ، فخرج له أبو دجانة رضى الله تعالى عنه ، فضربه أبو دجانة رضى الله تعالى عنه فقطع رجله ، ثم ذفف عليه .

وعند ذلك أحجمت يهود عن البراز ، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ، ودخلوه يقدمهم أبو دجانة رضى الله تعالى عنه ، فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البرىء ، وهو الحصن الثانى من حصنى الشق فتمنعوا به أشدّ التمنع ، وكان أهله أشد رميا للمسلمين بالنبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلقت به ، فأخذ لهم صلى الله عليه وسلم كفا من حصباء فحصب به ذلك الحصن ، فرجف بهم ثم ساخ فى الأرض ، وأخذ المسلمون من فيه أخذا ذريعا ، أى فحصون الشق اثنان : حصن أبىّ ، وحصن البرىء .

وحينئذ يتأمل فى قول الحافظ الدمياطى فى سيرته : والشق وبه حصون منها حصن أبىّ ، وحصن البرىء .

أقول : وفى الإمتاع أنهم وجدوا فى حصن الصعب الذى هو أحد حصون النطاة منجنيقا : أى كما أخبر بذلك اليهودى الذى جاء به عمر رضى الله تعالى عنه وأدخله عليه صلى الله عليه وسلم وأمنه كما تقدم ، وأنهم نصبوا المنجنيق الذى وجدوه فى حصن الصعب على هذا الحصن الذى هو حصن البرىء من حصون الشق ، أى وهو يخالف قول بعضهم لم ينصب المنجنيق إلا فى غزوة الطائف ، إلا أن يقال . يجوز أن يكون المراد بعدم نصبه أنه لم يرم به إلا فى غزوة الطائف . وأما هنا فنصب ولم يرم به فلا مخالفة .

ووجدوا فى هذا الحصن آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب ، فقال صلى الله عليه وسلم : اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا . وفى رواية : سخنوا

فيها الماء ، ثم اطبخوا بعد وكلوا واشربوا . وحكمة تسخين الماء فيها لا تخفى ، وهى أن الماء الحار أقوى فى النظافة وإخراج الدسومة والله أعلم .

ثم إن المسلمين لما أخذوا حصون النطاة وحصون الشق ، انهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكتيبة ، وهى ثلاثة حصون: القموص كصبور ، والوطيح ، وسلالم بضم السين المهملة ، وكان أعظم حصون خيبر القموص ، وكان منيعا حاصره المسلمون عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد على كرم الله وجهه ، ومنه سبيت صفية رضى الله تعالى عنها كما قاله الحافظ ابن حجر .

قال : وقيل كان اسمها قبل أن تسبى زينب ، فلما صارت من الصفى سميت صفية . والصفى : ما كان يصطفيه صلى الله عليه وسلم لنفسه من الغنيمة قبل أن تقسم على ما تقدم ، وكان فى الجاهلية لأمير الجيش ربع الغنيمة . ومن ثم قيل له المرباع .

قال السهيلى رحمه الله : كانت أموال النبى صلى الله عليه وسلم من ثلاثة أوجه : من الصفى ، والهدية ، وخمس الخمس هذا كلامه ، ولا يخفى أنه يزاد على ذلك الفىء .

وانتهى المسلمون إلى حصار الوطيح بالحاء المهملة ، مأخوذ من الوطح : وهو فى الأصل ما تعلق بمخالب الطير من الطين ؛ سمى الوطيح باسم الوطيح بن مازن ؛ رجل من ثمود . وحصن سلالم ويقال له السلاليم : وهو حصن بنى الحقيق ، آخر حصون خيبر .

ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهما ، فهم صلى الله عليه وسلم أن يجعل عليهم : أى على من فيهما المنجنيق : أى ينصبه عليهم ولم يرم به ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، وأن لا يصحب واحدا منهم إلا ثوب واحد على ظهره . وفى لفظ : وتركوا مالهم من مال وأرض من الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة والبز إلا ثوبا واحدا ، فصالحهم على ذلك ، وعلى أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئا من متاعهم يسألهم عنه .

فعلم أن حصون خيبر فتحت عنوة إلا الحصنين المذكورين : وهما الوطيح وسلالم ، فإنهما لم يفتحا عنوة بل صلحا ، فكانا فيئا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل على أنهم لم يقاتلوا فى حال حصارهم ، لأن الفىء ما جلوا عنه من غير مقاتلة ، كذا قيل .

وظاهر إطلاق قول الروضة من الفيء ما صولح عليه أهل بلد من الكفار أنه وإن كان بعد محاصرتهم ومقاتلتهم للمسلمين فى حال حصارهم برمى الحجارة أو النبل .

وفى فتح البارى نقلا عن ابن عبد البر أنه جزم بأن حصون خيبر فتحت عنوة ، وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحا بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم ، وهو ضرب من الصلح ؛ لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال هذا كلامه فليتأمل ، فإن بالقتال يخرج عن كونه فيئا ، ولعل المراد قتال بالنبل ورمى بالحجارة وإلا فقد تقدم أنه لم يخرج منهما أحد للمقاتلة فليتأمل ، فإن كلامه يقتضى أن بالحصار وبالقتال بنحو النبل يخرج ذلك عن كونه فيئا له صلى الله عليه وسلم ويكون غنيمة ، ولعله مذهب المالكية الذى هو مذهب ابن عبد البر رحمه الله تعالى .

وفى الأصل عن ابن شهاب رحمه الله أنه قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح خيبر عنوة بعد القتال ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال هذا كلامه .

فظاهره أن القتال وقع من الذين جلوا فى حال حصارهم ، وإلا فقد علمت أن الذين جلوا لم يخرج أحد منهم للقتال فى حال حصارهم ، وسيأتى ما يصرح بأن ما جلوا عنه فىء لا غنيمة .

ووجدوا فى الحصنين المذكورين : مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية بجعابها ، أى ووجدوا فى أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها ، فأمر صلى الله عليه وسلم بدفعها إليهم .

وهو يخالف ما قاله أئمتنا أن كتبهم التى يحرم الانتفاع بها لكونها مبدلة تمحى إن أمكن أو تمزق ، وتجعل فى الغنيمة فتباع ، إلا أن يدعى أن تلك الصحف لم تكن مبدلة ، وغيبوا الجلد الذى كان فيه حلى بنى النضير ، أى وعقود الدر والجوهر الذى جلوا به ، لأنهم لما جلوا كان سلام بن أبى الحقيق رافعا له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها كما تقدم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعية ابن عمرو : أى وهو عم حيي بن أخطب . وفى لفظ : سعية بن سلام بن أبى الحقيق . وفى الإمتاع : وسأل صلى الله عليه وسلم كنانة بن أبى الحقيق : أين مسك : أى جلد حيي ابن أخطب ، أى وإنما نسب إليه الجلد المذكور ، فقيل كنز حيي ، لأن حييا كان عظيم بنى النضير ، وإلا فهو لا يكون إلا عند بنى الحقيق ، فقال : أذهبته الحروب والنفقات ،

فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سعية بن عمرو للزبير رضى الله تعالى عنه فسه بعذاب ، فقال : رأيت حييا يطوف فى خربة ههنا فذهبوا إلى الخربة ، ففتشوها فوجدوا ذلك الجلد .

قال : وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم أتى بكنانة ، وهو زوج صفية تزوجها بعد أن طلقها سلام بن مشكم ، وبالربيع أخوه ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين آنيتكما التى كنتم تعيرونها أهل مكة ، أى لأن أعيان مكة إذا كان لأحدهم عرس يرسلون فيستعيرون من ذلك الحلى انتهى ، أى والآنية والكنز عبارة عن حلى كان أولا فى جلد شاة ، ثم كان لكثرته فى جلد ثور ، ثم كان لكثرته فى جلد بعير كما تقدم فقالا : أذهبته النفقات والحروب ، فقال صلى الله عليه وسلم : العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك ، إنكما إن كتمتمانى شيئا فاطلعت عليه استحللت دماءكما وذراريكما ، فقالا : نعم ، فأخبره الله بموضع ذلك الحلى ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من الأنصار : اذهب إلى محل كذا وكذا ، ثم ائت النخل ، فانظر نخلة عن يمينك أو قال عن يسارك مرفوعة فائتنى بما فيها فانطلق فجاءه بالآنية .

ويمكن الجمع بين هذا وما تقدم وما يأتى أنهم فتشوا عليه فى خربة حتى وجدوه ، بأن التفتيش كان فى أول الأمر ، وإعلام الله تعالى له بذلك كان بعد ، فجىء به فقوم بعشرة آلاف دينار ؛ أى لأنه وجد فيه أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتيم الذهب ، وعقود الجوهر والزمرد ، وعقود أظفار مجزع بالذهب ، فضرب أعناقهما وسبى أهلهما.

أى وفى لفظ آخر : لما فتحت خيبر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع وفى لفظ : ابن ربيعة بن أبى الحقيق ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله صلى الله عليه وسلم عنه ، فجحد أن يكون يعلم مكانه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فقال : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة ، أى فإن كنانة حين رأى النبى صلى الله عليه وسلم فتح حصن النطاة وتيقن ظهوره عليهم دفنه فى خربة .

أى وفيه أن هذا لا يناسب ما سبق من أن حييا كان يطيف بتلك الخربة ، إلا أن يقال جاز أن يكون دفنه فى تلك الخربة فى محل آخر غير الذى دفنه فيه حيى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة : أرأيت إن وجدته عندك أقتلك ؟ قال نعم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله ما بقى فأبى أن يؤديه ، فأمر به الزبير رضى الله تعالى عنه فقال : عذبه حتى نستأصل ما عنده ، فكان

الزبير رضى الله تعالى عنه يقدح بزند ، أى بالزناد الذى يستخرج به النار على صدره حتى أشرف على نفسه .

وأخذ منه جواز العقوبة لمن يتهم ليقر بالحق ، فهو من السياسة الشرعية ، ثم دفعه صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه فضرب عنقه بأخيه محمود . أى ولا مانع أن يكون السؤال وتعذيب الزبير وقع لسعية وكنانة أيضا .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم : أى التى غنمت قبل الصلح فجمعت ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا منها صفية رضى الله تعالى عنها بنت حيي ابن أخطب ، من سبط هرون بن عمران أخى موسى عليهما الصلاة والسلام ، فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه ، وجعلها عند أم سليم التى هى أم أنس خادمه صلى الله عليه وسلم حتى اهتدت وأسلمت ، ثم أعتقها صلى الله عليه وسلم وتزوجها وجعل عتقها صداقها : أى أعتقها بلا عوض وتزوجها بلا مهر لا فى الحال ولا فى المآل : أى لم يجعل لها شيئا غير العتق .

وقد سئل أنس رضى الله تعالى عنه عن صفية ، فقيل له: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها ، أعتقها وتزوجها ، وهذا يرد ما استدل به بعض فقهائنا : على أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز نكاح الأمة الكتابية ، وجواز وطئها بملك اليمين من أنه صلى الله عليه وسلم كان يطأ صفية قبل إسلامها بملك اليمين .

ويرد أيضا على من استدل من فقهائنا على استحباب الوليمة للسرية ، بأنه صلى الله عليه وسلم أولم على صفية كما علمت أنها زوجة لا سرية .

أى لكن ذكر بعض فقهائنا أنه صلى الله عليه وسلم لما أولم على صفية رضى الله تعالى عنها ، قالوا : إن لم يحجبها فهى أم ولد ، وإن حجبها فهى امرأته ، وذلك دليل على استحباب الوليمة للسرية ، إذ لو اختصت بالزوجة لم يترددوا فى كونها زوجة أو سرية ، وذلك بعد أن خيرها صلى الله عليه وسلم بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها ، أو تسلم فيتخذها لنفسه ، فقالت : أختار الله ورسوله .

وذكر فى الأصل أن جعل عتق الأمة صداقها من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكره الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى . وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى عدم

الخصوصية . وقال ابن حبان : لم ينقل دليل على أنه خاص به صلى الله عليه وسلم دون أمته .

وقيل إن دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية فوهبها له ، وقيل وقعت فى سهمه رضى الله تعالى عنه، ثم ابتاعها صلى الله عليه وسلم منه بتسعة أرؤس ، أى وإطلاق الشراء فى ذلك على سبيل المجاز ، على أنه يخالف ماتقدم أنها من صفية صلى الله عليه وسلم قبل القسمة .

وفى البخارى « فجمع السبي ، فجاء دحية رضى الله تعالى عنه فقال : يانبى الله أعطنى جارية من السبي ، فقال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حيي ، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والنضير ، لاتصلح إلا لك ، فقال : ادعوه بها ، فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال : خذ جارية من السبي غيرها » أى فأخذ غيرها .

أى والتى أخذها غيرها هى أخت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية كما فى الأم لإمامنا الشافعى رضى الله عنه عن سيرة الواقدى ، وقول الرجل للنبى صلى الله عليه وسلم يانبى الله أعطيت دحية صفية يدل على أنه اسمها ، وحينئذ يخالف ماقيل إن اسمها زينب فسماها صلى الله عليه وسلم صفية كما تقدم .

وفى رواية أن صفية سبيت هى وبنت عم لها، وأن بلالا جاء بهما فمر على قتلى يهود، فلما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها صلى الله عليه وسلم قال : اعزبوا عنى هذه الشيطانة ، وقال صلى الله عليه وسلم لبلال : أنزعت منك الرحمة يابلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ ثم دفع صلى الله عليه وسلم بنت عمها لدحية الكلبي رضى الله تعالى عنه ، وفى رواية : وأعطى دحية بنت عمها عوضا عنها .

أى وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل بصفية رأى بأعلى عينها خضرة فقال : ماهذه الخضرة ؟ قالت : كان رأسى فى حجر بن أبى الحقيق — تعنى زوجها ، أى وهى عروس — وأنا نائمة ، فرأيت كأن القمر وقع فى حجرى ، فأخبرته بذلك ، فلطمنى وقال : تتمنى ملك العرب ، وفى لفظ : حين نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وكانت عروسا رأت كأن الشمس نزلت حتى وقعت على صدرها فقصت ذلك على زوجها

قال : والله ماتتمنين إلا هذا الملك الذى نزل بنا فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها . ولا مانع من تعدد الرؤية أو أنها رأت الشمس والقمر فى وقت واحد ، وسيأتى فى الكلام على زوجاته صلى الله عليه وسلم أنها قصت ذلك على أبيها ففعل بها ذلك ، وسيأتى أنه لا مانع من تعدد الواقعة وأنهما فعلا بها ذلك .

وتقدم أن جويرية رضى الله تعالى عنها رأت القمر أيضا وقع فى حجرها ، وكون صفية رضى الله تعالى عنها كانت عروسا عند مجيئه صلى الله عليه وسلم خيبر ربما يدل على أن سلام ابن مشكم طلقها قبل الدخول بها ، فقد تقدم أن كنانة تزوج بها بعد أن طلقها سلام ابن مشكم فليتأمل .

وعن صفية رضى الله تعالى عنها أنها قالت « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من الناس أحد أكره إلى منه قتل أبى وزوجى وقومى ، فقال صلى الله عليه وسلم : ياصفية أما إنى أعتذر إليك مما صنعت بقومك ، إنهم قالوا لى كذا وكذا ، وقالوا فى كذا وكذا ، وفى رواية : إن قومك صنعوا كذا وكذا ، وما زال صلى الله عليه وسلم يعتذر إلى حتى ذهب ذلك من نفسى ، فما قمت من مقعدى ومن الناس أحد أحب إلى منه صلى الله عليه وسلم » وأعرس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن طهرت من الحيض فى قبة بعد أن دفعها صلى الله عليه وسلم لأم سليم لتصلح من شأنها ، وبات تلك الليلة أبو أيوب الأنصارى رضى الله تعالى متوشحا سيفه يحرسه ويطوف بتلك القبة حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى مكان أبى أيوب ، فقال : مالك يا أبا أيوب ؟ قال : يارسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديثة عهد بكفر ، فبت أحفظك ، فقال : اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى . قال السهيلى رحمه الله : فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة ، حتى إن الروم لتحرس قبره ويستشفون به فيستصحون ، أى ويستسقون به فيسقون .

فإنه غزا مع يزيد بن معاوية سنة خمسين ، فلما بلغوا القسطنطينية مات أبو أيوب رضى الله عنه هنالك ، فأوصى يزيد أن يدفنه فى أقرب موضع من مدينة الروم ، فركب المسلمون ومشوا به حتى إذا لم يجدوا مكانا مساغا دفنوه ، فسألتهم الروم عن شأنهم ، فأخبروهم أنه كبير من أكابر الصحابة ، فقالت الروم ليزيد : ما أحمقك وأحمق من أرسلك أأمنت أن ننبشه بعدك ، فنحرق عظامه ، فحلف لهم يزيد لئن فعلتم ذلك ليهدمن كل

كنيسة بأرض العرب ، وينبش قبورهم ، فحينئذ حلفوا له بديهم ليكرمن قبره وليحرسنه ما استطاعوا .

أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم لما قطع ستة أميال من خيبر وأراد أن يعرس بها فأبت ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم فى نفسه ، فلما سار ووصل الصهباء مال إلى دومة هناك فطاوعته ، فقال لها : ماحملك على إبائك حين أردت المنزل الأول ؟ قالت : يارسول الله خشيت عليك قرب يهود ، وهذا المحل الذى هو الصهباء هو الذى ردت فيه الشمس لعلىّ بعد ماغربت كما تقدم .

وأقام صلى الله عليه وسلم بذلك المحل ثلاثة أيام ، وجعل وليمتها حيسا فى نطع صغير ، والحيس : تمر وأقط وسمن . أى ففى البخارى « فأصبح النبى صلى الله عليه وسلم عروسا ، فقال : من كان عنده شىء فليجىء به وبسط نطعا ، فجعل الرجل يجىء بالتمر ، وجعل الرجل يجىء بالسمن ، أى وجعل الرجل يجىء بالأقط ، وذكر أيضا السويق » .

ولا يخفى أن الحيس خلط السمن والتمر والأقط إلا أنه قد يخلط مع هذه الثلاثة السويق ، وهذا يدل على أن الوليمة على صفية رضى الله تعالى عنها كانت نهارا .

وذهب ابن الصلاح من أئمتنا إلى أن الأفضل فعلها ليلا ، قال بعضهم : وهو متجه إن ثبت أنه صلى الله عليه وسلم فعلها ليلا ، أى لأحد من نسائه . وقد جاء « لابد للعرس من وليمة » .

وقال لأنس : آذن من حولك : أى ليأكلوا من ذلك الحيس ، وكان صلى الله عليه وسلم يضع لها ركبته لتركب ، فتضع رجلها على ركبته الشريفة حتى تركب . وفى لفظ : لما وضع صلى الله عليه وسلم ركبته لتركب عليها أبت أن تضع قدمها على ركبته الشريفة ووضعت فخذها على ركبته ، أى ولعل هذا الثانى منها كان فى أول الأمر ، فلا مخالفة .

وعن صفية رضى الله تعالى عنها : مارأيت أحدا قط أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد رأيته ركب بى فى خيبر وأنا على عجز ناقته ليلا ، فجعلت أنعس فتضرب رأسى مؤخرة الرحل فيمسنى بيده ويقول : ياهذه مهلا .

ونهى صلى الله عليه وسلم عن إتيان الحبالى من النساء اللاتى سبين ، وأن لايصيب أحد امرأة من السبى غير حامل حتى يستبرئها أى تحيض .

أى وفى لفظ : أمر صلى الله عليه وسلم مناديه ينادى أن من آمن بالله واليوم الآخر لايسق بمائه زرع الغير ، ولا يطأ امرأة حتى تنقضى عدتها : أى حتى تحيض .

وبلغه صلى الله عليه وسلم عن شخص أنه ألمّ بامرأة من السبي حبلى، فقال: لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه فى قبره. ونهى صلى الله عليه وسلم عن أكل الثوم.

ورأيت فى كلام بعضهم أن غالب اقتياتهم فى خيبر كان أكل الثوم والكراث حتى تقرحت أشداقهم، أى وذلك قبل النهى.

ثم رأيت فى الترغيب والترهيب عن أبى ثعلبة أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فوجدوا فى جنانها بصلا وثوما فأكلوا منه وهم جياع، فلما راح الناس إلى المسجد إذا ريح بصل وثوم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربنا» وليس فى ذلك نهى عن أكل الثوم والبصل: أى مطلقا، إنما النهى عن إتيان المسجد لمن أكلهما تأمل.

ومن ثم جاء أنه لما قال ذلك صلى الله عليه وسلم قال الناس حرم ذلك، فلما بلغه صلى الله عليه وسلم ماقالوا، قال: أيها الناس، إنه ليس لنا تحريم ماأحل الله ولكنها شجرة أكره ريحها.

وعن فرقد السنجى «ماأكل نبى قط ثوما ولا بصلا».

ونهى صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء. فنى مسلم عن على رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر».

قال بعضهم: والراجح أن النهى عن متعة النساء لم يكن فى خيبر، فإنه شىء لم يعرفه أهل السير ولا رواه أهل الأثر، ويدل لذلك ماقيل إن ثنية الوداع إنما سميت بذلك لأنهم فيها ودّعوا النساء اللاتى تمتعوا بهنّ فى خيبر، أى وإنما كان تحريمها عام الفتح، أى ولا معارضة لأنه أحل بعد ذلك: أى بعد خيبر فى عام الفتح، ثم حرم فيه بعد ثلاثة أيام كما سيأتى.

وقيل حرمت فى حجة الوداع، وقيل فى غزوة أوطاس، وهذا هو الصحيح، وسيأتى فى غزوة الفتح الجمع بين هذه الأقوال.

قال السهيلى رحمه الله: وأغرب ماروى فى ذلك رواية من قال إن ذلك كان فى غزوة تبوك. وفى حديث خرجه أبو داود أن تحريم نكاح المتعة كان فى حجة الوداع، ومن قال من الرواة إنه كان فى غزوة أوطاس فهو موافق لمن يقول إنه كان عام الفتح. هذا كلامه.

وعن إمامنا الشافعي رضى الله عنه : لا أعلم شيئا حرم ثم أبيح ثم حرم إلا المتعة ، أى فقد حرمت مرتين .

ونقل السهيلى رحمه الله وغيره عن بعضهم أنها أبيحت وحرمت ثلاث مرات . وعن بعضهم أنها أبيحت وحرمت أربع مرات ، ولينظر هذا مع قول بعضهم إن أوّل من حرم المتعة سيدنا عمر رضى الله عنه .

وقيل لم يحرمها صلى الله عليه وسلم مطلقا ، بل عند الاستغناء عنها . وأباحها عند الحاجة إليها : أى عند خوف الزنا ، وبذلك كان يفتى ابن عباس رضى الله عنهما .

وفى كلام فقهائنا : والنهى عن نكاح المتعة فى خبر الصحيحين الذى لو بلغ ابن عباس رضى الله عنهما لم يستمرّ على القول بإباحتها لمن خاف الزنا مخالفا فى ذلك لكافة العلماء .

وقد وقعت مناظرة فى المتعة بين القاضى يحيى بن أكثم وأمير المؤمنين المأمون ؛ فإن المأمون نادى بإباحة المتعة ، فدخل عليه يحيى بن أكثم وهو متغير اللون بسبب ذلك وجلس عنده ، فقال له المأمون : مالى أراك متغيراً ؟ قال : لما حدث فى الإسلام ، قال : وما حدث ؟ قال : النداء بتحليل الزنا ، قال : المتعة زنا ؟ قال : نعم المتعة زنا ، قال : ومن أين لك هذا ؟ قال : من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما الكتاب ، فقد قال الله تعالى (قد أفلح المؤمنون) إلى قوله (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ياأمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا ، قال : أفهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث ويلحق بها الولد ؟ قال : لا ، قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين . وأما السنة ، فقد روى الزهرى بسنده إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها » فالتفت المأمون للحاضرين وقال : أتحفظون هذا من حديث الزهرى ؟ قالوا : نعم ياأمير المؤمنين ، فقال المأمون : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة .

ونهى صلى الله عليه وسلم فى خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ، أي فإنهم أصابهم جوع فوجدوا الحمر الأهلية : أى ثلاثين حمارا خرجت من بعض الحصون ، وقيل لم يدخلوها الحصون ، فأخذها رهط من المسلمين وذبحوها وجعلوا لحومها فى القدور والبرام ، وجعلوا يطبخونها للأكل ، فمرّ بهم النبى صلى الله عليه وسلم فسألهم عما فى القدور والبرام ؟

قالوا : لحوم الحمر الإنسية : أى المخالطة للإنس ؛ فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن أكلها حتى إن القدور أكفئت وإنها لتفور » .

أى وفى البخارى « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى نيرانا توقد يوم خيبر ، قال : علام توقد هذه النيران ؟ قالوا : على الحمر الإنسية ، قال : اكسروها وأهريقوها ، قالوا : ألا نهريقها ونغسلها ؟ قال : اغسلوها » .

وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم قال : ماهذه النيران ، على أى شىء توقد ؟ قالوا : على لحم ، قال : على أى لحم ؟ قالوا : على لحم حمر إنسية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أهريقوها واكسروها ، فقال رجل : يارسول الله أو نهريقها ونغسلها ؟ فقال أو ذاك » وعدوله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الثانى إما باجتهاد أو وحى .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم عند ذلك أمر عبد الله بن عوف أن ينادى فى الناس أن لحوم الحمر الأهلية لاتحل لمن يشهد أن محمدا رسول الله ، وأمر أن تكفأ القدور ولا يأكلوا من لحوم القدور شيئا » .

وفى مسلم « فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طلحة فنادى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس أو نجس » وهذا السياق كله يدل على أنهم لم يأكلوا منها شيئا .

وفى السيرة الهشامية : « وأكل المسلمون من لحوم الحمر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى الناس عن أمور سماها لهم » وهذا يرد القول بأنه إنما نهى عن أكلها للحاجة إليها ، أو لأنها أخذت قبل القسمة .

وروى أبو داود بإسناد على شرط مسلم عن جابر رضى الله تعالى عنه « ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال ، ولم ينهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخيل » وفى رواية « ورخص فى أكل الخيل » أى أباح أكلها .

وفى مسلم عن أسماء رضى الله عنها ، قالت « نحرنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلناه » أى وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ولم ينكره .

وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عايه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية والبغال والخيل » .

قال السهيلى رحمه الله : وحديث الإباحة أصح ، وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم نهى

يوم خيبر عن أكل لحم الجلالة وعن ركوبها ، حتى تعلف أربعين يوما » والجلالة : التى تأكل الجلة ، وهى الروث والعذرة .

وذكر الهروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يأكل الدجاج الجلالة حتى تقصر » أى تحبس ثلاثة أيام . وذكر فقهاؤنا أن الحمر الأهلية حللت بعد تحريمها ، ثم حرمت فليتأمل .

ونهى صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، أى وذى مخلب من الطير وعن بيع المغانم حتى تقسم ، وجعلت له صلى الله عليه وسلم مائدة فأكل متكئاً واطلى بالنورة ، وكان ينوّره الرجل ، فإذا بلغ عانته تولى ذلك صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة .

وروى ابن ماجه بسند جيد كما قاله الحافظ ابن كثير « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا طلى بدأ بعورته فطلاها وطلى سائر جسده أهله » وحينئذ يكون المراد بعانته فى الرواية السابقة العورة على أن تلك الرواية مرسلة فلا يحتج بذلك لمن يقول إن العورة ما عدا السوءتين .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها « أنها قالت : أطلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنورة ، فلما فرغ منها قال : يامعشر المسلمين عليكم بالنورة فإنها طيبة وطهور ، وإن الله تعالى يذهب بها عنكم أوساخكم وأشعاركم » أى فهو من نعيم الدنيا ، ومن ثم كرهه عمر رضى الله عنه .

وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قيل له وقد دخل الحمام : أتدخل الحمام وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الحمام .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما : طاب حمامكما » وجاء « أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتنوّر كل شهر ، ويقلم أظفاره كل خمسة عشر يوما » وما ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتنور فهو ضعيف معارض بما هو أقوى منه وأكثر عددا ، على أن المثبت مقدّم على النافى. أى وفى الينبوع : وقول أنس رضى الله عنه إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان لايتنوّر وكان يحلق محمول على الغالب من أمره صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفى الخصائص الصغرى ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ماتنور نبى قط . وفى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقت لقص الشارب وتقليم الأظفار أن لايدع ذلك أربعين يوما » أى وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقص أظفاره كل خمسة عشر يوما كما تقدم .

وقد استفيد من هذا كما قال بعضهم فائدة نفيسة وهى ذكر التوقيت للتنوّر وقص الأظفار . قال بعضهم: وفيه نظر،فإن بدنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى غاية الاعتدال فلا يقاس به صلى الله تعالى عليه وسلم غيره فى ذلك ، نظير ما قالوه فيما صح « أنه صلى الله عليه وسلم كان يوضئه المدّ ، ويغسله الصاع » إن ذلك خاص ببدن من يكون بدنه كبدنه عليه الصلاة والسلام نعومة واعتدالا ، وإلا زيد ونقص المتفاوت فكذلك هنا ، ومن ثم قال الأئمة رحمهم الله فى نحو حلق العانة ونتف الإبط والقلم للظفر وقص الشارب : إن ذلك لايتقيد بمدة ، بل يختلف باختلاف الأبدان والمحالّ ، فيعتبر وقت الحاجة إلى إزالة ذلك .

وبهذا يردّ على من قال يكره التنورُ أقل من شهر ، وقدم عليه صلى الله عليه وسلم بخيبر الأشعريون ، أى ومنهم أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ، والدوسيون ومنهم أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ، فسأل صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه رضى الله عنهم أن يشركوهم فى الغنيمة ففعلوا .

قال : وعن موسى بن عقبة رحمه الله أن أحد الأشعريين ومن ذكر معهم: أى وهم الدوسيون من هذين الحصنين اللذين فتحا صلحا ، وتكون مشاورة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى إعطائهم ليست استنزالا لهم عن شئ من حقهم ، وإنما هى المشورة العامة : أى المأمور بها فى قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) انتهى .

أقول : وهذا صريح فى أن ذلك كان فيئا له صلى الله عليه وسلم ، فهما وما فيهما مما أفاء الله عليه صلى الله عليه وسلم ، لأن الفىء ما جلوا عنه من غير قتال ؛ أى من غير مصافة للقتال .

والحاصل أن أرض خيبر ونخلها غنيمة ، لأنه صلى الله عليه وسلم غلب على النخل والأرض ، وألجأهم إلى الحصون ، وفتح جميع الحصون عنوة إلا الوطيح ، والسلالم

فإنهما فتحا صلحا على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ، بشرط أن لايكتموه شيئا من أموالهم ، وأن من كتم شيئا انتقض ذلك الصلح له بالنسبة لدمه وذراريه .

وهذان الحصنان هما المرادان بالكتيبة فى قول بعضهم : كان صلى الله عليه وسلم يطعم من الكتيبة أهله لما علمت أنهما من حصونها ، وأنهما وما فيهما مما أفاء الله عليه .

وكونه صلى الله عليه وسلم كان يطعم أهله مما فيهما واضح . وأما إذا كان المراد يطعم من الأرض والنخيل المتعلقين بالحصنين فقد يتوقف فيه ، لما تقدم أن أرض خيبر ونخلها غنيمة وذلك شامل للأرض والنخيل المتعلقين بالحصنين فليتأمل والله أعلم .

وفى لفظ : وقدم عليه صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه من أرض الحبشة ومعه الأشعريون ، أبو موسى الأشعرى وأخوه أبو رهم وأبو بردة رضى الله عنهم ، وكان أبوموسى أصغرهم وأقواهم وكان قوم جعفر بالحبشة ، أى لأنهم هاجروا إلى الحبشة من اليمن كما تقدم ، وقبل قدومهم إليه صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم « يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا » فقدم الأشعريون ، وذكر أنهم عند مجيئهم صاروا يقولون :

غدا نلقى الأحبه محمـــدا وحزبه

وفى كلام بعضهم ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم قال فى حقهم « أتاكم أهل اليمن ، هم أضعف قلوبا ، وأرق أفئدة ، الفقه يمان ، والحكمة يمانية » .

ولما أقبل عليه صلى الله عليه وسلم جعفر رضى الله عنه قام صلى الله عليه وسلم إلى جعفر وقبله بين عينيه وفى رواية « قبل جبهته » .

أى وعن ابن عباس رضى الله عنهما « لما قدم جعفر رضى الله عنه من أرض الحبشة اعتنقه النبى صلى الله عليه وسلم وقبل بين عينيه » وجعل ذلك أصلا لاستحباب المعانقة .

وقال بعضهم : إنها مكروهة ، وحديث جعفر يحتمل أن يكون قبل النهى عنها ، فانه نهى عن المعاكمة وهى المعانقة ، وحمل ذلك بعضهم على ما إذا كانت المعانقة من غير حائل .

أقول : لم يجب بذلك سيدنا مالك رضى الله عنه ، فإنه لما قدم عليه سفيان بن عيينة رضى الله عنه صافحه مالك وقال له : لولا أنها بدعة لعانقتك ، فقال له سفيان : قد عانق من هو خير منك ومنى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال مالك : تعنى جعفر بن أبى طالب ؟

قال نعم ، قال : ذلك حبيب خاص ليس بعام ، أى فذلك من خصوصياته ، فقال له سفيان : ماعم جعفرا يعمنا ، وما يخصه يخصنا ، أى فالأصل عدم الخصوصية ، ثم قال له سفيان : أتأذن لى أن أحدثك بحديثك . قال نعم ، فقال : حدثنى فلان عن فلان عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وذكر الحديث المتقدم عنه ، وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم التزم زيد بن حارثة رضى الله عنه حين قدم عليه من مكة .

وأما المصافحة ، فقد جاء « أن أهل اليمن لما قدموا المدينة صافحوا الناس بالسلام ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن أهل اليمن قد سنوا لكم المصافحة » وقال « من تمام محبتكم المصافحة » وقال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية لما قدم عليه «والى عدى ابن حاتم » . قال السهيلى : وليس هذا معارضا لحديث « من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » لأن هذا الوعيد إنما توجه للمتكبرين وإلى من يغضب أن لا يقام له ، وكان صلى الله عليه وسلم يقوم لفاطمة رضى الله عنها وكانت تقوم له صلى الله عليه وسلم هذا كلامه ، والله أعلم .

ولما رآه صلى الله عليه وسلم جعفر حجل : أى مشى على رجل واحدة إعظاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن أهل الحبشة يفعلون ذلك للتعظيم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له « أشبهت خلقى وخلقى » وفى لفظ « جعفر أشبه الناس بى خلقا وخلقا » وكان صلى الله عليه وسلم يسميه أبا المساكين ، لأنه رضى الله عنه كان يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه .

وذكر بعضهم أنه لما قال له صلى الله عليه وسلم « أشبهت خلقى وخلقى » رقص من لذة هذا الخطاب ، ولم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم رقصه ، وجعل ذلك أصلا لجواز رقص الصوفية عند ما يجدونه من لذة المواجيد من مجالس الذكر والسماع ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ » رضى الله عنه .

وقيل قدم مع جعفر رضى الله عنه سبعون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم اثنان وستون من الحبشة ، وثمانية روميون من أهل الشام .

وفى لفظ : قدم معه سبعون كافرا أصحاب الصوامع ، وقيل كانوا أربعين رجلا : اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام . وقيل كانوا ثمانين رجلا :

أربعون من أهل نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية روميون من أهل الشام ، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس إلى آخرها فبكوا وأسلموا ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه الصلاة والسلام .

أى ولعل هؤلاء الذين من الحبشة هم المرادون بقول بعضهم : ووفد إليه وفد النجاشى ، فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك يارسول الله ، فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم . وفى لفظ : وقدم عليه أيضا أبوهريرة رضى الله عنه وطائفة من قومه ، وهم دوس كما تقدم .

قال أبوهريرة رضى الله عنه : «قدمنا المدينة ونحن ثمانون بيتا من دوس فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفارى ، فأخبرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم بخيبر : فزودنا سباع ، ثم جئنا خيبر وهو محاصر الكثيبة فأقمنا حتى فتح الله : أى وكان من جملة من قدم معهم من بلاد الحبشة أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، تزوجها : أى عقد عليها وهى بالحبشة ، فإنها كانت ممن هاجر الهجرة الثانية للحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش فارتد عن الإسلام هناك وتنصر ومات على ذلك ، وبقيت هى على إسلامها كما تقدم . وقد أرسل صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه فى المحرم افتتاح سنة سبع إلى النجاشى ليزوجها منه صلى الله عليه وسلم ، قالت أم حبيبة رضى الله عنها : رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى : يا أم المؤمنين ففزعت ، فأولتها بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوجنى ، قالت : فما شعرت إلى وقد دخلت علىّ جارية النجاشى ، فقالت لى : إن الملك يقول لك : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليه أن يزوجك منه ، فقلت لها : بشره الله بالخير ، ويقول لك : وكلى من يزوجك ، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد رضى الله عنه ، أى وأعطت تلك الجارية سوارين وخدمتين ، أى خلخالين وخواتيم فضة سرورا بما بشرت به ، فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين فحضروا وخطب النجاشى رضى الله عنه ، فقال « الحمد لله الملك القدوس » أى فى لفظ بدل ذلك « المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . أما بعد — فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فأجبنا إلى مادعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصدقها

أربعمائة دينار ، أى وفى لفظ أربعمائة مثقال ذهب ثم سكب الدنانير بين يدى القوم ، فتكلم خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنه ، فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد: فقد أجبت إلى مادعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ، أى ودفع النجاشى الدنانير لخالد بن سعيد ، فقبضها منه ، وقيل إنه أنقدها لها النجاشى على يد جاريته التى بشرتها ، فلما جاءتها بتلك الدنانير أعطتها خمسين دينارا ،

وقد يقال : يجوز أن يكون النجاشى استردها من خالد ثم دفعها لتلك الجارية ، أو أمر خالد بن سعيد بدفعها للجارية لتدفعها لأم حبيبة فلا مخالفة ، وهذا السياق يدل على أن النجاشى كان هو الوكيل عنه صلى الله عليه وسلم . وفى كلام بعض فقهائنا أنه صلى الله عليه وسلم وكل عمرو بن أمية فى نكاح أم حبيبة .

وقد يقال : معنى توكيل عمرو إرساله بالوكالة للنجاشى ، أى ثم لما أرادوا أن يقوموا بعد العقد قال لهم النجاشى : اجلسوا ، فإن من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ؛ فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا ، قالت أم حبيبة رضى الله عنها : فلما كان من الغد جاءتنى جارية النجاشى فردت على جميع ما أعطيتها وقالت : إن الملك عزم على أن لا أرزأك شيئا ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر ، فجاءت بورس وعنبر وزباد كثير ، وقالت : حاجتى إليك أن تقرئى رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه ، وكانت كلما دخلت على تقول لا تنسى حاجتى إليك ، ثم أرسل النجاشى أم حبيبة مع شرحبيل ابن حسنة ، أى قالت أم حبيبة : ولما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته كيف كانت الخطبة ومافعلت معى جارية النجاشى وأقرأته منها السلام ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وعليها السلام ورحمة الله وبركاته .

وجاء « أنه لما رجعت إليه صلى الله عليه وسلم مهاجرة الحبشة قال : ألا تخبرونى بأعجب شىء رأيتم بأرض الحبشة ؟ فقال فتية منهم : يارسول الله بينما نحن جلوس إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم وعلى رأسها قلة فيها ماء ، فمرت بصبى فدفعها فوقعت على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت : أى قامت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم

ياغدر إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، تعلم أمرى وأمرك عنده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت «كيف يقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من قويهم» .

وذكر «أنه لما أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على خيبر ودنا منها بعث محيصة ابن مسعود إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإســـلام ويخوفهم ، قال محيصة : فجئتهم فجعلوا يتربصون ويقولون إن بخيبر عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ، ما نرى أن محمدا يقرب إليه ، فمكثت عندهم يومين ، ثم أردت الرجوع ، فقالوا : نحن نرسل معك رجالا منا يأخذون لنا الصلح ، كل ذلك وهم يظنون أنه صلى الله عليه وسلم لا يقدر على فتح خيبر ، حتى جاءهم أناس من حصن ناعم ، وأخبروهم أن رسول الله صلى الله عليه وســلم فتحه فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع فى نفر ، يصالحون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ويجليهم ، ويخلوا بينه وبين الأموال ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

وقيل تصالحوا معه على أن يكون لهم نصف الأرض ولرسول الله صلى الله عليه وسلم النصف الآخر ، فكان فدك على الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الثانى كان له نصفها لأنها لم تؤخذ بمقاتلة ، فكان صلى الله عليه وسلم ينفق منها ويعود منها على صغير بنى هاشم ، ويزوج منها أيمهم .

ولما مات صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة سألته فاطمة رضى الله عنها أن يجعلها أو نصفها لها فأبى : وروى لها أنه صلى الله عليه وسلم قال : «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» أى على المسلمين .

ومما يؤيد الثانى ماقيل إنه لما أجلاهم عمر رضى الله عنه مع يهود خيبر كما سيأتى اشترى منهم حصتهم التى هى النصف بمال بيت المال .

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقيل له إن مروان اقتطعها : أى جعلها أقطاعا له ، فقال : أرأيتم أمرا منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة : أى بقوله صلى الله عليه وسلم «لا نورث ما تركناه صدقة» ليس لى بحق ، وإنى أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى صدقة على المسلمين .
وطلب الصلح كان بعد أن أرادت غطفان وسيدهم عيينة بن حصن أن يعينوا أهل خيبر ،

أى وكانوا أربعة آلاف ، فإن يهود خيبر لما سمعوا بمجيئه صلى الله عليه وسلم إليهم أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهودة بن قيس فى أربعة عشر رجـــلا إلى غطفان ليستمدوا بهم ، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا على المسلمين ، فجمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود خيبر .

أى ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم أن لا يعينوهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً سماه لهم ، أى وهو نصف ثمارها فأبوا وقالوا جيراننا وحلفاؤنا ، فلما ساروا قليلا سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا ظنوه القوم : أى ظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم ، أى فألقى الله الرعب فى قلوبهم فرجعوا على الصعب والذلول : أى مسرعين على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل خيبر ، أى وفى رواية سمعوا صوتا : أيها الناس أهليكم خولفتم إليهم ، فرجعوا فلم يروا لذلك نبأ .

ويدل للثانى أن غطفان لمـا قدموا عليه صلى الله عليه وسلم خيبر ، قال عيينة بن حصن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وجده صلى الله عليه وسلم فتح حصونها : أعطنا الذى وعـــدتنا .

وفى رواية : أعطنى مما غنمت من حلفائى ، فإنى امتنعت عنك وعن قتالك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وســـلم : كذبت ، ولـكن الصياح الذى سمعت أنفذك إلى أهلك ولـكن لك ذو الرقيبة ، قال عيينة : وما ذو الرقيبة ؟ قال الجبل الذى رأيت فى منامك أنك أخذته .

أى فإن عيينة بن حصن لمـا سمع الصوت ورجع إلى أهله ولم يجد شيئا رجع بعد ذلك بمن معه إلى خيبر وأنهم بالقرب منها عرّسوا من الليل ، فنام عيينة وانتبه وقال لقومه : أبشروا فإنى رأيت الليل فى النوم أنى أعطيت ذا الرقيبة وهو جبل بخيبر ، لقد والله أخذت برقبة محمد ، فلما قدم خيبر وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر الحديث . وقدم عليه صلى الله عليه وسلم حينئذ أيضا حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، والعلاط : وسم فى العنق ، وهو أبو نصر بن حجاج الذى نفاه عمر رضى الله عنه لمـا سمع أم الحجاج ابن يوسف الثقفى تهتف به وتقول الأبيات التى منها :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

ومن ثم قال عروة بن الزبير يوما للحجاج : يا ابن المتمنية يعيره بذلك، وكان الحجاج مكثرا من المال، فقال : يارسول الله إن مالى عنـــد امرأتى بمكة ومتفرق فى تجار مكة ، فأذن لى أن آتى مكة لآخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على أخذ شيء منه ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله لابد لى من أن أقول : أى أتقول وأذكر ما هو خلاف الواقع : أى ما أحتال به لما يوصل إلى أخذ مالى ، قال : قل ،قال : فخرجت حتى انتهيت إلى الحرم ، فإذا رجال من قريش يتشممون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إلى خيبر : أى أهل القوة والمنعة بعد ما وقع بينهم من المراهنة على مائة بعير فى أن النبى صلى الله عليه وسلم يغلب أهل خيبر أولا ، فقال جويطب ابن عبد العزى وجماعة بالأول ، وقال عباس بن مرداس وجماعة بالثانى ، فقالوا : حجاج عنده والله الخبر ، ولم يكونوا علموا بإسلامى : ياحجاج إنه قد بلغنا أن القاطع يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سار إلى خيبر ، فقلت : عندى من الخبر مايسركم ، فاجتمعوا علىّ يقولون : إيه يا حجاج ؟ فقلت لهم : لم يلق محمد وأصحابه قوما يحسنون القتل غير أهل خيبر ، فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها قط وأسر محمد وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فنقتله بين أظهرهم .

وفى لفظ : يقتلونه بمن كان أصاب من رجالهم ، فصاحوا وقالوا لأهل مكة : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . قال حجاج : وقلت لهم أعينونى على غرمائى ، أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ماهناك ، فجمعوا لى مالى على أحسن ما يكون ، ففشا ذلك بمكة وأظهر المشركون الفرح والسرور ، وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه ، فجعل لا يستطيع أن يقوم ، ثم بعث إلى حجاج غلاما وقال : قل له : يقول لك العباس : الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا ، فقال له حجاج : أقرئ على أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على مايسره ، واكتم عنى ، فأقبل الغلام ، فقال : أبشر أبا الفضل ، فوثب العباس فرحا كأن لم يمسه شيء وأخبره بذلك فأعتقه العباس رضى الله تعالى عنه وقال : لله علىّ عتق عشر رقاب .

فلما كان ظهرا جاءه حجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام ، أى وقال إنى أخشى

الطلب ، فإذا مضت ثلاث ، فأظهر أمرك ، فوافقه العباس على ذلك ، فقال : إنى قد أسلمت ، وإن لى مالا عند امرأتى ودينا على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إلىّ ، إنى تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها ، وتركته عروسا بابنة ملكهم حيى بن أخطب ، وقتل ابن أبى الحقيق .

فلما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس تلك الليالى الثلاث ، فلما مضى حجاج أى ومضت الثلاث عمد العباس رضى الله تعالى عنه إلى حلة فلبسها ، وتخلق بخلوق وأخذ بيده قضيبا ، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّبهم : لايصيبك إلا خير يا أبا الفضل ، هذا والله التجلد بحرّ المصيبة ، قال : كلا والله الذى حلفتم به لم يصبنى إلا خير بحمد الله ، أخبرنى حجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حيى بن أخطب لنفسه ، وأنه تركه عروسا بها ، أى وإنما قال ذلك لكم ليخلص ماله ، وإلا فهو ممن أسلم ، فرد الله الكآبة التى كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون : ألا يا عباد الله انفلت عدو الله ، يعنون حجاجا ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك هذا .

وفى الدلائل للبيهقى رحمه الله : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر قال حجاج ابن علاط : يا رسول الله إن لى بمكة مالا ، وإن لى بها أهلا . وأنا أريد أن آتيهم ، فأنا فى حل إن أنا نلت منك وقلت شيئا ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ماشاء ، فقال لامرأته حين قدم : أخفى علىّ ، واجمعى ماكان عندك ، فإنى أريد أن أشترى من غنائم محمد وأصحابه ، فإنهم قد استبيحوا ، وأصيبت أموالهم ، ففشا ذلك بمكة ، فاشتد ذلك على المسلمين ، وأظهر المشركون فرحا وسرورا ، وبلغ العباس رضى الله تعالى عنه الخبر ، فقعد وجعل لايستطيع أن يقوم ، فأرسل العباس رضى الله تعالى عنه غلاما له إلى الحجاج : ويلك ما تقول فالذى وعد الله خير مما جئت به ، فقال حجاج : ياغلام أقرئ أبا الفضل السلام ، وقل له : فليخل بى فى بعض بيوته فآتيه بالخبر على مايسره . فلما بلغ العبد باب الدار قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحا حتى قبل مابين عينيه ، فأخبره بقول حجاج فأعتقه . ثم جاء حجاج ، فأخبره بافتتاح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وغنم أموالهم ، وأن سهام الله قد جرت فيها ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اصطفى صفية

بنت حيي لنفسه ، وخيرها بين أن يعتقها وتكون له زوجة أو يلحقها بأهلها فاختارت أن يعتقهاوتكون له زوجة ،ولكن جئت لمالى ههنا أن أجمعه وأذهب به،وإنى استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول ، فأذن لى أن أقول ما شئت ، فأخف على يا أبا الفضل ثلاثا ثم اذكر ما شئت. قال: فجمعت له امرأتهمتاعه،فلما كان بعد ثلاث أتى العباس رضى الله تعالى عنه امرأة حجاج فقال : ما فعل زوجك ؟ قالت : ذهب، وقالت: لا يحزنك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذى بلغك ، فقال :أجل ، لايحزننى الله، فلم يكن لمحمد إلا ما أحب ، فتح الله على يد رسوله خيبر ، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه ، فإن كان لك فى زوجك حاجة فالحقى به ، قالت : أظنك والله صادقا ، قال : فإنى والله صادق ، والأمر على ما أقول . ثم ذهب حتى أتى مجلس قريش الحديث .

قال : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر كان التمر أخضر ، فأكثر الصحابة من أكله ، فأصابتهم الحمى ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بردوا لها الماء فى الشنان : أى القرب ، ثم صبوا عليكم منه بين أذانى الفجر ، واذكروا اسم الله عليه ، ففعلوا ، فذهبت عنهم .

وعن سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه : أصابتنى ضربة يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة بن الأكوع ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت منها ساعة .

وفى هذه الغزوة أراد صلى الله عليه وسلم أن يتبرز ، فقال لابن مسعود رضى الله تعالى عنه : يا عبد الله انظر هل ترى شيئا ؟ فنظرت فإذا شجرة واحدة فأخبرته ، فقال لى : انظر هل ترى شيئا ؟ فنظرت شجرة أخرى متباعدة من صاحبتها ، فأخبرته ، فقال : قل لها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركما أن تجتمعا ، فقلت لها ذلك فاجتمعا ، فاستتر بهما ، ثم قام فانطلقت كل واحدة إلى مكانها .

وفى الإمتاع عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما: سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته فاتبعته بإداوة من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير شيئا يستتر به فإذا بشجرتين بشاطئ الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها ،

فقال : انقادى علىّ باذن الله تعالى ، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها . فقال : انقادى علىّ باذن الله تعالى ، فانقادت معه كذلك ، حتى كان صلى الله عليه وسلم بالنصف مما بينهما ولأم بينهما ، وقال التئما علىّ باذن الله تعالى فالتأمتا ، قال جابر رضى الله تعالى عنه : فخلوت أحدّث نفسى ، فحانت منى التفاتة ، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا وإذا الشجرتان قد افترقتا وذهبت كل واحدة إلى محلها الحديث ، ولا بعد فى تعدد الواقعة .

ووقع له صلى الله عليه وسلم مجىء بعض الشجر إليه قبل أن يهاجر صلى الله عليه وسلم. فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى بعض شعاب مكة وقد دخله من الغم ماشاء الله من تكذيب قومه ، وقولهم له : تضلل آباءك وأجدادك يا محمد ، ومن خضبهم له بالدماء ، فقال : يا رب أرنى اليوم آية أطمئن إليها ولا أبالى بمن آذانى بعدها ، وكان ذلك الوادى به شجر ، فأمر أن يدعو شجرة من تلك الشجر . وفى لفظ : غصنا من أغصان شجرة فدعا ذلك فانتزع من مكانه وجاء إليه وسلم عليه ، ثم أمره صلى الله عليه وسلم بالعود فعاد إلى مكانه ، فحمد الله وطابت نفسه ، وعلم أنه على الحق وقال : لا أبالى بمن آذانى بعد هذا من قومى .

أقول : ووقع له صلى الله عليه وسلم إجابة الحجر . فعن تفسير الفخر الرازى أنه صلى الله عليه وسلم كان مع عكرمة بن أبى جهل بشط ماء ، فقال عكرمة للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقا فادع ذلك الحجر ، لحجر كان فى الجانب الآخر يسبح فى الماء ويجىء إليك ولا يغرق ، فأشار إليه صلى الله عليه وسلم ، فانقلع ذلك الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له بالرسالة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعكرمة : يكفيك هذا ، فقال حتى يرجع إلى مكانه ، فأشار إليه صلى الله عليه وسلم فرجع إلى مكانه ، ولم يسلم عكرمة فى ذلك الوقت ، وإنما أسلم يوم فتح مكة ، والله أعلم .

وعند خروجه صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغزوة أمر صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى من كان مضيعا أو ضعيفا أو مصعبا ، أى راكبا دابة صعبة فليرجع ، فرجع ناس ، وارتحل مع القوم رجل على بكر صعب أو ناقة صعبة ، فنفر مركوبه فصرعه ، فاندقت فخذه ، فمات ، فلما جىء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : ماشأن صاحبكم ؟ فأخبروه ،

قال : يابلال ماكنت أذنت فى الناس من كان مصعبا : أى راكبا دابة صعبة فليرجع ، قال : بلى ، فأبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى عليه ، وأمر صلى الله عليه وسلم بلالا فنادى فى الناس : الجنة لا تحلّ لعاص ثلاثا ، وفيها مات شخص من الصحابة ، فقال صلى الله عليه وسلم : صلوا على صاحبكم ، وامتنع من الصلاة عليه ، فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال : إن صاحبكم غلّ فى سبيل الله ، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز اليهود لا يساوى درهمين .

وفيها أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من المسلمين : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا أشدّ القتال ، فارتاب بعض الصحابة : أى كيف يكون من أهل النار مع هذه المقاتلة الشديدة . فلما كثرت الجراحات فى ذلك الرجل ووجد ألمها أخرج سهما من كنانته ونحر نفسه ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم يابلال فأذن « لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة » الحديث .

وفى رواية « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » وتقدّم فى غزوة أحد مثل ذلك . ولا بعد فى التعدد إن لم يكن من الاشتباه على الراوى .

أقول : فى سيرة الحافظ الدمياطى : لما فتحت خيبر واطمأن الناس جعلت زينب ابنة الحارث أخى مرحب ، وهى امرأة سلام بن مشكم تسأل : أى الشاة أحبّ إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون الذراع ، قيل : وإنما أحبّ صلى الله عليه وسلم الذراع لأنه هادى الشاة وأبعدها من الأذى ، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها ، ثم عمدت إلى سم لايلبث أن يقتل من ساعته فسمت الشاة وأكثرت فى الذراعين والكتف ، فلما غابت الشمس وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب بالناس انصرف وهى جالسة عند رحله ، فسأل عنها ، فقالت : يا أبا القاسم هدية أهديتها لك ، فأمر بها صلى الله عليه وسلم فأخذت منها فوضعت بين يديه صلى الله عليه وسلم وأصحابه حضور أو من حضر منهم ، وفيهم بشر بن البراء بن معرور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادنوا فقعدوا ، وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذراع فانتهش منه ، فلما ازدرد رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمة ازدرد بشر ما فى فيه وأكل القوم منها ، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ارفعوا أيديكم ، فإن هذه الذراع أو الكتف تخبرنى أنها مسمومة ، فقال بشر : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى ، أى لقمتى التى أكلت ، فما منعنى أن ألفظها إلا أن أنغص عليك طعامك ، فلما أكلت ما فى فيك لم أرغب بنفسى عن نفسك ، ورجوت أن لاتكون ازدردتها ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان أى أسود ، وماطله وجعه سنة لا يتحول إلا ما حول ثم مات .

وقال بعضهم : فلم يقم بشر من مكانه حتى توفى . أى والمتبادر من المكان مكان الأكل ، وربما يدل له عدم ذكر بشر فى الحجامة ، وطرح منها لكلب فمات اه ، أى فلم يأكل إلا بشر رضى الله تعالى عنه .

وحينئذ يكون المراد بقوله : وأكل القوم منها : أى أرادوا الأكل ، أى ووضعوا أيديهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « ارفعوا أيديكم » ويدل له ما يأتى عن الإمتاع . وفى الأصل أنها أهدتها لصفية رضى الله تعالى عنها ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور فقدمت إليهما تلك الشاة ، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتف ، وفى رواية الذراع ، فانتهش منه قطعة فلاكها ثم ألقاها : أى ولم يبتلعها ، أى وانتهش من الشاة بشر قطعة فابتلعها ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تناول شىء منها وقال إن كتف هذه الشاة تخبرنى أنى نعيت فيها ، فقال بشر : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فيما أكلته ، فامنعنى من لفظه إلا أنى أعظمت أن أنغصك طعاما ، فلم يقم بشر رضى الله تعالى عنه من مكانه حتى كان لايتحول إلا إن حول ، وإلى هذا أشار الإمام السبكى فى تائيته بقوله :

وأحييت عضو الشاة بعد مماتها فجاء بنطق موضح للنصيحة
وقال رسول الله لاتك آكلى فزينب سامتنى الهوان وسمت

وهذا يؤيد القول بأن كلام نحو الجماد يكون بعد أن يخلق الله فيه الحياة .

ومذهب الأشعرى رحمه الله أن الله يخلق فى نحو الجماد حروفا وصوتا يحدث ذلك فيه ، أى وليس من لازم ذلك وجود الحياة .

واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاهله ، أى حجمه أبو طيبة مولى بنى بياضة وقيل أبو هند وهو مولى بنى بياضة أيضا ، أى وأمر أصحابه فاحتجموا أوساط رءوسهم ، أى وهم كما فى الإمتاع ثلاثة نفر ، وضعوا أيديهم فى الطعام ولم يصيبوا منه شيئا . وفيه أنه

لا معنى لاحتجام أصحابه إذا لم يأكلوا شيئا ، ومن ثم قال فى سفر السعادة : واحتجم صلى الله عليه وسلم بين الكتفين فى ثلاثة مواضع ، وأمر من أكل أى من أراد أن يأكل معه بذلك ، إلا أن يقال مجرد وضع اليد ربما سرى بسببه السم إلى باقى الجسد ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحجامة فى الرأس هي المعينة ، أمرنى بها جبريل عليه السلام حين أكلت طعام اليهودية » .

وقد احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير هذه الواقعة مرارا فى محال مختلفة ، فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم احتجم على الأخدعين مرتين ، واحتجم وسط رأسه الشريف ، وكان يسميها منقذة أى وذلك لما سحر .

ففى [سفر السعادة] : لما سحره اليهودى ووصل المرض إلى الذات المقدسة النبوية أمر صلى الله عليه وسلم بالحجامة على قبة رأسه المباركة . واستعمال الحجامة فى كل متضرر بالسحر غاية الحكمة ونهاية حسن المعالجة ، ومن لاحظ له فى الدين والإيمان يستشكل هذا العلاج هذا كلامه .

ودخل عليه صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس وهو يحتجم فى القمحذوة ، فقال: يا ابن أبى كبشة لم احتجمت وسط رأسك ؟ فقال : يا ابن حابس إن فيها شفاء من وجع الرأس والأضراس والنعاس والجنون ، أى وفى الحديث « الحجامة فى الرأس شفاء من سبع : من الجنون والصداع والجذام والبرص والنعاس ووجع الضرس وظلمة يجدها فى عينيه » وفى الحديث « اجتنبوا الحجامة يوم الجمعة والسبت والأحد » وفى بعض الروايات « يوم الأحد شفاء » ويحتاج للجمع .

وجاء النهى عن الحجامة يوم الثلاثاء أشد النهى ، وقال « فيه ساعة لا يرقأ فيها الدم » وفى حديث بعض رواته واهى الحديث « احتجم صلى الله عليه وسلم ثلاثا فى النقرة والكاهل ووسط الرأس ، وسمى واحدة الدافعة والأخرى المعينة والأخرى المنقذة » وقال صلى الله عليه وسلم « خير ما تداويتم به الحجامة ، وما مررت ليلة أسرى بى بملأ من الملائكة إلا قالوا : يا محمد مر أمتك بالحجامة » .

قال فى الهدى : والحجامة فى البلاد الحارة أنفع من الفصد . والأولى أن تكون فى الربع الثالث من الشهر لأنه وقت هيجان الدم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعا «من احتجم لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين كانت شفاء من كل داء ، والحجامة على الريق دواء ، وعلى الشبع داء» .

وتكره فى الأربعاء والسبت ، قيل ويوم الجمعة . وفى الحديث «من احتجم يوم الأربعاء أو السبت وحصل له برص لا يلومنّ إلا نفسه» وجاء أمره صلى الله عليه وسلم باجتناب الحجامة يوم الأربعاء فإنه اليوم الذى أصيب فيه أيوب عليه السلام بالبلاء، ومايبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء وليلة الأربعاء .

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلك اليهودية فقال : أسممت هذه الشاة ؟ فقالت : من أخبرك ؟ قال : أخبرتنى هذه التى فى يدى وهى الذراع ، قالت : نعم ، قال : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : بلغت من قومى مالا يخفى عليك . أى وفى لفظ : قتلت أبى وعمى وزوجى ، ونلت من قومى ما نلت ، فقلت : إن كان ملكا استرحنا منه ، وإن كان نبيا فسيخبر ، فعفا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

ثم سمت له اليهودية الشا ة وكم سام الشقوة الأشقياء

فأذاع الذراع ما فيه من سم بنطق إخفاؤه إبداء

وبخلق من النبى كريم لم تقاصص بجرحها العجماء

أى ثم جعلت اليهودية السم القاتل لوقته فى الشاة، ومرات كثيرة يطلب الشقوة ويتحلى بها الأشقياء الذين لا خلاق لهم ، فأخبر ذلك الذراع النبى صلى الله عليه وسلم بالنطق بمافيه من السم ، إخفاء ذلك النطق عن الحاضرين إبداء وإظهار له صلى الله عليه وسلم ، وبسبب ما تحلى به صلى الله عليه وسلم من كمال الحلم والعفو لم يقاصص تلك المرأة بجرحها ، أى بجرح سمها ، لأن السم يجرح الباطن كما يجرح الحديد الظاهر .

فلما مات بشر رضى الله تعالى عنه أمر بها فقتلت ، أى وقيل وصلبت كما فى أبى داود وعبارة السهيلى رحمه الله : وقد روى أبو داود أنه قتلها ، ووقع فى كتاب [شرف المصطفى] أنه قتلها وصلبها هذا كلامه . وقيل إنما تركها لأنها أسلمت ، فالعفو عنها : أى عدم مؤاخذتها كان قبل أن يموت بشر رضى الله تعالى عنه ، فلما مات بشر دفعها صلى الله عليه وسلم إلى أولياء بشر فقتلوها .

وفى الإمتاع : واختلفت الآثار فى قتلها ، ففى صحيح مسلم أنه لم يقتلها ، وقال ابن

إسحاق أجمع أهل الحديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلها ، وقد علمت أنه لا مخالفة ، لكن قتلها مشكل على ما عليه أئمتنا معاشر الشافعية من أن من ضيف بمسموم يقتل غالبا مميزا فمات كان شبه عمد لا قود فيه .

وفى كلام بعضهم أنها قالت : قد استبان لى الآن أنك صادق ، وأنى أشهدك ومن حضر أنى على دينك ، وأن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فانصرف عنها حين أسلمت ، كذا فى جامع معمر عن الزهرى أنها أسلمت ، قال معمر : هكذا قال الزهرى إنها أسلمت والناس يقولون قتلها وإنها لم تسلم ، وأمر صلى الله عليه وسلم بتلك الشاة فأحرقت .

وفى رواية أنه بعد سؤال اليهودية واعترافها بسط صلى الله عليه وسلم يده إلى الشاة ، وقال لأصحابه : كلوا باسم الله ، فأكلوا وقد سموا الله فلم يضر ذلك أحدا منهم ، قال ابن كثير : وفيه نكارة وغرابة شديدة ، هذا كلامه .

ويذكر « أن أخت بشر بن البراء دخلت عليه صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه ، فقال لها : هذا أوان انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلت مع أخيك بخيبر » والأبهر : العرق المتعلق بالقلب .

وقد قسم صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر ؛ فأعطى الراجل سهما ، والفارس ثلاثة أسهم بعد أن خمسها خمسة أجزاء ؛ ومن جملة من أعطاه صلى الله عليه وسلم أبو سبيعة بن المطلب ابن عبدمناف واسمه علقمة ، ولم يقسم صلى الله عليه وسلم لمن غاب من أهل الحديبية إلا لجابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما . ورضخ صلى الله عليه وسلم للنساء ، أى وكن عشرين امرأة ، فيهن صفية عمته صلى الله عليه وسلم وأم سليم وأم عطية الأنصارية .

وعن بعضهم قالت « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة ، فقلت : يارسول الله قد أردن الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا ، فقال : على بركة الله ، قالت : فخرجنا معه ، فلما افتتح خيبر رضخ لنا وأخذ هذه القلادة ووضعها فى عنقى ، فوالله لا تفارقنى أبدا ، وأوصت أنها تدفن معها » . زاد فى السيرة الهشامية «أنها قالت : وكنت جارية حديثة السن ، فأردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيبة رحله ، قالت : فلما كان الصبح وأناخ راحلته ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا بها دم منى وكانت أول حيضة حضتها . قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه

وسلم حالى قال : مالكِ ؟ لعلكِ نفست ، قالت : قلت نعم ، قال : فأصلحى من نفسك ، ثم خذى إناء من ماء فاطرحى فيه ملحا ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم ، ثم عودى لمرتحلك » قالت : فكنت لا أطهر من حيضة إلا جعلت فى طهرى ملحا ، وأوصت أن يجعل ذلك فى غسلها حين ماتت .

ثم دفع صلى الله عليه وسلم لأهل خيبر الأرض لما قالوا له صلى الله عليه وسلم : نحن أعلم بها منكم ، وأعمرها بشرط ما يخرج منها من تمر أوزرع ، وقال لهم : على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . أى وهذا يخالف ما عليه أئمتنا من أنه لا يجوز فى عقد الجزية أن يقول الإمام أو نائبه : أقركم ما شئنا ، بخلاف ماشئتم ، لأنه تصريح بمقتضى العقد ، لأن لهم نبذ العقد ما شاءوا . وذكر أئمتنا أنه يجوز منه صلى الله عليه وسلم لامنا أن يقول: أقررتكم ماشاء الله لأنه يعلم مشيئة الله دوننا ، والشطر فى هذا ظاهر فى النصف ، ولم أقف على تعيينه فى رواية .

وكان صلى الله عليه وسلم يرسل إلى أهل خيبر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه خارصا . قيل وإنما خرص عليهم عبدالله عاما واحدا ؛ ثم مات ، وهذا يخالفه قول بعضهم : كان عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه يأتيهم كل عام يخرصها يعنى الثمار عليهم ثم يضمنهم الشطر ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدّة خرصه ، وأرادوا أن يرشوه ، فقال : يا أعداء الله تطعمونى السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ ، ولأنتم أبغض إلىّ من القردة والخنازير، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض ، وكان يخرص عليهم بعده جبار بن صخر ، وكان خارصا لأهل المدينة .

أقول : أى ساقاهم على النخل ، وزارعهم على الأرض ، هكذا استدل بذلك أئمتنا على ما ذكر : أى على جواز المساقاة ، وجواز المزارعة تبعا لها ، ويكون ذلك مخصصا للنهى عن المزارعة : أى مالم تكن تبعا للمساقاة ، وهو لا يتم إلا إن كانت أرض خيبر جميعها بين النخل بحيث يعسر سقيها بدون النخل ، وأنه صلى الله عليه وسلم دفع لهم بذرا لأن فى المزارعة يجب أن يكون البذر من المالك لا من العامل .

ولم أقف فى شىء من الطرق على أنه صلى الله عليه وسلم دفع لهم بذرا ، بل ظاهر الروايات يدل على أن البذر معهم ، وصرحت به رواية مسلم .

ويبعد أن تكون أراضى خيبر كلها كانت بين النخل بحيث يعسر سقيها بدون النخل، وحينئذ يكون الواقع فى خيبر إنما هى المخابرة ، وهى المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها والبذر من العامل، وهى باطلة عندنا ، بل قيل عند المذاهب الأربعة ولو تبعا للمساقاة ، والله أعلم .

ثم إن الصديق رضى الله تعالى عنه أقرهم بعده صلى الله عليه وسلم ، ثم أقرهم عمر رضى الله تعالى عنه إلى أن خرج ولده عبد الله رضى الله تعالى عنهما فى خلافة أبيه إلى خيبر ، فعدى عليه من الليل ففدعت يداه ورجلاه ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه خطيبا ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامل أهل خيبر على أموالهم : أى أرضهم ونخلهم ، وقال لهم نقركم على ما أقركم الله ، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل ففدعت يداه ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم . وقد رأيت إجلاءهم أى ووافقه الصحابة على ذلك ، فإن عمر رضى الله تعالى عنه قام خطيبا فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إن يهود فعلوا بعبـــد الله بن عمر ما فعلوا ، وفعلوا بمطهر ابن رافع ما فعلوا مع عدوانهم على عبد الله بن سهيل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أشك أنهم أصحابه ، وأنا أريد أن أجلو يهود ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقركم ما أقركم الله ، وقد أذن الله فى إجلائهم ، فقام طلحة بن عبيد الله ، فقال : قد والله أحسنت يا أمير المؤمنين ووفقت ، فهم أهل سوء ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : من معك على مثل رأيك ؟ قال المهاجرون جميعا والأنصار ، فسر بذلك عمر رضى الله تعالى عنه .

وقوله وفعلوا بمطهر ما فعلوا ، أى لأن مطهر بن رافع قدم خيبر بأعلاج من الشام عشرة عبيد له ليعملوا له بأرضه ، فأقام بخيبر ثلاثة أيام ، فقال لهم رجل من يهود : أنتم نصارى ونحن يهود ، وهذا سيدكم من قوم عرب قهرونا بالسيف ، وأنتم عشرة رجال ورجل واحد يسوقكم إلى الجهد والبؤس وتـكونون فى رق شديد ، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه ، فقالوا له : ليس معنا سلاح ، فدست اليهود لهم سكينتين أو ثلاثة ، فلما خرجوا من خيبر أقبلوا على مطهر بسكاكينهم ، فخرج مطهر يعدو إلى سيفه ، وكان فى قرابه على راحلته ، فأدركوه قبل الوصول إليه وبعجوا بطنه ، ثم انصرفوا سراعا حتى دخلوا

خيبر على يهود فآووهم وزودوهم إلى الشام ، وجاء عمر رضى الله تعالى عنه الخبر بقتل مطهر وما صنعت به يهود .

وقوله مع عدوانهم على عبد الله بن سهيل، أى فإنه وجد قتيلا فى خيبر لأهل حصن الشق، فسألهم أخوه محيصة ، فقالوا له : لا والله مالنا به من علم ، قال : فجئت أنا وأخى عبد الرحمن وأخى حويصة وهو أكبرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أخى عبد الرحمن يتكلم وهو أصغرنا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كبر كبر فسكت ، فأردت أن أتكلم ، فقال : كبر كبر فسكت ، فتكلم أخى حويصة ، وذكر أن اليهود تهمتنا وظنتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إما أن يدوا صاحبكم ، وإما أن يأذنوا بحرب ، وكتب صلى الله عليه وسلم إليهم فى ذلك ، وكتبوا إليه : ما قتلناه ، فقال صلى الله عليه وسلم لى ولأخوىّ : تحلفون خمسين يمينا وتستحقون دم صاحبكم ؟ فقلنا : يا رسول الله لم نحضر ولم نشهد ، قال : فتحلف لكم يهود ؟ قلنا : يا رسول الله ليسوا بمسلمين ، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده بمائة ناقة : خمس وعشرين جذعة وخمس وعشرين حقة ، وخمس وعشرين ابنة لبون ، وخمس وعشرين بنت مخاض .

وعن ابن المسيب رحمه الله : كانت القسامة فى الجاهلية ، ثم أقرها صلى الله عليه وسلم فى الإسلام فى الأنصارى الذى وجد قتيلا فى جبّ من جباب يهود ، فلما أجمع الصحابة على ذلك : أى على ما أراده سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ، جاءه أحد بنى الحقيق ، فقال : يا أمير المؤمنين أتخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه وسلم وعاملنا على أموالنا وشرط ذلك لنا؟ فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : أظننت أنى نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لك « كيف بك إذا أخرجت من خيبر يعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟ » فقال : هذه كانت هزيلة من أبى القاسم ، فقال كذبت يا عدو الله ، ثم بلغه رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبقى دينان فى جزيرة العرب. » وقوله « لأخرجن اليهود والنصارى » وفى لفظ « المشركين من جزيرة العرب. » وفى رواية « آخر ما تكلم به النبى صلى الله عليه وسلم : أخرجوا اليهود من الحجاز » وفى لفظ « إن عشت أخرجت اليهود والنصارى من الحجاز » أى وهو مكة والمدينة واليمامة وطرقها وقراها كالطائف لمكة ، وخيبر للمدينة ، والمراد بجزيرة العرب الحجاز المشتملة عليه ، أى فالمراد بجزيرة العرب بعضها وهو الحجاز خاصة ، لأن عمر لما أجلاهم ذهب بعضهم إلى تيما ، وبعضهم

إلى أريحا، وتيما من جزيرة العرب لكنها ليست من الحجاز، وقيل له حجاز لأنه حجز بين نجد وتهامة . ففحص عمر رضى الله تعالى عنه عن ذلك حتى تيقنه وثلج صدره فأجلى يهود خيبر ، أى وأعطاهم قيمة ما كان لهم من ثمر وغيره .

وأجلى يهود فدك ونصارى نجران ، فلا يجوز إقامتهم بذلك أكثر من ثلاثة أيام غير يومى الدخول والخروج ، ولم يخرج يهود وادى القرى وتيما لأنهما من أرض الشام لا من الحجاز .

ثم ركب فى المهاجرين والأنصار ، وخرج معه جبار بن صخر ويزيد بن ثابت فقسما خيبر على أصحاب السهمان التى كانت عليها كما قسمت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر أصاب حمارا أسود ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اسمك ؟ قال : يزيد بن شهاب ، أخرج الله من نسل جدّى ستين حمارا كلهم لا يركبهم إلا نبى ، وقد كنت أتوقعك لتركبنى لم يبق من نسل جدى غيرى ، ولم يبق من الأنبياء غيرك ، قد كنت لرجل يهودى فكنت أتعثر به عمدا ، وكان يجيع بطنى ويضرب بظهرى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : فأنت يعفور ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه إلى باب الرجل فيأتى الباب فيقرعه برأسه ، فإذا خرج صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ألقى نفسه فى بئر جزعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات : قال ابن حبان : هذا خبر لا أصل له وإسناده ليس بشىء . وقال ابن الجوزى : لعن الله واضعه فإنه لم يقصد إلا القدح فى الإسلام والاستهزاء به . وقد قال شيخنا العماد بن كثير هذا شىء باطل لا أصل له من طريق صحيح ولا ضعيف ، وسألت شيخنا المزى رحمه الله فقال : ليس له أصل وهو ضحكة ، وقد أودعه كتبهم جماعة منهم القاضى عياض فى الشفاء والسهيلى فى روضه ، وكان الأولى ترك ذكره ، ووافقه على ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى وغفر لنا وله وللمسلمين .

غزوة وادى القرى

ثم عند منصرفه صلى الله عليه وسلم من خيبر أتى وادى القرى وأهله يهود ، فدعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا : أى برز رجل منهم فقتله الزبير رضى الله تعالى عنه ، فبرز آخر فقتله على كرم الله وجهه ، ثم برز آخر فقتله أبو دجانة رضى الله تعالى عنه ، فقاتلهم المسلمون إلى المساء ، وقتل منهم أحد عشر رجلا ، ففتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنوة ، وغنمه الله أموال أهلها ، وأصاب المسلمون منهم أثاثا ومتاعا ، فخمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك الأرض والنخيل فى أيدى أهلها . أى من بقى منهم ، وعاملهم على نحو ماعامل عليه أهل خيبر . وفى لفظ : ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهود وترك فى أيديهم أراضى وادى القرى والبساتين والحدائق ، يعملون فيها ويأخذون الأجرة . وقيل حاصرهم ليالى ، ثم انصرف راجعا إلى المدينة . فعلى الأول تضم للغزوات التى وقع فيها القتال .

ولما بلغ أهل تيما ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل خيبر وفدك ووادى القرى صالحوه صلى الله عليه وسلم على الجزية ، فأقاموا ببلادهم وأرضهم فى أيديهم : قال : وقتل عبده صلى الله عليه وسلم الأسود الذى كان يرحل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينما هو يحط رحله صلى الله عليه وسلم جاءه سهم فقتله ، فقال الناس : هنيئا له الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها من خيبر من الغنائم قبل أن تقسم تشتعل عليه نارا انتهى .

ولما قرب من المدينة سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليلة ، فلما كان قبيل الصبح نزل وعرس وقال : ألا رجلا حافظا لعينه يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ، فقال بلال رضى الله تعالى عنه : أنا يارسول الله أحفظه عليك ، وفى لفظ قال : يابلال اكلأ لنا الليل ، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقام بلال رضى الله تعالى عنه يصلى ما شاء الله ، ثم استند إلى بعير واستقبل الفجر يرمقه ، فغلبته عينه فنام ، فلم يستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم حتى ضربتهم الشمس ، وكان أول من استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماصنعت يا بلال

قال : يارسول الله أخذ بنفسي الذى أخذ بنفسك ، قال : صدقت ، أى وتبسم صلى الله عليه وسلم . وفى رواية : أنه صلى الله عليه وسلم التفت إلى أبي بكر الصديق وقال له : إن الشيطان أتى بلالا وهو قائم يصلى ، فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي حتى نام ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا ، فأخبر بلال رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم الصديق ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أشهد أنك رسول الله.

ثم سار صلى الله عليه وسلم بالناس يقود بعيره غير كثير ، ثم أناخ ، فتوضأ وتوضأ الناس وأمر بلالا فأقام الصلاة . وفى رواية : فاقتادوا رواحلهم . وفى رواية : فاستيقظ القوم وقد فزعوا ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادى وقال : هذا واد به شيطان، فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادى ، الحديث. فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها ، فإن الله تعالى يقول (وأقم الصلاة لذكرى) . وفى رواية : إن الله قبض أرواحنا ، ولوشاء ردها إلينا فى حين غير هذا ، فاذا رقد أحدكم عن الصلاة أو نسيها ، ثم فزع إليها فليصلها فى وقتها ، أى وقيل إن ذلك كان فى مرجعه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وقيل فى مرجعه من حنين ، وقيل فى مرجعه من تبوك . قال فى الإمتاع : وهذا لايصح لأن الآثار الصحاح على خلافه ، أى دالة على أن ذلك كان فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من وادى القرى .

وقد يقال : لا مانع من التعدد ، ويدل للقول بأن ذلك كان فى مرجعه من الحديبية ما جاء عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه « أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية » وفى رواية « لما انصرفنا من غزوة الحديبية قال النبي صلى الله عليه وسلم : من يحرسنا الليلة ؟ فقلت : أنا يارسول الله ، قال : إنك تنام ، ثم أعاد : من يحرسنا الليلة ؟ فقلت : أنا حتى أعاد ذلك مرارا وأنا أقول أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت ، قال : فحرستهم حتى إذا كان وجه الصبح أدركنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك تنام فنمت ، فما أيقظنا إلا حر الشمس فى ظهورنا » وسيأتى فى تبوك عن الحافظ ابن حجر اختلاف العلماء فى التعدد .

وكان بين الحديبية وعمرة القضاء ، إسلام خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة الحجبي رضى الله تعالى عنهم . وقيل كان بعد عمرة القضاء ، ويشهد له

ماجاء عن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه أنه قال : لما أراد الله عز وجل ما أراد بى من الخير قذف فى قلبى الإسلام وحضرنى رشدى ، وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس موطن أشهده إلا انصرف ، وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شيء وأن محمدا صلى الله عليه وسلم يظهر ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء تغيبت ولم أشهد دخوله ، فكان أخى الوليد بن الوليد دخل معه صلى الله عليه وسلم فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلىّ كتابا ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد — فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد ، قد سألنى عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أين خالد ، فقلت : يأتى الله به ، فقال : مامثله يجهل الإسلام ، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك ياأخى ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة ، فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة ، فلما اجتمعنا للخروج إلى المدينة لقيت صفوان ، فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ظهر على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا ، قال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا ، قلت : هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر ، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال مثل الذى قاله صفوان ، قلت : فاكتم ذكر ما قلت لك ، قال : لا أذكره . ثم لقيت عثمان بن طلحة : أى الحجبى ، قلت : هذا لى صديق ، فأردت أن أذكر له ثم ذكرت من قتل من آبائه : أى قتل أبيه طلحة وعمه عثمان، أى وقتل إخوته الأربع مسافع والجلاس والحارث وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد كما تقدم فكرهت أن أذكرله ، ثم قلت : وما علىّ : فقلت له : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لوصب فيه ذنوب من ماء لخرج ، ثم قلت له : ماقلته لصفوان وعكرمة ، فأسرع الإجابة ، فواعدنى إن سبقنى أقام فى محل كذا، وإن سبقته إليه انتظرته ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة : اسم محل ، فنجد عمرو بن العاص بها ، فقال : مرحبا بالقوم ، فقلنا وبك ، أين مسيركم؟ قلنا : الدخول فى الإسلام ، قال : وذلك الذى أقدمنى . وفى لفظ قال عمرو لخالد : يا أبا سليمان أين تريد؟ قال : والله لقد استقام الميسم : أى تبين الطريق وظهر الأمر ، وإن هذا الرجل

لنبي فأذهب فأسلم ، فحتى متى ؟ قال عمرو : وأنا ماجئت إلا لأسلم ، فاصطحبنا جميعا حتى دخلنا المدينة الشريفة ، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا ؛ أي وقال ' رمتكم مكة بأفلاذ كبدها ، فلبست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول فلقيني أخي ، فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سر بقدومكم وهو ينتظركم فأسرعنا المشي ، فاطلعت عليه فما زال صلى الله عليه وسلم يتبسم إلى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير . قلت : يارسول الله ادع الله لى أن يغفرلى تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الإسلام يجب ما كان قبله » أي وتقدم عثمان وعمرو فأسلما .

وفى رواية عن عمرو بن العاص قال : قدمنا المدينة فأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا ثم نودى بالعصر ، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه صلى الله عليه وسلم وإن لوجهه تهللا والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا ؛ فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت فوالله ماهو إلا أن جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه صلى الله عليه وسلم ، قال : فبايعته على أن يغفرلى ماتقدم من ذنبي ولم يحضرنى ما تأخر ، فقال : « إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها » فوالله ماعدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من الصحابة فى أمر حزبه منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر رضى الله تعالى عنه بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر رضى الله تعالى عنه بتلك الحالة ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه على خالد كالعاتب ، وتقدم أن عمرا رضى الله تعالى عنه أسلم على يد النجاشي رضى الله تعالى عنه .

قال بعضهم : وفى إسلام عمرو على يد النجاشي لطيفة وهى صحابى أسلم على يد تابعى ، ولا يعرف مثله . ومن حين أسلم خالد رضى الله تعالى عنه لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوليه أعنة الخيل فيكون فى مقدمها ، والله أعلم .

عمرة القضاء أى ويقال لها عمرة القضية

أى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضى قريشا عليها ؛ أى صالحهم عليها ، ومن ثم قيل لها عمرة الصلح ، ويقال لها عمرة القصاص . قال السهيلى رحمه الله : وهذا الاسم أولى بها ، لقوله تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فتحصل من أسمائها أربعة: القضاء ، والقضية ،والصلح،والقصاص: أى لأنها كانت فى شهر ذى القعدة من السنة السابعة ، أى وهو الشهر الذى صدّه فيه المشركون عن البيت منها سنة ست ، وليست قضاء عن العمرة التى صدّ عن البيت فيها . فإنها لم تكن فسدت بصدهم له عن البيت ، بل كانت عمرة تامة معدودة فى عمره صلى الله عليه وسلم التى اعتمرها صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، وهى أربعة : عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، وعمرة الجعرّانة لما قسم غنائم حنين ، والعمرة التى قرنها مع حجه فى حجة الوداع بناء على ماهو الراجح من أنه كان قارنا ، وكلها فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجه .

وقد مكث صلى الله عليه وسلم فى مكة ثلاث عشرة سنة لم ينقل عنه أنه اعتمر خارجا من مكة إلى الحلّ فى تلك المدة أصلا ، ولم يفعل هذا على عهده صلى الله عليه وسلم إلا عائشة رضى الله تعالى عنها كما سيأتى فى حجة الوداع .

وكون العمرة لاتفسد بالصدّ إنما هو على مايراه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه . أما على من يرى أن العمرة تفسد بالصدّ عنها ، وأنه يجب قضاؤها كما هو المنقول عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، فواضح أنها قضاء ، وهذه العمرة ليست من الغزوات ، وإنما ذكرها البخارى فيها ، لأنه صلى الله عليه وسلم خرج مستعدا بالسلاح للمقاتلة خشية أن يقع من قريش غدر ، وليس من لازم الغزو وقوع المقاتلة ، ومن ثم قيـل لها غزوة الأمن

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدا مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشا فى الحديبية ، أى من أنه يدخل مكة فى العام القابل معه سلاح المسافر ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام .

وفى أنس الجليل مايفيد أن اشتراط الثلاثة أيام كان فى عمرة القضاء ، ففيه : ثم خرج

رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرا عمرة القضاء ، فأبى أهل مكة أن يدعوه صلى الله عليه وسلم يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم ثلاثة أيام ، وأن لايخرج من أهلها أحد إن أراد أن يتبعه ، وأن لايمنع من أصحابه أحدا أن يقيم بها وأصحابه كانوا ألفين ، أى وأمر أن لايتخلف عنه أحد ممن شهد الحديبية ، فلم يتخلف أحد إلا من استشهد فى خيبر ومن مات ، وخرج معه جمع ممن لم يشهد الحديبية ، واستخلف على المدينة أباذر الغفارى وقيل غيره ، وساق ستين بدنة وقلدها : أى جعل فى عنق كل بعير قطعة من جلد أو نعلا بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه ، ولم يذكر هنا الإشعار ، أى وجعل عليها ناجية ابن جندب .

قال : وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم السلاح والدروع والرماح ، وقاد مائة فرس عليها محمد بن مسلمة رضى الله عنه ، أى وعلى السلاح بشير بوزن أمير بن سعد ، وأحرم صلى الله عليه وسلم من باب المسجد ، فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه فقيل: يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا أن لاندخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافر السيوف فى القرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منا ، فان هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبا منا ، فمضى بالخيل محمد بن مسلمة ، فلما كان بمر الظهران وجد نفرا من قريش فسألوه ، فقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله ، أى وقد رأوا سلاحا كثيرا ، فخرجوا سراعا حتى أتوا قريشا فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش وقالوا : ما أحدثنا حدثا : وإنا على كتابنا ومدتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه .

ثم إن قريشا بعثت مكرز بن حفص فى نفر من قريش إليه صلى الله عليه وسلم ، فقالوا والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم أن لاتدخل إلا بسلاح المسافر السيوف فى القرب ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى لا أدخل عليهم بسلاح ، فقال مكرز : هو الذى تعرف به البر والوفاء ، ثم رجع مكرز إلى مكة سريعا وقال : إن محمدا لايدخل بسلاح وهو على الشرط الذى شرط لكم انتهى .

فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراؤهم من مكة حتى لايروه صلى الله عليه وسلم

يطوف بالبيت هو وأصحابه عداوة وبغضا وحسدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة ، أى راكبا ناقته القصواء وأصحابه محدقون به ، قد توشحوا السيوف يلبون ، ثم دخل من الثنية التى تطلعه على الحجون وهى ثنية كداء بالمد، أى وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة قال : اللهم لاتجعل منيتنا بها، يقول ذلك من حين يدخل حتى يخرج منها ، أى وجعل صلى الله عليه وسلم السلاح فى بطن ناجح ، موضع قريب من الحرم ، وتخلف عنده جمع من المسلمين ؛ أى نحو مائتين من أصحابه عليهم أوس بن خولى ، وقعد جمع من المشركين بجبل قينقاع ينظرون إليه صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت ، وقد قالوا : أى كفار قريش : إن المهاجرين أوهنتهم : أى أضعفتهم حمى يثرب . وفى لفظ قالوا : يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ماقالوا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة فأمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، أى ليروا المشركين أن لهم قوة :أى فعند ذلك قال المشركون ؛ أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا ، إنهم لينفرون : أى يثبون نفر الظبى : أى الغزال ، وإنما لم يأمرهم صلى الله عليه وسلم بالرمل فى الأشواط كلها رفقا بهم ، واضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة رضى الله تعالى عنهم كذلك ، وهذا أول رمل واضطباع فى الإسلام .

وأقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثلاثة أيام ،فلما تمت الثلاثة التى هى أمد الصلح جاء حويطب بن عبد العزى ومعه سهيل بن عمرو رضى الله تعالى عنهما — فإنهما أسلما بعد ذلك — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرانه بالخروج هو وأصحابه من مكة ،فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا ماخرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه منها ، وكان صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها ؛ أى وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهى أخت أم الفضل زوج العباس رضى الله تعالى عنهما ، وأخت أسماء بنت عميس لأمها زوج حمزة رضى الله تعالى عنه ، وكان تزوجه صلى الله عليه وسلم ميمونة قبل أن يحرم بالعمرة ، وقيل بعد أن أحل منها ، وقيل وهو محرم ، أى وهو ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ورواه الدارقطنى من طريق ضعيف عن أبى هريرة

رضى الله تعالى عنه ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان قد بعث إليها جعفرا رضى الله عنه ليخطبها، ولما انتهت إليها خطبة النبى صلى الله عليه وسلم كانت على بعيرها ، فقالت : البعير وما عليه لله ولرسوله ، أى ومن ثم قيل إنها التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم . وقيل جعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وقيل جعلت أمرها لأم الفضل أختها فجعلت أمّ الفضل أمرها للعباس فزوجها العباس وأصدقها عنه صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم ، ولا مانع من نكاحه صلى الله عليه وسلم وهو محرم ، فإن من خصائصه صلى الله عليه وسلم حلّ عقد النكاح فى الإحرام .

أى وفى كلام السهيلى ، كان من شيوخنا من يتأول قول ابن عباس : تزوجها محرما : أى فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام ، ولم يرد الإحرام بالحج ، أى كما أراد ذلك الشاعر بقوله فى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ورعا فلم أر مثله مقتولا

أى فى شهر حرام ، فإنه قتل فى أيام التشريق هذا كلام السهيلى .

قال ابن كثير رحمه الله: وفيه نظر لأن الروايات عن ابن عباس رضى الله عنهما متضافرة بخلاف ذلك التى منها تزوجها وهو محرم هذا كلامه .

وعن ابن المسيب : غلط ابن عباس ، أو قال : وهم ابن عباس ، ما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم إلا وهو حلال ، ومن ثم روى الدارقطنى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال ، قال السهيلى : فهذه الرواية عن ابن عباس موافقة لرواية غيره ، فقف عليها فإنها غريبة عن ابن عباس .

وذكر بعض فقهائنا « أنه صلى الله عليه وسلم وكل أبا رافع رضى الله تعالى عنه فى نكاح ميمونة رضى الله تعالى عنها » وفى بعض السير ، وعن أبى رافع قال « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو حلال وبنى بها وهو حلال ، وأنا الرسول بينهما » رواه البيهقى والترمذى والنسائى ، وأراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى بها فى مكة فلم يمهلوه يبنى بها ، قال : وقد قال لهم « ما عليكم لو تركتمونى فأعرستُ بين أظهركم ، فصنعت لكم طعاما ؟ فقالوا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا من أرضنا ، هذه الثلاثة قد مضت » وفى لفظ « قال لهم : إنى قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم أن مكثت

حتى أدخل بها وأصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا » وفى رواية «جاءوا إليه صلى الله عليه وسلم فى قبته التى نصبها بالأبطح ، وذلك وقت الظهر ، وقيل وقت الصبح » ولا مخالفة لجواز مجيئهم له فى الوقتين . وعند مجيئهم له صلى الله عليه وسلم كان مع الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة ، فصاح حويطب : ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث ، فغضب سعد بن عبادة رضى الله عنه لما رأى من غلظ كلامهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لذلك القائل : كذبت لا أمّ لك ، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، أى وفى لفظ قال : يا عاضّ بظر أمه أرضك وأرض أمك دونه، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا يبرح منها إلا طائعا راضيا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا سعد لا تؤذ قوما زارونا فى رحالنا، وأسكت الفريقين . ثم إنه صلى الله عليه وسلم أمر أبا رافع رضى الله تعالى عنه أن ينادى بالرحيل ولا يمسى بها أحد من المسلمين وخلف أبا رافع ليأتى له بميمونة حين يمسى ، فخرج بها ، ولقيت ميمونة رضى الله تعالى عنها من سفهاء مكة عناء .

فعن أبى رافع رضى الله تعالى عنه : لقينا عناء من أهل مكة من سفهاء المشركين من أذى ألسنتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ولميمونة ، فقلت لهم : ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح ببطن ناجح وأنتم تريدون نقض العهد والمدة ، فولوا راجعين منكسين ، وأقام صلى الله عليه وسلم بسرف بكسر الراء : وهو محل بين مساجد عائشة وبطن مرو ، وهو أقرب إلى مساجد عائشة ، وفيه دخل صلى الله عليه وسلم بميمونة : أى تحت شجرة هناك، وكان محل موتها ودفنها ، دفنت فيه بعد ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم أخبرها بأنها لا تموت بمكة ، فلما ثقل عليها المرض وهى بمكة قالت : أخرجونى من مكة فإنى لا أموت بها ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنى بذلك ، فحملوها حتى أتوا بها ذلك الموضع فماتت به ودفنت به ، أى وهى آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر من توفى من أزواجه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن .

وحين دخوله صلى الله عليه وسلم مكة أخذ عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه بغرزه : أى ركابه صلى الله عليه وسلم أى وقيل بزمام الناقة ، وهو رضى الله تعالى عنه وعنا وعن المسلمين يقول من أبيات :

خلوا بني الكفار عن سبيله　　خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله　　بأن خير القتل في سبيله
فاليوم نضربكم على تأويله　　كما ضربناكم على تنزيله
وفي لفظ : نحن قتلناكم على تأويله　　كما قتلناكم على تنزيله
وما قيل : نحن قتلناكم على تأويله　　كما ضربناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله　　أو يذهل الخليل عن خليله

قال عمار بن ياسر يوم صفين: لايمنع أن يكون ذلك من كلام ابن رواحة رضى الله تعالى عنه وتمثل به عمار رضى الله تعالى عنه .

أى وأما ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: أنا أقاتل على تنزيل القرآن وعلى يقاتل على تأويله ، فقال فيه الدارقطني رحمه الله تفرد به بعض الرافضة .

قال : وذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: مه يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خل عنه ياعمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل .

وذكر أنه صلى الله عليه وسلم قال: إيها يا ابن رواحة : « قل لاإله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده » فقالها وقالها الناس ، أى وفى الإمتاع : وكان ابن رواحة يرتجز فى طوافه وهو آخذ بزمام الناقة ، فقال عليه الصلاة والسلام : إيها ياابن رواحة « قل : لاإله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده » فقالها وقالها الناس،وطاف صلى الله عليه وسلم على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه .

وذكر أنه صلى الله عليه وسلم دخل البيت ، فلم يزل به حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة ، فقال عكرمة بن أبى جهل : لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم : يعنى والده أبا جهل، حيث لم يسمع هذا العبد يقول مايقول . وقال صفوان بن أمية : الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا ، وقال خالد بن أسيد : الحمد لله الذى أذهب أبى ولم يشهد هذا اليوم ، حيث يقوم بلال ينهق فوق الكعبة ، وسهيل بن عمرو لما سمع ذلك غطى وجهه ، وكل هؤلاء أسلموا بعد ذلك رضى الله تعالى عنهم .

قال بعضهم : وكون ماذكر : أى من دخوله صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة وأذان

بلال رضى الله تعالى عنه فوق ظهرها كان فى عمرة القضاء خلاف المشهور، إذ المشهور أن ذلك كان فى يوم الفتح ، ويدل لذلك ماقيل : لم يدخل صلى الله عليه وسلم الكعبة وأنه أراد ذلك فأبوا وقالوا لم يكن فى شرطك ، فأمر بلالا فأذن فوق ظهر الكعبة مرة واحدة ولم يعد بعدها ، قال الواقدى: فى هذا القيل إنه أثبت .

أقول : ويؤيد الأوّل ماجاء « دخلت الكعبة ولو استقبلت من أمرى مااستدبرت مادخلتها ، إنى أخاف أن أكون قد شققت على أمّتى من بعدى » أى لاتخاذهم ذلك سنة ، إلا أن يقال يجوز أن يكون ذلك كان منه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، وينبغى أن يكون هذا من أعلام النبوة ، فإن الناس يحصل لهم من التعب بسبب دخولها سيما زمن الموسم مالا يعبر عنه من المتاعب والأمور الفظيعة ، والله أعلم .

ثم سعى صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة ، أى وأوقف الهدى عند المروة، وقال « هـذا المنحر وكل فجاج مكة منحر فنحر عندها وحلق » ولم أقف على من حلق رأسه الشريف فى هذه العمرة . ثم رأيته فى الإمتاع قال : حلقه معتمر بن عبد الله العدوى وفعل كفعله صلى الله عليه وسلم المسلمون ، أى ومن لم يجد منهم بدنة رخص له فى البقرة، وكان قدم رجل مكة ببقر فاشتراه الناس منه ، وأمر صلى الله عليه وسلم من تحلل أن يذهب إلى السلاح ويأتى آخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا .

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة تبعته عمارة ،أى وقيل اسمها أم أبيها ، وقيل أمامة ، وقيل أمة الله ، قال ابن عبد البر : والمثبت أمامة ، وأمها سلمى بنت عميس بنت عمه حمزة رضى الله تعالى عنه تنادى : ياعم ياعم ، أى وفى لفظ : أن أبا رافع خرج بها فتناولها على كرم الله وجهه ، فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك،فلما وصلوا المدينة اختصم فيها علىّ وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهم ، فقال زيد ابن حارثة رضى الله تعالى عنه : أنا أحق بها،لأنها بنت أخى أى وأنا وصيه،لأنه صلى الله عليه وسلم آخى بين حمزة وزيد ، أى وجعل حمزة رضى الله تعالى عنه وصيه . وقال على كرم الله وجهه: أنا أحق بها لأنها ابنة عمى وجئت بها من مكة . وقال جعفر رضى الله تعالى عنه : أنا أحق بها لأنها بنت عمى وخالتها تحتى ، أى وهى أسماء بنت عميس فقضى بها صلى الله عليه وسلم لجعفر رضى الله تعالى عنه ، وقال « الخالة بمنزلة الأم » هذا .

وفى الإمتاع « وكلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى عمارة بنت حمزة رضى الله تعالى عنهما ، وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة ، فقال: علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين؟ وإنه لما قضى بها لجعفر رضى الله تعالى عنه حجل جعفر حول النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذا ياجعفر ؟ فقال : يارسول الله كان النجاشى إذا أرضى أحدا قام فحجل حوله ، وفيه أنه فعل مثل ذلك بخيبر . وما بالعهد من قدم . إلا أن يقال يجوز أن يكون فى خيبر فعل ذلك ولم يره النبى صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ « لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » وفيه تقديم الخالة فى الحضانة على العمة ، لأن عمتها صفية رضى الله تعالى عنها كانت موجودة ، وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه فى هذا الموطن « أنت أخى وصاحبى » وفى لفظ « أنت منى وأنا منك » وقال صلى الله عليه وسلم لجعفر رضى الله تعالى عنه « أشبهت خلقى وخلقى » أى وقد تقدم منه صلى الله عليه وسلم ذلك له فى خيبر ، وقال صلى الله عليه وسلم لزيد رضى الله تعالى عنه « أنت أخى ومولاى » وفى لفظ « أنت مولى الله ومولى رسوله صلى الله عليه وسلم » .

غزوة مؤتة

بضم الميم وبالهمزة ساكنة وبترك الهمزة : موضع معروف عند الكرك . وفى كلام السهيلى مؤتة مهموز الفاء ، وأما الموتة بلا همزة فضرب من الجنون ، وفى الحديث « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى صلاته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من همزه ، ونفخه ، ونفثه » وفسره راوى الحديث فقال: نفثه: السحر ، ونفخه : الكبر ، وهمزه: الموتة ، هذا كلامه .

كانت هذه الغزوة فى جمادى الأولى سنة ثمان . وكان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى هرقل عظيم الروم بالشام ، أى فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، أى وهو من أمراء قيصر على الشام ، فقال : أين تريد ، لعلك من رسل محمد ؟ قال نعم ، فأوثقه ربطا ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد الأمر عليه ، فجهز جمعا من أصحابه وعدتهم ثلاثة آلاف وبعثهم إلى

مقاتلة ملك الروم ، وأمر عليهم زيد بن حارثه وقال وإن أصيب زيدفجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس» .

قال : وفى رواية « فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم» وقد حضر ذلك المجلس رجل من يهود فقال : يا أبا القاسم إن كنت نبيا يصاب جميع من ذكرت لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بنى إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلا على القوم وقال إن أصيب فلان لا بد أن يصاب ، أى ولو عدّ مائة أصيبوا جميعا ، ثم صار يقول لزيد : اعهد فلن ترجع إلى محمد أبدا إن كان نبيا ، وزيد يقول أشهد أنه نبي ، وعقد صلى الله عليه وسلم لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم نهاهم أن يأتوا مؤتة فغشيتهم ضبابة فلم يبصروا حتى أصبحوا على مؤتة انتهى .

وودعهم الناس وقالوا لهم : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين . قال : ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف فقال : أى بعد قوله « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ، ولاصغيرا ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا بناء » انتهى ، وقال لهم المسلمون : دفع الله عنكم ، وردكم غانمين ، فمضوا حتى نزلوا من أرض الشام ؛ فبلغهم أن هرقل ملك الروم فى مائة ألف من الروم وانضم إليه من قبائل العرب أى المتنصرة : أى من بنى بكر ولخم وجذام مائة ألف . وفى رواية : كانوا مائتى ألف من الروم وخمسين ألفا من العرب ومعهم من الخيول والسلاح ماليس مع المسلمين وكان المسلمون ثلاثة آلاف كما مر ، فلما بلغهم ذلك أقاموا فى ذلك المحل ليلتين ينظرون فى أمرهم ، أهل يبعثون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بعدد عدوهم ؟ فإما أن يمدهم برجال ، أو يأمرهم بأمر فيمضوا إليه ، فشجعهم عبد الله بن رواحة ، وقال لهم : ياقوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإنما هى

إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة ، أى فقال الناس : صدق والله ابن رواحة ، فمضوا للقتال . فلقيتهم جموع هرقل ملك الروم من الروم والعرب ، فانحاز المسلمون إلى مؤتة . فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى لواؤه حتى قتل رضى الله تعالى عنه فأخذ الراية جعفر رضى الله تعالى عنه وقاتل على فرس أشقر ثم نزل عنه وعقره ، أى وهو أول رجل من المسلمين عقر فرسه ، وأول فرس عقر فى سبيل الله ، عقره خوفا أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين ، ومن ثم لم ينكر عليه أحد من الصحابة ، وبه استدل من جوّز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به الكفار وتقاتل عليه المسلمين ، ثم قاتل رضى الله تعالى عنه فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره ، فاحتضن الراية فأخذ الراية وقاتل حتى قتل رضى الله تعالى عنه ، فأخذها عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه وتقدم بها وهو على فرسه وجعل يتردد فى النزول عن فرسه ، ثم نزل وقاتل حتى قتل ، أى وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون . وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه يقول : ياقوم يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا [ ] فأخذ الراية ثابت بن أرقم رضى الله تعالى عنه وقال : يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت . فقال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . أى ويقال إن ثابت بن أرقم دفعها إلى خالد رضى الله تعالى عنه وقال : أنت أعلم بالقتال منى . أى فقال له خالد: أنت أحق به منى ، لأنك ممن شهد بدرا . ثم أخذها خالد رضى الله تعالى عنه ومانع القوم وثبت ، ثم انحاز كل من الفريقين عن الآخر من غير هزيمة على أحدهما .

قال : وفى رواية قاتلوا المشركين حتى هزموهم . فعند ابن سعد أن خالدا رضى الله تعالى عنه لما أخذ اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا وأظهر الله المسلمين .

قيل وسبب ذلك أن خالدا رضى الله تعالى عنه لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقة وساقته مقدمة ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فظن المشركون مجىء مدد للمسلمين فرعبوا وانهزموا فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم . ويجوز أن يكون ذلك بعد انحياز المسلمين ، فلا منافاة بين الروايتين ، وكانت مدة القتال سبعة أيام .

وروى البخارى عن خالد رضى الله تعالى عنه قال : اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف. وما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية انتهى : وأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فأخبر به أصحابه ، أى فإنه لما اطلع على ذلك نادى فى الناس : الصلاة جامعه ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان. وقال «أيها الناس باب خير باب خير باب خير ثلاثا. أخبركم عن جيشكم هذا الغازى ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد رضى الله تعالى عنه شهيدا فاستغفروا له . ثم أخذ الراية جعفر رضى الله تعالى عنه فشد على القوم حتى قتل شهيدا فاستغفروا له . ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره » وفى لفظ « ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، نعم عبد الله ، وأخو العشيرة ، وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين من غير إمرة حتى فتح الله عليهم» .

قال وفى رواية «أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره . فمن يومئذ سمى خالد سيف الله » وفى لفظ « ثم أخذ اللواء سيف من سيوف الله تبارك وتعالى ففتح الله على يديه » .

وعن عبد الله بن أبى أوفى قال « اشتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله ، فقال : يارسول الله إنهم يقعون فى فأرد عليهم ، فقال : لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار » قال بعضهم : وكون هذا نصرا وفتحا واضح لإحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم لأنهم كانوا مائتى ألف والصحابة ثلاثة آلاف أى كما تقدم ؛ إذ كان مقتضى العادة أن يقتلوا بالكلية .

وفى رواية أصاب خالد رضى الله عنه منهم مقتلة عظيمة ، وأصاب غنيمة ، وهذا لا يخالف ما يأتى أن طائفة منهم فروا إلى المدينة لما عاينوا كثرة جموع الروم فصار أهل المدينة يقولون لهم : أنتم الفرارون إلى آخر ما يأتى . وعن أسماء بنت عميس رضى الله عنهما ، أى زوج جعفر رضى الله عنه قالت « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أصيب جعفر وأصحابه ، فقال ائتينى ببنى جعفر فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه أى وبكى حتى نقطت لحيته الشريفة ، فقلت : يارسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن

جعفر وأصحابه شيء ؟ قال نعم ، أصيبوا هذا اليوم ، فقمت أصيح واجتمع علىّ النساء : أي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : يا أسماء لا تقولى هجرا ولا تضربى خدا ، وجاء إليه صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يارسول الله إن النساء عيين وفتنّ ، قال : فارجع إليهن فأسكتهن ، فذهب ثم رجع ، فقال له مثل الأول وقال نهيتهنّ فلم يطعننى ، فقال اذهب فأسكتهن ، فإن أبين فاحث فى أفواههن التراب ، وقال صلى الله عليه وسلم اللهم قد قدم ، يعنى جعفرا إلى أحسن الثواب فاخلفه فى ذريته بأحسن ماخلفت أحدا من عبادك فى ذريته ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله وقال : لاتغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاما فانهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » انتهى .

أى وفى لفظ «دخل صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله عنها وهى تقول : واعماه ، فقال صلى الله عليه وسلم على مثل جعفر فلتبك الباكية » وفى لفظ « البواكى » ثم قال صلى الله عليه وسلم «اصنعوا لآل جعفر طعاما ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم » وفى رواية «فإنهم قد شغلهم ماهم فيه» .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهما «أن سلمى مولاة النبى صلى الله عليه وسلم عمدت إلى شعير فطحنته ونسفته ثم طبخته وأدمته بزيت ، وجعلت عليه فلفلا ، قال عبد الله رضى الله عنه : فأكلت من ذلك الطعام ، وحبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع إخوتى » وفى لفظ « أنا وأخى فى بيته ثلاثة أيام ، ندور معه صلى الله عليه وسلم كلما صار فى بيت إحدى نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا » وهذا الطعام الذى فعل لآل جعفر رضى الله عنهم ، قال السهيلى هو أصل فى طعام التعزية وتسميه العرب الوضيمة ، كما تسمى طعام العرس الوليمة ، وطعام القادم من السفر النقيعة ، وطعام البناء الوكيرة .

قال عبد الله رضى الله عنه : « ودعا لى صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم بارك له فى صفقة يمينه ، فما بعت شيئا ولا اشتريت شيئا إلا بورك لى فيه» .

ولما قدم عليه صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بخبر الجيش قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن شئت فأخبرنى ، وإن شئت فأخبرتك ، قال : فأخبرنى يارسول الله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم كله ووصف له ، فقال : والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفا واحدا لم تذكره ، وإن أمرهم لكما ذكرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معركتهم ، أى وحين رأى

ذلك صلى الله عليه وسلم ، قال قد حمى الوطيس : أى حميت الحرب واشتدت ، وقال صلى الله عليه وسلم : «مثل لى جعفر وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فى خيمة من در كل واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابن رواحة فى أعناقهما صدودا : أى اعتراضا ، ورأيت جعفرا مستقيما ليس فى عنقه صدود ، فسألت ، فقيل لى : إنهما حين غشيهما الموت أعرضا بوجههما ، وأما جعفر فانه لم يفعل» .

وعن قتادة رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما قتل زيد أخذ الراية جعفر رضى الله عنه ، فجاءه الشيطان لعنه الله فحبب اليه الحياة وكرّه إليه الموت ومناه الدنيا ثم مضى حتى استشهد رضى الله عنه .

قال وفى رواية «رأيتهم أى فيما يرى النائم» وفى رواية : «لقد رفعوا إلىّ أى فى الجنة فيما يرى النائم على سرير من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه : أى انحرافا ؟ فقلت مم هذا ؟ فقيل لى : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى» انتهى . أى فإنه كما تقدم صار يستنزل نفسه ويتردد فى النزول بعض التردد .

وفى لفظ «دخل عبد الله بن رواحة الجنة معترضا ، فقيل : يارسول الله ما اعتراضه ؟ : قال : لما أصابته الجراحة نكل ، فعاتب نفسه فتشجع فاستشهد» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله أبدل جعفرا بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء» .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : وجدنا فيما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح . وفى لفظ : طعنة ورمية . وفى لفظ آخر : ضربه رومى فقده نصفين ، فوجدوا فى إحدى شقيه بضعة وثمانين جرحا ، وفيما أقبل من بدنه اثنين وسبعين ضربة بسيف وطعنة برمح . أى وقيل أربعا وخمسين ورواية التسعين أثبت . قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أتيته وهو مستلق آخر النهار فعرضت عليه المساء ، فقال . إنى صائم فضعه فى ترسى عند رأسى ، فإن عشت حتى تغرب الشمس أفطرت ، قال : فمات صائما قبل غروب الشمس شهيدا وعمره إحدى وأربعون سنة ، وقيل ثلاث وثلاثون سنة ، وفيه أنه تقدم أنه كان أسن من علىّ بعشر سنين ، وكان عقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وكان طالب أسن من عقيل بعشر سنين .

ثم رأيت ابن كثير رحمه الله ، قال : وعلى ماقيل إنه كان أسن من على بعشر سنين

يقتضى أن عمره يوم قتل تسع وثلاثون سنة ، لأن عليا كرم الله وجهه أسلم وهو ابن ثمان سنين على المشهور ، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر وعمره إحدى وعشرون سنة ، ويوم مؤتة كان فى سنة ثمان من الهجرة ، وكونه رضى الله عنه مات صائما لا يناسب كونه شق نصفين .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه إلى السماء فقال : وعليكم السلام ورحمة الله، فقال الناس: يارسول الله ما كنت تصنع هذا، قال مر بى جعفر بن أبى طالب فى ملأ من الملائكة فسلم علىّ » .

ولما دنا الجيش من المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، ولقيهم الصبيان ينشدون ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على دابة ، فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطونى ابن جعفر ، فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « هنيئا لك ، أبوك يطير مع الملائكة فى السماء » وفى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « دخلت البارحة الجنة فرأيت فيها جعفر بن أبى طالب يطير مع الملائكة » وفى رواية «يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوضه الله تعالى من يديه » وروى « جناحان من ياقوت » أى وذكر السهيلى رحمه الله أن الجناحين عبارة عن صفة ملكية وقوة روحانية أعطيهما جعفر رضى الله عنه يقتدر بهما على الطيران ، لا أنهما جناحان كجناح الطائر كما يسبق للوهم . أى لأن الصورة الآدمية أشرف الصور ، أى ولا يضر فى ذلك وصفهما بأنهما من ياقوت ولا كونهما مضمخين بالدم ، وصار المسلمون يحثون فى وجوههم التراب ويقولون لهم يافراررون ، فررتم فى سبيل الله ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بل هم الكرارون . وفى لفظ : إنهم قالوا : يارسول الله نحن الفارون ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنتم العكارون : أى الكرارون ، وهو دليل على أنه كان بينهم محاجزة وترك للقتال .

وعن بعض الصحابة: لما قتل ابن رواحة رضى الله عنه انهزم المسلمون رضى الله عنهم أسوأ هزيمة ثم تراجعوا ، ولقد لقوا من أهل المدينة لما رجعوا شرا ، حتى إن الرجل يجىء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه ، فيأبون يفتحون له ويقولون له : هلا تقدمت مع أصحابك؟ فقتلت، حتى إن نفرا من الصحابة رضى الله عنهم جلسوا فى بيوتهم استحياء ، كلما خرج

واحد منهم صاحوا به ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل إليهم رجلا رجلا . ثم يقول : أنتم الكرارون فى سبيل الله. ويعنون بالفرار انحيازهم مع خالد رضى الله عنه حين انحاز العدو عنهم؛ وإنما انحاز خالد رضى الله عنه لترتيبه العسكر ، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم خالدا رضى الله عنه على ذلك وأثنى عليه . وقتل رجل من المسلمين رجلا من الروم ، فأراد أخذ سلبه فمنعه خالد رضى الله عنه ، فلما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قال لخالد : ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ قال: استكثرته عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادفعه له .

وكان عوف بن مالك رضى الله عنه كلم خالدا فى دفع ذلك لذلك الرجل قبل أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مر خالد بعوف بن مالك أطلق لسانه فى خالد رضى الله عنه وقال له : أما ذكرت لك ذلك ونحوه ؟، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال لخالد : لا تعطه ياخالد ، هل أنتم تاركون لى أمرائى ؟ .

وفيه أن القاتل استحق السلب فكيف منعه . وأجيب بأنه يجوز أن يكون دفعه له بعد، وانما أخر دفعه تعزيرا لعوف رضى الله عنه حين أطلق لسانه فى خالد ، وانتهك حرمته ، وتطييبا لقلب خالد رضى الله عنه للمصلحة فى إكرام الأمراء ، وهذا السياق يدل على أن الجيش كله رضى الله عنهم قيل لهم الفرارون وإنما كان لطائفة من الجيش فروا إلى المدينة لما رأوا من كثرة العدو فليتأمل .

وعد هذه غزوة تبعت فيه الأصل ، والحق أنها ليست من الغزوات بل من السرايا الآتى ذكرها لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فيها ، والله أعلم .

انتهى الجزء الثانى

ويليــه

الجزء الثالث وأوله :

فتح مـكة شرفها الله تعالى

فهرست

الجزء الثانى من كتاب إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون

صحيفة

صحيفة


Bibliotheca Alexandrina
0589161
